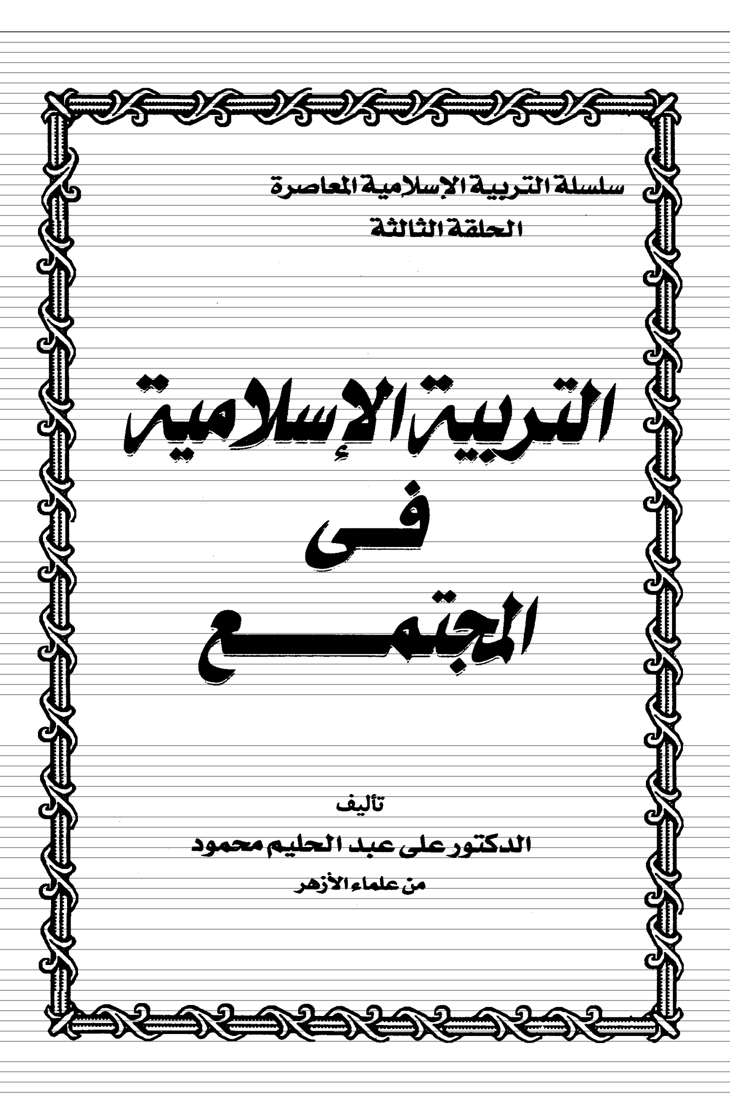


سلسلة التربية الإسلامية المعاصرة

الحلقة الثالثة

التربية الإسلامية في المجتمع

تأليف

الدكتور علي عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

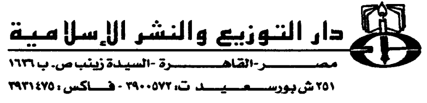
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٨٨٠٨

الترقيم الدولي: I.S.B.N
977 - 265 - 560 - 8



مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

إهداء

●● *إلى* الذين يعملون فى صمت، ويحتسبون عند الله تعالى أجر ما يقومون به من فكر وعمل وجهاد فى مجالات التربية ومؤسساتها، متخذين من القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ مصدراً ورافداً، يمدهم ويزودهم بالقيم التربوية الصحيحة الصائبة.

●● *وإلى* الذين يرغبون أن يعرفوا عن التربية الإسلامية ما لا يسع المربِّىَ جهلُه.

●● *وإلى* القائمين على أمور المؤسسات التربوية الإسلامية: البيت، والمسجد، والمدرسة، والنادى، والجماعات والجمعيات الأهلية، وسائر مفردات المجتمع المدنى...

●● *إلى* كل أولئك أقدم هذا الكتاب: «التربية الإسلامية فى المجتمع» سائلاً الله تبارك وتعالى أن ينفعهم به، وأن يكون عونًا لهم على القيام بما يقومون به من جهود فى التربية الإسلامية.

على عبد الحليم محمود



بين يدى هذه السلسلة

الحمد لله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة، والصلاة والسلام على خاتم رسله المبعوث للبشرية كلها هدى ورحمة ومعلمًا مربيًّا، وعلى من اتبعوا النور الذى أنزل معه.

وبعد:

فإن هذه السلسلة: «مؤسسات التربية الإسلامية» المتمثلة فى: البيت، والمسجد، والمدرسة، والمجتمع؛ شغلنى البحث فيها والحديث عنها والكتابة فيها منذ زمن باكر فى حياتى، منذ زمن الشباب؛ إذ شاء الله تعالى لى أن يكون عملى الدعوة إلى الله فى المسجد والمدرسة والجامعة، والمجتمع، وحبب إلىّ القراءة والبحث والخطبة والمحاضرة، والكتابة والتأليف؛ فوقفت حياتى العلمية على ذلك، ومع ما هيأ الله تعالى لى من أسباب - على رأسها التوفيق - فقد ألَّفت فى هذا المجال أكثر من أربعين كتابًا، صدرت فى سلاسل هى:

- سلسلة: التربية فى القرآن الكريم؛ صدرت فى سبعة كتب.
- وسلسلة: مفردات التربية الإسلامية؛ صدرت فى عشرة كتب.
- وسلسلة: فقه الدعوة إلى الله؛ صدرت فى سبعة كتب.
- وسلسلة: فى الفكر الإسلامى وقضاياه، صدرت فى ثمانية كتب.
- وسلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا؛ صدرت فى عشرة كتب.
- وهذه السلسلة: مؤسسات التربية الإسلامية، صدرت فى أربعة كتب، هذا الكتاب آخرها.

- وقد صدرت هذه الكتب جميعها أثناء ممارستى لأعمال التربية الإسلامية والدعوة إلى الله والحركة بالدين الحق فى الناس وفى الآفاق، ففى كل عمل قمت به، وفى كل بلد زرته؛ كان اهتمامى منصبًا على كل ما يتصل بالتربية الإسلامية، وبالدعوة إلى الله تعالى والحركة بالدين الحق فى كل تلك البلدان.
- وقد أتاح الله تعالى لى أن أزور أو أعمل فى عدد غير قليل من بلدان آسيا، وأفريقيا، وأن أزور عددًا من بلدان أوروبا، وأن أزور أمريكا وكندا...

• وفى جميع هذه الظروف والأعمال أجدنى مشدودًا بل مهتمًا بكل ما له صلة بالتربية الإسلامية، والدعوة إلى الله والحركة بالدين الحق.

• وهذه الكتب جميعها كانت ضرورية لسدِّ حاجة المسلمين الذين كنت أزورهم للدعوة إلى الله والحركة بالدين الحق، أو للمشاركة فى التربية الإسلامية وقضاياها ومشكلاتها.

• هذه السلسلة: «مؤسسات التربية الإسلامية» صدر منها:

- كتاب: تربية الناشىء المسلم، ليتحدث عن البيت المسلم بوصفه أول مؤسسة تربوية إسلامية.

- وكتاب: «المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى» ليتحدث عن المسجد بوصفه مؤسسة تربوية إسلامية، بالإضافة إلى وظيفته الأساسية، وهى أداء الصلوات فيه.

- وكتاب: «التربية الإسلامية فى المدرسة» بوصفها من أهم المؤسسات التربوية بمختلف أنواعها ومتعدد مراحلها التى تدخل فيها الجامعة.

- وهذا الكتاب: «التربية الإسلامية فى المجتمع الإسلامى»، بوصفة المؤسسة التربوية الأم التى تستوعب البيت والمسجد والمدرسة.

• وهذه المؤسسات التربوية الأربع: البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع، ما حظيت من الباحثين والمؤلفين بما هى أهل له من حيث أهميتها التربوية، وأحسب أننى قد اهتممت بها بهذه الكتب نوعًا من الاهتمام، أرجو أن يأجرنى الله عليه فى الدنيا بانتفاع المسلمين بما فيه، وفى الآخرة بمغفرة الذنوب والتجاوز عن الخطأ والتقصير والقصور، إنه سبحانه السميع المجيب.

• وهذه المؤسسات الأربع تَلْقَى من كيد أعداء الإسلام وحربهم شيئًا كثيرًا يستهدف:

صرف هذه المؤسسات التربوية عن وظيفتها.

وإصابة البيت بالعجز عن التربية الإسلامية.

وإبعاد المدرسة عن التربية الإسلامية بذاتها، وجعلها فى قصور عن التعليم الصحيح.
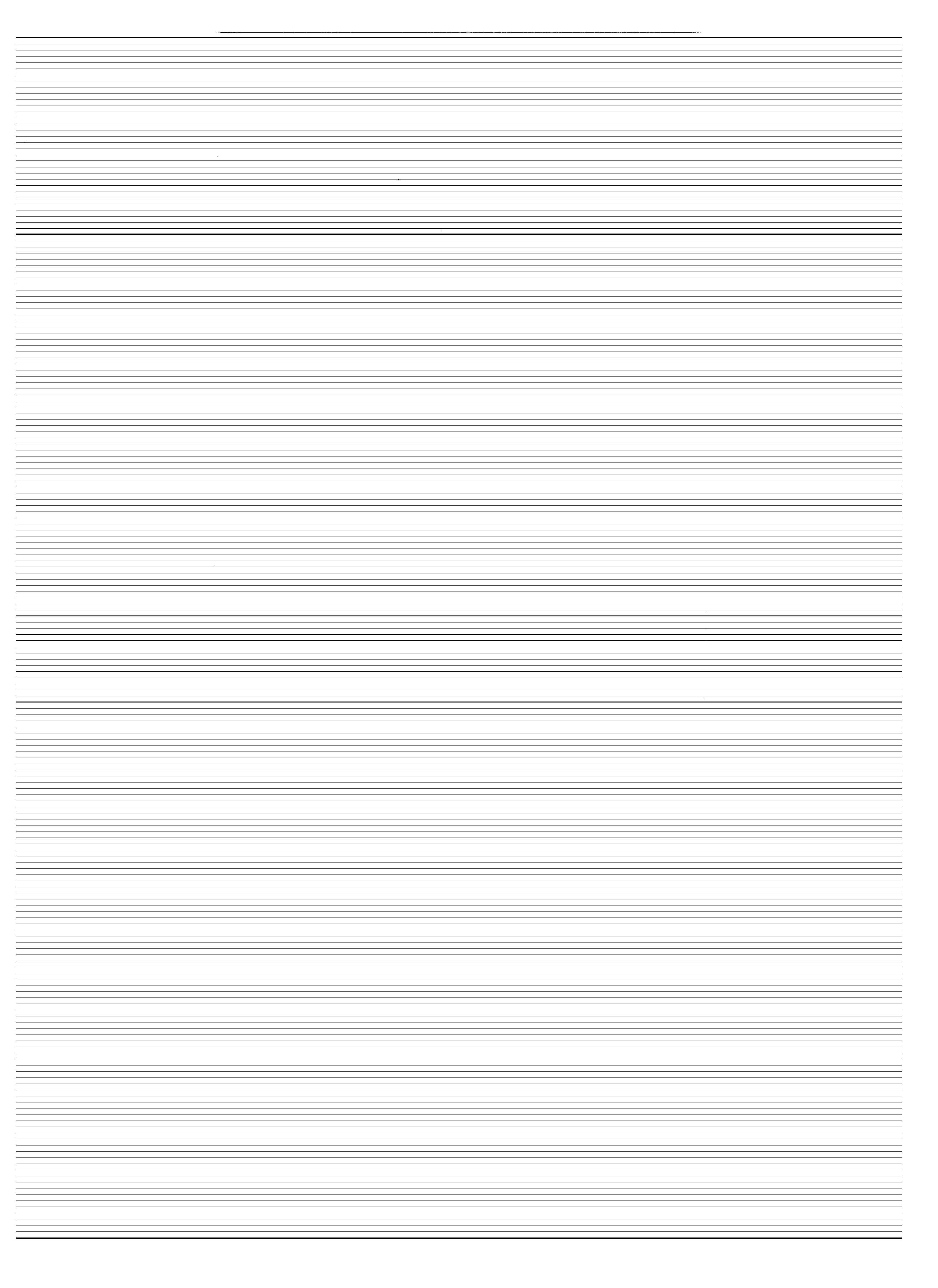
وكيدهم وحربهم لا يعرف التوانى ولا الإهمال، ولهم فى ذلك وسائلهم التى كشفنا عن كثير منها فى هذه السلسلة.

• وبعـد أن انتهيـت من تأليف هذا الكتاب الرابع الأخـير من هذه السلـسلة: «مؤسـسات التربية الإسلامـية» أتوجه بالشكر إلى الله تعالى وحمـده والثناء عليه أن وفق وأعان على إكمال هذه السلاسل السِّت.

• غير أن كتابا هيأتُ نفسي لتأليفه وحشدت له من الأسباب ما أسأل الله تعالى العون عليه والتوفيق في إصداره هو كتاب: «علم النفس في الإسلام».

• والله تعـالى أسـأل أن ينفع بهـذه السلسلة الأخـيـرة كل راغب في أن يمارس في بيـتـه ومسجده ومدرسـتـه ومجتمعه التربية الإسلامـية التي تجعل من الناس صالحين فالحين في دنياهم وأخراهم، إنه سبحانه على ما يشاء قدير.

*****



بين يدي هذا الكتاب

هذا الكتاب: «التربية الإسلامية في المجتمع» هو آخر كتب هذه السلسلة: «مؤسسات التربية الإسلامية» أسأل الله أن يجزيني عن تأليفه كفاء ما أخلصت فيه وما بذلت من جهد.

● وقد أقمت هذا الكتاب على: مدخل وثلاثة أبواب.

– تضمن المدخل تعريفًا وتحديدًا لمعاني بعض المصطلحات ذات الصلة بموضوع الكتاب مثل:

المجتمع الأبوي.

والمجتمع الأموي.

والمجتمع البدائي.

والمجتمع المدني.

والمجتمع وعلم الاجتماع.

والباب الأول: المجتمع ومقوماته:

وتناول هذا الباب مقومات المجتمع التي يراها علماء الاجتماع وفيه فصلان:

الفصل الأول: الغربيون ومقومات المجتمع:

وحدة الجنس بوصفها مقومًا من مقومات المجتمع.

وحدة البيئة بوصفها عنصرًا من عناصر مقومات المجتمع.

والمقوم الاقتصادي للمجتمع.

ومقوم العادات والتقاليد.

والقومية بوصفها من مقومات المجتمع.

والفصل الثاني: الدين والعلم ومقومات المجتمع.

أولاً: الدين.

ثانيًا: العلم.

والباب الثانى: المجتمع الإسلامى سماته وخصائصه:

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: سمات وخصائص ثابتة فى المجتمع الإسلامى.

والفصل الثانى: سمات وخصائص لا ينبغى أن توجد فى المجتمع الإسلامى.

والفصل الثالث: سمات وخصائص تتغير بتغير الزمان والمكان.

والباب الثالث: أهداف المجتمع الإسلامى ووسائله وجعلته من فصلين:

الفصل الأول: الأهداف وقد حصرتها فى سبعة هى:

- تطبيق منهج الله ونظامه تطبيقًا عمليًا فى حياة الناس.
- وصيانة المجتمع الإسلامى عن كل ما يعرضه للخطر داخليًا وخارجيًا.
- وتحقيق الأمن فى داخل المجتمع وفى خارجه.
- وممارسة الحقوق فى المجتمع والإلزام بأداء الواجبات.
- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين الناس.
- وتحقيق الوحدة بين المسلمين.
- وتأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى.

والفصل الثانى: وسائل المجتمع الإسلامى فى تحقيق أهدافه:

- التربية.
- والدعوة والحركة.
- والجهاد فى سبيل الله تعالى.

وقد جعلت هذا الباب «أهداف المجتمع الإسلامى ووسائله» صُلْب هذا الكتاب، ومحوره، فجاء أوسع أبواب الكتاب.

ثم ختمت الكتاب بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد ﷺ الذى بعث رحمة للعالمين، ومعلمًا ومربيًا للإنسانية كلها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

مدخل الكتاب

تعريف ببعض المصطلحات

مدخل الشيء موضع دخـوله، أو حسن دخوله، أى أن الكتاب يُدْخل إليـه بمعرفة هذه المصطلحات التى تتصل بموضوعه، أو يحسن الدخول إليه بمعرفة هذه المصطلحات.

ومن هذه المصطلحات:

- المجتمع فى معناه العام:

هذه الكلمة تعنى: جماعـة من الناس يعيشون معًا فى منطقة مـعينة، بحيث تجمع بينهم جوامع عديدة مثل:

- الثقافة المشتركة التى تتمايز عن ثقافات غيرهم.
- والشعور بأنهم وحدة متماسكة.
- والإحساس بأن لهم كيانًا يميزهم عن سواهم.
- والمعايير الاجتماعية الواحدة.
- والنظم الاجتماعية المشتركة بينهم التى يواجهون بها معظم حاجاتهم الإنسانية، فيحصلون عليها.
- والاشتـمال على جميع الأشكال التـنظيمية الضـرورية، التى تكفل لهم أسباب حـياتهم ومتطلباتها.

هذا تعريف عام للمجتمع الإنسانى فى أى زمان وأى مكان.

- والمجتمع فى علم الاجتماع:

المجتـمع فى علم الاجتمـاع: حقيـقة متـميزة تقابل الـفرد، وللمجـتمع عندهم ظواهر خاضعة لقوانين ثابتة كالظواهر «الفيزيقية» مثلاً.

- الظواهر الاجتماعية:

هى نماذج من التفكير والعـمل والإحساس تسود مجتـمعًا من المجتمعـات، بحيث يجد الأفراد أنفسهم مجبرين على اتباعها فى عملهم وتفكيرهم.

- المجتمع فى أبعاده التاريخية:

الأبعاد التاريخية للمجتمع الإنسانى بعيدة الأغوار، قديمة فى تاريخه، ذات أطوار عديدة، جاء بعضها بعد بعض أو واكب بعضها بعضًا، ومن أجل هذا اختلف حديث علماء الاجتماع عن المجتمع عن حديث الفلاسفة عنه، وكل منهما تحدث حديثًا ضافيًا، لا نستطيع أن نذكره كله، ولكنا نجتزئ منه ما يناسب حديثنا عنه بوصفه مصطلحًا:

* فمن أقوال علماء الاجتماع عن المجتمع:

أنه عنوان على مجموعة من الروابط الظاهرة المنظمة التى تؤلف بين الناس وتجعل منهم مجتمعًا.

أو أنه اسم لجميع الصلات التى تجمع بين الناس، سواء أكانت هذه الصلات ظاهرة أم خفية، منظمة أو غير منظمة، متوافقة أم غير متوافقة، وسواء أشَعَر الناس بهذه الصلات أم لم يشعروا.

أو هو التطور الدائم فى الصلات بين الأفراد، وقوام المجتمع - حسب هذا الرأى - عناصر ثلاثة هى:

- الحركة الدائمة فهو كائن فى الزمان ولا وجود له فى المكان، لأنه دائم التبدل والتحول.

- والتناقض والتوافق بين الروابط الاجتماعية.

- والتعاقب أى الرابطة التاريخية.

ومعنى ذلك أن المجتمع عند علماء الاجتماع فى حركة دائمة تتقدم به باستمرار عن طريق التوفيق بين الصلات المتناقضة، وذلك يقتضى محافظة على الاتزان فى الصلات بين الوضع الراهن، والوضع المراد استحداثه والتدرج إليه.

كما يستلزم ذلك ألا يكون هناك تمييز بين الفرد والمجتمع من حيث المصالح، لأن الفرد لا يستطيع أن يتجرد من صلاته الاجتماعية.

- وعند النظر إلى هذه الأقوال الثلاثة، ومحاولة التقريب بينها، بوصفها مذاهب فى تعريف المجتمع، نستطيع القول بأن علماء الاجتماع قالوا: إن المجتمع يتكون من عناصر ثلاثة هى:

- المجموع المؤلف بين الأفراد.

- والروابط التى وحَّدتْ هذا المجموع.

- والقـوة التى تولدت عـن تنظيم هذه الروابط، فـخلقت فـيـهم الـقـدرة على التطور والاستمرار.

*** ومن أقوال الفلاسفة عن المجتمع:**

قول بعضهم: إن المجتمع كالوحدة العضوية، يسرى عليها ما يسرى على سائر الأجسام الحية من قوانين البقاء ونواميسه.

ومن هؤلاء الفلاسفة: أفـلاطون، وأرسطو، اللَّذَان اعتبرا الدولة وحدة عـضوية، قائمة باتزان أجزائها وتماسكها.

وعلى الرغم من أن نظرية الوحدة العضوية لم تعد اليوم ذات قـيمة علمية، فإنها أثرت كثيرًا فى نظريات العلوم الاجتماعية.

وترتب على القول بنظرية الوحدة العضوية فى المجـتمع، القولُ بأنَّ سعى الإنسان للفوز بالحياة والبقاء فيها هو الأصل فى وجود المجتمع.

وترتب على ذلك أيضًـا القولُ بأنّ حـياة المجتـمع مرتبطة بقـدرته على التطور، وبمدى اندماج الفرد فى الكيان الاجـتماعى، فكلما تهيأت للمجتمع أسـباب التطور واندماج الفرد فى مجموعه؛ كـلما نمتْ فى المجتمع كفاية الفرد وقدرته على البـقاء داخل المجتمع، ومن أجل ذلك تبدو أهمية العوامل والأسباب التى تُعَد من مقومات المجتمع، ومن أسباب تقدمه مثل:

حرية الرأى.

وحرية التعبير عن الرأى.

وتوافر العدل والمساواة فى الاقتصاد وفى السيـاسة، واحترام حقوق الإنسان وإلزامه بأداء واجباته.

*** ومن أقوال بعض المفكرين فى المجتمع:**

قول بعـضهم: إن المجتـمع يرجع فى الأصل إلى طبيعـة الإنسان، وفى مقـدمة هؤلاء المفكر الاجتـماعى الذى سبق زمـانه وسبق كل علماء الاجتـماع عبـد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ، ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) الذى أطلق تعبير: «الإنسـان مدنى بالطبع» نقلاً عن

الحكماء، بمعنى أن الإنسان يولد فردًا فى أسرة ثم يصبح عضوًا فى عشيرة أو قبيلة أو أمة؛ لأنه بطبعه يميل إلى الانضواء تحت ظل جماعة ليوفر لنفسه أسباب الحياة.

يقول فى ذلك ابن خلدون رحمه الله: «إن الاجتماع الإنسانى ضرورى، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنى بالطبع، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير؛ من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى، وهب أنه كان يأكله حبًا من غير علاج، فهو أيضًا يحتاج فى تحصيله أيضًا حبًا؛ إلى أعمال أخرى أكثر من هذا، من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف ذلك.

وكذلك يحتاج كل واحد منهم فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه، لأن الله سبحانه لما ركّب الطباع فى الحيوانات كلها وقسَّم القُدَر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العُجْم من القدرة أكثر من حظ الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور...

ولما كان العدوان طبيعيًا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوًا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضًا عن ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيأة للصانع بخدمة الفكر، والصانع تحصل له الآلات التى تنوب له عن الجوارح المعَدَّة فى سائر الحيوانات للدفاع...».

*** ومن أقوال علماء الإنسان:**

يرى علماء الإنسان فى نشأة المجتمع آراء عديدة، مختلفة، بل ممعنة فى الغرابة، لا يملكون عليها أدلة مقبولة، وإنما يعارضون بها العقل والشرع.

وما بين نظرية «أصل الأنواع» ونظرية «الانتخاب الطبيعى» وكلاهما لـ«تشارلس دارون»؛ ما استطاع علماء الإنسان أن يقنعوا العلماء بما قالوا، لعدم التفرقة بين المتغير المكتسب الذى لا يورث، والصفات «الجينية» التى تورث.

فالمجتمع عندهم متأثر بهذه النظريات التى لم يقنعوا بها أحدًا حتى يومنا هذا.

وعلم الإنسان يهتم بثلاثة جوانب فى الإنسان هى:

- طبيعته وطبيعة هذا النمو وتطوره وخصائصه الجسدية.
- ونظمه الاجتماعية المختلفة من بدائية، ومتخلِّفة...
- وثقافته، وما فيها من عادات وتقاليد.

* **ومن أقوال علماء النفس:**

يرى علماء النفس أن منشأ المجتمع يعود إلى غرائز وخصائص بعينها.

ومن هذه الغرائز التى أدت إلى نشأة المجتمع:

- غريزة التجمع أى رغبة الإنسان فى أن يتجمع مع غيره.
- وغريزة الأبوة وما تقتضيه من تكوين أسرة ورعاية الأبناء.
- وغريزة الحب أو الكره، وما يترتب عليها من تجمع أو تفرق.
- وغريزة حب الظهور والتفوق، وما تقتضيه من تعامل مع الناس باستعلاء حينًا واعتداد بالنفس أحيانًا.
- وغريزة حب الانقياد والخضوع.

وغير ذلك من الغرائز.

- المجتمع الأبوى:

هو أنموذج من نماذج تنظيم المجتمع، يقوم فيه نظام الأسرة على سلطة الأب المطلقة، وهذه السلطة الأبوية معروفة منذ أقدم أزمان التاريخ فى كل المجتمعات البشرية.

وقد كان الآباء بوصفهم رجالاً ذوى قوة وقدرة يمتلكون وسائل الإنتاج البدائية كآلات الصيد، وحيوانات الصيد، كما يملكون بعض الحيوانات النافعة للإنسان فى ألبانها وأصوافها ولحومها وعظامها.

كما يمتلكون أحيانًا العبيد الذى يؤدون الأعمال نيابة عن هؤلاء الرجال.

لذلك ولغيره كانت سلطة الأب مطلقة فى الأسرة؛ الأسرة زوجة أو زوجات وأولادًا كانوا فى رعايته وحمايته، ولأن تأمين وسائل عيش الأسرة وأمنها كان مسئوليته، ابتداء من الطعام والشراب والملبس إلى المسكن والإيواء.

وعندما يعجز الأب عن تأمين وسائل العيش لأسرته فى بيئته، فإنه يرحل بها إلى بيئة أخصب وأكثر عطاء فى النبات والحيوان وأسباب الحياة.

وعندئذ تنتقل معه أسرته إلى الأرض الجديدة، وتتبعه حيث يشاء لا ينازعه فى ذلك أحد من أفرادها، لأنه إنما ينتقل ويرتاد وينتجع من أجل هذه الأسرة.

- المجتمع الأموى:

وهو أنموذج آخر من نماذج المجتمع يقوم النظام فيه على سلطة الأم، والمجتمع حينئذ ينسب إليها.

وسلطة الأم فى المجتمع وفى الأسرة كانت معروفة منذ زمن باكر أيضًا فى تاريخ الإنسان، وإن كانت لم تستمر طويلاً، لأن الأم بوصفها زوجة سريعًا ما أسلمت زمامها للرجل، بحكم قوته وسلطانه وقدرته على السعى والحركة، وقدرته على القتال دفاعًا عن أسرته، فضلاً عما قلناه آنفًا من أنه يملك وسائل الإنتاج.

والأسباب التى جعلت للأم هذه المنزلة فى الأسرة والمجتمع، وتجعل لها سلطة وقيادة، كثيرة، منها:

- أنها ربة البيت، وحاضنة الأولاد، والمسئولية عن تربيتهم ورعايتهم وإعداد الطعام للأسرة كلها.
- وأنها تتولى تربية بعض الدواجن والحيوانات فى بيتها أو مزرعتها لضمان احتياجات الأسرة من لحوم وألبان وأصواف.
- وأنها تمارس بعض الأعمال الزراعية، وترعى هذا الزرع وترويه وتنميه، وتنتظر وقت حصاده لتسد حاجة أسرتها من الحبوب والخضراوات والفواكه.
- وأنها متوافرة على بيتها ومتعلقاته طول النهار، فى حين يكون الزوج مشغولاً طول يومه بالصيد، ومطاردة ما يصيد، ولم يكن الصيد فى تلك الأيام سهلاً ولا آلاته جيدة، والصيد على الرغم من ذلك مصدر من مصادر طعام الأسرة وسد كثير من احتياجاتها.

● هذه الأسباب وغيرها جعلت للأم سلطة على الأسرة، لكن سريعًا ما تنازلت الأم عنها للأب خضوعًا لظروف قوته الجسدية من جانب، وللظروف الاجتماعية التى قد لا تستسيغ سيادة المرأة من جانب آخر.

● ونحن لا نستطيع أن نحترم ولا أن نصدق ما يقول به الشيوعيون من أن سلطة الأم جاءت نتيجة لشيوعية النساء، أو ما يسمونه الزواج الجماعى ويزعمون أنه كان سائدًا، وأن والد الطفل لم يكن معروفًا لكثرة عدد الرجال الذين يعاشرون المرأة الواحدة، فكانت هى التى تنسب الأطفال إلى من تشاء من الرجال الذين عاشروها!!!

تلك المقولة فى نظرنا من همزات الشيوعيين، وما أكثر همزاتهم ولمزاتهم فى معظم ما يقولون.

- النكاح وعلاقته بالمجتمع فى الجاهلية:

نقصد بالجاهلية -جاهلية الجزيرة العربية قبل الإسلام - إذ للعلاقة بين الرجل والمرأة صلة وثيقة بالمجتمع، بل إنها تشكل المجتمع أسرة وأبناء ينتسبون إلى آبائهم، ولكن حسب هذه العلاقة أن جاء الإسلام فألغى معظمها وجاء بالنظام الذى يجمع بين الرجل والمرأة وفق حكمة الله تعالى ومعرفته بما يصلح شأن خلقه فى دنياهم وآخرتهم.

وكان فى الجاهلية أربعة أنظمة من النكاح ألغى الإسلام ثلاثة منها وأبقى على ما كان سائدًا يوم بعث خاتم الأنبياء ﷺ مع تعديل وتغيير يحفظ للمرأة حقها كاملاً زوجة ومطلقة ومتوفى عنها زوجها ووريثة لكل من تربطها بهم صلة توجب الميراث.

وهذه الأنكحة الأربعة ذكرتها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فقد روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما، أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها: نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته فَيُصْدِقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبيَّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العَشَرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدتُ، فهو ابنك يا فلان، تسمِّى من أحَبَّتْ باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح لرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا - فمن أرادهن دخل عليهن؛ فإذا حملتْ إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافَّة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون، فالتاط به، ودُعى ابنه، لا يمتنع من ذلك.

فلما بعث محمد ﷺ بالحق؛ هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم»

- المجتمع البدائى:

كلمة بدائى إذا وصف بها المجتمع فهى تعنى أنه مجتمع يجهل الكتابة، أو لا يستخدمها.

- وقد يطلقها الغربيون على مجتمعات ما قبل المجتمعات الصناعية ذات التراث المعروف المرويّ عنها.
- وأحيانًا يطلقونها على المجتمعات الشرقية أو غير الأوروبية - وتلك نظرة عنصرية تمييزية نعرفها عن كثير من علماء الاجتماع الغربيين -.
- أو يقولون: إنها المجتمعات التى تفاوتت فيما بينها تفاوتا كبيرًا من حيث تنظيمها الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، والسياسى.

وتقوم هذه المجتمعات البدائية كلها على أبسط تنظيم اجتماعى رصد له العلماء ثلاثة مستويات هى:

المستوى الأول؛ العُصْبَة:

وهى: عائلة أو مجموعة عائلات تشكل وحدة ثقافية لها نفس اللغة، وتشكل وحدة اقتصادية سياسية منحصرة فى حيِّز جغرافى، وسلطات زعيمها لا تتعدى حدود هذه العُصْبة. وتكاد زعامته تنحصر فى قيادة رحلات الصيد، وبعض الشئون الدينية.

وهذا التنظيم الاجتماعي - في هذا المستوى - يعيش أفراده غالبًا على الصيد، والاقتطاف والالتقاط.

ولا يوجد في هذا المستوى تمايز طبقي، أو تضارب مصالح، وأهم الروابط التي تربط بين الأفراد هي القرابة أولاً، ثم المعتقدات الدينية، وإذا وجد في داخل هذه العصبة أي انحراف، فإنهم يتولون قمعه بأنفسهم.

والمستوى الثاني؛ العشيرة:

والعشيرة عدد أفرادها أكبر من عدد أفراد العُصْبة، إذ تحوي عددًا كثيرًا من العائلات التي تجتمع غالبًا على انتماءٍ لجَدّ مشترك حقيقيًا كان ذلك الجد أو وهميًا.

وهذه العشيرة تشكل بالضرورة وحدة نَسَبِيّة، ولكنها لكثرة عدد أفرادها - إذا قورنت بالعصبة - يحدث فيها تمايز وتنافس في العمل، مما يحقق فائضًا في الإنتاج ووفرة اقتصادية.

وتقوم العلاقة بين أفراد العشيرة على احترام القيم السائدة بينهم مثل:

احترام كبار السِّن.

وتوقير رجال الدين وتقدير آرائهم.

- وفي الغالب تعيش هذه العشيرة على الزراعة وتربية الحيوانات إلى جوار الصيد - الذي هو قاسم مشترك بين العُصْبة والعشيرة والقبيلة - وهذا الأسلوب من العيش لا يسمح في العادة بنشوء طبقات في المجتمع، أو تضارب في مصالح الناس.

وقلَّما يوجد في العشيرة نظم سياسية مستقلة.

والمستوى الثالث؛ القبيلة:

والقبيلة تجمع أكبر من العشيرة، وتنتسب إلى أب واحد أو جد واحد.

ولكثرة عدد الأفراد في القبيلة، فإن فُرَص التمايز بين الأفراد تجد مجالاً واسعًا، ومن ثم فإن الفائض من إنتاج القبيلة يكون أكثر من فائض إنتاج العشيرة.

ولقد يبلغ التمايز بين الأفراد حدًا كبيرًا، إذ قد يكون من أفراد القبيلة الواحدة، نبلاء، وأحرار، وعبيد، وهذا التمايز يقتضي اللجوء إلى آلية للتحكم الاجتماعي، وهو تحكم يفوق تحكم القرابة ولكنه دون تحكم الدولة.

● والنظام الاجتماعى القَبَلى له سمات معروفة تختلف عن نظام العصبة أو العشيرة، وتلك السمات هى:

- الاستقرار بمعنى أن القبيلة تستقر فى مكانها لا تنزح عنه إلا لظروف قهرية، بل تدافع عن المكان وتقاتل من أجله، لأنها تعتبره ملكًا خاصًا لها دون غيرها من الناس.

- وتعدد أنواع العمل بين أفرادها، وذلك من شأنه أن يحدث نوعًا من التخصص فى الأعمال، وذلك بدوره يؤدى إلى رفع مستوى المعيشة بارتفاع مستوى الإنتاج، لكن مع توزيع ربما لا يكون متكافئًا مع المنافع المادية.

- وبداية الظهور لبعض الملامح الخاصة بالجهاز السياسى الذى يفرض سلطته على الوحدات السياسية الصغرى، مما يدعو فكرة الانتماء، وما يترتب على الانتماء من خضوع.

● ونستطيع أن نختصر الحديث عن المجتمع البدائى فى نقاط أهمها:

■ أنه يطلق على المجتمعات الصغيرة الحجم والمساحة، القليلة السكان نسبيًا.

■ وأنه مجتمع تتميز فنونه بسذاجتها وبخاصة فنونه الآلية.

■ وأنه مجتمع بسيط الحياة الاقتصادية.

■ وأنه قليل التخصص فى الوظيفة الاجتماعية وفى توزيع العمل.

■ وأنه لا توجد فيه آداب مكتوبة ولا تراث مُدَوَّن.

- المجتمع المدنى عند بعض مفكرى الغرب:

هو مصطلح حديث نسبيًا، إذ هو مرتبط بمفكرين متعاصرين تقريبًا لا يفصل بينهما إلا نصف قرن تقريبًا، هما:

● «هيجل» (١٧٧٠ - ١٨٣١م) الفيلسوف الألمانى المعروف.

● و«كارل ماركس» (١٨١٨ - ١٨٨٣م) الفيلسوف الألمانى اليهودى.

اعتبر «هيجل» المجتمع المدنى هو: الناس والمؤسسات والجماعات غير الحكومية، التى تتجه نحو الملكية التى تؤدى إلى تَوَلُّد القوانين واحترامها وسيطرتها على الناس، ومن علاقة الفرد بالقوانين تنشأ الأخلاق، وهذه الأخلاق فى جوهرها، تفاعلٌ لحرية الأفراد مع التزامهم بالقوانين، وهو أمر يؤدى إلى إنشاء دولة، والدولة دائمًا تعلو على الأفراد.

أما «كارل ماركس»: فاعتبر أن تاريخ المجتمعات هو تاريخ الصراع بين الطبقات، حيث تقضى البرجوازية - طبقة أصحاب رءوس الأموال من رجال الصناعة والتجارة - على طبقة الإقطاعيين الذين كانوا يستغلون أتباعهم، ثم استمرت الطبقة البرجوازية تستغل العمال الكادحين، إلى أن استطاع الكادحون أن يقضوا على البرجوازية والاستيلاء على الحكم بالقوة؛ فقامت «ديكتاتورية» الطبقة الكادحة تعمل فى ظل دولة أو حكومة ذات سلطان قوى حتى نشأ المجتمع «اللاطبقى».

- ومعنى رأى «هيجل» و«ماركس» أن المجتمع المدنى شىء والدولة شىء آخر، وأن الدولة عندهما؛ سلطان و«ديكتاتورية»، والمجتمع المدنى الذى يؤدى تفاعله إلى ظهور الدولة شىء غير الدولة.

وقبل أن نتحدث عن المجتمع المدنى بالتفصيل الذى يلائمه، لا بدّ أن نلقى ضوءًا على مفهوم الدولة التى تتولد عن المجتمع المدنى.

*** الدولة:**

هى كيان سياسى وإطار تنظيمى يضم هيئات تمثل وحدة المجتمع، وتنظم حياته الاجتماعية والسياسية، وتكون موضع السيادة فيه؛ بحيث تكون إرادة الدولة فوق إرادة الأفراد والجماعات المدنية كلها.

- والدولة وحدها هى التى تملك سلطة إصدار القوانين، كما تملك وحدها احتكار وسائل الإكراه وحيازتها، والحق فى استخدامها من أجل تطبيق القانون أو القوانين التى سنتها.
- فالدولة تَحكم وتُحكم بالقانون.
- وللدولة أهداف كثيرة ترغب فى تحقيقها من وراء القهر والإكراه لكل من يخالف القانون، منها:

- ضبط حركة الناس فى المجتمع مع ما تسمح به القوانين.
- وتأمين السلم والأمان والنظام للناس جميعًا.
- وتأمين الأمن الداخلى للدولة.
- ومقاومة العدوان الخارجى.
- وتحقيق التقدم فى كل مرافق المجتمع ومؤسساته الحكومية.

- وقد اقتضى تحقيق أهداف الدولة إنشاء مؤسسات وهيئات حكومية ثابتة مستقرة، كالوزارات ونحوها، كما اقتضى أن يكون فى كل دولة سلطات ثلاث هى:

– السلطة التشريعية التى تسن القوانين والتى يختار أعضاؤها عن طريق الانتخابات الحرة النزيهة.

– والسلطة القضائية التى تتولى تفسير القانون وتطبيقه، وإيقاع العقوبات على المخالفين للقوانين.

– والسلطة التنفيذية التى تتولى تنفيذ قرارات الحكومة وأحكام القضاء، وتقوم على رعاية هذا وذاك.

مع ضرورة الفصل بين هذه السلطات الثلاث واستقلال كل منها بما تقوم به من عمل، واستقلالها عن الحكومة نفسها بحيث لا يتدخل رئيس أو ملك أو حاكم فى عمل أى منها.

- وتقاس عدالة الحكومة بمصداقيتها فى تطبيق القانون، وفى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، وبعدم التدخل فى أعمال السلطات الثلاث.
- وسيادة الدولة فى الداخل مقيدة بأن تكفل لكل مواطن فيها حقوقه الطبيعية، وبأن تنجح فى إدارتها لهيئاتها ومؤسساتها ووزاراتها، وعلامة نجاحها هى إشباع رغبات المواطنين المشروعة.
- وسيادة الدولة فى الخارج – أى علاقاتها الدولية – محكومة بقواعد القانون الدولى وأعرافه فى السلم وفى الحرب.
- والقانون الدولى يستهدف صالح المجتمع الدولى.
- وتقوم على تطبيق القانون الدولى هيئة الأمم المتحدة[1].

---

(١) كان احترام القانون كذلك، أو يجب أن يكون كذلك، لكن عطّل ذلك وأفسده ولا يزال يفسده أمران:
الأول: إعطاء خمس دول كبرى حق الاعتراض على أى قرار يصدره مجلس الأمن بما يسمى حق «الفيتو».
والآخر: تغوّل الولايات المتحدة الأمريكية واستبدادها بهيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، واتخاذها قرارات الحرب على دول أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة واحتلال بلادها وخطف رؤسائها أو اغتيالهم أو طردهم دون مراعاة للقانون الدولى، كما فعلت فى احتلال أفغانستان والقضاء على حكومتها سنة ٢٠٠١م، وكما فعلت فى احتلال العراق وتخريب مؤسساته وهيئاته ومجتمعه المدنى، والاستيلاء على نفطه دون مراعاة للقوانين الدولية ولا لهيئة الأمم المتحدة ولا لمجلس الأمن ولا للمظاهرات الحاشدة التى رفضت الحرب على العراق سنة ٢٠٠٣م.

بعـد هذه الكلمات عن الدولة وليـدة المجتـمع المدنى، نعود إلى الحـديث عن المجتـمع المدنى بوصفـه - فى تصورى - أهم مـصطلح من المصطلحات التى يشـتمل عليهـا مدخل الكتاب.

* المجتمع المدنى فى صورته الواقعية:

هو - فى صورته الواقـعية - جـماعات أو مؤسـسـات أو هيئات غـير حكوميـة، تعمل لصالـح أعضائهـا، وتقف معـهم فى مواجـهة الحكومـة عندما تهـضم الحكومة حـقًا من حقوقهم.

وهذه المؤسسات والهيئـات غير الحكومية تـسمى أحيانًا: جمـعية أو رابطة وتوصف غالبًا بأنها خيرية أو تعاونية.

- وهذه الجمعيـة أو الرابطة هى: تجمع عدد من الأفراد للدفاع عن مصالحـهم المشتركة، أو لتحقيق فكرة مشتركة - مشروعة - أى يقرها القانون -.

وبعض القوانين تشتـرط فى هذه الجمعيات أو الروابط ألا يكون الربح المادى أو تقـاسمه بين أعضائها من بين أهدافها أو برامجها.

- وللجمعيات والروابط أثر بارز فى تأمين بعض الخدمات لأعـضائها أو تنميتها، فهى ذات عمل يروج بعض الأفكار أو يدافع عن بعض المصالح.

والجمعيات أو الروابط بهذا المعنى لا تبعد كثيرًا عن أهداف وأعمال الأحزاب السياسية.

- وهناك جمعـيات تعاونية هدفها تحـقيق عمل مشترك؛ باتحـاد الأفراد وتضامنهم من أجل مناهضة الرأسماليـة والتخلص من بعض مساوئها، وبخاصة فيـما يتعلق بالربح الفردى، فتقدم الخدمات لأعضائهـا وتساعدهم دون أرباح أو بأرباح زهيدة لا تقارن أبدًا بما يحققه الرأسماليون من أرباح.

ويتكون رأس مال الجـمعية التعـاونية من أموال مؤسـسيها حـيث تطرح أسهمًا يشـتريها الأعضاء.

ونشاط هذه الجمعيات متعدد، منه على سبيل المثال:

- أن تفتح بعض المحال لبيع الملابس أو المواد الغذائية.

- وأن تبنى المساكن لأعضائها.

- وأن تصنع السلع التى ترى الجمعية إنتاجها وتسويقـها لتحقيق أرباح تعود على أعضائها، وتوجد فرصًا للعمل لمن لا يجد عـملاً أو يرغب فى عمل إضافى، وتطور صناعة السلع نحو الأحسن، وقد تعرض هذه السلع للبيع لغير أعضائها.

- وأن تشترى الأراضى الزراعية وتستثمر فيها.

- وأن تبنى مدارس أو تستـأجرها لتقدم خلالها خـدمات تعليمية جيدة لأبـناء أعضائها أو غيرهم.

● وهناك جمـعيات تعاونيـة استهلاكـية، تقوم على أسـاس التخلص من الوسطاء الذين يتسببـون فى رفع الأسعار، وهؤلاء الوسطاء هم تجار الجملة أو تجـار التجزئة، وعندئذ يستفيد أعضاؤها من ذلك ما كان يأخذه هؤلاء الوسطاء.

● وتقوم هذه الجمـعيات الاستهلاكيـة التعاونية على أسس تدعم التعـاون الاستهلاكى، منها:

- فتح باب الاشتراك فى عضويتها على الدوام.

- والقيام برقابة مستمرة على الأعمال الإدارية للجمعية.

- والبيع النقدى بسعرٍ هامش الربح فيه قليل.

- وأن يحصل كل عضو على نصيب من أرباح الجمعية بنسبة ما اشتراه منها.

- وأن تلزم الجمعية بالحياد الدينى والسياسى.

● وهذا النوع من الجمعيات التعاونية الاستهلاكية أكثر عددًا من الجمعيات الأخرى، وهى - فى تصورى - أكثرها فائدة، وبخاصة فى المجتمـعات الفقيرة التى يعانى الناس فيها فى الحصول على السلع والخدمات الاجتماعية.

● وواقع العالم الإسلامى اليـوم - ومنه العالم العربى - عند التأمل فـيه والتدبر فى هذا الواقع الذى فرضه عليه أعـداؤه، فجعلوه مليئًا بالسلبيـات التى ليس أسوأها التجزىء والتقسيم والتـفكك، والتبعية الاقتصادية، وإنما يضـاف إلى ذلك: التخلف فى مجال العلم والتقنية، والتخلف التعليمى، والتبعـية الفكرية والثقافية، ووقوع عدد ضخم من بلدانه تحت سيطرة أعداء اسـتيطانيين عنصريين، لا يحترمـون أىّ حرية للإنسان إن لم يكن منتميًا إليهم.

غيـر أن هناك من المبشرات على الرغم من ذلـك كله الكثير وهى بإذن الله تعـالى ممهدة لنهضة علمـية آخذة فى الظهور، بل مـبشرة على الرغم من ذلك كله؛ تلك هى جمـعيات المجتمع المدنى فى العـالم الإسلامى فقد تعددت وكـثرتْ وكبرتْ وأخذت تعـمل بعيدًا عن الحكومات التى ضـعفت الثقـة فيها وعـزلت نفسهـا عن المجتمع بسـبب انصياعهـا لأوامر الأعداء وتنفيذها مـخططاتهم، فتقاربت هذه الجمعيـات فكريًا وثقافيًا واجتماعيًـا وحراكيًا، وكل ذلك يؤكد عددًا من الحقائق أهمها:

أن العالم الإسلامى فى مجتمعاته المدنية وحكوماته مطالبون بأعمال على جانب كبير من الأهمية هى:

١- ضرورة مـقاومة العدو المسـيطر المستوطن مـاديًا أو معنويًا كل أنواع المقـاومة السياسـية والثقافـية والاجتماعـية، طالما كانت المقاومـة العسكرية ليست مستـطاعة أو ليست فى صالح العالم الإسلامى.

٢- والعمل الدائب على توحد العالم الإسلامى فى تجمع فكرى ثقافى، أو اقتصادى يعطى أولوية لسلع البلدان الإسلامية وخدماتها فى التجارة البينية، وذلك من منطلق أن توحد العالم الإسلامى خطوة ضرورية وحيوية لمقاومة سيطرة الأعداء على العالم الإسلامى.

٣- والاستمرار فى نصح الحكومات فى العالم الإسلامى وتقدير ظروفها، ويكتفى منها فى هذه المرحلة أن تكف أذاها وسطوة قوانينها الجائرة عن جمـعيات المجتمع المدنى، وعن الإصلاحيين أهل الدعوة والحركة.

٤- والسيـر الحثيث الخـاضع لتخطيط محكم نحـو الإصلاح والتجـديد، عن طريق أنشطة مؤسسات المجتمع المدنى وهيئاته غير الحكومية، من أجل أن تقدم هذه الجمعيات المدنية أعمـالاً وخدمـات قادرة على تحـقيق الأهداف التنمـوية، وعلى تخـفيف الأعـباء عن الناس، مع اتباع الحكمـة فى ذلك مع الحكومات، لأن بعضهـا يعوق أعمال جمـعيات المجتمع المدنى عن قصد خشيةً منها ومن خدماتها التى تُظهر للناس تقصير الحكومة.

٥- ومن الضرورى أن تنوع هذه الجمعيات والمؤسسـات المدنية، بحيث تغطى معظم حاجات الناس فى العالم الإسلامى من السـلع والخدمات، أملاً فى تحقيق اكـتفاء ذاتى بين دول العالم الإسلامى، لأن ذلك خطوة ضخمة فى استقلال العالم الإسلامى عن أعدائه.

وهذا التنوع فى الجمـعيات والمؤسـسات فى المجتـمع المدنى لا يكاد يحصى، وبخـاصة الجمعيات ذات الأهداف الاجتماعية.

وأود هنا أن أشير إلى عدد من هذه الجمعيات المدنية على النحو التالى:

أولاً: جمعيات الخدمات التعليمية:

ومن أبرز أعمال هذه الجمعيات:

- إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات التى يخفف إنشاؤها العبء عن الحكومات من جانب، ويقدم خدمة تعليمية متميزة من جانب آخر.

فلو أنشئت فى كل بلد إسلامى جمعية مدنية لتقديم الخدمات التعليمية المتنوعة لكان ذلك من أجدى الأعمال وأجلها أثرًا فى النهوض بالمجتمع علميًا وثقافيًا وتقنيًا.

ومما يدخل فى الخدمات التعليمية أمران:

أ- إنشاء المكتبات العامة، عن طريق جمعية تعاونية هدفها إنشاء المكتبات العامة أو تزويدها بالكتب، وإعداد قاعات المطالعة.

ولن تعجز هذه الجمعيات عن تمويل هذه المشروعات لأن فى المسلمين عددًا غير قليل من أهل الخير والبر والرغبة فى العمل الصالح والصدقة الجارية، يستطيعون أن يسهموا فى إنشاء مكتبة عامة فى بلدهم.

وتستطيع أى مكتبة عامة أن تدبر موازنتها المالية من فتح باب التبرعات، ومن رسوم زهيدة على تصوير بعض الكتب لمن يرغب فى ذلك، أو على استعارة بعض الكتب خارج المكتبة.

ب- ونشر الكتاب؛ بإنشاء جمعية تعاونية تتولى طبع الكتاب ونشره وتوزيعه، ولو بدأت بطبع كتب التراث التى لم تطبع حتى الآن لكان فى ذلك الخير للإسلام والمسلمين، وتدبير ميزانيتها يكون أيضًا بفتح باب التبرعات، وما تحققه من ربح بسيط من بيع الكتب التى طبعتها.

فإن استطاعت إحدى هذه الجمعيات المدنية أن تنشئ مطبعة فإن ذلك عمل جوهرى فى نشر الكتاب وبيعه بسعر منافس.

ثانيًا: جمعيات الخدمات الصحية:

ويكون بإنشاء المستشفيات، والوحدات العلاجية الصغيرة كالمستوصفات وعلاجات اليوم الواحد، وأنا على يقين بعد تجولى فى كثير من بلدان العالم الإسلامى أن أهل الخير والبر

فيه غيـر قليلين، وأعلم علم اليقين أن عدداً من كبار الأطباء لا يمانعون بل يرحـبون بالتبرع بيوم عمل فى هذه المشافى ودور العلاج، لأنهم يبحثون عن رضا الله تعالى وثوابه.

على أن نشر الوعى الصحى بين الناس لا يقل أهمية عن نشر المستشفيات ودور العلاج.

ومما يدخل فى الخدمات الصحية أمران كذلك هما:

أ- فتح عيـادات خاصة بالجمعيـة تأخذ أجرًا رمزيًا أو لا تأخذ نهائيًـا، أو أجرًا زهيدًا على علاج المريض أو إقامته فى المستشفى أو العيادة أو دار العلاج التى تتبع الجمعية.

ب- وإعداد سـيارات طبـية مـزودة بما يحتـاج إليه الطبيـب وهو يوقع الكشف الطبى على المريض فى بيتـه بأجر زهيد أيضًـا، لأن ذلك يمكن الطبيب من تقديم العـلاج قبل أن يفوت أوانه الصحيح.

ثالثًا: جمعيات الخدمات الأسرية:

وتقوم هذه الجمعيات بأعمال أراها جليلة فى المجالات التالية:

- تيسير الزواج بمعاونة الطرفين على التعرف من خلال إخصائية فى الجمعية.
- ومعاونة الطرفين علـى إعداد بيت الزوجية، ليكون بيتًـا مسلمًا جديدًا بتكاليف مـيسورة متبرع بها أو مقسطة.
- ومعاونة الزوجين على تعريف كل منهما بحقوقه وواجباته فى ضوء ما شرع الله تعالى.

وهذه الجمعيات قادرة بإذن الله تعـالى على وقاية المجتمع من الزنى المكشوف ومن الزنى المقنع أو المسمى بغير اسمه.

رابعًا: جمعيات خدمات الإسكان:

والإسكان مشكلة فى العالم الإسلامـى معظمه، لأسباب غير خافـية على من يعرفون كيف تتصرف حكومـات العالم فى المشروعات التى تقوم بها مـن أموال الشعب، حيث لا تعرف حكومة عدالة فى توزيع أى سلعة أو خدمة وإنما تقـدمها مكافأة للمنافقين وأصحاب المناصب الفاسدين.

فإذا استطـاعت جمعية مـدنية أن تسهم فى حل مشـكلة الإسكان فى البلد الذي تعيش فيـه، فإنها قـادرة على ذلك لو عمدت إلى شـراء أرض ثم بنت عليها، ثم باعـتها بسـعر معقول أو أجرتها، فإنها بذلك تقدم خدمة جليلة للمجتمع.

ولو أن الجمعية المدنية كانت تتبعها المقاولات ومعداتها فإن التكلفة ستنخفض، ويصبح الإسكان فيها تعاونيًا.

خامسًا: جمعية خدمات الاستزراع:

لا يستغنى الناس عن المنتجات الزراعية بحال أيا كان نوعها، حبوبًا كانت أو خضراوات أو فواكه، فإذا أخذت جمعية من جمعيات المجتمع المدنى على عاتقها أن تزرع أرضًا وتبيع محصولها بثمن تعاونى ليس فيه سوى هامش ربح بسيط لكان ذلك خيرًا عميمًا للناس.

ولو اشترت الجمعية أرضًا صحراوية قابلة للزراعة ثم زرعتها على النحو العلمى الصحيح للزراعة، وتوافرت لديها الآليات والأدوات والأيدى العاملة المستأجرة، أو ملكت الجمعية هذه الأرض لمن يزرعها، أو أجَّرتها لمن يزرعها فى مقابل عادل بعيد عن الاستغلال والمبالغة، فإنها تسهم فى حل مشكلة الاحتياجات إلى منتجات الأرض الزراعية.

إن هذه الجمعيات المدنية بهذا الأسلوب تسهم فى تنمية الثروة الزراعية فى العالم الإسلامى كله، وبالتالى يتحقق فيه الاكتفاء الذاتى والتخلص من حاجته إلى دول الأعداء، والخروج من سيطرتهم.

إن العالم الإسلامى لو حقق الاكتفاء الذاتى فى القمح والقطن والسكر، لكان ذلك طريقه إلى التحرر من سيطرة أمريكا أكبر منتج للقمح فى العالم، أمريكا التى ترمى فائض القمح فى المحيط حتى تحافظ على سعره المرتفع الذى تفرضه على من ترغب فى بيعه لها من دول العالم الإسلامى!!

سادسًا: جمعيات الاهتمام بالثروة الحيوانية:

الثروة الحيوانية تمد الإنسان باللحوم وهى أساس فى غذائه، وهذه اللحوم مصادرها المواشى والدواجن والأسماك، وإذا أخذت بعض الجمعيات المدنية على عاتقها أن تربى هذه المواشى والدواجن والأسماك تربية تخضع للأسلوب العلمى والفنى، ثم باعتها للناس بأسعار معقولة فإنها تؤمن لهم مادة غذائية رئيسية فى حياة الإنسان.

- إن مزارع الماشية وتربيتها بأسلوب علمى وفنى يوفر اللحوم والألبان والدهون، والجبن بمختلف أنواعه وألوانه، والصوف والوبر والشعر، والعظام وما يُصنع منها، إن مزرعة لتربية الماشية عمل جيد ومربح، فإذا تم على وجهه الصحيح فإنه يحل مشكلة من مشكلات المجتمع، ويقدم خدمة لكل إنسان.

وهكذا مزارع الدواجن إذا ربيت بالأسلوب العلمى والفنى فإنهـا توفر اللحوم والبيض، وسائر ما ينتفع به من الدواجن ومخلفاتها، كالعظم والريش ومخلفاتها.

وهكذا تكون تربية الأسماك فى مزارع سمكية تخضع لأحسن الطرق العلمية والفنية فى تربيتها فإنها مادة غذائية بل جيـدة التغذية، بسعر رخيص، لأنه خالٍ من الاستغلال والربح الفاحش:

وفى هذه المزارع العديدة فرصـة لعمل عديد من العمال، وفرصـة للقضاء على نوع من البطالة، وفرصة لتوفـير الثروة الحيوانية، وإسهام فى خـفض تكاليف المعيشة، وإغناء لدول العالم الإسلامى عن استيراد اللحوم والأسماك والدواجن المذبوحة.

سابعًا: جمعيات خدمات الصناعات:

لا يستـغنى الإنسان فى حـياته عن مصنـوعات عديدة تلزمـه فى حياتـه، وتأمين هذه الصناعات الخـفيفة عـمل جليل القيمـة الاقتصادية إذ هو أولاً يغنى عن اسـتيراد كثـير من المصنوعات، ويتيح فرصًا عديدة للعمل.

فإذا قامت بعض جمعيات المجتمـع المدنى بتوفير هذه المصنوعات وصناعتها داخل بلدان العـالم الإسلامى بـأن تتولى إنشـاء هذه المصـانع والإشراف علـيهـا وعلى مـا تنتجـه من مصنوعات تتوافـر لها الجودة والسعر المناسب والقدرة على التنافس، فـإنها بذلك تسد باب الاستيراد فى هذه المصنوعات.

غير أن ذلك لا يكون إلا بعـد دراسة الجدوى الاقتصادية وتحـديد هذه المصنوعات نوعًا وكمًا، وتحديد مدى احتياج الناس إليها.

ومما له دلالتـه فى هذا المجال أن تصـدر الصين إلى كـثيـر من بلدان العالم الإسـلامى مصنوعات صغـيرة تردد الأذان للصلوات وتقرأ القرآن، وتسرد الأدعية الإسلامـية، فهذا له دلالة على أن الناس فى الصـين يعرفـون ما يصـنعون وأين يسـوقونه، والناس فى العـالم الإسلامى يراد لهم من سائر أعدائهم أن يظلوا قوة مستهلكة أى غير منتجة!!!

ثامنًا: جمعيات لتوفير لعب الأطفال:

لعب الأطفال إذا اخـتيرت بعناية وبأسلوب علمى تربوى فـإنها لا تقل أهميـة فى تربية الطفل عن الكتـاب ووسيلة الإيضاح ونحـو ذلك مما هو من صميـم احتيـاجات الطفل فى تعلمه وتربيته وتنمية قدراته العقلية ومهاراته.

وصناعة هذه اللعب تحتاج إلى دراسة علمية وفنية تتناول تحديدها وتحديد أنواعها وتوضيح وظائفها، ومعرفة مدى توافر خاماتها فى البلد الذى تُصنع فيه، وما المصانع اللازمة لها وآلياتها وأدواتها والأيدى العاملة فيها، ومدى احتياج الأسواق إليها، وبخاصة أسواق العالم الإسلامى، وضرورة تدخل علماء التربية فى اختيار نوعها وحجمها وملاءمتها لعمر الطفل وقدراته العقلية والحركية.

إن إنتاج لعب الأطفال بأسلوب علمى دليل على الرقى العلمى والتربوى، فضلا عن الرقى الاقتصادى الذى يوفر على المسلمين أموال الاستيراد ومتاعبه.

تاسعًا: جمعيات توفير السلع الترويحية:

الترويح عن النفس نشاط حر يختاره الإنسان بمحض إرادته، ويمارسه فى أوقات فراغه، بحيث يتفق مع ميوله ودوافعه، ويشعر فى ممارسته برضا وارتياح.

وأمثلة هذا النشاط كثيرة منها:

- النشاط الرياضى وما يستلزمه من آلات وآليات.
- والنشاط الفنى للتعبير عن الإحساس بالجمال كالرسم والزخرفة والنحت وما يتطلبه هذا النشاط من آلات وألوان وأوراق وورنيش ومواد أولية.
- والنشاط الموسيقى.
- وسائر الأنشطة التى تتصل بالهوايات.

كل هذه الأنشطة تحتاج إلى آلات تمارس من خلال التعامل مع هذه الآلات بما يشبع فى الإنسان حاجته إلى الترويح.

والإسلام أباح الترويح عن النفس كما يفهم من حديث حنظلة -رضى الله عنه- الذى رواه مسلم بسنده عن حنظلة وفيه: «قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن -يا حنظلة- ساعة وساعة ثلاث مرات»**[1].

---

(١) عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات أى قاربنا الزوجات وتمتعنا بهن ولاعبنا الأولاد وتسلينا باللعب معهم والضيعات أى ألهتنا الضيعات عن الذكر والعبادة - وكل ذلك من الترويح الجائز عن النفس.

● وكل نشاط من هذه الأنشطة الترويحية يحتاج إلى آلة أو مادة يمارس بها، وعلى جمعيات توفير السلع الترويحية أن تؤمن هذه الأدوات والآلات، لتحقيق نفس الأهداف التى تحدثنا عنها فى توفير السلع والخدمات المتعددة.

عاشراً: جمعيات تقديم الخدمات العامة للناس:

وهذه الخدمات كثيرة ونافعة وتقديمها يتم عن طريق جمعية من جمعيات المجتمع المدنى، وهذه الخدمات مثل:

- توفير سائق للسيارة،
- وتوفير عامل أو عاملة للعمل فى المنزل،
- وتوفير عامل فنى لإصلاح ما يحتاج المنزل إلى إصلاحه،
- وتوفير عامل زراعى لمن لديه أرض زراعية،
- وتوفير قارئ لمن كف بصره أو ضعف عن القراءة،
- وتوفير مربية للأطفال ذات دين وخلق،

كل ذلك توفره إحدى جمعيات المجتمع المدنى، لتحقق من وراء توفيرها كل ما سبق أن ذكرنا من فوائد عديدة.

وتمويل هذه الجمعيات فى البداية إما بالتبرع، أو بطرح أسهم، أو نحو ذلك مما يراه رجال الاقتصاد.

● وقد يقول قائل: ما أهمية هذه الجمعيات التعاونية وكل خدماتها أو أغلبها يؤديها بالنيابة عن الحكومة: القطاع العام فى الدول ذات الحكم الاشتراكى أو الشمولى أو الاستبدادى؟

وللرد على هذا التساؤل أقول:

- القطاع العام أسلوب شيوعى أو اشتراكى يخدعون به الناس فيوهمونهم أنه يؤدى إليهم خدمات، والحق أنه يربطهم بالحكومة ويجعلهم فى حاجة إليها وإليه.
- وإن الفساد قد ضرب أطنابه فى كل مؤسسات القطاع العام وأصبح عبئًا على الدولة حتى إنها بدأت تتخلص منه عندما انهارت الاشتراكية، وعلت موجة الرأسمالية.
- وإن القطاع العام وإن كان ملك الدولة أى الحزب الحاكم والمنتفعين به إلا أنه فى الواقع

ملك لمديريه يفعلون بخدماته ما يريدون ويثرون ثراء فاحشًا ثم يقدمون للمحاكمة، وهذا شأن معظم البلدان الإسلامية التى أصيبت بوباء الاشتراكية أو الشيوعية.

وعندما تحولت معظم الدول الإسلامية -بعد انهيار الاشتراكية إلى الرأسمالية أو أمريكا، أصبح رجال من الحزب الحاكم فى معظم بلدان العالم لصوصًا يقترضون أموال المصارف ويفرون خارج البلاد على الرغم من أحكام القضاء التى تمنعهم من المغادرة، لكن الأحكام تطبق على الضعفاء ورجال تنفيذها لا يقدرون على الكبار الواصلين المدعومين سياسيًا وأمنيًا!!

وبعد: فهذا ما أردت توضيحه عن المجتمع المدنى بوصفه أهم مصطلح فيما يتصل بموضوع هذا الكتاب وهو: «التربية الإسلامية فى المجتمع».

ولا يفوتنى قبل الانتهاء من الحديث عن المجتمع المدنى أن أقدم عددًا من النصائح للقائمين على مؤسسات المجتمع المدنى وهيئاته، على رجاء الأخذ بها فهى صادرة من قلب إنسان مسلم يحب الخير للمسلمين وللناس جميعًا.

وتلك النصائح هى:

١- اتخاذ الإسلام؛ منهجه وقيمه ومبادئه وأخلاقه مصدرًا ورائدًا فى تحديد أهداف هذه الجمعيات والمؤسسات؛ بحيث لا تتنازل عن شىء منها تحت ضغط إغراء أو إرهاب؛ لأن هذه المبادئ والأخلاق عقيدة وعبادة وخلق، فهى ثوابت لا يجوز التخلى عن شىء منها بأى حال من الأحوال.

٢- وأن تحسن كل جمعية اختيار أعضائها ومؤسسيها وفق معايير الإسلام وأخلاقياته، والتمسك بمبادئه وقيمه، وفهم مقاصده، والرغبة فى العمل الصالح، الذى يرضى الله تبارك وتعالى، والابتعاد تمامًا عن الهوى والميول الشخصية والكيل بمكيالين.

إن هذا التدقيق فى الاختيار للأعضاء هو الذى يمثل معامل الأمان للجمعية ولكل عمل جماعى.

٣- وأن تدقق كل جمعية وهى تحدد أهدافها فى دستور عملها، بحيث تكون هذه الأهداف القريبة والبعيدة، والخاصة والعامة نابعة من الإسلام وقيمه، داعية إلى الخير والبر ومتعاونة عليه، بعيدة عن الإثم والشر غير متعاونة على شىء منه.

وأن تستمر فى مقاومة كل انحراف يخرج بأى عمل من أعمال الجمعية، ومقاومته ببصر نافذ، وبصيرة واعية.

٤- وأن يكون النظام المالى والإدارى لكل جمعية نابعًا من مبادئ الإسلام ونظمه فى المعاملات، وهى فى إجمال:

- الصدق،
- والأمانة،
- والشورى،
- والعدل،
- والمساواة بين الأعضاء فى الحقوق والواجبات،
- والمساءلة والمحاسبة لكل مقصر أو مهمل،
- وتوقيع الجزاء المناسب على من ثبت إهماله أو تقصيره.

٥- وأن تلتزم الجمعية بالإتقان فى أعمالها أى اتباع الأصول العلمية والفنية، وأن تجعل ذلك رائدها فى كل عمل تقوم به ماليًا وفنيًا، وأن تدع للخبراء المسلمين أهل الاختصاص أن يقدموا لها النصائح وأن تتقبلها بقبول حسن، وأن يكون ذلك دوريًا أو سنويًا بل ربما كان شهريًا حسب ما تقتضية حاجة الجمعية ومصلحتها وظروف النشاط التى تمارسه.

٦- وأن تقدم النصح والعون والتسديد لكل العاملين فيها بحيث يسودهم الحب والإخاء، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة مهما يكن شأن صاحب هذه المصلحة الخاصة فى الجمعية، فما خابت جمعية ولا فسد عمل إلا وكان من أسبابه عدم إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

٧- وأن تحاسب الجمعية نفسها فى وقفات أسبوعية إن لم تكن يومية، لتقوم عملها فى ضوء ما حققته من أهداف مرحلية، لتحمد الله على الخير وتسأل الله المزيد منه. وتمتنع عن الخطأ والشر وتتوب عنه.

أما أسلوب المراجعة للأعمال على رأس كل سنة فمن شأنه تفاقم الأخطاء واستمرارها، وتأخر الجمعية عن أداء أهدافها.

٨- وأن تتعاون مع الجمعيات المماثلة لها من أجل تناقل الخبرات وضم الجهود إلى الجهود، والتعاون على أداء الخدمة بصورة أحسن وأكثر تمشيًا مع الأهداف.

ومما لا شك فيه أن تضافر جهود أكثر من جمعية فى تقديم سلعة أو خدمة، يعود بالفائدة على الجمعية وعلى الذين تقدَّم إليهم السلع والخدمات.

٩- ولو استطاعت الجمعية التعاونية فى أى نشاط من الأنشطة أن تتعاون مع الهيئات والمؤسسات الحكومية، فذلك للجمعية ولهيئات الحكومة والمجتمع كله، لكن ذلك مشروط بألا تتأثر الجمعية التابعة للمجتمع المدنى بما هو سائد فى الهيئات والمؤسسات الحكومية من سلبيات أومخالفات لقيم الدين ومبادئه.

١٠- وأن تتجنب جمعيات المجتمع المدنى الصدام مع الحكومة فى البلد الذى تمارس فيه عملها، لأن هذا الصدام غير مقبول شرعًا، وإنما يجب أن يحل محله التفاهم لأن ذلك فى مصلحة المواطنين جميعًا.

ولأن الإسلام يأمر بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، والعفو والتسامح والإحسان، ويكفينا معشر المسلمين عداءُ أعداء الإسلام فلا ينبغى أن نضيف إليه عداء حكومات المسلمين.

وآخر المصطلحات التى نتحدث عنها فى هذا المدخل هو مصطلح: «علم الاجتماع».

* علم الاجتماع:

هو علم الجماعات أو المجتمعات الإنسانية، وهو دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية، كما تبدو فى الزمان والمكان للتوصل إلى قوانين التطور التى تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية فى تقدمها وتغيرها.

وعلم الاجتماع بالإضافة إلى الوصف والتفسير يقوم على الدراسة الموضوعية للظواهر الاجتماعية وتحليلها تحليلا علميًا صحيحًا[١].

وحديثى عن علم الاجتماع بوصفه مصطلحًا يتناول ثلاثة نقاط:

- موضوعاته،
- وأهدافه،
- وجذوره التاريخية.

---

(١) دكتور أحمد زكى بدوى: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. ط لبنان دون تاريخ - مكتبة لبنان.

أ- موضوعات علم الاجتماع:

تكاد تنحصر موضوعات علم الاجتماع فى ثلاثة موضوعات هى -كما قرر علماء الاجتماع-:

الأول: دراسة المظهر الاجتماعى للإنسان.

والثانى: دراسة الظواهر الناشئة عن حياة الناس معًا.

والثالث: دراسة الجماعات من الناس الذين يسعون إلى تحقيق مصالح رئيسية لهم، بشكل تعاونى، وبخاصة؛ مصالحهم فى المحافظة على الذات، والمحافظة على التكاثر.

ب- أهداف علم الاجتماع:

حصرها علماء الاجتماع فى هدفين:

الأول: الاهتمام بجميع وجوه النشاط الجماعى؛ وبخاصة الدينى منه، والسياسى والاقتصادى.

والثانى: تحديد القوانين التى تحكم السلوك الإنسانى عمومًا، وفى الجماعات على وجه الخصوص.

جـ- الجذور التاريخية لعلم الاجتماع:

علم الاجتماع بوصفه يفكر فى علاقات الإنسان بغيره من الناس ويرصدها ويحكم عليها أو لها، علم قديم عريق مواكب فى قدمه وعراقته للمعرفة الإنسانية، فقد فكر فيه فلاسفة ومفكرون ومصلحون منذ زمن باكر فى التاريخ ومن هؤلاء:

١- «كونفوشوس»: الحكيم الصينى الأخلاقى الذى عاش ما بين سنتى (٥٥١- ٤٧٩ ق.م). فاهتم بتوضيح العلاقات الاجتماعية الأساسية بين الناس، واعتبر أن التبادل للمصالح بين الناس، والإحسان من بعضهم لبعض هما جوهر الصفات الاجتماعية.

٢- وتحدث عنه «أفلاطون» الفيلسوف اليونانى الذى عاش من سنة (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م)- وكان تلميذًا لسقراط (٤٦٩- ٣٩٩ ق.م).

ولـ«أفلاطون» كتابان هما: «الجمهورية» و«القوانين» يعتبرهما بعض المفكرين بحثين فى علم الاجتماع.

٣- وتكلم عنه «أرسطو» الفيلسوف اليونانى الذى عاش من سنة (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وكان تلميذًا «لأفلاطون».

وقد وصف «أرسطو» الإنسان بأنه حيوان سياسى أى اجتماعى، وكان وصفه هذا فى كتابه: «السياسة».

٤- وتحدث عن علم الاجتماع المصلح الإيرانى «مانى» الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد.

وقد ادعى «مانى» النبوة عام ٢٤٢ق.م، كما أعلن قوانين خاصة به، اعتبرها المفكرون، ذات أفكار جيدة فى علم الاجتماع.

● ثم مضت بعد هؤلاء الرجال الأربعة سنوات عديدة لم يحظ فيها علم الاجتماع بالاهتمام الجدير به، إلى أن جاء فارسه ومؤسسه الفيلسوف العالم العربى المسلم عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ- ١٣٣٢-١٤٠٦م) فقد وصف المجتمعات الإنسانية فى عصره وقبل عصره وصفًا جعل كل المشتغلين بعلم الاجتماع من بعده يصفونه بأنه مؤسس علم الاجتماع، ومنهم كثير من مفكرى الغرب أوروبيين وغير أوروبيين.

● وسوف نذكر بعض أسماء من اهتموا بعلم الاجتماع بعد ابن خلدون من فلاسفة الغرب ومفكريه:

- «مونتينى» (١٥٣٣- ١٥٩٢م) فيلسوف فرنسى.
- و«أسبينوزا» (١٦٢٢- ١٦٧٧م) فيلسوف هولندى منحدر من أسرة يهودية فرت من إسبانيا.
- و«جون لوك» (١٦٣٢- ١٧٠٤م) فيلسوف إنجليزى، يشتهر بأنه نصير الحرية.
- و«فيكو جيوفانى» (١٦٦٨- ١٧٤٤م) فيلسوف إيطالى، حاول تطبيق المنهج العلمى على دراسة التاريخ.
- و«هيوم دافيد» (١٧١١- ١٧٧٢م) فيلسوف، ومؤرخ اسكتلندى.
- و«جان جاك روسو» (١٧٢٢- ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسى من رأيه أن الإنسان خَيِّر بطبعه ثم أفسدته الحضارة.
- و«هيجل- جورج فيلهام فردريك» (١٧٧٠- ١٨٢١م) فيلسوف ألمانى، ألف موسوعة العلوم الفلسفية.

● كل هؤلاء لهم مؤلفات ودراسات تضمنت أمورًا تتصل بعلم الاجتماع، ويمكن أن تسمى: العلوم الاجتماعية.

● أما مصطلح: «علم الاجتماع» فقد نحته الفيلسوف الوضعى «أوجست كونت» (١٧٩٨-١٨٥٧م) وهو فيلسوف فرنسى اعتبر مؤسس الفلسفة الوضعية، وهو أول من عالج موضوع علم الاجتماع بطريقة منهجية.

ثم: «هربرت سبنسر» (١٨٢٠- ١٩٠٣م) فيلسوف إنجليزى له كتاب «مبادئ علم الاجتماع».

ثم: «وليام سمنر» (١٨٤٠- ١٩٢١م) أمريكى من علماء الاجتماع والاقتصاد.

ثم: «وورد لسترفرنك» (١٨٤١- ١٩١٢) أمريكى من علماء الحفريات والاجتماع.

ثم: «جيد نجر فرانكلين» (١٨٥٥- ١٩٢١م) أمريكى أستاذ لعلم الاجتماع فى جامعة «كولومبيا».

ثم: «إميل دوركايم» (١٨٥٨- ١٩١٧م) فرنسى يهودى، هو مؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع له كتاب: «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» وهو كتاب ذاعت شهرته.

● والخلاصة؛ أن مشكلات علم الاجتماع ومسائله كثيرة، لا يزال بعضها لم يحسم حتى اليوم، وقد أدت إلى ذلك النزاعات السياسية الحادة، والمصالح الاقتصادية المتضاربة، وكلاهما أضر بالعلم نفسه وحوله عن الصواب، وجعله للأغراض الخاصة والأهواء العرقية.

وعلم الاجتماع بالذات قد اتجه بعض المتخصصين فيه إلى تحقيق أهداف غير علمية بعيدة عن الحقيقة!!

● إن السياسة والاقتصاد فى كثير من بلدان العالم الغربى اليوم قد صرفت العلم عن وجهته، وسخرته لخدمة مصالحها القومية مهما كانت ضد آخرين، كما هو الشأن اليوم فى إسرائيل وبريطانيا وأمريكا ودول التحالف -أو الدول التابعة لأمريكا- حيث سخرت العلم عمومًا وعلم الاجتماع خصوصًا لاحتلال بلاد الغير والإطاحة بالشرعية الدولية وإهمال هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، كما حدث من أمريكا مع الهنود الحمر، ومن بريطانيا وفرنسا مع البلاد التى احتلتها واستوطنتها، وكما حدث من إسرائيل مع عرب فلسطين.

وكما حـدث من أمريكا فى اليابان وفيـتنام وغيرهما، وكمـا حدث منها مع أفغـانستان والعراق، وما تدبره هى وإسرائيل لبلدان ما سموه أخيرًا الشرق الأوسط الكبير، وما تكيدان به لكل بلد إسلامى فى العالم كله.

إن هذه البلدان تسخر مكتـشفات العلم للعدوان على الشـعوب بغير رحمة بل بوحـشية وضراوة، وتعذيب للمنهزم وإذلال له وامتهان لحرمـاته ومقدساته، كما حدث ويحدث فى سجون إسرائيـل، وفى سجن أبى غريب بالعراق، وفى سجن «جوانتـانامو» الأمريكى فى كوبا، ثم لا يستحون وهم يتشدقون وينعقون بحقوق الإنسان؟!! إن يقولون إلا كذبًا.

أرأيت الرجل الأبيض مـاذا يفعل ومـاذا يمارس من أعـمال مخـزية للإنسانيـة فى كل عصورها؟

هل يستطيع عـاقل أن يصدق دعاوى إسـرائيل وأمريكا وبريطانيا وهولندا وسـائر حلفاء أمريكا أو أذنابها فى الحرب غير الإنسانية فى أفغانستان والعراق، عندما يزعمون أنهم أنصار الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان؟

وبعد: هذه الجـولة فى الحديث عن المصطلحـات التى تتصل بموضوع كـتابنا هذا وهو: «التربية الإسلامـية فى المجتمع» إنما هو فرش وتمهيد للحـديث عن المجتمع الإسلامى وعن التربية الإسلاميـة فيه؛ وذلك أن المجتمع بكل أبعاده ومقومـاته يجب أن يقدم للناس التربية الإسلامية من خلال التعامل اليومى فيما بينهم.

إن المجتمع الإسلامى بكل مؤسساته وهيئاته وجمعياته الحكومية منها والمدنية مطالبة -إن كانت مسلمة- أن تقدم التربية الإسلامية للناس فى صورتها الإسلامية الإنسانية الرفيعة التى تحترم إنسانية الإنسان.

ولنبدأ بحديثنا عن الباب الأول من الكتاب وهو:

المجمتع ومقوماته. والله الموفق المستعان.



الباب الأول

المجتمع ومقوماته

الفصل الأول:

المقومات الاحتمالية للمجتمع:

١- وحدة الجنس أو رابطته.

٢- رابطة البيئة.

٣- رابطة العادات والتقاليد .

٤- رابطة الاقتصاد.

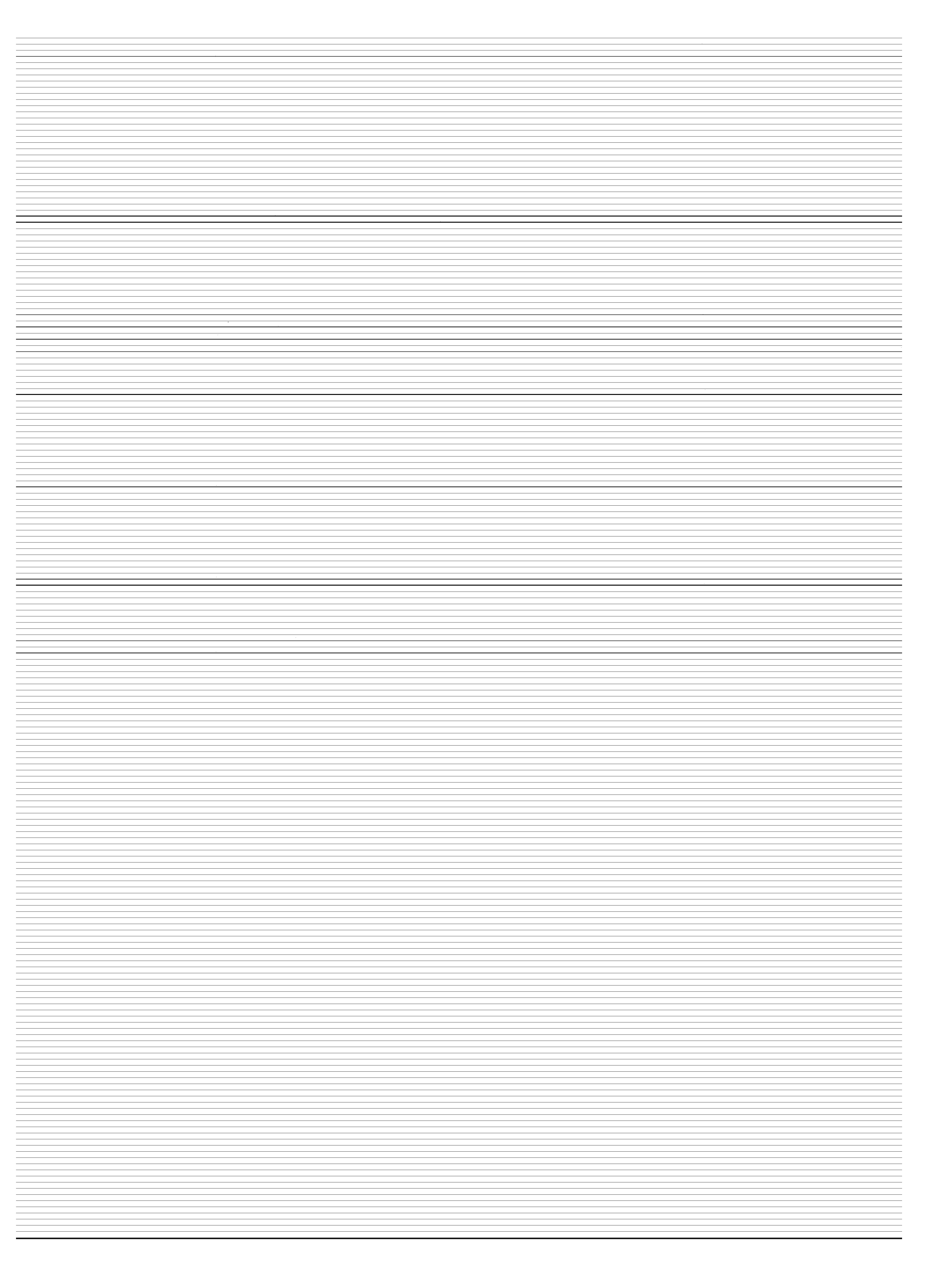
الفصل الثانى:

المقومات الأساسية للمجتمع:

١- الدِّين.

٢- والعِلم.

٣- والقومية.



المجتمع ومقوماته

المجتمع الإنسانى عموما لابد أن تكون له مقومات وأسس ودعائم يرتكز عليها، ويعبر بها عن وجوده، ويعيش عليها وتستمر بها حياته، ولا تضيع منه إلا ويفقد جزءاً من كيانه بل ربما فقد كيانه كله، وعندئذ تعمه الفوضى والاضطراب ويضيع فيه إحساس الفرد أو الجماعة بالأمان.

هذه المقومات للمجتمع هى أجزاؤه ومكوناته، مادية كانت أو معنوية، واحتمالية يرجحها بعض العلماء وينفيها بعضهم أو أساسية يجمع عليها كثير من العلماء.

هذه المقومات لأى مجتمع إنسانى لم تكن يومًا موضع اتفاق بين العلماء والمفكرين عمومًا، ولا بين علماء الاجتماع بوجه خاص، ولا هى حتى يومنا هذا موضع إجماع بين العلماء، وليس سبب هذا الخلاف أن علم الاجتماع علم حديث النشأة لم تمتد له جذور فى أعماق تاريخ العلوم، بحيث لم تتكامل دراساته حتى الآن، وإنما لهذا الاختلاف على تلك المعوقات أسباب أخرى عديدة، ولعل كثرتها وتعددها هى التى جعلت الاتفاق عليها صعبًا نسبيًا.

ولأن كل مفكر أو فيلسوف يرى من مقومات المجتمع ما لا يراه سواه، ويعطيه من الاهتمام ما يلائم مذهبه الفكرى وتوجهه العلمى، ومن هنا يبرز الاختلاف، وربما الخلاف.

وكل قائل من المفكرين بمقوم من مقومات المجتمع هو صادق فى قوله لأنه يرى ما يؤمن به ويعتقد أنه الصواب، ولا يرى ما يقول به غيره من المفكرين، وهذا حق مكفول لكل مفكر لا يصادره عليه إلا جاهل.

- وإن اختلاف العلماء فى نشأة المجتمع هو الذى جرهم إلى الاختلاف فى موضوعات علم الاجتماع ودراساته، ولكل ذلك كان اختلافهم فى مقومات المجتمع وركائزه التى يرتكز عليها فى وجوده، ولقد اشتد هذا الاختلاف بين علماء الاجتماع بشكل أكثر وضوحًا.

- غير أن مما حظى بإجماع عدد كبير من العلماء مسلمين وغير مسلمين هو ما تحدث به عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته الشهيرة[1] عن الاجتماع الإنسانى وما يتصل به، حيث اعتبره العلماء بهذه المقدمة مؤسس علم الاجتماع.

وكذلك فعل علماء المسلمين الذين انشغلوا بالعلوم الاجتماعية عمومًا، وعلم الاجتماع بوجه خاص.

وهذا وذاك مما ذكرت فى مقدمة هذا الباب الأول هو الذى جعلنى أقسم هذه المقومات إلى قسمين؛ مقومات احتمالية أو موضع خلاف بين العلماء، ومقومات أساسية يتفق عليها معظم العلماء.

وإلى الفصل الأول من هذا الباب.

(١) هى مقدمة كتابه التاريخى الشهير: «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» المشهور بتاريخ ابن خلدون.

الفصل الأول

المقومات الاحتمالية للمجتمع

وقد كانت هذه المقومات احتمالية لأنها موضع جدل وخصام بين القائلين بها والمعترضين عليها، ولكل منهما وجهة قد تُقبل وقد تُرَدّ بإثارة اعتراضات عليها كما سنرى.

وأول هذه المقومات للمجتمع هى:

١ - وحدة الجنس أو رابطته:

القائلون بذلك قسموا الناس إلى أجناس، بعضها نقى، وبعضها غير نقى، وأغلب هؤلاء أو كلهم من الغرب الذين يتجهون إلى تمجيد الجنس الذى يفترضون أنهم منه، ويرددون أنه الجنس الذى أوجد الحضارة دون غيره من الأجناس، ويرتبون على ذلك أنه جنس متميز يجب أن تكون له السيطرة على سائر الأجناس!!

وهؤلاء معروفون للناس جميعًا منهم: اليهود، والنازيون، والأمريكان اليوم.

فماذا قال هؤلاء غير هذا؟

وماذا تقول بريطانيا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا غير هذا؟

- إن نظرية وحدة الجنس وتميزه قد تبناها الغرب ونشأت فى أفكارهم وأحضانهم، ثم نفخوا فيها وضخموها ورأوها أهم مقوم من مقومات المجتمع.

ومن العجيب أن آخذ هذه الفكرة كبار مشاهير الغرب ومفكريهم، أمثال:

- «دى كوبينو» الكاتب الفرنسى المعروف،
- و«هوستن سيتورت تشامبرلن» المؤرخ الألمانى المعروف،
- و«ماديسون كرانت» الكاتب الأمريكى المشهور،
- و«لوثروب ستودارت» الأمريكى مؤلف كتاب: «حاضر العالم الإسلامى».

وعن هؤلاء وأمثالهم أخذ النازيون مبادئ العنصرية وكل ما يتصل بالاعتقاد الأجوف بنقاء الجنس.

ومن كلماتهم الشاهدة على ذلك نذكر كلمتين إحداهما لـ«ماديسون كرانت» والأخرى لـ«جروس».

- يقول «ماديسون كرانت» الأمريكى: «علينا أولا أن نوقن بأن الجنس النقى المحض باعتبار أنه قوام تركيب الإنسان العضوى والنفسى، والذى لا صلة له بالقومية واللغة؛ هو مبعث كل مظاهر الحياة فى المجتمع الحديث كما كان منذ الأزل.

إن نواميس الطبيعة تجرى فى شئون الإنسان بعين الدقة التى تجرى بها فى عالم الجماد؛ فقد ثبت لدينا منذ أن أوضحت قوانين «ماندل» أحكام الوراثة، أن بعض خصائص الجسم تنتقل حسب سنن ثابتة، وأن الصفات المتآلفة والمجتمعة فى الأجناس النقية قد يجتمع بعضها بما يخالفه، بطول الاختلاط بين أجناس متباينة؛ فيخرج تراكيب غير منسقة، بحيث نرى - مثلاً - امرأة سمراء مديدة القامة، أو شقراء قصيرتها، أو أن نرى عيونًا زرقاء مع شعر غامق، أو عيونًا نُجلاً مع شعر أشقر...

إن الطبيعة لا يعينها الفرد ولا ما تحدثه البيئة فيه من التغيير، وإنما الوراثة هى الوسط الوحيد الذى تجرى فيه نواميسها»[1].

- ويقول: «جروس» أحد زعماء النازية:

«إن علوم البيلوجيا والطب قد أعلمتنا منذ ثلاثين سنة أن أثر الوراثة فى تعيين خصائص الإنسان الجسمية والروحية أعظم بكثير من كافة مؤثرات البيئة مجتمعة، سواء منها الطعام أو الرياضة أو التربية، لأن كل هذه المؤثرات الخارجية يتوقف فعلها على الخصائص الموروثة الملائمة لها، فليس فى استطاعة إنسان أن يبدع صفة موروثة لمن لا يملكها، أو أن يجتثها ممن يتصف بها»[2].

والقائلون بأن وحدة الجنس من مقومات المجتمع، وبنقاء الجنس وامتياز الجنس، يرون الناس يعودون فى أجناسهم إلى ثلاثة أجناس هى:

١- الجنس الذى استوطن حوض البحر المتوسط، ويتميزون بصفات أهمها:

الرأس البيضاوى، والبشرة السمراء، والشعر الأسود، والعيون الفاقعة اللون، والقامة المعتدلة.

---

(١) «ماديسون كرانت»:
The Pssing of The Gast Race

(٢) W.GROSS.

٢- والجنس الذى استوطن السهول الممتدة فى أواسط أوروبا ويتميزون بصفات أهمها:

استدارة الرأس، واعتدال القامة مع شىء من الضخامة، والعيون الشهب، والشعر الكستنائى اللون.

٣- والجنس الذى استوطن أوروبا الشمالية وأصقاعها الباردة، ويتميزون بصفات أهمها:

استطالة الرأس والوجه، وامتداد القامة، والعيون الزرقاء، والشعر الأشقر.

- وعند التدقيق والتحقيق، بل عند المشاهدة نجد الواقع يؤكد خطأ هذه التصنيفات؛ إذ قد اختلطت هذه الأجناس بل امتزجت خصائصها حتى لم يعد بالإمكان العثور على أنموذج لأى منها فى جميع أنحاء أوروبا، وأن شعوب أوروبا جميعها إنما وفدت عليها من أفريقية وآسيا.

- ومما يؤكد خطأ القول بوحدة الجنس وأن الجنس مقوم هام من مقومات المجتمع، أن الحدود السياسية فى أوروبا اليوم باعتبار أن اللغة مظهر من مظاهر وحدة الجنس - كما يزعمون - هذه الحدود السياسية تكذب هذه الدعوى، ففى شبه جزيرة أيبيريا - بوصف سكانها أقرب إلى نقاوة العنصر؛ إذا قورنت بسائر أجزاء أوروبا - فى شبه جزيرة أيبيريا وحدتان سياسيتان هما: إسبانيا، والبرتغال، ومع ذلك فليست لهما لغة واحدة، وإنما لديهم أربع لغات هى:

البرتغالية، والإسبانية، والباسكية، والغطلونية.

كما أن المتحدثين بالألمانية موزعون بين: «ألمانيا»، «والنمسا»، و«سويسرا»، و«تشكوسلوفاكيا» و«بولندا» و«إيطاليا»، وهم مختلفون اختلافًا حادًا فى الجنس.

فالنظر إلى الوحدات الاجتماعية القائمة فى أوروبا باعتبار العنصرية والاستدلال على ذلك بوحدة اللغة لا أساس له؛ لأن هذه المجتمعات تجمع بينها المواطنة، وليست اللغة وحدها، ولا الجنس الواحد؛ لأن المواطنة رابطة جغرافية تاريخية سياسية اقتصادية لغوية قومية، لا صلة لها بوحدة الجنس.

- ومما أخطأ فيه القائلون بوحدة الجنس مقومًا هامًا من مقومات المجتمع، دعواهم أن وحدة الجنس تجعل لأبناء الجنس الواحد شكلاً جسديًا معينًا، وتجعلهم يتميزون عن غيرهم من الأجناس كما قالوا فى مظاهر الجسد رأسًا وقامة وشعرًا، ولون عيون؛ مما ترتب عليه - عندهم - تميزهم عن سواهم فى الملكات العقلية والنفسية، حتى إن بعض الباحثين ربطوا

بين حجم الجمجمة ووزن الدماغ ونوع تلافيفه، وبين خصائص العقل والنفس، وبالتالى فلا صلة لذلك بما تصل إليه أمة حجم جماجم أبنائها أو أوزان أدمغتهم يمثلون حضارة أرقى، لأن الواقع كذب ذلك أيما تكذيب.

وبعض الباحثين من علماء علم الإنسان نبذوا هذا الرأى نبذًا مطلقًا، حيث تبين لهم بعد بحوث ودراسات أن كثيرًا من جماجم الهمج وأدمغتهم تفوق فى حجمها وزنتها أدمغة المفكرين والعظماء من الرجال، وقال هؤلاء العلماء: إن ضبط النسبة بين حجم الجسد ووزنه، وحجم الجمجمة ووزنها يؤكد ضآلة الفروق بين الناس عمومًا فى حجم جماجمهم ووزن أدمغتهم.

● ومما أخطأوا فيه أيضًا قولهم بتفوق بعض الأجناس على بعض فى الذكاء، داعمين قولهم هذا بالفروق التى لمسوها بين بعض الناس فى الذكاء، وبالضرورة رأوا أن الجنس الذى ينتمون إليه أكثر ذكاء من أى جنس آخر!!!

وقد أكد بعض العلماء والباحثين أن ما يظهر للناس من فروق فى الذكاء، فروق ليست دقيقة ولا حاسمة، ولا ينبغى أن تكون سببًا فى إصدار حكم على طائفة ذات جنس أو عنصر واحد بأنها أذكى من طائفة أخرى، لأن هذه الفروق تتضاءل كثيرًا عندما ندخل فى الاعتبار الظروف التى تحيط بالناس، ومن هذه الظروف:

العوامل الخارجية المؤثرة على الإنسان، والقدرة المكتسبة، والعادات والاستعدادات، وأساليب التربية الخاصة، ونظام الحياة الاجتماعية، والإقامة فى مدينة أو قرية، ونحو ذلك من العوامل المؤثرة فى الذكاء.

وكيف يوصف شعب بأكمله له جنس واحد أو عنصر واحد بأنه أكثر ذكاء من شعب مختلف عنه جنسًا أو عنصرًا؟

كيف يصح ذلك مع أن المجتمع الواحد حتى وإن كان من جنس واحد أو عنصر واحد يمكن أن يختلف أفراده فى الذكاء؟

● ومما أخطأوا فيه؛ قولهم: إن شعوبًا بعينها تتميز على شعوب أخرى لأنها من جنس واحد أو عنصر واحد!!!

- فقد زعموا أن المغول يمتازون بالحذر والشجاعة والغرور والمجازفة.

- وزعموا أن الألمان بطيئو الانفعال، وأنهم أهل مثابرة وكفاح وإتقان، وتمسك بالنظام، وأن خيالهم محدود.

- وزعموا أن الإنجليز يتفوقون فى النشاط والإبداع مع إحساس بالمسئولية، وإذعان للقانون، وميل إلى الاعتدال والمصالحة.

- وزعموا أن الفرنسيين يتصفون بحدة الطبع، وسرعة الحركة وسعة الخيال، وأنهم أكثر ألفة.

- وزعموا أن اليابانيين لا تتفق صفاتهم مع التحضر الصناعى؛ لأن الحضارة الصناعية لا تتفق مع صفات الشعوب الشرقية.

- وزعموا أن الأتراك همج لا يستطيعون أن ينشئوا دولة أو يقيموا حضارة.

- وزعموا أن الروس لا يستطيعون - مهما حاولوا - أن يخرجوا من أطوار البربرية والعبودية.

- وزعموا أن العرب سطحيو التفكير، وليس بإمكانهم النظرة الكلية إلى الناس والأشياء.

وزعموا... وزعموا... إلى غير ما حدٍّ من هذه المزاعم التى تقوم على قولهم: إن الجنس أو العنصر هو الذى يصنع الفروق بين الناس.

وكل هذه المزاعم باطلة كذبها واقع هذه الشعوب، ولا يزال يكذبها، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى.

● ومما غالطوا فيه، قولهم: إن الحضارة مرتبطة بالجنس الواحد، لأنها عمل الجنس الواحد أو العنصر الواحد المتميز، وأن بعض الشعوب ذات الجنس غير الخالص أو المتميز أو الهابط -فى نظرهم - عن جنسهم الذى ينتمون إليه؛ لا يستطيعون أن ينشئوا حضارة، وقدموا على ذلك دليلاً واهيًا، هو اندثار حضارة الرومان لعدم نقاء جنسهم.

وهذا باطل يكذبه واقعهم هم، إذ ماذا يقولون عن حضارتهم فى عصور الظلام لديهم العصور الوسطى عندهم؟

هل جنسهم النقى المتميز قد تغير وعنصرهم قد تبدل؟

● إنهم زعموا هذه المزاعم وقللوا من شأن غيرهم ليقولوا: إنهم أحق بسيادة العالم، وأولى باستغلال خيراته لصالحهم، مما جعلهم يتحـولون إلى قوى استيطانية تستولى بقواتها على البلاد والعباد، مدعية أنها ترقيهم وتطورهم إلى الأحسن!!!

والسؤال الملـح هو: هل يستطيعـون أن يخرجـوا الشعـوب التى احتلوها واستـولوا على خيـراتها من جنسـهم الهابط إلى الجنس المتـميـز؟ أم أنها أكـاذيب وتبريرات لمطامـعهم وأهوائهم؟

إن العـالم لن ينسى - ولو بعـد عشـرات السنين - تبـريرات أمريكـا لغزو العـراق سنة ٢٠٠٣م بأنه يمتلك أسلحة دمـار شامل وأنه على علاقـة بتنظيم القاعدة، وتابعتـها على ذلك دول حالفتهـا على هذه المطامع فى العراق، ثم احتلوا العراق متـحدِّين العالم كله، ثم كذبوا أنفسـهم بأنفسهم وأدانوا أجهـزة مخابراتهم ذات الجنس المتميـز والعنصر النقى القادر على صنع حضارة التـدمير والتخريب وانتهاك حرمـات النساء والأطفال والسجناء والمعتقلين فى «جوانتانامو» وسجن أبى غريب.

● والحـقيـقة الناصـعـة البينة لكل ذى بصـر، التى تؤيدها شـواهد التـاريخ والجغـرافيـا والمجتمعات الإنسانية أن الحضارة كانت صناعة أجناس عديدة، وعناصر متعددة على مر التاريخ كله، وأن حضارة أوروبا الراهنة مدينة لعدد من الحضـارات فى مقدمتها الحضارة الإسلامية.

إن ذلك مسلم به بـين العلماء، إذ الحضـارة الإنسانية عـمومًا لم تكـن يومًا، ولن تكون يومًا، صناعة شعب وحده مهما كان متميزًا جنسيًا وعرقيًا، إذ لابد للحضارة الإنسانية أن تأخذ من غيرها وتعطى وإلا لم تكن حضارة إنسانية.

وإلى الحديث عن المقوم الثانى من مقومات المجتمع.

٢- وحدة البيئة أو رابطتها:

البيئة هى المجال الذى تحدث فيه الإثارة والتفاعل لكل وحدة حية من وحدات المجتمع، فهى كل مـا يحيط بالإنسـان من طبيـعة ومجـتمعـات بشرية ونظم اجـتماعـية وعـلاقات شخصيـة، وهى المؤثر الذى يدفع الكائن إلى الحركة والنشاط والسعى، فالتـفاعل متواصل بين البيئة والفرد، مع الأخذ والعطاء المستمر المتلاحق.

* ومن مقومات المجتمع عندهم: البيئة.

فهم يقولون: إن المجتمع يرجع فى خصائصه بل فى كيانه كله إلى البيئة ومؤثراتها العديدة.

وهم يرون أن وحدة الجنس أو العنصر لا وزن لها ولا تأثير. وإنما العبرة عندهم بالبيئة.

ولعل ما جاء به: «دارون» فى نظرية النشوء والتطور والارتقاء، قد روّجت هذه النزعة فى القول بأن البيئة من مقومات المجتمع، لأن كيان المجتمع وأهم من فيه وهو الإنسان، قد ادعى «دارون» أنه متطور عن مخلوق سبقه فى الخلق، ربما بملايين السنين.

وقد تبنى هذه النزعة فى القول بأثر البيئة فى المجتمع عدد من العلماء والمفكرين نذكر منهم:

- «هربرت سبنسر» (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) الفيلسوف الإنجليزى الذى طبق مبادئ التطور على تقدم المجتمعات الإنسانية.

- و«هنرى توماس بكل» (١٨٢١ - ١٨٦٢م) وهو مؤرخ إنجليزى اهتم بالكتابة عن الحضارة.

- و«مونتسيكو شارل لوى» (١٦٨١ - ١٧٥٥م) وهو فيلسوف فرنسى ألف كتاب «روح القوانين» تحدث فيه عن السلطات فى الحكومة، وقرر فيه أن السلطة تغرى بالانحراف، وأن تجمع السلطات فى يد واحدة يضاعف من خطر الاستبداد.

* وممن تحدثوا منهم عن البيئة بوصفها مقومًا من مقومات المجتمع:

- «كرانت الن» الذى يقول عن البيئة:

«إن التباين بين أمة وأخرى، سواء فى الإدراك أو فى الطباع أو الأخلاق، أو الفنون والتجارة، لا شأن له بأسرار الجنس وخصائصه، وإنما مرجعه الوحيد ما تعرضت له كل أمة من المؤثرات الطبيعية، فإن كان حقًا كما هو بادٍ للعيان أن الشعب الفرنسى يختلف فى الظاهر عن الصينيين. كما يختلف أهل «همبرك» عن أهل «تمبكتو» فإن هذا الاختلاف المشهود إنما يرجع بأسره إلى تباين مواقعهم الجغرافية، فلو أن الذين أقاموا فى «همبرك» توجهوا فى البدء إلى «تمبكتو» لما تميزوا عن الزنوج أشباه البرابرة المقيمين الآن فى هذه المدينة الأفريقية، ولو أن أهل «تمبكتو» توطنوا فى الأصل فى «همبرك» لكانوا الآن تجارًا من البيض يتعاطون تجارة رائجة فى صنوف النبيذ والخمور...

وإذن فإن عوامل التباين بين المجتمعات يجب أن تستقصى فى المعالم الجغرافية الثابتة فى البر والبحر . . . فهى التى جبلت كل شعب على وجه البسيطة بما جُبل عليه، وصيرته إلى ما صار إليه»[1].

ومنهم:

«ريمولان أدمون» عالم الاجتماع الفرنسى (١٨٥٢ - ١٩٠٧م) صاحب المؤلفات العديدة فى التربية الحديثة.

الذى يقول: «إن الإنسان لو أعاد سيرته الأولى دون أن يتبدل وجه الأرض لأعاد التاريخ نفسه بلا تحوير، وذلك لأن طبيعة أصقاع الأرض المتباينة لابد أن تؤثر فى قيام المجتمعات فتخرجها على صورتها الحاضرة»[2].

- وتأثير البيئة فى المجتمع الإنسانى معروف بحيث لا ينفيه نفيًا مطلقًا - كما نفى اعتبار الجنس مقومًا أساسيًا من مقومات المجتمع - وإنما هو معروف من قديم الزمان؛ فقد قرره أرسطو منذ زمن بعيد عندما قال: «إن الأمم التى تسكن الأقاليم الباردة حتى فى أوروبا؛ هى على العموم مملوءة بالشجاعة، ولكنهم على التحقيق أقل ذكاء فى العقل ومهارة فى الصناعة، وبهذه المثابة يحتفظون بحريتهم خير احتفاظ، ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام، ولم يستطيعوا مطلقًا أن يقهروا جيرانهم.

أما فى آسيا فالأمر على ضد ذلك، فإن أممها أكثر ذكاء وقابلية للفنون، ولكنهم تنقصهم قوة القلب، ويصبرون على البقاء تحت نيران العبودية المؤبدة»[3].

- والعالم الاجتماعى الجليل عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) من القائلين بأثر البيئة فى الإنسان وفى المجتمع فقد قال فى مقدمته: «. . . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس، والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتى النبوءات فإنما توجد فى الأكثر منها.

---

(١) نقلاً عن: «جيمس وليم» الفيلسوف الطبيب الأمريكى الذى تحول إلى علم النفس وكتب فيه، وله كتابان ترجما إلى العربية هما: «مبادئ علم النفس» و«أحاديث إلى المعلمين عن علم النفس» والنص منقول عن كتاب له هو: Gust Mer and Their Enviranment Selected Papers on Pril Phy. E. L..

(٢) نقلاً عن: Morrst. R. R. من كتابه: Antheropalgy. H.U.L..

(٣) نقلاً عن: «سانتهير بارتلمى» من مقدمته لكتاب: «الكون والفساد» لأرسطوطاليس». ترجمة أحمد لطفى السيد، ط. دار الكتب المصرية - ١٩٣٢م.

ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بها أكمل النوع فى خَلْقهم وأخلاقهم... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فنجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة، المنمقة بالصناعة، ويتنازعون فى استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون فى ذلك إلى الغاية...

وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر - يخصفونها عليهم - أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الأقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض[1] ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضًا، وكذلك الصقالبة.

والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك»[2].

● ونحب أن نشير إلى آثار البيئة فى الإنسان، لأنها آثار يدركها كل متأمل فى نفسه وفيما يحيط به، وحديثنا عن أثرها فى الإنسان يتناول:

أثرها فى الإنسان عمومًا.

وأثرها فى نفس الإنسان.

وأثرها فى اختيار الإنسان لأماكن سكنه.

وأثرها فى غذاء الإنسان.

وأثرها فى زيادة عدد السكان.

أ- أثر البيئة فى الإنسان عمومًا:

يقال: «الإنسان ابن بيئته».

ويقال: «الإنسان قطعة من أرضه».

---

(١) الغياض: جمع غيضة وهى الموضع الذى يكثر فيه الشجر ويلتف، وتسمى: الأجمة وتجمع على آجام.

(٢) ابن خلدون المقدمة: (٦٩، ٧٠) ط - المطبعة الأزهرية - ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.

ويقال: «الإنسان صورة لبيئته».

هذه كلمات تعكس آراء بعض العلماء والفلاسفة والمفكرين، ممن يقيمون وزنًا كبيرًا لأثر البيئة في الإنسان، وقدرتها على أن تشكله، وتصوغه وفق ما يتوافر فيها من هواء وماء وزرع وضرع، وحر وبرد.

وهذه المقولات أو تلك الفلسفات ملازمة دائمًا لما نسمية الفلسفة الطبيعية منذ زمن بعيد، حتى قيل إن كثيرًا من الفلاسفة القدامى قد آمنوا بذلك وتحدثوا عنه حديث الموقنين.

ولنذكر على ذلك بعض الشواهد:

- قال: «أبوقراط» كبير أطباء اليونان في كتابه: «الأهوية والمياه والأماكن»:

«إن آسيا تختلف عن أوروبا اختلافًا عظيمًا بطبيعة حاصلاتها جميعًا، سواء فيها ما يخرج من الأرض وما يخرج من ظهور الناس الذين يزرعونها، فكل ما يتولد في آسيا يفضل ما يتولد في أوروبا فضلاً كبيرًا في الجَمال وفي بسطة الجسم، جوها أكثر اعتدالاً، وأممها أدمث أخلاقًا، وأسهل قيادًا، والعلة في ذلك هي التوازن التام بين الفصول...

إن الآسيويين إذا كانوا أقل ميلاً للحرب وأكثر سلاسة في الطبع من الأوروبيين فعلة ذلك إنما هي على الخصوص في حال إقليمهم حيث لا توجد تقلبات شديدة لا في الحرّ، ولا في البرد، بل قليلاً ما يشعر الناس بتغير الجو، وحيث لا يعترى العقل صدمات، ولا يعرو الجسم تغيرات.

وتلك انفعالات من شأنها أن تكسب الخلق وحشة، وتمزج به ميلاً للجماح والعصيان، أكثر مما تفعل الحال الجوية دائمة التماثل.

إلا أن التغيرات من النقيض إلى النقيض هي التي تنبه العقل الإنساني وتمنعه أن ينام في ظلال السكون»[1].

- وقال «أرسطو»: «إن الأمم التي تسكن الأقاليم الباردة حتى في أوروبا على العموم، مملوءة بالشجاعة، ولكنهم على التحقيق أقل ذكاء في العقل ومهارة في الصناعة، وبهذه المثابة يحتفظون بحريتهم خير احتفاظ، ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام، ولم يستطيعوا مطلقًا أن يقهروا جيرانهم.

---

(١) نقلاً عن «سانتهلير»، ص (٩٢، ٩٣) مقدمة الكون والفساد مرجع سابق.

أما فى آسيا فالأمر على ضد ذلك؛ فإن أمها أكثر ذكاء وقابلية للفنون؛ ولكنهم تنقصهم قوة القلب، وهم يصبرون على البقاء تحت يد العبودية المؤبدة»[1].

- وقال ابن خلدون: «... وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم.. فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر - يخصفونها عليهم - أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس...»[2].

والخلاصة أن البيئة أثرت فى الإنسان هذه التأثيرات التى سجلها القدامى والمحدثون من العلماء والمفكرين.

ب- أثر البيئة فى نفس الإنسان:

علماء الاجتماع، وعلماء الإنسان، وعلماء البيئة، قسموا الناس إلى قسمين:

قسم يغلب عليه الخيال.

وقسم يغلب عليه التعقل والتفكير.

ويرون أن الشعوب التى توطنت البلدان الحارة، حيث تظهر الطبيعة جبروتها، فتثير فى نفوس الناس بواعث الرعب والفزع، وهما منبع الخيال، لأن الإنسان إذا أصابه رعب أو فزع لجأ إلى الخيال يخرج به عن واقعه المرعوب المفزَّع.

كما أن الطبيعة تستطيع أن تقدم للإنسان أسباب عيشه دون عناء، كما تستطيع أن توحى إليه الشعور بالضآلة والحقارة أمام جلال الطبيعة، حتى لا يرى نفسه أهلاً لاكتشاف خفاياها والتوصل إلى معرفة سُنَنها، مما يترتب عليه أن يغلب على هذه الشعوب الخيال، وتضعف فيها قوة إصدار الحكم.

وعلى النقيض من ذلك فإن الشعوب التى تتوطن الأصقاع الباردة، حيث لا يكون للطبيعة فضل ظاهر فى اكتساب عيشها، لأنها تحصل على قوتها بعد عناء وكدّ، وليس فى معالم البيئة عندهم من القوة والجبروت ما يثير فى نفوسهم الرعب والفزع، أو يوحى إلى الإنسان الشعور بالحقارة والضآلة، فهذه الشعوب يغلب عليها التعقل، وتنمو فيها قوة الحكم والميل إلى اكتشاف أسرار الطبيعة وتسخير مرافقها.

---

(١) نقلاً عن «سانتهلير» المرجع السابق: (٩٦، ٩٧).

(٢) نص نقلناه آنفًا بتمامه من مقدمة ابن خلدون.

وقد اتَّخَذَ بعضُ العلماء من الهنود مثلاً لـلصنف الخيالى، ومن الإغريق مـثلاً للصنف العقلى، فـوجدوا فى حضارة الهند أنهـا يغلب عليها الخـيال، وفى حضارة الإغـريق أنها يغلب عليها الفكر، وضربوا على ذلك أمثلة من هؤلاء وأولئك.

جـ- أثر البيئة فى اختيار الإنسان لأماكن سكنه:

من المسلَّم به أن للبـيئـة أثرًا فى اختيـار الإنسان للمـكان الذى يعيش فـيه، وذلك لأن الإنسان يفضل المكان الذى تستطيع حيواناته ونباتاته أن تعيش فيه وتنمو.

والشواهد على صحة ذلك كثيرة، نذكر منها:

- أن الشعوب الأوروبية التى كان أصلها من آسيا احتفظت بتربية الحيوانات التى جاءت بها من آسيا، وفضَّلَت الأماكن التى تعيش فيها هذه الحيوانات.

- وأن كثيرًا من الأصقاع خلت من السكان مع أن هذه الأصقاع شديدة الخصوبة وفيرة المياه العذبة، وكان سببُ خُلُوِّ هذه الأصقاع من السكان أن بيئتها تتكاثر فيها الحشرات الفتاكة، مثل: أوغنده بأفريقيا حيث يكثر فيها ذباب «تسى تسى» الذى يجلب النوم.

- والعراق، ومصر، واليـونان، وفينقية، وإسبانيـا، لها مواقعها التى سـهلت لأهلها سبل الاتصال فيـما بينها بالتجارة أو الهجـرة، أو الحرب؛ مما أثر فى تاريخها وثقافتـها وسبل العيش فيها.

● فمجاورة العـراق - مثلاً - لجزيرة العرب جلبت إليه الساميين فكان مـهد حضارتهم، ووقـوع العراق علـى طريق الفاتحين مـن الشرق والغـرب، جـعله ساحـة منازعـاتهم وحروبهم.

● وكذلك كان شأن مصر.

● وحضـارة الإغريق يرجع الفضل فيـها إلى موقع البـلاد وصلتها بالإيجيـيين، وبلدان الشرق الأدنى.

● وإسبانيا كان قربها من إفريقية وتوالى هجمـات البربر عليها سببًا جعلها لا تستطيع أن تجارى دول أوروبا فى كثير من خصائصها.

● وفينيقـية قد شذَّ أهلهـا عن بقية السامـيين، لأن لها موقعًـا ملائمًا للتجـارة أكثر من غيرها.

وبناء على ذلك؛ فقد انجذب سكان كل إقليم إليه عندما وجدوا فيه ما تحقق لهم ولحيواناتهم ونباتاتهم من أسباب المعيشة وأسباب استقرارهم، فضلاً عما يحققه ذلك من مصالحهم[1].

هذا عن البيئة التى تتوافر فيها المياه العذبة والنباتات وغذاء الإنسان وحيواناته، فتجذب الناس للإقامة فيها.

- وهناك بيئة أخرى تكون زاخرة بالمعادن، فتجذب إليها الناس فيسكنون حيث توجد هذه المعادن، لأن المعادن وبخاصة الحديد، يعتمد عليها الإنسان فى صنع أدواته وآلاته وأسلحته.

وقد تكون هذه المعادن ثمينة كما فى بيئات جنوبى أفريقية وآلاسكا واستراليا، فتجذب إليها الناس الراغبين فى هذه المعادن الثمينة، وهكذا البيئات التى تكثر فيها المياه المالحة وما فيها من أسماك ولآلئ وأحجار كريمة.

هذا ما كان عليه الباحثون والمؤرخون فى أحقاب عديدة، غير أنّ متغيرات كثيرة تحدث فى الناس والبيئات، تجعلهم يهتمون بما تحققه لهم البيئة فى غير هذه المجالات، مثل تأثيرها فى غذاء الإنسان، وفى زيادة عدد السكان مما سنشير إليه فيما يلى.

د- أثر البيئة فى غذاء الإنسان:

الغذاء فى غاية الأهمية للإنسان، لأن له وظيفتين حيويتين فى حياة الإنسان هما:

- حفظ حرارة الجسد بما يولده فيه الغذاء من حرارة تعوضه عما يفقده من طاقة وهو يمارس أعمال حياته.
- وصيانة جسده بوقايته من الأمراض، وضمان نموه بتوفير ما تحتاج إليه الخلايا من المواد «الأزوتية» من خلال قدرة الغذاء على تجديد الخلايا التى يفقدها الإنسان كذلك وهو يمارس أعمال حياته.

من أجل ذلك يبحث الإنسان عن البيئة التى تمده بهذا الغذاء ليؤدى له هاتين الوظيفتين.

- أما الغذاء الذى يمد الجسم بالحرارة، فتتوقف الاستفادة منه على استنشاق «الأكسجين» لإحراق ما فيه من «الكربون». ومن المعروف أن «الكاربون» يتفاعل مع «الأكسجين»

(١) هذا ما قرره علماء التاريخ والحضارة من الغرب والشرق، وما لا ينازع فيه أحد من علماء الاجتماع.

بنسبة ثابتة، لذلك كان مقدار حاجة الإنسان من «الكاربون» تتناسب عكسيًا مع درجة الحرارة، فكلما انخفضت درجة الحرارة ازدادت حاجة الإنسان إلى غذاء غنى «بالكاربون» والغذاء الغنى «بالكاربون» هو: زيت السمك، لذلك لجأ سكان البلاد الباردة كالإسكيمو - مثلاً - إلى تناول زيوت الأسماك، بينما لجأ سكان البلاد الحارة إلى تناول الثمار والخضراوات.

ولو تناول سكان هذين النوعين من البلاد غذاءهما؛ لفَقَد هؤلاء وأولئك صحتهم أولاً، وربما فقدوا حياتهم.

والأغذية الغنية «بالكربون» نادرة إذا قورنت بالأغذية التى تحتوى على نسب ضئيلة من «الكاربون».

وحصول الإنسان على الأغذية الغنية «بالكاربون» صعب ويكلف عناء، بينما الثمار والخضراوات متوافرة ويسهل الحصول عليها.

ومن هنا ندرك أن البيئة لها أثر كبير فى غذاء الإنسان وبالتالى فى المجتمع الإنسانى عمومًا.

هـ- أثر البيئة فى زيادة السكان:

وفرة الغذاء أو قلته - كما سنوضح - لها علاقة وثيقة بعدد السكان، فوق علاقتها بنشاط الإنسان، وأنظمة الاجتماع عند الناس جميعًا.

والقاعدة العامة فى هذا المجال هى: أنه كلما توافر الغذاء فى مكان وسهل الحصول عليه استطاع الإنسان أن يحيا باليسير منه؛ كلما تزايد عدد السكان فى هذا المكان.

ومع زيادة عدد السكان تقل أجور الأيدى العاملة، وتتراكم عندئذ الثروة فى أيدى عدد قليل نسبيًا من الناس، بينما تكون الغالبية العظمى من الناس فى فقر.

- كان ذلك معروفًا فى الحضارات القديمة التى قامت على ضفاف الأنهار، أو فى الوديان الخصبة التى يتوفر فيها الماء والزرع، والثمار والضرع.

وكان من نتيجة ذلك أن نجحت وفرة الغذاء، واعتدال الجو، ودرجة الحرارة أن ازداد عدد السكان فى هذا الإقليم، والعكس صحيح، إذ كلما ندر الغذاء وتطرف الجو ودرجة الحرارة قل عدد السكان.

والإقليم الذى تتغير ظروفه الطبيعية والمناخية لأسباب بعينها فيتوافر فيه الغذاء يصبح إقليم جذب سكانى، فإذا لم يتوافر فيه الغذاء فهو إقليم طرد سكان، ومع الجذب يزيد عدد السكان، ومع الطرد يقل عددهم.

وتطبيقًا لهذه القاعدة كانت بلاد بعينها كثيرة السكان مثل: مصر، والعراق، والهند، والصين؛ إذا قورنت بغيرها من البلاد التى لا يتوافر فيها الغذاء فيقل فيها عدد السكان.

- ولقد تنبه المؤرخون إلى ذلك من قديم وقدموا على ذلك شواهد وبراهين عندما قالوا:

– إن الذُّرة فى مصر تعطى مائتين وأربعين ضعفًا.

– وإن الذَّرة فى المكسيك تعطى أربعمائة ضعف.

– وإن النخيل فى العراق بالغ الحد فى الكثرة، وإن التمور فيه من الوفرة بحيث يطعمونها الإبل والدواب.

– وإن الخضراوات والفواكه والثمار فى مصر وفيرة وكثيرة؛ حتى إن العرب عندما فتحوا مصر وجدوا فى مدينة الإسكندرية وحدها نيفًا وأربعة آلاف بائع للخضراوات والفواكه والثمار، فى الأسواق.

لذلك زاد عدد السكان فى هذه البلاد، وإن نظرة إلى نسبة الزيادة السكانية فى هذه البلاد تؤكد هذه الحقيقة(١).

- وقد قال «هيرودت» عن مصر قديمًا: إن فيها عشرين ألف بلدة غاصة بالناس(٢).

٣- رابطة العادات والتقاليد:

يعتبر بعض العلماء والباحثين فى علم الاجتماع أن العادات والتقاليد مقوم من مقومات المجتمع، لأنها فى رأيهم رابطة من روابط المجتمع، لأنها تحتوى الإنسان وتسيطر عليه وتوجه سلوكه فى كثير من الأحيان.

وهذا القول أو ذاك الاعتبار جعل المفكرين يؤكدون القول بتأثير العادات والتقاليد فى المجتمع، بل يقيمون وزنًا كبيرًا لأثرها فى المجتمع، حتى قالوا: إن أى شعب لو نظر فى عادات الشعوب وتقاليدها، ثم خُيِّر بينها وبين عاداته وتقاليده، لاختار عاداته وتقاليده، لأنه يراها أفضل من سائر العادات والتقاليد.

---

(١) سكان مصر اليوم: ٧٢ مليونا، وسكان المكسيك ١٠٣ ملايين، وسكان العراق ٣٥ مليونًا، وسكان الهند ١٠٦٥ مليونا، وسكان الصين ١٣٠٤ ملايين نسمة حسب إحصاء هيئة الأمم المتحدة ٢٠٠٣م.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة .. الكتاب الأول: الشرق الأدنى: الباب الثامن: مصر- الفصل الثالث.

- ولابد أن تكون العادات والتقاليد - على الرغم مما قالوا فيها - عائقًا من عوائق التقدم والرقى، بل من عوائق التحضر؛ وذلك أن جمود الناس على العادات والتقاليد يحول بينهم وبين تطوير المجتمع الذى يعيشون فيه، أو القيام بأى عملية إصلاحية، وهذا أثر سلبى للعادات والتقاليد.

ويضاف إلى هذا الأثر السلبى أثر سلبى آخر هو زعم معظم الناس أن الماضى خير من الحاضر خيرية مطلقة[1]، ويستدلون على ذلك بما يشاهدونه أحيانًا من موجات ظلم وطغيان يمارسها حاكم مستبد يخنق الحريات ويقهر الإنسان ويعتدى على حقوقه فيصيحون قائلين: إن الماضى كان خيرًا من ذلك، ثم راحوا يترحمون على يوم من أيام هذا الماضى، وبالتالى فلا يحاولون إصلاح شىء يأسًا من هذا الحاضر البغيض.

وعندما يرى الناس أن حب المال والشهوات مسيطر على الناس عابث بالفضائل المألوفة عندهم، والعادات والتقاليد الموروثة فيهم، يجأرون صائحين: إن المجتمع بهذه العادات والتقاليد مقبل على كارثة.

هذا شأن الناس منذ كان لهم عادات وتقاليد، يجعلون من الماضى فترة ذهبية يفترضون أن الإنسان قد بلغ فيها قمة رقيه وازدهاره، مع تصورهم أن العصر الذى يعيشون فيه عصر تدهور وانحدار لعبثه بالعادات والتقاليد.

ولقد بلغ ببعض الناس المتشبثين بالعادات والتقاليد أنهم يضيقون بحياة المدن والحواضر - إن كانوا هم من أهل الريف أو البوادى- لاعتقادهم أن العيش فى المدينة يؤدى إلى ضعف الصحة وانحطاط الحيوية التى كانوا يألفونها فى قراهم وبواديهم.

- غير أن ذلك ليس مسلَّمًا به لدى كثيرين من العلماء والباحثين فتصدوا للرد عليهم وإبطال ما ذهبوا إليه من أن العادات والتقاليد مقوم أساسى من مقومات المجتمع، فقالوا: إن هناك عددًا من الحقائق تعارض ما ذهبوا إليه، ومن هذه الحقائق:

- ليس من الحق ولا من الصواب أن يتصور الناس الماضى على أنه فترة ذهبية زاخرة بالخير، لأن حياة الملوك والأمراء والأشراف وقادة الجيوش، والمقرَّبين من كل هؤلاء كانت حياة رفاه ورغد - كما صورها مؤرخو الملوك والسلاطين وأصحاب الجاه - مع

(١) نحن المسلمين نعتبر أن خير قرون الإسلام هى الثلاثة الأولى، القرن الذى عاش فيه الرسول ﷺ والقرن الثانى والقرن الثالث، لما رواه الطبرانى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «وخير الناس قرنى، ثم الثانى، ثم الثالث. ثم يجىء قوم لا خير فيهم».

تجاهل حياة عامة الناس من فلاحين وعمال وفقراء، وما يسيطر على هذه الحياة الفقيرة من بؤس وانحطاط وعبودية.

ومعنى ذلك أن العـادات والتقـاليد التى كانت سـائدة لم تكن خيـرًا، ولم تكن قادرة بعاداتها وتقـاليدها على كبح جماح المسـتغلين الظالمين، ولا هى قادرة على رفع الظلم والمعاناة عن الفقراء والعمال والضعفاء.

هذه حـقيـقة لا ينكرها أحـد، فعـلام البكاء على زمن مـضى كان حـافلاً بالعـادات والتقاليد؟

- وليس من الإنصـاف أن تتجـاهل القيـود الدينية، وتحكم رجـال الدين فى الناس إلى درجة تقرب من اتخـاذهم عبيدًا، كـما لا يمكن تجاهل سيطرة الكهـان والسحرة، ولا تجاهل الحـروب الطاحنة التى كان يشنها زعـيم على زعيم آخر، وكـيف يسوق الاثنان الناس إلى هذه الحروب جنودًا وقـادة ليموتوا فى حـرب لا ناقة لهم فيهـا ولا جمل، وإنما هى مطامع زعماء وكبراء.

فهل أغنت العادات والتقاليد عن هذه الحروب أو حالت بين الناس وبين الموت فالخراب فالدمار؟

فَعَلامَ الاعتزاز بهذه العادات والتقاليد؟

- وليس صحيحًا أن يقف الناس مشدوهين أمام بعض الآثار الباقية كالأهرامات والمسلاَّت والنقـوش والزخـارف والمقابر وآثار القـصـور فيكـون لذلك نوع من التـقديس لهـذه الأشياء، بل الأصل أن ينظر إليها الإنسان نظرة المتأمل المتدبر فى الأغراض التى شيدت من أجلها هذه الآثار ليأخذ العبـرة وينظر كيف كـان هؤلاء، عادلين أو ظالمين، وألا ينسى ألوف الضحايا الذين ذهبت حياتهم فى سبيل إقامة هذه التماثيل، وألا يغفل عن تلك الأموال التى أهدرت والتى جـمعت ظلمًا واعـتسافًـا من أجل أن تقام هذه الآثار وتلك التماثيل، مع التدبر فيما كان عليه هؤلاء الحكام من طغيان وقهر للبلاد واستبداد بالعبـاد، ولابد من التفكر فى حال شعب بـلغت من السوء حَدّ أن يعمل فى السـخرة والعبودية لصالح زعيم أو رئيس.

- كل ذلك كان وكانت له دلالته على هوان الشعوب التى قال أحد رؤسائها للناس بعد أن حشرهم مناديًا عليهم: أنا ربكم الأعلى!!!

ماذا أجدت العادات والتقاليد التى كانت عند الناس لترد عنهم تأله أحدهم عليهم.

وبعد: فنحن لا ننكر أثر العادات والتقاليد ولا نقلل من شأنها، ولا من تأثيرها على الناس والمجتمع، لكننا نؤكد أن العادات والتقاليد مقوم ضعيف أو احتمالى من مقومات المجتمع، بدليل تلك الاعتراضات التى تحدثنا عنها على لسان المعترضين.

وتبقى رابطة أخيرة من الروابط التى اعتبرت من مقومات المجتمع الاحتمالية، لا الأساسية - كما سنوضح ذلك - فى الصفحات التالية إذا أذن الله - وهى الرابطة الاقتصادية.

٤- رابطة الاقتصاد:

يرى بعض الباحثين من علماء الاجتماع وغيرهم أن رابطة الاقتصاد فى المجتمع مقوم من مقومات المجتمع، يضيفونه إلى ما ذكروا من مقومات، وإن لم يسلم لهم بذلك كل العلماء.

والاقتصاد الذى يقولون إنه من مقومات المجتمع يقصدون به: «الأسلوب الذى يعتمد عليه الإنسان فى تحصيل طعامه ولباسه ومسكنه، وما هو بحاجة ضرورية أو كمالية إليه» كما يلحقون بمفهوم الاقتصاد المؤسسات والنظم التى تمكن الإنسان من الحصول على هذه الضروريات أو الكماليات.

ويضيفون إلى مفهوم الاقتصاد كل ما له صلة بإنتاج الثروة (السلع والخدمات) وما يقتضيه ذلك من علاقات تعاون أو تنافس، أو صراع[1].

● وكل نشاط اقتصادى هو بطبيعته اجتماعى، لأن الناس لا يبذلون جهودهم الاقتصادية للحصول على ضرورياتهم أو كمالياتهم، وهم فى عزلة بعضهم عن بعض بل وهم فى مجتمع، لأن كلاً منهم فى حاجة إلى الآخر فيما يمارسه من نشاط اقتصادى.

وهذه العلاقة - من أجل الاقتصاد - متنوعة، ربما تكون غير ميسورة الحصر، غير أننا نشير منها إلى ما هو أساسى، مثل:

- علاقة العمال بصاحب العمل.

- وعلاقة المنتج - لسلعة أو خدمة - بالمستهلك.

---

(١) أكثر من دائرة معارف فى الموضوع.

- وعلاقة المنتج بمنتج آخر.

- وعلاقة المستهلكين بعضهم ببعض.

كل تلك العلاقات هى التى تجعل من المجتمع قـوة عاملة متشابكة المصالح، ومؤثرة فى الوقت نفسه فى النشاط الاقتصادى ومتأثرة به.

وسوف نقصر حديثنا فى الاقتصاد بوصفه مقومًا من مقومات المجتمع على نقطتين:

الأولى: قوة تأثير الاقتصاد فى المجتمع.

والآخرى: الرد على القائلين بقوة تأثير الاقتصاد فى المجتمع.

أ- قوة تأثير الاقتصاد فى المجتمع:

لهذه القوة مظاهر عديدة أمكن أن نجملها بعد اطلاع على كـثير من قضايا علم الاقتصاد وعلم الاجتماع، فى عدد من المبادئ العامة التى نشير إليها فيما يلى:

١- حاول الناس أن يجـعلوا المواد الطبيـعية صـالحة وكافـية لسد احـتياجـاتهم من الطعام واللباس والمسكن وسائر ضرورياتهم أو كمالـياتهم، فشرعوا فى العمل من أجل ذلك، فنشأت بينهم صلات تعاون أو تنافس فى الحصـول على المواد الأولية، كما شرعوا فى تنظيم الإنتاج والتوزيع، فكانت القوانين المنظمة لذلك.

وكانت نتيجة هذا التنظيم أن انقسموا إزاء هذا التعاون أو التنافس إلى فريقين:

- فريق امتلك المواد الأولية الطبيعية وامتلك أدوات إنتاجها وآليات هذا الإنتاج.

- وفريق التزم بالعمل فى مقابل أجر، تحت إشراف الفريق الأول وإدارته.

٢- وقال الاقتصاديون بصعوبة فصل الفكر - فى المجتمع - عن العمل، بحجة أن العوامل الفكرية كلها ليست إلا صدًى للعوامل المادية.

وقالوا: إن الدين والقـوانين والتربية والفن وأسلوب المعيـشة، والمأكل والملبس والمسكن لها صلة وثيقة بأساليب الإنتاج.

بل قالـوا: إن التقاليـد والمُثُل تتكيف دائمًـا مع الماديات، بل لا سبـيل إلى فهم كـيان المجتمع الإنسانى إلا مع تحليل الأسس الاقتصادية التى يقوم عليها المجتمع.

فالاقتصاد إذن مَقَوِّمٌ من مقومات المجتمع.

٣- وقالوا: إن الروابط والعلاقات الناشئة عن الإنتاج والتوزيع هى التى تؤلف كيان المجتمع الاقتصادى، أى ما يضم كافة عوامل الإنتاج من مواد أولية وآليات وعمال ومهارة.

ومن هذه العلاقة تنشأ فى المجتمع سائر النظم والقوانين بل المشاعر والقيم الخلقية.

فالبداوة والإقطاع والرأسمالية، والاشتراكية، كلها عند التحليل أنظمة اقتصادية قائمة بذاتها.

وعلى سبيل المثال عندهم:

إن القبيلة، والغزو، والأخذ بالثأر، وإكرام الضيف؛ كلها أمور ملازمة للبداوة، أى ناشئة عن الأساس الاقتصادى الذى قامت عليه القبيلة.

وهكذا سائر النظم كالرأسمالية والاشتراكية والإقطاع، وأى نظام اجتماعى.

٤- وقالوا: إن النظام الاقتصادى يقوم على احتكار وسائل الإنتاج، وأسباب الثروة عندهم تأتى من قبل طبقة من المجتمع تملك وتكسب وأخرى تعمل ولا تملك.

وفرعوا بناء على ذلك فروعًا ثلاثة:

- ففى ظل النظام الاقتصادى القديم الذى يقوم على الرق هناك السادة والعبيد.
- وفى ظل نظام الإقطاع، هناك مالك الأرض والفلاح الأجير.
- وفى ظل الرأسمالية هناك صاحب العمل والعامل.

● وهذا التفاوت الاقتصادى بين هؤلاء جميعًا هو الذى يؤثر بقوة فى نظام المجتمع، ويعتبر مقومًا من مقوماته.

٥- وقالوا: إن الفارس فى ظل الإقطاع - مثلاً - يعد مثار سخرية فى المجتمع الرأسمالى.

وإن القديس فى العصور الأوروبية الوسطى يعتبر منحرف العقل فى المجتمع المعاصر.

وإن الثائر على وضع اجتماعى معين يعتبر مجرمًا فى حالة فشله، بينما يعتبر بطلاً لو نجح فى تقويض هذا الوضع الاجتماعى الذى ثار عليه.

فالأوضاع الاقتصادية هى التى تحرك الثورات وهى التى تحكم عليها بالنجاح أو الفشل، وهى التى تشجع على العمل والاختراع والكشف والرحلة والانتقال، بل إن اكتشاف قارة أمريكا كانت تحركه عوامل اقتصادية.

ولا تزال حتى اليوم تتحرك الحروب وتُحتَل أرضُ الغير، وتداس القوانين والأعراف الدولية بل ربما يباد الناس بعد أن يسلبوا حقوقهم الطبيعية لأسباب اقتصادية، كما فعلت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا والبرتغال وإسبانيا فى حملاتها الاستيطانية التى سمتها استعماراً، وكما فعلت أمريكا بالهنود الحمر واليابان وألمانيا وفيتنام والصومال - وما لا أحصى من البلاد - التى أحدثها احتلال أفغانستان والعراق، ليس وراء ذلك كله إلا مطامع اقتصادية، لقد أصبحت العوامل الاقتصادية حاكمة للعوامل السياسية.

ومن أجل هذا يقولون: إن الاقتصاد مقوِّم من مقومات المجتمع.

٦- وقالوا: إن كل ثورة أو انقلاب عسكرى يستهدف نظامًا اقتصاديًا يقضى عليه، لأنه فاسد فى نظر الثائرين أو الانقلابيين أو الطامعين المستوطنين، ويحاول أن يوجد نظامًا اقتصاديًا صحيحًا جيدًا، يعالج كل قضايا المجتمع الاقتصادية، ويقرب بين الطبقات، ويحقق العدالة الاجتماعية.

هكذا يقول الثوار أو الانقلابيون دائمًا، فإذا نجحوا فهم أبطال مغاوير، لكن شيئًا مما زعموه من حلول للمشكلات الاقتصادية ما حدث أبدًا على مدى نصف القرن الذى عاصرتُه وأنا قادر على رصد الأحداث، فإن القائمين بهذه الثورات أو الانقلابات معظمهم تحولوا إلى حكام مستبدين وإلى إقطاعيين يملكون كل شىء فى البلاد حتى هواءها وماءها!!!

إنهم نجحوا فى احتكار وسائل الإنتاج بل ملكوها، وإن زعموا أنها ملك الشعب أو الجماهير؛ لأنهم وحدهم الذين يتصرفون فيها تصرف الملاك، والويل كل الويل والاتهام بالخيانة العظمى لكل من يعترض على ذلك من الشعب أو الجماهير.

محركهم هو الاقتصاد والمطامع والأهواء والشهوات، وإن زعموا أن ذلك باسم الشعب أو العلمانية أو الديمقراطية أو الاشتراكية أو الشيوعية أو اللاإسلامية.

ما يخفى أمرهم على أحد، ولكن السلطة وأذناب البقر والسجون والمعتقلات والتعذيب حتى الموت، أو السجن المؤبد، كل ذلك يجعل الناس فى رعب إن تكلموا، وفى ضيق إن سكتوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ب- الردّ على القائلين بقوة تأثير الاقتصاد فى المجتمع:

بعض العلماء والمفكرين وبعض علماء الاجتماع لم يعترفوا للاقتصاد بهذه الهيمنة وذلك التأثير القوى فى المجتمع، فكانت لهم وجهة أخرى ساقوا من أجلها ما استطاعوا من الشواهد والبراهين، ومن تلك الشواهد والأدلة التى رفضوا بها أن الاقتصاد من أقوى مقومات المجتمع ما نذكره فيما يلى:

١- قالوا: إن حصر مقومات المجتمع فى عامل واحد هو الاقتصاد أمر لا يؤيده الواقع الذى يعيشه الناس؛ لأن أى مجتمع إنسانى لا يمكن أن يكون متأثرًا بعامل واحد مهما كان شأن هذا العامل، وإنما الطبيعى والمشاهد أن يتأثر المجتمع بعوامل كثيرة منها الضعيف ومنها القوى.

ومما يؤيد ذلك أن التاريخ ينبئنا أن كثيرًا من التحولات الاجتماعية يرجع السبب فى كثير منها إلى مؤثرات عديدة، منها:

- المؤامرات المدبرة للوصول إلى الحكم، أو إلى بسط السلطة، أو إلى إقصاء حاكم.

- والمطامع فى بلاد الغير وما فيها من خيرات.

- ومنها الأهداف الدينية أو العرقية.

- ومنها التسلط الحزبى.

- ومنها عوامل جغرافية، أو نحو ذلك.

وهذه عوامل متباينة أشد التباين، وإرجاعها جميعًا إلى عامل واحد هو العامل الاقتصادى نوع من التعسف، ومخالف للحقيقة.

٢- وقال المعترضون: إن تغليب العامل الاقتصادى فى التأثير على المجتمع دون سائر العوامل القوية مثل:

- العامل الروحى والدينى.

- والعامل الفكرى والثقافى.

- والعامل التاريخى والقومى.

تغليب العامل الاقتصادى على تلك العوامل، على الرغم من أن العامل الاقتصادى عامل مادى ليس له بريق هذه العوامل ولا مكانتها عند الناس، ترجيح بلا مرجح كما يقال، لأن المجتمع الذى تتجاهل فيه هذه القوى والعوامل الدينية والروحية والفكرية والتاريخية لحساب قوة مادية، ليس بمجتمع سليم البناء ولا صحيح التوجه.

نعم لا ينكرون أثر القوة المادية أو الاقتصادية، وإنما يقولون: ليست هى كل شىء، ولكنها إحدى القوى، وعلى الرغم من أن الصراع مستمر بين هذه القوى الدينية والروحية والقوى المادية، ولا ينتظر أن يتوقف؛ لأن تلك من سنن الله تعالى فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، على الرغم من ذلك فإن الدين الحق لا يمكن أن يتجاهل قوة الاقتصاد ولا قوة المادة.

والناس بحكم فطرتهم التى فطرهم الله عليها، يؤثرون فى معظمهم الدين على المادة، والمتابع لهذه القضية يدرك أن المذهب المادى جاف لا يقبل الناس عليه بمقدار ما يقبلون على الدين وقيمه ومثالياته.

وكل ذلك ليس فى صالح القول بجعل الاقتصاد على رأس مقومات المجتمع.

٣- وقالوا: إن تغليب العامل الاقتصادى على كل العوامل التى تعد من مقومات المجتمع يتجاهل الإنسان بل يزرى به وبأثره فى المجتمع، وذلك ما لا يقبله العقل ولا يرضاه المنطق، فالإنسان مكرم عند الله، بل خلق الله ما فى السموات وما فى الأرض من أجله.

وهذا الإنسان مؤمن بفطرته التى فطره الله عليها، بل هو متديّن بالفطرة كذلك، وهو بذاك الإيمان وذلك التدين يحمى نفسه من الحيرة والقلق والضياع التى تجلبها على الإنسان ثقته الشديدة فى عقله التى تجعله أحيانًا يأخذ بما يرجحه له عقله دون الاعتماد على الإيمان والتدين، ولو فعل الإنسان ذلك معتمدًا على عقله وحده دون ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه ورسله، وأتصور أن هذا الإنسان المعتمد على عقله وحده سوف يكون مصيره نفس مصير حمار الفيلسوف «بوريدان»، فقد حكوا عن هذا الحمار الفيلسوف أنه وضع بين يديه علفتين متساويتين، فنظر إليهما وتساءل بأيهما يبدأ فى الأكل؟ مع أن العلفتين متساويتان تمامًا من كل الوجوه، فلم يجد سببًا عقليًا يجعله يبدأ بإحداهما دون الأخرى، فظل على هذا التردد حتى قتله الجوع مع أن الطعام بين يديه!!!

إن الإنسان سيـد مخلوقات الله فى هذا الكون، فكل تجـاهل أو إهمال له أو لفطرته أو ملكاته وقدراته، وتأثيره على المجتمع موقف غير صحيح إنسانيًا ودينيًا وخلقيًا وعقليًا، حتى لو صدر هذا التجاهل أو الإهمال من علماء الاقتصاد.

وبعد، فإن هذه المقومات الاحتمالية الأربعة للمـجتمع إنما وصفناها بأنها احتمالية لكثرة من اعتـرضوا عليها وكـثرة ما قدمـوا من أدلة وشواهد على إبطال كل واحدة منهـا، سواء أكانت رابطة الجنس أو البيئة أو العادات والتقاليد أو الاقتصاد.

ثم نتحـدث فى الفصل الثانى من هذا البـاب عن المقومات الأسـاسية للمجـتمع، والله الموفق المستعان.

*****

الفصل الثاني

المقومات الأساسية للمجتمع

وقد اعتبرنا هذه المقومات التى هى الدين والعلم والقومية، أساسية لأن الذين نازعوا فى كونها من أهم مقومات المجتمع لم يستطيعوا أن يأتوا فى نزاعهم بما يقنع أو يرضى العقل.

وإنما كانت هذه المقومات للمجتمع أساسية، لأنها أشد التصاقًا بالإنسان، ولأن الإنسان لا غنى له عنها، ولو فارقها لضاع وتخبط فى أودية الكفر والجهل وفَقْد الانتماء، وحاجة الإنسان إلى الإيمان والعلم والانتماء حاجة أساسية فطره الله تعالى عليها؛ فهو لا يستطيع أن يعبر عن إنسانيته الكريمة الصحيحة إلا من خلال هذه المقومات الرئيسية فى حياته.

- إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة إنسانية اجتماعية بغير دين وتَدَيُّن، لأن الحياة الإنسانية الكريمة المحاطة بالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، لا تكون إلا مع التمسك بهذه القيم، بل تبادل التمسك بها مع الآخرين.

- وإن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة نافعة له ولغيره، وموفورة الاحتياجات والخدمات إلا بالعلم، والعلم فى حقيقته وجوهره هو الذى ييسر بآلياته التعامل مع الحياة، والحصول على أسباب الراحة والاطمئنان والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التى أباح الله لعباده.

- والإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة إنسانية اجتماعية كريمة إلا أن يكون منتميًا إلى قوم يؤازرهم ويؤازرونه، ويعاونهم ويعاونونه على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

وإن القومية تغذى وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة الوطن، والوحدة السياسية، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش حياة اجتماعية راشدة إلا وهو منتم إلى قوم يعززون فيه هذا الانتماء.

ومن أجل هذا قلنا: إن الدين والعلم والقومية من المقومات الأساسية للمجتمع الإنسانى ونرجو أن نزيد ذلك إيضاحًا فى الصفحات التالية إذا أذن الله.

١ - الدِّين:

كلمة الدين ذات دلالات عديدة لكنها متقاربة من حيث الهدف والغاية، ومن حيث التوجهات، ومن ذلك:

الدِّين: بمعنى الطاعة والانقياد لشريعة الله تعالى، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ..﴾ [النساء: ١٢٥].

والدِّين: بمعنى الجزاء.

والدِّين: الملة.

والدِّين: الإخلاص، ومنه قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. لأن الإخلاص لا يتأتى فيه إكراه.

- والدين قوى الاتصال بأعمق العواطف والمعتقدات التى تدفع الإنسان نحو الكمال.
- والدين يشتمل على الدوافع التى تحكم سلوك الإنسان، وتوجه علاقته بربه وبنفسه وبذويه وبمن حوله من الناس فى داخل وطنه وخارجه.
- والدين قوة عليا يشعر الإنسان بوجوب خضوعه لها، من أجل أن يحيا حياة إنسانية كريمة تسيطر عليها القيم الصحيحة الفاضلة.
- والدين قد شَغَلَ التفكيرُ فيه طوائف من علماء الدين، وعلماء الاجتماع، والفلاسفة وعلماء النفس، وعلماء التاريخ.
- وتاريخ الأديان علم يقوم على الافتراضات فيما يتصل بالمراحل الأولى البدائية من الدين، وما يملك أحد من الأدلة شيئًا إلا بعد الأديان السماوية التى أنزلت على موسى عليه السلام؛ التوراة، وعلى عيسى عليه السلام؛ الإنجيل، وعلى خاتم الرسل محمد ﷺ؛ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.
- والديانات فى تاريخ الإنسانية كثيرة لكن المكتوب عنها قليل باستثناء الديانات السماوية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلام[1].

والدِّين الحق هو الذى ختم الله تعالى به الأديان السماوية وأنزله على خاتم رسله محمد ﷺ، وأوحى به قرآنًا عربيًا غير ذى عوج.

---

(١) مثل: الديانة المصرية القديمة والديانة: البابلية، والديانة اليونانية، والديانة الرومانية، والديانة الطاوية التى تقوم على التأمل الصوفى ومخاطبة العواطف، والديانة الكونفوشية التى تقوم على تأكيد الروابط بين الأفراد، وعلى الوسطية وترك التطرف.

- وسنقصر حديثنا عن الدين فى مجالنا هذا على موضوعين:

أحدهما: عمق الدين وعراقته فى تاريخ الإنسان.

والآخر: العلمانية بديل عن الدين عند أصحابها.

أ- عمق الدين وعراقته فى تاريخ الإنسان:

رافق الدين الإنسان منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام وكلفه، لأن الدين فى حقيقته وجوهره؛ تكليف من الله تعالى لعباده، والتكليف هو مجموعة ما أمر الله تعالى به، أو نهى عنه، من خلال رسله عليهم الصلاة والسلام، وكتبه التى أنزلها على رسله عليهم السلام.

- وبعض الفلاسفة يعتبرون الدين نظرية من نظريات الحقيقة التى تتعلق بالكائن الأعلى وعلاقته بالإنسان، وبالعلة الأولى للوجود، وبغاية الوجود.

ويقولون: إن الواقع الدينى يلازم الطبيعة الإنسانية ويواكبها، بحيث لا تخلو حياة الإنسان الأولى من الدين.

ويؤكدون قولهم هذا بإثبات أن الدين لم ينحصر فى جماعة من الناس دون جماعة، ولا فى رقعة من الأرض دون سواها.

كما أنهم يرون أن الدين لم ينحصر فى السلوك الفردى المنعزل بل تعداه إلى السلوك الجماعى.

ويرون أنه من الصعوبة بمكان أن نفهم حضارة إنسانيةً مَّا بمعزل عن الدين، لأن الدين جزء من الحضارة.

- وعلماء الاجتماع يقولون: إن رابطة الدين اندمجت برابطة المدنية أو الدولة، فكان لكل مدينة دين يخصها، كما كان لكل دولة دين تنفرد به.

وضربوا لذلك مثلا بالسومريين، والأكاديين[1]، حيث كان لكل منهما إِلَهٌ خاص وبخاصة بعد قيام الدولة.

---

(١) السومريون شعب قديم ظهرت حضارته جنوبى العراق- بلاد ما بين النهرين منذ الألف الخامس قبل الميلاد- فجر التاريخ يتكلمون السامية، ويرجع إليهم الفضل فى اختراع نظام الكتابة بالخط المسمارى، والأكاديون شعب يعيش فى الجزء الشمالى من بابل ويتكلم أهله اللغة السامية، وبينهم وبين السومريين صراع وحروب.

• وعندما آلت الدولة إلى امبراطوريات عالمية وجمعت فى داخلها شعوبًا شتى، كان ذلك ممهدًا لطريق إدراك وحدانية الله تعالى، ووحدة البشر.

وهكذا تهيأت الأسباب إلى ظهور الأديان العالمية لتوجيه حياة المجتمعات الإنسانية بالدعوة إلى الإخاء الإنسانى، ومكافحة الرّق والعبودية، وتخفيف الفوارق الاقتصادية، وحَثّ الناس على طلب العلم والمعرفة، وعلى التمسك بمكارم الأخلاق.

• ولم يستطع بعض الناس أن يدركوا أهداف الأديان فانحرفوا عنها، والتوت الرؤية الصحيحة للدين عند بعض مَنْ يسمون أنفسهم: «رجال دين» فلم يفطنوا إلى مبادئ الدين وقيمه، فأصبح الدين لديهم -وفى أوروبا بالذات- قيدًا على الناس وأغلالا يفرضها رجال الكنيسة على جميع الناس حكامًا ومحكومين.

وبسلطان الدِّين أخذ رجال الكنيسة يشبعون مطامعهم فى المادة والجاه ونفوذ الكلمة وتسيير الجيوش وشن الحروب.

وقد اتخذ رجال الكنيسة من مبادئ الدين المسيحى السامية السمحة وسائل لجمع المال وللتحكم فى الرجال والأعمال بل فى الملوك والأمراء، وخدعوا الناس بالبهارج والشكليات والطقوس الجوفاء، وتغطية العقل بالتُرّهات والأباطيل، وتعطيله فى أحيان كثيرة.

ونشرت الكنيسة فى الناس عقوبة الطرد من رحمة الله تعالى لكل من تخول له نفسه مخالفة أمر من أوامر الكنيسة، حتى إن الناس ثاروا مفكرين وأمراء وحكامًا وشعوبًا على هذا التحكم باسم الدين، بعدما عانوا من ذلك ما لا يطاق؛ لذلك لم يكن مستغربًا من الناس أن يروا بالنظام الكنسى الدينى نظامًا علمانيًا يعزل الدين عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

• وعلى الرغم من كل ذلك ظل الدين مقومًا من المقومات الأساسية للمجتمع، بل من أهم مقوماته أحقابًا عديدة، بل لا يزال كذلك على الرغم من اختلال الرؤية للدين، وذهولهم عن حقيقة أهدافه بفعل المتغيرات الاجتماعية المستمرة فى حياة الإنسان، وهى متغيرات فرضتها القيم المادية والنظرة الاستعلائية من الغنى إلى الفقير، ومن الدول القوية إلى الدول الضعيفة، ومن المستوطِنين إلى المستوطَنين.

وبهذه المتغيرات فى المجتمعات الإنسانية أخذت القيم الدينية تنحسر قيمة وراء قيمة، لتحل محلها قيم فاسدة مفسدة، تقوم على تسخير القوى للضعيف، واستغلال الغنى للفقير، واعتساف الحاكم بالمحكوم.

ونتيجة لذلك؛ سريعًا ما توارت قيم العدل والشورى والإحسان، والصدق والعفة، والأمانة والإخلاص إلا فى القليل النادر من الناس، وحلّت محلها قيم: الظلم والاستبداد والكذب والغش والخيانة والغدر والمجون والخلاعة، وما لا يحصى من قيم رذلة جاء بها الإنسان الذى انفلت من قيم الدين وخرج عن إطار ما أَحَلَّ الله تعالى، وما حرَّم.

ب- العلمانية بديل عن الدين عند أصحابها:

العلمانية مفهوم اجتماعى سياسى، تداوله الناس أثناء عصر النهضة العلمية فى أوروبا؛ لمقاومة سيطرة الكنيسة على الدولة وهيمنتها على المجتمع.

وقد قامت العلمانية على مبادئ وأسس نشير إلى أبرزها فى النقاط التالية:

- الدين ينحصر فى تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه، ليس له أن يتجاوز ذلك.
- والرفض المطلق لسيطرة الكنيسة على المجتمع.
- وفصل الدين عن الدولة فصلاً حادًا، بحيث لا يصبح للدين صلة بأى نظام من نظم المجتمع.
- واعتبار الدين كله، منهجه ونظامه وحلاله وحرامه سلوكًا شخصيًا لا علاقة له بالمجتمع ولا بالدولة.
- وإخضاع الدولة وجميع مؤسساتها لإرادة الناس لا لإرادة الله تعالى، والناس هنا هم الزعماء والقادة والثوار والانقلابيون العسكريون.
- ونادت العلمانية باتخاذ العقلانية وسيلة من وسائل تنظيم المجتمع، وتسخير جميع إمكاناته لتحقيق الحاجات المادية للإنسان، فكان ذلك تجاهلاً لحاجاته الروحية.

● ويدعى دعاة العلمانية أنها ضد التعصب الدينى وقد كذبوا، كما يدعون أنها ضد التمييز بين الناس وقد افتروا على الله وعلى الحق، وقام واقعهم يكذبهم ويخزيهم؛ لأن أكبر الدول العلمانية التى تجاهر بذلك بل تفتخر هى التى تمارس التمييز العنصرى والعرقى والدينى وتحاكم الناس على أديانهم ومذاهبهم وألوانهم وأعراقهم، إن الدول العلمانية تغرق فى هذا التمييز العنصرى حتى أذنيها، بل تضطهد الإنسان وتستوطن بلده وتطرده منها، أو تقمعه فيها بالأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية والسجون والمعتقلات والتعذيب والإرهاب، وما أيسر أن يدعى كَذَبَةُ إعلامييها أن العلمانية لا تمارس التمييز العنصرى.

● ومن دعاوى العلمانيين وأبواقهم الإعلامية أن العلمانية ليست ضد الإيمان، ولهم أن يدعوا ما يشاءون لكن الواقع يكذبهم، والاحتلال والاستيطان لبلاد الناس، وزعزعتهم للإيمان فى نفوس الناس يقوم شاهدًا وبرهانًا ضدهم وضد ما يزعمون.

● إن من المسلَّم به المشاهد الماثل أمام الأعين من خلال القنوات الفضائية والإذاعات المسموعة والمرئية والمقروءة أن أكثر الدول علمانية وإقصاء للدين عن الدولة هى بريطانيا وأمريكا وحلفاؤها، وإسرائيل، وهى أكثر دول الأرض توحشًا وضراوة وإهدارًا لحقوق الإنسان وتعذيبه حتى الموت وقتله واحتلال أرضه والاستيلاء على خيراتها، ومع ذلك فهى أكثر دول الأرض كذبًا ومغالطات، وبُكاءً خادعًا على حقوق الإنسان!!

وبعد، فقد اتضح لنا أن الدين مقوم أساسى من مقومات المجتمع، مقوم مؤثر فاعل قادر على التوجيه والتسديد وتحديد الأهداف واختيار الوسائل، ودافع قوى من الدوافع التى تشجع المجتمع على التقدم والتطور والرقى فى مجالات الحضارة.

وما أنكر أهمية الدين بوصفه مقومًا مهمًا من مقومات المجتمع أحد يعتد له برأى أو مذهب، وإنما من أنكر ذلك، إما أن يكون من أهل الهوى، أو من أولئك الذين عميت بصائرهم فأنكروا الدين جملة وتفصيلاً، وهؤلاء وأولئك قلة يعميها الجهل والحقد والانغماس فى الأهواء والشهوات، وما ينبغى أن يقام لها وزن ولا لما تقول وتهذى به من كلمات تحمل دلالة تفاهتها وبطلانها.

٢- العِلْم:

العِلْم فى حقيقته منهج تفكير وتحليل واختيار، ومن حيث محتواه أو مفرداته هو: مجموع المعارف المنضبطة المترابطة التى توصل إليها الإنسان منذ فكَّر وحلَّل واختبر.

وهذا هو الجانب النظرى من العلم، أما العلم فى عمومه فلابد أن تدخل فيه كل تجارب الإنسانية التى توصلت إليها عمليًا فى جميع المجالات؛ من الفيزياء إلى الكيمياء إلى الأحياء، إلى الرياضيات، إلى الاقتصاد والاجتماع والسياسة، إلى الأدب والفن والجمال.

● وهناك علاقة بين العلم والفلسفة، ليس باعتبار العلم فرعًا من الفلسفة، بل باعتبار كل منهما فى حاجة إلى الآخر.

وذلك لأن كلاً منهما مجاله معرفة القوانين التى تحكم حركة الأشياء الطبيعية والإنسانية، فالفلسفة تعنى بمعرفة القوانين العامة لحركة الأشياء الطبيعية والإنسانية، والعلم يعنى

بمعرفة القوانين الخاصة لحركة الأشياء الطبيعية والإنسانية فى مجال خاص من مجالات الوجود الطبيعى أو الإنسانى، فكلاهما لايستغنى عن الآخر.

● ويقوم العلم على الحرص على اختيار الأفكار اختياراً موضوعيًا، وامتحانها بالتجربة الحية المباشرة.

ويرى العلماء أن العقبة الكبرى أمام العلم هى الجمود الفكرى والتشبث بالأحكام المطلقة.

● والعلم منهج يمارس ضمن أطر وحدود، ولا يؤكد إلا ما هو قابل للتأكيد، كما أنه يعيش دائمًا فى مراجعة مستمرة لما وصل إليه من نتائج.

والعلم وسيلة جيدة للقدرة على الاكتشاف والتقدم، كما أنه الأسلوب الأمثل الذى يلجأ إليه الإنسان ليتغلب على متاعبه وما يضره فى حياته، أو ليصل به إلى ما ينفعه، ويجعل حياته آمنة وميسرة.

ومهما بدا الإنسان خاضعًا لنواميس الطبيعة المحيطة به؛ فإنه فى الحقيقة يحاول ما وسعه أن يتغلب عليها، فيكشف عن أسرارها ثم يسخرها لصالحه، وكثيراً ما ينجح فى هذا بالعلم والتجارب والاختبارات.

● وعند النظر فى تاريخ أى حضارة إنسانية نجدها تحمل سجلاً حافلاً لجهود الإنسان ومحاولاته لتسخير الطبيعة بحيث تصبح فى مصلحته، أو تطويع مفردات الطبيعة حتى لا تكون ضد مصالحه، حتى لقد أصبح من المسلمات أن يقاس التقدم الحقيقى للإنسان بمدى قدرته على التغلب على قوى الطبيعة المحيطة به.

وما قدرة الإنسان على بناء السدود وحجز مياه البحار والأنهار لدرء خطرها، أو لتوفيرها لوقت احتياج، أو قدرته على التحليق فى الفضاء، ما ذلك وغيره مما سنتحدث عنه إلا محاولات علمية ناجحة قادرة على تحقيق أكبر قدر من الأمان للإنسان.

- لقد تغلب الإنسان بالعلم على طى المسافات براً وبحراً وجواً فى أقصر وقت ممكن، حتى أصبح العالم أشبه ما يكون بقرية أو مدينة واحدة.

ولقد تغلب الإنسان بالعلم على أن يكون اتصاله بإنسان آخر فى أقصى الأرض أو أقصى الفضاء فى لحظات معدودة حتى لقد أصبح العالم كله يعيش فى مكان واحد متقارب الأبعاد إلى أقصى حد.

ولقد تغلب الإنسان بالعلم على كثير من الأمراض الفتاكة به، حتى قضى نهائيًا على كثير منها، وابتكر بالعلم من الأمصال والأدوية والطب الوقائى والعلاجى ما جعل هذه الأمراض الفتاكة محصورة فى أضيق نطاق.

وكذلك كان الشأن فى الحروب والصراعات بين الناس، فقد تغلب الإنسان بالعلم على كثرة أعداد الجيوش، وتغلب به على قلة فتك الأسلحة أو بطئها، وجاء العلم بالأسلحة الأشد فتكًا، كالأسلحة النووية والميكروبية، والأسلحة الفتاكة، وأسلحة الدمار الشامل والألغام وعديد من القنابل، كل ذلك تم بالعلم وهو وإن حمل الشر للناس وجلب الخراب إليهم!! لكنه العلم وتأثيره فى حياة الناس.

- العلم بهذه الإمكانات لابد أن يكون من أهم مقومات المجتمع الإنسانى، وتلك حقيقة لا يستطيع أن ينكرها أحد، كما لا يستطيع أن يعارضها أحد؛ وذلك ما جعلنا نعتبر العلم مقومًا أساسيًا من مقومات المجتمع، بل من أهم مقوماته.

وإلى الحديث عن المقوم الثالث من مقومات المجتمع الأساسية.

٣- القوميَّة:

نسبة إلى القوم وهم الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها وبها.

والقومية: صلة اجتماعية عاطفية تنشأ من الاشتراك فى الوطن والجنس واللغة والمنافع، وقد تتنامى حتى تنتهى بالتعاون والتضامن والوحدة.

- والقومية فى دلالتها السياسية: يرتبط مفهومها بمفهوم الأمة من حيث الانتماء إليها، والأمة هى الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة الذى تجمع بين أفراده روابط موضوعية وشعورية وروحية متعددة تختلف من شعب إلى آخر مثل: اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ والحضارة.

- وقد بدأ مفهوم القومية ينتشر ويشيع فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى.

وكان مفهوم القومية آنذاك رفضًا للحدود بين البلدان الأوروبية التى خُطِّط لها تبعًا لاعتبارات إقطاعية.

هذا هو مفهوم القومية فى وقتنا هذا.

- وسوف نتحدث عن القومية بوصفها مقومًا من مقومات المجتمع عن عدد من النقاط هى:

- تاريخ القومية فى الحياة الإنسانية.

- ووجهات نظر عديدة فى نشأتها.

- وعوامل تكوين القومية.

- وأهداف القومية.

ونسأل الله التوفيق.

أ- تاريخ القومية فى الحياة الإنسانية:

أولا: فى القرون الأولى:

كان الناس فى هذه القـرون من حياة البـشرية يبذلون ما يسـتطيعون من جـهد من أجل تجميع الوحدات الصغيـرة فى التجمع البشرى كالأسرة والقبيلة ونحـوها فى تجمعات كبرى مثل الدول والامبراطوريات.

وكانت هذه التجـمعات تقوم على القـوة والقهر، وبالتالى تفرض العـبودية على بعض الناس لصالح بعض القادة أو الأشراف أو النبلاء، أو لصالح بعض الدول والامبراطوريات.

وبهذا زالت حدود الجمـاعات الصغيرة واتسعت الرقعة أمـام أصحاب النفوذ، بل اتسع نفوذ الدولة وتعـاظم سلطانها. وقد كان ذلك بكل تأكـيد على حساب حـريات الأفراد أو الجماعات الصغيرة كالأسرة والقبيلة.

وكان الملحوظ على هذه الدول والامبراطوريات أنها لم تأخذ بمبدأ التوازنات الاجتماعية التى تضمن لهـا الاستمرار، بل كـانت تُغلِّب جانبًا من الجوانب عـلى آخر، فيسرع إلـيها الانهيار، فتأتى بعدها أخرى، وهكذا...

والتوازن الذى يجب أن يكون فى صالح بقاء الدولة أو الامبراطورية، يجب أن يضع فى اعتباره التلاؤم بين نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

وأن يكون لدى أفرادها رغبـة وتمسك بممارسة الحقوق وأداء الواجبـات، فإذا اختل هذا التوازن حدث الانهيار. والتاريخ ملىء بالشواهد على ذلك، ومن أمثلته:

- عندما اهتم المجتمع الأسبرطى بالعناية بتقـوية الأبدان لخوض الحروب والمعارك، وحققوا فى ذلك نجاحًـا فى قوة أبدانهم وجـسارتهم فى الحـروب، ولم يهتمـوا بشئون الـتعليم والثقافـة والسياسة والاقتـصاد -مثلا- فتـسرب إليهم الضعف والاضـمحلال، ولم تغن عنهم قوتهم البدنية.

- والأشوريون أولَـوا الحروب اهتمـامًا على حـساب الجـوانب الأخرى، فـفقـدوا التوازن الاجتماعى وانهارت بهم امبراطوريتهم العظيمة.

- وكذلك فعل الرومان، وكان لهم نفس المصير.

كان ذلك شأن التجمعات البشرية فى القرون الأولى.

ثانيًا: فى القرون الوسطى:

كان الناس فى هذه الفترة يعيشون عصـر الأديان السماوية، وهذه الأديان جميعًا هى من عند الله سبحانه وتعالى، فهى تعمل ما وسعـها -كما جاء فى كتبها- على أن تزيل الفروق العنصرية بين الناس؛ لأنها تردّ الناس جميعًا إلى أصل واحـد، وتمنع ادعاء إنسان أنه متميز على غيره لمجرد أنه ينتمى إلى عنصر بعينه أو قبـيل بذاته، لأن المتميز بين الناس جميعًا إنما يكون بتقوى الله تعالى أى بالعمل الصالح.

- وقد أحـدثت الأديان السـماوية فى المتدينين بهـا فكرة التوازن فى تـبنى عوامل التـساند الاجتماعى، والاهتمام بكل عامل منها على قدر الاهتمام بسائر العوامل.

ولقد استقر فى أذهان الناس منذ أزمان بعيدة، ولايزال مستقرًا فى أذهانهم حتى اليوم أن ادعاء أهل أى دين من الأديان تميزًا عنصريًا أو عرقيًا، إنما يدل على أنهم حرفوا كتاب الله الذى أنزله على رسـولهم، لأن الله تعالى هو خـالق الناس جميـعًا، وهو الذى كـرمهم لآدميتهم، ويستـحيل عليه سبحانه أن يحابى منهم فريقًـا على حساب فريق، لأن الأديان السماوية قد اقتلعت العنصرية من جذورها.

- إن الأديان السماوية دعـوة إلى التوازن والعدل والتسامح والـتواضع، وجمع الناس على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وأن الناس قد استوعبوا ذلك، فمـنهم من آمن ومنهم من كفـر، وقد ظل كـثير من المؤمـنين كذلك حتى أتـتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.

ثم أخذت روابط الدين تضعف فى الناس لتحل محلها روابط أخرى، وكان من بين هذه الروابط؛ رابطة القومية.

ثالثًا: فى القرون الحديثة:

ولما كانت القـرون الحديثة، حلّتْ القومـيات محل الأديان واعتـبرت رابطة بين الناس، وكان ذلك منذ القرن السابع عشر الميلادى من حيث الزمان، وفى أوروبا من حيث المكان.

- وكانت بريطانيا هى السابقة إلى ذلك بين دول أوربا فى إنشاء كيانها القومى، حيث سبقت غيرها فى القضاء على الإقطاع وفى تحدى الكنيسة والنزوع إلى الاستقلال بكنيسة.

- وفى القرن الثامن عشر الميلادى أصبحت فكرة القومية أشد بروزاً، ولكنها أخذت شكل «العقد الاجتماعى» عند «جان جاك روسو».

- وفى القرن التاسع عشر الميلادى نمت فكرة القومية فى أوروبا، وصارت من القوى الموجهة لتاريخ أوروبا السياسى، ثم امتدت خلال القرن العشرين الميلادى إلى آسيا وإفريقيا، ولاتزال الحركة القومية توجه الأحداث فى أوروبا حتى اليوم.

- ولقد ظل مفهوم القومية مزدوجًا فى أوروبا.

- فهو من ناحية المفهوم الفرنسى لها، تعتبر منبثقة عن تعاقد حر، بين الأطراف المشتركين فى القومية.
- ومن ناحية المفهوم الألمانى تعتبر القومية كائنًا عضويًا يجمع أمة ذات لغة واحدة.

- وقد استغلت القومية خلال الحرب العالمية الأولى من طرفى النزاع فى هذه الحرب (الحلفاء والمحور) على النحو التالى:

- دَعَم الحلفاءُ اللجان القومية التى شكلها المهاجرون، والتشيكيون والصربيون والبولنديون، وذلك بعد مارس سنة ١٩١٧م.
- ودعمت قوى المحور التحركات القومية الإيرلندية ضد بريطانيا، وكان ذلك منذ عام ١٩١٦م.

- وفى القرن العشرين تأكد مبدأ القوميات فى معاهدة الأطلسى سنة ١٩٤١م بين تشرشل (بريطانيا) وروزفلت (أمريكا).

ثم تعززت فكرة القومية فى ميثاق هيئة الأمم المتحدة فيما بعد، ولاتزال لها اعتبارها حتى اليوم، وإن أخذت مدلولاً أوسع وأشمل من وحدة اللغة، حيث قام الاتحاد الأوروبى ليعبر عن قومية أوروبية.

ب- وجهات نظر فى نشأة القومية:

تعددت وجهات نظر العلماء والمفكرين حول نشأة القومية على نحو كبير.

أ- منهم من يقول: إن نشأتهـا مع الإنسان فهى من طبـيعته، فـهم يقولون: إن القومـية من خصائص الإنسان على اعتبار أن الإنسان اجتماعى بطبعه أو مدنى بالطبع كما قيل.

غير أن هؤلاء مبالغون فيما ذهبوا إليـه من اعتبار القومية هى الرابط الوحيد أو الأهم من بين الروابط التى تجـمع بين الناس؛ لأن قولهم هذا يدخـل فى مجال الـزعم أو الادعاء بدليل أن شعوبًا كـثيرة ربطت بينها روابط غير القـومية، فأصبح لها بهـذه الروابط كيان اجتماعى، ومن أمثلة ذلك:

- رابطة الدين التى تجمع بين المسلمين فـى مختلف أقطار الأرض عربًا وغـير عرب من آسيا أو إفريقيا أو أوروبا، وهى رابطة قـوية تجعلهم يتناصرون ويتعاطفون، لأن الدين يدعوهم إلى أن يكونوا كـالجسد الواحد إذا اشـتكى منه عضو، تداعى له سائـرالجسد بالسهر والحمى.
- ورابطة المذهب الدينى التى تجـمع بين الكاثوليك فى عديد من بلدان العـالم كفـرنسا وبولونيا وغيرهما، أو التى تجمع بين «البروتستانت» من بلدان عديدة.
- ورابطة الاقـتـصاد، أو المصلحة الاقـتصادية التى تجـمع بين أنصار المذهب الرأسـمالى وتربط بينهم، أو التى كانت تجمع بين أنصار المذهب الاشتراكى وتربط بينهم.

ب- ومنهم من يقول: إن نشأة القـومية مـرتبطة بالوحدة الجـغرافيـة، فيقـولون: إن الوحدة الجغرافية تعزل مجموعة من الناس في حدود جغرافية متميزة ومختلفة عن سواها،وهذا بدوره يؤدى إلى التفاوت القومي بين الشعوب، وضربوا لذلك أمثلة عديدة:

- فالقومية الإنجليزية ترجع -فى نظرهم- إلى الوضع الجغرافى للجزر البريطانية، فهى تعزل الشعب الإنجليزى عن سائر الشعوب.
- وشبه جزيرة «أيبيريا» جنوبى أوروبا التى تجمع بين إسبانيا والبرتغال، حيث جمعتهم هذه القومية.
- واليابان ذات الجزر العديدة والمساحات الشاسعة التى تجمعها قومية واحدة.
- وأندونيسيا ذات الثلاثة الآلاف جزيرة لغتها الرسـمية هى: الباهاسا الأندونيسية،ودينها الإسلام -هى أكثر من مائتى مليون نسمة، يربط بينها الدين واللغة.
- والقومية الصينية.
- والقومية الأمريكية.

● غير أن التأمل والتدبر فى كلام القائلين بأن نشأة القومية خاضعة للوحدة الجغرافية، يثبت لنا أن هذا القول مجرد زعم، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

- أن الجزر البريطانية تضم عدداً من القوميات مثل: الساكسون، والنوماندين، والإيرلنديين.
- وشبه جزيرة أيبريا تضم قوميات عديدة كالبرتغال، والإسبان، والقشتالية، والباسكية وغيرها.

وكذلك الشأن فى معظم الوحدات الجغرافية التى تضم فى الغالب عدداً من القوميات.

● والقومية العربية رابطة تجمع بين أبناء الأمة العربية المشتركين فى الأصل واللغة والتاريخ والدين والتراث الفكرى والروحى.

وتنادى القومية العربية بحق العرب فى تكوين وحدة سياسية مستقلة، وكانت هذه الدعوة قد بدأت سنة ١٩١٦م بإيحاء من أعداء الدولة العثمانية، ثم قامت الجامعة العربية فى ٢٢/٣/١٩٤٥م واستهدفت توحيد العالم العربى وتخليصه من قوى الاستيطان والاحتلال والنفوذ الأجنبى، ثم جعلت هدفها مقاومة مطامع إسرائيل بعد أن أعانهم الإنجليز والأمريكان والروس على إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين بعد طرد أبنائها منها.

● والقومية تناقض العالمية، فالعالمية تتجه إلى التحرر من القوميات، والقوميات تعتبر أن العالمية تفوت على الشعب فرصة التقدم والارتقاء لما فى العالمية من إخضاع الجزء للكل والصغير للكبير، كما أنها تضعف الروابط الاجتماعية بما تفرض من روابط عالمية واهية.

● ولا تناقض بين القومية والأممية، وإنما التناقض بين العالمية والأممية، إذ العالمية تستهدف أن تجعل من العالم أمة واحدة -وهذا مستبعد إن لم يكن مستحيلاً- بينما الأممية تقوم على تعدد الأمم.

بل إن القومية والأممية يتبادلان المصالح، بحيث يخدم التقدم فى إحداها التقدم فى الأخرى.

جـ- ومنهم من يقول: إن نشأة القومية مرتبطة بالخصائص النفسية التى يتميز بها أفراد مجتمع معين.

غير أن هذا القول غير جدير بالقبول لأن الخصائص النفسية لشعب مّا لا يصح التعويل عليها فى التمييز بين الشعوب، حتى تعتبر هى الحافز على نشأة القومية، لأن تلك الخصائص سريعة التبدل غير قابلة للاستقرار.

بل إن بعض العلماء والباحثين أكدوا خطأ كل من يذهب إلى أن نشأة القومية مرتبطة بخصائص شعب معين وسماته، لأن ذلك معناه أن تعتبر هذه الخصائص والسمات سجايا وطبائع ثابتة فى الشعب، لأنها تتبدل مع الزمان وتتغير مع المكان، ومع كل تطور للحياة الإنسانية وللمجتمع ونظمه، ومن المُسلَّم به أن حياة الناس فى أى مجتمع فى تغير مستمر من حيث نظمه وما يجرى فيه من أمور.

- وكبار الأدباء والمفكرين يصفون شعبين مختلفى المكان الجغرافى بنفس الصفات، فأين مظاهر اختلاف الوضع الجغرافى إذن؟

يقول «فولتير» الأديب الفرنسى الشهير، فى وصف الإنجليز بغير الكلام الذى وصف به الفرنسيين، وليس هو بغافل عما بين الشعبين من اختلاف فى الموقع الجغرافى وفى الخصائص.

- يقول عن الإنجليز:

«إنهم ثوريون لا يستقرون على حال، فقد قطعوا رأس أحد ملوكهم، وشردوا الآخرين، وإن جعجعتهم حول كل ما يتعلق بالحكومة والدين مستمرة بلا انقطاع»

- ويقول «فولتير» نفسه عن الفرنسيين:

«إنهم محافظون جامدون على ملكيتهم المزخرفة القائمة على الحق الإلهى، وعلى مذهبهم «الكاثوليكى» التقليدى، وغارقون فى جو من البلادة والركود».

- ولنفترض أن ما قاله «فولتير» فى الانجليز والفرنسيين هو الصواب، فما بالنا بما وصف به الأديب الكاتب المستر «بودلى» نفس الشعبين الانجليزى والفرنسى بعكس ما وصف به «فولتير» الشعبين وكان ذلك بعد «فولتير» بما يقرب من مائة عام.

قال «بودلى»: «إن الإنجليز محافظون لا ثوريون بعكس الفرنسيين الذين لا يستقرون على حال، ويحلو لهم رفع علم الثورة فى كل فرصة، وقد قطعوا رأس أحد

ملوكهم وشردوا آخرين، ومازالوا يجربون فى كل حين دستوراً جديداً، وقد نبذوا مذهبهم «الكاثوليكى» بحماسة المحموم.

- «وبودلى» ليس كاذبًا فيما وصف به الإنجليز أو الفرنسيين لأنه وصف ما أَحَسَّ به وما هو صدق من وجهة نظره.
- وقد عبر «فولتير» و«بودلى» بعبارتين متطابقتين مرة عن الشعب الإنجليزى وأخرى عن الشعب الفرنسى لكن كلا منهما عبر عما أحسّ به ولحظه فى زمنه الذى عاش فيه[1].

ومعنى هذا الذى قدمنا أن القومية لا يمكن أن يكون منشؤها راجعًا إلى طبيعة الإنسان وفطرته، ولا إلى الوحدة الجغرافية، ولا إلى خصائص شعب وسماته، وإنما هناك عوامل لتكوين القومية، نتحدث عنها فيما يلى:

جـ- عوامل تكوين القومية

مادمنا قد استبعدنا أن تكون القومية قد تكونت أو نشأت نتيجة لطبيعة الإنسان وفطرته أو نتيجة لوضع جغرافى معين، أو نتيجة لخصائص الإنسان وسماته، فلابد أن نبحث عن مكونات هذه القومية.

فنقول: إن عوامل تكوين القومية تعود فى مجملها إلى الوعى الاجتماعى الذى يصل بين الناس فى كل مجتمع إنسانى، ومن هذه العوامل:

أولاً: وحدة اللغة:

وحدة اللغة تعنى وحدة الفكر والثقافة،ولها الأثر الأكبر فى التقريب بين الأذهان، وفى تماثل الأفكار والسجايا وربط الحاضرين بالماضى.

ومن الصحيح الصائب القول بأن وحدة اللغة هى منشأ كل القوميات أى هى من أكبر العوامل المكونة لها.

والدليل على صحة ذلك، هو النظر فى ظروف القوميات وكيف تكونت، وكيف جمعت لغة واحدة بين أقوام ليسوا من جنس واحد، وعلى سبيل المثال:

- القومية الإنجليزية لم تنشأ إلا بعد أن انصهرت ألسنة الناس؛ الأنجلوساكسون، والنورمانديين- الفرنسيين أصلا، فولدت اللغة الإنجليزية لتجعل من الإنجليز قومية واحدة.

---

(١) بينهما ما يقرب من مائة عام.

- والقومية الفرنسية ما كانت لتنشأ إلا بعد أن امتزجت ألسنة الفرانك والغاليين باللغة اللاتينية، فنشأت عن ذلك اللغة الفرنسية، ثم جعلت من الفرنسيين قومية واحدة.

- والقومية العربية إنما ساعد على نشأتها وشدَّ أزرها وقوَّاها وأشاعها اللغة العربية لغة الكتاب والسنة، وإذا كانت العربية كلها هى اللسان قبل أى انتماء آخر فإن اللغة العربية وحَّدت العرب وجعلت منهم قومية.

ثانيًا: وحدة التأريخ:

إذا كان التاريخ لأمة تاريخًا واحدًا، فإنه يُعَد من أهم العوامل التى تكون لهم قومية، ووحدة التاريخ لها صلة وثيقة بتكوين شخصية الأمة، تلك الشخصية الاجتماعية المستمرة الفاعلة المؤثرة.

إن وحدة تاريخ الأمة يتمثلها أبناؤها فى سير قادتها وعلمائها وأبطالها الذين أخلصوا لأمتهم وضحوا فى سبيلها بالجهد أو الوقت أو العلم أو المال أو النفس.

كما يستطيع أبناء الأمة أن يتمثلوا أمتهم من خلال وحدة تاريخها، وما جرى هذا التاريخ من أحداث وحروب ونهوض وتراجع أو نكوص.

إن تمثل تاريخ الأمة هو الذى يعلم ويبصر، ويفتح أمام الناس مجال العبرة والعظة، ليستزيدوا من أسباب الخير، وليمتنعوا عن ممارسة الشر، لأن التاريخ خير معلم للإنسان إذا أحسنت قراءته، وأجيد التفكير فيه والتدبر فى أحداثه.

إن وحدة التاريخ لأمة من الأمم بمثابة رابطة النسب والقرابة، ودفء الانتماء إلى هذا التاريخ.

ووحدة التاريخ لأمة تعد من عوامل تكوين قوميتها وشخصيتها وكيانها بل قدرتها على الاستمرار فى ممارسة الحياة الحرة الكريمة.

ثالثًا: وحدة الوطن:

إنما كانت وحدة الوطن عاملاً من عوامل تكوين القومية، لأن الله تعالى قد فطر الإنسان على حب الوطن الذى نشأ فيه، وشرب ماءه، وتنفس هواءه وأكل طعامه، وعايش فيه أهله وذويه وأقرباءه وأصدقاءه وجيرانه، وعمل على رفعته، ودافع عنه عند الخطر.

هذا شأن الأوطان جميعًا مع من يعيشون فيها، وهذا شأن الإنسان أى إنسان مع وطنه.

بل إن حب الإنسان لوطنه قدر لا يملك أحد أن يتخلص منه، مع إحساس الإنسان السويّ بلذة حب الوطن ومتعة المعيشة فيه، حتى إن الناس جميعًا عندما تضطرهم الظروف إلى مغادرة الوطن يسمون ذلك اغترابًا، وحسبنا بما في هذه التسمية من لذعة البعد عن المحبوب، وفراق النفس لما ألِفَتْه، ونزوعها وارتحالها ولوعتها على كل ذلك.

- حب الإنسان لوطنه من أقوى محركاته على البذل والتضحية بكل شيء، وكيف لا والوطن يضم رفات الآباء والأجداد، وفيه آثارهم وما خلفوه وراءهم من قصص وأحداث.

- ويبدأ حب الوطن مع الإنسان من أضيق رقعة يعيش فيها في وطنه، ربما كان مكان الميلاد والنشأة وملعب الصِّبا، ثم يتسع ويكبر ويضم إليه أجزاء تحيط بهذا الوطن حتى يصبح الوطن إقليمًا ووحدة جغرافية، ثم يتعاظم في حسّه معنى الوطن وتكبر أبعاده وتمتد حتى يكون وطنًا قوميًا، يضم مجموعة أوطان متشابكة المصالح، فيها عطر الذكريات، وحنان الأمهات، وأماكن لعب البنين والحفدة...

ألا يشكل بعض ذلك عاملا من عوامل تكوين القومية نحو الأوطان؟ فما بالنا بكل ذلك؟

إن الوطن المحلى بهذه المعانى محبوب، وإن الوطن العربى بجميع بلدانه محبوب، وإن الوطن الإسلامى بكل ما فيه محبوب، وإن كل مسجد ومئذنة ومُصَلًّى له كل الحب وكل الاحترام. وإن المسلم لمن أسعد الناس بوطنه الإسلامى الذى يتسع بفضل الله يومًا بعد يوم كلما عبد الله تعالى فى أرجائه وكلما أذَّن مؤذن وأقام الصلاة، وكلما دعا الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وكلما تحرك بالإسلام أحد ليصل به إلى الناس والآفاق.

أليس الوطن الإسلامى بهذه المعانى أنبل الأوطان، وأقدرها على بناء قومية إسلامية - بلغة القوميين- وأخوة إسلامية بلغة المسلمين؟

رابعًا: الوحدة السياسية:

الوحدة السياسية لأمة من الأمم تستفز الشعور القومى عند الناس، وفى الوقت نفسه هى هدف من أهداف القومية، إذ هى التى تميزها بتوحدها على سائر القوميات بما تفرضه هذه الوحدة على الناس من التزامات ضرورية لحياتهم، وبنجاحهم وتغلبهم على مشكلاتهم، ومن أمثلة هذه الالتزامات النافعة الناجعة:

- وجوب الانقياد للنظام السياسى الموحد لما فى ذلك من قوة، وإعداد للتقدم والنهوض.

- والإخلاص لمصالح الوطن على كافة مستوياته المحلى والعربى والإسلامى، حيث يصبح المواطن المسلم أغنى أهل الأرض اعتزازًا بما ينتمى إليه.

- والاندماج فى النظام التربوى الإسلامى الذى يسرع بالمسلمين نحو التخلص من السلبيات والتراجع، والتبعية لأنظمة الغرب التربوية التى لا تلائمنا دينًا ودنيا.

- والإعداد والاستعداد للتقدم بهذه الدولة مهما اتسعت أمداؤها وامتدت سلطاتها، والنهوض بكل مرفق من مرافقها مع التحفز للدفاع عنها ضد أى نقص أو قصور أو انحراف عن الحق أو رد أى عدوان يقع على جزء منها.

- والاستجابة برضا وحماس لكل نظام من أنظمتها، كنظام التعليم، ونظام الجندية ونظام العمل، ونظام الملكية ونظام التجارة، ونظام الإنتاج ونظام التوزيع، والنظام السياسى كله.

● ومن المسلَّم به أن الوحدة السياسية مقوم قوى من مقومات القومية، بل تكاد تكون أقوى مقوم وأفعله.

والدليل على فاعلية الوحدة السياسية وقدرتها على تغذية القومية:

- المملكة المتحدة:

إنها تضم شعوبًا ثلاثة، الإنجليز، والاسكتلنديين، وأهل ويلز، ولكل منهم قومية خاصة ولغة خاصة بل لكل منهم تاريخ خاص وعادات وتقاليد يختلف بعضها عن بعض.

ومع كل هذه الاختلافات فإن الوحدة السياسية للمملكة المتحدة جعلت منها قومية واحدة.

- وكذلك كان الشأن فى الولايات المتحدة الأمريكية.

- وأمريكا الجنوبية معظمها.

- والاتحاد السوفيتى السابق، والاتحاد الروسى الآن.

- والاتحاد الأوربى الذى أوشك أن يوحد كل شعب من شعوب أوروبا بحيث لم يبق أمامه إلا القليل.

إن هذه الأدلة عملية منظورة تؤكد أن الوحدة السياسية من أبرز عوامل تكوين القومية.

د- أهداف القومية:

من خلال ما قدمنا -فى حديثنا عن مكونات القومية- يتبيَّن لنا أن القومية رابطة اجتماعية تتم عن وعى اجتماعى، وأنها إحساس عام يحمل جميع المنتمين إليها على اختلاف ما بينهم من اتجاهات وميول ونزعات، يحملهم على أن يعطوا هذه القومية أكبر قدر من الاحترام، وأوفر حظ من الطاعة،وذلك أن القومية تحقق للمنتمين إليها أهدافًا عظيمة وضرورية لهم فى الحياة.

ومن هذه الأهداف:

أولا: إحداث الوعى الاجتماعى:

هذا الوعى الاجتماعى الذى تستهدفه القومية له وظائف جوهرية يؤديها فى حياة الناس من أهمها:

- تنمية الكيان الاجتماعى وصيانته بالمحافظة عليه والتحلُّق حوله، والزود عنه، وضمان سلامة أفراده،وصيانة حرياتهم وحقوقهم ومصالحهم، والعمل على تقدمهم فى كل مناشط الحياة.

- ودعم وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة الوطن والوحدة السياسية، دعمًا يمدها بأسباب القوة، ويحول بينها وبين أسباب الضعف، فضلاً عن أسباب الانهيار لما فى ذلك من تطوير للمجتمع نحو الأحسن والأوفق للحياة الإنسانية الكريمة.

- وتقدير العمل الجماعى والاجتماعى فى حياة الناس، لما له من أثر عظيم فى بث روح التعاون والتناصر بل التكافل بين أبناء القومية، وهذا بدوره يقضى على السلبيات والنقائص بين الناس، ويزيل عن كثير منهم أنواع الحاجة التى يعانون منها، ثم إن العمل الجماعى والاجتماعى عندما يصبح خلقًا ملتزمًا عند الناس يعطيهم قدرة على مواجهة المتاعب والمخاطر وكثيرٍ من المعلومات.

ثانيًا: تحقيق الاستقلال السياسى:

لما كانت كل قومية تقوم على الاستقلال السياسى لأهل تلك القومية، بحيث يكون لهم كيان سياسى يختص بهم ويعبر عنهم وعن آمالهم، ويحقق لهم وحدة الكلمة ووحدة الصف ووحدة الجهاد، وكل تلك خطوات فى طريق الاستقلال السياسى.

على أن للاستقلال السياسى لأى قومية وظائف يؤديها نحو المجتمع، منها:

- خلق كيان مستقل للقومية عن القوميات الأخرى، ليكون لهذا الاستقلال السياسى أبعاد اجتماعية واقتصادية. يتمثل البعد الاجتماعى فى التكافل، ويتمثل البعد الاقتصادى فى تحقيق اكتفاء ذاتى فى إنتاج السلع والخدمات، وفى عدالة التوزيع، وفى تأمين فرص العمل التى تناسب الباحثين عنها، مع عدالة الأجور ومناسبتها لاحتياجات العمال.

- وإيجاد كيان تعليمى وثقافى جيد وملائم لتطلعات المجتمع وطموحات أبنائه فى العلم والمعرفة والتقنية.

والتعليم الجيد هو التعليم الموظف الذى خطط له بعيدًا عن التهريج السياسى والشعارات الجوفاء والنفاق والاهتمام بالشكل دون الموضوع وبالعَرَض دون الجوهر، مما يعبر عنه التعليم فى معظم بلدان العالم الثالث المصاب بالحكم الشمولى وحكومات «الجنرالات الذين يجيدون القتال فيحولون مرافق الدولة وخدماتها إلى معارك!!![1]

- وخلق كيان عسكرى يستطيع حماية البلاد ضد أى عدوان يقع عليها من أعدائها، وذلك يتطلب تجنيدًا وتدريبًا وتسليحًا وإخلاصًا وجهادًا وتضحية، واكتفاء ذاتيًا فى التسلح، وفى جميع مستلزمات الحرب.

ثالثًا: تحقيق القدرة على التعايش مع القوميات الأخرى:

لابد من الاعتراف داخل كل قومية بحق القوميات الأخرى فى الحياة الإنسانية الكريمة؛ لأن ذلك حق لكل قومية، والطريق الذى يؤدى إلى التعايش مع القوميات هو:

- المحافظة على كل ما يدعم القومية ويوفر لها عوامل تكوينها، مع تحقيق مصالح الناس وتأمين حاجاتهم، وتأكيد حقوقهم الطبيعية، والحرص على أن تصل إليهم كاملة غير منقوصة، وتلك واجبات الحكام والحكومات، ومشروطة بيقظة المحكومين وتمسكهم بحقوقهم.

- والاقتناع بحق القوميات الأخرى فى التعايش بسلام مع أى قومية، ومعنى ذلك الامتناع عن الإساءة إلى أهل أى قومية، أو العدوان عليهم، أو حرمانهم من أى حقوق لهم لدى أهل كل قومية، أى تبادل الاحترام بين القوميات، وتبادل الحقوق والواجبات، وتعمد العيش بسلام.

---

(١) تحدثت عن التعليم وقضاياه فى كتاب موسع هو: التربية الإسلامية فى المدرسة- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

- ورفض فكرة التوسع الاقليمى على حساب القوميات الأخرى، كما فعلت الدول الأوروبية الاستيطانية المعتدية على مدى قرنين من الزمان، ولم يكن شأن ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى فى الاستيطان والعدوان واحتلال البلاد والعباد مختلفًا عما فعلت أوروبا فى قليل أو كثير، أوروبا تعتدى باسم الرأسمالية والحرية والديموقراطية، روسيا تعتدى باسم الشيوعية أو الاشتراكية والقضاء على «البرجوازية» وكلها كلمات جوفاء خادعة تمارس بها أخس الأعمال وأدنئها.

- ولقد ضربت الولايات المتحدة فى الاستبداد السياسى والاستيطان وشن الحروب الظالمة غير المتكافئة ونشر المبررات الكاذبة المضللة، ضربت أمريكا فى هذا أسوأ الأمثال والأعمال والأقوال، وأصبحت عنوانًا على الكذب والتضليل والقرصنة واحتلال بلاد الغير بالجيوش التى تحمل أسلحة الدمار الشامل لتضرب بها المدنيين والنساء والأطفال، وتتبجح بالحديث عن حقوق الإنسان على الرغم من وقوف سجن «جوانتانامو» وأبى غريب دليلاً قاطعًا على تناقضها وكذبها وإجرامها وامتهانها لهيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها وكل المواثيق والأعراف الدولية.

وحكومتها لا تنكر هذا بل تعلق عنه بكل وقاحة وصفاقة واستهانة للبشرية كلها.

رابعًا: تحقيق الديموقراطية:

أصبحت «الديموقراطية» بما صاحبها من تعريفات عديدة وما أحاط بها من هالات الثناء والحمد، وما وُصفتْ به من قدرة ساحرة باهرة على حل مشكلات الحياة الإنسانية، وما بشَّر به دعاتها من أنها الشفاء من كل أمراض المجتمع، وما غلَّفها به الكتَّاب والمبدعون من محسِّنات لفظية ومعنوية؛ أصبحت «الديموقراطية» بهذه الأوصاف أملاً وهاجسًا يراود الناس جميعاً، وهدفًا يسعون إلى تحقيقه مضحين فى سبيل ذلك بكل عزيز وغال من مفردات حياتهم، إذ أصبح المهم أن يصلوا إلى جنة الديموقراطية ونعيمها!!!

- غير أننا معشر المسلمين نرى «العدالة الاجتماعية» أولى منها بهذه المكانة، لا للفظ العدالة الاجتماعية العربى الجميل الذى يحمل العدل للمجتمع، ولا لمعناها العميق الذى يخلص الناس من الفقر والجهل والمرض والظلم والاستبداد، ولكن لأننا لا نحب أن ننبهر بكل ما جاء به الغرب من أسماء ومُسمَّيات حفاظا منا على كياننا وثقتنا بما لدينا من نظام اجتماعى متكامل قادر على حل مشكلات البشرية كلها، لأنه نظام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ هو تنزيل من حكيم حميد.

ونحاول هنا أن نلقى بعض الضوء على الديمقـراطية والعدالة الاجتماعية على اعـتبار أنها هدف من أهداف القومية.

- يقول أنصار الديمقـراطية: إنها توفر للناس كل الحريات؛ حرية الاعـتقاد وحرية الرأى وحرية العمل وحرية المعارضة وحرية التعبير وحرية تداول السلطة.

- ونحن نأمل أن يكون ذلك صحيحًا وحقيقيًا، وإن كنا يملؤنا الشك فى صحته ومصداقيته لما نراه ونشاهده فى داخل الدول التى تتبنى الديموقراطية وتدعـو إليها وتزعم أنها واحتها أو جنتها -كإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكيـة- فى حين نرى فيهما التفرقة العنصرية والتمـييز الجنسى واللونى والعـرقى بين المواطنين الذين يعيشـون فى هاتين الدولتين، وما نحسـه بعمق من رغـبة هاتين الدولـتين رغبة تبـلغ حَدَّ السُّعـار فى العدوان علـى البلاد والعباد، والمرض المزمن عـندهما فى استيطان بلاد الآخرين وطرد أهلـها منها، ومن أبى الرحيل قُتل وأُبيد[1].

- ولو شئنا أن نستشـهد على نقائض الديموقراطية عند أصحابها ودعـاتها الذين يرغبون فى فرضها على الناس بقوة السلاح لما وسعتنا صفحات وصفحات، إذ ليست بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وألمانيـا وبلجيكا وإسبـانيا والبرتغـال، ولا الاتحاد السوفيـتى السابق ولا اتحاد روسـيا اليوم ليس هؤلاء جـميعـا بأقل تنكرًا للديموقراطيـة من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

- غيـر أن الديمقراطية - أو العـدالة الاجتماعـية كمـا نحب أن نقول- لها فى المجـتمع وظائف عديدة تستهدفها أى دولة أو أى قومية نذكر منها:

- تحقيق العدالة الاجتـماعية بين الناس، وأبرز دعائم هذه العدالة الاجتـماعية هى: المساواة بين الناس جميعًا فى الحقوق والواجبات، أى أنهم أمام النظم والقوانين سواء.

- وكفالة الحريات للمواطنين جميعًا، فى ظل فرص متكافئة تؤمن للناس:

حرية الفكر والعـقيدة وما يتـرتب على ذلك من سلوك نابع عن العقيـدة لا يصادره أحد ولا يسن ضده القوانين[2].

---

(١) تتشابه أمريكا وإسرائيـل فى أن كلا منهما أقام دولته فى أرض الغير بعد أن طرد منـها أهلها بل أبادهم، فقد فعلت ذلك أمريكا فى الهنود الحمر، وفعلت ذلك إسرائيل فى الفلسطينيين!!!

(٢) من الأمثلة الصاخبة الفاجرة على مصادرة حرية العقيدة حظر ارتداء الحجاب بالنسبة للمسلمات فى كثير من دول أوروبا بحجة المحافظة على العلمانية من خطر الدين.. ثم يتشدقون وترتفع عقائرهم بالحديث عن الحريات.

وحرية التعبيـر، برفع الرقابة عن وسائل الإعلام، والحرية السياسيـة بالمشاركة فى العمل السيـاسى -من أقصـاه إلى أقصاه- من وضع جـداول الناخبين إلى تولى رئاسـة البلاد، والحرية الاجتماعية وهى ذات فروع عديدة مثل:

حرية العمل، وحـرية الكسب، وحرية التملك والاقتناء، وحرية التنقل والسـفر، وحرية التعليم، وحـرية الإعلام، وحرية الإقامة فى مـسكن،وحرية العيش فى صـحة، وحرية التفكير وحرية التعبير وحرية تكوين الأحزاب وإنشاء الصحف والمجلات.

● كل هذه الحريات تكفلها الدولة أو القوميـة بما تملكه من سلطة وقوة لكى يتمتع المواطنون فيها بالديموقراطية أو العدالة الاجتماعية.

وبعـد: فـأرجو أن أكـون قـد أوضحـت فى هذا البـاب الأول من الكتاب «المجـتـمع ومقوماته»؛ ما كشف عن مقوماته السبع التى ذكـرتها وذكرت آراء مؤيديها ومعارضيها وما أثير حولها من قضايا، لأمهد بذلك للحديث عن المجتمع الإسلامى؛ سماته وخصائصه فى الباب الثانى من هذا الكتاب، والله المستعان.

*****





الباب الثانى

المجتمع الإسلامى: سماته وخصائصه

الفصل الأول:

سمات وخصائص فى المجتمع الإسلامى تميزه ويدعو إلى التمسك بها:

١- الإصلاح الاجتماعى.

٢- التضامن الاجتماعى.

٣- التكيف الاجتماعى.

٤- التماسك الاجتماعى.

٥- الضمان الاجتماعى.

٦- الضبط الاجتماعى.

٧- الرفاهية الاجتماعية.

الفصل الثانى:

سمات وخصائص يرفضها المجتمع الإسلامى ويحظرها:

١- التخلف الاجتماعى.

٢- التفكك الاجتماعى.

٣- الشذوذ الاجتماعى.

٤- الصراع الاجتماعى.

٥- القلق الاجتماعى.

الفصل الثالث:

سمات وخصائص يطورها المجتمع الإسلامى تبعًا لتغيرات الزمان والمكان.



المجتمع الإسلامى: سماته وخصائصه

المجتمع عـمومًا هو -كمـا قلنا ذلك آنفًا-: جماعـة من الناس يعيشون معًـا فى منطقة بعينها، بحيث تجمع بينهم ثقافة مشتركة، وشعور بالوحدة والكيان المتميز عن سواه.

● والمجتمع يجب أن يتضـمن جميع النظم الاجتماعـية؛ التربوية، والثقافية، والسـياسية، والاقتصادية، بل كل النظم الضـرورية التى يواجه بها جميع حاجاته الإنسـانية الأساسية ليتكفل بتحقيقها أو بالعمل على تحقيقها.

● والمجتمع يجب أن يحوى جميع الأشكال التنظيـمية اللازمة لبنائه، مع قدرة نظمه وآلياته على تحقيق الاكتفاء الذاتى فى اقتصاده وسياسته، وتعليمه وتربيته لكل أفراده وجماعاته.

● وكل مجتمع لابد أن ينمى فى أبنائه وهو يربيهم أنهم جـزء من مجتمع أكبر، فكل قطر عربى يجب أن يبث فى أبنائه أنهم جزء من المجتـمع العربى، والمجتمع العربى يجب أن ينشئ أبناءه على أنهم جزء من المجـتمع الإسلامى، والمجتمع الإسـلامى يجب أن ينشر فى أبنائه أنهم جزء من المجتمع العالمى.

● والمجتمع الإسلامى على وجـه الخصوص له كل تلك الصفات التى ذكرنا، مضـافًا إليها سماته وخصائصه التى تميزه عن غيره من المجتمعات.

ومن أهم هذه السمات والخصائص:

أولاً:

أهم روابط المجتمع المسلم هى الاعتقاد الصحيح فى الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا. . . .

والاعتقاد الصحيح فى الملائكة والكتب والرسل عليهم السلام.

والاعتقاد الصحيح فى اليوم الآخر وما يجرى فيه من نشر وحشر وحساب وجزاء وجنة ونار. .

والاعتقاد الصحيح فى القضاء والقدر.

ثانيًا:

القيم والمبادئ التى تسود المجتمع المسلم، ليست ميراثًا عن الأسلاف، ولا هى قيم أسرة أو قبيلة بعـينها،ولا هى قيم شعب يسكن إقـليمًا بعينه،وإنما هى قيم جـاء بها الوحى إلى

خاتم الأنبياء محمد ﷺ،وهى قيم فاضلة ثابتة مستقرة،لا تتقادم ولا تتغير بتغير الزمان والمكان.

ومصدر هذه القيم هو القرآن الكريم وسنة خاتم المرسلين محمد ﷺ.

ثالثًا:

هو مجتمع تقوم أنظمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والثقافية والمعرفية،وترتكز هذه الأنظمة على دعائم أساسية لا تقوم أنظمة عادلة إلا عليها،وتلك الدعائم هى:

- الشورى واحترام الرأى الآخر وحسن الاستماع إليه، وحواره وجداله بالتى هى أحسن حتى يتبين الحق فيتبع.
- والعدل بين الناس بمعناه الواسع الذى يشمل العدالة الاجتماعية بكل مفرداتها.
- والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، مساواة نابعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،وليست مما اصطلح عليه حكماء الناس.
- والتراحم والتواد والتناصر المفضى إلى الأخوة فى الله لأن المؤمنين إخوة، وما تفرزه هذه الأخوة فى الله من تعاطف وتساند وتكافل.
- والعمل والإتقان والإنتاج،وحرية الكسب والتملك والاقتناء والادخار، وحرية الإنفاق فيما أحل الله.

رابعًا:

وأنه المجتمع الذى يحافظ على حقوق الإنسان وحرياته كلها، ويعمل ما وسعه وما وسعت مؤسساته على أن تكون هذه الحقوق والحريات ليست منحة من حاكم، وإنما هى حقوق طبيعية لكل إنسان يعيش فى ظل المجتمع المسلم، حتى لو كان غير مسلم، فلا يجوز لأحد فى المجتمع المسلم أن يهدر حقًا من حقوق غير المسلمين ولا أن ينتقص منه شيئًا، ولو حدث ذلك فإثمه على الذى يفعله وعقابه الدنيوى واجب الحاكم المسلم.

خامسًا:

وأنه مجتمع يستهدف من خلال أنظمته ومؤسساته وقيمه وتشريعاته صالح الإنسان فى دنياه وفى آخرته، فلا يهمل الدنيا من أجل الآخرة، ولا ينسى الآخرة من أجل الدنيا،وإنما

يأخذ من الدنيا نعمها التى أحل الله ومنافعها التى ذخـرها فيها الله سبحانه وتعالى من غير إسراف ولا مـخيلة، بل على الإنسان فى المجتـمع المسلم أن يتصدر مـوكب العلم والعمل الصالح الذى يستطيع به أن يحقق أهداف الإسلام.

وليس للإنسان فى المجـتمع المسلم أن ينفق جهـده ووقته وماله فى الانكبـاب على متع الدنيا وشهواتها، فيلهيه ذلك عن آخرته.

إن المجتمع الإسلامى هو المجـتمع الذى يعمل فيه الإنسان كأنه يعـيش أبدًا، ويعمل فيه لآخرته كأنه سيموت غدًا.

هذه كلمة وجيزة عن المجتمع الإسلامى أمهد بها للحديث عن سماته وخصائصه.

*****



سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه

يتميز المجتمع الإسلامى عن غيره من المجتمعات الأخرى بسمات وخصائص تميزه، وقد شاء الله لهذا المجتمع بالتميز لأنه جعله المجتمع الذى يحمل للبشرية الدين الخاتم الذى يطب لأدواء البشرية كلها، ويحمل إليها المنهج الذى يهديها إلى الصراط المستقيم.

● إنه المجتمع الذى حمَّله الله تعالى تبعة الدعوة إلى الدين الحق والحركة به فى الناس والآفاق، وعلمه فى خاتم كتبه وعلى لسان خاتم رسله أساليب الدعوة ووسائلها المتدرجة من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الجدال بالتى هى أحسن، إلى الجهاد فى هذه السبيل جميع أنواع الجهاد لنشر دين الحق والدفاع عنه وعن المؤمنين به.

● إنه المجتمع الذى اختار الله تعالى له أكمل الأديان السماوية وأتمها وأرضاها له سبحانه دينًا ومنهجًا ونظامًا، وتلك سمة من سماته وإحدى خصائصه.

● إنه المجتمع الذى كلفه الله بالعمل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ومن أجل ذلك شرع له الجهاد فى سبيل الله تعالى إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، وتلك إحدى سماته وخصائصه.

● إنه المجتمع الذى وعد الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات منهم بأن يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا.. فهو المجتمع الذى يمكن الله له وبه الدين الحق وأن يجعل لهم مكان كل خوف أمنًا واطمئنانًا.

● إنه المجتمع الذى أكرمه الله بالعمل الصالح فأمر رسله عليهم السلام وأمرهم بقوله: ﴿...وَاعْمَلُوا صَالِحًا ...﴾ [المؤمنون: ٥١]، وألزمهم بالقول السديد فأمرهم بقوله: ﴿...اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وأمرهم أن يتناجوا بالبر والتقوى لا بالإثم والعدوان، فى قوله سبحانه ﴿... إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

● إن سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه لأكثر من أن تحصى، فهو فى إجمال مجتمع كل خير للإنسان فى معاشه ومعاده، ومجتمع النهى والانتهاء عن كل شر.

غير أننا نذكر من هذه السمات والخصائص ما لابد من الإشارة إليه سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

وقد قسمت هذه السمات والخصائص إلى ثلاثة أقسام:

- سمات وخصائص تميز المجتمع الإسلامى ويدعو إلى التمسك بها.
- سمات وخصائص يرفضها المجتمع الإسلامى ويحظرها.
- سمات وخصائص يطورها المجتمع الإسلامى تبعًا لتغيرات الزمان والمكان.

وإلى الحديث عنها والله المستعان.

*****

الفصل الأول

سمات وخصائص فى المجتمع الإسلامى تميزه ويدعو إليها

تلك السمات والخصائص التى تميزه ويدعو إليها ثابتة مستقرة فيه، لا تفارقه أبدًا ولا يفارقها بحال، فإن فارقها فليس هو المجتمع الإسلامى الذى نتحدث عنه.

تلك السمات والخصائص المستقرة الثابتة فيه، هى من الكثرة والوفرة بحيث نكتفى بذكر أهمها، ويضيق بنا الكتاب عن أن نستوعبها، وهى:

١- هو مجتمع الإصلاح الاجتماعى.

الإصلاح الاجتماعى يعنى أمرين:

أ- القضاء على المساوئ الاجتماعية:

أنه مجتمع يجب أن يسعى أفراده للقيام بحركة عامة -بعد بيان عام- للقضاء على المساوئ الاجتماعية التى تنشأ عادة من خلل فى وظيفة أى وحدة اجتماعية فيه، أو خلل فى أى وظيفة تدخل فى النسق الاجتماعى كله، عندئذ يجب على المجتمع أن يسرع فى تلافى هذا وذاك.

ب- وبناء القيم الاجتماعية الإسلامية:

أنه مجتمع يستهدف تحقيق القيم الاجتماعية الإسلامية -التى جاءت فى الكتاب والسنة- من خلال ممارسة أفراده للأعمال الاجتماعية الراشدة التى تحقق صالح المجتمع فى حاضره، وتستشرف صالحه فى مستقبله.

والأمر الأول من هذا الإصلاح الاجتماعى هو بلغة أسلافنا: درء المفاسد والأضرار عن الناس، ولهذا فرعان رئيسان هما:

- درء المفاسد المعنوية مثل:

- رفع الظلم عن المظلومين، ونصرهم إلى أن يصلوا إلى حقوقهم وينتصفوا من ظالميهم.
- ومقاومة تعالى الناس بعضهم على بعض كتكبر الغنى على الفقير، والقوى على الضعيف، وذى السلطان على غيره.
- ومقاومة انتشار القيم الخلقية الهابطة وحصار دعاتها والتمسك بها، وإحلال القيم الفاضلة محلها.

- ودرء المفاسد المادية مثل:

- مقاومة الجهل بنشر الثقافة والتعليم والمعرفة، ابتداء من محو الأمية وإلى الوصول إلى الثقافة الرفيعة.
- ومقاومة المرض باستئصال أسبابه، وعلاج أعراضه والعمل الدائب للقضاء عليه بالوعى الصحى.
- ومقاومة الفقر بإيجاد فرص العمل، ودفع الحاجة عن المحتاجين عجزة وضعفاء، وشيوخًا وزمنَى.
- ومقاومة الجريمة بكل أنواعها؛ بإزالة أسبابها، وعقاب مقترفيها، أو التضييق عليهم، وازدراء المجتمع لأعمالهم، وإزالة الأماكن التى يتجمع فيها المجرمون وتجريم كل من يسهل إقامتها أو ممارسة الجرائم فيها، وأبرز أنواع الجريمة فى تصورى: شرب الخمر، والزنى، ولعب الميسر، ونحو ذلك من الجرائم التى تهز استقرار المجتمع، وتهدد أمنه، وتزيل عنه أسباب الطمأنينة وتوجد له أسباب القلق والاضطراب.

والأمر الآخر من الإصلاح الاجتماعى هو بلغة أسلافنا -أيضًا- من الفقهاء: جلب المنافع والمصالح وهى أيضًا فرعان رئيسان هما:

أولاً: جلب المنافع الأدبية والمعنوية مثل:

- تحقيق العدل والمساواة بين الناس جميعًا أمام الشريعة وقوانينها المفسرة لها؛ ذلك أن العدل يحقق فى الناس أمانًا واطمئنانًا على حقوقهم جميعها، ويعود عليهم بالثقة فى المجتمع، ثم ينعكس عليهم عملاً صالحًا وسلوكًا طيبًا.
- وتحقيق الفرص المتكافئة أمام الناس جميعًا فى كل ما من شأنه أن تتكافأ الفرص فيه من تعليم وصحة وعمل وكسب، وقدرة على تكوين أسرة، وهذا يعنى ألا يستثنى أحد لينال ما ليس من حقه.
- وضمان الحريات لكل الناس، كل أنواع الحريات؛ حرية التدين وحرية الفكر وحرية التعبير، والحرية السياسية والحرية الاجتماعية، بحيث يحافظ المجتمع؛ حكامه وهيئاته ومؤسساته على صيانة هذه الحريات ورفض انتقاصها وعقاب من يتعرض لهذه الحريات.
- وضمان الأمن للناس جميعًا؛ الأمن النفسى والأمن السياسى والأمن الاجتماعى، بحيث يتكاتف المجتمع كله لكى يحقق للناس أمنهم، ويحافظ على هذا الأمن أن يحرم منه الناس، أو ينتقص نصيبهم منه.

إن فقد الأمن فى المجتمع يعنى أن المجتمع فى حالة من القلق والاضطراب، والقرب من الفوضى وضياع أهم حقوق الناس.

ثانيًا: جلب المصالح المادية:

المنافع المادية مكملة للمنافع المعنوية التى تحدثنا عنها آنفًا، فمنهما معا تصبح لدى الإنسان قدرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة.

وأبرز ما تكون هذه المنافع أو المصالح المادية التى يوفرها المجتمع للإنسان فى مجالات ثلاثة هى: المال والصحة والمأوى أو السكن.

- أما المال:

فيجب توفيره بتوفير أسبابه، كفرص العمل، والحرية فى ممارسته، وتنظيمه بحيث تكون عدد ساعاته ملائمة لطاقة الإنسان وقدراته من جانب، وملائمة لإجادة العمل وإتقانه وكم إنتاجه من جانب آخر، ولأجره من جانب ثالث. كما أن العمل يجب أن يكون محققًا لمصلحة صاحب العمل فردًا أو جماعة أو هيئة أو مؤسسة فى ظل شرعية يقرها صالح المجتمع كله، ومحققا لصالح العامل بحيث يضمن كسبًا ملائمًا لمتطلبات معيشته الإنسانية الكريمة.

وإذا حصل المواطن فى المجتمع على هذا المال كان من حقه أن ينفقه حسب رغبته وإرادته فى الوجوه المشروعة للإنفاق، بحيث لا تسمح له نظم المجتمع المسلم أن ينفق المال فيما فيما حرم الله تعالى.

والمال فى حقيقته قدرة على التمتع بطيبات الحياة الدنيا، وقدرة على الإنفاق على من يجب الإنفاق عليهم من أهله وذويه، ومن هم فى حاجة إلى العون والمساعدة من سائر الناس فى المجتمع.

غير أن إنفاق المال فى الإسلام مشروط بشروط عديدة كشرط عدم الإسراف أو التبذير، وشرط عدم التقتير أو تجميد المال بحبسه أو منعه من الحركة والنماء، وشرط أداء زكاته، وإنفاق جانب منه فى سبيل الله تعالى.

- والآيات القرآنية الكريمة التى تحدثت عن الإنفاق بلغت سبعين آية ما بين آية تأمر بإنفاق المال فى سبيل الله وأخرى تثنى على المنفقين، نذكر منها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقوله عز وجل: ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ [الحديد: ٧].

وهذه الآيات الكريمة فى مجملها توظف المال وترشد إنفاقه لصالح الحياة الإنسانية كلها.

- وأما الصحة:

فيجب على المجتمع المسلم أن يوفر أسبابها جميعًا، لأنها حق طبيعى لكل مواطن فى المجتمع المسلم.

وأسباب الصحة عديدة لا نستطيع أن نذكرها جميعًا لكننا نشير إلى أهمها فيما يلى:

- سلامة البيئة:

البيئة النظيفة النقية الخالية من التلوث بكل أنواعه، فى أرضها ومياهها وأجوائها، وكافة مرافقها، هى البيئة التى تؤمن للإنسان صحة جيدة، وتمكنه من مزاولة أعماله فى الحياة بنشاط وحيوية وقدرة على الإنتاج الجيد ومواصلة العمل على النحو المطلوب جودة وكمًا.

- ومما يدخل فى السلامة الصحية تيسير الزواج، ومعونة الذين يحتاجون إلى عون لإكماله، لأن الزواج حق طبيعى لكل إنسان سَوِىٍّ فى مجتمع مسلم، وسلامة الصحة تتبعها الصحة النفسية والخلقية للمواطن، والزواج هو الباب الشرعى لتكوين الأسرة، والأسرة هى الاستقرار والراحة النفسية والجسدية والاجتماعية للإنسان.

- ومن أجل سلامة الصحة لابد من نوعى الطب المعروفين الطب الوقائى والطب العلاجى.

الطب الوقائى يستدعى إنشاء المستشفيات وغيرها مما يساعد على نشر الوعى الصحى، وتبصير الناس بأسباب الأمراض وكيفية الوقاية منها، ونشر الوعى الصحى بين المتزوجين حديثا، فيما يتصل بصحة الزوجين وصحة الأبناء.

- ومما هو من صميم الصحة توفير وسائل الطب العلاجى للمرضى بتوفير الأطباء والأدوية والمستشفيات كذلك، والحديث عن عدد الأطباء بالنسبة لعدد المواطنين فى المجتمع حديث هام ويحتاج إلى حسابات وتدقيقات.

● وأما المسكن:

فهو واجب الحكومة والمجتمع لأنه من الضرورات الحيوية للناس ومن الحقوق الأساسية لهم، وكلما تطورت المساكن وزادت تكلفتها عجز المواطن عن الوصول إليها، وكلما أصبحت الحكومة والمجتمع والقادرون مسئولين عن توفير هذه المساكن حتى يأمن الناس على حياتهم ومعاشهم، كان ذلك هو الصواب.

٢- وهو مجتمع التضامن الاجتماعي:

هذا التضامن سمة من سمات المجتمع الإسلامي تميزه وتدل عليه، بل لا يعتبر مجتمعا إسلاميا إلا بالتضامن.

● **والتضامن له معان عديدة منها:**

- ما ينتج من عمل عن تعاون مجموعة من الناس لتحقيق هدف مشترك مشروع بينهم، وهذا معناه العملي.
- والتضامن: التزام بأداء دَيْن أو غرم بين اثنين أو أكثر وأحدهم متضامن، وهذا معناه القانوني.
- وهو تضامن الفرد مع جماعته أو قبيلته فى المسئولية، وهذه معناه التشريعي.
- والتضامن تعاون وتساند وتآزر بين الأفراد والجماعات، حيث يتبادلون اعتماد بعضهم على بعض فيما من شأنهم أن يتعاونوا فيه فى حياتهم الاجتماعية على مستوى الأفراد والأسر والجماعات والمجتمع كله، وهذا معناه الاجتماعي.

● وهذا التضامن الاجتماعى «تعبير» يستخدم غالبا للإشارة إلى تضامن الفرد مع جماعته فى المسئولية.

وينقسم هذا التضامن الاجتماعى إلى قسمين:

أ- التضامن العضوى:

ويطلق على الظاهرة التى تسود مجتمعًا يقوم على أساس تقسيم العمل الذى يتطلب تعاونًا وتساندًا بين أفراده، فكلما كان المجتمع أقدر على تقسيم العمل بين أفراده، كان تعاونهم أحسن وتآزرهم أنفع، وإنجازهم للعمل أنجح، فإذا لم يحسن المجتمع تقسيم العمل بين أفراده، أصابه الفشل ثم الضياع.

ب- والتضامن الآلي:

ويطلق على الظاهرة التى تسود مجتمعًا تقليديًا، يتميز بتجانس القيم والسلوك التى تسود أفراده، على اعتبار أن تجانس القيم والسلوك فى المجتمع يدعم التضامن بين الناس ويقويه، مما يعين على تحقيق أهداف المجتمع.

● وقد جاء الإسلام بهذا التضامن بكل معنى من معانيه، وزاد على غيره من المجتمعات أن جعل هذا التضامن واجبًا دينيًا تضافرت على الإلزام به كلمات القرآن والسنة.

بل إن الإسلام سما بالتضامن فوصل به إلى التكافل الاجتماعى بين الناس، التكافل الذى يعنى أن يكفل الغنى الفقير والقوى الضعيف من خلال أوامر الدين وشروطه وآدابه، والآيات الكريمة المؤكدة لذلك كثيرة نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. فالأمر بفعل الخير، أمر بإسداء الخير إلى الناس، من الصدقة وحسن المعاملة كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكل ذلك تضامن على فعل ما ينفع الناس.

- وقوله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

والتعاون على البر والتقوى تضامن وتكافل يتميز به المجتمع الإسلامى عن غيره من المجتمعات إذ يعتبره واجبًا شرعيًا لا يتم إيمان المؤمن إلا به.

● **وأما الأحاديث النبوية الشريفة فمنها:**

- ما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

وحب الخير من المؤمن لأخيه المؤمن، أو بغضه الشر له من علامات كمال الإيمان، وذاك تضامن وتكافل فى المشاعر والحب.

- وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**مَن نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَنْ يسَّر على معسر**

يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومَنْ ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

وكل هذه الأعمال التى يقدمها المسلم لأخيه المسلم هى الترجمة الحقيقية للتضامن والتكافل المعنوى والمادى.

- وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم. أما ترضين أن أصل مَنْ وصلك وأقطع مَنْ قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك»**.

وهذا تضامن وتكافل مع الأهل والأقارب يوجبه الدين ويكافئ عليه، وهو فى الوقت نفسه من موجبات الفطرة.

- إن الإسلام يرفع من شأن التضامن والتساند والتكافل بين الناس فى المجتمع المسلم، حتى يرفع من شأن المتضامنين المتكافلين إلى درجة أن يغبطهم الأنبياء والشهداء على ما نالوا من درجة عند الله تعالى كما يدل على ذلك:

- ما رواه أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ أقبل إلى الناس بوجهه فقال: **«أيها الناس، اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله»**. فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس، ألوى بيده إلى نبى الله ﷺ، فقال: يا نبى الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟ انعتهم لنا، فسُرَّ وجه رسول الله ﷺ: **«هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا؛ يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»**.

- وهذا التضامن الاجتماعى فى الإسلام لا يمارسه المسلم المخلص دينه لله، خشية حاكم أو قانون -كما هو المتَّبع فى معظم المجتمعات- قبل الإسلام وبعده- وإنما يمارسه لإحساسه بأنه مسئول بين يدى الله عن تنفيذ كل ما أمر الله تعالى به، ومسئول عن الانتهاء عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

٣- وهو مجتمع التكيف الاجتماعى:

المجتمع الإسلامى من صنع الله تبارك وتعالى، وهو نتيجة مباشرة لتطبيق منهجه ونظامه، لذلك يحتوى على كل ما يحقق للإنسان مصالحه فى الدنيا والآخرة.

ومن المصالح الاجتماعية للإنسان، التكيف الاجتماعى، أى أن يكون نشاط الأفراد والجماعات وسلوكهم بل سلوك حكامهم محققًا للتلاؤم والانسجام فيما بين الناس عمومًا، وفيما بينهم وبين بيئتهم التى يعيشون فيها.

كما أن التكيف الاجتماعى يتضمن التكيف مع ما يسود المجتمع من قيم ومبادئ وسلوك، بل التكيف مع المعايير والاتجاهات والأذواق السائدة فى المجتمع.

وهذا التكيف الاجتماعى ضرورى لكى يضمن المجتمع استمرار سير الحياة الاجتماعية فى توافق ووئام.

- ومن المعروف أن المجتمع الإسلامى منضبط تمامًا مع القيم والمبادئ والأخلاق التى جاء بها الإسلام، بل مع الأقوال والأعمال التى أقرها الإسلام ورضيها تعبيرًا عن الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها الله تعالى للإنسان.

وهذا التكيف الاجتماعى -كما قلنا- هو انسجام وتلاؤم بل وئام، على مستويات عديدة فى المجتمع أهمها:

- مستوى الفرد والفرد، والفرد والجماعة.
- ومستوى الأفراد والجماعات وبيئاتهم التى يعيشون فيها.
- ومستوى الجماعات فيما بينها.
- ومستوى المجتمع كله حكامًا ومحكومين.

- والإسلام منهج ونظام يقوم على وجوب التكيف والانسجام بين جميع الناس، وبخاصة فى كل ما له علاقة بالحياة الاجتماعية عمومًا، خُلُقية وعقلية وثقافية واقتصادية وسياسية، روحية وجسدية.

ومنهج الإسلام ونظامه يقوم دائمًا على التوازن والانسجام، كما يقوم على نبذ أسباب الفرقة والانقسام والتنافر والخصام، وقد دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة.

أ- تحقيق التوازن والانسجام:

- أما التوازن والانسجام والوئام فيحتاج من المجتمع الإسلامي أن يتصف أفراده بصفات مدحها الله تعالى وأثنى على أصحابها، وقد وردت هذه الآيات في سورة الفرقان مما يمكن أن نجعل لها عنوانًا هو: «عباد الرحمن» وهي:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وأما الأحاديث النبوية فمنها:

- ما رواه النسائي بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله

ﷺ: «إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

- وما رواه الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا فإن الله يحب المحسنين».

- وما رواه الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله فى السر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغنى».

ب- والقضاء على الفرقة والانقسام:

وأما القضاء على الفرقة والانقسام، فإنما يكون بحسم النزاع وإزالة أسبابه.

وفى هذا المجال جاءت آيات كريمة وأحاديث نبوية عديدة. ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

هكذا يُردُّ النزاع إلى مرجعياته الأساسية «الله ورسوله» لينحل وينحسم، ولا يملك أحد أن يعترض أو تنطوى نفسه على أدنى قدر من الشك فى عدالة مَنْ رُدَّ إليه النزاع.

وإنما ينحسم النزاع ويعود الناس إلى الوئام إذا ساد المجتمع صفات أهمها:

العدل، والشورى، والإحسان.

- **أما العدل:** فقد فسره العلماء بأنه: كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق.

وقد أوجبه الله تعالى فى أكثر من آية قرآنية كريمة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ [النساء: ٥٨].

- **أما الشورى:** فقد اتفق علماء المسلمين على أنها من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب وهذا ما لا خلاف فيه.

وأخرج الإمام الخطيب بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه، قال: قلت: يا رسول الله: الأمر ينزل بعدك لم ينزل فيه قرآن، ولم يرد منك فيه شىء؟ قال: «اجمعوا له العابد من أمتى، واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأى واحد».

وقد كان النبى ﷺ يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ونحوها، ولم يكن يشاورهم فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والحرام والمباح.

وكذلك تشاور الصحابة فيما بينهم بعد رسول الله ﷺ فى كثير من الأمور كالخلافة وحروب الردة ونحوها.

● **وأما الإحسان:** فقد أمر الله به كما أمر بالعدل، لكن الأمر بالعدل على سبيل الوجوب، والأمر بالإحسان على سبيل الندب والتفضل، فقد عرفه ابن عباس رضى الله عنهما بأنه: أداء الفرائض مكملة بنوافلها.

- وروى الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»**.

- وروى الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا فإن الله يحب المحسنين»**.

بهذه الصفات فى المجتمع الإسلامى يكون التكيف بين الفرد والفرد، وبينه وبين الجماعة والمجتمع، وبين الجماعة والجماعة، وبينها وبين المجتمع، وبين المجتمع وجميع من يعيشون فيه.

٤- وهو مجتمع التماسك الاجتماعى:

التماسك الاجتماعى بين الناس يستهدف استقرار النظام الاجتماعى على مستوى الأسرة والجماعة والمجتمع كله.

ويقوم هذا التماسك على دعائم من التعاون والتناصر والتضامن بين أفراد المجتمع -كما أوضحنا ذلك آنفا.

والتماسك الاجتماعى يعنى زيادة العلاقات الموجبة التى تكون فى المحيط الداخلى للجماعة؛ إذ كلما ازدادت هذه العلاقات وثاقة ازداد تماسك الجماعة.

● والمجتمع الإسلامى يعمل من خلال مبادئه وقيمة ومؤسساته ونظمه على تقوية هذه العلاقات فى داخل المجتمع الإقليمى، ثم يمتد خارج هذا المجتمع الإقليمى ليشمل المجتمع الإسلامى الخارجى فى العالم الإسلامى كله فى مشارق الأرض ومغاربها.

أ- معانى التماسك الاجتماعى:

- ومن معانى التماسك الاجتماعى التى نقصدها تحديد مركز كل فرد أو جماعة فى المجتمع وتحديد عمله، وتوضيح مدى ارتباط عمل أى فرد بعمل فرد آخر أو جماعة أخرى فى المجتمع.

والغاية أن يؤدى هذا العمل المتماسك إلى تحقيق الأهداف الاجتماعية بصورة مرضية لطبيعة التجمع الإنسانى.

- ومن معانى التماسك الاجتماعى حسن التنسيق بين الوحدات العديدة التى يتكون منها المجتمع بحيث تؤدى كل وحدة منها وظائفها على الوجه الصحيح، وبحيث تؤدى سائر الوحدات أعمالها ووظائفها على النحو الذى يحقق أهداف المجتمع المرحلية أو العامة.

- ومن معانى التماسك الاجتماعى أن يكون المسلمون جميعًا صفًا واحدًا فى فعل الخير، وفى مواجهة الشر أو العدو؛ إذ المسلمون جميعًا يدٌ على مَنْ سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم.

بهذه المعانى العديدة للتماسك الاجتماعى جاءت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كما سنوضح بعد قليل.

ب- أنواع التماسك الاجتماعى:

وأهم أنواع التماسك الاجتماعى -فى تقديرى- هو تماسك المسلمين حول التمسك بتطبيق منهج الله تعالى ونظامه بوصفه خاتم المناهج وأتمها وأكملها، فى خطوطه العريضة التى تتناول العناصر التالية:

- الإيمان بمفرداته الستة.
- والإسلام بأركانه الخمسة.
- والإحسان بمعانيه العديدة.
- والعدل بجميع أقسامه.
- والشورى فى كل ما من شأنه التشاور فيه.
- والدعوة إلى الله على بصيرة.
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- والجهاد فى سبيل الله تعالى بكل أنواعه.

- والانتماء للإسلام والولاء له والاعتزاز بهذا الولاء.

- والالتزام بكل ما جاء به الإسلام من قيمة أو مبدأ أو خلق، أو حلال أو حرام.

إن التمسك بهذا المنهج والحرص عليه وعلى تطبيقه هو قمة التماسك الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

وقد جاء التمسك بالمنهج والتماسك الاجتماعى حول تطبيقه فى آية كريمة جامعة خاطب الله تعالى بها خاتم رسله محمدًا ﷺ وجعلها خطابًا لكل مسلم إلى يوم الدين هى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⁽١٨⁾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ⁽١٩⁾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ٢٠].

وقوله جل شأنه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⁽١١٢⁾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣]

- ومن معانى التماسك الاجتماعى أن يكون المسلمون جميعًا صفًا واحدًا، وقوة واحدة فى فعل الخير، وفى مواجهة الشر، أو العدو، لأن المسلمين يد على من سواهم.

بهذه الوحدة وهذا التوحد فى فعل الخير وفى مواجهة الشر، جاءت آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية، ومن ذلك:

- قوله الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وقوله تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [المائدة: ٢]

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فالمؤمنون جميعًا إخوان بنعمة الله تعالى وفضله.

وهم جميعًا يجب عليهم أن يتعاونوا على البر والتقوى.

وهم جميعًا مطالبون بنصر إخوانهم إن استنصروهم.. وأى تماسك أقوى من هذا وأوثق؟

● ومن كلمات السنة النبوية التى دعت إلى التعاون والتناصر والولاء والتضامن والتماسك:

- ما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم، يردُّ مشدهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم»**.

- وما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنه خُلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبَّر الله وحمد الله وهلَّل الله وسبح الله واستغفر الله، وعزل حجرًا عن طريق الناس أو شوكة أو عظمًا عن طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشى يومئذ وقد زَحْزح نفسه عن النار»**[1].

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«على كل مسلم صدقة»**. قال: أرأيت أن لم يجد؟ قال: **«يعمل بيديه فينتفع نفسه ويتصدق»** قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: **«يعين ذا الحاجة الملهوف»** قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: **«يأمر بالمعروف أو الخير»** قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: **«يمسك عن الشر، فإنها صدقة»**.

فأى تماسك وتضافر وتناصر وتعاون أقوى وآكد مما دعت إليه هذه الأحاديث النبوية الشريفة؟

---

(١) حدد العلماء مؤخرًا عدد المفاصل فى جسم الإنسان فوجدوها ثلاثمائة وستين مفصلا كما جاء على لسان النبى ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، وهى:
- ١٤٧ مفصلاً بالعمود الفقرى.
- ٢٤ مفصلاً فى القفص الصدرى.
- ٨٦ مفصلاً بالنصف العلوى من الجسد.
- ٨٨ مفصلاً بالنصف السفلى من الجسد.
- ١٥ مفصلاً بالحوض.

٥- وأنه مجتمع الضمان الاجتماعي:

الضمان الاجتماعي نظام تضعه الدولة أو المجتمع لحماية الأفراد والأسر والجماعات عندما يتعرض بعضهم لبعض الكوارث كالزلازل والبراكين والجفاف والفيضانات المدمرة والعواصف، والأوبئة والطواعين، ونحو ذلك من الأخطار والأضرار.

وهذا النظام يلزم الحكومة والمجتمع، وكل فرد أو جماعة قادرة على دفع هذه الأضرار والأخطار، أو قادرة على إزالة آثارها، لأن هدف المجتمع الإسلامي أن يعيش الناس آمنين موفوري أسباب العيش والكرامة.

وهذا الضمان الاجتماعي واجب الحكومة والمجتمع أولاً، وواجب القادرين من الناس ثانيًا، لأن كل أولئك مطالبون أمام الله وأمام الناس وأمام أنفسهم بأن يدفعوا الأضرار والأخطار عن الناس عمومًا، انطلاقًا من أن القاعدة الفقهية الإسلامية تقول: إن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

- وأوضح ما يكون الضمان الاجتماعي، إذا كان درءًا لمفسدة ضد العجز والمرض والشيخوخة والفقر واليُتم والتَّرمُّل، فهذه من حقوق الناس أفرادًا وجماعات على الحكومة والمجتمع، فلقد أوجب الإسلام ذلك في آيات من القرآن الكريم وعدد من الأحاديث النبوية.

- قال الله تعالى: ﴿...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

- وقال جل شأنه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

- وقال جل وعلا: ﴿...وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

وكلمة المحروم تشمل: كل عاجز عن العمل، وكل مريض غير قادر على الكسب، وكل عاطل لا يجد عملاً، بل كل ذي حاجة.

وأما الأحاديث النبوية التي أشارت إلى وجوب الضمان الاجتماعي فهي كثيرة منها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني الضعفاء، فإنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم».

- وما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم منْ ولِيَ منْ أمْر أُمَّتى شيئًا فرفق بهم، فارفق به»**.

- وما رواه أبو داود بسنده عن أبى مريم الأزدى رضى الله عنه أنه قال لمعاوية رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن ولاَّه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلَّتهم، وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وخلَّته وفقره يوم القيامة»**.

فجعل معاوية رضى الله عنه رجلاً على حوائج المسلمين.

● وإذا كان هذا هو الضمان الاجتماعى على مستوى الحكومة والمجتمع، فإن الإسلام أوجب هذا الضمان الاجتماعى على سائر الناس وبخاصة أرباب الأسر، ومن يلون أمر غيرهم من الناس، وجاء ذلك فى القرآن الكريم والسنة النبوية، فمن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٣١].

- وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة[1]، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»**.

- وما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كفى بالمرء إثمًا أن يُضيِّع منْ يقوت»**.

٦- وأنه مجتمع الضبط الاجتماعى:

الضبط الاجتماعى هو النظام الذى تضعه الدولة أو المجتمع لحماية الأفراد والأسر والجماعات من أى ضرر أو خلل يتعرضون له، أى ضبط سلوك المجتمع كله -الحكومة والناس- ضبطًا يحقق غايتين.

أولاهما: التأكد من سلامة السلوك الاجتماعى وانضباطه مع القيم والمعايير والنظم التى يجب أن تسود المجتمع.

---

(١) أى فى: عتق رقبة.

والأخرى: التأكـد من أن الناس جميـعًـا، يصدرون أحكامهم علـى الأحداث والمواقف والأشخاص وفق المعايير الإسلامية التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- ولهذا الضبط الاجتماعى مؤسسات يرعاها الإسلام ويهتم بأن تكون فاعلة وقادرة، وهى جميعًا مؤسسات تربوية ذات تأثير عميق فى المجتمع، وتلك المؤسسات هى:

– مؤسسة الأسرة وما تملكه من قوة فى ضبط سلوك أفرادها.

– ومؤسسة المسـجد وما يملكه من احترام وتقدير وقـداسة فى نفوس الناس، مما ينعكس على الناس بسرعة الاستجابة إلى كل ما يدعو إليه المسجد من ضبط لسلوك المسلمين.

– ومؤسـسة المدرسة ومـالها من قـدرات تربوية فائقـة من ضبط سلوك المتعلـمين الذين سيصبحون قوة فاعلة مؤثرة فى المجتمع.

– ومؤسسة الإعلام وأجهزته، وما لها من تأثير وفاعلية وقدرة على توجيه سلوك الأفراد.

– والمؤسسات الحكوميـة العديدة المنتشرة فى كل أرجاء المجتـمع، وما لها من قدرة على توجيه السلوك الاجتماعى.

- إن الإسلام يضبط سلوك الإنسان ضبطًا كاملاً فى ظل تشريعاته، وما قضى به من حلال أو حرام.

- ومما يعزز الضـبط الاجتماعى ويجعلـه فاعلاً فى المجتمع أن يكون لـدى الناس إحساس بالمسئولية الاجـتماعية، وهذه المسئوليـة الاجتماعية إنما تتعـزز بالربط الوثيق بين الحقوق والواجبات، وهذه الحقوق والواجبات قد أولاها الإسلام فى منهجه ونظامه أهمية كبيرة، حيث جعل كل ممارسة لحق يقابلها أداء واجب، فليس فى الإسلام أحد -على الإطلاق- غير مطالب بأداء واجباته نحو ربه ونحو نفـسه ونحو غيره من الناس. ولا يقبل الإسلام فى أداء الواجبات إهمالاً أو تسويفًا أو أداء فيه قصور؛ لأنه وضع لكل واجب ولكل حق حدودًا ومعالم فى غاية الوضوح.

- وقد جعل الإسلام هذه المسئولية الاجتمـاعية واجب كل أحد فى المجتمع ابتداء من الفرد إلى الأسـرة إلى الجمـاعـة إلى المجـتمع الإقليـمى إلى المجـتـمع العربـى إلى المجتـمع الإسلامى، ولا يعفى من هذه المسـئولية إلا من سقط عنه التكليف لعـذر أو آفة أو نحو ذلك.

• إن للفرد فى أسرته له فى طفولته حقوق الرعاية والتربية وتأمين الصحة والتعليم، وكلما كبر تنوعت حقوقه فى أسرته وأصبحت أكثر ملاءمة لمكانه ومكانته فى الأسرة، تلك الحقوق التى قد تصل إلى ولاية أمر الأسرة.

وعليه من الواجبات منذ تكوّن وعيه وإدراكه، ثم تكبر هذه الواجبات كلما تقدمت به السن وتتنوع هذه الواجبات دائما. بحيث يكون الهدف منها تأمين الأسرة والتعاون بين أفرادها وعائلها لتؤدى وظيفتها الاجتماعية كاملة.

وهكذا شأن الأسرة مع الأسر التى تحيط بها، ومع المجتمع الذى تعيش فيه، لها حقوق وعليها واجبات.

وكذلك شأن المجتمع والحكومة، وشأن المجتمعات والحكومات فى العالمين العربى والإسلامى حيث تكثر الحقوق وتعزّز، فلا ينكرها أحد ولا ينتقصها أحد، وتنمو الواجبات وتتعدد وتتعاظم، فلا يتخلى عنها أحد، ولا يقصر فيها أحد.

• ولا يضمن لهذه الحقوق والواجبات قوتها وفاعليتها مثل الضبط الاجتماعى الذى يمارسه المجتمع والحكومة، ويلتزم به ويلزم به الناس جميعا، على أنه جزء من الدين وتقرب إلى الله تعالى بطاعته.

٧- وأنه مجتمع الرفاهية الاجتماعية:

ليست الرفاهية التى يتصف بها المجتمع الإسلامى ترفًا أو إسرافًا فى الحصول على الملذات، ولأن الإسراف قد حرمه الإسلام وأعلن أن الله تعالى لا يحب المسرفين فى أى شيء معنوى أو مادى، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

• وإنما الرفاهية التى هى من سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه هى: أن يعيش الإنسان فى سعة من الرزق وأن يتمتع بما أحل الله من طيبات الحياة الدنيا التى أخرج الله لعباده. إنها إزالة أسباب المشقة والعنت والضيق على كل أحد فى المجتمع المسلم.

- الرفاهية فى المجتمع الإسلامى نسق أو نظام فى الخدمة الاجتماعية التى تؤديها المؤسسات والأجهزة الحكومية مستهدفة مساعدة الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع على ممارسة حياة إنسانية كريمة.

- إنها الرفاهية الاجتماعية التى تستهدف قيام علاقات اجتماعية سوية، بين الأفراد والجماعات من خلال تنمية روح المودة والأخوة بين المسلمين.

- إنها الرفاهية التى تستهدف تنمية القدرات والمهارات فى المجالات التى تمارس فيها الأعمال الصالحة النافعة التى تتفق مع حاجات المجتمع وتطلعاته المشروعة.

● والإسلام - من خلال تطبيق قيمه ومبادئه ونظمه- يوفر للناس كافة الأسباب التى تساعد المجتمع كله على الحصول على الرزق الواسع، وعلى الاطمئنان وراحة البال فى الحصول على هذا الرزق، كما يحرص الإسلام على أن تكون العلاقات بين الأفراد والأسر والجماعات -الذين يسعون للحصول على الرزق الموفور- علاقات إنسانية كريمة تقوم على التعاون على البر والتقوى، وليس على الصراع.

كما يحرص الإسلام -قيمه ومبادئه ونظمه- على أن يكون كل أحد فى المجتمع آمنًا مطمئنًا على نفسه وأهله وذويه وماله وممتلكاته، وكل ما يعتز به، لأن ذلك من صميم الرفاهية الاجتماعية التى يؤمنها الإسلام للناس.

● جاءت بهذه المعانى للرفاهية الاجتماعية كثير من آيات القرآن الكريم، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. فكل ما فى الأرض من حيوان ونبات وفواكه وماء عذب وآخر مالح، تنتفعون بكل ذلك وتتمتعون بطيبات ما أحل الله لكم، وتلك من الرفاهية الاجتماعية لا شك، ما دامت غير مقترنة بالإسراف ولا تقتير.

- وقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

فالبحر سخره الله للإنسان وأعطاه القدرة على الاستفادة منه فى ركوب الفلك والتنقل والتجارة، والصيد للطعام وللزينة، وكل ذلك وغيره هو ابتغاء الرزق والتمتع بطيبات ما أحل الله تعالى: وكذلك سخر ما فى الأرض وما فى السماء نعمة منه سبحانه على الناس، ليعيشوا عيشا مرفهًا يليق بما كرم الله تعالى به الإنسان، وما أحاطه به من نعم.

- وقوله جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠، ٨١].

فالتمتع بهذه النعم جميعًا رفاهية فى العيش مادامت غير مصحوبة بإسراف أو مخيلة.

والآيات القرآنية فى هذه المعانى كثيرة وإن كنا قد اكتفينا بالشاهد والمثال.

- وأما الأحاديث النبوية الداعية إلى ممارسة الحياة الدنيا دون تشدد أو تنطع فكثيرة، والأحاديث النبوية الداعية إلى التوسط والاعتدال فى ممارسة متع الدنيا التى أحل الله فكثيرة أيضا.

وهناك أحاديث نبوية تنصح الناس بأن يروحوا عن أنفسهم ما بين آن وآخر، حتى لا يملوا، ومنها:

ما رواه مسلم بسنده عن أبى ربعى حنظلة من الربيع[1] قال: لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلتُ: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟ قلتُ: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عيْن فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، قال أبو بكر رضى الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلتُ: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلتُ: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العيْن، فإذا خرجنا من عندك عافسنا[2] الأزواج والأولاد والضيعات[3] نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[4] ثلاث مرات.

وفى هذه المعافسة والملاعبة رفاهية أحلها الله تعالى.

(١) هو حنظلة بن الربيع الأُسَيّدى الكاتب، أحد كُتّاب رسول الله ﷺ.

(٢) عافسنا: عالجنا ولاعبنا

(٣) الضيعات: المعايش.

(٤) أى ساعة للجد العبودية، وساعة لممارسة متع الدنيا التى أحلّ تعالى لعباده.

- وما رواه مسلم بسنده عن أبى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: أُخْبِر النبى ﷺ أنى أقول: والله لأصومَنَّ النهار، ولأقومَنَّ الليل ما عشت، فقال: **«ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟»** قلت: بلى يا رسول الله. قال: **«فلا تفعل: صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإذن ذلك صيام الدهر»** وفى رواية: **«وإن لولدك عليك حقا»**

ومن معانى هذا الحديث الشريف أن المسلم عليه أن لا يشق على نفسه فى العبادة وإنما يتوسط.

وله أن يرفِّه عن نفسه بالفطر والنوم وإراحة جسده وعينه، وله أن يستمتع بزوجته، وباستقبال ضيوفه والأكل معهم حتى لو كان يصوم نافلة.

هذا هو الإسلام دين التوسط والاعتدال.

- وما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن الدين يُسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة».**

وفى رواية له أيضا: **«سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، القصد القصد تبلغوا».**

وبعد: فأرجو أن أكون قد أوضحت سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه فى هذه الخصائص السبع التى تميز بها المجتمع الإسلامى عن كل مجتمع سواه، والتى هى صفات ثابتة لا تفارقه بحال.

وإلى الحديث عن سمات أو خصائص لا يجوز أن تكون فى المجتمع الإسلامى بحال، لأن الإسلام يرفضها ولا يوافق على أن توجد فى المجتمع المسلم.

*****



الفصل الثاني

سمات وخصائص يرفضها المجتمع الإسلامي ويحظرها

المجتمع الإسلامي بوصفه مجتمع قيم ومبادئ ونُظُم أوحى الله تعالى بها إلى خاتم رسله ﷺ هو مجتمع تسوده الفضائل من كل أنواع البر والخير؛ لأن هذه الفضائل قد أوجب الإسلام التحلي بها صفات وخصائص، وأوجب التمسك بها سلوكا وأخلاقا، واعتبر ذلك طاعة لما أمر الله به وتقربا إلى الله بالأعمال الصالحة وفي ذلك مصلحة للفرد وللمجتمع.

- أما صالح الفرد فالنقاء والصفاء والطهارة وتلك ترجمة لحسن الخلق، وما يترتب عليه؛ من الثقة في النفس والاعتزاز بالدين وقيمه، ومن حُب الناس لمن كانت هذه أخلاقه، فقد روى الطبراني -في الأوسط- بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

- وأما صالح المجتمع فإن انتشار الفضائل فيه يجعله واحة أمن وأمان ومبعث ثقة واطمئنان لكل من يعيش فيه.

وإذا انتشرت الفضائل في مجتمع وأصبحت من صفات أفراده وجماعاته، فإن ذلك يعني تقلص الرذائل في هذا المجتمع وانكماشها وانزواء المتصفين بهذه الرذائل وعجزهم عن أن يجدوا لهم مكانًا بين الناس؛ لأن الإسلام حَرَّم الاتصاف بهذه الرذائل وجرَّمها رذيلةً رذيلة، وعاقب مرتكبها بالعقاب المناسب لجريمته، مما يطهر المجتمع من الرذائل والراذلين.

- والمجتمع الإسلامي -كما أوضحنا آنفا- مجتمع إصلاح اجتماعي، وتضامن، وتكيف اجتماعي، وضمان وضبط، بل رفاهية اجتماعية، وبالتالي فلا يمكن أن تقبل فيه الصفات المضادة للفضائل عموما، ولا المضادة لسماته وخصائصه السبع، التي ذكرنا، بل لابد أن تختفي أو تتوارى عن الأنظار كل سمة منتمية إلى الرذائل.

- ونرجو أن نذكر بالتحديد بعض هذه السمات والخصائص التي حرم الإسلام أن تظهر في

المجتمع الإسلامى، لأنها أن ظهرت عـاقت المجتمع عن أداء وظائفه، وحالت بين الناس وبين الحـياة الإنسـانية الكريمـة، وهذه السـمات والخـصائص التى حظرها الإسـلام فى المجتمع إنما ترجع عند تحليلها إلـى الرذائل التى نهى الإسلام عن الاتصاف بها[1]، وهى كما بدا لنا خمس صفات أو سمات أو خصائص، هى:

- التخلف الاجتماعى.
- والتفكك الاجتماعى.
- والشذوذ الاجتماعى.
- والصراع الاجتماعى.
- والقلق الاجتماعى.

وهذه السمات أو الخـصائص عَمِلَ الإسلام منهجًا ونظـامًا على أن ينفيها نفيًـا كاملاً من المجتمع من خلال تحريمه للرذائل التى تؤدى إليها.

وإن نظرة إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة إذا أخذ الناس بها لكافية أن تطهر المجتمع من الرذائل والنقـائـص والذنوب والآثام التى تؤدى إلى التـخلـف والتـفكك والشـذوذ الاجتماعى والصراع والقلق الاجتماعى، ولنذكر بعض هذه الأحاديث:

- روى ابن ماجة بسنده عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.... **وإياكم والكذب فإنه مع الفجور، وهما فى النار، وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولا تباغـضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله**».

- وروى أحمد بسنده عن ابـن عمر رضى الله عنهما قـال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[2]، واتبعوا أذناب البقر، وتركـوا الجهاد فى سبيل الله، أدخل الله تعالى عليهم ذُلاً لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**».

---

(١) ما نهى عنه رسول الله ﷺ من الرذائل كثير، حتى إن الأسلاف من العلماء اعتبروا كل ما نهى عنه النبى ﷺ رذيلة، فلقد بوَّب السيوطى رحمـه الله فى كتابه: «الجامع الصغير» باب المناهى ذكر فـيه ثلاثة وسبعين ومائة حديث صحيح!!! ولم يستوعب كل ما نهى عنه ﷺ.

(٢) البيع بالعينة هو: أن يبيع من رجل سلعة بثمن معـلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به، وهو حرام لما فيه من احتيال على الدخول فى الربا.

- وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»**.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون: ٥١]، **وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»؟!**.

وإلى الحديث عن تلك السمات والخصائص التى حظر الإسلام أن تكون فى المجتمع الإسلامى.

١- صفة التخلف الاجتماعى:

التخلف الاجتماعى فى المجتمع يعنى تقهقره وجموده، وقعوده عن التقدم العلمى والتقنى، أى عجزه عن أداء وظائفه الأساسية وهى فى إجمال: توفير أسباب العيش الكريم للإنسان، وإذا عجز المجتمع عن أداء وظائفه بسبب تخلفه فلا يمكن أن يوصف بأنه مجتمع إسلامى، وذلك ما لا يسمح به الإسلام بحال.

- ولهذا التخلف الاجتماعى عوامل عديدة - سنذكر بعضها بعد قليل - ولكن ننبه قبل ذلك إلى حقيقتين:

إحداهما: أن عوامل التخلف فى المجتمع متداخلة متشابكة يُفضى بعضها إلى بعض، ويساند بعضها بعضا، حتى يمكن اعتبار كل عامل منها -لتشابكه وتماسكه مع غيره- سببًا ونتيجة فى نفس الوقت.

والأخرى: أن عوامل التخلف فى أى مجتمع لابد أن تكون عديدة ومتنوعة وذات فعالية وتأثير فى تخلُّف المجتمع،ولكنها على الرغم من ذلك مرفوضة من قِبَل الإسلام جميعها.

فما عوامل التخلف الاجتماعى؟

إن من أهمها فى تصورى:

- اضطراب القيم التى تسود المجتمع، وإصابتها بالخلل وعدم الفاعلية، لقلة عدد المتمسكين بها أو ندرتهم، أو لاختلاف بعض الناس على جدوى هذه القيم وجدوى التمسك بها، وإذا اختلت القيم أو اضطربت، أو جاهر غير المتمسكين بها بهذا التمرد عليها فإن المجتمع يصيبه التخلف الاجتماعى، لأن التمسك بالقيم هو الذى يجعل الإنسان جادًا فى عمله ومخلصا فيه بل مبدعا،وهذا بدوره يقضى على أى تخلف اجتماعى.

والإسلام حريص على مقاومة التخلف الاجتماعى واجتثاث أسبابه.

- وانتشار العادات والتقاليد الضارة بالمجتمع التى تكون فى الغالب وافدة عليه من مجتمعات غير إسلامية، لا تتقيد فى الغالب بمنظومتى ما أَحَلَّ الله تعالى، وما حرم، لأنها مجتمعات يغلب عليها الإلحاد والمادية والكفر بالله تعالى، والعلمانية، وكل ذلك يؤدى إلى تخلف المجتمع الإسلامى لأنه أخذ بتلك القيم والمعايير الغريبة عنه البعيدة عن دينه، وما عوده عليه هذا الدين من الالتزام بمنظومتى الحلال والحرام، والمستحب والمكروه.

- وشيوع الجهل بمعنى عدم التعلم والعلم فى المجتمع الإسلامى الذى كانت أولى آيات كتابه الخاتم تنادى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] والقصور فى التعلم والعلم والتعليم، بمعنى الوقوف عند القشور دون الغوص وراء لباب العلم وجوهره، مع أن المجتمع الإسلامى يؤكد للعلماء والباحثين أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلاً، وينادى على رسوله الخاتم ﷺ، وعلى كل مسلم بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فليس فى الإسلام شبع أو اكتفاء فى مجال العلم.

روى أبو نعيم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أقرب الناس درجة من النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد، فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»**.

- وانخفاض مستوى الرعاية الصحية فى المجتمع، ولانخفاض مستوى الرعاية الصحية أسباب عديدة بعضها يعود إلى الفرد وبعضها يعود إلى المجتمع، وهى جميعًا تدل

على أن المجتمع يعانى من تخلف اجتماعى، أو يؤدى إلى هذا التخلف، لأن انخفاض مستوى الرعاية الصحية ينشر الأمراض، ويضعف الإنتاج، ويهدد اقتصاد البلاد فى حاضرها وفى مستقبلها، وإذا ساء ذلك فإنه دليل على تخلف المجتمع.

- ووجود أزمة فى العمل وانتشار البطالة، وانعدام الدخل أو انخفاضه إلى الحد الذى لا يفى باحتياجات الإنسان، وأزمة البطالة سبب فى انتشار الجريمة والإحساس بفقد الأمن، وتدنى مستوى الخدمات والسلع لارتباطهما بالعمل وبالدخل على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع، وكل ذلك من أسباب تخلف المجتمع أو من ثمراته المرة، وعواقبه الوخيمة.

- وتجاهل أصحاب الحاجات المادية أو المعنوية، وهؤلاء هم:

العاجزون عن العمل أو الذين لا يجدونه.

واليتامى والأرامل، والمرضى.

والفقراء والمساكين.

والذين بلغوا سن الشيخوخة ولا عائل لهم.

وإذا تخلى المجتمع عن هؤلاء فلم تشملهم رعايته، فهو مجتمع متخلف اجتماعيًا من جانب، ولا يجوز أن يوصف بأنه مجتمع إسلامى من جانب آخر.

- وانتشار الفساد فى المؤسسات الحكومية وجمعيات المجتمع المدنى، وأجهزة الإعلام وآلاته، لأن الفساد فى هذه المؤسسات يؤدى بالضرورة إلى أن تضيع على الناس حقوقهم، وإلى أن يهمل الناس فى أداء واجباتهم، وهذا بدوره يؤدى إلى فساد هذه المؤسسات وفساد المجتمع كله، والمجتمع الفاسد مجتمع متخلف، والمجتمع المتخلف مجتمع فاسد. وهذا المعنى هو الذى نلح عليه ونؤكده وهو أن للتخلف الاجتماعى أسباباً ونتائج يؤدى بعضها إلى بعض وتتداخل حتى يصعب التعرف على السبب ويصعب تحييده عن النتيجة.

- إن الإسلام بتشريعاته جميعا يعلن حربا على كل هذه الأنواع من التخلف الاجتماعى، ويؤثم المتسببين فيها، ويجعل ذلك من الجرائم ويختار لكل جريمة العقوبة الدنيوية التى تردع الناس وتزجرهم وتجعلهم عبرة فى الدنيا، وقد تصاحبهم عقوبة فى الآخرة، كل ذلك من أجل تطهير المجتمع من أسباب التخلف،ودفعه إلى التقدم والعمل الجاد المثمر البنَّاء.

٢- وصفة التفكك الاجتماعى:

التفكك الاجتماعى معناه: عجز كفاءة النسق الاجتماعى عن تحديد مراكز الأفراد فى المنظومة الاجتماعية، والعجز عن تحديد ما يجب أن يقوموا به من أعمال تحدث فى مجموعها فَقْد الترابط فى المجتمع، مما يترتب عليه فشل النسق الاجتماعى فى إحداث الترابط الاجتماعى فى المجتمع.

والأصل فى النسق الاجتماعى أن يعنى بالتنظيم الذى يجب أن يسود الأعمال التى تصدر من مجموعة معينة من الناس أصحاب الصلات والعلاقات المتبادلة.

- ومن المؤكد أنه ما لم يحدث هذا النسق أو التنظيم الاجتماعى على النحو الذى ذكرنا؛ فإن التفكك الاجتماعى حادث لا محالة، وإذا حدث هذا التفكك الاجتماعى كانت نتائجه السيئة كثيرة ومؤثرة فى المجتمع على نحو ضار ومعوق، بل مفوّت لمصالح المجتمع،ومن هذه المضار والمعوقات، ما نذكر بعضه فى النقاط التالية:

- يفقد المجتمع عوامل ترابطه وتماسكه، وعندئذ تتضارب الأعمال ويفسد بعضها بعضًا، وتفشل فى الوصول إلى أهدافها.

- ويعجز المجتمع المتفكك عن دعم حقوق الأفراد والجماعات، بل قد ينكرها إطلاقًا، وإذا لم تدعم الحقوق يعجز المجتمع عن إلزام الناس بواجباتهم، لأن كل حق يمارس فى مقابله واجب يؤدَّى، ولا قيمة لمجتمع إنسانى لا يحترم حقوق الناس ولا يلزمهم بأداء واجباتهم.

- وبهذا التفكك يعجز المجتمع عن درء المفاسد والمخاوف عن الناس، كما يعجز عن جلب المصالح لهم فى دينهم وفى دنياهم، مع أن دفع المكاره والمضار من أهم وظائف المجتمع الإسلامى فى كافة الظروف والأحوال؛ لأن درء المفسدة وجلب المصلحة من مقاصد الإسلام، ومن أهداف شريعته ونظامه.

- ودين الإسلام الخاتم، وشريعته المتكاملة يقوم فى قيمه ومبادئه ونظمه وتشريعاته على التآلف والتماسك الذى يبلغ حد الأخوة فى الدين، وهذا الذى يباعد بينه وبين التفكك، ويجعل منه نسيجًا متماسكًا قويًا.

وآيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة الدالة على ذلك كثيرة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وقوله جل شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ [الشورى: ١٣، ١٤].

- وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ....﴾ [المائدة: ٢].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: ١-٣].

إن الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر هى أعمال لابد فيها من ترابط وتماسك وتآزر، فإن لم يكن ذلك كذلك فإنه التفكك والتفرق وذهاب الوحدة وضياع التماسك.

- وآيات القرآن الكريم الداعية إلى التماسك والتآزر والتعاون كثيرة، ومما يلحظ فيها أن الخطاب فيها موجه للجمع بصيغة المؤمنين، أو بصيغة الذين آمنوا، أو بصيغة الناس، هذا ملحظ.

- وملحظ آخر أن جميع قيم الإسلام ومبادئه وإن كانت واجب كل فرد على حدة، إلا أنها تصبح ذات جدوى أكبر وأنفع كلما مورست فى جماعة، وفائدة المجتمع الإسلامى منها وهى عمل جماعى أفضل وأعم فائدة من أدائها بصورة فردية.

- وأما الأحاديث النبوية الشريفة الداعية إلى التكاتف والتآلف ونبذ التفكك وكل ما أدَّى إلى ذلك فكثيرة نذكر منها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبى عمرو جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال:

كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ؛ فجاءه قوم عراة مجتابى النمار أو العَبَاء متقلدى السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالا؛ فأذَّن وأقام، فصلَّى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والآية الأخرى التى فى الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [الحشر: ١٨]. **تصدَّقَ رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره،** حتى قال: **ولو بشق تمرة..** فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجْرها وأجْر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**.

وهذا حديث نبوى جامع، يدعو إلى ترابط المسلمين وتماسكهم وتآزرهم فى دفع الضرر والحرج عمن وقع به الضرر والحرج من المسلمين، لأن رسول الله ﷺ هو الذى قال فيما رواه أحمد بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب»**.

إن الجماعة رحمة؛ لأنها تدفع عن المسلمين الشر والضرر، وإن الفرقة عذاب؛ لأن الفرقة تفكك وانقسام وعجز عن مواجهة الأخطار والشرور.

إن الفرقة أهلكت من تفرقوا من الأمم قبلنا.

- روى أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أذهبتم من عندى جميعا، وجئتم متفرقين!!! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة.....»**.

إن التفكك الاجتماعى صفة تحول بين المجتمع الإسلامى وبين تحقيق أهدافه كلها، فما من هدف منها إلا ويحتاج تحقيقه إلى تكاتف وتماسك وعمل جماعى، وإذا كان قمة هذه الأهداف هى الجهاد ذروة سنام الإسلام؛ فكيف يتحقق الجهاد دون تجمع وتكاتف وصف واحد يحب الله تعالى أن يرى المسلمين عليه؟

- روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

٣- وصفة الشذوذ الاجتماعي:

كما ينفي الإسلام عن المجتمع الإسلامي صفة التخلف الاجتماعي وصفة التفكك الاجتماعي، فإنه ينفي عنه صفة الشذوذ الاجتماعي، ويحظر كل تلك الصفات، ويحرم الاتصاف بها.

- والشذوذ الاجتماعي عمل أو نشاط يقوم به فرد أو جماعة يخرجون به عما هو مألوف أو مصطلح عليه في أعمال الناس وأنشطتهم في علاقاتهم بعضهم ببعض.

إن المجتمع الإنساني عموما تسوده قيم ومبادئ يحترمها الناس ويتمسكون بها، والخروج على هذه القيم والمبادئ أو تجاهلها أو مخالفتها هو الشذوذ الاجتماعي.

- والشذوذ الاجتماعي يؤدي إلى تعطيل وظائف المجتمع، وبالتالي فهو ضد مصالح المجتمع وأهدافه الإنسانية التي يسعى إلى تحقيقها من خلال سلوك الفرد والجماعة سلوكًا سَوِيًّا يتفق مع ما يسوده المجتمع من قيم ومبادئ.

- وهذا الشذوذ الاجتماعي يجلب إلى المجتمع كثيرًا من المضار والمخاطر التي تسيء إلى حاضر المجتمع وإلى مستقبله بكل تأكيد، لذلك كان من المنطقي بل من المصلحة العامة أن تحظر أنظمة المجتمع هذا الشذوذ وتحاربه وتعمل على القضاء عليه؛ لأن كل حكومة في أي مجتمع لابد أن يكون من بين وظائفها تأمين حاضر المجتمع ومستقبله ضد أي إخلال بقيم المجتمع ومبادئه. فإن سكتت حكومة عن مقاومة الشذوذ الاجتماعي فإنها بهذا السكوت تفقد اعتبارها، وتصبح أقرب إلى العصابة منها إلى الحكومة[1].

- أما في الإسلام فإنه يبني المجتمع الإسلامي على أساس أن المجتمع لا يجوز لأحد فيه أن يشذ في قول أو عمل عن الجماعة وما يحكمها من قيم ومبادئ، فإن شذ عن ذلك فقد شذَّ إلى النار وعذاب الآخرة.

والسبب في ذلك أن الشذوذ في جوهره خروج عما أحل الله وما حرّم، وهدم للقيم الاجتماعية التي أقام عليها الإسلام نظمه الاجتماعية.

---

(١) كثير من الحكومات في الغرب تسكت عن الشذوذ الاجتماعي بل تقره في قوانينها في بعض الأحيان، بل تمارسه هي نفسها في أحيان أخرى، والعجيب أنها تعد ذلك من الديموقراطية التي تكفل الحرية!!! وعلى سبيل المثال: فإن بعض هذه الحكومات تبيح الزواج المثلي، وبعضها تعترف بالأبناء دون زواج، وتبيح الإجهاض، والعلاقة بين الرجل والمرأة دون زواج!!!

● ويعتبر الإسلام أن نظام المجتمع الإسـلامى يقوم على أسس ركينة لا ينبغى أن يزحزحها أحد عن مكانها أو مكانتها، لأن هذه الأسس فى مجموعها مما أحل الله وما حرم، فهى السبيل وهى الصـراط المستقيم الذى لا يجوز لأحـد أن يسلك سواه وإلا ضل وضاع فى دنياه وآخرته.

تحدثت عن هذه الأسس وعن أن الخـروج عليهـا أو الشذوذ إلى غيـرها ضلال عن آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ.

● أما القرآن الكريم ففى قول الله تعالى عن أسس المجـتمع الإسلامى وتحريم الشذوذ عنها أو الخروج عليها:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ:

- أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

- وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

- وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

- وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

- وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا

- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

● فالشذوذ عن المجتمع اتباع لسبل الشيـطان، لأن سبيل الله واحدة، والخروج عليها باتباع غيرها شذوذ.

● وأما السنة النبوية المطهرة فتؤكد أن الشـذوذ خروج على الجماعة التى يجب أن يفئ إليها

الفرد والجماعة في كل قول وعـمل؛ إذ هي الأمان من الضلال، ومن الوقوع في الباطل والضلال والمعصية لله تعالى ولرسوله ﷺ.

- والسنة النبوية تقيم للجماعة أكبر وزن وأكبـر أهمية، فهى تصف الجماعة بأنها رحمة، وبأنهـا بركـة، وبأنهـا قوة، وبأنهـا سـبب فى تأييـد الله ونصـره، بكل ذلك وردت الأحاديث النبوية الشريفة.

- واعتبرت السنة النبـوية المطهرة أن أجمع تعريف للجماعـة هو: أنها الالتزام بسنة النبي ﷺ.

- وقد وصفت الـسنة النبوية الخروج عن الجمـاعة أو الشذوذ عنها بأوصـاف تبعث على الخوف والرهبة، فقد وصفتها بالصفات التالية:

- ترك السنة هو الخروج عن الجماعة.

- والخروج أو الشذوذ عن الجماعة فرقة وعذاب.

- وأن الخروج عن الجماعة مروق من الدين.

- وأن فراق الجماعة نفاق.

- وأن من فارق الجماعة فهو يركض مع الشيطان.

- وهدَّدتْ السنة النبوية وتوعَّدتْ كل من ترك الجماعة.

بكل معنى من هذه المعانى لترك الجماعة جاء حديث نبوى أو أكثر بشكل مباشر حينًا، وبشكل غير مباشر أحيانًا.

- ونكتفى هنا بذكر حديث شريف واحد جامع، محبب فى الجماعة منفر من الشذوذ عنها وهو:

- ما رواه التـرمذى بسنـده عن عبد الله بـن عمر- رضى الله عـنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أُمَّتِى- أو قال: أمة محمد - على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومَنْ شذَّ شذَّ إلى النار».

٤- وصفة الصراع الاجتماعى:

الصراع الاجتماعى هو الاتجاه أو العـمل الذى يهدف به فاعله إلى الغلبة والانتصار على الآخر.

أو هو العمل الذى يهدف إلى الإضرار بالمعارضين فى أنفسهم أو أموالهم أو ممتلكاتهم، أو ذويهم، أو بأى شىء يتعلق بهم، بحيث يلحق بهم خسارة أوضررًا.

- وهذا الصراع الاجتماعى له أشكال عديدة نذكر منها:

– الهجوم على المعارض فى الرأى أو المعارض فى العمل، لا لأنه مخطئ فى رأيه أو عمله، ولكن لأنه معارض فحسب!!!

وغالباً ما يستعمل المهاجم أساليب غير أخلاقية فى هجومه وغالبًا ما يكون هدفه أن يغلب وأن يشوه معارضه.

– والعمل الدائب على إفشال خطط المعارض، وإبطال أعماله بتشويهها أو التقليل من شأنها، وإقامة الأدلة الجدلية على فساد خططه وأعماله.

– والعمل على حرمان المعارض من مصالحه؛ بالوقوف ضدها، وإعاقتها واصطناع العقبات أمامها، وتجنيد الأشخاص ووسائل الإعلام ضد مصالح المعارض.

- وقد يكون الصراع الاجتماعى بين أشخاص اعتباريين مثل: المؤسسات والشركات، ومراكز القوى، والمصانع، ونحوها، وعندما يكون الصراع على هذا المستوى فإنه يكون أكثر حدَّة وأكثر ضررًا، وأبعد للمجتمع عن السلام والوئام.

- ومن الحقائق التاريخية أن الذى أشعل هذا الصراع الاجتماعى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى هو: اليهودى الشيوعى «كارل ماركس»[1] الذى فسر لنا التاريخ الإنسانى كله بأنه صراع بين طبقات المجتمع، وجعله صراعًا حتميًا، ولا يستطيع المجتمع أن يتخلص منه بل لا يستطيع أن يستغنى عنه.

وظل مذهب «كارل ماركس» أو ضلاله وتضليله فى الصراع الاجتماعى سائدًا أكثر من سبعين عاما، تفرضه الثورة الشيوعية بالقوة والإرهاب على كثير من دول العالم، وتصطنع من أجله الانقلابات العسكرية، وتمدها بوسائل قهر المعارضين وسجنهم وتعذيبهم، إلى أن انهار الاتحاد السيوفيتى وانهارت نظرياته كلها بأيدى أبنائه ودعاته على

---

(١) فيلسوف شيوعى من أصل يهودى، ألمانى الجنسية، التقى «بإنجلز» فى باريس وتعاونا على إصدار وثيقة الشيوعية الأولى التى سمياها: «المنشور الشيوعى» سنة ١٨٤٨م.

ثم هاجر «ماركس» إلى بريطانيا، وأقام بها إلى أن توفى. وإليه ينسب المذهب المسمى: «الماركسية» وهو مذهب اقتصادى سياسى،وضعت أسسه فى: المنشور الشيوعى.

رءوس الشيوعيين والاشتراكيين وأذنابهم، وكلاب حراسة هذه المبادئ الضالة التى تحكموا بها فى رقاب الناس وأقواتهم، وبخاصة فى بلدان العالم الثالث الذى أصيب معظمه بوباء الشيوعية والاشتراكية وأنظمة الحكم الشمولى وما يشتمل عليه من قهر وسجون وتعذيب ومعتقلات، ونفى وتشريد لكل من تحدثه نفسه بالمعارضة!!!

إن الصراع الاجتماعى فى دول العالم الثالث ذات الحكم الشمولى المستبد، سواء كان يسانده الشيوعيون أو الرأسماليون، تحول إلى صراع بين السلطة ممثلة فى حزبها الأوحد الحاكم وأى معارض لها، أيا كانت معارضته لدولة الحكم الشمولى حتى لو انكمشت هذه المعارضة فأضحت معارضة لسياسة وزير أو مدير، فضلا عن معارضة لسياسة الحكم أو للوزارة كلها؛ فضلا عن أن تمتد المعارضة إلى التفكير فى إنشاء حزب أو إصدار صحيفة، إن الصراع عندئذ يصبح مدويًا ويصبح ضحاياه ألوفًا، ويصبح ما يتعرضون له هو القمع والإرهاب، وتسخير أجهزة الإعلام ووسائله لتشويه هذا المعارض!!!

هذا عن الصراع الاجتماعى عمومًا، سواء أكان عند الرأسماليين الذين جعلوه بين العمال وأصحاب العمل، أو عند الشيوعيين والاشتراكيين الذين جعلوه حتمية من حتمياتهم الضالة المضللة.

- أما فى النظام الإسلامى، وما يشتمل عليه النظام من قيم ومبادئ، فإنه يرفض كل صراع اجتماعى ويدينه ويؤثم صانعيه، ولا يعترف الإسلام إلا بصراع واحد، هو الصراع بين الحق والباطل، أو بين الضلال والهدى، أو بين الكفر والإيمان، ولكنه يجعل لهذا الصراع بداية ويرسم له نهاية، ويحدد له هدفا.

- بداية الصراع الذى يقره الإسلام هو الحكمة والموعظة الحسنة، ثم الجدال بالتى هى أحسن، حتى يتبين الحق فيتبع أو يستغلق تبيينه فيأثم العلماء من المسلمين حتى يبينوه.

- ونهاية الصراع الذى يعترف به الإسلام هو الدخول فى حرب ضد أعداء الحق والهدى والإيمان، لكنها حرب تقوم على أسس ومبادئ إسلامية، فلا غدر فيها ولا خيانة ولا غلول ولا ظلم، ولا قتل لشيخ أو طفل أو امرأة أو أى إنسان عاجز عن حمل السلاح، ولا قطع لأشجار ولا تسميم لآبار ولا هدم للمنازل، ولا إحراق ولا إغراق، ولا قتل لأسير، ولا انتهاك لعرض محارب، ولا اضطهاد له أو تحميله فوق ما يطيق، ولا تعذيب للأسرى ولا إكراه لهم على الدخول فى الدين المخالف لدينهم.

- ولابد أن نؤكد أن هذه المحرمات كلها فى الحرب يمارسها دعاة الديموقراطية وأصحاب تماثيلها وأصنامها وشعاراتها، كما تمارسها إسرائيل بضراوة ووحشية مع الفلسطينيين حتى هذه الساعة -والعالم يرى ويسمع ولا يعترض!!!

- وهدف الحرب فى الإسلام يختلف تمامًا عن أهداف الحرب عند الآخرين. فمن أهداف الحرب فى الإسلام:

- دفع العدو المعتدى على المسلمين فى أى بقعة من بقاع أرض المسلمين، لأن هذه الحرب عندئذ واجبة للذود عن الحرمات، بل فرض على سبيل الكفاية أو العين.

- وإزالة العقبات والعراقيل من طريق نشر الدين الحق وتبليغه لكل من يمكن أن يبلغه، وتلك حرب واجبة أيضًا، لأن المسلمين مطالبون بأن يبلغوا هذا الدين الحق لكل الناس فى كل زمان ومكان.

- ومقاومة الطواغيت والطغيان،وكل ما يحول بين الناس وبين التعرف على دين الله الخاتم ليختاروا بملء إرادتهم بين الإيمان والكفر ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

لأن هؤلاء الطواغيت بطغيانهم يحولون بين عباد الله ودين الله فلابد من جهادهم.

- أما بديل هذا الصراع فى الإسلام فهو المودة والرحمة والتعاطف بين الأفراد والأسر والجماعات، ويجعل ذلك جزءًا من الدين بل من صميم الدين، حتى يصل هذا التعاطف والتواد إلى التناصر والموالاة، بل الأخوة فى الله وفى الدين، كل ذلك تحت شعار أن خير الناس أنفعهم للناس، وشعار أنه لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

- ومعظم آيات القرآن الكريم وكثير من الأحاديث النبوية لا تقر الصراع الاجتماعى بالمعنى الذى يراه علماء الاجتماع الذى ذكرناه آنفا، وإنما تدعو إلى الوئام والسلام.

- ولنذكر ببعض آيات القرآن الكريم فى هذا المجال:

- قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ....﴾ [الفتح: ٢٩].

وتعبير رحماء بينهم ينفى أدنى قدر من الصراع،ويوجب أكبر قدر من المودة والتكافل، والعون.

رحماء بينهم -صفة ملازمة للمؤمنين- فكيف تسمح هذه الرحمة للصراع بين الإخوة في الدين؟

- وقال عز وجل: ﴿ ....وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]

والإيثار يعنى أن يفضِّل الأخ أخاه على نفسه، ويقال: الإيثار أن يؤثر الشبعان أخاه على نفسه وهو جائع.

ويقال: الإيثار أن ترى ما بأيدى الناس لهم، وأن ما يحصل فى يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذن فيها.

- وقال جل وعلا: ﴿ ...فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

وإصلاح ذات البين بين المسلمين إنما يكون بالمودة والتراحم وترك النزاع والصراع.

- ثم لنذكر ببعض الأحاديث النبوية الداعية إلى الوئام والسلام، وترك النزاع والصراع:

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

- وروى البخارى بسنده عن عمار بن ياسر رضى الله عنه أنه قال: «**ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان، الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من إقتار**».

- وروى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله،وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**».

- روى الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأس العقل بعد الدين التحبُّب إلى الناس، واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر**».

إن فى هذا الحديث النبوى وحده أقوى دليل على أن خلق المسلم يقوم على ركيزتين:

إحداهما: التحبب إلى الناس.

والأخرى: اصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر.

- وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ، إذ جاءه رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: **«من كان معه فضل ظهر فليعدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»** قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

فهل ينشأ فى ظل هذا الحديث النبوى الشريف صراع بين مسلم وآخر؟

وعلام يكون الصراع والمسلم مطالب بأن يعود بما فضل عن حاجته على أخيه، فى المركب والمطعم، بل وفى كل أصناف المال كما فهم أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه؟

٥- وصفة القلق الاجتماعى:

وهى صفة ينفيها الإسلام تمامًا عن المجتمع الإسلامى؛ لأن القلق الاجتماعى على كل صورة من صوره يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الناس، وهذا ما لا يرضاه الإسلام بحال فى المجتمع الإسلامى.

- والقلق الاجتماعى هو احتكاك الناس بعضهم ببعض على نحو غير صحيح، لأنه يتجاهل مشاعر الناس وظروفهم، مما يسبب إحباطًا فى العلاقات الاجتماعية بين الناس، سواء أكان هذا الإحباط على مستوى الأفراد أو الجماعات أم على مستوى المجتمع كله.
- ويرى علماء الاجتماع أن القلق الاجتماعى نوعان:

- قلق اجتماعى مُحدَّد:

وهو قلق اجتماعى تتسبب فيه القيادة أو الإدارة التى تدير شئون الناس وتلى أمرهم وهى الحكومات ومؤسساتها وبخاصة إذا كانت حكومات غير عادلة أى شمولية مستبدة وإنما عُدَّ هذا القلق محددًا، لأنه من مصدر واحد هو حكومة الظلم والاستبداد.

- وقلق اجتماعى غير محدَّد:

ويتمثل هذا القلق فى أعمال وسلوكيات ملحوظة حينًا وغير ملحوظة حينًا آخر، لكنها تؤدى إلى الاضطراب فى العلاقات الاجتماعية بين الناس، ثم تفضى بهم هذه الاضطرابات إلى التفكك وعدم الشعور بالمسئولية، وربما أفضت إلى الصراع، وهذا كله من مظاهر القلق الاجتماعى، وربما عُدَّ من أسبابه.

وهذا النوع من القلق الاجتماعى غير المحدد هو نتيجة مباشرة للقصور والتقصير فى التربية من خلال مؤسساتها الرئيسة: البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع، أو من خلال أجهزة الإعلام ووسائله المقروءة والمسموعة والمشاهدة؛ لأن تلك الأجهزة والمؤسسات الرئيسة أو الإعلامية هى التى تسهم فى بناء القيم التربوية الصحيحة فى المجتمع وهى التى تزكيها وتنميها،وتتجها للناس فى صورتها الصحيحة التى تعكس القيم السائدة فى المجتمع الإسلامى.

وهذا النوع من القلق الاجتماعى غير المحدد لا يمكن إعفاء الحكومة من المسئولية عنه، لأنها المنوط بها إصلاح البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع وأجهزة الإعلام ووسائله، وبخاصة فى بلدان العالم الإسلامى الذى تسود معظمه أنظمة حكم شمولية مستبدة، لا تعطى لأحد أو جماعة أو مؤسسة فرصة المشاركة فى أى إصلاح، لأن الإصلاح ما تراه الحكومة الشمولية وحدها من خلال حزبها الحاكم ومجالسها النيابية المصطنعة ومنافقيها رغبًا أو رهبًا،وموظفيها فى المسجد والمدرسة وأجهزة الإعلام ومؤسساته، وليس من حق أحد غير هؤلاء من المفكرين والعلماء والدعاة والمصلحين أن يتحدث عن أى قصور أو تقصير فى هذه المؤسسات والأجهزة، وإلا عُدّ متهجمًا على سياسة الحكومة ومتمردًا على نظامها، وراغبا فى تغيير هذا النظام بالقوة،ومثيرًا للفتن وإرهابيًا ومتطرفًا وداعيًا إلى العنف، ورجعيًا، وعدوًا للعلمانية والديموقراطية وحقوق الإنسان،وزُج به فى غياهب السجون بعد محاكمات عسكرية استثنائية لابد أن يسبقها تعذيب وإهدار لحقوق الإنسان وكرامته، بل ربما زُج به فى السجن دون محاكمة سنوات وسنوات قد تطول إلى أن تصل إلى الأربعين عامًا، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وأوضح من أن يستشهد عليها بالشاهد والمثال، بل لنا أن نقول -فى غير مبالغة-: إن هذا هو المعروف المشهور فى عديد من دول العالم العربى وفى عديد من دول العالم الإسلامى، وفى عديد من بلدان العالم الثالث[1].

وقد لا يصدق بعض الناس ذلك ويرون فيه مبالغة أو تفسيرًا تآمريًا ضد الإسلام والمسلمين كما يحلو لهم أن يقولوا، والحق أن جميع الشواهد تؤيد ما قلنا، وكل أعمال إسرائيل فى فلسطين والعالمين العربى والإسلامى، وكل أعمال الولايات المتحدة الأمريكية التى احتلت عددًا من بلدان العالم الإسلامى عسكريا- تؤيدها معظم دول الاتحاد الأوربى- احتلالاً

---

(١) تاريخ ذلك الذى نقول هو ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م

عسكريًا، وسيطرت على كل بلدان العالم الإسلامى سياسيًا واقتصاديًا وما قامت به من أعمال غير إنسانية فى «جوانتانامو» ومن قبلها فى عديد من بلدان العالم[1].

بعد هذا التعريف الوجيز للقلق الاجتماعى نتساءل قائلين: ما موقف الإسلام من هذا القلق الاجتماعى؟ وللإجابة عن ذلك نقول سائلين الله تعالى العون والسداد والتوفيق:

- الإسلام -كما أوضحنا آنفا- يقوم مجتمعه على سمات وخصائص تلازم المجتمع الإسلامى كالإصلاح الاجتماعى، والتضامن الاجتماعى، والتماسك الاجتماعى، والضمان الاجتماعى، والضبط الاجتماعى، بل الرفاهية الاجتماعية.

كما يقوم المجتمع الإسلامى على رفض سمات وخصائص بعينها وخطرها فى المجتمع، مثل: التخلف الاجتماعى، والتفكك الاجتماعى، والشذوذ الاجتماعى، والصراع الاجتماعى، والقلق الاجتماعى الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن، والذى نوضح موقف الإسلام من هذا القلق الاجتماعى فى الصفحات التالية:

الأمن بكل أنواعه بديل عن القلق الاجتماعى فى الإسلام

- الإسلام دين أمن وطمأنينة واستقرار، وكل صفة من هذه الصفات تنفى عن المجتمع الإسلامى كل قلق اجتماعى.

- وهذه الصفات الأصيلة الراسخة فى دين الإسلام من أمْن وطمأنينة واستقرار، لا تتوفر فى المجتمع إلا بأن يدخل الناس فى الإيمان وأن يخرجوا من الشرك، وبأن يدينوا بالإسلام ويهجروا الكفر والنفاق، وبأن يتخذوا الإحسان منهجًا ونظامًا، وينفروا من الطمع والأنانية والإهمال.

- أما دخولهم فى الإيمان وخروجهم من الشرك -الظلم- فقد أشار إليه القرآن الكريم فى الآيات التى أجراها الله تعالى على لسان نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام، فى قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

وكلمة «الظلم» فى هذه الآية الكريمة، فسرها العلماء بأنها: الشرك

---

(١) سردنا أعمال أمريكا العدوانية على الأمم والشعوب فى كتابنا: التربية الإسلامية فى المدرسة- وسنشير إليه فى هذا الكتاب.

فهـذا أمن واطمئنان واستقـرار نابع من قلب الإنسان، دعا إليـه الإسلام، ولم يكتف الإسـلام بأن يجعل ذلـك المصدر الوحيـد للأمن- من أجل دفع القلق الاجـتمـاعى والقضاء عليه- وإنما جمع إليه مصدرين آخرين هما:

أمن المكان.

وأمن الزمان.

- أما أمْن المكان فقد فرضه الله فرضًا فى:

بيتـه الحرام، كمـا يفهم ذلك من قـوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومن قـوله جل شأنه: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ومن قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧].

- وأما أمن الزمان فقد فرضه الله تعالى فرضًا فى:

الأشهر الحُرُم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ... ﴾ [التوبة: ٣٦].

فهذه أنواع ثلاثة من الأمن الضرورى للإنسان الذى يبعده عن القلق الاجتماعى، وهى: الأمن النفسى النابع من الإيمان، والأمـن المكانى، والأمن الزمانى اللذان فرضهـما الله فرضًا، وحرّم فيهما أن يُمس الأمْن بما يخدشه فضلاً عما يمكن أن يُضيِّعه.

والأمن والطمأنينة والاستقرار فى المجتمع من منع وتجريم لكل قلق اجتماعى مهما كان نوعه محددا أو غير محدد عمل إسلامى اجتماعى لابد منه.

وبعد، فإن الآيات القرآنية التى استشـهدنا بها على غرس الأمن فى المجتمع الإسلامى هى بعض الآيات التى تدعم الأمن وتنفى القلق الاجتمـاعى، والقول بأن جميع آيات القـرآن الكريم تدعم الأمن النفسى وتـدعو إلى الأخـذ بأسبـابه، ليس فيـه شىء من المبالغة؛ بدليل أن القـرآن الكريم وصفه الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

وهل هناك طريقة أقوم من غرس الأمن فى النفوس ومقاومة القلق والاضطراب؟

وكما وصفه بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ..﴾ [الإسراء: ٨٢].

وماذا يعنى الشفاء والرحمة إذا لم يعن الأمن والطمأنينة والاستقرار، ونفى القلق عن المجتمع الإسلامى؟

● ولقد جاءت السنة النبوية المطهرة لتؤكد -فى كثير من كلمات الرسول ﷺ- الأمن والاطمئنان والاستقرار، وتنفى عن المجتمع كل سبب مادى أو معنوى يؤدى إلى القلق الاجتماعى.

والقول بأن السنة النبوية كلها قولاً وفعلاً وتقريراً تؤكد الأمن بكل أنواعه، وتنفى عن المجتمع القلق بكل أنواعه، هذا القول ليس فيه من المبالغة شىء، فقد قرر الله تعالى ذلك فى قوله تعالى مخاطبا رسوله الخاتم ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهذا ما قرره الرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «دعونى ما تركتكم؛ إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

أليست السنة جميعها تغرس فى نفوس الناس الأمن والطمأنينة وتنفى عنهم القلق الاجتماعى؟

● أما الأحاديث النبوية التى نستشهد بها فى مجال نفى القلق الاجتماعى وحظره وحظر أسبابه فى المجتمع الإسلامى فمنها:

- ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار».

فأى أمان أعمق من هذا وأعم وأشمل؟

- وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَرَّ بشىء من مساجدنا أو أسواقنا، ومعه نبل فليمسك، أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشىء».

فأى أمن مادى ومعنوى أكبر من ذلك؟

وكيف يوجد مع هذا الحرص على الأمن قلق اجتماعى؟

- ومـا رواه الترمـذى بسنده عن أبـى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ:

«المسلم أخـو المسلم لا يخـونه ولا يكذبه ولا يخـذله، كل المسلم على المسلم حـرام، عرضـه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

فكيف يظهر القلق الاجـتماعى فى مجـتمع لا يكذب فيه أحد علـى أحد، ولا يخونه ولا يخذله، ولا يعتدى على أى حق من حقوقه؛ عرضه وماله ودمه؟

بل كيف يوجد القلق الاجتماعى فى مجتمع لا يجوز فيه للمسلم أن يحقر أحدًا؟

- وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

فأين مكان القلق الاجتماعى فى مجتمع لا يكمل إيمـان أحد فيه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟

- وما رواه البخـارى ومسلم بسنديهمـا عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن!!!» قيل: من يا رسـول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه»[1].

أين القلق الاجتماعى فى مجتمع هذه قيمه ومبادئه؟

- إن القلق الاجتماعى مـعناه غياب تلك القيم والمبادئ من المجتـمع، ولا يجوز أن تغيب هذه القيم الإسلامية والمبـادئ عن المجتمع الإسلامى، وإلا فقد صفتـه واعتباره ولم يعد مجتمعًا إسلاميًا وهو خال منها.

- وفى ختام الحديث عن القلق الاجتماعى نقول:

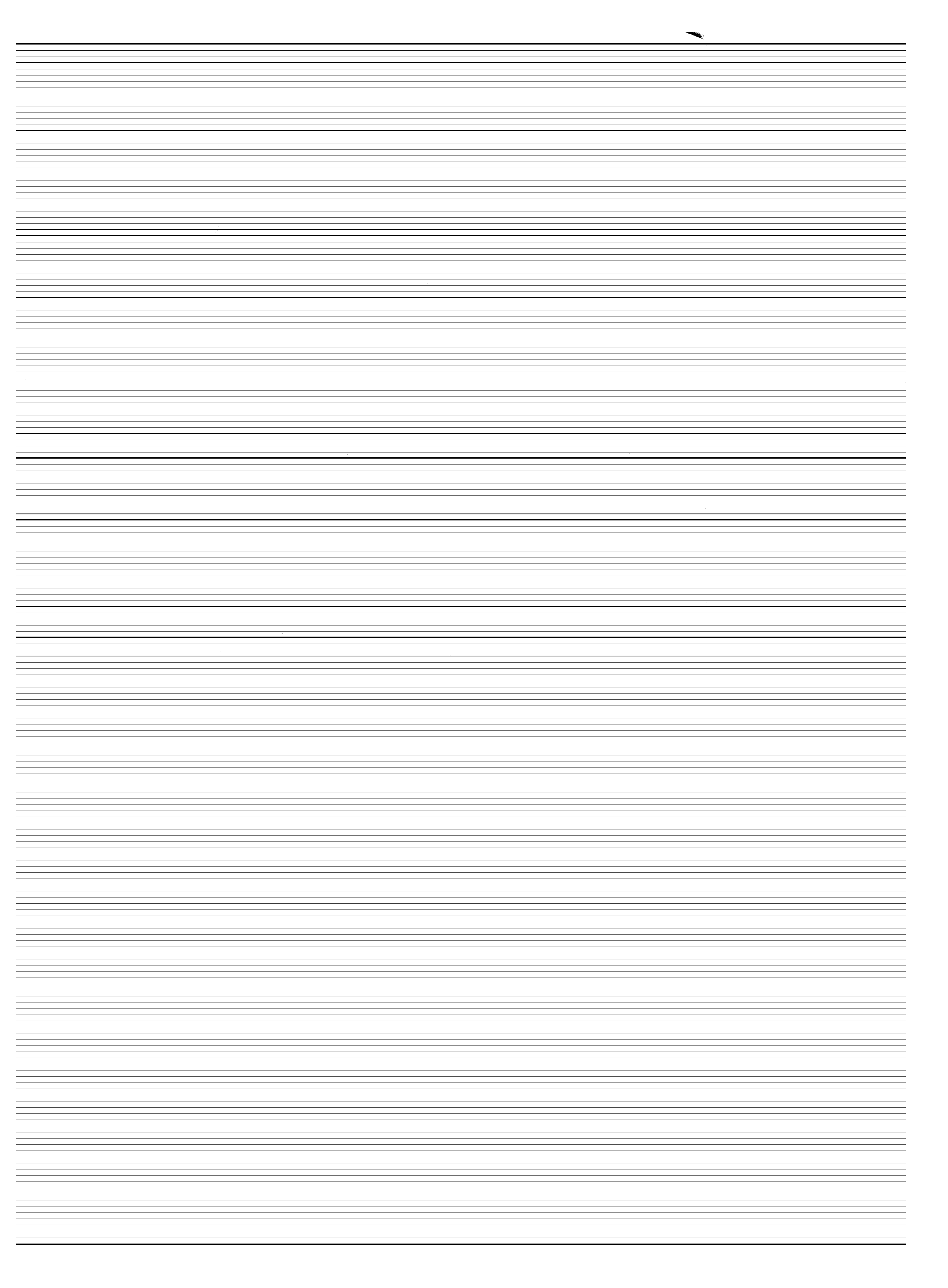
أى أمن وطمأنينة واسـتقرار وانسجام أكـبر من التمسك بما جـاء فى القرآن الكريم، وفى سنة النبى ﷺ؟

وأى أمن أوسع وأشمل للمجتمع الإسلامى من ثلاثة أنواع من الأمن هى: الأمن النفسى والأمن المكانى والأمن الزمانى، كما أوضحنا؟

أيوجد مع هذا الأمن قلق اجتماعى؟

---

(١) البوائق: الشرور والجرائم.



الفصل الثالث

سمات وخصائص يطورها المجتمع الإسلامى

تبعًا لتغيرات الزمان والمكان

نحاول فى هذا الفصل أن نكمل صورة المجتمع الإسلامى فى مجال السمات والخصائص؛ فقد تحدثنا فى الفصل الأول عن السمات والخصائص الثابتة المستقرة فيه، وتحدثنا فى الفصل الثانى عن الصفات التى يجب أن تنفى عنه وتحظر فيه، وإنما تكمل صورة السمات والخصائص بالحديث عما يتغير من هذه السمات والخصائص بتغير الزمان والمكان.

- إننا نتحدث فى هذا الفصل عن مرونة المجتمع الإسلامى بمرونة التشريع فيه وسعته لاستيعاب كافة المتغيرات وقبول الجديد إذا لم يخالف شيئًا من العقيدة والعبادة والخلق.

والمرونة تعنى عدم رفض الجديد لأنه جديد وكفى -كما يزعم بعض المتحاملين على الإسلام- وإنما يرفض إذا خالف العقيدة أو العبادة والخلق.

إن هذه المرونة تعنى أن الإسلام فى بعض سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه متجدد متطور تقدمى يواكب الزمان والمكان، بل إن الإسلام يوجب تجديد أمر الدين ما بين حين وآخر، كما يدل على ذلك ما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها»**.

ومعنى الحديث الشريف أن الإسلام متجدد أو يجب أن يتجدد كلما تجدد الزمان، مع محافظته على أصول العقيدة والعبادة والخلق.

- المجتمع الإسلامى يجب أن يكون -كما أراد له الإسلام- مجتمع الماضى الزاهر والمستقبل المتقدم المتحضر الآمن.

وآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى العمل والإنفاق والإخلاص، وتدعو إلى السعى فى الأرض وابتغاء الرزق كثيرة معروفة -وسنذكر بعضها بعد قليل- كما أن الآيات والأحاديث التى تدعو إلى الاهتمام بالأعمال التى تجعل آخرة المسلم بين يدى ربه محلاً لرضا الله تعالى والحصول على ثوابه كثيرة ومعروفة -وسنذكر بعضها أيضًا-.

وهذه الآيات والأحاديث النبوية فى مجموعها تعنى أن على المسلم أن يهتم بدنياه وآخرته، وألا يهمل إحداهما لحساب الأخرى. بل إن مجمل القرآن الكريم ومجمل السنة النبوية لا يخلو من التركيز على الاهتمام بالدنيا والآخرة.

واهتمام الإسلام بالآخرة أكبر وأوكد، لأنه يعتبر الآخرة دار القرار والجزاء ويعتبر الدنيا دار الانتقال والعمل، بل يعتبرها جسرًا ومَعْبرًا يجب أن يكون آمنا بالعمل لصالح الذى يترجم الإيمان والإسلام ويعبر عنهما، فالدنيا حقًا طريق إلى الآخرة.

- ومن الآيات الكريمة الدالة على ذلك التميز للآخرة على الدنيا.

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

- وقوله جل شأنه: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

- ومن الآيات الدالة على أن الدنيا دار عمل وجهاد:

- قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- والخلاصة: أن الإسلام منهج وإصلاح للدين والدنيا، وإصلاح لطريقهما معًا، وهو بذلك دين التوازن بين الدنيا والآخرة من أجل أن يعيش الإنسان سعيدًا راضيًا فى دنياه، قد قدَّم فيها ما ينال عليه فى الآخرة أحسن الجزاء.

وسنتحدث -بحول من الله- فى هذا الفصل عن نقطتين هامتين فى مجال تطوير المجتمع الإسلامى لكثير من العناصر المتغيرة فيه، هما:

- مرونة التشريعات الإسلامية فى التعامل مع المتغيرات.

- ونماذج من الصفات التى لا بأس من تغييرها.

والله الهادى إلى سواء السبيل.

١- مرونة التشريعات الإسلامية فى التعامل مع المتغيرات:

تشريعات الإسلام: هى القوانين التى سنها ليلتزم الناس بها فى حياتهم ليحققوا سعادة الدنيا والآخرة.

والشريعة: هى ما شرعه الله تعالى لعباده من العقائد والأحكام والقيم والمبادئ والأخلاق، وشريعة الله واجبة الاتباع لقول الله تعالى مخاطبًا رسوله الخاتم: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾** [الجاثية: ١٨، ١٩].

والشريعة هى: الدين والمِلَّة المتَّبعة، وهى مشتقة من الشرع وهو تمهيد الطريق للسير فيه، وسميت شريعة الماء الذى يرده الناس شريعة لذلك.

والشريعة تشبه شريعة الماء فى وجه جامع بينهما، هو أن كلا منهما يتسبب فى إحياء الناس؛ ففى الماء حياة الأجساد وفى الشريعة حياة الأرواح والعقول، لأن الرسول ﷺ دعانا إلى ما يحيينا، فقد قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤].

وهذه الشريعة الإسلامية اشتمل منهجها على إصلاح حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة فى كافة مرافقها وما يتصل بها من قريب أو بعيد.

والشريعة الإسلامية يشتمل منهجها على قسمين كبيرين هما:

- الثابت المستقر الذى لا يجوز أن يتغير مهما تطاول الزمان أو تعدد المكان وهو كل ما يتصل بالعقيدة والعبادة والخلق.

- والقابل للتغير بتغير الزمان والمكان ومصالح المسلمين، وهو كل ما يستجد فى حياة الناس من متغيرات ومستحدثات ومستجدات تضفى على حياتهم راحة أو يسرًا أو منفعة مادية أو معنوية، وهذا الجانب من الشريعة تُرِك غير ثابت ليعيد فيه العلماء النظر، ويأخذوا منه أو يتركوا من غير أن يخالفوا ثابتا من ثوابت الشريعة.

● وقد أعطى الإسلام للعلماء والفقهاء وأهل الاجتهاد منهم الحق فى أن يسنوا من القوانين والنظم، ما يجيز الأخذ بهذه المتغيرات وقبولها أو تعديلها، كما أعطاهم الحق فى رفضها إذا تعارضت مع ثوابت الشريعة.

● وقد أفسحت الشريعة الإسلامية للمجتهدين الذين يسنون القوانين مجالات عديدة جعلتها من مصادر التشريع عند الحاجة إليها بعد عصر الرسول ﷺ، ومن هذه المصادر:

- الإجماع.
- وفتوى الصحابى.
- والقياس.
- والاستحسان.
- والعُرف.
- والمصالح المرسلة.
- والذرائع.
- والاستصحاب.

وهذه المصادر التشريعية الثمانية[1] تؤكد مرونة الفقه الإسلامى وقدرة الفقهاء المجتهدين على مواكبة المتغيرات بل مواجهتها والتعامل معها.

● وإنما كانت هذه المرونة من لوازم الشريعة الخاتمة لأن تحقيق مقاصد الشريعة لا يكون إلا بتعدد مصادر التشريع فيها وبخاصة بعد انقطاع الوحى بوفاة النبى ﷺ.

● ومقاصد شريعة الإسلام من الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

وهذه المقاصد هى:

- الرحمة بالناس والرفق بهم.
- وتطبيق العدل فيما بينهم والمساواة فى الحقوق والواجبات.

---

(١) التعريف بكل واحد من هذه المصادر مجاله كتب أصول الفقه وهى كثيرة منها: الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى ولابن حزم، والمستصفى للإمام الغزالى أبى حامد، والموافقات للشاطبى، وغيرها.

- وتحقيق العدالة الاجتماعية للناس جميعًا.

- وإقرار مبدأ الإحسان بكل معانيه والندب إلى ممارسته.

- ورفع الحرج عن الناس ودفع الضرر عنهم.

- وتكليفهم بما يستطيعون.

- ومراعاة مصالح الناس.

- والعمل على تحقيق المصلحة الحقيقية للإنسان، وتتمثل فى المحافظة على: دينه، ونفسه، وعقله، ونسله، وماله، وذلك أن الحياة الإنسانية الكريمة لا تتوافر إلا بالمحافظة على تلك الأمور الخمسة، وبيان ذلك فى اختصار شديد هو:

- أن الدين ضرورى لحياة الإنسان، فهو خاصة من خواصه، وبه كرمه الله وحمَّله الأمانة وكلَّفه، فلابد أن يسلم للإنسان دينه من كل اعتداء، بل جعل الإسلام فتنة إنسان بصرفه عن دينه أشد من قتله، ومن أجل المحافظة على التدين شرع الله العبادات.

- والمحافظة على النفس: وهى المحافظة على حق الإنسان فى الحياة الكريمة، وصيانتها عن أى اعتداء عليها بالقتل أو إتلاف أى جزء من جسد الإنسان أو جرحه، بل حرَّم الإسلام سَبَّ الإنسان، وجعل عقوبة عادلة على كل من اعتدى على حياة الإنسان أو جزء من جسده، أو قذفه أو شتمه.

- والمحافظة على العقل: بحفظه من أن تناله آفة تعطله فتجعل صاحبه عبئًا على المجتمع بعد أن كان عونًا للمجتمع وسندًا له، لذلك حرّم الإسلام كل ما يضر العقل من مسكرات ومخدرات ونحوها، وحرّم قهر الإنسان وتعذيبه، لما فى ذلك من ضرر به وبعقله.

- والمحافظة على النسل، أى المحافظة على النوع الإنسانى وعلى تربيته تربية إسلامية تصلح له معاشه ومعاده. ولذلك نظم الزواج وحافظ على الحياة الزوجية، وحرَّم الاعتداء على الأعراض، وإفساد الزوجة على زوجها، أو قذفها بالفاحشة، وجعل لكل جريمة من هذه الجرائم عقوبة تناسبها، وتردع مرتكبها.

- والمحافظة على المال: بالتشريع العادل في البيع والشراء والإجارة ونحو ذلك من العقود التي تحافظ للطرفين على ما لهما، وجعل التعاملات المالية كلها قائمة على العدل والتراضي إيجابًا وقبولاً، وحماية المال من العدوان عليه بالسرقة والاغتصاب والغش ونحوها.

والمحافظة على إنتاج السلع والخدمات، وعلى توزيعها بالقسطاس والعدل، وتحريم كل الوسائل التي تؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل.

- وفي المحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال وردت آيات قرآنية عديدة، وأحاديث نبوية كثيرة، ذكرنا كثيرًا منها فيما مضى من هذا الكتاب، وسنذكر بإذن الله تعالى كثيرًا منها فيما بقي من الكتاب.

يقول الإمام الغزالي أبو حامد: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهي: أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم؛ فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة؛ فهو مصلحة، وكل ما يفوّت هذه الأصول الخمسة، فهو مفسدة، ودفعها مصلحة»[1].

وبعد: فلعلي أن أكون قد أوضحت مرونة التشريعات الإسلامية في التعامل مع المتغيرات، لكن ما هي هذه المتغيرات؛ ذلك ما نوضحه في النقطة التالية.

٢- نماذج من السمات والصفات التي لا بأس في تغييرها:

هذه السمات والصفات التي تستحدث في المجتمع الإسلامي وتقبلها الأنظمة التشريعية للإسلام كثيرة - وقد أشرنا من قبل إلى شرط قبولها - وإنما كان موقف التشريع الإسلامي منها بهذه المرونة التي ذكرنا؛ لأن الإسلام دين يحسن التعامل مع الواقع الذي يعيشه الناس، كما يحسن تطويره وتحسينه وتطويعه لكي يتلاءم مع الشريعة.

- وما دامت حياة الناس مستمرة حتى يأذن الله بإنهائها، فلابد أن يحدث فيها تطوير وتغير واستحداث لمستجدات يقتضيها الزمان والمكان، ولا حرج في ذلك، وإنما هو تجاوب مع متطلبات الزمان والمكان.

- وما دام شرع الله ونظامه ومنهجه في استمرار ما دام على الأرض حياة إنسانية، فلابد أن يتعامل هذا الشرع مع المستحدثات بما يحقق مصالح الإنسان أي يجلب له المنافع ويدفع عنه المضار.

---

(١) الإمام الغزالي: المستصفى: ١/ ٢٨٧.

• وقد أكدنا فى النقطة الأولى من هذا الفصل مرونة الشريعة وقدرتها على مواكبة هذه المتغيرات ومواجهتها بالتعديل أو التغيير أو الإبطال والإلغاء، من خلال مرونة مصادر التشريع وتعددها.

• ونحاول فى هذه النقطة الثانية من هذا الفصل أن نذكر بعض النماذج من السمات والصفات الاجتماعية التى لا بأس من التجاوب معها بقبول ما استحدث منها ما دام يحقق مصالح المسلمين، ولا يخالف شيئًا من الثوابت الإسلامية فيما يتصل بالعقيدة والعبادة والأخلاق.

وسوف نكتفى بذكر بعض النماذج، ومن ذلك :

- ما استحدثه الناس فى مجال المسكن والمأوى، تخطيطًا وإنشاء، وما أصبح يشتمل عليه المسكن من أثاث ورياش وأدوات وآلات؛ من أجل أن يؤدى المسكن وظيفته الإنسانية؛ إذ قد اختلفت المساكن عما كانت عليه فى زمن النبى ﷺ وصحابته رضى الله عنهم اختلافًا شديدًا.

ومن المنطقى الذى يتلاءم مع مرونة التشريع الإسلامى ألا ترفض المساكن لأنها اختلفت عن مساكن النبى ﷺ وأصحابه، وإنما ينظر فى هذا المستحدث من المساكن؛ فإن جلب للناس مصلحة أو دفع عنهم مضرة بما دخله من تغيير، فإنه يقبل، إعمالاً للقاعدة الأصولية: «حيثما تكون المصلحة فثَمّ شرع».

- والملابس وما استحدثه الناس فيها تبعًا لتغير الزمان والمكان، مما يتصل بمادة الملبس وشكله، وما يعينه على أداء وظيفته تبعًا لمكانه وزمانه، مما اختلف كثيرًا عما كان عليه الملبس فى زمن الرسول ﷺ وزمن صحابته رضى الله عنهم.

فليس من المستساغ حاليًا أن يقال: كل الملابس التى لم تكن على عهد الرسول ﷺ وصحابته لا يجوز استعمالها أو يحرم استعمالها، وإنما الأصوب - كما علمنا الرسول ﷺ- أن نرفض الملبس الذى لا يستر عورة الرجل أو المرأة، ونرفض الملبس الذى يلائم النساء فيرتديه الرجال، أو الذى يلائم الرجال فترتديه النساء، وما لم يحمل ارتداؤه مخالفة لما شرع الإسلام فى الملابس فهو جائز.

- وما استحدثه الناس فى الطعام والشراب وآنيتهما وأدوات استعمالهما، بل ما استحدثوه من أنواع الطعام التى لم تكن موجودة من قبل، لا ترفض هذه المستحدثات لذاتها، وإنما

ترفض لما تدخل به فى مخالفة ما أحل الله تعالى من طعام وشراب مهما سموا بعضها بغير اسمه.

وقد حرم الله الخبيث من الطعام والشراب وأحَلّ الطيب وحرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله إلا فى حالات الاضطرار، وحرّم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكاه الإنسان فذبحه، وحرّم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

والأطعمة والأشربة التى أباحها الإسلام أكثر بكثير مما حرمها، ووضع الإطار العام الذى يتعامل به المسلم مع أى طعام وشراب وهو:

أن لا يكون مما حرّم الله، وألا يسبب لمن طعمه أو شربه ضرراً؛ لأن الرسول ﷺ قال فيما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنها: «لا ضَرَر ولا ضِرار».

- وما استحدثه الناس من آلات وأدوات للصناعة والزراعة والتعدين والتنقيب عن النفط، والصيد فى البر والبحر، مما يحسن الزراعة والصناعة وإنتاج السلع والخدمات وتيسير هذه الأعمال وتطويرها مما يعود على الناس بما ينفعهم فى دنياهم وآخرتهم.

كل هذه المستحدثات تتقبلها الشريعة الإسلامية، بل ترحب بها على الرغم من أن معظمها لم يكن موجوداً فى زمن الرسول ﷺ، ما دامت لا تحمل للناس ضرراً ولا تجلب لهم مفسدة.

وكذلك ما استحدث من آلة الحرب ووسائلها، كل ذلك يقبل حتى لا يصبح المسلمون متخلفين عن سواهم فى آلة الحرب. وكذلك فيما استحدث من آلات وأدوات فى مختلف العلوم والفنون، مما يجلب للمسلمين نفعًا أو يدفع عنهم ضرراً.

- وما استحدثه الناس فى مجال المواصلات والاتصالات ابتداء من قطارات السكك الحديدية وإلى الطائرات الفائقة السرعة، والسفن والبواخر الضخمة التى تشبه المدينة فى حجمها وما تقدمه من خدمات لركابها.

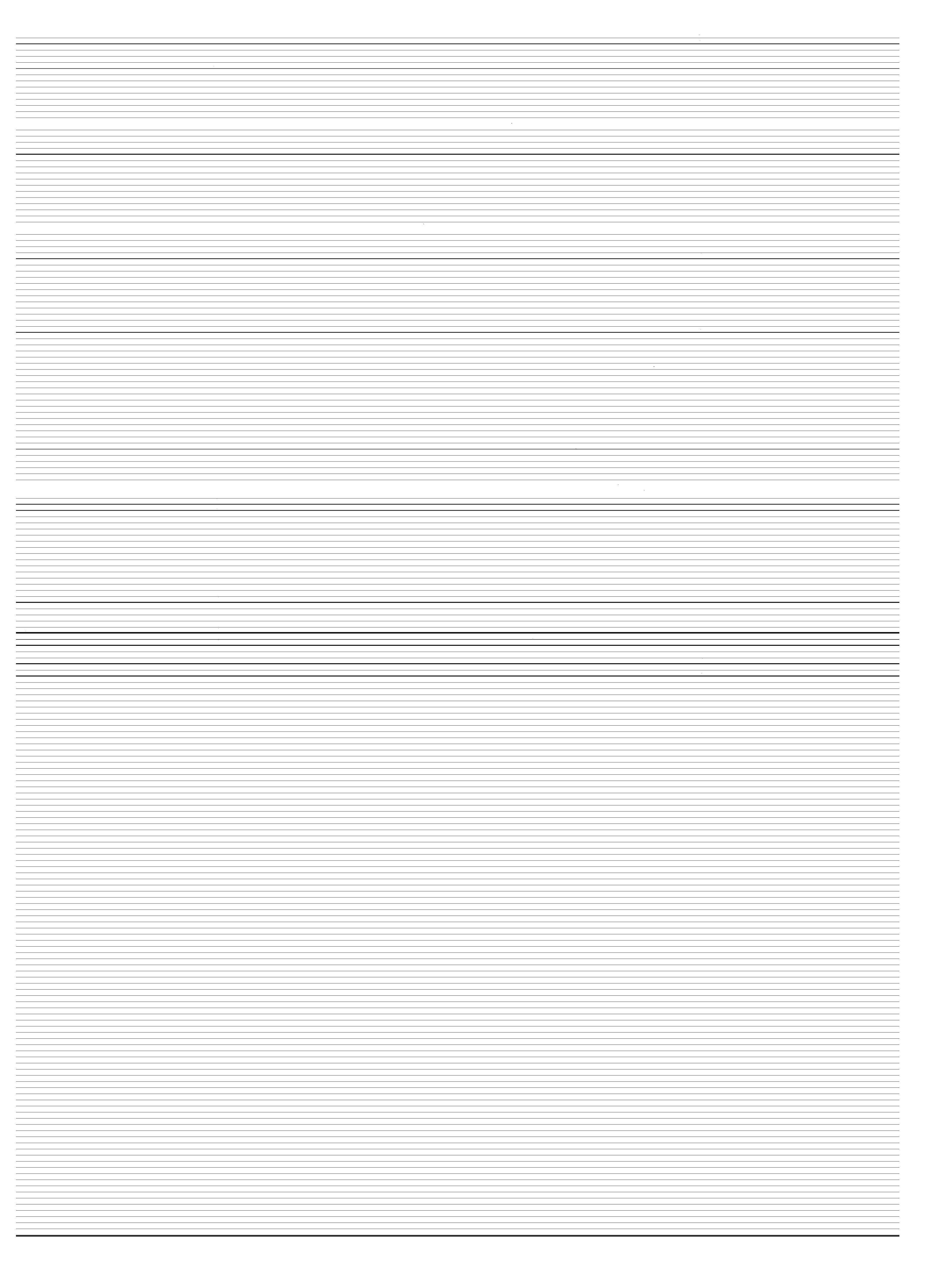
وتلك الثورة التى استحدثت فى عالم الاتصالات.

فهل يقف التشريع الإسلامى حائلاً بين الناس واستعمالهم لهذه الوسائل والآليات بحجة أنها لم تكن موجودة فى عصر النبى ﷺ وعصر أصحابه رضوان الله عليهم؟

مـا يقول بذلك إلا الذين يجـهلون مـقاصـد الشريعـة ، بل يجـهلون تاريخ الحضـارة الإسلامية؛ فقد أخذ عمر بن الخطاب رضى الله من الفرس تدوين الدواوين، وتعاقب فقهاء المسلمين وعلماؤهم بعد عـمر رضى الله عنه على الاستفادة مما يستحـدثه الناس ما دام غير مخالف لثوابت العقيدة والعبادة والقيم الخلقية الإسلامية.

وبعد: فإن الإسلام بتشريعاته المرنة المسـتهدفة لصالح الناس فى دنياهم وأخراهم، تقف من هذه المتغـيرات والمستحـدثات موقفًا عـقلانيًا إنسانيًـا لا تفوت فيه على المسلمـين فائدة يجنونها من التجاوب مع هذه المتغيرات.

*****



الباب الثالث

أهداف المجتمع الإسلامى ووسائله في تحقيق هذه الأهداف

الفصل الأول: الأهداف

الهدف الأول:

تطبيق منهج الله ونظامه فى حياة الناس أى فى المجتمع الإسلامى.

ونتائج هذا التطبيق فى المجتمع الإسلامى.

١ – أنه مجتمع التوحيد للخالق سبحانه وتعالى.

٢– أنه مجتمع عبادة الله وفق ما شرع.

٣– وأنه مجتمع التشريعات التى تكفل للإنسان كل حقوقه.

٤ – وأنه مجتمع الأنظمة العادلة.

والهدف الثانى:

صيانة المجتمع الإسلامى من كل ما يعرضه للخطر.

١ – الأخطار الداخلية فى المجتمع الإسلامى.

أ– التقصير.

ب– الإهمال.

جـ– الفساد والإفساد.

د– التسبب فى الفتن.

٢– الأخطار الخارجية الموجهة ضد المجتمع الإسلامى.

أ– الأفكار والتيارات المعادية للإسلام.



ب- اليهود أو الصهاينة.

جـ- المستوطنون الجدد.

والهدف الثالث:

تحقيق الأمن فى داخل المجتمع وفى خارجه.

١- تحقيق الأمن فى داخل المجتمع.

٢- تحقيق الأمن خارج المجتمع «العلاقات الدولية».

الهدف الرابع:

ممارسة الحقوق فى المجتمع والإلزام بأداء الواجبات.

١- ممارسة الحقوق.

٢- الإلزام بأداء الواجبات.

الهدف الخامس:

تحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين.

١- مفهوم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

٢- الأسس التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى.

٣- آثار التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

الهدف السادس:

تحقيق الوحدة بين المسلمين.

١- وحدة أهداف الأمة الإسلامية.

٢- وحدة الدين.

٣- وحدة المنهج والنظام.

٤- وحدة الثقافة.

٥- وحدة الاقتصاد.



٦- وحدة القوة والجيوش.

٧- وحدة السياسة الخارجية.

الهدف السابع:

تأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى.

الفصل الثانى:

الوسائل لتحقيق هذه الأهداف.

١ - التربية:

أ- أنواع التربية.

ب- مؤسسات التربية.

٢ - الدعوة والحركة بالدين.

أ- الدعوة والدعاة.

ب- الحركة والحركيون.

٣- الجهاد فى سبيل الله تعالى.

أ- الجهاد والرد على التحدى.

ب- الجهاد عون على تحقيق أهداف للمجتمع الإسلامى.

الفصل الثالث:

عمل المجتمع الإسلامى فى هذه الأهداف ووسائله .

١ - وسائل الإعلام وأجهزته.

٢ - الأنشطة الثقافية.



أهداف المجتمع الإسلامى ووسائله لتحقيق أهدافه

المجتمع الإسلامى هو خاتم المجتمعات الإنسانية التى تَفضَّل الله تعالى عليها بالرسل والكتب السماوية؛ ولأنه المجتمع الخاتم - أى لن يكون بعد زمنه وحى من الله ولا رسول بعد محمد ﷺ، ولا كتاب سماوى بعد القرآن الكريم. لهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون هذا المجتمع الإسلامى أكمل المجتمعات الإنسانية وأحسنها نظامًا وأتمها منهجًا، وأيسرها تَدَيّنًا، وأقواها توحدًا، وأكثرها قدرة على أن يحقق لمن يتدين به سعادة الدنيا والآخرة.

- إنه المجتمع الذى اختار الله تعالى له خاتم كتبه وخاتم رسله عليهم الصلاة والسلام.

كما اختار الله تعالى لهذا المجتمع أقوى الرجال وأصدقهم فى مواقف الحق، وأحبهم للجهاد والتضحية فى سبيل نشر هذا الدين الخاتم وتطبيق منهجه ونظامه على حياة الناس؛ إنهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين استجابوا لهذا الدين فكانوا خير جنوده، فانطلقوا معه ينشرون هذا الدين فى الناس والآفاق باذلين أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله تعالى لتكون كلمته هى العليا.

- بهذا النبى الخاتم ﷺ، وبهؤلاء الأصحاب رضى الله عنهم، وبمن استجاب لهم فآمن بالله ورسوله وبما جاء به الرسول الكريم من كتاب وسنة كان المجتمع الإسلامى أو تكوّن.

هذا المجتمع الإسلامى الأول كان خير المجتمعات الإنسانية على الإطلاق، لأنه قام على أقوى الدعائم والأسس التى كفلت له هذه الخيرية، وهى:

- القرآن الكريم الذى يشتمل على أكمل المناهج وأصلحها للحياة الإنسانية الكريمة بما جاء به من تنظيم للحياة الدنيا لتكون طريقًا إلى الحياة الآخرة.
- والنبى المصطفى من بين عباد الله، لكى يبلغ عن الله تعالى وحيه من كتاب وسنة، والذى عصمه الله تعالى من أن ينطق عن الهوى إلى أن لقى الله تعالى.
- و ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهم الصحابة رضى الله عنهم.

● على هذه الدعائم قام المجتمع الإسلامى، وبفضل الله تعالى ثم بفضل هذه الدعائم قوى بناء المجتمع الإسلامى واستقر واستمر فى أداء وظائفه الأساسية وهى:

- نقل الناس من الكفر إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، ونقلهم من الضلال إلى الهدى، ومن الحيرة والضياع إلى الصراط المستقيم صراط الله.

- واحترام الناس واحترام حقوقهم التى شرعها لهم الإسلام ليعيشوا حياة إنسانية كريمة تلائم تكريم الله للإنسان.

- والوصول بهم إلى الجهاد والتضحية فى سبيل الله لكيلا يعبد غير الله فى الأرض، أو ليعيش المؤمنون وغير المؤمنين فى ظل نظام إسلامى يحفظ للناس حرياتهم وحقوقهم ويلزمهم بأداء واجباتهم.

● ثم توالى عطاء المؤمنين بالله ورسوله والكتاب الذى جاء به، فكانت جهود التابعين وتابعيهم وأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، فجاء على أيديهم الخير والهدى حيث ذهبوا فى الأرض ينشرون الدين الحق، ولا يألون جهدًا ولا يترددون فى بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى.

ولم يمض على ذلك غير زمن فى عرف الدول والأمم قصير؛ حتى بلغ هذا الدين الحق مبلغ الشمس، وعَمَّ الزمان والمكان، وكان ظاهرة اجتماعية متفردة إذا قورنت بما سبقها من الأديان والنظم والمجتمعات.. إن هذا المجتمع الإسلامى استطاع ببساطة وسماحة أن يصوغ الذين دخلوا فى الإسلام صياغة إيمانية تستهدف الحق والخير وسعادة الدنيا والآخرة.

● وقد شاء الله تعالى - كما أخبر بذلك رسوله الخاتم - أن تظل طائفة من المؤمنين على طريق الحق والهدى ظاهرين على مَنْ ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال[1].

فقد روى أبو داود بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»**.

---

(١) جاء فى السنة النبوية فى هذا المعنى أكثر من عشرة أحاديث صحيحة رواها علماء السنة وحفَظَتها: البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد والحاكم وابن حِبَّان، رحمهم الله تعالى وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

- وتلك إرادة الله تعـالى أن يعزز هذا الدين فى كل زمـان ومكان؛ برجال صـادقين فى مواقفهم يعملون ما وسعهم عـلى إظهار الدين وتطبيق منهجه ونظامه، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

- هذا المجتمع الإسـلامى على مرّ العصور والأزمان قـيض الله له من المصلحين المجددين من حافظوا عليه وجددوا فيه واستحدثوا كل نـافع ومفيد، وكان يبرز منهم مصلح مجدد كل قرن، يظهر فى القرن الواحد من الزمان أكثر من مصلح مجدد تصديقًا لقول المعصوم ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه: «إنّ الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدِّد لها دينها».

- هذا المجتمع الإسلامى يتداخل - فى معناه - مع الحكومة أو السلطة الحاكمة الإسلامية، وله أهداف يعمل على تحقيقها ولا يملك أن يتخلى عنها ما دام مجتمعًا إسلاميًا.

- هذه الأهداف هى القادرة عند تحقـيقها أن تجعل من حـياة الناس على هذه الأرض واحة أمان واطمـئنان ونشر للخـير ومنع للشـر، وأن تجعل منها سـببًا فى تحـقيق السـعادة فى الدارين، وإنما كانت لهذه الأهداف هذه القدرة لأنها قد اجتمعت فيها صفات تضمن لها الوصول إلى ذلك، ومن هذه الصفات:

- أنها أهداف عـامة فى قدرتها على الإصـلاح لأى زمان ومكان، وليست مـرحلية ولا إقليمية، ولا عرقية.

- وأنها أهداف حضارية شاملة تحكمهـا قيم أخلاقية إسلامية وأنظمة اجتماعـية وسياسية وثقافية إسلامية، أى أنها مدنية.

- وأنها أهداف واضحـة محددة لا غموض فـيها ولا لبس، ولا تجاهل فيـها للعقل ولا للعلم ولا للجديد لأنه جديد.

- وأنها أهداف نابعـة من المصدرين الرئيسيـن للحياة الإنسانيـة السعيدة الكريمـة، وهما كتاب الله تعالى وسنة خاتم رسله عليه الصلاة والسلام.

- وهذه الأهداف قد حصرتها فى سبـعة بعد نظر وتأمل وتدبر للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهى:

١- تطبيق منهج الله ونظامه تطبيقًا عمليًا فى حياة الناس.

٢- وصيانة المجتمع الإسلامى وحمايته من الأخطار الداخلية والخارجية.

٣- وتحقيق الأمن للإنسان داخليًا وخارجيًا.

٤- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين.

٥- وتحقيق الوحدة الإسلامية.

٦- وضمان الحقوق والإلزام بأداء الواجبات.

٧- وتأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

غير أن هذه الأهداف الإنسانية النبيلة لا تحقق إلا من خلال وسائل اختارها الإسلام لتحقيق هذه الأهداف. لذلك جاء هذا الباب الثالث الأخير من الكتاب أوسع أبواب الكتاب، وأحفلهما بالاستشهاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، لتأكيد أن هذه الأهداف وتلك الوسائل نابعة من هذين المصدرين الكريمين.

وقد جعلت هذا الباب مكونًا من فصلين اثنين هما:

الفصل الأول: فى الأهداف.

والفصل الثانى: فى الوسائل

والله تعالى ولى التوفيق والسداد.

*****

الفصل الأول

أهداف المجتمع الإسلامى

نحب أن ننبه فى بداية هذا الفصل - وهو أطول فصول هذا الباب - على أن هذه الأهداف هى أهداف المجتمع الإسلامى كله، أفرادًا وجماعات، وجمعيات مدنية ومؤسسات وهيئات، وحكومة وسلطة، لا يقصر فى محاولة تحقيقها أحد يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وإلا وقع فى الإثم والحرج ومخالفة ما أمر الله تعالى به أو نهى عنه.

- على كل أحد أن يسهم فى تحقيق هذه الأهداف بما يستطيع من جهد مادى أو معنوى؛ بمعنى أن يكون سلوك الأفراد والجماعات... والحكومة وسائر السلطات ملتزمًا بما يقتضيه العمل على تحقيق هذه الأهداف من تمسك بالقيم والمبادئ التى تحكم التعامل مع الناس بالحسنى، وترك الصراع معهم على أعراض الحياة الدنيا أو توجيه هذا الصراع وجهة صحيحة.

- وإنما كانت هذه الأهداف أهداف كل أحد فى المجتمع الإسلامى لما فيها من مصالح المعاش والمعاد، ولما فى العمل على تحقيقها من إرضاء لله تعالى، أى أن يكون مستعدًا من أجل تحقيقها أن يضحى بما استطاع من جهد ووقت ومال.

- ويجب أن تؤمن كل حكومة أو سلطة بأن حياتهما واستمرارهما فى السلطة بصورة شرعية آمنة، غير مختلسة ولا مغتصبة للحكم، إنما يكون بأن تعمل هذه الحكومة على تحقيق هذه الأهداف، فإن قصرت أو أهملت فى العمل على تحقيق هذه الأهداف، فقد كتبت بنفسها وثيقة موتها غدًا، وإن غدًا لناظره قريب؛ لأن هذه الأهداف ألصق بمشاعرهم وقلوبهم، وأدخل فى عقولهم، لسببين:

أحدهما: أنها من عند الله تعالى الذى يعلم ما يصلحهم، ويصلح بهم وبها الحياة الإنسانية.

والآخر: أن فى العمل على تحقيقها سعادتهم فى الدنيا والآخرة.

- والويل كل الويل لأى مجتمع أو حكومة أو سلطة تتحدى هذه الأهداف، الويل لها غدًا، إن لم يكن اليوم، وليس ذلك ببعيد مهما تباعدت الإرهاصات به، لأن القادرين على إلحاق الويل بمن تحدى أهداف المجتمع الإسلامى موجودون دائمًا، وربما ينقصهم

التنسيق، وإلاَّ فما معنى القول النبوى الصادق المعصوم عن الهدى: **«لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال»**.

- إن العمل على تحقيق هذه الأهداف هو فى جوهره طوق للناس من الغرق فى بحار الظلم والاستبداد، والجهل والخوف والذل وعبادة العباد، واتباع أهواء الذين لا يعلمون، كما أنه مبعث الأمل فى نفوس المؤمنين، وموضع التقرب إلى الله تعالى بهذا العمل الصالح.

- والعمل على تحقيق هذه الأهداف هو فى جوهرة أيضًا عبادة خالصة لله تعالى، يتقرب بها المسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، فهى فريضة تضاف إلى ما فرض الله على عباده من فرائض عين وفرائض كفاية.

إنها تشبه الصلاة والصيام والزكاة وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً، ولا تقل عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله تعالى. وليس أحب إلى الله من تقرب عبده إليه بما افترض عليه، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل قال: وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه....»**

وبعد، فإلى الحديث عن هذه الأهداف، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

*****

الهدف الأول

تطبيق منهج الله ونظامه فى حياة الناس

أى فى المجتمع الإسلامى

يتميز المجتمع الإسلامى بأنه مجتمع التربية، نظريًا وعلميًا، وثقافيًا، وعلميًا، وسلوكيًا، ودينيًا، ودنيويًا[1]. والتربية الإسلامية تتناول كل ما يتصل بحياة الإنسان فتنظمه وتنميه على الوجه الحسن وتوظفه ليعطى فى حياة الإنسان أفضل ما يعطى.

- ومنهج الله تعالى ونظامه يتمثل فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول ﷺ.

وأكبر ما يميز هذا المنهج وذلك النظام أن واضعه للناس هو رب الناس سبحانه وتعالى، لذا كان أكمل المناهج وأحسن النظم وأتمها، فما من خير فى قول أو عمل إلا شرعه، وما من شر فى قول أو عمل إلا حرّمه، فمن ابتغى الهدى فى غير هذا المنهج أضله الله تعالى، ومن أخذ به هدى إلى صراط مستقيم.

- وتطبيق منهج الله فى المجتمع الإسلامى يعنى: وجوب تحكيمه والتحاكم إليه فى كل أمر من الأمور صغيرها وكبيرها ما دامت لها صلة بحياة الناس.

ودليل هذا الوجوب:

- قول الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ وكل واحد من المسلمين حاكمًا أو محكومًا: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

هاتان الآيتان الكريمتان تقسمان المجتمع الإنسانى إلى نوعين من المجتمعات:

الأول: المجتمع الإسلامى وهو: المجتمع الذى يتحاكم إلى منهج الله ونظامه دون اعتبار لغيره، ودون إغفال لأى جزء من المنهج أو النظام.

(١) لنا فى التربية الإسلامية ثلاث سلاسل:
التربية الإسلامية فى القرآن الكريم: صدرت فى سبعة كتب، والتربية الإسلامية المعاصرة: صدرت فى خمسة كتب آخرها هذا الكتاب. ومفردات التربية الإسلامية: صدرت فى عشرة كتب.
انظر فى آخر الكتاب: قائمة بأعمال المؤلف المنشورة.

والآخر: المجتمع الجاهلى، وهو: المجتمع الذى لا يتحاكم إلى منهج الله ونظامه، وإنما يتحاكم إلى ما تتحاكم إليه الجاهلية وهو: الهوى والعصبية وسطوة المال وسطوة البطش، وكل مجتمع يتحاكم إلى ذلك فهو مجتمع جاهلى حتى وإن عاش بعد عصر الجاهلية بقرون.

- وبوصف آخر يخضع للنتائج نقول:

إن المجتمع الذى يتحاكم إلى منهج الله ونظامه، مجتمع حضارى ينال الإنسان فيه حقوقه كاملة، ويؤدى واجباته كذلك.

وإن المجتمع الذى يتحاكم إلى الهوى والعصبية، وسطوة المال وسطوة البطش مجتمع جاهلى.

هذا المجتمع الإسلامى له سمات وخصائص تميزه كما أوضحنا ذلك آنفًا، حين قلنا: إنه مجتمع الإصلاح الاجتماعى، والتضامن والتكيف الاجتماعى والتماسك والضمان، والضبط الاجتماعى، كما أنه مجتمع الرفاهية الاجتماعية.

ولا تتوفر له هذه السمات إلا مع تطبيق منهج الله ونظامه على المجتمع، وقد أيدنا وجوب ذلك بالقرآن الكريم بشاهد واحد ونسوق الآن شاهدًا من السنة النبوية على وجوب التحاكم إلى منهج الله ونظامه المتمثل فى الكتاب والسنة.

فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».

- والمجتمع الإسلامى الذى يطبق منهج الله ونظامه لا يجوز وصفه بأنه: مجتمع إلهى أو دينى، لأن هاتين الصفتين من اختراع الكنيسة الكاثوليكية، حيث تدعى لنفسها بهاتين الصفتين القداسة، والتنزه عن المساءلة، وهى إذ تفعل ذلك تخالف أمر الله، وتخرج عن نظامه، لأنه سبحانه وتعالى لا يعطى لأحد سلطة دينية على أحد، لأن الدين دينه والناس عباده، وحاشا له سبحانه وتعالى أن يقبل بظلم أحد من عباده، كما لا يقبل أن يستبد أحد على الناس باسمه سبحانه وتعالى.

وتلك قصة معروفة الأبعاد واضحة الأهداف فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث تنتقص بذلك حقوق الناس باسم الدين أو باسم الله سبحانه وتعالى، وقد قامت ضدها الاحتجاجات بل الثورات، مما هو معروف لكافة المسيحيين.

عندما يطبق منهج الله ونظامه فى المجتمع الإسلامى، فإن ذلك التطبيق له نتائج تعود بالنفع والفائدة على الفرد وعلى المجتمع بل على الدين نفسه إذ تعززه وتقويه وتُفعّله فى نفوس الناس، وتزيدهم به علمًا وعملاً وتحضرًا وتقدمًا ورُقِيًا.

وحسبنا بمجتمع من المجتمعات أن يطبق فيه منهج الله ونظامه فيصبح مجتمع توحيد الله وعبادته، ومجتمع التشريعات التى تكفل له كل حقوقه، ومجتمع الأنظمة العادلة، وحسب هذا المجتمع ما يصيبه من خير وبِرّ عند تطبيق منهج الله ونظامه.

ولنرصد هذه النتائج، ونوضحها لنؤكد للناس أن تطبيق منهج الله ونظامه على الناس فيه الخير كل الخير فى أى زمان وأى مكان.

١ - أنه مجتمع التوحيد للخالق سبحانه وتعالى:

إن المجتمع الإسلامى مجتمع يؤكد التوحيد ويعلم التوحيد، وييسره للناس جميعًا، بما يحيطه به من فقه وفهم وعون على سلوك التوحيد لله تعالى إلهًا وربًا، والتوحيد هو الطريق إلى سعادة الدارين.

وإن وظيفة المجتمع الإسلامى أن يعلّم الناس التوحيد، وأن يلمس الناس التوحيد وآثاره فى كل مرفق من مرافق المجتمع عندما يتعاملون مع هذه المرافق، أو يكونون مسئولين عنها، بل إن تلك أهم وظيفة للمجتمع الإسلامى، لأن التوحيد أهم ما يميز المجتمع الإسلامى وأعلى قيمة فيه.

- والتوحيد فى الاصطلاح: هو الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له.

أو هو تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور فى الأفهام وما يتخيل فى الأوهام، فهو تنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق به من الصفات والأفعال والأسماء.

- والتوحيد هو أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ومفتاحها، وما من رسول إلا دعا قومه إلى التوحيد أى عبادة الله وحده قائلاً لهم: اعبدوا الله وحده ما لكم من إله غيره.

- والتوحيد هو القول والعمل أى نطق لا إله إلا الله محمد رسول الله والعمل بها، وبه يدخل الإنسان الإسلام، وبه يخرج من الدنيا وهو يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو كما قال أسلافنا: «أول الأمر وآخره».

- والتوحيد الذى جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ، من قبله من الرسل عليهم السلام نوعان:

الأول: توحيد فى المعرفة والإثبات، وهو معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه وأفعاله، وتكلمه بكتبه وتكليمه من شاء من عباده.

وإثبات عموم قضائه وقدره.

ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الحديد: ١-٦]. وقوله جل وعلا: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، وقوله جل شأنه: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن ذات الله سبحانه وصفاته وأسمائه وأفعاله.

والنوع الثانى من التوحيد:

هو أن يكون الله تعالى هو المقصود المطلوب، والمعين على جلب كل مطلوب مرغوب، ودفع كل ضارّ مكروه، ويفهم ذلك من آيات عديدة من القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢، ٣].

وقوله جل شأنه: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٥ - ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله جل وعز: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وغير هذه الآيات الكريمة الكثيرة التى توضح أن الله تعالى هو المقصود المطلوب المعين الذى عليه التوكل وإليه الإنابة.

- والحديث فى توحيد الله تعالى الذى هو ذروة الإيمان حديث يطول ويطول، ولكننا نكتفى بالحديث عن نقطتين هما:

- أن التوحيد فطرة فى الناس جميعًا.
- وما هو التوحيد الذى يجب أن يسود المجتمع الإسلامى؟

أ- التوحيد فطرة فى الناس جميعًا:

الإنسان بحكم ما فطره الله عليه يحتاج دائمًا إلى أمرين:

- أن يقصد شيئًا ويريده.
- وأن يستعين بشىء ويعتمد عليه فى تحصيل ما يريد.

والصحة النفسية والعقلية لكل إنسان تقتضيه أن يبحث عن شىء يطمئن إليه، تنتهى إليه محبته ويتخذه إلهًا يعظمه.

كما تقتضى صحته النفسية والعقلية كذلك أن يبحث عن شىء يثق به ويعتمد عليه فى تحقيق وتحصيل ما يريد، وهو المستعان والملجأ إذا حزبه أمر.

فإذا اطمأن الإنسان إلى غير الله أو انتهت محبته إلى غيره سبحانه، وإذا استعان بغيره أو لجأ إليه فى مفزعه فذلك هو الكفر، وصورته أن يعبد غير الله تعالى ويستعين بغيره سبحانه.

ومن اتخذ الله إلهه واستعان به وتوكل عليه فهو الموحِّد، وقد يتخذ الناس آلهة غير الله يغلب عليهم حبها.

ومنْ ذلك:

مَنْ أَحَبَّ المال، أو أحب المنصب والرياسة أو أحب هواه وشهواته فقد اتخذ ذلك المحبوب إلهًا وأصبح عبدًا له كما عبر عنهم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «تَعِسَ عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إنْ أُعطى رضى، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش..».

- وقد وقف العلماء طويلاً متدبرين لقول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فرأوا فيها توجيهًا للناس ليوحدوه توحيدًا خالصًا، يتضمن عبادتهم إياه واستعانتهم به.

واهتدى العلماء بعد تدبر هذه الآية الكريمة أن الناس مع التوحيد أربعة أقسام:

- قسم يعبد غير الله ويستعين بغيره - وإن كان مسلمًا - وهو بهذا مشرك، والشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل.

- وقسم يعبد الله لكن يستعين بغيره، مثل كثير من أهل الدين، حيث يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته سبحانه لا شريك له، ولكن تخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ومساندتهم ورزقهم وعونهم وهدايتهم.

- وقسم يستعين بالله ويعبد غيره، مثل كثير من ذوى الأحوال وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر، أو أهل الكشف، ومن إليهم الذين يستعينون بالله ويسألونه، ولكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله.

- وقسم لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا به، وهم المؤمنون الموحدون.

● والمجتمع الإسلامى مطالب بأن يعضد المؤمنين الموحدين، ويزكيهم، وأن يرشد الأقسام الثلاثة الأخرى ويعلمهم ويفقههم، وييسر لهم طريق الهداية والفلاح، ويسمح بنظمه وتشريعاته وقيمه أن يتخذ من الإجراءات ما يردهم إلى صوابهم، ويحببهم فى الحق واتباعه.

إن المجتمع الإسلامى بما يسوده من قيم ومبادئ يجب أن يكون بما فيه وبمن فيه مركزاً على أن يعمق فى العقول والقلوب معنى التوحيد، ويجلى لهم صفاته وصفات الموحدين وأن يخوفهم من بدائل التوحيد من شرك وكفر وظلم ومناقضة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها.

ب- ما هو التوحيد الذى يجب أن يسود للمجتمع الإسلامى؟

التوحيد الذى يجب أن يسود المجتمع الإسلامى هو التوحيد الذى جاء به القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وقد أكد علماء المسلمين جميعًا أن القرآن الكريم فى مجمله قد اشتمل على التوحيد الصحيح المبَّرأ من كل عيوب التوحيد الذى رأته طوائف من الناس ادعت التوحيد[١]، فكل آية فى القرآن الكريم متضمنة التوحيد شاهدة به داعية إليه.

قال العلماء فى تعليل ذلك: إن القرآن الكريم فى مجمله لا تبعد آياته عن أن تكون:

- إما خبراً عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فذلك التوحيد العلمى الخبرى.
- وإما دعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فهو التوحيد الإرادى الطلبى.
- وإما أنا يكون أمرًا ونهيًا وإلزامًا بطاعة الله فى امتثال أمره واجتناب نهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته.
- وإما خبراً عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته فى الدنيا والآخرة، فهو جزاء التوحيد.
- وإما أن يكون خبراً عن أهل الشرك، وما فعل بهم فى الدنيا وما سيحل بهم فى العُقبَى، فهو خبر عمن خرج من حكم التوحيد.

---

(١) هذه الطوائف كانت على باطل لكن سمَّتْ باطلها توحيدًا، ومن هؤلاء سائر الطوائف الضالة التى سنتحدث عنها بعد قليل.

● وأشهر هذه الطوائف التى ضلت فى التوحيد:

- الفلاسفة مثل: ابن سينا والنصير الطوسى، إذ التوحيد عندهم: إثبات وجود مجرد من الماهية والصفة، وذلك غاية الإلحاد والجحد والكفر، فهم ينكرون ذات الرب، ويقولون بِقِدَم الأفلاك وإن الله لا يبعث من فى القبور وإن النبوة مكتسبة، وإنها حرفة من الحرف....

- والاتحادية مثل: ابن سبعين الإشبيلى المرسى (٦١٣ - ٦٦٩هـ) الذى يقول بوحدة الوجود، أى أن الله تعالى هو عين وجود كل موجود، ومن مقولاتهم إن فرعون وقومه مؤمنون، وأن عباد الأصنام على صواب، ولا فرق بين الماء والخمر والزنا والنكاح...

- والجهمية: رأسهم صفوان بن جهم (.... - ١٢٨هـ) وصفه الإمام الذهبى بأنه ضال، والتوحيد عندهم إنكار صفات الله سبحانه وتعالى كالسمع والبصر الكلام والقوة والحياة، وذلك إنكار للتوحيد الذى بعث الله تعالى به رسله وأنزل به كتبه.

- والقدرية: الذين ينكرون قَدَر الله تعالى وقدرته على الكائنات، والتوحيد عندهم؛ إنكار القدر وإنكار حقائق الأسماء والصفات العلى، ويسمون الكفر بقضاء الله وقدره عدلاً، ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل العدل والتوحيد.

- والجبرية: الذين يقولون تفرد الله تعالى بالخلق والفعل والعبادُ غير فاعلين على الحقيقة ولا محدثين لأفعالهم ولا قادرين عليها، والتوحيد عندهم أن الله تعالى لا يفعل لحكمة، وليس فى المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب بل مشيئة محضة ترجِّح مِثْلاً على مِثْل بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب.

● والتوحيد ضد الشرك، والموحِّد من عبد الله وحده لا شريك له وَفْقَ ما شرع على لسان خاتم رسله محمد ﷺ، وتوكل على الله تعالى وخافه وأعطى الناس حقوقهم وترك العدوان عليهم، ولم يظلم نفسه بالوقوع فيما حرَّم الله تعالى ولا يرد الإنسان عن التوحيد إلا الشياطين من الإنس والجن، إذ لوترك الإنسان على فطرته لوحد الله تعالى، فقد روى مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه عن النبى ﷺ: أن الله تعالى قال: «**إنى خلقتُ عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين فحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا**».

● إن المجتمع الإسلامى يستهدف توحيد الله تعالى بنفى التصورات الخاطئة للألوهية والربوبية التى يروجها أهل الضلال فيدخلون فى الشرك، ويزعمون أن لله شركاء وأن له ولدًا وصاحبةً إلى غير ذلك من صفات البشر. والقرآن يحسم هذه القضية بالقول الفصل

الذى بنفى باطلهم قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

- والتوحيد فى المجتمع الإسلامى يستهدف تأكيد أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن الإيمان بما جاء به واجب البشرية كلها عندما تبلغهم دعوته، وأنّ أصل الإنسان واحد هو آدم عليه السلام، وأن الدين واحد وأنه من عند الإله الواحد سبحانه وتعالى، وبكل ذلك جاءت نصوص الكتاب الخاتم وكلمات السنة الخاتمة.

وإذا لم يستطع المجتمع الإسلامى أن يقرر هذا التوحيد فى قلوب الناس وعقولهم، فقد عجز عن أداء وظائفه، ولم يعد جديراً بأن يسمى مجتمعًا إسلاميًا، إذ كيف يكون إسلاميًا بغير توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا....؟

إن إقناع الناس بالتوحيد واجب المجتمع الإسلامى والحكومة المسلمة وكل مسلم يعيش فى هذا المجتمع وكل جماعة وكل هيئة وكل مؤسسة وكل جماعات المجتمع المدنى.

٢- وأنه مجتمع عبادة الله وحده وفق ما شرع:

من نتائج تطبيق منهج الله تعالى فى المجتمع الإسلامى؛ أن يصبح المجتمع صالحًا لأن تمارس فيه عبادة الله تعالى وحده وفق ما شرع، وتلك ميزة فى المجتمع لا يعين عليها شئ مثل ما يعين تطبيق المنهج.

- لكن، لماذا يُعتبر المجتمع الأمثل للحياة الإنسانية الكريمة هو المجتمع الذى تسود أفراده عبادةُ الله تعالى وحده وفق ما شرع؟

- لأن عبادة الله وحده قادرة على صياغة الإنسان الصحيح الاعتقاد، المبرأ من شطحات الفكر وضلال العقل، وانطماس القلب.
- ولأن عبادة الله تعالى وحده وفق ما شرع، هى التى تجعل الإنسان محبًا لفعل الخير عمومًا، وكارهًا لفعل الشر عمومًا.
- ولأن العابد لله تعالى وحده يجيد بسبب هذه العبادة أن يعمل على جلب المصلحة ودرء المفسدة، لأن تلك هى من مقاصد الشريعة التى يعبد الله تعالى وفق هديها.
- ولأن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له تلزمه بأن يكون داعيًا إلى الله آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر مجاهدًا فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا.

● وسوف نتحدث فى العبادة عن نقاط ثلاث:

- تعريف العبادة والعابد والعبودية.

- وتصنيف العبادة حسب نفعها للعابد.

- ومفردات العبادة وعمل الإنسان فيها.

أ- تعريف العبادة والعابد والعبودية:

● العبادة هى إظهار الخضوع للمعبود، واعتقاد أنه يملك النفع أو الضر للعابد، لأن المعبود إله العابد.

والعبادة بهذا المعنى هى طريق الكمال الذاتى والاجتماعى مبدأ ونهاية، بحيث لا تخرج عن كونها محققة للمقصود من خلق الله تعالى للإنس والجن، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

والعبادة أبلغ من العبودية، لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى.

والعبادة نوعان:

عبادة بالتسخير وهى كل مخلوقات الله تعالى التى كتب عليها أن تسبحه وتسجد له.

وعبادة بالتخيير وهى لذوى النطق من مخلوقاته سبحانه وتعالى.

● والعابد هو من يقوم بالعبادة بإرادته واختياره، سواء أكان عابدًا لله تعالى مخلصًا فى عبادته، أو كان عابدًا لهواه وشهواته، كذلك الذى عبد الدينار أو الدرهم أو الخميصة، أو ذلك الذى عبد الشمس أو القمر أو الشجر والحجر، الكل عابد أى خاضع لمعبوده، فالناس جميعًا عبيد لله تعالى لكنهم ليسوا جميعًا عبادًا له.

وجمعُ العبد بمعنى المملوك: عبيد، وجمع العابد: عباد.

- والعابد يحب معبوده ويجله، وعبادته لمعبوده الحق وهو الله تعالى تزكية وتقوية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

● والعبودية هى الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود.

والعبودية - فى جوهرها - هى الرضا بما يفعله الرب سبحانه وتعالى، فهى أقوى وأرفع من العبادة التى هى - فى جوهرها - فعل ما يرضى الرب سبحانه وتعالى.

وقد وَصَفَ الله تعالى بالعبودية أكمل خلقه وهم رسله عليهم الصلاة والسلام وملائكته، فقال عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ [ص: ٤٥]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠].

وقد اعتبر رسول الله ﷺ إحسان العبودية من أعلى المراتب فى التدين، فى الحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ بارزًا يومًا للناس فأتاه جبريل فقال: «ما الإحسان؟» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك...».

ب- تصنيف العبادة حسب نفعها للعابد:

العبادة لله تعالى لا تتحقق إلا بشرطين، هما:

- متابعة الرسول ﷺ.

- والإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى.

وذلك أن جميع العبادات التى شرعها الله تعالى ورضى أن يعبد بها قد أوحى بها إلى رسوله الخاتم ﷺ وكلفه أن يبلغها الناس، وأن يتوجه بها العابد إلى الله وحده لا شريك له.

وعبادة الله تعالى وفق ما شرع؛ طمعًا فى ثوابه أو خوفًا من عقابه، أو عبادته تشرفًا بالقرب منه والانتساب إليه، أو عبادته شكرًا له على نعمه، فإن أهل العلم فى تصنيف هذه العبادات من حيث نفعها للعابد ثلاث طوائف:

- الطائفة الأولى؛ يرون أن أنفع العبادة وأفضلها ما كان صعبًا على النفس بعيدًا عن هواها، يتحمل الإنسان فيها مشقة.

- والطائفة الثانية؛ يرون أن أنفع العبادة وأفضلها هو التجرد والزهد فى الدنيا، وعدم

الاكتراث بكل ما هو دنيوى، حيث قالوا: إن الزهد أفضل من العلم والعبادة، وأنه غاية كل عبادة.

- والطائفة الثالثة؛ يرون أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدٍ إلى الغير، مثل خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، ومساعدتهم بالمال والجاه، وقد استند هؤلاء فيما رأوا إلى ما رواه الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»[1]. ولهذا فضلوا العالم على العابد مستندين فى هذا التفضيل إلى ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا....**»[2].

- والطائفة الرابعة؛ يرون أن أنفع العبادات للعابد وأفضلها؛ العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما يقتضى ذلك الوقت ووظيفته وعلى سبيل المثال؛ فإن أفضل العبادات فى وقت الجهاد، الجهادُ، وإن أدَّى ذلك إلى ترك صلاة الليل وصيام النهار، كما أن الأفضل فى وقت حضور الضيف القيام بحقه.

فالأفضل فى كل وقتٍ وحالٍ؛ إيثار مرضاة الله تعالى فى ذلك الوقت والحال، مع الاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

جـ- مفردات العبادة وعمل الإنسان فيها:

إن من واجبات المجتمع الإسلامى حكومة ومؤسسات وهيئات وجماعات ومجتمعًا مدنيًا أن توضح للناس مفردات عبادة الناس لله تعالى، وتُبين لهم عملهم فى هذه العبادة.

ومفردات العبادة لله تعالى لا تكاد تحصى فكل ما فرض الله تعالى علينا من فرائض وكل ما حبَّبنا فيه من مكارم ومحامد - وذلك كثير جدًا - يُعَدّ من مفردات عبادة الله تعالى، بل إن باب العبادات يتسع ليدخل فيه الطعام والشراب على كثرة ما يتكرر فى حياة الإنسان يعد من العبادة إذا قصد به التقوِّى على أداء العبادات، وكذلك سائر شئون الإنسان. فالمشى إلى المساجد عبادة، وأداء حقوق المسلم نحو أخيه المسلم عبادة، والسعى على الأولاد والأهل والأرملة واليتيم عبادة، وتربية الأبناء وحسن رعايتهم عبادة، والدعوة

(١) ورواه أبو يعلى، والبزار بسنديهما عن أنس رضى الله عنه.

(٢) ورواه الأربعة وأحمد بأسانيدهم عن أبى هريرة أيضًا.

إلى الله عبادة، والحركة بدين الحق فى الناس والآفاق عبادة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عبادة، والجهاد فى سبيل الله تعالى عبادة، والصلاة كلها فرضها ونفلها، والزكاة والصدقات والصوم، والحج والعمرة كل تلك الأعمال عبادة. . . فلا حصر لمفردات العبادات، لأن كل خير يقوم به الإنسان ابتغاء وجه الله عبادة.

● وكل مفردات العبادة إنما يمارسها الإنسان من خلال قلبه، ولسانه، وجوارحه مبتغيًا بها وجه الله تعالى، ولكل من القلب واللسان والجوارح أعمال نشير إليها فى إيجاز فى الكلمات الآتية:

● عمل القلب:

- على القلب أن يصدق كل ما أخبر الله تعالى به على لسان خاتم رسله ﷺ وأن يوقن أنه حق من عند الله تعالى سواء فى ذلك ما أخبر به عن ذاته وصفاته وأفعاله، أو ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو ما أخبر به من منهج ونظام للتعامل مع الحياة والأحياء، مع الكون كله.

- ومن صميم عمل القلب، محبة الله والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه ورجاؤه، والصبر على أداء أوامره واجتناب نواهيه، والرضا بقضائه وقدره، والموالاة فيه والمعاداة من أجله سبحانه وتعالى؛ أى الحب فى الله والبغض فيه.

- وأعمال القلب وإيمانه ويقينه هذا الذى يحرك اللسان ويوجه عمله، وهو الذى يحكم الجوارح ويوجه حركاتها وسكناتها، فما هى أعمال اللسان والجوارح؟

● عمل اللسان:

- هو ذكر الله، بل اللهج بذكره، والدعاء بل الإلحاح فى الدعاء، وتلاوة القرآن الكريم، وإفشاء السلام على من يعرفه ومن لا يعرفه، والصدق فى الكلام، وقوله الحق والامتناع عن قول الباطل، والشهادة عندما يدعى إليها الإنسان، وترك الفاحش من القول، والبذئ من الكلام.

والإخبار عن الله بما يحب الله ورسوله، والدعوة إلى هذا الدين الحق والذبّ عنه، وتوضيح بطلان البدع المخالفة للدين، والتبليغ عن الله تعالى بكل ما أمر أن يبلغ به عنه.

والجهاد فى سبيل الله باللسان قولاً وكتابة وخطابة، والدفاع عن الدين ورد الشبهات ودفع المفتريات الموجهة ضد الإسلام كتابه وسنة نبيه وتاريخه ومصلحيه. . .

● وعمل الجوارح:

- الجوارح هى الأعضاء العاملة فى جسـد الإنسان كاليد والرجل والعين والأذن واللسان والبطن والفرج ويقال لها: الأعضاء الكاسبة.

- وعمل الجوارح هو كل أعمال الإنسان من خير أو شر، وهذه الأعـمال جميعًا يوجهها القلب ويدفع إليهـا أو يمنع عنها، ويحكمها قانـون الحلال والحرام والمندوب والمكروه مِنْ قِبَل الشريعة المسحة.

إن المجتمع الإسلامى لابد أن يسهم فى تيسيـر عبادة الله تعالى على الناس، وأن يتخذ فى سبيل ذلك كل ما يستطيع من أسباب.

٣- وأنه مجتمع التشريعات التى تكفل للإنسان حقوقه:

يتمـيز المجتمع الإسـلامى بأنه مجتمع غنى بالتـشريعات العـادلة التى تكفل لكل إنسان يعيش فيه حقوقه، وتلزمه بأداء واجباته كما سنوضح ذلك عند حديثنا عن الهدف الرابع من أهداف المجتمع الإسلامى.

- تشريعات المجتـمع الإسلامى عادلة لأنها من صنع الله رب الناس جميـعًا، وشاملة لأنها بنيت على علمـه تعالى وحكمـته، وقـد وَسِعَ اللهُ كل شيء علمًا، وله فى كل تـشريع حكمة تحقق للناس صالح دنياهم وأخراهم.

- إنها التشريعات التى تكفـل للناس حقوقهم كلها، لكى يعيشوا حيـاة إنسانية كريمة، فى ظل مساواة فـيما يجب أن يتساووا فيـه بحيث يكفل لهم الأخذ بهذه التشريـعات سعادة الدنيا والآخرة، تشريعات تكـفل له ألا يظلم ولا يُظلم ولا يَجْهل ولا يُجهل عليه، لأنه يعيش بها فى إطار من السلوك الإنسانى الذى يمارس من خلاله أقواله وأعماله.

- إنهـا التشـريعات التى تهـتم بتـوضيح مـا أحل الله وما حـرم، بحيث تستوعب ذكـر المحرمات، وتعتبر ما وراءها مبـاحًا أحله الله تعالى لعباده، بل تضع عقوبة لكل من أتى عمـلا حرمـه الله تعالى، ليـعيش المجتـمع كل أنواع الأمن النفـسى والعقلى والجسدى والاجتماعى والسياسى والعربى والإسلامى.

- إنها التشـريعات التى أقامت أكبـر وزن للحلال والحرام، فجـعلته من أوسع الأبواب فى

فقهها، وأشملها وأكملها وأقدرها على ضبط السلوك الإنسانى، وأكثرها فاعلية وتأثيراً فى جعل الإنسان متجاوبًا مع كل أنواع الخير، نافراً وكارهًا ممتنعًا عن كل أعمال الشر، وعن الأشرار من الناس؛ أى أنها التشريعات التى تربى الناس أحسن تربية، بل أكملها وأرضاها لله تعالى.

- إنها التشريات التى تتكفل - عند الأخذ بها وتطبيقها - بالقضاء على أسباب التنازع والتخاصم بين الناس حول كل الأمور والقضايا التى يثيرها ويذكيها ما يوسوس به شياطين الإنس والجن من شرور وآثام وفواحش وتظالم.

● وما أحله الله وهو الأكثر والأغلب، وما حرمه وهو الأقل الذى نصت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، نكتفى فيه - فى مجالنا هذا - بذكر بعض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث النبى ﷺ للتدبر فيها ومعرفة ما حرم الله تعالى.

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

● وعند التدبر فى هذه الآية الكريمة نرى أن الله تعالى قد بيّن فى هذه الآية الكريمة أنواع المحرمات وحصرها فى خمس، لكن يدخل تحت كل محرم منها مفردات كثيرة من المحرمات، وهذه الأنواع الخمسة من المحرمات هى:

الأول: الفواحش الظاهرة والمستترة، والفواحش الكبائر لتفاحش قبحها وتزايده.

والثانى: الإثم، يطلق على كل عمل محرم يجب فيه حَدّ من الحدود، أو هو: مطلق الذنب.

والثالث: البغى بغير الحق، والبغى هو الإقدام على إيذاء فى النفس أو المال أو العرض، أى قتلهم أو قهرهم إلا أن يكون ذلك بحق لكم.

والرابع: أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، والشرك هو اتخاذ إله مع الله، وهذا أمر لم ينزل به الله سلطانًا أبدًا.

والخامس: أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، أى الكذب على الله تعالى بادعاء أنه قال ما لم يقل، وهو محرم ومن الكبائر.

إن كل محرمٍ من هذه الأنواع الخمسة العامة يندرج تحته كثير من المحرمات إن لم نقل جميع المحرمات[1].

وأما الأحاديث النبوية فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا أحد أغير من الله عز وجل، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن...»**

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أنْ تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب»**.

– إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة التى تتحدث عما حرم الله، مما يؤكد أن المجتمع الإسلامى مجتمع التشريعات التى تكفل للإنسان حقوقه، ومما يعزز هذا ويقويه أن الأنظمة التى تسود المجتمع الإسلامى، صنفها الله تعالى ليحقق بها مصالح الإنسان فى دنياه وآخرته.

٤ – وأنه مجتمع الأنظمة العادلة:

وسوف نذكر من هذه الأنظمة العديدة الشاملة خمسة أنظمة فقط – تاركين سائر الأنظمة لمجالات أخرى من الكلام – وهى:

– النظام الأخلاقى.

– والنظام الاجتماعى.

---

(١) وردت مفردات المحرمات فى عدد من آيات القرآن الكريم مثل:

- الآيتان: ١٧٣، ١٧٥ من سورة البقرة.
- والآية: ٢٣ من سورة النساء.
- والآيتان: ٣، ٩٦ من سورة المائدة.
- والآيات: ١١٩، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٠، ١٥١ من سورة الأنعام.
- والآيتان: ٣٣، ١٥٧ من سورة الأعراف.
- والآيتان: ٢٩، ٣٧ من سورة التوبة.
- والآيتان: ١١٥، ١١٨ من سورة النحل.
- والآية: ٣٣ من سورة الإسراء.
- والآية ٣ من سورة النور.
- والآية: ٩١ من سورة النمل.

- والنظام الاقتصادى.
- والنظام السياسى.
- والنظام الثقافى.

● وهذه الأنظمة كلها قد فرض الله على عباده الأخذ بها والالتزام بما جاء فيها، وجعلها سبحانه وتعالى كاملة، شاملة لكل شعب الحياة الدنيا بكل فروعها، وموضحة لما يجب أن يحكم هذه الأنظمة من قوانين.

ولنبدأ بتعريف موجز لكل نظام من هذه الأنظمة.

أ- النظام الأخلاقى:

النظام الأخلاقى هو النظام الذى يرسم الأبعاد لسلوك الإنسان فى حياته - وقد أشرنا آنفا إلى إطار الحلال والحرام على أنه إطار عادل حاكم.

ونشير هنا - فى مجال النظام الأخلاقى فى المجتمع الإسلامى - إلى قمة النظام الأخلاقى الإسلامى وهو: الإحسان، وهو أرفع وأعلى من العدل؛ وذلك أن العدل من حيث نتيجة التعامل هو: أن يأخذ كل إنسان ما له، وأن يعطى كل ما عليه، بحيث لا يكون هناك ظالم أو مظلوم.

● أما الإحسان بوصفه نظامًا أخلاقيًا، فمعناه: أن يأخذ كل إنسان أَقلَّ مما له بنفس راضية تؤثر الحب والخير، وأن يعطى أكثر مما عليه صادرًا فى ذلك عن القيم الإسلامية التى تشيد بالفضل والبذل إيثارًا لما عند الله تعالى.

● والنظام الأخلاقى فى الإسلام قائم على الإحسان بذلك المعنى الذى ذكرناه، الإحسان بكل أقسامه المعروفة وهى: الإحسان مع الله تعالى، والإحسان مع النفس، والإحسان مع الأهل والولد، والإحسان مع النفس، والإحسان مع الأهل والولد، والإحسان مع الأقارب والأرحام، والإحسان مع كل الناس.

- ففى جميع هذه الأقسام يطلب من الإنسان أن يكون محسنًا، بمعنى أن يقبل أقل مما هو له، وأن يعطى أكثر مما عليه.

- إن المجتمع الذى يسوده هذا النظام الأخلاقى مجتمع راشد قد هدى إلى الصراط المستقيم، وهو بذلك جدير بأن يسمى مجتمعًا إسلاميًا، تسوده المودة والرحمة التى يجب أن تسود المسلمين فى كل زمان ومكان.

ب- النظام الاجتماعى:

النظام الاجتماعى الإسلامى هو النظام الذى يكفل لكل أفراد المجتمع وهيئاته ومؤسساته وتجمعاته المدنية حياة اجتماعية سليمة بريئة من كل عيوب الحياة الاجتماعية كالتخلف الاجتماعى والتفكك والشذوذ والصراع والقلق الاجتماعى، وفى الوقت نفسه تكفل الحياة الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى للناس جميع أنواع الإصلاح الاجتماعى، بل التضامن الاجتماعى، بل الضمان الاجتماعى، فضلاً عن التماسك الاجتماعى والضبط الاجتماعى وصولاً إلى مجتمع الرفاهية الاجتماعية.

- والنظام الاجتماعى الإسلامى عام شامل، تمتد يد الإصلاح فيه لتتناول كل فرع من فروع النظام الاجتماعى، وهى كثيرة، منها:

- الأسرة، تكوينًا ورعاية وتربية، وإنفاقًا، وتوجيهًا، وتعاملاً إسلاميًا كريمًا بين جميع أفرادها.
- والأقارب والأرحام، والجيران، والضيوف، والأصدقاء.
- واليتامى والأرامل والفقراء والمساكين .

كما يتناول الأنظمة التالية:

- نظام الزكاة والصدقات والأوقات.
- ونظام الوصية والميراث والهبات.
- ونظام الولاء والبراء والحب والبغض.
- ونظام التعلم والعلم والتعليم.
- ونظام الدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق.
- ونظام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى.
- وما لا أحصى من نظم اجتماعية عديدة لا سبيل إلى حصرها مما لا يقوم مجتمع إسلامى إلا بها[1].

---

(١) توسعنا فى الحديث عن ذلك فى كتابنا : التربية الاجتماعية الإسلامية.

جـ- النظام الاقتصادى[1]:

وهو نظام فى الإسلام متكامل، ينظم كل مجالات الحياة الاقتصادية فى المجتمع، ويتناول فى مفرداته كل ما له صلة بالاقتصاد مثل:

- العمل والعمال، والإنتاج للسلع والخدمات، وحسن التوزيع لكل سلعة وكل خدمة.
- وتوفير فرص العمل لمن لا يجدونه، أو فرص العيش للعاجزين عن العمل.
- ومجالات الاستثمار جميعها فى الزراعة والصناعة والتجارة، والتعمير والإسكان، وفى مجالات الأرض وما فى باطنها وفى مجال البحار والأنهار وما فيها، بل فى مجال الفضاء.
- وكل ما له صلة بعالم المواصلات والاتصالات من علم وفن وتقنية، وما له صلة بعالم الحرب والسلام من صناعة للسلاح وتحقيق الاكتفاء منه، وتصدير فائضه.
- وتنظيم تداول الأموال وضبط عمل المصارف، بحيث لا تستغل حاجة المحتاج فتقرضه بالربا الذى حرمه الله تعالى.
- وغير ذلك من الأنظمة الاقتصادية والمالية مثل: الكسب والملكية والادخار والاقتناء والتنقل بالأموال والممتلكات، وغير ذلك.

د- النظام السياسى:

هو نظام فى المجتمع الإسلامى يستهدف أموراً على جانب كبير من الأهمية فى الحياة السياسية، ولهذا النظام الإسلامى السياسى مفردات عديدة منها:

- تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى المجتمع الإسلامى تحديداً يعطى لكل ذى حق منهما حقه، ويلزمه بأداء واجباته.
- وتحديد العلاقة بين السلطات الثلاث فى المجتمع.
  - سلطة التشريع أو المجالس النيابية.
  - وسلطة القضاء ونظام التقاضى.
  - وسلطة التنفيذ أى تطبيق القوانين فى المجتمع.

---

(١) توسعنا فى الحديث عن ذلك فى كتابنا: التربية الاقتصادية الإسلامية من سلسلة مفردات التربية الإسلامية، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.

- وإقرار مبادئ الشورى والعدل والمساواة بين الناس أمام القانون وأمام من ينفذ القانون.

- ومبدأ الأخذ بالجديد ما دام غير مخالف لثوابت الإسلام فى العقيدة والعبادة والخلق، وأضرب أمثلة على ذلك بأنظمة لم تكن معروفة فى تاريخ المسلمين كنظام الترشّح للوظائف والمجالس النيابية ونحوها كالترشح للرياسة، وكنظام الانتخابات، ونظام أمن الدولة ونحو ذلك من الأنظمة التى لا مانع من الأخذ بها إذا خلت مما يخالف ثوابت الإسلام.

- ومبدأ إعداد القوة العسكرية للدفاع ضد أى معتد، ولإرهاب العدو حتى لا يعتدى، والاعتماد على تصنيع السلاح لا استيراده، فما أشد حمق من يشترى السلاح من عدوه!!؟

- وإعادة النظر فى نظام الأحزاب السياسية، لتخرج من سلطان الدولة وتحكمها فى إنشاء الأحزاب وإلغائها والتنكيل بمن أسسوها أو فكروا فيها، وهل تظل الأحزاب إلى الأبد لا يسمح لها بالتكون حتى يوافق حزب الحكومة؟

هـ- النظام الثقافى:

مِنْ نَكَدِ الدنيا أن تصبح الثقافة والاطلاع والمعرفة محكومة بنظام، بغض النظر عن أن يكون هذا النظام صحيحًا أو غير صحيح، لأن الثقافة والمعرفة والإعلام من الحقوق الأصلية للإنسان لا ينازعه فيها إلا حكومة مستبدة، أو حزب شمولى يعشش فيه وفى لجان سياسته العناكب والخفافيش وطيور الظلام، وتملأ عقول أصحابه الأوهام ويعميهم الغرور ويخلط لهم بين الرغبة الأكيدة فى كل مجتمع فى القراءة والثقافة، وبين ما تفرضه عليهم الطغمة الحاكمة المستبدة من تجريم الثقافة والمثقفين إذا قرأوا فى غير المقررات التى يفرضها الحزب الشمولى الحاكم!!؟

- والأصل فى مصادر الثقافة أن تكون متعددة ومتجددة، وجميعها يجب الاطلاع عليها والاستفادة من الجيد منها، ورد الردئ والمعارض لقيم المجتمع الإسلامى ومبادئه.

- وقد أصبحت أجهزة الإعلام ووسائله - وفى مقدمتها، الإذاعة المسموعة والمرئية، وفى قمة هذه الوسائل الصحافة - قد أصبحت هذه الأجهزة وتلك الوسائل ملك يمين للحكومات المستبدة الشمولية، وأصبح إنشاء صحيفة أو إذاعة مسموعة أو مرئية أو مقروءة جريمة كبرى، وعصيانًا مدنيًا وحربًا للدولة وتمهيدًا لإحداث انقلاب مضاد

للسلطة، وليس جزاء ذلك إلا التجريم والمحاكمات العسكرية التى لا تقبل أحكامها استئنافًا ولا نقضًا، بعد الاعتقال والتعذيب ومصادرة الأموال وتشتيت الأنصار..!!!

- إن العالم الثالث كله - ومنه العالم الإسلامى - يعيش هذه الظروف، تطارده كلاب السلطة لتنهشه، وتتعقبه، وزبانية التعذيب ودهاقينه لإهانة إنسانيته وهتك عرضه جنسيًا، وربطة من رقبته بمقود حيوان أعجم، وإكراهه على القيام بأعمال لا يقوم بها إلا من فقدوا عقولهم.

- وإذا كان العالم الإسلامى قد حفل بهذا العناء والشقاء فإن العالم العربى فى معظمه أشد فتكًا بمن له رأى يخالف رأى الحكومة ولو فى مدّ جسر أو إنشاء خزان مياه، حتى لقد نشأت مقولة بين المثقفين خلاصتها: إذا كان لك رأى يخالف الحكومة فى شىء فأنت معدود من المجرمين، وإذا لم يكن لك رأى إطلاقًا فأنت مرشح لأن تكون عضوًا فى الحزب الحاكم، وإذا كان رأيك دائمًا مع ما تقوله الحكومة فأنت مرشح للمناصب الكبرى والمنازل العليا!!! وقد تظل فى منصبك عشرين عامًا أو يزيد!!!

- ومن المؤكد أن أى حركة إصلاح فى أى مجتمع، إنما ترتكز على الثقافة والمعرفة والعلم والتقنية، ما يختلف على ذلك العقلاء فى أى زمان أو مكان، ولكن أنصار الاستبداد يزعمون أنهم مصلحون مجددون وأنه جرى على يد حكوماتهم من الإصلاح ما محصلته تغيير بعض الوزراء وأصحاب المناصب فى الدولة، مع أن الواقع يكذبهم، وتخلف المجتمعات التى يحكمونها يشهد ضدهم، والتاريخ سوف يسخر منهم ويلعنهم إن لم يكن غدًا فبعد غد.

- ولست أستشهد هنا بغير شاهدين:

أحدهما: الرغبة فى إنشاء حزب سياسى، فلا تتحقق هذه الرغبة إلا إن وافق الحزب الحاكم على إنشاء حزب ينافسه فى المغانم؟ وما ذلك بكائن فى العالم الإسلامى ولا فى العالم العربى!!!

والثانى: إن رغبة أحد فى أن ينشئ جريدة أو مجلة، لا ترى النور إلا إن وافق الحزب الحاكم ودهاقينه، وهيهات هيهات لذلك أن يكون!!!

- ومع ترحيب الولايات المتحدة وبريطانيا بأنظمة الحكم الشمولية ومدها بجميع أنواع المدد، فإنهما وحلفاءهما فى بعض الأحيان لا ترضيهم درجة القهر الذى تعيشه الشعوب،

فيتحولان ضد الحكومات المستبدة ليحرروا المسلمين والعرب من هذا القهر بجيوش متحالفة تقضى على الأنظمة الفاسدة وعلى ما بقى من كرامة هذه الشعوب، كما حدث فى أفغانستان والعراق وما يحدث فى السودان الآن، وما سوف يحدث غداً فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، ولا أحد يتعظ أو يعتبر أو يفيق من نشوة الجلوس فى كراسى السلطة إلى أن يوافيه أجله!!!

وهناك شواهد عديدة يمكن أن تنضم إلى هذين الشاهدين ولكن المجال لا يتسع هنا وربما يتسع فيما بعد ونحن نتحدث عن باقى أهداف المجتمع الإسلامى.

- إن المجتمع الإسلامى عليه أن يحشد الأدلة والبراهين على أن إنقاذ الناس والحكومات والجماعات والجمعيات وتجمعات المجتمع المدنى؛ لن يكون إلا إذا طبق منهج الله على حياة الناس فى المجتمع، لأن هذا التطبيق هو أول اهداف المجتمع الإسلامى.

وبعد: فما هو ثانى أهداف المجتمع الإسلامى؟

ذاك ما نتحدث عنه فى الصفحات التالية من الكتاب والله تعالى ولى التوفيق.

*****

الهدف الثانى

صيانة المجتمع عن كل ما يعرضه للخطر

المجتمع الإسلامى حكامًا ومحكومين، وجماعات وهيئات ومؤسسات وتجمعات وجمعيات مدنية، مستجمع لقواه دائمًا وحاشد لإمكاناته باستمرار من أجل أن يربِّى الناس ويعلمهم كيف يسهمون فى العمل على تحقيق كل هدف من أهداف هذا المجتمع بحيث لا يُعْفى أحد من الإسهام فى تحقيق هذه الأهداف فى حدود ما يملك من طاقات.

والمجتمع الإسلامى محكم البناء، قوى التماسك، بحيث لا يستطيع أحد فيه أن يقصر فى تحقيق الأهداف وهو خافٍ على المجتمع، أو وهو خادع له؛ لأنه مجتمع الضبط الاجتماعى والتضامن الاجتماعى.

والمجتمع الإسلامى يستنفر كل مؤسساته وهيئاته وجمعياته المدنية، ومدارسه ومساجده وأنديته لتعمل بكل طاقاتها فى التعريف بأهداف المجتمع ودعوة الناس إلى العمل على تحقيقها، وهو يملك حساب المقصر بل عقابه بقوة ما فيه من تماسك وتلاحم وبقوة ما يسوده من توادٍ وتراحم.

- وإذا كان المجتمع الإسلامى قادرًا بنسيجه المحكم على أن ينفى عنه التخلف والتفكك والشذوذ وأن يباعد بين أبنائه وبين الصراع الاجتماعى والقلق الاجتماعى، فهو قادر على أن يحاصر كل مقصر فى العمل على تحقيق أهداف المجتمع ويحاسبه بل يعاقبه لأنه أخل بأداء واجبه نحو المجتمع الذى يعيش فيه، ويستمد منه رفاهيته الاجتماعية.
- وإذا كان الهدف الثانى للمجتمع الإسلامى هو: صيانة المجتمع عن كل ما يعرضه للخطر، فإن العمل على تحقيق ذلك هو واجب المجتمع بكل تشكيلاته.

إن المجتمع الإسلامى يستهدف المحافظة - بهذه الأهداف - على المجتمع إسلاميًا نقيًا من أى شوائب تعكر صفو هذه الإسلامية، أو تعوقها عن أداء وظائفها الإنسانية النبيلة.

- وما من مجتمع بشرى إلا ويتعرض لأخطار عديدة، قد تتسبب فيها عوامل من داخل المجتمع أو من خارجه.
- وما من مجتمع راشد متماسك متضامن كالمجتمع الإسلامى إلا ويكون من أهم أهدافه وأبرزها صيانة المجتمع عن هذه الأخطار.

وقد قلنا - ولا نزال نقول - إن المجتمع الإسلامى متداخل مع تعبيرنا: الحكومة والسلطة الحاكمة؛ فأهدافه هى أهداف هذه الحكومة أو السلطة التى اختارها الناس بمحض إرادتهم، وفوضوها فى أن تحقق لمجتمعهم أهدافه.

وأهم أهداف المجتمع الإسلامى هى صيانة المجتمع عن الأخطار التى تهدده من داخله أو من خارجه، وسوف نتحدث عن هذين النوعين من الأخطار، فى موضوعين:

أولاً: الأخطار الداخلية:

وهى أخطار كثيرة تهدد المجتمع فى بنائه وفى أهدافه وفى أفراده وجماعاته وتجمعاته وحكومته وسلطاته.

وهذه الأخطار قد يتسبب فيها بعض الأفراد، أو بعض المسئولين، أو بعض الحكام.

وقد حصرتُ هذه الأخطار النابعة من داخل المجتمع فى أربعة هى:

التقصير.

والإهمال.

والفساد.

والتسبب فى فتنة.

أ- التقصير:

وهو التوانى فى الأمر، أو أداؤه على نحو ناقص أو ردئ، وكل فرد فى المجتمع الإسلامى موكول إليه عمل يؤديه، صغيرًا كان هذا الفرد أو كبيرًا، وقليلاً كان شأنه فى المجتمع أو عظيمًا، ومحكومًا كان أو حاكمًا، وهذا العمل تكليف من الله تعالى على جهة الوجوب أو الندب؛ يجب أن يؤدى على وجهه الأمثل والأوفق، والأقدر على جلب النفع ودفع الضرر.

- وكل مقصر فى أداء عمل أسند إليه يعرض نفسه وغيره لخطر فوات المصالح، وخطر مداهمة المفاسد والشرور، مع أن الإسلام يعتبر جلب المصلحة ودفع المفسدة أصلاً من الأصول التى يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى، ويجعل العمل على جلب المصلحة ودرء المفسدة تكليفًا ومسئولية أمام الله تعالى، وأما من يلى أمرهم ويحكمهم، كما تدل على ذلك آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها:

قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٢].

وقوله جل شأنه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقوله عز شأنه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ... ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فهذه الآيات الكريمة ومثلها كثير تدل على أن الإنسان مسئول أمام الله عما يعمل من خير أو شر، وأن الدنيا هى دار العمل والجهاد، وأن الآخرة هى دار الجزاء والثواب أو العقاب.

- وكل فرد فى المجتمع الإسلامى مهما كان شأنه فى المجتمع مُطالب بالعمل الصالح منهى عن العمل الطالح ومسئول عن ذلك مسئولية شخصية يتحمل نتائجها وحده إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما تقرر ذلك آيات القرآن الكريم مثل:

قول الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا... ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ... ﴾ [فاطر: ١٨].

وقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا... ﴾ [لقمان: ٣٣].

- وكل فرد فى المجتمع وكل حكومة أو جماعة، يرتكب تقصيراً فإنما ينعكس ذلك على المجتمع كله بأسوأ الآثار ويجلب الأخطار، يترتب عليه حرمان المجتمع من المنافع والمصالح.

ومن أجل ذلك كان المجتمع كله متحملاً لمسئوليته عن أى تقصير فى عمله وموقعه، وهو بذلك يعد مسئولاً عن صيانة المجتمع من خطر التقصير فى الأعمال أو القصور عنها، ذلك الخطر الذى ينعكس على الحياة الاجتماعية كلها فى تعطيل وظائفها وتبديد أهدافها.

والمجتمع لا يستطيع أن يصون نفسه عن الأخطار الداخلية بقوة القانون وحدها ولا بقوة الأمن والعسس والشرط دون أن يكون الفرد حريصاً على صيانة مجتمعه من أى خطر يهدده من قبل تقصيره فى أداء واجباته.

ب- الإهمال:

وهو ترك الأمر عن عمد، أو عدم إحكام العمل، أو عدم رعايته والاعتناء بأدائه على وجهه.

وهذا الإهمال محرَّم شرعًا؛ لأن الله تعالى أمر بالإجادة والإتقان، وتوعد على الإهمال بالعقاب، وسمى الاهمال عملاً فاسدًا وضالاً.

وفي تأكيد هذه المعاني آيات قرآنية وأحاديث نبوية نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿ **وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٣].

وقوله جل شأنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٣٠]

وقوله تعالى يضرب المثل ويعلمنا الاقتداء: ﴿ **...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل: ٨٨].

وروى مسلم بسنده عن شدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**».

وروى الطبراني - في الكبير - بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله محسن يحب الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**».

إلى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم وكلمات المعصوم ﷺ في مجال العمل وواجبيته وواجبية إتقانه، والتصريح بالإثابة على إجادة العمل وبالعقاب على إهماله أو أدائه بغير إتقان، وإنما كان ذلك من صميم الإسلام، ومن أبرز واجبات المجتمع الإسلامي، لما سبق أن ذكرنا - آنفًا - من أن التقصير يضيع على المسلمين جلب المصالح ودرء المفاسد، والإهمال أسوأ من التقصير، لأن المقصر يؤدى عملاً على نحو غير مكتمل، أما المهمل فلا يؤدى إطلاقًا أو يؤدى في غير وقت الأداء. وبالتالي فإن حجم الضرر الذي يقع على المجتمع الإسلامي عند إهمال العمل يكون أفدح وأخطر، وأجلب للضرر والمخاطر، ثم ما حجم المنافع والمصالح التي يحرم منها المجتمع نتيجة للإهمال في العمل؟

ثم ما جزاء من يتسبب للمسلمين بإهماله فى تفويت مصالحهم وإلحاق الضرر بهم؟

لقد أوضح لنا رسول الله ﷺ أن كل مسلم مطالب بعمل، وعليه نحو هذا العمل ونحو المجتمع مسئولية، صغر العمل أو كبر، وتواضعت المسئولية أو تعاظمت، فقد روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**».

وفى الحديث الشريف دلالات على جانب كبير من الأهمية فى مجال وجوب العمل أى ترك إهماله، ومن هذه الدلالات ما نشير إليه فيما يلى:

- أن كل مسلم أيا كان موقعه عليه عمل واجب لا يجوز له أن يتخلى عنه أو يهمله.
- وأن كل مسلم مهما كان موقعه مسئول بين يدى الله عن عمله وأدائه، بمعنى أنه محاسب على التخلى عنه أو إهماله ومجازى على ذلك بما يستحق.
- وأن أكبر المسئوليات وأهمها مسئولية الإمام أو الحاكم بدليل أن الحديث الشريف بدأ به وهو يفصل الحديث عن أنواع المسئولين ويحملهم تبعة مسئولياتهم.
- وأن ما يجب على المسلم من عمل نحو غيره مُنَزَّل منزلة الرعية من الراعى، وواجب الراعى من رعيته واجب قدسه الإسلام، وأولاه من الاهتمام ما يستحقه، وما يصلح به شأن الراعى والرعية معًا.

جـ- الفساد:

الفساد: التلف، والخلل والاضطراب، ومجاوزة الحق والصواب إلحاق الضرر بالآخر، وإنما يكون الفساد والإفساد بما تعمله أيدى الناس أو تدبره أفكارهم.

وكل مخالفة لأمر الله تعالى أو معارضة لقوانينه ونظمه هى سعى فى الأرض بالفساد، يستحق صاحبه عليه عقوبة تناسب حجم فساده ومداه فى الإضرار بالناس.

- وكل مسلم مطالب بأن يحمى المجتمع الإسلامى من الفساد ويعمل ما وسعه على صيانته منه، لأن فى ذلك صلاحًا للفرد وللمجتمع، واستجابة لأمر الله تعالى واجتنابًا لما نهى عنه من شر وإثم وفساد.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ذلك أكثر من أن تحصى، نذكر منها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- والآيات القرآنية التى نهت عن الفساد والإفساد، فاقت فى عددها عشرين آية[١].

- والآيات القرآنية التى ربطت الفساد بالطغيان والظلم والاستبداد فاقت فى عددها عشر آيات[٢].

● وقد جعل الله تعالى عقوبة الفساد والإفساد أشد عقوبة فى آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

- وقوله جل وعلا فى خطاب أحد الطغاة المغرورين قارون الذى كان من قوم موسى عليه السلام: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

● وأما الأحاديث النبوية فى هذا المجال، فمنها:

- ما رواه أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة، وياسَرَ الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله، وأمّا مَنْ غزا فخراً ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد فى الأرض؛ فإنه لم يرجع بالكفاف».

- وروى أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُءُوا ذُكِرَ الله. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العنت».

- وروى أحمد بسنده عن كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ماذئبان جائعان أُرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المَرْء على المال والشرف لدينه».

---

(١) من أمثلة ذلك: الأعراف: ٥٨، ١٢٨، والبقرة: ٢٧، والنمل: ٤٨، والمائدة: ٣٢، ٦٤ والقصص: ٧٧، والروم: ٤١، وغافر: ٢٦، والفجر: ١٢.

(٢) ومن أمثلة ذلك: الأعراف: ٨٦، وهود: ٨٥، والشعراء: ١٨٣، والقصص: ٤، وص: ٢٨.

● وفي تعليق مجمل على هذه النصوص الإسلامية نخلص إلى النتائج التالية:

- اعتبر الإسلام اجتناب الفساد عملاً من أعمال البرّ يثاب عليه فاعله، كما اعتبر الإفساد في الأرض محبطًا للأجر.

- وصف الإسلام المفسدين من الناس على أنهم أشرار وجمع بينهم وبين الذين يلقون التُّهَم على الناس جزافًا للإضرار بهم.

- وجعل رسول الله ﷺ من الفساد والإفساد أن يحرص الرجل على الوصول إلى إحراز المال والشرف ولو كان ذلك على حساب دينه، لأن الدين لا يسمح بتملك المال أو الحرص على الشرف إلا بشروط بعينها.

وأخبر رسول الله ﷺ بأن من يحرص على الحصول على المال والشرف بهذه الطريقة، يفسد نفسه ويفسد دينه بمثل ما يفسد ذئبان جائعان غنمًا أرسلا فيها وليس لها راعٍ.

● فكل مفسد في المجتمع الإسلامي من حاكم أو مسئول أو جماعة أو فرد يعرض نفسه والمجتمع كله للمخاطر ويلحق به الأضرار؛ بينما هو مطالب بأن يحمي المجتمع ويصونه، ويحول بينه وبين أي خطر يتهدد حاضره أو مستقبله، وجعل الإسلام لهؤلاء المفسدين عقوبات دنيوية تصل إلى أقصى درجات التنكيل بهم، مع ما سوف يواجهونه من مواقف بين يدي الله تعالى يوم القيامة.

د- التَّسبب في الفتنة:

والفتنة أو الفتن من أهم الأخطار الداخلية في المجتمع الإسلامي الذي يجب أن يتصدى المجتمع لإزالتها، ومقاومة أسبابها.

إن الفتنة في أولها تكون بلاءً إما أن يصبر عليه الإنسان أو يجزع منه، فهي اختبار له إن صبر كوفئ من الله تعالى وإن جزع عوقب.

- والفتنة من الأفعال التي يتبيَّن بها حال الإنسان من الخير والشر، فهي ابتلاء واختبار بالخير أو بالشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ...﴾ [الأنبياء: ٣٥].

- والفتَّان الشيطان يقعد للإنسان بكل طريق يصده عن الله وعن الذكر، والمسلم يعين أخاه المسلم على الشيطان الفتَّان.

روى أبو داود بسنده عن صفية ورحيبة ابنتي علية رضي الله عنهما قالتا: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان».

- وقد تكون الفتنة من الله لعباده فتكون على وجه الحكمة والاختبار ليستبين للناس من كان قوى الإيمان ومن لم يكن كذلك، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

- وقد يكون فعل الفتنة صادراً من الإنسان، وعندئذ يكون خروجًا منه، عما أمره الله تعالى به ونهاه عنه، وهو عندئذ واقع فى المعصية والإثم والحرام.

● وقد جاءت فى القرآن الكريم آيات عديدة تدين الفتنة وتوضح آثارها الضارة على مستوى الفرد والمجتمع، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

فالفتنة فى هذه الآية الكريمة ذنب عظيم وجرم كبير؛ من شأنه أن يفسد جماعة المسلمين فتوقع بينهم الشقاق والخلاف، وتجعلهم يتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى، فيقعون فى كثير من الذنوب والكبائر التى لا تصيب الذين ظلموا وحدهم وانما تتجاوزهم فتعم جميع الناس.

- وقوله جل وعلا: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والآية الكريمة توجب قتال مَنْ يفتنون الناس عن دينهم بالإيذاء والتعذيب، حتى ينتهوا عن فتنة أحد عن دينه، لأن حرية التدين حق مكفول للإنسان.

● وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى تذكر الفتن وتحذر منها فكثيرة جدًا، ودليل كثرتها أن معظم علماء السنة وجامعيها عقد كل منهم فى كتابه الجامع لسنة: «بابا» سماه: باب الفتن حشد فيه الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى الفتن[1]. وما ذلك منهم إلا اهتمام بموضوع الفتنة وحرص على بيان أهميتها وخطرها.

---

(١) ● جمع الإمام البخارى فى صحيحه تحت عنوان: «كتاب الفتن»؛ سبعة وعشرين بابًا، اشتملت على واحد ومائة حديث مرفوع.

● وجمع الإمام مسلم فى صحيحه تحت عنوان: «كتاب الفتن»؛ سبعة أبواب اشتملت على أربعة وخمسين حديثًا نبويًا. =

- وسوف نقصر حديثنا عن الفتنة والتسبب فيها عن أربعة موضوعات هى:

- أنواع الفتن.
- وأسباب الفتن.
- ومظاهر الفتن.
- وأضرار الفتن وأخطارها.

الأول: أنواع الفتن:

كفانا علماء السنة جزاهم الله خيرًا عناء تنويع الفتن، فأضافوا فى كتبهم الفتن إلى أنواعها، أو وصفوها ووصفوا آثارها، أو شبهوها تشبيهات مفزعة.

ومن تلك الإضافة إلى نوع الفتنة قولهم:

- فتنة الدنيا.
- وفتنة الغِنَى.
- وفتنة الفقر.
- وفتنة الصدر - أى ما ينطوى عليه الصدر من شر - .
- وفتنة المحيا والممات.
- وفتنة المال.
- وفتنة النساء.
- وفتنة النار.
- وفتنة الدهيماء.
- وفتنة الدجال.

= • وجمع الإمام الترمذى فى صحيحه تحت عنوان: «أبواب الفتن»؛ خمسة وخمسين حديثًا.

• وجمع الإمام أبو داود فى سننه تحت عنوان «كتاب الفتن»؛ ستة وعشرين بابًا اشتملت على ثمانية وثلاثين حديثًا نبويًا.

• وجمع الإمام ابن ماجة فى سننه تحت عنوان: «أبواب الفتن»؛ خمسة وثلاثين بابًا اشتملت على مائة وسبعة وسبعين حديثًا نبويًا.

- وفتنة المسيح.

- وفتنة السراء.

- وفتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره ونفسه.

- وفتن الليل والنهار وطوارق الليل.

وأما ما وصفوا به الفتن، فمثاله:

- فتنة يكون على أبوابها دعاة إلى النار.

- وفتنة يكثر فيها المال.

- وفتنة يفر منها الرجل بدينه.

- وفتن السعيد مَنْ جُنِّبها.

- وفتن أربع تكون فى آخر هذه الأمة.

- وفتن خمس فى هذه الأمة.

- وفتن تقع خلال بيوتكم.

وأما الفتن التى شبهوها تشبيهات مفزعة فمنها:

- فِتن كرياح الصيف.

- وفتن كأنها الظُّلَل.

- وفتن كقطع الليل المظلم.

والثانى: أسباب الفِتن:

لابد أن يكون للفتن أسباب عديدة يعود بعضها إلى المجتمع بكل فئاته التى يتكون منها، ويعود بعضها الآخر إلى ما يرتئيه الناس من نظم يمارسون حياتهم وفقها، ويعود بعضها الآخر إلى القيم التى تسود المجتمع وهى مخالفة لقيمه وثوابته وما يدين به.

وحديثنا عن أسباب الفتن يمكن أن يطول إلى ما لا يحتمله هذا الكتاب، غير أننا سوف نختصر ونسدد ونقارب.

● إننا نؤكد هنا حقيقتين:

- إحداهما: أن المجتمع الإسلامى يقوم على قيم ومبادئ جاءت من عند الله لصالح البشرية كلها مسلمين وغير مسلمين، بحيث لا تقوم فتنة فى مجتمع مسلم إلا إن غُيِّرتُ هذه القيم والمبادئ، واستبدل بها قيم ومبادئ أخرى.

- والثانية: أن المجتمع الإسلامى يعيش وفق نظام اجتماعى ونهج وشريعة هى أكمل وأتم شريعة ونظام، ولن تقوم فى المجتمع المسلم فتنة إلا إن لجأ الناس إلى أنظمة ومناهج مما وضعه الناس لأنفسهم، متصورين أن مناهجهم أصلح لهم من منهج الله ونظامه.

● وبعد تقرير هاتين الحقيقتين نذكر بعض الأسباب التى تؤدى إلى الفتن وإلى ما تجره الفتن على الناس من مخاطر وأضرار وهى:

- تراجع المسلمين عما يجب أن يحكم سلوكهم من قيم ومبادئ إسلامية، بحيث يرضون بالقيم الوافدة التى تغرس فى نفوس الناس الأنانية وحب الذات والطمع والشراهة، وتجاهل مصلحة الآخر، بل العمل على إلحاق الضرر به ما دام فى ذلك نفع لهذا الأنانى، وكل ذلك مما حرمه الله تعالى وجرمته الشريعة ووضعت لمن يرتكبه عقابًا، وكل ذلك يؤدى إلى الفتنة التى هى كل مكروه يحيق بالمجتمع.

- وفساد حال الحكام والمسئولين واتخاذهم بطانة سوء تزيِّن لهم فسادهم، وتبرر لهم سوء أعمالهم، وتضع فى أيديهم ما ليس من حقهم، بل تكيل لهم الثناء والحمد، وتمارس معهم وبسبب القرب منهم والحديث باسمهم كل أنواع الفساد والانحراف والظلم وتجاهل الحقوق والحريات. وبعض ذلك يؤدى إلى الفتنة، فما بالنا به كله؟

- وانتشار التقصير والإهمال والفساد فى المجتمع دون عقاب لمقصر أو مهمل أو فاسد لقربه من الحاكم، أو مشاركته له فى أكل الأموال بالباطل، بحيث يصبح تطبيق القانون على الضعفاء والفقراء وغير ذوى الوجاهة الاجتماعية؛ إذ الأصل أن الناس جميعًا أمام القانون سواء، وكلما اختل هذا النظام فطبق القانون على الضعيف واستطاع القوى والمقرَّب أن يفلت منه، كلما مهدت الأرض للفتنة ووقع فيها الناس وساد الهرج والمرج.

● وكل سبب من هذه الأسباب تحته فروع عديدة، وهى جميعًا قد تحدثت عنها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

والثالث: مظاهر الفتن:

للفتن فى المجتمع المسلم مظاهر لا تخطئها عين من يرى، ولا تخفى على بصيرة المؤمن، ومنها:

- نقص العمل والتفريط فى أدائه، ونعنى به العمل الصالح الذى طالب به الإسلام كل مكلف، ولم يُعف منه إلا من زال عنه التكليف.
- ظهور الشح - أى البخل وهو أن يضن الإنسان بما عنده فى المواقف التى تستوجب البذل والعطاء -.
- وكثرة الهرج، أى الاختلاف والخصام والتقاتل، والشدة والحيرة، والوقوع فى الفتنة.
- وزوال العلم أو رفعه، وإنما يكون ذلك بموت العلماء أو بقهرهم ومنعهم من نشر العلم.
- وظهور الجهل، وهو فتنة لأنه بديل زوال العلم، ولا يظهر الجهل ويسود إلا فى ظل حكم مستبد وحكام جهلاء.
- وأن يكون الزمن الحالى أسوأ من الزمن الذى سبقه فى كثير من مفردات حياة الناس.
- وأن يزين بعض الناس للناس عملاً ليس عليه هَدْى النبى ﷺ، فيشيع الباطل والفساد.
- وأن يصبح بعض الناس دعاة إلى الشر إخوانًا للشياطين يسارعون بمن يدعونهم إلى جهنم.
- وأن يحمل المسلم السلاح على أخيه المسلم، وأن يقاتله فيكون القاتل والمقتول فى النار حين يضرب بعضهم رقاب بعض.
- وأن تتسع الفتنة وتعم، ويستشرف لها، بل يرحب بها بعض الناس.

● وفى كل مظهر من مظاهر الفتن التى ذكرنا - وهى قليلة - ورد حديث نبوى رواه البخارى فى صحيحه فى : كتاب الفتن[1].

---

(١) جمع البخارى فى هذا الكتاب ثمانية وعشرين بابًا، اشتملت على أكثر من سبعين حديثًا نبويًا. جاءت جميعها فى مظاهر الفتن وأعراضها، والتخويف منها، والتهديد للمتسببين فيها.

والرابع: أضرار الفتن:

للفتن أضرار كبيـرة على الفرد والمجتمع، بل على الحضارة الإنسـانية كلها، وهنا سوف أرصد أضراراً وردت فى السنة النبوية المطهرة توضح ما لهذه الفتن من أضرار:

- بالفتنة يتغـير الزمان حتى تُعبد الأوثـانُ وتلحق قبائل من الأمة الإسلاميـة بالمشركين، ويكثر الكذابون والدجالون.

وقد بوَّب البخارى فى كتاب الفتن: «باب تغيير الزمان حتى يعبدوا الأوثان» وكل ذلك يلحق أبلغ الضرر بالمجتمع.

- ومن الفتن أن يكون زعـيم القوم أرذلهم وسـيـد القبـيلة فاسـقهم، ويكذب الصـادق ويصدق الكاذب ويخون الأمـين ويؤتمن الخائن، ويتكلم الرويبضة - التـافه - فى أمر العامة، وهذه الأضـرار جاءت بألفاظها فى أكـثر من حديث شريف منـها ما رواه ابن ماجـة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: **«سيـأتى على الناس سنوات خداعات، يصـدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فـيها الصادق، ويؤتمن فيـها الخائن، ويُخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»** قيل: وما الرويبضة؟ قال: **«الرجل التافة ينطق فى أمر العامة»**.

- ومن أضرار الفتن كثرة الخنا والزنا - والخنا: الفحش عمومًا والفحش فى الكلام.

وروى أبو يعلى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عـن النبى ﷺ قال: **«لا تفنى هذه الأمة حـتى يقوم الرجل إلى المرأة يفتـرشها فى الطريق، فيكـون خيارهم يومئـذ من يقول: لو واريناها وراء هذا الحائط»**.

فأى ضرر أبلغ بالمجتمع الإسلامى من هذه الفتن؟

● ولقد عقد ابن ماجة فى سننه تحت عنوان: **«أبواب الفتن»** أكثر من عشرين بابًا جمع فى كل باب منها أكثر من حديث شريف[1].

ومن هذه الأبواب:

باب حرمة دم المؤمن وماله - وفيه ثلاثة أحاديث.

وباب النهى عن النهبة - وفيه أربعة أحاديث.

---

(١) الإمام ابن ماجة القزوينى: سننه: ٢/٤٥٧ - ٤٩٥. ط دار الفكر - دون تاريخ -.

وباب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر - وفيه ثلاثة أحاديث.

وباب ما يكون من الفتن - وفيه ستة أحاديث -.

وباب التثبت فى الفتنة - وفيه عشرة أحاديث.

وباب كف اللسان فى الفتنة -وفيه عشرة أحاديث.

وباب العزلة - وفيه سبعة أحاديث.

وباب من تُرْجَى له السلامة من الفتن - وفيه حديثان.

وباب فتنة المال - وفيه ثلاثة أحاديث.

وباب فتنة النساء - وفيه ستة أحاديث.

وباب العقوبات - وفيه خمسة أحاديث.

وباب شدة الزمان - وفيه أربعة أحاديث.

هذه الأحاديث كلها، ومثلها فى سائر كتب السنة النبوية توضح أضرار الفتن بالمجتمع الإسلامى، وتوجب على هذا المجتمع أن يعمل ما وسعه على أن يربى أبناءه على تَجنُّب التسبب فى الفتن، وعلى تلافى أضرارها وأخطارها.

إن المجتمع الإسلامى عندما تختل بالفتن قيمه ومبادئه فإنه يضعف ويطمع فيه عدوه، ويغلب على أمره، ويتعزل ويتمزق وتذهب ريحه وتنتقص أطرافه.

- وعلى المجتمع الإسلامى أن يوعى أبناءه بأن كل قيمة إسلامية تُضَيَّع أو تعطل، فإن ذلك سعى فى باب الفتنة وهو فى الوقت نفسه ضرر بالغ بمن ضيع هذه القيمة أو عطلها وبذويه وبالمجتمع كله، فى حين أن واجب المجتمع وكل فرد من أفراده هو حماية المجتمع وصيانته من الأخطار الداخلية التى تتهدده.

ثانيًا: الأخطار الخارجية الموجهة ضد المجتمع الإسلامى:

ليس خافيًا على متابع مدقق أن المجتمع الإسلامى فى صورته الصحيحة هو معامل التقدم والرقى فى حاضر المسلمين وفى مستقبلهم وفى قدرتهم على بناء حضارة إنسانية عظيمة.

وليس خافيًا على مراقب منصف أن المجتمع الإسلامى بهذا الوصف مستهدف من أعدائه من غير المسلمين، ومحاطٌ بالمخاطر الخارجية التى تحاول القضاء عليه أو تعويقه عن التقدم والرقى، وبناء الحضارة الإسلامية.

- والأخطار الخارجية للمجتمع الإسلامى تتضافر مع الأخطار الداخلية لتشكل تهديداً حقيقيًا للعمل الإسلامى، وتعويقًا للمجتمع عن أداء وظائفه فى صنع الحضارة الإنسانية. المجتمع الإسلامى الذى يستهدف أهدافًا سبعة[١]، تحدثنا حتى الآن عن اثنين منها[٢].

- ومن المسلَّم به لدى المسلمين أن يحاول أعداءُ الإسلام منع المجتمع الإسلامى عن تحقيق أهدافه، ليظل دائمًا المجتمع الضعيف العاجز؛ لبعده عن منهجه ونظامه، وقصوره فى صيانة نفسه عن الأخطار المحدقة به، وفقده الأمن فى داخله وفى خارجه، وحرمانه من حقوقه وتشجيعه على ترك القيام بواجباته، وفقره لعجزه عن تحقيق التكافل الاجتماعى بين أبنائه، وفشله فى تحقيق الوحدة بين أقطاره، وسيطرة أهل الأديان الأخرى على المسلمين فى الأوطان الإسلامية.

– إن أعداء الإسلام يخططون لذلك ويعملون من أجله منذ مئات السنين، وكلما تقدموا فى العلم والتقنية، والمادية ازدادوا ضراوة ووحشية فى هذا العداء.

– وزيادة منهم فى تضليل المسلمين وصرفهم عن تحقيق أهدافهم فإنهم يشغلونهم فى كل حين بقضايا دولية عقيمة من شأنها أن تثير الخلافات بين المسلمين، وتحزّبهم وتجعلهم فى تناحر وخصام؛ إنهم دائمًا يشجعون على تحزب المسلمين وتفرقهم من خلال عيونهم فى المجتمعات الإسلامية، ثم يطلقون على كل فرقة اسمًا كلما ذكر زاد الخصومة عنفًا وضراوة بين المسلمين.

- إن الاثنتين والسبعين فرقة التى افترقت عليها بنو إسرائيل والتى ستفترق عليها الأمة الإسلامية[٣]، لابد أن تكون قد لعبت فيها أيدى اليهود وسوء نيتهم ونفاقهم واندساسهم فى صفوف المسلمين على أنهم منهم، هذه الفرق التى فاقت السبعين وسميت أسماء

---

(١) الأهداف السبعة هى:
– تطبيق منهج الله ونظامه فى حياة الناس، ونتائج هذا التطبيق.
– وصيانة المجتمع عن كل ما يعرضه للخطر.
– وتحقيق الأمن فى داخل المجتمع وفى خارجه.
– وممارسة الحقوق فى المجتمع والإلزام بأداء الواجبات.
– وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين.
– وتحقيق الوحدة بين المسلمين.
– وتأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى.

(٢) هما: الأول والثانى من هذه السبعة.

(٣) ورد ذلك فى كثير من أحاديث النبى ﷺ التى ذكرها جامعو كتب السنة النبوية المطهرة وسنذكر بعضها عند حديثنا عن الوحدة بين المسلمين – فى الهدف السادس بإذن الله تعالى.

أكثرها من اختراع هؤلاء الخبثاء، قد شغلت المسلمين وصرفتهم عن الجهاد للعدو الخارجى حتى ضعف المسلمون، وتخطفهم أعداؤهم.

- وأحدث هذه التقسيمات للمسلمين لشغلهم بها عن تحقيق أهدافهم ما ذكره التقرير الأمريكى عن الحالة الإسلامية الذى أعد لحساب وزارة الدفاع الأمريكية، وصدر عن مؤسسة «راند» فى قسم بحوث الأمن القومى.

- قسَّم هذا التقرير - الذى وضع لصالح أمريكا والغرب أولاً ثم لصالح كل عدو للإسلام فى العالم كله - المسلمين إلى أربعة أقسام:

أ- الأصوليون - وهم فى نظرهم - المتطرفون، ويزعمون أنهم يرفضون الديموقراطية؛ وتقوم أصوليتهم على فرض آرائهم فى الدين والحياة على كل الناس[١].

ب- والتقليديون، ويزعمون أنهم محافظون على سمات المجتمع، رافضون لكل حداثة وتجديد[٢].

جـ- والحداثيون أو «الليبراليون» ويزعمون أن هؤلاء يحاولون بل يرغبون فى تطوير الإسلام من داخله[٣].

د- والعلمانيون الذين يطالبون بفصل الدين عن الدولة وتطبيق الأنموذج الغربى على حياة الناس فى العالم الإسلامى[٤].

- والهدف من هذا التقسيم فى تصورى أن توجه أمريكا والغرب كل عدائهم للأصوليين والتقليديين، عداء مباشرًا أو من خلال حكومات شمولية مستبدة فى العالم الإسلامى، وتقريب الحداثيين والعلمانيين واصطناع حكام المسلمين منهم، وإغرائهم بحرب الإسلام عمومًا - من خلال التربية والإعلام والثقافة - وخصوصًا من خلال تشويه الإسلام وقمع الإسلاميين، واستبعادهم عن أى عمل لصالحهم أو لصالح المجتمع الإسلامى.

---

(١) الأصولية والأصوليون تعبير غربى يصدق على بعض رجال الدين عندهم، لكنه لم يستعمل فى تاريخنا وتراثنا بهذا المعنى أبدًا.

(٢) التقليديون تعبير وافد أيضًا فى دلالته التى يريدون، والمحافظة على الدين عندنا فضيلة بل واجب شرعى، لا يجيز محاربة الجديد لأنه جديد ولكن إذا حمل ما يعادى ثوابت الإسلام.

(٣) الحداثيون هم الذين يوالون كل جديد فى الغرب لأنه غربى وجديد وهم يتنكرون لثوابت الإسلام فى العقيدة والعبادة والخلق.

(٤) العلمانيون الذين يرون - كما يرى الغرب - عزل الدين عن الدولة وعن الحياة، هم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان - هم أولياء الذين يفرضهم الغرب حكامًا لكثير من بلدان العالم الإسلامى.

● والذى أحب أن أنبه إليه أن هؤلاء الأعداء لهم فى كل بلد إسلامى أعوان من رجال الامن أو من رجال الإعلام يترصدون الإسلاميين ويراقبون أقوالهم وأعمالهم بل أفكارهم بحيث يستبعدونهم من أى عمل لصالح الوطن الذى يعيشون فيه، فضلاً عن عمل لصالح العالم الإسلامى.

- ونحن فى زمن اختلط فيه الإعلام؛ أجهزته ووسائله بالأمن؛ مؤسساته ورجاله وبأجهزة المخابرات على كافة مستوياتها ونوعياتها، بل يشاركهم فى ذلك التعليم بمناهجه ومعلميه ليصنعوا فيما بينهم شبكة محكمة الصنع تمنع تسرب أى إسلامى إلى أى موقع له أهميته، فضلاً عن حظر قبولهم فى الكليات العسكرية وكلية الشرطة!!!

- وتنمية موجة الانحلال الخلقى بين الشباب، حصار للإسلام والإسلاميين، ليبدو الإسلام عقبة فى طريق رغبات الشباب، حتى يباعدوا بين الشباب وبين الإسلام من جانب وبينهم وبين من ينيرون لهم الطريق من الإسلاميين من جانب آخر!!!

- والعدوان العسكرى على كثير من بلدان العالم الإسلامى صورة أخرى لكى يصاب شباب المسلمين باليأس والإحباط وبأن مواجهة العدو الذى يهاجم بطائراته العسكرية العزَّل الآمنين من نساء وأطفال وشيوخ بأسلحة الدمار الشامل، فيكون هناك قبول للأعداء، ويكون استسلام لهم، ولكن هيهات هيهات لما يمنون به أنفسهم؛ لأن المجرد من السلاح استطاع أن يهز إسرائيل بضرب الحجر، فى ملحمة لابد أن يسجلها التاريخ بأحرف من نور.

● وهذه الأخطار الخارجية التى يجب أن يواجهها المجتمع الإسلامى كثيرة نتحدث عن ثلاثة مخاطر، سائلين الله تعالى التوفيق، وهى:

- التيارات والأفكار المعادية للمجتمع الإسلامى.

- واليهودية أو الصهيونية.

- والمستوطنون الجدد «أمريكا وحلفاؤها».

الخطر الأول: التيارات والأفكار المعادية للمجتمع الإسلامى:

المجتمع إذا وصف بأنه إسلامى فهو مجتمع حضارى متقدم يجيد الأخذ بكل أسباب التقدم الرقى، لأنه مجتمع يقوم على أسس من القيم الفاضلة والمبادئ الإنسانية السامية.

ويقابل هذا المجتمع، مجتمع مادى يتجاهل القيم والمبادئ ويعلى من شأن الثروة ومظاهر الأبهة وسائر القوى المادية التى تقوم غالبًا على استبعاد ما هو أخلاقى.

● والمجتمع الإسلامى مجتمع إنسانى يقيم أكبر وزن للإنسان ويعتبره أكرم مخلوقات الله على الله وأولاها بالتكريم.

ونود أن نتحدث فى هذا المجال عن أمرين بالغى الأهمية، هما: الأسس التى يقام عليها بناء المجتمع الإسلامى، ثم التحدث عن الضربات الموجهة إلى هذه الأسس أى إلى بناء المجتمع وكيانه.

أولاً: الأسس التى يقوم بناء المجتمع الإسلامى عليها:

● إن نظرة إلى الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى لتؤكد هذه الإنسانية التى تسود الناس والنظم والأشياء فيه.

وأهم هذه الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى هى:

الأســــاس الأول: توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا وتنزيهه عما لا يليق به من صفات وأفعال وأسماء.

والأساس الثــانى: عبادة الله تعـالى وحده لا شريك له، وفق ما شرع وما أنزل على خاتم رسله محمد ﷺ.

والأساس الثالـث: أنه مجتمع القيم الخلقية الثابتة، وهى قيم من عند الله تعالى، وهى جزء من منهجه ونظامه الذى يجب أن يسود الحياة الإنسانية.

والأساس الرابـع: أنه مجتمع الدعوة إلى الله وإلى الدين الحق والحركة به فى الناس والآفاق، ومحاولة التغيير للواقع المخالف للإسلام من خلال هذه الدعوة والحركة.

والأساس الخامـس: أنه مجتمع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لما فى ذلك الأمر والنهى من جلب المصالح ودفع المفاسد، بل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم لهذا الدين الخاتم ذى النبى الخاتم والمنهج الخاتم.

والأساس السادس: أنه مجتمع الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، الجهاد باللسان واليد والسنان، والمال والجهد والوقت، وكل ما يصلح للجهاد به فى سبيل الله تعالى.

والأساس السابـع: أنه المجتمع الذى يحترم الطرف الآخر ويستمع إليه ويحاوره، ويحاول أن يصل معه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، حتى ولو كان الطرف الآخر مشركًا لا ينتمى لكتاب سماوى.

● هذا المجتمع الإسلامى الحضارى لا يستطيع أن يصون نفسه ويحمى أهدافه إلا إذا ربَّى أبناءه على الوعى بهذه القضايا ليكونوا من الوقوع فى الرضا بها أو تأييدها على حذر، وإن المجتمع عندما يربى أبناءه يستنفر كل المؤسسات التربوية أولاً، ثم جميع وسائل الإعلام وأجهزته والمادة التى تعرض فيه ثم يستنفر كل مؤسسات المجتمع وهيئاته وحكومته ووزاراته ومصالحه وإدارته وكل مرفق فيه، ليذكر الناس بواجبهم إزاء دفع الأخطار الخارجية عن المجتمع.

كما أنه يستنفر كل جماعاته وجمعياته والمجتمع المدنى كله ونقاباته المهنية والعمالية، وأنديته الاجتماعية والرياضية، وكل تجمع بشرى فى المجتمع وبخاصة أقسام الشرطة ومراكزها وأفراد القوات المسلحة وقادتها ليكونوا على حذر من هذه المخاطر، وتكون لديهم الأهلية لمواجهتها.

ثانيًا : الضربات الموجهة إلى هذه الأسس:

أخطر التيارات والأعمال الموجهة ضد المجتمع الإسلامى هى تلك التى تحاول تقويض أسسه التى بنى عليها، أو تقويض أساس واحد منها.

والنتيجة واحدة سواء أكانت الضربة موجهة إلى أساس واحد أو إلى الأسس جميعًا، لأن هذه الأسس متشابكة متكاملة لا يقوم بناء المجتمع إلا بها جميعًا.

أ- الضربة الموجهة إلى توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا:

تلك الضربة هى تيار الإلحاد - أى الميل عن قصد الحق - ويدخل فيه الشرك بالله تعالى، وإنكار ذاته أو صفاته أو أسمائه أو أفعاله، وذلك ينافى الإيمان بل يبطله وينفيه نفيًا.

والإلحاد فى الله تعالى نوعان:

أحدهما: وصف الله تعالى بما لا يليق به، أى بغير ما سَمَّى به نفسه أو وصفها.

والآخر: تأوّل أوصافه على ما لا يليق به سبحانه وتعالى.

● والإلحاد - فى أيامنا هذه - تيار جارف يحركه أنواع من الملحدين كأولئك الذين ينكرونه سبحانه وتعالى ويجحدون وجوده، وينفون عنه صفات الخلق والإيجاد ويردون ذلك إلى الطبيعة.

ولهؤلاء الملحدين اليوم جذور وأصول فى ملحدين سبقوهم فقالوا كما حكى عنهم الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا الإلحاد خطر داهم على المجتمع الإسلامى، يضل الناس عن توحيد الله تعالى.

وكيف يستقيم مجتمع لا يوحد الله فيه لوجود هؤلاء الملحدين؟

ب- والضربة الموجهة إلى عبادة الله تعالى وفق ما شرع:

شرع الله لعباده أن يعبدوه كما يريد، وبالطريقة التى يريد، ومن لم يلتزم بذلك فهو كافر بالله تعالى يشبه المشرك الذى لا يوحد الله بل يعبد غيره أو يعبد معه غيره.

ومن قديم عبد بعض الناس غير الله تعالى فعبدوا الطاغوت الشيطان أو من يدعو إلى الشر، وبعضهم عبد الملائكة، وبعضهم عبد حيوانًا أو كوكبًا أو شجرًا أو حجرًا أو صنمًا أو عبد إنسانًا مثله.

وهذا هو التحدى لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأعداؤنا اليوم يُضلون أبناءنا عن عبادة الله تعالى وحده إلى الشيطان وعبادة الهوى والشهوات وعبادة المال والنساء والخمر والمخدرات، وما لا أحصى من المعبودات، بل إنهم دعوا وشجعوا على عبادة بعض الرؤساء وبعض الحكومات وكل تلك طواغيت يجب الكفر بها.

- والتحدى الموجه إلى عبادة الله معروفة أهدافه، وهى صرف الناس عن عبادة الله تعالى إلى عبادة ما تهوى أنفسهم من الهوى والشهوة والدينار والدرهم، وكل دولة باغية وكل سلطة مستبدة وكل قيادة ظالمة، وكل إمامة مضللة، تشرع للناس غير ما شرع الله لهم.
- وإذا انصرف الناس عن توحيد الله وعبادته ضعفوا وذلوا وهانوا، وتحكم فيهم أعداؤهم ثم استولوا على بلادهم وعلى كل ما فيها مما سخره الله تعالى لهم، وذلك ما يريده أعداء الإسلام بالمسلمين قديمًا ووسيطًا وحديثًا، وغدا وبعد غد، ولا يزالون متفقين على ذلك، ولا يزال المسلمون ضحايا لهذه الطواغيت.

جـ- والضربة الموجهة للقيم الخلقية فى المجتمع الإسلامى:

القيم الخلقية التى يجب أن تسود المجتمع الإسلامى قيم تولدت عن توحيد الله تعالى وعبادته والإيمان به والإسلام له، وحددها الله تعالى فى كتابه وعلى لسان نبيه الخاتم ﷺ قيمة قيمة، ولم يدع لأحد من العلماء أو الحكماء أن يختار تلك القيم الخلقية.

- وفى مواجهـة هذه القيم الخلقية وضربهـا للقضاء على المجتمع الإسـلامى بالقضاء على القيم الخلقية التى تحكم سلوكه.

- والقيم الخلقية فى الإسلام تقوم على أسس، والتحدى يوجه إلى الأسس ليهدمها فينهدم ما فوقها.

وعلى سبيل المثال:

فى مقدمـة القيم الخلقية الإسلامـية التزام المسلم بفعل مـا أحل الله، واجتنابه لما حرم - وذلك صميم الالتزام الأخلاقى-.

- وهم يوجهـون إلى ذلك ضربة بزعمـهم أن الالتزام الأخـلاقى قيود على حـرية الإنسان الشخصية، ودعواهم أن الحرية الشخصية هى أن يغرق الناس فى شهواتهم كشرب الخمر ولعب الميسـر والزنا والشذوذ الجنسى، لذلـك فتحت فى بلاد المسلمـين حانات الخـمر، وقاعات ممـارسة الميسر،وتعـرت أجساد النساء وأصـبحت المرأة سلعة تباع لطالب المتعة الحرام، والادعـاء بأن ذلك كله هو من حـقوق الإنسـان أو ادعائهم أن الإنسـان يملك جسده فله أن يعبر عن رغبات هذا الجسد دون قيود أو حدود.

- وليست مخططاتهم وأعـمالهم فى مجال إفساد المرأة، المؤتمرات والندوات التـى يعقدونها إلا صورة من صور ضرب القيم الخلقية فى المجتمع؛ لأن المرأة قد فطرها الله الذى خلق الذكر والأنثى على أن تكون موضع اهتمام الرجل، يشبع من خلال زواجه الشرعى منها حاجاته النفسية والجسدية والاجتماعية - وكذلك الرجل بالنسبة لها -.

لكنهم فى مـخططاتهم لضرب القـيم الخلقيـة يفسدون المـرأة ويحولونها - بـاسم الحرية وحقوق المرأة - إلى سلعة تباع لمن يدفع، أو تدفع هى أحيانًا لمن تريده!!!

إن المطالبة بحقوق المرأة تعنى عند أعداء القيم الخلقية:

حقها فى المعاشرة الجنسية دون زواج.

وحقها فى أن تكون أمًا دون زواج شرعى!!!

وحقها فى أن تتخلص من حملها متى شاءت!!!

وحقها أن ترعى الدولة أبناءها من الزنا!!!

وحقها فى الزواج بامرأة مثلها!!!

لقد نادت مؤتمرات المرأة ومؤتمرات السكان بذلك صراحة وسجلته كثير من وسائل الإعلام والقنوات الفضائية.

وإذا فسدت أخلاق المرأة فسدت أخلاق الأسرة والمجتمع.

- ومما هو مؤكد - في تاريخنا - أن المسلمين ما حققوا انتصاراتهم ولا أشادوا صروحهم العلمية والحضارية، إلا وهم منطلقون إلى ذلك من القيم الخلقية الإسلامية التي جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس.

د- والضربة الموجهة إلى الدعاة إلى الله:

الدعاة إلى الله والحركيون الراغبون في تغيير المجتمع عما هو عليه من مخالفة لمنهج الله ونظامه، يلقون من أعداء الإسلام ضربات عاتية ممنهجة لا تتوقف ولا تفتر، ولا تكف عن الأخذ بأحدث أساليب القمع والإهانة للإنسان - وليس ما يجري في: «جوانتانامو» وسجن أبي غريب ببعيد عن المعاينة بعد أن بث ما يجري القنوات الفضائية وعرفه القاصي والداني، والصغير والكبير!!!

وما وضع في طريق الدعوة والدعاة من العراقيل....

- أما ما وضعوه من عقبات في طريق الدعوة والحركة، ومنهج الإسلام في اعتبار كل مسلم داعية إلى الله ومتحركًا بدين الحق في الناس والآفاق ، فهي كثيرة نذكر منها:

- محاولة تشويه الإسلام بإلقاء التهم على منهجه ونظامه وقيمه الخلقية، بإطلاق عدد من المزاعم والأباطيل، مثل:

- زعمهم بأن الإسلام قد انتشر بالسيف وأن الدعاة إليه أكرهوا الناس على الدخول فيه! وذاك باطل كذَّبه بعضهم.

- وزعمهم بأن التمسك بالإسلام هو السبب في تأخر المسلمين!!! بينما السبب في هذا التأخر هو عدم التمسك بالإسلام.

- وزعمهم بأن التمسك بالإسلام هو الذي أضعف المسلمين وجعل الغرب أقوى منهم، بحيث تمكن الغرب من الاستيلاء على معظم بلدان لعالم الإسلامي!!! والحق أن أعداء الإسلام هم الذين أضعفوا المسلمين بإبعادهم عن الإسلام وتحالفوا ضدهم، وتحكموا في ضعفاء قادتهم، وتكاتفوا لإسقاط دولة الخلافة العثمانية والاستيلاء على

البلدان الإسلامية التى كانت فى إدارتها، مع تفتيت دولة الخلافة إلى دويلات وإمارات وممالك وإغرائها بالتنازع والتناحر.

- ووصفهم الإسلام بالتطرف والعنف، وبأنه يهدد حقوق الإنسان عمومًا وحقوق المرأة على وجه الخصوص، مع أن دول الغرب معظمها هى التى أثارت حربين عالميتين فى القرن الماضى؛ الأولى ١٩١٤م والأخرى ١٩٣٩م، وأهل التطرف والعنف هم الذين ألقوا قنبلتين نوويتين على اليابان فى هيروشيما ونجازاكى، فقتلوا الملايين وشوهوا مئات الآلاف، وأهدروا كل حقوق الإنسان رجلاً أو امرأة، وفى مقدمة هذه الحقوق المضيعة حقه فى الأمن وفى سلامة البدن وحقه فى الحياة.

- ووصفوا الإسلام بأنه دين الإرهاب، وهو وصف كاذب وتهمة باطلة، فالإسلام كما وصفه الله تعالى دين الرحمة والتسامح والسلام.

ومن أجل السلام يأمر الله المسلمين أن يعدوا من الأسلحة ومن آليات الحرب ما يرهبون به عدوهم حتى لا تُشَنَّ عليهم حربًا فيكون السلام.

أما الإرهاب بمعنى العدوان على الآمنين غير المحاربين من الأطفال والنساء والشيوخ فهذا عمل تخصص فيه الغربيون الذين استوطنوا بلاد المسلمين معظمها بعدما هدموا المنازل وقلعوا الأشجار وزرعوا الأرض ألغامًا قاتلة - لا يزال كثير منها باقيًا حتى اليوم يبعث الخطر وينشر الإرهاب، والإرهاب صناعة إسرائيل وأمريكا والغرب، والحديث فى ذلك ذو شجون وتقوم عليه مئات الشواهد والبراهين.

- وأما ما وضعوه من عقبات فى طريق الدعاة إلى الله والمتحركين بالدين الحق، فهى كثيرة أيضًا نذكر منها:

- التقليل من شأن الدعاة فى المجتمع، وتشويههم والتنفير من عملهم، وزعمهم أن الدعاة وُعَّاظ وأن الوعاظ ثقلاء وأن الوعظ منفر... وكل تلك أغاليط تدل على الجهل وعلى الرغبة فى التشويه بالباطل، ذلك أن الوعظ والعظة من أنبل الأعمال الإنسانية وأليقها بالإنسان؛ فقد عدَّ الله تعالى الوعظ نعمة منه على عباده، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقبول الوعظ دليل الإيمان بالله واليوم الآخر، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ووصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه موعظة فهل هناك أشرف وأنفع للناس من القرآن الكريم؟ قال الله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨][(١)].

– على أن الذين يقللون من شأن الموعظة يجهلون القرآن الكريم وما قرأوا فيه هذه الآيات، أو قرأوها ولم يتدبروا ما تدل عليه، وهم متأثرون بما هو شائع عن مواعظ رجال الدين فى الكنائس من أنها منفرة وغير مهتمة بحياة الناس، وآفتهم أن كل ما قيل فى الكنيسة يحاولون نقله إلينا دون وعى أو إدراك للأهداف الخبيثة.

– وأعداء الإسلام يحاربون المؤسسات العلمية والتعليمية التى تؤهل الدعاة للعمل بالدعوة إلى الله، وفى مقدمة هذه المؤسسات الأزهر، فالحرب موجهة إليه منذ زمن بعيد من أيام «كرومر» و«ويلككس» و«جب» وغيرهم، وقد أخذت هذه الحرب أشكالاً وأهدافًا، لا تخرج فى مجموعها عن الإلحاح على عزل الدين عن الحياة، وإفساد اللسان العربى، وإخمال لغة القرآن الكريم، ومن عجب أن أولياء أى لغة غير العربية لا يزالون يحاولون؛ لأن لهم رسالة هى حرب القرآن والسنة بحرب اللغة العربية.

والدعاة إلى الله يتعاملون مع القرآن والسنة ويشرفون باستخدام اللسان العربى فلابد أن يحاربوا، وأن يشنَّع عليهم أو يسخر منهم كل جاهل فقد ولاءه للغته ولدينه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

– ولقد ذهبت حكومات الظلم والاستبداد مع الدعاة مذهبًا يؤكد خلو عقولهم من الحكمة ويشى بخلو قلوبهم من الإيمان، فقد ضيقوا على الدعاة إلى الله وتابعوهم ورصدوا حركاتهم، وسجلوا كلماتهم وأحصوا عليهم أنفاسهم واعتقلوهم واتهموهم تهمًا باطلة، وقدموهم لمحاكمات استثنائية وعذبوهم وسجنوهم وسخروا منهم ومن كلام الله الذى يدعون به، وقال أحد طغاتهم الذى عينه الطاغية الأكبر قاضيًا مع أنه لا علم له بالقانون ولا بشىء من أصول المحاكمات، قال هذا الطاغية القاضى[(٢)] لأحد

---

(١) تعددت الآيات الكريمة التى وصفت الموعظة بأنها من الأعمال النبيلة النافعة كما فى الآية : ٦٦ من البقرة والآية : ٤٦ من المائدة، والآية: ٥٧ من يونس، والآية: ١٠ من هود، والآية : ٢٥ من النحل، وغيرها من الآيات الكريمة التى زادت فى عددها عن العشرين من الآيات الكريمة.

(٢) هو قاضى محكمة الثورة أو الشعب أو محكمة عبد الناصر جمال سالم أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

الدعاة ساخرًا منه ومن القرآن الكريم: أقرأ لى سورة الفاتحة بالمقلوب، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا ما تريده إسرائيل وأعداء الإسلام.

- ولقد شرد الدعاة وعزل بعضهم عن وظيفة الدعوة، ومن وظيفة التدريس وتحول إلى عمل إدارى لا قيمة له ولا وزن حتى لا يسمع الناس كلام الله تعالى، ولا كلام رسول الله ﷺ.

وكان جميع قضاة محكمة الثورة ومحكمة الشعب على غرار ذلك القاضى الذى فقد وعيه وعقله ودينه حين استهزأ بالداعية وبالقرآن الكريم.

ولقد داس قائد السجن الحربى بمصر أيام حكم عبد الناصر وكان اسمه : حمزة البسيونى، لقد داس بحذائه القرآن الكريم، وهدَّد الله تعالى وتوعَّده!!![1] فقتله الله شر قتلة فى حادث سيارة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

هـ- والضربة الموجهة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

لا يغيظ أعداءَ الإسلام شيء مثلما يغيظهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم يضيقون بالمعروف ويمارسون المنكرات فهو أمرٌ بما لا يحبون ونهى عما يشتهون، فإذا أضيف إلى ذلك أنهم أعداء للأمة الإسلامية فلابد أن يكرهوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنه جعل من الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس.

فماذا أعدوا لضرب «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»؟

- قالوا: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نصيحة وإرشاد، ويزعمون أن كل نصيحة وإرشاد ثقيل وبغيض إلى عقل المنصوح ونفسه، كما يزعمون أنه يأتى بنتائج عكسية ويولِّد عنادًا وإصرارًا على عدم الاستجابة!!!

وأقول لهؤلاء الحاقدين المتربصين بالأمة الإسلامية، الجاهلين - قطعًا - بالقرآن الكريم كتاب الله الخاتم الذى يهدى للتى هى أقوم، أقول لهم وللغافلين من المسلمين الذين استجابوا لباطلهم: إن الله تعالى سمى دعوة الرسل عليهم السلام نصيحة فى أكثر من آية قرآنية، كما فى قوله تعالى عن نبيه ورسوله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ

---

(١) هذه نماذج من الحكم الشمولى الاستبدادى الذى تكرر فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، ولا يزالون يضطهدون الدعاة إلى الله ويستبعدونهم من أى عمل لصالح الدين، ولكن ذلك لن يدوم ولن يطول، وتلك سنة الله فى دول الظلم.

وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ...﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢][1].

والنصيحة كالموعظة، وقد تحدثنا آنفًا عن مكانة الموعظة والوعظ فى حياة الناس، وبينا باطل هؤلاء الأعداء وما يزعمون، وحسبنا أن الرسول ﷺ كان يتخوَّل المؤمنين بالموعظة ما بين آن وآن!!!

- وضربة أخرى وجهوها للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى إغراقهم المجتمع الإسلامى بالشرور والآثام من خلال ما يزينونه للناس وييسرونه عليهم من مقارفة ما حرم الله كالزنا وشرب الخمر، وتعرية جسد المرأة وإظهار مفاتنها لإغراء الذين لا يغضون أبصارهم عما حرم الله تعالى، وكل تلك الشرور والآثام لا يرغبون أن يرتفع فيها صوت يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر.

ولقد أنكر الله تعالى على بنى إسرائيل عدم تناهيهم عن المنكر فى قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض...»**

- ولأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يغرس فى المجتمع الحياء من مقارفة الشر والمعصية مما يجعل المجتمع نظيفًا نقيًا؛ فإنهم حرصوا على ضرب الحياء ومحاربته فاعتبره بعضهم خجلاً وضعفًا، فشجعوا على القحة والتبجح بل التطاول، محاولين إنزال كل كبير صاحب منزلة اجتماعية عن منزلته فكتبوا فى ذلك القصص والمسرحيات للسينما والمسرح ونشروها كتبًا، تشجع على التمرد على كل سلطة، كالآباء والمعلمين وغيرهم، حتى لقد أصبح بعض الأبناء ينادون آباءهم وأمهاتهم بأسمائهم المجردة، فشاعت فى المجتمع هذه الصفات السيئة الهابطة أخلاقيًا، وبالتالى فقد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابيته وفاعليته، فتعطل بذلك ركن من أركان الدين، وهذا ما يطمحون إليه دائمًا.

---

(١) وردت النصيحة على لسان هود عليه السلام: الأعراف: ٦٨، كما وردت على لسان صالح عليه السلام: الأعراف: ٧٩ . كما وردت النصيحة على لسان شعيب عليه السلام : الأعراف : ٩٣. فقد وردت كلمة النصح على لسان نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

و- والضربة الموجهة إلى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا:

ونحن نعرف أن الجهاد فى سبيل الله تعالى درجات وأنواع ومراحل، ولكنه كله إذا مورس يضفى على الأمة الإسلامية المهابة والاحترام، ويؤمن لها السلام والأمان، ويجلب المصالح ويدفع المضارّ.

والأمة المسلمة - كما نعلم ذلك من ديننا علم اليقين - إذا تركت الجهاد فى سبيل الله ضعفت بل ذلّت، وتخلت عن عبادة فى ذروة سنام العبادات .

من أجل ذلك وجه أعداء الأمة الإسلامية للجهاد عدة ضربات تقوم كلها على التضليل والمفتريات، ومن ذلك:

- زعمهم أن الجهاد فى سبيل الله معناه إكراه الناس على الدخول فى الإسلام، وهو زعم يكذبه القرآن الكريم، وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال جل شأنه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولنا أن نتساءل: من الذين يكرهون الناس على ترك أديانهم والزراية بها؟

أليسوا هم القوات الأمريكية المتحالفة مع أذنابها الذين يجبرون المسلمين فى السجون والمعتقلات على العيب فى الإسلام وفى رسوله ﷺ؟ لا ندعى ذلك ولكن ننقله عن عديد من وكالات الأنباء والفضائيات باعتراف غير المسلمين بهذه الجرائم!!!

ألم تكره إسبانيا المسلمين على ترك دينهم؟

ألم يفعل ذلك من يسمون أنفسهم : مبشرين؟

ومن أقوى الأدلة على ذلك عقد مؤتمر فى شهر مايو من سنة ١٩٧٨م فى: «كولورادو» بالويات المتحدة الأمريكية جمع خبراء الكنائس الغربية، وكان هدف هذا المؤتمر هو تدارس خطة أكثر فاعلية فى تنصير جميع المسلمين، وطىّ صحيفة الإسلام من الوجود.

وقُدم فيه أكثر من أربعين بحثًا فى هذا الموضوع!!!

- وزعمهم أن الجهاد عنف وإرهاب!!! فمما لا ينتهى منه العجب؛ إذ هو من مغالطات الغرب ودوله المستوطنة لبلاد المسلمين المستغلة لخيراتها المحتلة لأرضها وسمائها، حيث يسمون مقاومة العدو المحتل عنفًا وإرهابًا!!!

مع أنهم الذين أقروا أن مقاومة المحتل حق مشروع لكنهم نسوا أن يقولوا: إنه حق مشروع لغير المسلمين!!! أليست هذه تفرقة عنصرية على أساس الدين؟ أليس هذا كيلا بمكيالين؟

أليس تناقضًا مع مواثيق هيئة الأمم المتحدة وإتفاقيات جنيف وما إليها؟

إن المقاومين يسامون سوء العذاب فى أفغانستان والعراق وفى الشيشان وأذربيجان وغيرها من بلاد المسلمين.

وماذا تسمى ما يحدث فى سجون أفغانستان والعراق والشيشان «وجوانتانامو» أليس هذا عنفًا وارهابًا؟

ماذا جرى للإنسانية على أيدى هؤلاء المتوحشين ممن يعيشون فى القرن الحادى والعشرين الميلادى؟

إنهم يزعمون أنهم من بنى الإنسان، مع أن ما يقومون به من تعذيب وإهدار للإنسانية تَعف عن فعله الوحوش لأنها تَعَف بفطرتها عن الاعتداءات الجنسية!!!

إن هذه الوحشية أصبحت قاسمًا مشتركًا بين اليهود والأمريكان والدول التى تحالفهم، وسلوا فلسطين وهيروشيما ونجازاكى يأتيكم الخبر اليقين.

ز- والضربة الموجهة ضد طريقة الإسلام فى احترام الآخر:

إن المجتمع الإسلامى يؤكد - من خلال قيمه ومبادئه - احترام الطرف الآخر من غير المسلمين، ويوجب الاستماع إليه وحواره ومجادلته بالتى هى أحسن، وذلك شأن الإسلام فى الفكر والثقافة والدعوة والحركة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى.

- وفى مواجهة هذه النزعة الإنسانية فى المجتمع الإسلامى حشد الأعداء من الأكاذيب والمفتريات ما ينفون به هذه الصفة عن المجتمع الإسلامى، فرددوا مزاعم عدة نذكر منها:

- زعمهم أن المسلمين متعصبون لدينهم ولا يعترفون بأهل الأديان الأخرى، ولا يتركونهم وما يدينون، ولا يستمعون إليهم ولا يعطونهم الحق فى التعبير عن آرائهم.... ولقد كذبوا والله فى كل ما زعموا، وقد كذبهم القرآن الكريم.

● أينا الذى لا يستمع لرأى الآخر؟

أهو المسلم المطالب بأن يُسمع الآخر كلام الله ويحسن عرضه عليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن؟ أم ذلك الذى يحتل بجيوشه وآلته العسكرية الفتاكة بلاد المسلمين ويحرمهم من حق الدفاع عن النفس؟

● ومن المتعصب؟

أهو الذى ينادى بقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴾ [الحجرات: ١٣].

أم الذى يدعى أنه شعب الله المختار ومبعوث العناية الإلهية الصهيومسيحى؟

أم هذا الذى يكره المسلم الأسير لديه على الارتداد عن دينه، ويأمره بسبِّ دينه والإشادة بدين المستوطن الغاصب؟

- وزعمهم أن المسلمين متطرفون - أى يتجاوزون حدود الاعتدال فى التعامل مع الطرف الآخر!!!

ولقد كذبوا، وكذبهم القرآن الكريم فى قوله تعالى عن الأمة الإسلامية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكيف يوصف أبناء هذه الأمة بالتطرف؟ وهم المكلفون بأن يكونوا مقررى الحق بين الناس والشهداء عليهم.

وأين هذا الزعم من الواقع الذى عاشته الأمة الإسلامية تحكمه دعوة الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن؟

وأين هذا الزعم من تعامل المسلمين مع أهل الكتاب يهودًا ونصارى بالجدال بالتى هى أحسن استجابة لأمر الله تعالى فى قوله سبحانه مخاطبًا المسلمين: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إن اتهام المسلمين بالتطرف لا يختلف فى شذوذه وكذبه عن اتهامهم بالإرهاب إن هم قاوموا من يحتل بلادهم!!!

● ولابد أن نسأل: من المتطرفون؟ أهم المسلمون؟ أم الذين يحتلون بلاد المسلمين بجيوشهم ويفتنونهم عن دينهم، ويسومونهم سوء العذاب؟

أهم المسلمون؟

أم الذين يستعملون حق النقض فى مجلس الأمن كلما أصدر قرارًا يمس مطامعهم وشراهتهم أو يدين وحشيتهم وسيطرتهم العسكرية والسياسية والاقتصادية على البلاد والعباد؟

الخطر الثانى: اليهود أو الصهيونيون:

● اليهود هم أبناء يهوذا، ويسمون أيضًا: «العبرانيين» أو الإسرائيليين نسبة إلى أسباط إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وديانتهم أقدم الأديان التى قالت بالتوحيد.

ويقولون - كذلك - إن الله خلق إسرائيل من نسل إبراهيم عليه السلام ليكون شعبه المختار.

● والصهيونيون نسبة إلى جبل صهيون فى الجنوب الغربى من القدس، وهو جبل مقدَّس عندهم يحجون إليه هاتفين: «رنموا للرب الساكن فى صهيون»!!!

والصهيونية حركة عنصرية دينية استيطانية إجلائية مرتبطة «بالإمبريالية» العالمية - أى السياسة القومية التى تهدف إلى التوسع بضم أراض ومستعمرات للدولة.

أولاً: أهداف اليهود أو الصهيونية:

● الحركة الصهيونية تسعى بكل طاقاتها إلى توطين اليهود وتجميعهم، وجلبهم من أطراف الدنيا إلى فلسطين؛ لإقامة وطن لهم فيها وطرد أهلها منها.

وقد ساعد اليهودَ على ذلك كثير من حكام الغرب وحكوماته وبخاصة بريطانيا، وعلى الأخص:

- «بالمرستويد» رئيس وزراء بريطانيا الذى دعا إلى جلب اليهود إلى فلسطين فى عام ١٨٤٠م.

- و«بلفور» وزير خارجية بريطانيا الذى وعد اليهود بمعاونتهم على إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين عام ١٩١٧م.

● وبالنسبة لنا - معشر المسلمين - فإن اليهود والصهيونيين يضمرون لنا ألد العداء، كما يضمرونه لمن ليسوا يهودًا؛ لاقتناعهم بأنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم من الشعوب أقل درجة منهم ويجب أن يكونوا فى خدمة شعب الله المختار!!!

- وتاريخ اليهودية فى عداء المسيحية والإسلام عريق وذو أبعاد ذات جذور ممتدة فى أعماق التاريخ.

- فمع المسيحية بدأ عداؤهم فى حياة المسيح عليه السلام، كذبوه وكادوا له، وأجمعوا على قتله، ولكن صانه الله من القتل ورفعه إليه.

ثم استمر عداؤهم للمسيحية قرونًا استمرت حتى يومنا هذا، والمسيحيون يعرفون ذلك إلا الغافلون الذين خدعوا فى الصهيومسيحية.

ولقد عانى الغربيون من عداء اليهود لهم، وقامت على ذلك مئات الشواهد والبراهين، ومنها:

- ثورة الإسبان على اليهود واضطهادهم.
- ومحاولات كثير من دول أوروبا التخلص منهم بتهجيرهم إلى أمريكا منذ اكتشافها.
- وتهجيرهم إلى روسيا - الاتحاد السوفيتى سابقًا - وروسيا أرثوذكسية.
- وتحدى ألمانيا النازية لهم.
- وتحدى إيطاليا الفاشية لهم.
- وما صَوَّت به عقلاء الأوربيين ومفكروهم فى عام ٢٠٠٤م من أن اليهود هم مصدر الخطر على العالم، بل أهم مصادر الخطر على العالم.

- ونحن هنا لا يعنينا الحديث عن عداء اليهود للغرب بقدر ما يعنينا الحديث عن عدائهم للمسلمين، حيث أصبح اليهود أو إسرائيل أو الصهيونية ألدَّ أعداء المسلمين، وهم مِن قَبْلُ ألَدّ أعداء الإسلام منذ حياة النبى الخاتم ﷺ، وإلى أن اغتصبوا فلسطين وشردوا أهلها منذ منتصف القرن العشرين الميلادى بتأييد من دول الغرب والشرق وأمريكا بالذات.

ولنذكر بعض الشواهد على هذا العداء:

- تآمروا على قتل النبى ﷺ أكثر من مرة.
- ونقضوا عهده ﷺ معهم أكثر من مرة.
- وتآمروا على الإسلام والمسلمين فى عهد عثمان رضى الله عنه وحركوا الثائرين عليه، وكان منهم يهود متنكرون يزعمون أنهم مسلمون.
- وتآمروا ما وسعهم طوال مدة خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وفتنوا الناس عن دينهم، وعن طاعة إمامهم وساعدوا على تكوين المارقين على الخلافة وعلى الإمام على رضى الله عنه.

- وعملوا على شق وحدة المسلمين وتمزيق صفوفهم طوال حكم بنى أمية أى أكثر من تسعين عامًا لا يفترون عن الدَّس والإيقاع بين المسلمين من جانب وبين المسلمين وأعدائهم من جانب آخر.

- وزاد نفوذهم فى عهد بنى العباس، وعملوا ما وسعهم على إضعاف دولتهم وانشقاق بعض أطرافها عنها.

- وكانوا وراء أحداث الحروب الصليبية ضد المسلمين طوال قرنين من الزمان من سنة ٤٩٢هـ إلى ٦٩١هـ .

- وتآمروا على دولة الخلافة العثمانية وألبوا عليها دول أوروبا وروسيا، وجاءوا بنصف يهودى[١] هو مصطفى كمال ليسقط دولة الخلافة بمعونة من الغرب والشرق حتى أسقطها وتحولت على يده إلى جمهورية كان هو أول رئيس لها، وعداؤه للإسلام لا ينكره ولا يجهله إلا غافل أو جاهل.

- وتسربوا إلى مراكز اتخاذ القرار فى أوربا، فكان منهم رؤساء الوزراء والوزراء، ورجال المال والأعمال، وجندوا ذلك كله لحرب الإسلام والمسلمين.

- وتسربوا إلى بلدان العالمين العربى والإسلامى فعاشوا فيها مستشارين ورجال أعمال وتجارًا وأصحاب مصارف، ولقد رأيت نفوذهم فى أكثر من بلد إسلامى وأكثر من بلد عربى.

- والمستشرقون منهم أنشط المستشرقين وأشدهم ضراوة فى عداء الإسلام والمسلمين، وأكثرهم تزويرًا وتشويهًا للإسلام بدسّ المفتريات والأباطيل، وأسماؤهم معروفة[٢].

ثانيًا: خطة اليهود فى معاداة الإسلام والمسلمين:

- ولليهود خطة معاصرة فى عداء الإسلام والمسلمين، ونشير إلى بعض خطوطها فيما يلى:

- يتبنوْن دعوة عنصرية وحركة استيطانية؛ تستهدف إجلاء الفلسطينيين عن أرضهم فلسطين ليستولى عليها اليهود.

- ويتحالفون مع الامبريالية «وهى ظاهرة اقتصادية سياسية عسكرية تقوم على التوسع وفرض السيطرة على شعوب وأراض أجنبية، مستخدمة العنف والحرب والاحتلال

---

(١) نصف يهودى تعبير يعنى أنه من أب مسلم وأم يهودية من يهود الدونمة.

(٢) انظر لنا فى التعريف بالمستشرقين الخطرين: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام - نشر دار المنار بالقاهرة.

العسكرى، تحالفًا غير شريف فتستخدمهم الامبريالية لصالحها ويستخدمون هم الامبريالية لصالحهم، وكل ذلك على حساب الشعوب الضعيفة.

● لكن هناك فرق بين الامبريالية والصهيونية هو :

- أن الامبريالية يسبقها الاستشراق والموجات السكانية المستوطنة.

- والصهيونية يسبقها الاستشراق أيضًا وموجات الهجرة إلى فلسطين.

- وأن «الامبريالية» لا يعنيها الدين ولا تقيم له وزنًا بل تستبعده عن الحياة وتعزله فى الكنيسة بل تحبسه فيها.

- والصهيونية تدعى أن الدين الذى بين أيديهم يشتمل على نصوص تساندهم فى أعمالهم الخبيثة الظالمة.

● وتتفق الامبريالية والصهيونية فى أمور منها:

- الاستيطان الجبرى.

- واستغلال حاجة المحتاجين بإلجائهم إلى الاستدانة.

- وسوء استغلال الشعوب الضعيفة، وخصوصًا غير المتقدمة علميًا وثقافيًا.

- وإضمار العداء الشديد للعالمين العربى والإسلامى، وكثيرًا ما يكون البدء بالقوات «الأمبريالية» ليصل اليهود من بعد ذلك إلى مناطق النفود واتخاذ القرار ثم يتقاسمون المكاسب والربويات بغير خجل.

● وما من بلد إسلامى وقع فريسة للاستيطان الغربى أو الروسى إلا وكان اليهود بعض ركائزه الاقتصادية والسياسية لأنهم يتقاسمون ما يستولون عليه من خيرات تلك البلاد التى استوطنوها، وأكبر دليل على ذلك ما جرى ويجرى فى العراق بعد احتلاله واستيطان أمريكا وحلفائها له، حيث أصبح لليهود فى العراق نفوذ اقتصادى ملحوظ، وبكل تأكيد لهم نفوذ سياسى تمثله قوات أمريكا، لأننا ما عدنا نفرق بين اليهود والأمريكان فى خبث النوايا نحو الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: أشكال الصهيونية وتياراتها:

تتشكل اليهودية أو الصهيونية فى أشكال عديدة، وتحكمها تيارات أكثر تعددًا، وذلك التعدد يكاد يكون هدفًا لديهم، ولا غرابة فى ذلك فإنهم عمومًا وصوليون لا يثبتون على مبدأ ولا يستقرون على نظام إلا ريثما يغيرونه.

وسوف نتعرض هنا لشكلين من أشكال الصهيونية يلفتان النظر ويثيران العجب والدهشة، وهما:

الصهيونيون التنقيحيون:

وهؤلاء يقولون بضرورة الصهيونية وتأكيد التوجه إليها والاهتمام بها، وسبب ذلك عندهم أمران:

الأول: فشل اليهود أو اليهودية فى الاندماج فى الشعوب غير اليهودية، وهذا يهدد بالعزلة، فلابد من اعتماد أسلوب الصهيونية للبحث عن أهداف سياسية جديدة.

والآخر: قوة تيار معاداة السامية - أى اليهودية المنسوبة إلى سام بن نوح عليه السلام- فكان اختراع الصهيونية بديلا عن السامية المكروهة التى يلعنها بعض الناس، مع التباكى المستمر من اليهود على ما يلاقونه من عنصرية تكيد لساميتهم وتتربص بها الدوائر.

- لذلك لجأ اليهود إلى الصهيونية حركة سياسية تردّ على هذا الفشل فى الاندماج بالشعوب الأخرى، وترد على العنصرية التى تعادى السامية.

- واليهود التنقيحيون كذبة فى الادعاءين، لأن عدم اندماجهم فى الشعوب غير اليهودية هم السبب فيه؛ بصفاتهم التى تنفر الناس منهم، ولو أرادوا الاندماج بغير اليهود لأعدوا له عدته، ولقللوا من غلوائهم فى تلك الصفات المأثورة عنهم، فالعيب فيهم لا فى الناس من غير اليهود.

وكان الأجدر بالتنقيحيين أن يقولوا نريد حركة سياسية اقتصادية استيطانية تقوم على طرد أصحاب الأرض من أرضهم، ليحلوا هم محلهم.

- واليهود التنقيحيون كذبة أيضا فى ادعائهم عنصرية العالم ضد السامية؛ إذ الساميون ليسوا اليهود أو العبرانيين وحدهم لأن المصطلح يتناول شعوبا عديدة منها:

- العرب.
- والأكاديون من قدماء البابليين والآشوريين.
- والكنعانيون وهم: الأموريون، والمؤابيون، والأدوميون، والعمونيون، والفنيقيون.
- والقبائل الأرامية المختلفة - وفيها العبرانيون - اليهود.
- وجزء كبير من سكان أثيوبيا.

وهذه الشعوب جميعًا تربط بينهم اللغة السامية، كما يربط بينهم التشابه الجسدى، ومظاهر الحضارة.

- فالأصل فيمن يعادى السامية أى يعادى كل هذه الشعوب، أما قصر معاداة السامية على اليهود وحدهم، فهو ادعاء ينقصه الدليل.

لكن معاداة السامية تعبير يستعمله اليهود ليظهروا فى صورة المضطهدين الذين يرغبون فى أخذ ثمن هذا الاضطهاد!!

- والحق أن اليهود هم أسوأ عنصريين على مستوى العالم، فهم الذين يتعصبون ضد غيرهم بسبب وبغير سبب، وهم الذين يستحلون أموال غير اليهود وأعراضهم وأملاكهم، ولا عجب فقد حكى عنهم القرآن الكريم بأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أى يظلمونهم ولا يؤاخذهم دينهم الذى يزعمون، ولا حاجة عندئذ إلى الرد على هذه العنصرية ومعاداة السامية بإنشاء حركة صهيونية، لأن الصهيونية مهما جملوها فقد أدانتها هيئة الأمم المتحدة، فى قرارها الذى صدر فى خريف عام ١٩٧٥م، واعتبر الصهيونية حركة عنصرية، وطالب المجتمع الدولى أن يتعامل معها على هذا الأساس.

- ولَمْ يُعانِ أحد من سموم الصهيونية مثل ما عانى العالم العربى باحتلال الصهيونيين لفلسطين وطرد أهلها منها، وقتلهم فى مجازر عديدة بأسلحة الغرب عام ١٩٤٨م، حيث قتلوا الناس وحرقوا الأرض وعاثوا فسادًا بأكثر مما يفعل المتوحشون!!

ولقد ازداد النفوذ اليهودى أو الصهيونى فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وتمثل هذا النفوذ فى الاقتصاد بصورة كبيرة، فكثير من السلع المتداولة فى العالم الإسلامى إسرائيلية تختبىء وراء إغفال بلد الصنع للسلعة أو الخدمة، أو تتوارى وراء صناعتها فى بلدان موالية لها دون إعلان عنها.

ولقد ازدادت ضراوة الصهيونية وتجردها من المبادئ الإنسانية، حتى شعر بعض الصهاينة بذلك ورأوا فيه تعقيدا لمشكلة إسرائيل نفسها وعجزها عن أن تكون مقبولة فى العالم، حتى قال أحد أبرز الزعماء فى المنظمة الصهيونية العالمية فى نهاية السبعينيات من القرن العشرين، قال: إن التخلى عن الصهيونية أصبح واجبًا من أجل المشكلة الإسرائيلية.

وشكل آخر من الصهيونية يعتبر المستوطنين اليهود رُوَّادًا إذْ يسعون للسيطرة على الأرض الفلسطينية وطرد سكانها العرب منها!!

ومن أبرز من نادى بذلك: «جابوتنسكى» الذى يرى من الضرورى أن تحصل الصهيونية على مظلة «إمبريالية» فدعا إلى التعاون فى ذلك مع بريطانيا، وفى الوقت نفسه اتصل بالزعيم الإيطالى «موسولينى» من أجل الغرض نفسه، الأمر الذى أدى إلى أن يبدى «موسولينى» إعجابه بهذا الفاشىِّ الصهيونى.

وهذا الفاشى الصهيونى العنصرى نادى هو وأتباعه بضرورة بناء قوة عسكرية صهيونية كبيرة لغزو فلسطين وبناء الدولة الصهيونية بالقوة وبعون من الإمبريالية العالمية، وهذا الذى حدث بالفعل وقامت الدولة بترحيب إمبريالى فاشى شيوعى عام ١٩٤٨م.

● وقد تولدت عن هذه الأفكار الصهيونية الاستيطانية أحزاب وتيارات رأت وجوب التزاوج مع «الإمبريالية» العالمية فى اتخاذ العنف والأساليب الفاشية فى عداء العرب والمسلمين.

ومن هذه التيارات والأشكال:

- الصهيونية «الراديكالية».
- والصهيونية الدينية.
- والصهيونية التنقيحية[١].
- والصهيونية الثقافية أو الروحية.
- والصهيونية التوفيقية.
- والصهيونية السياسية.
- والصهيونية العمالية أو الاشتراكية.
- والصهيونية العمومية.
- والصهيونية العملية.
- والصهيونية «الكولدينالية».

● وهذه التيارات أو الأشكال للصهيونية تضمر الشر والحقد لكل ما هو عربى أو إسلامى، وما يحتاج ذلك إلى دليل أو برهان أقوى مما فعلته إسرائيل ولا تزال تفعله فى فلسطين

(١) يمثلها حزب «حيروت» اليمنى بقيادة بيجن -سابقا- وشارون الآن وذلك داخل إسرائيل، ويمثله فى خارج إسرائيل حزب «حيروت هاتزوهار».

بشرًا وأرضًا وشجرًا؛ إبادة وتجريفًا وقطعًا وإتلافًا، وهدمًا للمنازل على سكانها بأسلحة الغرب وأمريكا، وبأموال أمريكا ونفوذها فى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة.

● ولقد أصبح اليهود يستطيعون الوصول إلى أى بلد إسلامى وإحكام السيطرة على سياسته واقتصاده من خلال نفوذ أمريكا وقوتها السياسية والاقتصادية.

إن الولايات المتحدة الأمريكية تخطط -من زمن إقامة إسرائيل فى فلسطين المحتلة- لكى تحاصر فى كل حين بلدًا عربيًا أو إسلاميًا ثم تفرض عليه عقوبات اقتصادية يوافق عليها مجلس الأمن ثم تذهب لاحتلاله بالقوات العسكرية المتحالفة معها ضد كل ما هو عربى أو إسلامى، وأمريكا بذلك تنقل نفوذ اليهود إلى ذلك البلد العربى أو الإسلامى، ثم تطلق يد اليهود فى ذلك البلد، ولا يملك مجلس الأمن أن يدين إسرائيل فى جرائمها ضد الإنسانية، لأن أمريكا تحميها بحق نقض أى قرار يصدره مجلس الأمن.

وما دخل اليهود بلدًا عربيًا أو مسلمًا إلا وضعوا فيه بذور الفرقة والانقسام والنزاعات العرقية، وهذا المخطط مستمر بتأييد أمريكا والغرب واتحاد روسيا.

وما أيسر على أمريكا أن تقيم القواعد العسكرية فى أى بلد عربى لحماية أمن إسرائيل ومصالحها أولاً وأخيرًا، حتى لقد أصبح لإسرائيل من خلال أمريكا نفوذ فى كل مجال من المجالات التعليمية والإعلامية والثقافية، والزراعية والصناعية والعلمية والعسكرية، إنها تستطيع أن تضرب أى بلد عربى وتحتل أرضه والعالم يسمع ويرى ويقف مكتوفًا، رغبة فى أمريكا أو رهبة منها ومن نفوذها المخيف.

وما سمعت صوتًا لأمريكا فى هيئة الأمم المتحدة وجميع مؤسساتها إلا أيقنت أن إسرائيل هى التى تتحدث!!

لكن ذلك لن يدوم، لأن المنطق يقول: دوام الحال من المحال، وغدًا تصبح أمريكا وإسرائيل والدول المتحالفة ضد العرب والمسلمين أخبارًا تروى، ويتصدرها الفعل: «كان..» وهذا ليس إغراقا فى التخيل ولكنه حلم وأمنية، وعدالة سماوية تأخذ على يد الظالم ولو بعد حين...

الخطر الثالث: المستوطنون الجدد:

المستوطنون الجدد، هم الذين ورثوا مطامع المستوطنين القدامى وورثوا تنكرهم لمبادئ حقوق الإنسان التى فى مقدمتها:

حق تقرير المصير واختيار أسلوب الحكم.

وحق مقاومة المحتل حتى يجلو عن الأرض.

وحق الاستفادة من الموارد الطبيعية وغيرها فى بلده.

وحق قتال من يقاتله، ومسالمة من يسالمه.

وحق التمتع بالحريات فى إطار الشرعية.

والمستوطنون جميعًا قدامى ومحدثين يقوم استيطانهم لبلاد غيرهم على انتهاك هذه الحقوق، يفعلون هذا على الرغم من توقيعهم على ميثاق هيئة الأمم المتحدة[1] الذى يؤكد:

- حفظ السلم والأمن الدولى، بالوسائل السلمية.

- وإنماء العلاقات الدولية بين الأمم على أساس حق تقرير المصير.

- والمساواة بين الشعوب دون تمييز جنسى أو دينى أو غيره.

- وتحقيق التعاون الدولى على حل المسائل الدولية الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية.

- وتقرير احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية دون تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين.

- ومن العجيب المثير للدهشة أن تُقَر هذه الحقوق ويجاورها إقرار حق خمس دول فى نقض أى قرار للأمم المتحدة هى: أمريكا والاتحاد السوفيتى -سابقا- وبريطانيا وفرنسا والصين.

- وهؤلاء المستوطنون الجدد -مصطلح عقدى- أعنى به كل مستوطن لبلد غيره بقوة السلاح سواء أخرج الناس من البلد الذى استوطنه أو أبقاهم مغلوبين على أمرهم.

وهؤلاء المستوطنون الجدد -هم فى الحقيقة- عدد من البلدان الغربية التى لها ماض غير مشرف فى احتلال بلاد الآخرين بالقوات العسكرية أو باصطناع الفتن والثورات فيها، طمعًا فى مقدراتها الاقتصادية والاستراتيجية، بحجة أوهى من خيوط العنكبوت هى تطوير هذه البلاد أو تعميرها أو تمكينها من الحياة الديموقراطية!! أو الادعاء بحماية هذا البلد أو الوصاية عليه..

---

(١) أول من فكر فى إنشاء هذه الهيئة هم أعتى الدول المستوطنة بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفيتى -السابق-.

وفى مقدمة هذه الدول المستوطنة:

بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا وألمانيا، والبرتغال وإسبانيا، وعلى رأس هذه الدول دولتان ضربتا المثل فى الاستيطان الغاشم هى: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى سابقا أو الروس الآن.

ولابد من كلمة عن المستوطنين القدامى نمهد بها للحديث عن المستوطنين الجدد.

أولا: قدامى المستوطنين:

وهم الذين احتلوا بلاد الآخرين منذ القرن الخامس الهجرى الثانى عشر الميلادى، فيما أطلقوا عليه «الحروب الصليبية» التى احتلوا فيها بيت المقدس وأقاموا عددًا من الممالك بين تركيا والقدس مرورا بسوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

- ثم قامت بريطانيا- المستوطنة الأم - بأكثر من حيلة لاستعمار الهند عن طريق النشاط التجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية منذ عام ١٦٠٠م؛ حيث أقامت عددًا من المراكز التجارية فى مدن هندية عديدة مثل: مدراس، وكلكتا وبومباى.

ثم أخذت بريطانيا تعمل على تفكيك أوصال الإمبراطورية المغولية المسلمة فى الهند، وشجعت كثيرًا من الأمراء الإقطاعيين فى الهند على التمرد على الحكومة، وعلى تنامى الصراع والتناحر فيما بينهم أى اتباع سياسة: «فرِّق تَسُد» التى اخترعوها.

- وما إن جاء القرن السابع عشر الميلادى حتى أصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية قوة اقتصادية حاكمة تقف وراءها الحكومة البريطانية بجنودها وأساطيلها، ثم لم يمض إلا زمن يسير، وتمكنت بريطانيا من السيطرة التامة على الهند كلها، فى القرن الثامن عشر الميلادى.

- وفى القرن التاسع عشر الميلادى امتد نفوذ بريطانيا واتسعتْ رقعة استيطانها لبلاد غيرها، فضمت إليها:

سيلان، وموريشيوس، وبورما، وبالوستان، وعَدَن، ثم عقدت معاهدات لوضع إمارات الخليج تحت الحماية.

- ولم تكن بريطانيا وحدها هى المستوطنة القديمة، وإنما كان إلى جوارها «فرنسا» التى احتلت ميناء «كانتون» فى الصين، وقد أيدتها فى هذا الاحتلال المستوطنة الجديدة

أمريكا، وقد كان ميناء «كانتون» مستعمرة بريطانية إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، ثم تحررت فى حرب طاحنة.

وقد تعاون المستعمرون القدامى بريطانيا وفرنسا، مع أمريكا التى كانت تتوق إلى الاستيطان، تعاونوا على أن يفرضوا على الصين معاهدة: «تيان تسين» التى فتح بمقتضاها للأجانب أحد عشر ميناء، مع منح الأجانب امتيازات قضائية عديدة!!

- وفى إفريقيا تنافس المستوطنون القدامى على تجارة الرقيق، فبزَّتهم جميعًا بريطانيا التى كانت تصيد الأفارقة كما تصاد الحيوانات، ثم تشحنهم فى أماكن الحيوانات فى السفن متوجهة بهم إلى عديد من مستوطناتها.

واتخذت بريطانيا من «سيراليون» مركزًا لتجارة الرقيق، وأقاموا مستوطنة تساعدهم على ذلك فى جزيرة على نهر جامبيا سنة ١٦٦١م.

وتوسعت بريطانيا فى تجارة العبيد، وصدرتهم إلى أمريكا وإلى جزر الهند الغربية للعمل في هذه المستوطنات دون مقابل، ثم تعلمت أمريكا فيما بعد تجارة الرقيق بنفس أسلوب بريطانيا، لكنها فاقتها فى عدد ما تصيد، وباعتهم ليصبحوا أقنانًا للأرض هم ومَنْ ينجبون من ذرية، ولم تتوقف أمريكا عن اصطياد الأفارقة وتحويلهم إلى أقنان إلا بعد ذلك بعشرات السنين عندما صدر قرار بتحريم تجارة العبيد.

- وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى دخلت فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها فى منافسة مع بريطانيا فى استعمار إفريقيا.

- وفى وسط إفريقية استطاع المستوطنون البريطانيون أن يقيموا مستعمرتى: روديسيا الجنوبية، والشمالية.

وبعد أن امتد نشاط المبشرين البريطانيين إلى ما حول بحيرة «نياسا»، حولت بريطانيا هذه المنطقة إلى وسط إفريقية ثم سموها «نياسا لاند».

- ثم دخلت ألمانيا وفرنسا فى تنافس مع بريطانيا، حيث عقدوا فيما بينهم معاهدة أو اتفاقية سنة ١٨٨٦م، جاء فى بنودها:

- أن يتحول شرق إفريقية إلى منطقة نفوذ بين بريطانيا وألمانيا، تستولى بريطانيا على «كينيا» فى الشمال.

وتستولى ألمانيا على «تنزانيا» و«ورواندا وبوروندى» فى الجنوب وأن تطلق يد فرنسا فى جزيرة «مدغشقر».

- ثم اتجه المستوطنون البريطانيون القدامى إلى أعالى النيل حيث مهَّد لذلك المبشرون، ثم التجار.

وعلى طريقة بريطانيا أثارت الفتن بين الممالك الأربع الموجودة فى أعالى النيل، وظلت بين تلك الممالك الفتن، وتقوى هذه على حساب تلك، حتى ضعفت كل مملكة نتيجة لهذه الحروب، ثم استولت بريطانيا على الممالك الأربع جميعا، فى محمية، «أوغندا».

- ثم اتجه المستوطنون البريطانيون إلى غرب إفريقية فكان لهم هناك «سيراليون» منذ سنة ١٦٧٨م، ثم انسلوا إلى ساحل الذهب «غانا».

وقد نافسهم فى ذلك مستوطنون قدامى هم الفرنسيون، والهولنديون.

- ثم امتد نفوذ بريطانيا إلى «لاجوس» فى البداية، ثم استولت على نيجيريا كلها بمقاطعاتها الثلاث، وأطلقوا عليها محمية «نيجيريا» سنة ١٩١٤م.

- ثم احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م بقوة عسكرية، وبحجة واهية.

ثم امتدّ نفوذ بريطانيا إلى السودان سنة ١٨٩٩م بقوات احتلال مكونة من بريطانيا ومصر، لتذكى نار الخلاف والفرقة بين مصر والسودان - وقد حدث ذلك فعلا(١).

● ومثل ما فعلت بريطانيا فى إفريقيا فعلت فرنسا، فاحتلت الجزائر سنة ١٨٣٠م ثم أدعت أن الجزائر أرض فرنسية!!، ثم توغلت فى إفريقيا فى عدد من بلدانها.

ولا نهاية للحديث عن المستوطنين القدامى، وإنما قدمنا فكرة موجزة عنهم نستطيع فى نهايتها أن نقول: إن المستوطنين القدامى قد استوطنوا معظم بلدان العالمين العربى والإسلامى فى آسيا وإفريقية تاركين بلدا إسلاميا فى أوربا لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى.

● على أنَّ للاتحاد السوفيتى سابقا واتحاد روسيا الآن -بعد سقوطه المدوى بأيدى أبنائه بعد أن انكشف لهم زيفه وكفروا بأكاذيبه وشعاراته، فانهار سنة ١٩٨٩م- ولهذا

(١) وذلك هو نفس الأسلوب الذى اتبعته أمريكا المحتلة للعراق حيث هاجمت النجف بقوات أمريكية عراقية، وكذلك فعلت فى الفلوجة، كل ذلك شهرى يوليو وأغسطس ٢٠٠٤م بعد تسليم السلطة للعراقيين الأمريكان إياد علاوى وزملائه!!

الاتحاد السوفيتي السابق يد طولى في الاستيطان، فقد احتل بقواته العسكرية ست جمهوريات إسلامية هي:

أذربيجان.

وأزبكستان.

وتركمانستان.

وطاجكستان.

وكازاخستان.

وقرقيزيا.

وكان استيطانهم أشد ضراوة وأمر مذاقًا، وأكثر إذلالاً وامتهانا لأهل هذه الجمهوريات، ومع هذا الإرهاب وتلك القسوة استطاعوا اصطناع من يَولّونهم على هذا الظلم والاستبداد من أهل هذه الجمهوريات.

- وكذلك فعل الاتحاد السوفيتي في الشيشان ولا يزال اتحاد روسيا يفعل بالشيشان ما تشيب لهوله الولدان.

والعالم الذى يسمى نفسه حرًا وينشىء هيئة الأمم المتحدة يكتفى بأن يستمتع برؤية المعذبين من المسلمين!

- ثم امتدَّ نفوذ الاتحاد السوفيتي -السابق- إلى كثير من بلدان العالم العربى يصدر إليها الشيوعية والاشتراكية ويحارب الإسلام والمسلمين، ويصطنع له أولياء وأصدقاء حتى اتسع نفوذه، فسيطر من خلال الحكومات الموالية له فى العالم الإسلامى على الإعلام وأجهزته ووسائله، ولا يزال هذا الجهاز فى أيديهم حتى يومنا يفرز فى كل يوم سمومًا تحاول اقتلاع الإسلام من نفوس المسلمين، وعلى الرغم من سقوطه المدوى المخزى عام ١٩٨٩م، لم يمنع ذلك من بقاء أتباعه وأذنابه من السيطرة على وسائل الإعلام فى كثير من بلدان العالم العربى والعالم الإسلامى حتى يومنا هذا ما بعد منتصف عام ٢٠٠٤م!!!.

ثانيا: المستوطنون الجدد:

وفى مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية.

في مجال سرد أسماء هؤلاء المستوطنين الجدد لمعرفتهم، وعدم الوقوع في شرك ادعائهم الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان وحرياته؛ لأن أعمالهم تناقض دعاواهم، نقول: هؤلاء المستوطنون الجدد هم:

- بريطانيا.
- وفرنسا.
- وإيطاليا.
- وهولندا.
- وبلجيكا.
- وإسبانيا.
- والبرتغال.
- وألمانيا.
- وإسرائيل.
- والولايات المتحدة الأمريكية التي فاقت كل هؤلاء.

● هذه الدول العشر لها في استيطان البلدان الإسلامية والعربية تاريخ حافل بالأحداث المفجعة الموجعة التي تسمع وترى، ولا يمكن أن تعد من التفسير التآمري الذي تلوكه ألسنة من يصرون على عدم السماع وعدم الرؤية، بل يصرون على تعطيل الحواس.

● ولقد صرحت بعض هذه الدول على ألسنة المسئولين فيها بل أكبر مسئوليها بأنها تضمر شرًا للإسلام والمسلمين، ووصفت الإسلام - وهو الدين السماوي الخاتم الذي يتدين به اليوم أكثر من ألف وخمسمائة مليون إنسان -وصَفَتْه بصفات لا يمكن لمسلم يفهم دينه أن يصف بها اليهودية أو المسيحية لأنها أديان سماوية -لكن عقليات المستوطنين وقيمهم الخلقية سمحتْ لهم بإطلاق هذه الأوصاف على الإسلام ابتداءً من وصفه بأنه دين التعصب ومرورًا بأنه دين الإرهاب والتطرف والعنف، وانتهاء بأنه دين هضم حقوق الإنسان عموما والمرأة والطفل على وجه الخصوص، بل دين قمع المجتمع المدني وإهدار حقوقه!!

ولعل تصريحات هؤلاء المسئولين الكبار فى تلك الدول المستوطنة ينفى تمامًا القول بأى تفسير تآمرى يلجأ إليه بعض المسلمين.

● ولو أردنا أن نتحدث عن كل دولة من هذه الدول العشر بنبذة يسيرة عن أعمالها الاستيطانية الظالمة أو غير الإنسانية فى بلد واحد من بلاد المسلمين لما وسعتنا مئات الصفحات، ولأعجزنا البحث عن إدانة تلك الدول بكلمات مسئوليها وأعمالهم، لكن ذلك ليس من أهدافنا فى هذا الكتاب، وإنما هدفنا فى هذا المجال أن نوضح بعض الأخطار التى تهدد المجتمع الإسلامى، ومنها خطر المستوطنين لبلدان العالم الإسلامى.

أ- بريطانيا «كبيرة الاستيطان»:

● غير أنى سوف أكتفى فى الحديث عن بريطانيا عميدة الاستيطان قديمًا ووسيطًا وحديثًا، بمجرد سرد أسماء البلدان الإسلامية التى استوطنتها، فسامتها سوء العذاب فى حاضرها ومستقبلها، مما لا تزال تعانى من آثاره بل سوف تظل فى هذه المعاناة.

إنها بلاد استوطنتها بريطانيا بالاحتلال والسيطرة ثم ضمتها إليها ضمًا فيما عرف عندها «بالكومنولث» أى «الرابطة بين بريطانيا ومستعمراتها السابقة»، وتلك البلاد هى:

فى إفريقيا:

أوغندا، وبروناى، وسيراليون، وجامبيا، وغويانا، وغينيا، والنيجر، ونيجيريا.

وفى آسيا.

بنجلادش، وسريلانكا، وماليزيا.

ودول كانت مستوطنة لبريطانيا وتحت سيطرتها، ولكنها رفضت الانضمام إلى الكومنولث وهى:

السودان والصومال، والكميرون الجنوبى، فى إفريقيا، وباكستان واليمن الديمقراطية -سابقا- فى آسيا.

فهذه سبع عشرة دولة إسلامية من سبع وخمسين دولة أى ما يقرب من ثلث العالم الإسلامى ترزح تحت نير بريطانيا وحدها!! فتستغل مالها ورجالها وتمزق وحدتها.

أما سائر بلدان العالم الإسلامى السبع والخمسين فهى تحت سيطرة هذه الدول الاستيطانية العشر التى ذكرنا سواء أكانت سيطرة منظورة أو غير منظورة.

● ولا تزال بريطانيا تتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية فى العدوان السافر على أى بلد عربى أو إسلامى ترى أمريكا مصلحة لها فى استيطانه كما حدث فى:

فلسطين بزرع إسرائيل فيها.

وأفغانستان.

والعراق.

والسودان فى جنوبه وغربه.

- إن بريطانيا تفعل مع أمريكا ما يفعله التابع مع متبوعه فتسير وفق خطتها وهواها عندما تريد أمريكا أن تفرض عقوبات على أى بلد إسلامى فى العالم وبخاصة إيران وباكستان وليبيا.

ولقد ثبت إيران على مبدئها وتحملت ولا تزال تتحمل هذه العقوبات المادية والمعنوية دون أن تستسلم لمخططات أمريكا وتابعتها بريطانيا.

أما باكستان فتراجعت أمام الضغوط الأمريكية الهائلة، وقبلت أن تحارب فى صف أمريكا وحلفائها ضد أفغانستان المسلمة!! فساعدت على احتلالها وإسقاط حكومة طالبان.

وأما ليبيا فتخلتْ فجأة عن موقفها لَمَّا رأت ما حاق بالعراق فأعطت لأمريكا أكثر مما تطمع فيه وأكثر مما كانت تأمله!!

وما ينتظر سوريا ولبنان والسعودية من شر على يد أمريكا لابد أن تتابعها فى ذلك الدول الحليفة لها وفى مقدمتها بريطانيا وربما بعض بلاد المسلمين!!

ب- عميدة المستوطنين الجدد.

الولايات المتحدة الأمريكية:

الولايات المتحدة الأمريكية وليدة الصراع الفرنسى الإنجليزى فى أمريكا الشمالية، ثم تدرجت الصراعات، فنشب صراع إنجليزى أمريكى فى السنوات العشر من ١٧٦٤ - ١٧٧٤م، فاستطاعت ثلاث عشرة ولاية أمريكية شمالية أن توحد سياستها ضد الحكومة البريطانية وتشريعاتها الاستعمارية.

ثم قادت هذه الولايات الثلاث عشرة حربًا تحريرية ضد بريطانيا انتهت بالتوقيع على

معـاهدة «فرساى» فى سبتمبر سنة ١٧٨٣م ، وإعلان الاستقلال، وانتخاب أول رئيس للجمهورية «جورج واشنطن»[1].

ثم قام اتحاد «فيدرالى» سنة ١٧٨٧م ضم جميع الولايات المتحدة الأمريكية الآن.

ثم استطاعت دول أمريكا اللاتينية (القسمان الأوسط والجنوبى) من القارة الأمريكية أن تستقل.

– وأصبح عدد بلدان القارة الأمريكية أربعا وعشرين دولة هى من الشمال إلى الجنوب.

كندا، والولايات المتحدة الأمريكية (أمريكا الشمالية)، والمكسيك، وجواتيمالا، وهندوراس، وسان سلفادور، ونيكاراجوا، وكوستاريكا، وبنما (أمريكا الوسطى)، وكولومبيا، وفنزويلا، وإكوادور، والبرازيل، وبيرو، وبولونيا، وباراجواى، والأرجنتين، وأوروجواى، والتشيلى، وكوبا، والدومينكان، وبورتريكو – وهذا الثلاثة الأخيرة جزر يضمها أرخبيل الأنتيل – وهايتى، وجامايكا.

– وفى القرن التاسع عشر الميلادى فشلت أمريكا اللاتينية فى أن تحدث بين شعوبها أى اتحاد أو وحدة، ولم تستطع أن تطبق مبدأ «مونرو»: «أمريكا للأمريكيين»، بينما نجحت فى ذلك أى نجاح الولايات المتحدة الأمريكية التى استطاعت أن توسع رقعتها –أى تستوطن– فتضم إليها قناة بنما بمعاهدة ١٩٠٣م، كما استطاعت أن تستغل الظروف السيئة التى تعيشها أمريكا اللاتينية، فتحكمت بالمصارف والشركات التجارية التابعة لها فى اقتصاد أمريكا اللاتينية ثم فى سياستها، حتى إنها كانت تتدخل فى السياسة الخاصة بها، وفى تحديد عدد أفراد الجيش وتدريبه وتسليحه، وفى شكل الإدارة وعملها.

---

(١) كان يطلق على أمريكا اسم العالم الجديد لأنها اكتشفت فى سنة ١٤٩٢م ثم تدفق إليها الإسبان والبرتغاليون وظهرت المنافسة بينهما بشكل حادّ، مما دفع البابا اسكندر السادس أن يعقد مؤتمرًا عام ١٤٩٣م فى روما –وكان للكنيسة سيطرة على أوربا كلها– حدَّد فيه الحدود التى يجب أن تفصل بين الإسبان والبرتغاليين فى أمريكا.

ثم تدفق على شمال أمريكا الإنجليز والفرنسيون – وكان معظمهم من المضطهدين أو المنبوذين في بلادهم بل كان منهم من أدين فى جرائم وحكم عليهم – فاستقروا فيها متنافسين أيضا.

وقد تركز نفوذ الفرنسيين فى الشمال (كندا) وتركز نفوذ الإنجليز فى الجنوب (والولايات المتحدة الأمريكية)، وكان ذلك ابتداء من عام ١٥٨٧م.

ومنذ ذلك الحين أطلق على قسمى أمريكا الجنوبى والأوسط أمريكا اللاتينية، كما أطلق على قسمها الشمالى –أمريكا الشمالية– اسم أمريكا الأنجلو سكسونية.

وفى القرن الثامن عشر الميلادى بدأ الصراع الفرنسى الإنجليزى فى أمريكا الشمالية، لينتهى بسيطرة الإنجليز على معظم المناطق الشمالية.

- وفى القرن العشرين الميلادى أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تظهر على المسرح الدولى بشكل قوى، بينما أخذت أمريكا اللاتينية تنكمش وتنعزل نظراً لتحكم الشركات والمصارف التابعة للولايات المتحدة فيها وفى مقدراتها، بل فى حاضرها ومستقبلها.

- ولما شاركت الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧م، رجحتْ كفة حلفائها.

- ولما شاركت فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م انتصر الحلفاء بها وبأسلحتها الفتاكة وبخاصة القنابل النووية، فقد ألقت على اليابان قنبلتين نوويتين على «هيروشيما ونجازاكى» فأنهت الحرب هذه النهاية المأساوية المتوحشة.

وبعد الحرب العالمية الثانية قفزت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مقدمة الدول وزاد نفوذها وتحكمها فى معظم دول العالم فاتجهت إلى عقد الأحلاف والمعاهدات تكبل بها من تريد من الدول لصالحها، مثل:

- حلف الأطلسى.
- وحلف بغداد.
- معاهدة جنوبى غرب آسيا.

- ثم ازداد عنفوانها فاشتطت، وأخذت تتدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى، فأصبحت بجدارة المركز الدولى الاستيطانى على مستوى العالم، واكتسحت بذلك تلك الدول الاستيطانية التسع التى ذكرنا.

- ويضاف لها إلى العمل الاستيطانى البغيض أنها قامت بأعمال تدل على تأصلها فى الشراهة والأنانية والتحكم والقسوة.

ومن هذه الأعمال:

- عملت بكل طاقاتها على إقامة دولة لإسرائيل على أرض فلسطين، ولا تزال تؤيدها فى عدوانها على الفلسطينيين وهدم منازلهم وقلع أشجارهم وتسميم مياههم وتكسير عظامهم، مستعملة حق النقض إذا ما أدان مجلس الأمن إسرائيل على أى من جرائمها فى حق الإنسانية.
- وقاومت الولايات المتحدة الثورة الصينية ما وسعها.
- وقاومت الثورة الكورية، وتحدتها.

- وقاومت الثورة الفيتنامية، وقاتلتها قتالا.

- وورثت فرنسا التي استوطنت الهند الصينية فاستولت عليها وأدخلتها مناطق نفوذها.

- وتدخلت تدخلا سافرا ذا أهداف خبيثة فى كثير من بلدان إفريقية، فربطتها بأحلاف كبلتها بها، لكى تحقق من خلال ذلك مصالحها.

- وقادت الحرب ضد حركات التحرر الوطنى فى معظم بلدان العالم فى أوربا وآسيا وإفريقية، وأصبحت كداء السرطان الذى ينتشر فى الجسد فيقضى عليه غدًا أو بعد غد.

- وسادتها الرغبة فى السيطرة على العالم بأسره فأصبح مجلس نوابها أو شيوخها يصدر قرارات عن كل بلاد العالم!! كأن الذين انتخبوا هؤلاء الأعضاء هم سكان العالم كله!!

- وزادت مطامعها فى أى مقدرات اقتصادية لأى دولة من دول العالم، سواء فى ذلك النفط أو المعادن أو الثروات الزراعية أو المواد الخام، أو غير ذلك مما يغرى أصحاب الأطماع واللصوص، ويبرر لهم العدوان.

● ولست أتجنى فيما أقول على الولايات المتحدة الأمريكية أو أبالغ، وإنما أفعل ما يتحدث به تاريخ أمريكا قديمًا وحديثًا وأسجل بعض ما قامت به فى خلال القرن العشرين إلى اليوم.

- وأول ما أسجل أن عداء الولايات المتحدة الأمريكية للعالمين العربى والإسلامى ليس بدعًا ولا مستغربًا منها؛ لأنها على وجه الحقيقة تعادى غير العرب وغير المسلمين عندما تكون لها أدنى مصلحة، وهى فى هذا العداء تحركها غرائز الناس المفطورين على الاستيطان والاستغلال والطمع والأنانية.

ومصداق ذلك أن أمريكا ارتكبت من الجرائم فى حق كثير من دول العالم ما لا يمكن أن تنكره أو تتنصل منه، لأنها كثيرًا ما تتبجح بعدوانها على الآخرين.

● ومن هذه الأمثلة إشارات سريعة إلى عدوانها بل احتلالها بالقوة العسكرية لكثير من بلدان العالم مثل:

١- «الدومينكان»: وجهت مشاة البحرية الأمريكية إلى الدومينكان للقضاء على الانتفاضة هناك، فلماذا؟ ثم احتلت الدومينكان احتلالاً عسكريًا استمر ثمانى سنوات.

وفى مايو ١٩٦٥ قـرر الرئيس الأمريكى جونسون احـتلال عاصمـة الدومينكان إلى أجل غير مسمى.

٢- كوريا الشـمالية: فى يونيو ١٩٥٠م تدخلـت الولايات المتحدة الأمريكيـة عسكريًا ضد كـوريا الشمالية لصـالح كوريا الجنوبية، وضـغطت على كوريا الشماليـة حتى أجبرتها على توقيع اتفاق لصالح كوريا.

٣- اليونان: فى عام ١٩٤٩م أشعلت الولايات المتحدة الأمريكية حربًا أهلية فى اليونان ذهب ضحيـتها أكثر من مائة وخـمسين ألفًا من البشر، ثم عـينت حكومة عسكرية فـيهـا، وأوعزت إليـها بسـجن أربعيـن ألفًا من الناس وإعـدام ستـة آلاف بأحكام عسكرية.

وقد قـال السفـير الأمريكـى الأسبق فى اليونـان: «ماكويج»: إن جـميع الأعـمال التأديبية والتكتيكية الكبيرة التى قـامت بها الحكومة العسكرية اليونانية فى الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٩م كانت مصدقة ومهيأة من واشنطن مباشرة.

٤- كوبا: فى مارس ١٩٥٢م دعمت الولايات المتحدة الأمـريكية قيام انقلاب عسكرى ضد الحكم الجمهورى فى كوبا بقيادة «الجنرال باتستا» واستولوا على السلطة وفرضوا على البلاد حكمًا عسكريًا ديكتاتوريًا مرتبطًا بها.

وفى فـبراير ١٩٦١م حـاولت غزو كـوبا عن طريق بعض المنفـيين الكوبيـين الذين تساندهم الطائرات الأمريكية، فشنوا معركة خليج الخنازير لكنها انتهت بالفشل.

وحتى لا أستطرد فإن أمريكا تدخلت وعادت واحتلت وسيطرت على دول أخرى غير ما ذكرنا هى:

- جواتيمالا: فى يونيو ١٩٦٤م.
- ولاوس: سنة ١٩٦٤م.
- وفيتنام: يوليو ١٩٦٤م، حيث قتلوا أربعين ألفًا من البشر.
- وكمبوديا: فى أبريل ١٩٧٠م.
- وشيلى: فى سبتمبر ١٩٧٣، قامت بانقلاب عسكرى،وقتلت: «سلفادر الليندى».
- وجزر سيشل: فى نوفمبر ١٩٨١م.

- وجرينادا: فى أكتوبر ١٩٨٣م.

- ونيكاراجوا: فى أبريل ١٩٨٤م.

- وهندوراس: فى أبريل ١٩٨٤م.

- وبنما: فى مارس ١٩٨٨م.

● وإذا كنا ذكرنا هذه الأمثلة -وهى قليلة- فى عدوان أمريكا على بلدان كثيرة فى العالم؛ لأنها تعتبر نفسها سيدة العالم وفوق قوانينه ومواثيقه وأعرافه - تمامًا كما تفعل إسرائيل حذوكَ النَّعْل بالنعل- فإن عدوانها على العالمين العربى والإسلامى لا يستغرب، لأن لها من وراء هذا العدوان أهدافًا ونوايا تريد أن تعبر عنها، ومن ذلك:

- كراهيتها للإسلام والمسلمين لأسباب عنصرية تمييزية واضحة على ألسنة إداراتهم وبعض رؤسائهم.

- ومطامعها فى المقدرات الاقتصادية فى العالم الإسلامى وهى كثيرة ومتنوعة وفى مقدمتها النفط.

- وتكبرها وغرورها، وتصنيفها العالم الإسلامى بأنه متخلف رجعى متعصب، متطرف إرهابى، مادام يقاوم احتلالهم لبلاده، وتلك صفات أمريكا وإسرائيل عند التدقيق.

- والخوف من أن تقوم للمسلمين قائمة فيصبحوا قوة كما كانوا سابقًا وذلك أقصى ما يزعجهم، كأن العالم المترامى الأطراف الذى ذخر الله تعالى فيه الخيرات والأقوات لا يتسع إلا لهم وحدهم بغض النظر عن أصحابه الشرعيين!!.

- وخوفهم من أن يُتْرك الإسلام بغير تحدٍّ وحرب، فيصبح بمنهجه ومبادئه ونظامه دين البشرية كلها، إذ يدخل الناس فيه أفواجًا إقبالاً عليه وإعجابًا بقيمه وثوابته.

● من أجل هذه الأسباب أو الهواجس لا يتوقف عداء الولايات المتحدة للعالمين العربى والإسلامى على مدى الزمان ومع تعدد المكان.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، مثل:

١- السعودية ودول إنتاج النفط فى العالم العربى:

● ففى يونيو سنة ١٩٣٣م أخذت أمريكا حق امتياز التنقيب عن النفط فى شبه الجزيرة العربية وحق تكريره وبيعه فى اتفاقية ظالمة غير متكافئة، ولم تستطع السعودية الرفض.

وفى سبتمبر ١٩٤٥م قرر الرئيس الأمريكى ترومان بناء قاعدة جوية عسكرية لأمريكا فى الظهران، ولم تستطع السعودية الرفض.

- وفى سبتمبر ١٩٧٥م قرر الرئيس الأمريكى «نيكسون» حظر استخدام النفط فى أغراض سياسية، بعد أن كان الملك فيصل رحمه الله قد حظره على الغرب أثناء الحرب مع إسرائيل ١٩٧٣م.
- وفى عام ١٩٧٥م وضع «الكونجرس» «برلمان» العالم على الرغم من العالم خطة لاحتلال آبار النفط فى دول الخليج.
- وفى أكتوبر ١٩٧٧م أعلن وزير الطاقة الأمريكى آنذاك أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تحمى مصادر النفط فى الشرق الأوسط بالقوة العسكرية.
- وفى ديسمبر ١٩٧٩م أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن تسيير حملة عسكرية جوية وسفن حربية للوصول إلى مدخل الخليج.
- وفى ديسمبر ١٩٧٩م تجمعت فى بحر عمان أضخم قوة بحرية أمريكية منذ الحرب العالمية الثانية.
- وفى مايو ١٩٨٤م أبلغ الرئيس الأمريكى «ريجان» الأمير فهد بن عبد العزيز أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تقوم بعمل عسكرى لحماية ناقلات النفط فى الخليج، وأنه على السعودية أن تعطى لأمريكا حق العمل من القواعد السعودية.
- وفى يونيو ١٩٨٧م انضمت حاملة الطائرات الأمريكية «ساراتوجا» وأربع عشرة سفينة حربية إلى الأسطول الأمريكى فى الخليج.
- وفى يونيو ١٩٨٧م عززت أمريكا أسطولها فى الخليج بست سفن حربية أخرى تقودها بارجة ضخمة.

٢- الدول الإسلامية فى شرق العالم العربى:

أ- باكستان:

فى عام ١٩٩٠م أوقفت الولايات المتحدة الأمريكية عن باكستان كل القروض، وفرضت حولها حصارًا اقتصاديًا، للاشتباه فى أنها تطور أسلحة نووية -وذلك لصالح إسرائيل التى تملك وحدها ترسانة أسلحة نووية بمعونة أمريكا، والعالم كله يعرف ذلك ويسكت. وأغرت

أمريكا الهند بشن الاعتداءات على باكستان ولما استطاعت باكستان إنتاج قنبلة نووية حاصرتها أمريكا سياسيًا ثم أغرقتها فى مستنقع الحرب ضد أفغانستان لصالح أمريكا.

ب- وأندونيسيا:

وهى دولة مسلمة تتكون من ثلاثة آلاف جزيرة ويسكنها مائتا مليون إنسان أو يزيد، تنتج عديدًا من المواد كالذهب والقصدير والمنجنيز، والفضة، والنحاس والزنك، وكثيرًا من المنتجات الزراعية.

وقد ساعدت أمريكا على قيام انقلاب عسكرى فيها بقيادة سوهارتو الذى أرغم سوكارنو على التخلى عن الحكم، وقتل واعتقل وشرد مئات الآلاف بل فاق عددهم المليون، بدعم من أمريكا وتأييد.

جـ- وإيران :

وقد دبرت فيها أمريكا انقلابًا ضد مصدق لمساندة الشاه، ثم استطاعت أن تدخل إيران حلف بغداد سنة ١٩٥٥م.

وعندما قامت الثورة الإسلامية تحركت أمريكا ضدها بكل قوة.

- فجمدت ودائع إيران فى المصارف الأمريكية وحرمت منها الثورة الإسلامية وكان ذلك فى نوفمبر ١٩٧٩م بعد قيام الثورة بأشهر.
- وفى ديسمبر ١٩٧٩م أبعدت أمريكا الدبلوماسيين الإيرانيين.
- وفى مارس ١٩٨٠م زادت أمريكا عدد سفنها العسكرية فى سواحل إيران على ثلاثين.
- وفى إبريل ١٩٨٠ قامت مجموعة «دلتا» من القوات الخاصة الأمريكية بالعدوان على إيران بحجة تحرير الرهائن الأمريكيين، وكانت هذه العملية إشارة لقيام عملاء أمريكا بانقلاب لصالح الشاه، ولكن كل ذلك باء بالفشل.
- وفى أغسطس ١٩٨١م دبرت أمريكا لأحد قادة الجيش الإيرانى أيام الشاه سرقة سفينة الحراسة التى بنيت لإيران، بل قامت أمريكا فى أبريل ١٩٨٨م بتدمير رصيفين نفطيين عائمين لإيران فى جنوب الخليج، وأغرقت ثلاث سفن حربية إيرانية وأصابت فرقاطتين.
- وفى يوليو ١٩٨٨م أسقطت وحدات الأسطول الأمريكى فى الخليج طائرة ركاب مدنية إيرانية مات فيها مائتان وثمانية وتسعون راكبًا مدنيًا.

وفى أغسطس ١٩٩٦م أصدر الرئيس «كلينتون» قانون «دماتو» الذى يفرض عقوبات على الشركات النفطية الأجنبية التى تستثمر فى إيران أو ليبيا أكثر من أربعين مليون دولار سنويًا.

- وفى عام ١٩٩٦م أنشأت أمريكا صندوقًا بمبالغ كبيرة لزعزعة نظام الحكم الإسلامى فى إيران.

د- وسوريا:

- فى مارس ١٩٤٩م دبرت ونفذت وكالة المخابرات الأمريكية فى سوريا انقلابًا بقيادة حسنى الزعيم، الذى استولى على الحكم فتمرد على أمريكا فدبرت ضده انقلابًا بمجموعة من ضباط الجيش السورى وحاصروا بيته وقتلوه.
- وفى أبريل ١٩٨٦م هدد «ريجان» الرئيس الأمريكى بضرب سوريا وإيران إذا ثبت أنهما تحميان الإرهاب.
- وفى نوفمبر ١٩٨٦م فرض «ريجان» مجموعة من العقوبات الاقتصادية ضد سوريا بزعمه أنها تؤيد الإرهاب.

ومن الواضح أن كل ذلك لصالح إسرائيل.

هـ- ولبنان:

- وفى ١٥ يوليو ١٩٥٨م احتلت الولايات المتحدة الأمريكية لبنان عسكريًا، لتأييد حركة كميل شمعون، على أثر قيام الانقلاب العراقى اليوم السابق ١٤/٧/١٩٥٨م.
- وفى ٨ يوليو ١٩٨٢م وصلت قطع الأسطول السادس الأمريكية إلى مسافة أقل من خمسين كيلو مترًا من السواحل اللبنانية، لمساندة القوات الإسرائيلية التى غزت لبنان قبل ذلك بشهر، خشية أن تتغلب عليها المقاومة اللبنانية.

و- وليبيا:

- فى أغسطس ١٩٨١م قامت طائرات الأسطول السادس الأمريكى فى خليج سرت بإسقاط طائرتى حراسة ليبيتين.
- وفى فبراير ١٩٨٢م اتخذت أمريكا قرارًا بمقاطعة البترول الليبى، وحظر بيع المعدات النفطية والإلكترونية لليبيا.

● وفى يناير ١٩٨٦م فرضت أمريكا عقـوبات اقتصادية على ليبيا، وأنهت مـعها العلاقات الاقتصادية تمامًا.

● وفى مارس ١٩٨٦م أغرقت أمريكا سفينة حراسة ليبية وقصفت قاعدة صواريخ سام «٥» ودمرت سفينتين أخريين.

ز- تشاد:

● فى يونيو ١٩٨٢م تمكنت أمـريكا من إيصال عمـيلها «حسين حـبرى» إلى الحكم، الذى حكم تشاد حكمًا ديكتاتوريًا ملأه بالقتلى والمنكَّل بهم والمسجونين والمعتقلين.

● وكان ذلك لصالح إسـرائيل من جانب بسبب قطع تشاد للعلاقـة مع إسرائيل من جانب ولكيد ليبيا والسودان من جانب آخر.

ح- ومصر:

● لأمريكا مع مـصر جولات طويلة وعـداوات من أجل دعم إسرائيل، وادعاء صـداقات، ولها مناوشات أيام اتجهت الحكومات المصرية إلى المعسكر الـشيوعى، ومناوشات مستمرة مـستـترة حـينًا وظاهرة حينًا، وكل ذلـك لصالح إسـرائيل من جانب ولضـرب الحركـة الإسلامية فيها من جانب آخر.

● وأمريكا على الدوام تـؤيد إسرائيل ضد مـصر فى الحرب وفى مـعاهدة «كامب ديفـيد» وبعدهمـا، وحتى اليـوم وتعلن ذلك ببجـاحة وتدعى صـداقة مصـر وكثيـر من البلدان العربية!!

ط- وفلسطين:

● مهـدت أمريكا والغـرب وبخاصـة بريطانيا لقـيام دولة إسـرائيل على أرض فلسطين فى مخطط محبوك الأطراف حتى قامت إسرائيل سنة ١٩٤٨م.

● واستمرت تدعم إسرائيل سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا إلى اليوم، وكل ذلك ضد فلسطين والفلسطينيين حاضرها ومستقبلها.

● ولا تستطيع أمريكا أن تخرج عن إرادة إسرائيل فى النظر إلى القضية الفلسطينية لأسباب ليست خـافية عـلى أحد سواء أكـانت هذه الأسباب عـائدة إلى أعضاء مـجلسى النواب والشيوخ اليـهود أو عائدة إلى مجموعـة الشركات والمصارف والمؤسسات الإعـلامية التى يملك معظمها اليهود، الذين يختارون الرئيس الأمريكى واقعيًا.

● وتعجب أمريكا بجرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين فتمدها بما تشاء من أسلحة فتاكة ودعم اقتصادى وسياسى وعسكرى، وترفض إدانتها على هذه الجرائم، أما قتل يهودى واحد فتقوم له قيامة أمريكا وتسميه إرهابًا وعنفًا وتدينه، وترفض الحكومة الفلسطينية المنتخبة لأنها لم تمنع مقاومة المحتل.

● وتدعى أمريكا أنها تعمل على حل النزاع الفلسطينى الإسرائيلى، وهى تعلم أنها كاذبة مؤيدة لتوسع إسرائيل على حساب أرض فلسطين، مخادعة العالم كله بما فيه العالم العربى وفلسطين بما تقترحه من حلول، لأنها حلول فى صالح إسرائيل وحدها.

● وموقف أمريكا المتحيز من فلسطين يجعلنى أطرح سؤالين:

أحدهما: هل تعتبر إسرائيل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية فى فلسطين؟

والآخر: هل تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية امتدادًا لدولة إسرائيل فى أمريكا؟

ى- والعراق:

● تحاول الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن من يومنا هذا أن تجعل من العراق بيئة صالحة لما وصل إليه اليوم من الضياع والانهيار واحتلال الأرض والنفط والمياه والسماء، تحقيقًا لأهدافها فى السيطرة على نفط العالم العربى من جانب، ودعمًا لإسرائيل وتأمينًا لها فى الحاضر والمستقبل من جانب آخر.

● ولقد خدعت أمريكا صدَّامًا أكثر من مرة لصالحها ولصالح إضعاف العالمين الإسلامى والعربى، وتبديد ثرواتها وقتل رجالها، مما لم يَعُد خافيًا على أحد.

- فقد أغرته بحرب إيران بعد قيام الثورة الإسلامية فيها وأشعلت بوساطة عملائها وأصدقائها نار الحرب ثمانى سنوات أتت على مقدرات البلدين.

- وأغرته بالاستيلاء على الكويت، فلما اجتاحها أخرجته منها مذؤومًا مدحورًا بعد أن وضعت قدمها وقواعدها فى الكويت وفى دول الخليج، وتصرف الأمريكان فى جنود العراق الذين أسروا فى الكويت على نحو ما تصرفوا مع رجال المقاومة العراقية -بعد احتلال العراق- فى سجن أبى غريب.

● وجرائم الأمريكان فى العراق فاقت كل تصور لمعاداة الإنسانية، فعدد القتلى والجرحى والأسرى فى إخراج العراق من الكويت ومهاجمة العراق، وعدد المساكن التى دمرت

ومحطات الكهرباء الرئيسية والفرعية والمدارس ورياض الأطفال، ودور الرعاية والمشافى والمراكز الصحية والاجتماعية، والملاجئ، حصرت فبلغت أعدادًا كبيرة تفوق التصور فى حرب كانت تستهدف إخراج العراق من الكويت فقط.

● وحرمت أمريكا على العراق تحليق طائراته فى سمائه، وحرمته من الدواء ومن الغذاء، فألحقت بالعراقيين أبلغ الضرر، وظل الأمر كذلك إلى العشرين من مارس سنة ٢٠٠٣م حيث توجهت القوات الأمريكية وحلفاؤها لاحتلال العراق وإبادة إمكاناته البشرية والمادية فاستعملت في تلك الحرب أشد الأسلحة الفتاكة المحرمة دوليًا، ولم تعبأ بهيئة الأمم المتحدة، ولا بمجلس الأمن ولا بالرأى العام العالمى، وارتكبت جرائم الحرب كلها دون خوف من رقيب أو حسيب.

ك- وأفغانستان:

للولايات المتحدة الأمريكية مع أفغانستان موقف يؤكد أن لسان حال أمريكا هو: «مصلحتها المادية ولو على حساب الإنسانية» فقد كانت أفغانستان ترزح تحت الاحتلال الروسى، فأعانتها أمريكا على التخلص من هذا الاحتلال ليس حبًا فى أفغانستان وإنما طمعًا فى نفط بحر قزوين، وإضعافًا لنفوذ الاتحاد السوفيتى؛ فكانت أمريكا تأمر أتباعها وأذنابها بمعاونة أفغانستان بالمال والرجال والسلاح، بل كانت تيسر التدريب لمن أراد التدريب على السلاح.

والعالم كله رأى ذلك وأحسه، فلما هزم الاتحاد السوفيتى على أيدى المقاومين الإسلاميين الذين اعتبرت أمريكا مقاومتهم للمحتل حقًا مشروعًا، على حين أصبحت نفس مقاومة المحتل غير مشروعة بل اعتبرت إرهابًا عندما احتلت أمريكا أفغانستان فى ٧ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م، وكان هجوم أمريكا وحلفائها على أفغانستان غير مبرر ولا متكافئ ولا موضع اتفاق بين دول العالم، وكان يحرك أمريكا إلى هذه الحرب الهجوم على مركزى التجارة العالميين ووزارة الدفاع فى أمريكا، وهو مبرر لم تقم عليه حتى الآن أدلة مقنعة.

● وما فعلته القوات الأمريكية وما لا تزال تفعله فى أفغانستان فاق كل وصف بل كل خيال، وتجاوز الوحشية بمراحل.

وكان عدوان أمريكا على أفغانستان فرصة لاختلال المعايير واعتلال الموازين، وقلب الحقائق.

- وجرائم على مستوى العالم كله وليس العالمين الإسلامى والعربى كثيرة معروفة [1].
- وحقد الولايات المتحدة الأمريكية على الإسلام والمسلمين لا يحتاج إلى دليل، ففى العشرين من يناير سنة ١٩٧٩م طلبتْ الحكومة الأمريكية من وكالة المخابرات الأمريكية إعداد دراسة شاملة حول الحركات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم!!

ثم نتساءل: لماذا تحارب حكومات العالمين الإسلامى والعربى كل حركة إسلامية، وتعاملها معاملة المجرمين، حتى لو لم ترتكب أى جريمة؟

وبعد:

فإن موقف الولايات المتحدة الأمريكية من العالم الإسلامى ومن الإسلام نفسه - على هذا النحو الذى أوضحنا - يجب أن يتصدى له المجتمع الإسلامى بكل هيئاته ومؤسساته وتجمعاته المدنية بالشرح والتحليل، والتعليم والتنوير ليكون أبناء العالم الإسلامى على علم بأعدائهم وأوليائهم، فيعاملوا كلا منهم بما يوجبه عليهم الإسلام من التعامل.

وهدف المجتمع الإسلامى أن يؤمن حاضر أبنائه ومستقبلهم عندما يكونون على حذر من العدو وعلى مقربة وتعاون مع الصديق، دون أن ينخدع أبناء العالم بالشعارات والكلمات الجوفاء عن الحرية وحقوق الإنسان ومقاومة التمييز بين الناس على أساس الجنس أو الدين أو اللغة.

إن تلك الدول الخادعة بشعارات الحرية هى -كما أوضحنا- التى تستعبد الناس وتجرهم من أعناقهم بسلاسل الكلاب كما شاهدنا فى سجن أبى غريب بالعراق على أيدى جنود أمريكا بلد الحرية وحقوق الإنسان!!!

إن المجتمع الإسلامى وهو ينشر التربية الإسلامية بين أبنائه إنما يعلمهم المحافظة على أنفسهم وعلى الناس جميعًا موفورى الكرامة الإنسانية، لأن الإسلام هو هذا الدين.

جـ- الاتحاد السوفيتى السابق والاتحاد الروسى الآن وليد الفكر اليهودى الاستيطانى:

واضع اللبنات الأولى للفكر الشيوعى ثم الاشتراكى هو: «كارل ماركس» (١٨١٨-١٨٨٢) وهو يهودى سيطر عليه الصراع الذى افترضه بين الطبقات، ومنذ إعلان الاتحاد

---

(١) بلغت هذه الجرائم الأمريكية أكثر من مائة جريمة فى القرن العشرين وحده -كما وردت فى «المعلومات» التى تصدرها جريدة «الأهرام» فى أبريل ومايو سنة ٢٠٠٣م.
وجمعتُ أنا منها أكثر من ثلاثين جريمة ضد العرب والمسلمين فى كتابى: التربية الإسلامية فى المدرسة، ص(٣٥٠) نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ٢٠٠٤م.

السوفيتى عـام ١٩١٧م، قامت دولته على القضاء على النظام القـيصرى الذى كلف الناس مئات الألوف من القتلى والجرحى والمشوهين فى عملية وحشية لا يشجع على القيام بها إلا اليهود.

- والاتحاد السوفيتى السابق أو الروسى الآن لابد أن يعادى الإسلام والمسلمين، بل يعادى كل دين، لأنه نظام ينكر الخالق والكتب السماوية، ولا يحترم الرسل ويصفهم بما لا يليق.

- والاتحاد السوفـيتى السابق من المستـوطنين الجدد، لأنه احتل واستـوطن عددًا من البلدان الإسلامية بقوة السلاح، وخدعها بما أسماه الحكم الذاتى وبتسميتها جمهوريات احتفظت بنسبتها إلى الأعراق التى تنتمى إليها، مثل:

١- جمهورية أذربيجان:

وهى تضم ثمـانية ملايين ونصف المليـون من الناس[1]، معظمـهم من المسلمين، لأن الإسلام دخـلها فى زمن مـبكر جدًا فى سنة ٢٢ هجـرية الموافق ٦٤٤م، وقـد ضمـها الاتحاد السوفيتى إلى نظامه سنة ١٩٣٦م أثناء حكم: «سـتالين» الحاكم الدموى المستبد، وسماها: جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفيتية.

وقد حـرم المسلمين فيهـا من ممارسة العبـادات الإسلامية حـتى أداء الصلوات، وصادر المصاحف وجرم امتلاكها، ومنع الحج مطلقًا، وكان المسلمون إذا صلوا يصلون سرًا بعد أن يضعوا رجالاً يراقبونهم من رجال الحزب الحاكم الملحد الذى يحرم الصلاة.

٢- وجمهورية كازاخستان أو قازاخستان:

وعدد سكانها أكثر من خمسة عشر مليونًا، أغلبهم من المسلمين[2]، وقد دخلها الإسلام ودخل ما جاورها من البلاد فى زمن مبكر أيضًا، فى سنة ٢٨ هـ-٦٥٠م.

واستولى عليها الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٣٦م أيضًـا وفى عهد «ستالين» الحاكم المستبد، الذى زاد على تحريم أداء العبادات الإسلامية أن نفى عددًا كـبيرًا من مسلمى كازاخستان إلى سيبـيريا، وجلب إلى كازاخستـان عددًا من الأكرانيين، ومن الروس ليـستوطنوها، بحيث جعل نسبة المسلمين لا تزيد على خمسة وسبعين فى كل مائة ، وهم كانوا أغلبية تزيد على التسعين فى كل مائة.

---

(١) حسب إحصاء هيئة الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٣م.

(٢) المرجع السابق.

٣- وجمهورية أوزبكستان:

ويبلغ عدد سكانها ستة وعشرين مليونًا جميعهم من المسلمين[١]. وهى مجموعة من الإمارات الإسلامية المعروفة، مثل:

وبُخارى، وسمرقند، وخوارزم، وطشقند، وغيرها. وقد استولى عليها الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٤م أثناء حكم ستالين أيضًا، فحكمها بالحديد والنار وأزال طابعها الإسلامى ونقل عاصمتها من سمرقند إلى طشقند، وجلب إليها كثيرًا من الروس بلغ عددهم أكثر من نصف عدد سكان العاصمة.

وقد دخل الإسلام أوزبكستان مبكرًا فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى، وقد عاش فى كثير من مدنها وقراها كثير من صحابة رسول الله ﷺ.

وأوزبكستان متاخمة لأفغانستان وإيران وتركمانستان.

٤- وجمهورية طاجيكستان:

عدد سكانها أكثر من ستة ملايين مواطن[٢]، وكلهم من المسلمين ينحدرون من أصول إيرانية أو تركية، ولغتهم خليط من الفارسية والتركية.

وقد دخل الإسلام طاجيكستان فى زمن مبكر فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى، واحتلها الاتحاد السوفيتى عام ١٩٢٩م وسماها جمهورية فى حكم «ستالين» أيضًا، وقد حارب فى الناس الإسلام ومنع العبادات وتعامل معهم بقسوة «ستالين» المعروفة.

٥- وجمهورية تركمانستان:

عدد سكانها خمسة ملايين من البشر[٣] كلهم مسلمون؛ إذ دخلها الإسلام فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى. واستولى عليها الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٤م أيام «ستالين» أيضًا، وحارب فيها كل ما هو إسلامى، ووطن فيها عددًا من الروس، وأغلب سكانها من الأتراك إذ يمثلون سبعين فى المائة من عدد السكان.

---

(١) حسب إحصاء هيئة الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٣م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

٦- جمهورية قرقيزيا:

عدد سكانها أكثر من خمسة ملايين من البشر[(١)]، وكلهم من المسلمين وقد دخلها الإسلام فى أخريات القرن الأول الهجرى- العقد الأخير منه- فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك.

ولقد قام سكان تركستان والتجار منهم على وجه الخصوص بإدخال الإسلام إلى قرقيزيا.

واستولى الاتحاد السوفيتى على قرقيزيا محتلاً لها عام ١٩٣٦م وطبق فيها سياسته التى تستبعد كل ما هو إسلامى ، وتتحدى شعائر الإسلام وعباداته.

● على أن الاتحاد السوفيتى بوصفه من المستوطنين الجدد، لم يكتف بالاستيلاء على تلك الجمهوريات الإسلامية السِّت واستيطانها وتغيير هويتها ، وإنما بالغ فى عداء كل ما هو إسلامى فى جمهورياته الخمس عشرة، فعاملو المسلمين فيها أسوأ معاملة، مع أن المسلمين فى هذه الجمهوريات عشرات الملايين.

وفى بيان تقريبى - تؤيده إحصائيات كتب الجغرافية وبحوث بعض العلماء- لعدد المسلمين فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى، يذكر أن أعدادهم كالتالى:

- فى القرم أكثر من عشرة ملايين مسلم بنسبة ٧٥٪ من عدد السكان، أى الغالبية العظمى.

- وفى تتاريا أكثر من سبعة ملايين مسلم بنسبة ٧٠٪ من عدد السكان، أى الغالبية أيضًا.

- وفى بشكيريا أكثر من ستة ملايين مسلم بنسبة ٦٥٪ من عدد السكان، أى غالبية أيضًا.

- وفى داغستان أكثر من أربعة ملايين مسلم بنسبة ٨٠٪ من عدد السكان ، أى غالبية عظمى.

- وفى الشيشان أكثر من ثلاثة ملايين مسلم بنسبة ٨٠٪ من عدد السكان، أى غالبية عظمى.

- وفى أورنبرج أكثر من مليون مسلم بنسبة ٥٥٪ من عدد السكان.

---

(١) المرجع السابق.

- وفى سيبيريا أكثر من خمسة ملايين مسلم بنسبة ٣٠٪ من عدد السكان.
- وفى الجوفاش ما يقرب من مليونى مسلم بنسبة ٦٥٪ من عدد السكان.
- وفى موردوف ما يقرب من مليونى مسلم بنسبة ٦٠٪ من عدد السكان.
- وفى أدمورت ما يقرب من مليون ونصف المليون من المسلمين بنسبة ٦٠٪ من عدد السكان.
- وفى كبارديا بلكاريا ما يقرب من مليونى مسلم بنسبة ٧٥٪ من عدد السكان.
- وفى قرقشاى الشركسية ما يقرب من مليون مسلم بنسبة ٨٠٪ من عدد السكان.
- وفى بلاد الأديجا ما يقرب من مليون مسلم بنسبة ٨٠٪ من عدد السكان.
- وفى مارى ما يقرب من مليون مسلم بنسبة ٥٥٪ من عدد السكان .
- وفى أوستينا الشمالية ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون من المسلمين بنسبة ٧٥٪ من عدد السكان.

• فالمسلمون فى الاتحاد السوفيتى سابقًا أو اتحاد روسيا الآن يقاربون خمسين مليونًا، من مجموع عدد سكان الاتحاد الروسى الذى يبلغ عدد سكانه مائة وثلاثة وأربعين مليونًا حسب إحصاء هيئة الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣م؛ أى أن المسلمين يقاربون من حيث العدد ثلث سكان الاتحاد الروسى؛ غير أنهم يعيشون بغير انتماء إسلامى، ولا يستطيع أحدهم أن يطمح إلى أداء فريضة الحج أو زيارة بلد إسلامى إلا بعد استئذان وإذن، بعد منع مرة أو أكثر.

• وعلى الرغم من كثرة عدد المسلمين فى الاتحاد الروسى اليوم فإنهم لا وزن لهم ولا تأثير فى الحياة السياسية أو الاجتماعية.

• ومن أقوى الأدلة على تحدى الإسلام والمسلمين فى الاتحاد الروسى -بعد سقوط الاتحاد السوفيتى- أنه سمح لعدد من الجمهوريات والبلدان التى كانت تابعة له أن تستقل، مثل: جورجيا وغيرها، ولكنه أبى وأصرَّ ألا تستقل الشيشان مع أن المسلمين من سكانها ثمانون فى كل مائة، بدلاً من ذلك شن عليها حربًا، وعيَّن لها حكومة تديرها، ولا يزال الصراع فيها قائمًا على أشده حتى الآن.

• ومما يدل على أن العداء للإسلام مدبَّر بين الغرب والشرق أن بلادًا عديدة فى العالم

-فى قارة آسيا بالذات- يعيش فيها المسلمون بأعداد كبيرة، ومع ذلك لا يعطون حقوقهم السياسية والاجتماعية، ومن أمثلة ذلك:

- الهند: فيها ما يقرب من مائتى مليون مسلم بنسبة خُمس عدد سكانها.

- الصين: فيها أكثر من مائة وخمسين مليونًا من المسلمين بنسبة ١٥٪ من عدد سكانها.

- سنغافورة: فيها ما يقرب من مليون مسلم بنسبة ٢٠٪ من عدد سكانها.

- سيريلانكا: فيها أكثر من مليونى مسلم بنسبة ١٠٪ من عدد سكانها.

- أرمينيا: فيها ما يقرب من مليون مسلم بنسبة ١٥٪ من عدد سكانها.

- جورجيا: فيها ما يقرب من مليونى مسلم بنسبة ٢٠٪ من عدد سكانها.

- قبرص: فيها أكثر من ثلث مليون مسلم بنسبة ٢٠٪ من عدد سكانها.

- بورما: فيها ما يزيد على خمسة ملايين من المسلمين بنسبة ١٠٪ من عدد سكانها.

أى أن مجموع المسلمين فى هذه البلدان يقارب الثلاثمائة وسبعين مليونًا، ولكنهم متناثرون لا يوجد لهم وزن سياسى أو اجتماعى فى بلادهم التى يعيشون فيها!!

وبعد:

فهذه كلمات عن المستوطنين الجدد الذين ورثوا المستوطنين القدامى من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين والألمان والهولنديين والبرتغاليين والأسبان وغيرهم ممن ذكرنا آنفًا.

وفى مقدمة المستوطنين القدامى والجدد تقف الولايات المتحدة الأمريكية ضاربة المثل فى عداء الإسلام، واضطهاد المسلمين واحتلال بلادهم واستيطانها، مع ترديد شعاراتها المضللة الكاذبة عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان!!!

- إن المجتمع الإسلامى إزاء هذه المخاطر التى تحدق به عليه واجبات عديدة فى مجال العمل على صد هذه المخاطر، ولن يصل إلى ذلك إلا إذا استنفر لها كل مؤسساته وهيئاته وسائر مفردات المجتمع المدنى، مع تركيزه على استنفار البيت والمسجد والمدرسة والجامعة، لكى يُوضح للناس تلك الحقائق ويكشف ما هو مستتر منها، ويؤهل الناس جميعًا بكل ما يلزمهم من عناصر المقاومة لهذه الأخطار.

وربما أطلنا الحديث فى هذا الهدف الثانى ولكنها إطالة تناسب أهمية هذا الهدف فى تجنيب المجتمع هذه المخاطر النابعة من داخل المجتمع الإسلامى حينًا، والمفروضة عليه من الخارج فى أغلب الأحيان.

وعند التدبر والتعمق نجد مقاومة هذه الأخطار معركة يجب أن يسلح المجتمع الإسلامى لها أبناءه بكل ما يلزم من سلاح يمنع هذه الأخطار.

وأعود فأذكر بأن المجتمع الإسلامى ما لم يستنفر أفراده وجماعاته وجمعياته وتجمعاته المدنية كلها لمقاومة هذه الأخطار فلا يجوز أن يوصف بأنه مجتمع إسلامى.

*****

الهدف الثالث

تحقيق الأمن فى داخل المجتمع وفى خارجه

المجتمع الإسلامى المتميز بالتربية الإسلامية المتكاملة، يدفع بهذه التربية من خلال تطبيق منهجه ونظامه وما يسود ذلك من قيم ومبادئ فى المجتمع كله؛ بهدف تحقيق الأمن للناس جميعًا مسلمين وغير مسلمين ممن يعيشون فى إطار الدولة الإسلامية، وذاك ما نسميه الأمن الداخلى فى الدولة.

والمجتمع الإسلامى بالمفاهيم والقيم التربوية الإسلامية من خلال منهجه ونظمه يعمل بكل طاقاته ومن خلال جميع هيئاته ومؤسساته، على توظيف ذلك كله لتحقيق الأمن الخارجى للدولة، أى صياغة علاقات دولية جيدة تضمن للدولة أمنها ضد أى عدوان خارجى يقع عليها.

- المجتمع الإسلامى مهيأ من حيث قيمه ومبادئه ومنهجه ونظامه لكى يحقق جميع أنواع الأمن للناس جميعًا، لأن الله تعالى أودع فى منهجه ونظامه جميع الأسباب التى تؤهله لذلك وتمكنه من تحقيقه.

وإذا كان المتبادر إلى الذهن عند التأمل هو مسئولية المجتمع حكومة وحكامًا عن تحقيق هذا الأمن، فإن التدبر فى ذلك يؤكد أن الإسلام يوجب ذلك على الناس أيضا فردًا فردًا ما دام قادرًا على القيام بعبء تحقيق الأمن، وأضعف بل أقل ما يقبل من المسلم ألا يكون هو بقوله أو فعله أو موقفه سببًا فى فقد الأمن أو تعطيل الوصول إليه.

وكما أن تحقيق الأمن واجب الفرد فهو واجب الأسرة والجماعة، وكل وحدة من وحدات المجتمع على حدتها ومتعاونة مع غيرها، ما يشك فى ذلك عاقل ممن يعرفون عن الإسلام ومنهجه ونظامه ما ينبغى معرفته.

- وفى حديثنا عن هذا الهدف الثالث من أهداف المجتمع الإسلامى وهو تحقيق الأمن داخل المجتمع وخارجه، نتحدث عنهما منفصلين وهما:

- تحقيق الأمن داخل المجتمع الإسلامى.
- وتحقيق الأمن خارج المجتمع الإسلامى.

وتحت كل منهما فروع وتفصيلات، والله المستعان.

١ - تحقيق الأمن داخل المجتمع الإسلامى:

ذلك واجب المجتمع الإسلامى الذى لا يفارقه أبدًا، لأن الله تعالى أوجبه عليه، ولكى تتضح صورة هذا الأمن وأنواعه وأهميته لحياة الإنسان فى المجتمع، نتحدث عن هذه الموضوعات الثلاثة:

- مفهوم الأمن.
- وأنواع الأمن.
- وأهمية الأمن بالنسبة للإنسان والمجتمع.

أولا: مفهوم الأمن:

الأمن طمأنينة النفس ورضاها، وهو زوال الخوف والتوجس، وعدم توقع المكروه فى الزمن الآتى.

وبكل معنى من هذه المعانى للأمن جاء الإسلام، وعلى تلك المعانى والمفاهيم بُنى المجتمع الإسلامى وأقيمت أركانه.

- فمن الأمن بمعنى اطمئنان النفس ورضاها:

جاء قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فالعودة إلى الله تعالى والإقبال على الحق والعمل بمقتضاه هو الذى يترجم الإيمان، وهو الذى يحدث فى القلب أمنًا وطمأنينة وسكينة لأن القلوب لا تسكن ولا تطمئن إلا بذكر الله وتذكر عظمته وقدرته وطلب رضاه بطاعته.

وجاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

والمعنى -والله أعلم- أنه لا أمان للنفس ولا اطمئنان إلا عند الرجوع إلى الحق والتواصى به والعمل، والدعوة إليه والصبر عليه.

- ومن الأمن بمعنى زوال الخوف والتوجس:

جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾ [النور: ٥٥] ففى هذه الآية الكريمة وعد الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات بوعود ثلاثة:

● الاستخلاف فى الأرض وميراث الحكم والولاية والسلطان.

● والتمكين للدين الحق الذى يتمسكون به لأن الله تعالى ارتضاه لهم وهو دين الإسلام.

● وأن يبدل كل خوف عندهم إلى أمن.

كل هذه النعم فى مقابل أن يعبدوه سبحانه لا يشركون به شيئًا أو أحدًا.

- ومن الأمن بمعنى عدم توقع المكروه فى المستقبل:

جاء قول الله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

فعدم توقع المكروه فى المستقبل هو الأمن الحقيقى، وإنما يكون ذلك بعبادة الله وحده لا شريك له.

هذا هو مفهوم الأمن كما يفهم من هذه الآيات القرآنية الكريمة.

ثانيا: أنواع الأمن:

أنواع الأمن كثيرة تحيط بحياة الإنسان، بل تشمل كل مفردة من مفردات حياته.

غير أن أهمها فيما نحن بصدده ثلاثة أنواع:

- الأمن النفسى.
- والأمن الاجتماعى.
- والأمن السياسى.

والمجتمع الإسلامى يضمن للإنسان هذه الأنواع الثلاثة من الأمن، أى يوفرها له من خلال منهجه ونظامه، ويعتبرها حقًا من حقوقه على المجتمع، ويعمل المجتمع بكل طاقاته ومن خلال هيئاته ومؤسساته على تأمين ذلك لكل إنسان.

ولنتحدث بإيجاز عن كل نوع من هذه الأنواع.

أ- الأمن النفسى:

الأمن النفسى للإنسان يعنى قدرته على التكيف مع المجتمع الذى يعيش فيه ناسا وأحداثا؛ فإذا كان المجتمع إسلاميا فإن الأمن النفسى للمسلم يعنى تقبله وتفاعله مع القيم السائدة فى المجتمع، ومساندته لهذه القيم وعمله على نشرها بين الناس، واعتبار ذلك رسالته التى يبذل كل ما فى وسعه من أجل تحقيقها، هذا ما يعنيه الأمن النفسى فى النتائج.

وأما ما يعنيه الأمن النفسى فى المقدمات فهو: أن تتلاءم طبيعة الإنسان مع طبيعة المجتمع الإسلامى بمعنى أن يحل الوئام النفسى للإنسان محل أى قلق أو انزعاج، فضلا عن خوف أو رعب يتسرب إلى نفسه من خلال ما يسود المجتمع من قيم أو نظم اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية؛ بحيث يرى فى الأخذ بها وتبنيها انتقاصًا لشىء من حقوقه؛ لما فى ذلك من الإحساس بفقد الأمن.

- والمجتمع الإسلامى بقيمه ومبادئه النابعة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، وبمنهجه ونظامه الذى وضعه رب العالمين؛ كفيل بأن يحقق للإنسان هذا الأمن النفسى، وهذا الإحساس بالرضا والراحة، فى كل ما يؤمن به الإنسان من قيم ومبادئ، وبكل ما يمارسه من عمل وفق تلك القيم والمبادئ فى ظل تلك النظم العادلة.
- والإحساس بهذه المشاعر الطيبة مقدمة ينتج عنها قدرة للإنسان على التكيف مع المجتمع، وهى إحدى صور الأمن النفسى التى يوفرها المجتمع الإسلامى للإنسان.

- كما أن الأمن النفسى للإنسان يؤكد شخصيته أمام المجتمع فيضفى عليها قوة وقدرة على مواجهة المواقف كلها، مما يساعده على إدراك الأبعاد التى يعيش فيها سواء أكانت جسدية أو روحية أو عقلية أو اجتماعية ليتكيف معها، لأن أساس هذا التكيف هو الأمن النفسى، وسبب ذلك أن المستوى النفسى للإنسان هو عند التحقيق والتدقيق مستوى الوعى والإحساس الذى يتم فيه التكيف مع سائر مفردات الحياة الإنسانية.

- وما دام المجتمع وما يسوده من قيم ومبادئ ونظم هو الذى يساعد على تحقيق الأمن النفسى للإنسان، فإن هذه تربية جيدة للإنسان، لأن من المسلَّم به لدى علماء الاجتماع وعلماء النفس أنه لا مجتمع بغير تربية ولا تربية بغير مجتمع، ونحن نضيف: أن

التربية التى يوجه إليها المجتمع الإسلامى تربية إسلامية، لا يدخلها نقص أو قصور[1].

- على أن الربط الوثيق بين نفس الإنسان -روحه- وبين كل ما يحيط به، ربط منطقى، لأن الروح تستغرق كل شيء بما فى ذلك الحياة نفسها، لأن الروح هى قانون الكائن الحى فى هذا الوجود.

وتحقيق الأمن لهـذه الروح -أو النفس- يدعم فيها الرغبة فى التكيف مع الكون كله -كما ألمحنا إلى ذلك آنفا-.

- وهذه الروح أو النفس قد فطرها الله تعالى على القدرة على فعل الخير أو الشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

أى عرفها الحسن والقبيح ومنحها القدرة على فعل هذا أو ذاك، ثم رسم لها أبعاد الطريق ومعالمه، لتتزكى وتتطهر وتسمو، أو لتضل وتذل وتضيع.

- والأمن النفسى للإنسان مرتبط بطاعة الله أى الالتزام بما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وعلَّم الله عباده أن الطاعة أو المعصية تتوقف على إرادة الإنسان واختياره، دون ضغط أو إكراه، لكن بترغيب فى الطاعة وتنفير من المعصية. ومع الطاعة يكون الإحساس بالأمن فى المجتمع الإسلامى، وبكل تأكيد يكون مع المعصية فَقْد الأمن النفسى أى القلق والاضطراب والخوف.

ومع الطاعة لله ورسوله يكون العز والأمان والاطمئنان، ومع المعصية لله ورسوله يكون الذل والقلق والخوف، ومن أقوال أسلافنا رحمهم الله: «عِزّ الطاعة وذُلُّ المعصية» وفى الحديث النبوى الشريف، روى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «... وجعل الذُّل والصغار على من خالف أمرى...».

- والمجتمع الإسلامى بما يسوده من قيم ومبادئ هو الذى يمد الإنسان بهذا الأمن النفسى، وتلك الراحة والطمأنينة فيباعد بذلك بينه وبين القلق والاضطراب والخوف، فضلا عما يسمونه اليوم اكتئابًا.

---

(١) انظر للمؤلف: سلسلة مفردات التربية الإسلامية فى عشرة كتب نشرتها دار التوزيع والنشر الإسلامية من سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م إلى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

وأستطيع أن أقول مطمئنًا إلى صحة ما أقول: إن كثيراً من الأمراض النفسية التى عمت فى هذا العصر لها قاسم مشترك فى أسبابها هو فَقْد الأمن.

ب- والأمن الاجتماعى:

المجتمع أو الحياة الاجتماعية السليمة هى التى تزكى فى الإنسان احترامه للقيم والمبادئ السائدة فى المجتمع، فإذا أخذت القيم السائدة فى المجتمع مكانها ومكانتها فإنه يتولد عنها تقدير المجتمع نفسه وتقدير من فيه وما فيه، والتكيف مع الناس والأحداث على نحو صحيح، وتلك هى التربية الاجتماعية الراشدة[1].

والتربية الاجتماعية لا تفارق المجتمع الإنسانى فى أى زمان أو مكان، وقد أكدنا -آنفا- أنه لا مجتمع بغير تربية، ولا تربية تستطيع أن تعبر عن قيمها وسلوك أفرادها بغير مجتمع إنسانى.

- والنظام التربوى فى عمومه وخصوصه، يجب أن يكون من المرونة والسعة بحيث يتلاءم مع الإنسان الذى يُطَبَّق عليه.

وهذا النظام التربوى له هدف اجتماعى لا يفارقه أبدًا، وهو المحافظة على الأنموذج الذى يتكون منه المجتمع الإنسانى الصحيح السليم، هذا الأنموذج هو الإنسان السوى المستقيم الصحيح البناء.

إن البناء الصحيح للمجتمع يعنى: أفرادًا أصحاء الأجساد، أصحاء النفوس، يحكمهم قانون صحيح، فهى مجالات ثلاثة يتحرك فيها المجتمع الإنسانى الراشد.

- أما مجال صحة الأجساد، فيتناول البيئة وظروفها ونمط الحياة التى يحياها الإنسان.
- وأما مجال صحة النفوس، فيتناول المعتقدات والمعلومات النظرية.
- وأما مجال القانون فيتناول المؤسسات وجماعات المجتمع المدنى.

وكل مجال من هذه المجالات يرعاها الإسلام ويأتى فيها بما لا يلحقه فيه دين أو نظام، لأنه الدين الخاتم الذى أتمه الله وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينًا وتكفل بحفظه صحيحًا سليمًا إلى يوم الدين.

---

(١) للتوسع فى التربية الاجتماعية: اقرأ لنا كتاب «التربية الاجتماعية الإسلامية» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة: ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

وعلى سبيل المثال:

- فإن الإسلام يربى المسلم على الاعتناء بجسده من يوم يبلغ سِنّ التكليف -وقبل ذلك تكون رعاية الجسد مسئولية الأسرة؛ فيوجب الإسلام على كل مسلم مكلف العناية بجسده، تلك العناية التى تقتضى الأخذ بكل أسباب تقوية الجسد وصحته من غذاء وحركة ورياضة، وتجنب لأسباب الضعف والمرض، بل إن الإسلام يحاسب ويعاقب على التقصير فى رعاية الجسد والاهتمام به إلى الحد الذى يمكنه من أداء وظائفه، والتعامل مع البيئة والظروف التى يحيا فيها الإنسان[1].

وهذه العناية بالجسد تسهم فى تحقيق الأمن الاجتماعى للإنسان لأن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يعيش آمنًا فى المجتمع وهو ذو جسد عليل أو عاجز.

● وكذلك الشأن الإسلامى مع الروح، فإن مجال الروح أو النفس يحظى فى الإسلام بمزيد من الرعاية والاهتمام، فيربى هذه الروح تربية متكاملة تعتمد على تكوين العقيدة الصحيحة فى الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ويمد هذه الروح بالزاد الذى يعنيها؛ من تعميق الصلة بالله تعالى وذكره وشكره وحسن عبادته، وهو بذلك يجلو عن الروح ما يحتمل أن يعلق بها من صدأ، ويحول بينها وبين الصوارف التى تحول بينها وبين صفائها ونقائها وتعلقها بالله تعالى وإقبالها عليه سبحانه، وعلى الحق، والدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا.

وهذه العناية التى يوليها الإسلام للروح ذات أبعاد وشعب عديدة[2]، كل شعبة منها تسهم فى تحقيق الأمن النفسى للإنسان إذ تخليها من الهواجس والأباطيل، وتملؤها بالإيمان واليقين الذى يحول بينها وبين الأمراض الشائعة بين الناس اليوم كالكبت والإحباط والصراع والاكتئاب.

● وكذلك الشأن فى عناية الإسلام بالمجال القانونى، الذى يمكن إجماله فى إقرار مبدأ العدل والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، فلكل إنسان فى المجتمع المسلم أن يمارس حقوقه كاملة غير منقوصة، وعلى كل إنسان فى المجتمع المسلم أن يؤدى واجباته -فى حدود استطاعته- كاملة غير منقوصة.

(١) للتوسع انظر كتابنا: التربية الجسدية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣م.

(٢) للتوسع انظر لنا: التربية الروحية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

وتلك هى التربيـة الاجتمـاعية الراشـدة السوية الفاعلة التى تحسـن الأخذ والإعطاء، وتؤثر الإحسان على العدل.

والمجتمع الإسلامى يربى المسلم على احترام القوانين والنظم طاعة لله تعالى ولرسوله، ويرفض تمامًا الخروج على هذه القـوانين أو التراخى فى تطبيقها فـضلا عن أن يتعالى أحد عليها حتى لو كان الحاكم نفسه.

والقوانين الإسلامية تعتبر أكبر مدونة قانونية وأهمها وأكملها وأبعدها عن التمييز بين الناس لعرق أو لون أو لغة أو ثقافة بعينها، لأن التفاضل فيها بين الناس لا يكون إلا بالتقوى.

وهذه المدونة العظمى للقوانين الإسلامية هى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهى بذلك قوانين سهلة المأخذ وثيقة المصدر، قادرة على إقرار العدل والمساواة صالحة لكل زمان ومكان، تحظى بإجماع المسلمين والمنصفين من غير المسلمين على احترامها وتقديرها ويسرها وتكريمها للإنسـان، كما تحظى بأن الله تعالى تكفل بحفظهـا إلى يوم الدين، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجـر: ٩]، بينما اسـتحـفظ البشـر على كتـبه السماوية السابقة فبدلوا فيها وحرفوا، والسنة النبوية وحى من الله وهى مفصلة لما أجمل فى القرآن الكريم، فهى داخلة فى حفظ الله تعالى لهـا إلى يوم الدين؛ فقد روى البيهقى -فى سننه الكبرى- بسنده عن المقدام بن مـعد يكرب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «أوتيت الكتاب وما يعدله -يعنى مثله..» والقوانين الإسلاميـة يمكن أن ينظر إليها فى إطار جامع تعبر عنه كلمـات جامعة مثـل: طاعة الله ورسوله، ومثل: الحلال والحـرام، ومثل: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- والالتزام بتطبيق هذه القوانين يجلب للمجـتمع كل خير، ويدفع عنه كل شر، وذلك هو صميم الأمن الاجتماعى على أحسن صوره وأدقها وأشملها.

جـ- والأمن السياسى:

الأنظمة السياسية جميعها جزء من النظام الاجتماعى، والأمن السياسى بكل أنواعه جزء من الأمن الاجتـماعى، بحـيث لا يكمل الأمن الاجتـماعى إلا بالأمن السـياسى؛ والأمن السياسى فى المجتمع الإسلامى يعنى نوعين من هذا الأمن هما:

أَمْن الفرد.

وأَمْن الدولة أو المجتمع.

● أما الأمن السياسى للفرد، فهو أن يعيش الإنسان حياته فى أمن على حقوقه أن تنتقص أو تهضم، وحقوق الإنسان كثيرة، ما جمعها وأوعاها وفَصَّلها كالإسلام، بل إن الإسلام اعتبر حقوقًا رئيسة خمسة من حقوق الإنسان، اعتبرها من مقاصد الشريعة الإسلامية، وهى: المحافظة على النفس (الحياة) والعقل، والدين، والنسل، والمال.

وتفرع عن هذه الحقوق الخمسة سائر حقوق الإنسان فى مفرداتها الكاملة..

- وقد ابتليت بلدان العالم الإسلامى وبخاصة النظم العسكرية منها، بانتقاص هذه الحقوق أو هدرها وانتهاكها بالقوة العسكرية الغاشمة التى يتحكم فيها حاكم عسكرى لا يمكن أن يكون عادلاً لأنه استبدادى.

- والفرد فى ظل هذه الأنظمة غير آمن إطلاقًا، فهو يمسى حرًا ويصبح معتقلاً يعذب بأبشع آليات التعذيب البدنى والنفسى والاجتماعى ويقدم إلى محاكمات هزلية لا يتولاها القضاة، وإنما العسكر الذى لا يعرفون لهذه المحاكمات أى ضمانات للعدالة لا فى الشكل ولا فى الموضوع.

وليس فى هذه المجتمعات من هو آمن على ماله وما يملك، فما أيسر أن تصادر أمواله وأملاكه ويمنع من السفر والحركة، لأسباب كثيرًا ما تصطنعها أجهزة التخابر، التى يخولها الحاكم الشمولى المستبد سلطات فوق كل قانون؛ لأنها تحافظ عليه فى كرسيه، وبالتالى فإن هذه الأجهزة توغل فى انتهاك حقوق الإنسان، فيفقد الإحساس بالأمن.

- والفرد فى هذه المجتمعات غير آمن على عقله إن فكر فى إصلاح أو إصدار صحيفة أو إنشاء حزب سياسى، لأنه عندئذ يصنف عدوًا للحاكم المستبد الذى يدين التفكير ويدين أى تعبير عن فكر، ويحسب كل صيحة عليه، ويعتبر أى اقتراح اعتراضًا عليه وعلى سياسته ورجاله، هم جميعًا يرون أنفسهم فوق النقد، وفوق الناس وفوق القانون، ومن تجرأ على جريمة الاقتراح أو النقد فإن مكانه وراء الشمس؛ كما كان يقال فى أيام حكم جمال عبدالناصر فى مصر، وحافظ الأسد فى سوريا وصدام فى العراق والقذافى فى ليبيا،ومالا أحصى فى العالم كعلى بوتو وسوهارتو وعشرات من الحكام الشموليين.

- ولقد فقد الفرد أمنه السياسى فى ظل كل نظام حكم شمولى مستبد، وأصبح إما أن يكون منافقًا للحاكم وزبانيته أو يلقى أسوأ مصير، ولقد اشتهرت بعض البلدان فى

العالمين العربى والإسلامى بتفوقهـا فى انتهاك حقوق الإنسـان حتى أصبحت بعـضها أمكنة مفضـلة لتعذيب من توفدهم إليـها أمريكا مثلاً، ليـعذبوا فى تلك البلدان، لأن أمريكـا من كبار الدول التـى تنتهك حقـوق الإنسان وبخـاصة إذا كـان عربيًـا إرضاء لإسرائيل، أو مسلمًا إرضاء لليهود الصهاينة أو المسيحيين الصليبيين!!!

وإن هذا البلدان التى اشتهـرت بتعذيب الإنسان حتى الموت تذكر بالاسم فـى كثير من أجهزة الإعلام، ولكن حكامها لا يبالون بالتشهير والفضائح ما داموا موضع الرضا من الولايات المتحدة الأمريكية!!

● وأما الأمن السيـاسى للدولة، أو أمن المجتمع، فهو تأمين الدولة ضـد كل ما يلحق بها ضررًا ما، وهو عمل مطلوب يدخل فى الواجبات الشرعـية والعقلية والقومية والوطنية، بل هو من أهداف أى نظام حكم حـتى لو كـان استـبداديًا، لأن ذلك تأمـين للدولة أو المجتمع.

– وتحقيق الأمن السياسى للدولة داخليًا تنظمه القوانين التى تتناول:

● تحديد الجرائم التى تهدد سلامة الوطن وتعرضه للخطر، وتحديد عقوبة كل جريمة.

● وتعرُّف المؤامرة وتحدد شروطها ومقوماتها، كما تحدد عقوباتها.

● ولا تجيز كتم الجنايات الواقعة على أمن الدولة أى الامتناع عن الإبلاغ عنها للسلطات.

● وتنظيم العقوبات والتدابير الاحترازية.

● وتتضـمن هذه القوانين حق الدولة فى تجـريد مرتكب الجريمـة ضد الدولة من جنسـية، ومحاكمته على تلك الخيانة التى تكون عقوبتها الإعدام.

كل ذلك من صميم الأمن السـياسى للدولة الذى هو من صميم الأمن السـياسى العام، ولا يقل أهمية عن الأمن السياسى للفرد.

– ومن المسلَّم به أن فَقْد الدولة لأمنهـا السياسى يُعرِّض كل مؤسسـاتهـا وهيئاتها للعطب والفسـاد، وعندئذ يـزداد حرمـان الفرد من أمنـه السيـاسى بل من أمنه الاجـتمـاعى والنفسـى، لأن وطنه تعرض لخطر العـدوان فضلا عن الاحـتلال، إذ الاحـتلال قـهر للوطن والمواطن.

ومن أجل أهمية الأمن السياسى للدولة ضد أعدائها، فإن معظم الدول تضع قضايا أمن الدولة وتأمينها فى مقدمة القضايا وتبذل فى سبيل حماية الدولة من أعدائها قصارى جهدها.

- والمجتمع المسلم مطالب دائمًا بأن يوعى أبناءه بهذه القضايا ويشجعهم على بذل ما يستطيعون من مجهود لوقف أى عدوان على البلاد.

ثالثًا: أهمية الأمن بالنسبة للإنسان:

الأمن بجميع أنواعه التى ذكرنا؛ النفسى والاجتماعى والسياسى؛ يمثل بالنسبة للناس جميعا مطلبًا أساسيًا من مطالب الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها الله تعالى للإنسان، وهذه الأنواع من الأمن أشار إليها النبى ﷺ فيما رواه البخارى -فى الأدب المفرد- بسنده عن عبدالله بن محصن رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أصبح آمنًا فى سربه**[1]**، معافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»** ورواه الترمذى وابن ماجة عن عبدالله بن محصن الأنصارى أيضا، رضى الله عنه.

- ومن أهمية الأمن للإنسان أن فقده يشعره بتعاسة وشقاء، بعد قلق وخوف واضطراب، بينما لو عاش الإنسان حياته وقد ضاق رزقه، فقد يعيش غير تعيس ولا شقى وغير قلق ولا خائف، مما يؤكد أن الأمن للإنسان أهم من كثير من مطالبه المادية أو المعنوية.

- ومَنْ فَقدَ الأمن توقع المكروه فى كل حين، وخشى الشر، سواء أقامت عليه أمارة معلومة أو مظنونة، وهذا الخوف الذى نتحدث عنه من مخاوف الدنيا، ومَنْ فيها من ظلمة ومستبدين.

على أن الخوف فى بعض الأحيان قد يكون ظاهرة صحية، وعلامة على نضج العقل إذا كان خوفًا من الله تعالى، أى كفاً عن معاصيه وإقبالاً على طاعاته، ولذلك قال بعض أسلافنا: «لا يُعد خائفا من الله تعالى من لم يكن للذنوب تاركًا».

- والخوف من الشيطان وأوليائه نقص فى الإيمان، ومخالفة لصريح القرآن الكريم، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) السِّرب من معانيه: النفس والقلب.

- وأهمية الأمن للإنسان تتجلى فى أنه إذا حصل عليه اطمأن وسكنت نفسه وفارقه القلق والخوف، وذلك من شأنه أن يشجعه على عمل الخير، والتمسك بالقيم والفضائل، بل سارع إلى الطاعات، وذلك من شأنه أن ينعكس على المجتمع كله بالخير إذ تنتشر فيه الفضائل وتنحسر الرذائل والشرور والآثام.

وعلى سبيل المثال والتوضيح:

فإن صفات عديدة وفضائل كثيرة لا يستطيع أن يتصف بها إلا الإنسان الآمن المطمئن، فإنْ فَقَدَ الأمن فركبه الخوف فقلما يستطيع الاتصاف بهذه الصفات أو التمسك بهذه الفضائل.

- ومن هذه الصفات والفضائل التى يقبل على الاتصاف بها الإنسان الآمن:

الشجاعة، وإغاثة اللهيف، وعون المحتاج، والصلح بين الناس، ورعاية اليتيم، وحسن التعامل مع الجار والصديق، والصدق، والصبر، والعدل، والإحسان، والأمانة، وبر الوالدين والأهل والأقارب والأرحام، والفقراء والمساكين، والإقبال على النظام والالتزام بأداء الواجبات وممارسة الحقوق والحريات، كل ذلك يمارسه الآمن وقد يقصر فى أدائه الخائف الذى فقد الأمن.

لذلك كان الأمن هامًا للإنسان وللمجتمع على السواء، ونحن ننظر دائمًا -كما علمنا الحديث النبوى الشريف- للإنسان الآمن الذى أمن فى نفسه وفى جسده وفى قوته على أنه الإنسان الذى توافرت لديه الخيرات فنراه أهلاً لأن تصدر منه الخيرات.

وهذه الصفات أو الفضائل هى رءوس الفضائل الإنسانية التى لا تتصور الحياة الإنسانية إلا بها.

- وعلى العكس من ذلك تمامًا، فإن الإنسان الخائف غير الآمن يكون بيئة صالحة لكى تنمو فيه الرذائل والصفات المعيبة الشائنة، مثل: الكذب والخيانة والجبن والظلم، والسلبية، والتخلى عن كل من يحتاج إليه، وعدم احترام النظام والهروب من أداء الواجبات، والعزوف عن ممارسة الحقوق، وقهر الضعيف واليتيم، وسوء التعامل مع الأقارب والجيران والأصدقاء، وغيرها من الرذائل التى تسىء إليه وإلى المجتمع الذى يعيش فيه، لأنه خائف غير آمن.

● ولنا أن نتخيل مجتمعًا يحرم من هذه الفضائل وتحل به هذه الرذائل، إنه مجتمع الجرائم والقلق والاضطراب وهو بذلك لا يوصف بأنه مجتمع إنسانى ولا بأنه مجتمع إسلامى، لأن هذين الوصفين لا يشجع على الاتصاف بهما إلا الإحساس بالأمن.

إن أهميـة الأمن بالنسبة للناس جـميعًا هى الاطـمئنان على حياتهـم الدنيا وما فيـها من أسباب العيش الكريم.

لكن أهمية الأمن بالنسـبة للإنسان المسلم وللمجتمع الإسلامى هـو الاطمئنان على الحياة الدنيا والحياة الآخـرة، وهذا الاطمئنان على الحياتين الدنيا والآخـرة هو الأمن الحقيقى، لأن تجاهل أمن الآخرة تجاهل للحياة الأبدية الخالدة، وهذا مالا يليق بعاقل.

● ولكى يحظى المسلم فى المجـتمع الإسلامى بالأمن فى الدنـيا والآخرة فـإنه مطالب بعد الإيمان -بمفرداته- بالاستقامة، فقد قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ وكل مسلم بالاستقامة فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ...﴾ [هود: ١١٢] والاستقامة كما قال علماء المسلمين: كلمة جامعة فى كل ما يتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات.

وقد أمر الرسول ﷺ بالاسـتقامة وأشاد بها صفة فـاضلة تجلب النجاح والفلاح فى عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- ما رواه أحمد بسنده عن أنس بن مـالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسـتقيم إيمـان عبد حتى يستقيم قلبـه، ولا يستقيم قلبه حتى يسـتقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه».

- وروى الترمذى بسنده عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمرٍ أعتصم به، قال: «قل ربى الله ثم استقم...».

- وروى أحمـد بسنده عن عبـدالله بن سفـيان عن أبيـه رضى الله عنهما قـال: قلت يا رسول الله: قل لى فى الإسلام قـولاً لا أسأل عنه أحدًا غيـرك -أو بعدك- قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

- وروى أحمـد بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «استـقيـموا تفلحوا..».

- وروى أحمد بسنده عن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة..**».

● إن المجتمع الإسلامى كله أفرادًا وجماعات وأُسرًا وهيئات ومؤسسات، وجمعيات مدنية، لا يتوافر له الأمن النفسى والاجتماعى والسياسى إلا إن كان هذا المجتمع قد استقام أفراده على صراط الله تعالى واتبعوه فعصموا بذلك أنفسهم عن اتباع السبل التى يقف على رأس كل منها شيطان، والتى تفرق الناس عن سبيل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومعنى هذه الآية الكريمة كما فسرها الحديث النبوى الشريف الذى رواه ابن ماجة بسنده عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ؛ فخطَّ خطًّا، وخطَّ خطَّين عن يمينه، وخطَّ خطَّين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال: **هذا سبيل الله**، ثم تلا هذه الآية ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾.

وسبيل الله تعالى هو: الدين الخاتم الذى يهدى للتى هى أقوم وإلى الاستقامة، وكل سبيل سواه يتسبب فى ضلال من يسلك فيه.

والاستقامة على الدين الحق وعلى الطريق المستقيم الذى يحقق لمن يسلكه الأمن النفسى والاجتماعى والسياسى، وبهذا الأمن يستطيع الإنسان أن يعيش حياة إنسانية كريمة.

وبعد: فلعلى بذلك قد أوضحت الجانب الأول من الأمن، وهو: تحقيق الأمن داخل المجتمع الإسلامى.

ويبقى حديثنا عن الجانب الآخر من الأمن وهو: تحقيق الأمن خارج المجتمع الإسلامى، وهو ما نسميه بالعلاقات الدولية أو الخارجية مع المجتمع الإسلامى، وواجب تحقيق الأمن فيه، والله المستعان.

٢- تحقيق الأمن خارج المجتمع الإسلامى:

واجب المجتمع الإسلامى أو الحكومة المسلمة أن تعمل ما فى وسعها على تحقيق الأمن الخارجى للدولة، فى ظل علاقات دولية آمنة تحفظ لكل دولة حقها فى العيش الكريم الآمن فى زمنى الحرب والسلم على السواء.

والعيش فى حياة إنسانية كريمة يعنى أن تنجح الدولة فى أن تشق طريق تعايشها مع الدول الأخرى أو الأحلاف، أو التكتلات والائتلافات؛ بحيث تضمن لنفسها السلامة والأمن ضد أى عدوان يقع عليها، كما تضمن لنفسها الحرية السياسية والحرية الاقتصادية فى مجالات الزراعة والصناعة والحرية التعليمية والعلمية، التى تمكنها من اتخاذ القرار الحر النابع من إرادتها، الداعم لمبدأ المساواة بين الدول بحسن التعامل وحسن الجوار.

– وهذه الحياة الإنسانية الكريمة الآمنة مع الدول الأخرى، تقتضى الاحترام المتبادل وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى دولة، كما تقتضى التعاون فى مجالات عديدة، والوفاء بالعهود والمواثيق، وإيثار السلام على الحرب إلا عند الضرورة، كما تقتضى أن تكون الحرب بعيدة عن كل ما ينتهك كرامة الإنسان وإنسانيته.

● ولكى يتحقق الأمن الخارجى للدولة أو المجتمع الإسلامى؛ لا بُدّ من اتخاذ أسباب عديدة فى داخل المجتمع وقت السلم لكى يتماسك بناؤه، ويتطور إلى الأحسن ويقوى ويتقدم، وأن يعطى الأخذ بهذه الأسباب أولوية واهتمامًا ملائمين.

● ومن هذه الأسباب :

– العمل الدائب على مضاعفة الإنتاج أو زيادته، مع تنوعه وقدرته على تحقيق الاكتفاء الذاتى كلما كان ذلك ممكنًا.

– والعمل الدائب على دعم الحرية والاستقلالية الاقتصادية التى تأخذ الظروف والمتغيرات فى الحسبان، حتى لا يفاجئها العدو بحرب غير متوقعة.

– وإعداد الدولة للحرب، إعداد بشريًا وتسليحيًا، واقتصاديًا وسياسيًا، وتعليميًا وعلميًا وتقنيًا.

– والأخذ بمبدأ إيثار السلام والتفاهم والتفاوض لحل أى مشكلة، قبل الاضطرار إلى الدخول فى حرب.

– ورفض الدخول فى أحلاف أو تكتلات تستهدف العدوان على أى دولة أخرى، أيا كان نوع العدوان.

– والقبول باحترام النظام الدولى، والاستجابة لمتطلباته فى العلاقات الدولية التى تقررها الهيئات الدولية.

- والاستعداد لقبول التحالف مع دولة أو دول تحالفًا تعاونيًا اقتصاديًا أو سياسيًا أو علميًا تقنيًا، من أجل تطوير ظروف الحياة نحو الأحسن.

● إن تحقيق الأمن من خارج المجتمع مطلب أساسى، وخطوة ضرورية فى الطريق نحو السلام والعدل، وذلك من صميم أهداف المجتمع الإسلامى، كما سنوضح ذلك وندلل عليه.

أولا: مفهوم العلاقات الدولية:

ولكى نوضح أبعاد هذا الأمن الخارجي للمجتمع الإسلامى فى علاقاته الدولية الآمنة، نتحدث عن ثلاثة موضوعات هى:

- مفهوم العلاقات الدولية عمومًا، ومفهومها فى الإسلام.
- والعلاقات الدولية زمن السلم.
- والعلاقات الدولية زمن الحرب.

أ- المفهوم الدولى العام للعلاقات الدولية:

العلاقات الدولية هى: مجموعة من المبادئ والأحكام والنظم والضوابط التى تحكم العلاقات بين الدول من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والقانونية والاجتماعية عموما.

كما تتضمن العلاقات الدولية أسس التعاون بين الدول فى مجالاته المشروعة التى لا تضر بأحد، وتشتمل على تحديد أنواع الخلافات بين الدول فى ميادين الحياة.

والعلاقات الدولية يدخل فيها تنظيم الاتصال الرسمى بين الدول وتسمى حينئذ: «العلاقات الدبلوماسية» أى تمثيل الدول لدى غيرها من خلال أفراد ممثلين لها.

● ويدعى بعض الباحثين أن العلاقات الدولية ترجع إلى الأزمنة القديمة، ويرون أن ممن تحدث فيها: المؤرخ الإفريقى «توكليوس».

وفى الأزمنة الوسيطة تحدث عنها: العلامة المسلم عبدالرحمن بن خلدون ٧٣٢ - ٨٠٨هـ الموافق ١٣٣٢ - ١٤٠٦م.

وفى الأزمنة الحديثة تحدث عنها: «ميكيافلى».

- بينما يدعى بعض الباحثين أن الحديث عن العلاقات الدولية ممعن فى القِدَم، بحيث قالوا: إن الفيلسوف الصينى «مينسيوس» تحدث عنها فى القرن الرابع قبل الميلاد. كما قالوا: إن الفيلسوف الهندى: «كوتيليا» الذى كان رئيسًا للوزراء فى عهد: «شندراغويتا» (٣٢٦ - ٢٩٨ ق. م) قد تحدث عن هذه العلاقات الدولية.

وهذه الأقوال جميعًا غير صحيحة وغير دقيقة، ولا تقبل إلا من خلال التبسيط الشديد لمفهوم العلاقات الدولية، لأن العلاقات الدولية بمفهومها الشامل ومفرداتها العديدة لم يكن لها وجود فى تلك الأزمان.

والعلاقات الدولية ينظمها القانون الدولى، وهذا القانون الدولى يقال إن فكرته حديثة العهد، إذ يدعى بعض الباحثين وعلماء التشريع الغربيين ويتابعهم على ذلك بعض الباحثين الشرقيين، أن التفكير فى هذا القانون الدولى ابتدعته أوربا فى هذا العصر الحديث.

- والمؤكد كما سنوضح أن القانون الدولى العام نظام إسلامى جاء به الإسلام قبل أن يحس مجتمع إنسانى ما أنه بحاجة إليه لا عند اليونان ولا عند الرومان ولا فى الديانتين اللتين ظهرتا قبل الإسلام وهما اليهودية والمسيحية.

ولبيان ذلك نقول:

بالبحث والدراسة تبين لنا أن العصور اليونانية والرومانية القديمة كانت خالية تماماً من أى تشريع ينظم العلاقات الدولية لأن كلا الدولتين كانتا تنظران إلى غيرهما من الأمم نظرة استعلاء وازدراء، لا تستدعى مجرد التفكير فى ذلك.

نعم كان بين الدولتين صراع ولكن كانت تحكمه الحرب والدماء لا القوانين الدولية.

- وحسب اليونان دليلاً على نظرتهم إلى الشعوب الأخرى على أنها كائنات حقيرة دنيئة، قول فيلسوفهم «أرسطو»: إن البرابرة - يقصد غير اليونانيين من الأجانب - ما خُلقوا إلاَّ ليقرعوا بالعصا، ويسلبوا ويستبعدوا»!! فأى حاجة إلى قانون دولى ينظم علاقة اليونان بغيرهم؟ أى بالكائنات الحقيرة الدنيئة؟

- وكذلك كان شأن الرومان، وحسبهم دليلا على خلو تشريعاتهم من كل ما يتصل بالقانون الدولى أنهم لم يكونوا يعرفون من العلاقات الدولية سوى قانون البطش والقوة والعدوان، وليس لأى أمم أخرى غيرهم حق فى الدفاع عن أنفسهم ولا فى الأمن والاستقرار، فالرومان هم أصحاب شعار: «العبودية لغير الرومان أو الفناء».

- أما الديانتان اليهودية والمسيحية فلم يرد فيهما اهتمام بعلاقات دولية أو قانون دولى، إذ لم يكن لدى هذين الدينين أى علاقات دولية تتطلب تشريع قانون دولى؛ إذ كان نشاط كل منهما مكتفيًا ببحث الدعوة الدينية فى نطاق محلى محدود، فما الحاجة إلى قانون دولى ينظم العلاقات الدولية.

- أما فى أوربا فى العصور الحديثة فلم يوجد أيضا أى تفكير فى قانون دولى ينظم العلاقات بين الدول، لأن فكرة العلاقات الدولية جوهرها ولبها المساواة بين الشعوب أمام القانون، فإنها مجرد دعوى يتشدق بها من يريدون التجمل والادعاء، أما الحقيقة فتظهر على ألسنة مفكريهم مثل:

- «جون ستيوارت ميل» الذى قال باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية!! والشعوب الهمجية عنده هى الشعوب غير الغربية.

- و«لوريمير» الذى حدّد على وجه الأرض كلها مناطق ثلاثًا تخضع كل منها لقانون مختلف:

فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع - فى نظره - بحقوق سياسية كاملة.

والعالم نصف المتمدين يكفيه أى يتمتع بحقوق سياسية جزئية.

بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزامًا قانونيًا.

وبالضرورة فإن العالم المتمدين عنده هو عالم الغرب وحده!!

- ثم جاء ميثاق «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأضفى عليه شرعية القانون[(١)].

ولقد مارست المدنيات الأوروبية نفسها التفرقة بين الحقوق السياسية للدول الكبرى والدول الصغرى!!

- ولما أنشئت هيئة الأمم المتحدة عقب إنهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م، ويعيبها عند التدبر والتأمل أمران ينسفان القانون الدولى العادل هما:

---

(١) لم تستطع عصبة الأمم أن تمنع غزو منشوريا، ولا فتح بلاد الحبشة، ولم تستطع هيئة الأمم المتحدة منع أمريكا من احتلال أفغانستان والعراق.

- تمتع كبار الدول بحق النقض ضد أى قرار يصدره مجلس الأمن، فذلك بكل تأكيد تمييز عنصرى.
- وسيطرة الولايات المتحدة على هيئة الأمم المتحدة سيطرة كاملة غير منقوصة.

ب- المفهوم الإسلامى للعلاقات الدولية:

لا شك أن العلاقات الدولية فى الإسلام وإعطاءه -من بين الأديان والنظم- تلك الصبغة العالمية، كان واضحًا منذ حياة الرسول ﷺ، وبخاصة بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة وأصبحت للمسلمين دولة، حيث أخذ الرسول ﷺ فى الاتصال برؤساء دول ورؤساء ديانات، حتى لو كانت هذه الدول معادية.

وهذا الاتصال هو بداية العلاقات الدولية، وهذه العلاقات هى التى جعلت للدين الخاتم سلطانًا زمنيًا ونظمًا قانونيًا، إلى جانب كونه عقيدة وعبادة وقيمًا أخلاقية، هذا وذاك جعل للإسلام قوانين وتشريعات نابعة من الكتاب والسنة تنظم هذه الاتصالات وتلك العلاقات، وهنا ولد القانون الدولى ونما ونشأ وكانت له صفاته وسماته التى وضحت فى العهود النبوية ثم فى المعاهدات والمواثيق التى كتبها خلفاء المسلمين وملوكهم مع الدول الأجنبية على مرّ التاريخ.

- جاء المفهوم الإسلامى للعلاقات الدولية وللقانون الدولى شاملاً ودقيقًا وسابقًا سبقًا تاريخيًا ملحوظًا.

ويقوم المفهوم الإسلامى للعلاقات الدولية على أسس قوية تجعل منه قانونًا قادرًا على ضبط هذه العلاقات ضبطًا إنسانيًا رفيع المستوى، ومن هذه الأسس:

- احترام العلاقات الإنسانية عمومًا، وعلى كل مستوى من مستوياتها الفردى والجماعى والدولى.
- والإيمان بأن الإنسانية كلها أمة واحدة ذات أصل واحد وإن تعددت الألوان والسمات، والأقاليم واللغات.
- والإيمان بوجوب احترام الإنسان وتكريمه، ورفض غمطه أى حق من حقوقه الإنسانية، بل تجريم إهدار أى حق منها وتحريمه شرعًا.
- ووجوب التعامل مع البشرية كلها مؤمنها وكافرها بالعدل والإحسان، العدل على سبيل الوجوب والإحسان على سبيل الندب.

- ووجوب تعزيز الفضائل الإنسانية فى الناس جميعًا، ووجدت مقاومة الرذائل، واعتبارها معيارًا فى تقديم أى دولة من الدول.

- والاعتراف بأن الدول جميعًا من حقها أن تحيا حياة إنسانية كريمة آمنة من أى عدوان، كما يعترف بأنه ليس من حق دولة أن تعتدى على أخرى.

- والإيمان بأن العلاقات الدولية التى ينظمها الإسلام هى استجابة لأمر الله تعالى وطاعة له، فى تكريمه للإنسان إذ خلقه فى أحسن تقويم، وعلمه البيان وعلمه ما لم يكن يعلم، فكل إنسان جدير بأن يحافظ له القانون على تلك الامتيازات.

- إن الإسلام دين تكريم الإنسان وتعظيم حقوقه؛ ولذلك جاءت العلاقات الدولية بين دولته ودول العالم أنموذجًا رائعًا من نماذج العلاقات الإنسانية الرفيعة، فى جميع الأحوال والظروف، مما سوف نؤكده فى حديثنا عن:

- العلاقات الدولية الإسلامية فى زمن السلم.

- والعلاقات الدولية الإسلامية فى زمن الحرب.

والله تعالى المستعان.

ثانيًا: العلاقات الدولية الإسلامية فى زمن السلم:

السِّلم: ضد الحرب، والسلم: الصلح.

والسلام: الصلح والأمان، والمسالمة المصالحة.

- والسلم أو السلام فى الإسلام هو الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم، والحرب هى الخروج عن الأصل.

ولقد توسع الإسلام فى نظرية السلم وفى تطبيقاته، فجعله الأصل فى أغلب الأحوال، ومن تقدير الإسلام للسلام أنه احترم من نطق به طالبًا إياه مهما تكن نيته، بل اعتبر من نطق به مؤمنًا يعامل معاملة المؤمنين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ...﴾ [النساء: ٩٤]

- والسلم أو السلام الذى هو الأصل -كما أوضحنا- فى النظام الإسلامى، هو عند التطبيق احترام واسع لحق كل دولة فى أن تعيش آمنة بمبعدة عن الحرب والقتال، أى

حقها فى الوجـود الآمن، وفى السيادة على أرضها، مهما يكن شـأن هذه الدولة صغيرة أو كبيرة، المهم أن لا تبدأ المسلمين بحرب أو عداوة أو تحدٍّ لدعوتها إلى الله.

• والإسلام يقيم السلام الذى ينادى به على أسس أربعة:

- احترام العلاقات الإنسانية.

- والتزام السلام إلا عند الضرورة.

- والسلام فى الإسلام تنظيم اجتماعى، أعم من أن يكون سلامًا سياسيًا فحسب.

- والمحافظة على العهود والمواثيق.

أ- احترام العلاقات الإنسانية:

ينظر الإسلام للناس جميعًا على أساس أن تقوم بينهم عـلاقات إنسانية أساسها الاحترام المتبادل، وممارسة الحقوق، والالتزام بأداء الواجـبات، لأن هذه العلاقات الإنسانية هى التى تنمى فى الناس الفضائل وتحـول بينهم وبين الرذائل، وهى التى تجلب العدل وتدرأ الظلم، لأن ذلك هو الذى يحقق الأمن للناس جميعًا.

والعلاقات الإنسـانية التى يدعو إليهـا الإسلام ويلزم بها كل مسلم تتنـاقض تمامًا مع ما تجره الحرب من ويلات ومـشقات وإفساد للعـلاقات الإنسانية ليحل مـحلها النزاع والصدام والدماء والموت.

• ويؤكد الإسـلام السلام الذى تقوم عـليه العلاقـات الإنسانية بأن يلزم المسـلم بأن يعيش سلامًا وأمنًا مع نفسه ومع غيره من الناس، ويعـتبر أن المسالمة هى الأصل وأن الاستجابة للحرب بغـير ضرورة إنما هى اتبـاع لخطوات الشياطـين، والشيطان للإنسان عـدو مضل مبين، والمسـتـجيب للشيطان يوقع نفسه فى دائرة الحسـاب ثم فى دائرة العقاب فى الدنيا وفى الآخرة، يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

فالعلاقات الدولية فى الإسلام علاقات إنسانية تقوم على دعم السلم، ونبذ الحرب، لأنها تريد أن تؤمن الإنسان من ويلات الحروب، وتمكنه من العـيش فى سلام فى ظل الدخول فى الإسلام، أو ظل الميثاق أو المعاهدة، أو الصلح، ونبذ الاعتداء.

ب- التزام السلام إلا عند ضرورة الحرب:

لا يقر الإسلام مبادأة الناس بالحرب، وإنما يؤثر السلام ويجعله هدفًا، لأنه الأصل فى العلاقات الإنسانية، ولأنه المجال الصالح لدعوة الله ونشر الدين الحق.

وعندما يحدث عدوان على بلد من بلاد المسلمين، أو فتنة لبعض المسلمين عن دينهم، أو تحد لتبليغ دعوة الله إلى عباد الله، فإن الحرب عندئذ تصبح ضرورة لرد عدوان أو لتأمين مسلمٍ على دينه أو تبليغ للدعوة إلى الله.

لكنها حرب تحكمها شروط وآداب وأخلاقيات يلتزم بها المسلمون على الدوام، ولا يجوز فى هذه الحرب الغدر، أو الأخذ على غِرّة، أو التمثيل بجثث القتلى، أو إساءة معاملة الأسرى.

الإسلام لم يشرع الحرب لإراقة الدماء، أو لمجرد قهر الأعداء، أو لصناعة البطولات والشعور بلذة الانتصار والغَلَب، وإن كان كل ذلك قد تؤدى إليه الحرب، وإنما شرعها لأسباب معروفة تكاد تنحصر فى ثلاثة أسباب هى:

- الرد على عدوان المعتدى، سواء كان هذا العدوان حدث فعلاً، أو تأكد المسلمون من أنه سيحدث، عندئذ تكون الحرب واجبة، وإرهاب العدو واجبًا.
- وحماية الدين للمسلم أن يفتنه عنه عدو من الأعداء، لأن الإسلام يقدس حرية التدين وينادى بأن لا إكراه فى الدين، وبأن للناس الحرية، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.
- وتأمين طريق الدعاة إلى الله إلى الدين حتى يبلغ الناس فى كل مكان يمكن أن يصل إليه، كما يوقف كل تحد للحركيين الذين يتحركون بالإسلام فى الناس والآفاق يريدون أن يغيروا ما بالناس من ضلال وكفر، وما بأنظمتهم من اعوجاج عن منهج الدين؛ فإن حرب هؤلاء لتأمين الدعوة والحركة وعدم صرف الناس عن الدين الحق بتحدى الدعاة إليه والحركيين به واجبة.

● وفى هذه المشروعية للحرب والقتال جاء قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ -٤١].

وهذه الآية الكريمة هي أول ما نزل من القرآن الكريم في مشروعية القتال والحرب -ولم يكن قبل ذلك مشروعًا- وقد ذكرت سببين للحرب هما: أن يبدأ العدو بالقتال، وأن يُكره المسلم على ترك داره ووطنه، وذلك يتضمن فتنة عن دينه.

والدليل على أن الإسلام يلتزم السَّلام ولا يحيد عنه، قول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين في كل زمان ومكان: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦٠، ٦١]

فهذه الآية الكريمة توجب الإعداد للحرب، لإرهاب العدو لعله يعدل عن عدوانه أو ينسحب ، والآية الثانية توجب على المسلمين الأخذ بمبدأ السلم، وترك الحرب إن رغب العدو في ذلك.

جـ- السَّلام في الإسلام تنظيم اجتماعي، أعم من أن يكون سلامًا سياسيًا فحسب:

العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم من الدول هي من صميم تنظيم الإسلام للمجتمع، ليعيش فيه الناس آمنين، بل يعيش فيه غير المسلمين متمتعين بنفس الأمان، إن لم يأتوا من الأعمال ما يخل به.

والمجتمع الإنساني في نظر الإسلام أنواع ثلاثة سماها دُورًا، وهي:

دار الإسلام.

دار الحرب.

دار العهد.

- فدار الإسلام: أرض الدولة التي تحكم بسلطان المسلمين، وتطبق منهج الإسلام ونظامه، وتكون المنعة والقوة والسيطرة فيها للمسلمين، وعلى المسلمين واجب الدفاع عنها، والجهاد من أجل حمايتها، الجهاد بمستوييه: مستوى فرض العين، ومستوى فرض الكفاية عند تعرض هذه الدولة لأي اعتداء عليها وعند النفير العام للدفاع عنها، وكل ذلك من فرض العَيْن.

أما فرض الكفاية فعندما تكون الحرب لمنع الأعداء من دخول دار الإسلام قبل أن يدخلوها، أى ما نسميه الحرب الوقائية، أو ما يمكن أن يسمى إرهاب العدو ليكف عن عدوانه.

وهذا الجهاد الواجب على أهل دار الإسلام واجب على كل قادر عليه، وواجب بجميع أنواعه، بالكلمة والتخذيل والمال والنفس. . .

- ودار الحرب: وهى البلاد التى لا يكون فيها السلطان والمنعة للمسلمين، ولا يكون الحكم بمنهج الإسلام ونظامه، وفى الوقت نفسه لا يكون بين أهلها وبين المسلمين عهد ولا ميثاق.

وللفقهاء فى تعريف دار الحرب آراء عديدة، وتفصيلات تلتمس فى كثير من كتب الفقه الإسلامى وفى كتابَىْ الأحكام السلطانية وكتاب التراتيب الإدارية[1] وغيرها.

وهذه الآراء -فى مجموعها- تؤكد أن العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، علاقات سلمية لا حربية.

- ودار العهد: وهى البلاد التى لا تدين بالإسلام، ولكن بينها وبين المسلمين عهد وميثاق ارتضوه جميعًا، واحترموه، سواء أكان هذا العهد فى ابتداء العلاقة دون قتال أو شروع فيه، أم كان بعد ابتداء القتال مع تلك الدولة، وتخيير المسلمين لهم بين الإسلام أو عقد العهد أو الصلح، أو القتال.

والمسلمون مطالبون بالوفاء بهذه العهود واحترام تلك المواثيق ما لم ينقضها العدو.

- ودار العهد تكون السيادة[2] فيها على الأرض لأهلها الذين عاهدوا المسلمين وصالحوهم.

---

(١) من أهم هذه الكتب:
- الأحكام السلطانية: للماوردى (٣٦٤م- ٤٥٠هـ).
- والأحكام السلطانية: لأبى يعلى الفراء (٣٨٠- ٤٥٨هـ).
- والتراتيب الإدارية: لعبد الحى الكتانى (المتوفى ١٣٢٥هـ).

(٢) السيادة: تعنى فى القانون الدولى؛ أن يكون سلطان الدولة أصيلاً غير مستمد من دولة أخرى، وأن يكون سلطان الدولة مبسوطًا على كافة أرجائها، لا كما فعلت أمريكا مع حكومتى أفغانستان والعراق، فتلك سيادة مكذوبة خادعة.

• ومما يؤكد أن العلاقـات الدولية للمسلمين مع غيـرهم علاقات سلمية أنهـا تستوعب فى المجتـمع الإسلامى نوعين من غيـر المسلمين هما: الذِّمى ، والمستأمن، وتعطيهـما من الحقوق ما لا يعطاه من سالمه المسلمون بعهد أو ميثاق.

– فالذمى:

هو الذى يقيم مع المسلمين فى دولة مسلمة،وبينه وبين المسلمـين عقد يسمى: عقد الذمة الذى تتلخص بنوده فى أن يكون لأهل الذمة ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

• وعقد الذمة عقد أبَدى ليس لحاكم مـسلم أن يلغيه لموت الحاكم المسلم الذى أبرمه، كما أن هذا العقد ينتقل من الذمى الذى عاصر كتابته إلى ورثته الذين لم يعاصروا كتابته.

• ولعقد الذمة – عند الفقهاء – شرطان:

أحدهما: أن يلتزم الذمى بالتكاليف فى المعاملات المالية إن كان من القادرين على ذلك.

والآخر: أن يلتزم الذمى بأحكام الإسلام فى المعاملات المالية.

• أما الأحوال الشخـصية، وما يتصل بالعقيـدة والعبادة والشعائر الدينية، فـتترك له حرية التدين بدينه وإقامة شعائره، وزواجـه ونحو ذلك، لأن الأصل فى هذه التعاملات هو ما رواه أبو داود بسنده عن عِدَّة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ دِنْيَةً –أى متصلى النسب– عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فـوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نَفْس فأنا حجيجه يوم القيامة».

• وعلى الذمى – فى مقابل ذلك الأمان وتلك الحماية – أن يدفع للمسلمين «الجزية» وهى ضريبة أوجبتها معـيشته فى كنف الدولة المسلمة، وهى مظهر من مظاهر طاعة النظام فى الدولة، وهى فى الوقت نفسـه عدالة؛ لأن الذمى – كمـا قلنا– له ما للمسلم وعليـه ما عليه.

وعلى المسلم زكاة تبلغ رُبْع العشر فى كثـير من الأموال، وقد تصل إلى نصف العشر أو العشر أو الخمس فى بعض الأموال سنويًا،فما الضير فى أن يكون على الذمى هذا القدر الضئيل من المال –الجزية– (دينار كل سنة) أو قيمـته، والأصل فى ذلك ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام[1] بسنده عن عروة بن الزبير قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن:

(١) أبو عبيد القـاسم بن سلام الجمحى المتوفى ٢٢٤ هـ وهو إمام حافظ حجـة: فى كتابه: الأموال. ص ٣٨ ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٨هـ– ١٩٦٨م.

«إنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها، وعليه الجزية، على كل حالم ذكر أو أنثى، عبد أو أمة دينار واف، أو قيمته من المعافر[1]، فمن أدَّى ذلك إلى رسلي فله ذمّة الله وذمة رسول الله، ومَن منعه منكم فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين».

- على أن أموال الجزية تنفق في معونة من يحتاج من أهل الذمة وحدهم ، أي لا يأخذ منها المحتاجون من المسلمين، وإنما يأخذون من أموال الزكاة.

- والمستأمَن:

هو الذى دخل ديار المسلمين للإقامة غير الدائمة فيها، فيكتب له بذلك عقد أو عهد يسمى «عهد الأمان» ويسمى هو: مستأمَنًا. وغالبًا ما تكون هذه الإقامة المؤقتة للتجارة أو نحوها من الأعمال التى تعود على الطرفين بالفائدة.

ومن أجل أن السلام هو الأصل فى الإسلام، فإن نظامه أمَّن المستأمنين بحفظ أموالهم وأنفسهم، حتى لو كان بعضهم من دولة حاربت المسلمين من قبل، بشرط ألا يكون عينًا لقومه أو يأتى بأعمال تضر بالمسلمين.

وأموال المستأمن التى كسبها وهو فى بلاد المسلمين تكون ملكًا له، وعلى المسلمين صيانة هذه الأموال وحمايتها، وتستمر ملكيته لها حتى لو عاد إلى دار الحرب، لأن أمانه على ماله أبديّ، أما أمانه على نفسه فيزول إذا خرج إلى دار الحرب وحمل السلاح على المسلمين.

- وعلى المسلمين عندما يموت المستأمن أن يرسلوا ماله إلى ورثته.

- ومن أحكام المستأمن:

- أن تطبق عليه المعاملات الإسلامية فيمنع من الربا، ويتعامل فى البيوع وفق النظام الإسلامى.

- وأن يلتزم بهذا التعامل الإسلامى حتى لو كان تعامله مع مستأمن مثله، أو مع ذمى، ما دام يعيش فى بلاد المسلمين، سواء أكانت معيشته أبدية كالذمى أو مؤقتة كالمستأمن.

- ولو مات المستأمن وله مال فعلى المسلمين أن يوصلوه إلى ورثته.

---

(١) المعافر: بلدة من همدان تنسب إليها الثياب المَعَافرية، التى وردت فى هذا الحديث الشريف.

● ويدخل فى حكم المستأمن كل الممثلين لبلادهم فى بلاد المسلمين تمثيلاً سياسيًا أو تجاريًا أو غيرها، وهؤلاء لهم على المجتمع المسلم- أو الحكومة المسلمة- نوعان من الحصانة أو الصيانة:

أولهما: الحصانة الشخصية، فلا يجوز لأحد أن يتعرض له أو لأهله وعياله بضرر.

والآخر: الحصانة المالية، إذ يجب احترام ماله وممتلكاته والمحافظة عليه وإعفاؤه من الرسوم والضرائب فى حدود معينة.

- وبعض الدول المسلمة تعطيه حصانة تحميه من الملاحقات القضائية فى الجنايات والحقوق المدنية، وتلك مبالغة غير مقبولة؛ لأنها تخالف كثيرًا من النصوص والقواعد الإنسانية المتصلة بإقرار العدل ورفع الظلم، وتحمل المخطئ لخطئه، وإلا يُشَجَّع هؤلاء الممثلون لبلادهم على ارتكاب الجرائم والمخالفات وهم فى أمن من الملاحقة والعقاب.

د- المحافظة على العهود والمواثيق:

سبق أن أوضحنا أن علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول علاقات سِلْم وأمان، والقانون الدولى الإسلامى قانون يقوم على ركائز وقواعد إنسانية - تحدثنا عنها آنفًا- وهى جميع الفضائل والقيم التى تدعم كرامة الإنسان وتحمى حقوقه وتصون حرياته كلها.

ولعل من أبرزها هذه الفضائل التى تدعم تحقيق ذلك فى خارج المجتمع الإسلامى المحافظة على العهود والمواثيق والوفاء بها.

● ولقد أمر الإسلام بالوفاء بالعقود والعهود، وفاء مطلقًا غير منظور فيه إلى الاعتبارات التى تمارسها اليوم الدول القوية مع الدول الضعيفة من ساعة صياغة العهد أو الوثيقة إلى تنفيذها حسب هوى القوى وضد الضعيف، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]. ولا استثناء من هذا الإطلاق إلا إن غَدَر الطرف بما تعاقد عليه.

ومن المسلَّم به أنه ليس أفعل فى إقرار السلام بين الدول من الوفاء بالعهود والعقود، وسائر اتفاقات الصلح.

● والشواهد على احترام الإسلام للعهود والمواثيق كثيرة نكتفى منها بشاهدين هما:

- معاهدته ﷺ مع اليهود.

- ومعاهدته مع نصارى نجران.

● ونَصُّ معاهدته مع يهود المدينة هو:

«... وأن اليهـود ينفقون مع المؤمنين ما دامـوا محاربين، وأن يهود بنى عـوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مـواليهم وأنفسهم إلا مَنْ ظلم وأثِم، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته.

وأن ليهـود بنى النجار، وبنى الحـارث، وبنى ساعدة، وبنى جـشم، وبنى الأوس وبنى ثعلبة وأن جـفنة بطن من ثعلبة، وبنى الشطيبـة، مثل ما ليهـود بنى عوف، إلا مَنْ ظَلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن البّر دون الإثم....

وأنه لا ينحجز على ثأر جـرح، وأنه من فتك فبنفسه فـتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

وأن على اليهود نفـقتهم وعلى المسلمين نفقتـهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصـحيـفـة، وأن بينهم النصح والنصـيـحة والبِـرَّ، دون الإثم، وأنه لا يأثم امـرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن الجار كالنفس غير مضارٌ ولا آثم.

وأن بينهم النصر على من دهم يثرب...

وأن البر دون الإثم، لا يكسب كـاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصـدق ما فى هذه الصحيفة وأبَرَّه.

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خـرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم.

وأن الله جار لمن بَرّ واتقى، ومحمد رسول الله»[2].

● وأما نص معاهدته ﷺ مع نصارى نجران، فقد جاء فيه:

«هذا ما كتب محمد النبى رسـول الله -ﷺ- لأهل نجران: إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة، وفى كل صفراء وبيضاء ورقـيق، فأفْضَلَ ذلك عليهم، وتَركَ ذلك كله لهم، على ألفَىْ حُلّة، من حلل الأواقى؛ فى كل رجب ألف حلّة، وفى كل صـفر ألف حلة، كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقى فبالحساب.

---

(١) يوتغ: يهلك.

(٢) انظر المعاهدة كاملة فى: د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة.

وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب.

وعلى نجران مثونة رسلى، ومُتْعتهم، ما بين عشرين يومًا فما دون ذلك، ولا تحبس رسلى فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا، إذا كان كَيْدٌ باليمن ومعرةً، وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض، فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله -ﷺ- على أموالهم وأنفسهم، وملّتهم وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيّر أُسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، وليس عليهم ربّيّة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومن أكل ربًا من ذى قَبَلٍ فذمتى منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.

وعلى ما فى هذا الكتاب جوارُ الله، وذمة محمد النبى رسول الله ﷺ حتى يأتى الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مثقلين بظلم» (1).

وبعد فهذه صورة موجزة للعلاقات بين المسلمين وغيرهم من الدول فى وقت السلم والأمان، نود أن نؤكد بها عددًا من الحقائق هى:

- الحرص الشديد على إقامة العدل بين المسلمين وغيرهم من الدول فى زمن السلم والأمان.
- وتوثيق العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم.
- وتحريم اعتداء المسلمين على غيرهم ابتداء، أو غدرًا.
- وصيانة حقوق غير المسلمين وحرياتهم وسيادتهم على بلدانهم، ما داموا مسالمين للمسلمين.
- والوفاء بكل عقد أو عهد أو ميثاق، أو اتفاقية صلح.
- وتأمين غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى على دينهم وعبادتهم وتركهم يمارسون عباداتهم وشعائر دينهم ما دام ذلك لا يضر بالمسلمين.

(1) انظر السابق: ص ١٤١، ١٤٢.

- والاستمرار فى علاقة حسن الجوار، ما داموا يحافظون على هذه العلاقة، فلا يخونون ولا يغدرون.

● هذا عن علاقة المجتمع الإسلامى بالدول الأخرى فى زمن السلم، فما علاقته بتلك الدول فى زمن الحرب؟

ثالثًا: العلاقات الدولية الإسلامية زمن الحرب:

ينظر الإسلام إلى العلاقات الإنسانية على أنها الأصل، والعلاقات لا تنمو ولا تمتد إلا فى ظل السلام والأمان، ولذلك يعتبر الإسلام أن السلم هو الأصل، وأن الحرب عارضة طارئة، تدفع إليها أسباب معينة، وأسباب الحرب فى الإسلام ليس منها الطمع فى ثروات الآخرين ولا الاستيلاء على بلادهم واستيطانها وطرد أهلها منها -كما أوضحنا ذلك فى حديثنا عن المستوطنين القدامى والجدد فى حديثنا عن الخطر الثالث من الأخطار الخارجية التى تهدد المجتمع الإسلامى.

- إن أسباب الحرب فى الإسلام ليس منها العدوان إطلاقًا وإنما منحصرة فى دفع عدو معتد، أو غوث مستغيث من المسلمين وقع عليه عدوان، أو تأمين طريق الدعوة إلى الله إلى الدين الحق من الأعداء الذين يحولون بين الدعاة وعملهم أو الذين يفتنون بعض المسلمين عن دينهم، ولم يجد معهم التفاهم والاتصال.

- ولكى يتميز الإسلام عن غيره من الأديان والنظم، شاء الله تعالى له بوصفه خاتم الأديان، وأتمها وأكملها أن يكون منهجه فى الحرب إنسانياً بالغ الغاية النبيلة وهو يستعمل السلاح أو يمسك عن استعماله، بل وضع لهذه الحرب من الشروط والآداب ما يجعلها حربًا إنسانية حقًا.

● ولكى تتضح هذه الصورة عن الحرب فى الإسلام، سوف أتحدث عن نقاط ثلاث:

- الحرب المشروعة فى الإسلام.

- الحرب غير المشروعة.

- وشروط الحرب وآدابها فى الإسلام.

أ- الحرب المشروعة فى الإسلام:

لا تكون الحرب - بوصفها تتسبب فى الموت والدمار- مشروعة إلا فى مجالات ثلاثة هى:

المجال الأول: الحرب المشروعة:

هو مجال الدفاع عن النفس، وذلك عندما يهاجم العدو بلاد المسلمين، أو يستعد للعدوان عليهم، وتقوم على ذلك الأدلة والبراهين، عندئذ تصبح الحرب مشروعة بل واجبة على كل قادر على الحرب والقتال، وفى ذلك جاء قول الله تعالى يأذن فى القتال المشروع: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ -٤١].

المجال الثانى: وهو الغوث:

- ويدخل مجال الحرب المشروعة استجابة المسلم لأخيه الذى يقع عليه عدوان من عدو، أو يتهدد أرضه أو ماله أو ولده، عندئذ تكون إغاثته واجبة، وحرب هذا العدو المعتدى واجبة وتكون مشروعة وتعد من الجهاد فى سبيل الله تعالى، من قُتل فيها فهو شهيد له الجنة ومن انتصر فيها على عدوه فقد نال إحدى الحسنيَيْن، وفى هذه الحرب جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]

المجال الثالث فى الحرب المشروعة:

هو مجال تأمين عمل الدعاة إلى الله بوصفهم ينشرون الدعوة إلى الدين الحق، وتأمين عمل الحركيين بهذا الدين الذين يحملونه إلى الناس والآفاق، يغيرون بمنهجه كل ما يعترضهم من عقبات، ولأن الدعوة إلى الله إلى الدين الحق واجب كل مسلم على بصيرة بما يدعو إليه، وبما أن الحركة بهذا الدين واجب كل قادر على التغيير، كانت الحرب لإزالة العقبات من طريق الدعاة والحركيين واجبًا، حتى يصل دين الله إلى عباد الله، وحتى يغير الناس ما بأنفسهم من شر ومن تحد لدين الله، ويفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ[1] وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) الفتنة صرف الإنسان عن دينه، وأعداء الإسلام يفتنون المسلمين عن دينهم بما يحلون من الحرام وما ييسرون من المعاصى وما يحولون به بين الناس وبين أن يستمعوا إلى الدعاة إلى الله من عقبات وعراقيل، وتحد للدعاة..

فالقتال لمنع فتنة المسلمين عن دينهم مشروع بل واجب لأن الله تعالى أمر به فى هذه الآية الكريمة وحدد الغاية منه وهى دفع الفتنة وتمكين الناس من الاستماع إلى منهج الإسلام ونظامه للأخذ به وتطبيقه على حياتهم.

إن المجتمع الإسلامى - حكومة ومواطنين- مطالب بأن يقاتل هؤلاء الأعداء، وأن يقضى على خططهم المعادية، وأن يزيل عقباتهم ومواقعهم التى يحولون بها بين الدعاة إلى الله ورجال الحركة الإسلامية وبين دعوة الناس إلى الله إلى الدين الحق، إلى حركة التغيير نحو الأحسن والأرضى لله تعالى.

● ومن الجدير بأن يلحظ فى قتال هؤلاء الذين يفتنون المسلمين عن دينهم أن الله تعالى حرَّم أن يكون لهؤلاء الأعداء أدنى قبول لهم فى قلوب المسلمين، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٩].

إن جريمة الذين يفتنون الناس عن دينهم جريمة كبرى توجب قتالهم على كل قادر عليه، وتوجب ألا تكون بينهم وبين المسلمين موالاة أو صداقة، لأن هذا الولاء أو تلك الصداقة تعنى أن من والاهم قد رضى عن جريمتهم وأقرهم عليها، وهذا عصيان لأمر الله وخروج عن نهيه، وتلك جريمة كبرى؛ لأن البراء منهم ومن أمثالهم مرحلة يجب أن تسبق قتالهم وحربهم.

بل إن آية كريمة أخرى أو مجموعة آيات حسمت وجوب التصدى لأعداء الله الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويخرجونهم من ديارهم بعد نكث العهود والطعن فى الدين الحق فيصبحون بارتكابهم هذه الجرائم أئمة الكفر، فيجب قتالهم مهما كانوا أقوياء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢-١٦].

هذه هى مجالات الحرب المشروعة فى الإسلام، وهى دائمًا مرتبطة بأسباب قوية تؤدى إليها، ولا يمكن أن تحركها الكراهيـة أو توقفها المودة والقربى، لأن القرآن الكريم نهى عن ذلك كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا....﴾ [المائدة: ٢].

إنها حرب موضوعية تحركها أسباب موضوعية وتستهدف أهدافًا موضوعية لا مجال فيها لغير هذه المعايير.

وبعد، فما هى مجالات الحرب التى لم يشرعها الإسلام، ولا يوافق على شنها؟

ب- الحرب غير المشروعة:

لم تكن هذه الحرب مشروعة لأنها خرجت فى أهدافها وبواعثها وأسبابها عما ذكرناه مما يبرر الحرب المشروعة وهى أنواع عديدة منها:

- الحرب العدوانية التى يشنها بعض المسلمين على بعض فى أيام الفتن، أو يشنونها على غير المسلمين دون مبرر من المبررات التى تحدثنا عنها آنفًا، فهذه مما لم يشرع الله شنها أو المشاركة فيها، أو الاستمرار فى أعمالها.
- والحرب التوسعية التى تستهدف توسيع رقعة الدولة فى الأراضى أو البحار على حساب دولة أخرى، ودون أن تكون لها أسباب مشروعة، فهى حرب تحركها المطامع والأهواء، وذلك مما لم يأذن به الله تعالى.
- والحرب التى يكون هدفها التغلب على الآخر وهزيمته، استعلاء عليه وازدهاء بنشوة الانتصار والغلب، وهى حرب يحركها الشيطان ويزينها ويحدو مواكبها، وكل تلك البواعث والأسباب مما حرم الله تعالى.

• وإنما كانت هذه الحروب غير مشروعة، لما يترتب على خوضها من الوقوع فيما حرم الله تعالى مثل:

- ترويع الآمنين وتعريضهم للمخاطر.
- وقتل بعض النفوس وحرمانها من الحياة التى هى أهم حقوق الناس، وليس لأحد سلب هذا الحق إلا بمبرر يرضاه الله تعالى، ويقره شرعه ونظامه، والإسلام فى سلمه وحربه يقوم على احترام بل تقديس حرمة الإنسان، بل إنها أعظم عند الله تعالى من حرمة الكعبة نفسها - كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ.

- وقتال غير المحاربين المقاتلين ممن يسمون بلغتنا اليوم مدنيين كالأطفال والنساء والشيوخ والمرضى وناقصى العقل، والرهبان فى معابدهم، وأهل الفلاحة والحرث، وكل من لم يحمل سلاحًا.

- وما قد يترتب على الحرب من حبس للطعام والشراب وسائر المؤن عن الناس، وهو أمر لم يسمح به الإسلام، كما يتضح ذلك فى موقف أحد المسلمين الحديثى العهد بالإسلام وهو ثمامة بن أثال بن النعمان اليمامى من أشراف بنى حنيفة[1] الذى أقسم على منع تموين مكة بحبوب اليمامة، فلما عانى أهل مكة من هذا النوع من الحرب وجهوا إلى النبى ﷺ رسالة يقولون فيها: إنك تأمر بصلة الرحم، ولكنك قطعت أرحامنا فقتلت الآباء وجوّعت الأبناء. فبعث النبى ﷺ إلى ثمامة رضى الله عنه يأمره برفع هذا الحظر، وبأن يدع أهل مكة يتمتعون بمواردهم من حبوب اليمامة.

- وقتال الناس فى أشهر الهدنة السنوية التى فرضها الإسلام على المسلمين وهى الأشهر الحرم وهى: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب ، فكل حرب فى هذه الأشهر قد حرم الإسلام شنها، ما لم يقاتل العدو المسلمين فيها فيردُّوا عليه ويقاتلوه فيها.

وبعد، فهذا إيجاز للحديث عن الحرب التى لم يشرعها الإسلام بل اعتبرها من المحرمات.

جـ- شروط الحرب وآدابها فى الإسلام:

ليست الحرب فى الإسلام هدفًا فى ذاتها، وإنما هى وسيلة لتحقيق هدف من الأهداف الثلاثة التى شرعت الحرب من أجلها كما أوضحنا ذلك آنفًا.

من أجل ذلك جعل الإسلام للحرب شروطًا، وسن لها آدابًا ،وألزم المسلمين قادة وجنودًا بالوفاء بهذه الشروط، ووعد بالأجر العظيم لمن التزم بهذه الآداب، وماذاك إلا بسبب أن الإسلام يؤثر السلام على الحرب، ويحترم إنسانية الإنسان ويحرص على حمايته وصيانة كرامته.

● من شروط الحرب فى الإسلام:

- ألا تكون الحرب غدرًا بالعدو ولا تمثيلاً بقتلاه ولا قتلاً لولدانه ولا قتلاً لأصحاب الصوامع.

---

(١) صحابي جليل كان سيد أهل اليمامة توفى سنة ١٢ هـ- ٦٣٣م.

روى أحمـد بسنده عن ابن عبـاس رضى الله عنه قال: كـان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: **«اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله من كفـر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»**.

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«لكل غادر لواء يوم القيامة»**.

- وأن تخلو الحرب من وسائل الانتقام الوحشية[1]:

فلا يجيـز الإسلام تعذيب الأعداء أو التعـامل معهم بقسوة وخـشونة، أو يفتنهم عن دينهم ومعتقداتهم، حتى لو فعل الأعداء ذلك بالمسلمين ثم قدر المسلمون عليهم، فإن الصبر والاعـتدال أليق بالمسلمين، وقد مـثل المشركون بحمـزة عم النبى ﷺ فى غزوة أحد فـفكر الرسول ﷺ فى الانتـقام فى المعارك المقـبلة، فنزل عليه قـول الله تعالى: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾** [النحل: ١٢٦ -١٢٨]. فما كان من النبى ﷺ إلا أن عدل عن فكرة الانتقام والتمثيل بجثث القتلى فى الحروب.

- ومن شروط الحرب فى الإسلام النهى عن تعقب من يفر من الأعداء[2]، لأن الإسلام يحرص على حـياة الناس حتى لو كانوا أعـداء، لا على إبادتهم - كما يفعـل أدعياء الحرية وأصحاب تماثيلها- فى هيروشيما ونجازاكى وفيتنام وأفغانستان والعراق.

ومن ألقى سلاحه مستسلمًا فلا يتعرض له أحد بقتل أو أذى ، فقد قال الله تعالى: **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾** [النساء: ٩٤].

إن الإسلام يخضع لمنطق الحرص على حياة الناس لعل الله تعالى يهديهم إلى الحق.

- وعدم المبالغة فى استعمال الأسلحة العامة الفتاكة، كالتغريق والتحريق وأمثاله من هدم المنازل واستعمال الأسلحة الأشد فتكًا وإبادة لحياة الناس.

---

(١) هذه الوسائل الوحشية فى الانتقـام برع فيها الإنجليز واليهود والأمريكان فى حروب خاضوها فـأتوا فيها بأكثر مما يفعل الحيوان المفترس بفريسته، والشواهد على ذلك عشرات بل مئات.

(٢) ما بالنا بما تفـعله إسرائيل وأمريكا من اغـتيال من ترك المعركـة أو لم يخضهـا أصلاً وضربه بالصواريخ كـما حدث فى فلسطين وأفغانستان ولا يزال يحدث فى العراق؟

روى الإمام مالك بسنده عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشًا إلى الشام فكان مما أوصى به أحد قواده: «... وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولاتخربن عامرًا، ولا تعقرنّ شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل ، ولا تجبن».

- ومن شروط الحرب حسن الإعداد لها:

إن الإعداد الجيد للحرب، بكافة الأسلحة وأجودها، وأقدرها على مواجهة العدو، وعدم إخفاء ذلك عنه، قد يردعه أو يمنعه عن شن حرب على المسلمين، وهذا عمل مطلوب شرعًا أو هو شرط من شروط الحرب لمنعها، وذلك ما يسمى إرهاب العدو وتخويفه، وفى ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد هنا لا من أجل الهجوم على الأعداء بل من أجل التحصن من شرهم، وإنذارهم وإخافتهم وإرهابهم.

- والشرط الذى أشرنا إليه آنفًا وهو: حظر منع الطعام عن المدن بقصد تجويعهم لأن المدنيين نساء وأطفالاً وشيوخًا سوف يضارون بذلك، أما فى الميادين القتالية فذلك قد يكون مستساغًا فى بعض الأحيان، كالعمل على قطع مدد العدو بالسلاح والعتاد والشراب طمعًا فى كفهم عن الحرب أو استسلامهم.

● ونذكر فى هذه الشروط التى وضعها الإسلام للحرب بعض الأحاديث النبوية الشريفة:

- روى مسلم بسنده عن بريدة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا إلى سرية أو جيش أوصاه فقال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...»[1].

وروى ابن عساكر بسنده عن عبد الرحمن بن عائذ رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال: «تألّفوا الناس وتأنّوهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على

---

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم: ج ١٢، ص (٣٨- ٤٠) ط الريان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م وهو حديث جامع فى الجهاد ، ورواه غيره من رواة الحديث.

الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوا بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم».

● وأما آداب الحرب في الإسلام فكثيرة نذكر منها:

- حسن التعامل مع رسل الأعداء ومبعوثيهم إلى المسلمين، وتحريم قتلهم أو الإساءة إليهم.

- وحسن التعامل مع الأسرى، وتحريم إذلالهم أو تعذيبهم أو الزراية بهم[1].

- ومنع الفصل بين المرأة الأسيرة وأبنائها الصغار، بل الجمع بينهما في مكان واحد.

- وعدم إطلاع الأسيرات على مصارع رجالهن وأقوامهن، لنهى رسول الله عن ذلك عندما فعله بلال مع إحدى أسيرات خيبر، وتوبيخ بلال رضى الله ﷺ على فعله هذا بقوله ﷺ: «هل نزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما».

- ومن آداب الحرب في الإسلام عدم إرهاق الأسير بعمل فوق طاقته، بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كان يحسنون إليهم بإطعامهم أفضل الطعام، وفي صفتهم تلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وفي كل تلك الآداب وردت أحاديث نبوية شريفة.

● وعند التأمل في شروط الحرب وآدابها في الإسلام نستيقن أنها حرب لا تستهدف إبادة العدو ولا إذلاله إن أُسر، وإنما هي حرب تقودها القيم الإنسانية، وتحيط بها الرغبة في احترام الإنسان والحفاظ على كرامته، وهدفها البعيد هو الرغبة في هداية الإنسان إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

● وبعد: فلابد من التأكيد على أن تحقيق الأمن الخارجي للدولة الإسلامية يحتم عليها أن تكون العلاقات بينها وبين الدول الأخرى علاقات سلم وأمان يحكمها قانون الإسلام الدولي[2] الذي يجب اتباعه في السلم والحرب على السواء.

---

(١) ما فعلته أمريكا في سجن أبي غريب بالأسرى يُعد فضيحة القرن الحادي والعشرين، كالعدوان عليهم جنسيًا وربطهم من أعناقهم وسحبهم ... إلخ.

(٢) أشرنا إلى ذلك القانون وقلنا إنه يقوم على دعائم أربع: =

فإذا أضفنا إلى ذلك حرص الإسلام أو المجتمع الإسلامي على تحقيق الأمن الداخلي في المجتمع، سواء في ذلك الأمن النفسي والأمن الاجتماعي والأمن السياسي، زاد يقيننا بأن الإسلام؛ منهجه ونظامه هو أصلح ما يكون لتربية الناس على حب الأمن والسلام وحب الإنسانية جمعاء، والرغبة في هدى الناس جميعًا إلى الصراط المستقيم صراط الله ودينه الحق.

والمجتمع الإسلامي بكل مكوناته من هيئات ومؤسسات ووزارات وإدارات ، وأفراد وجماعات وتجمعات، وجمعيات مدنية، وكل مرفق فيه من بيت أو مسجد أو مدرسة، أو ناد أو نقابة أو أي مكان يتجمع فيه الناس حتى الأسواق ، عليه أن يبصر الناس بأهداف المجتمع الإسلامي، ويعرف كل واحد منهم أيًا كان موقعه أن عليه واجبًا في تحقيق أهداف المجتمع ، وأن هذا الواجب لا يفارقه ما دام قادرًا على أدائه، وتلك هي التربية الحقة التي لا تنتظر المعلم والمدرسة وإنما يضخها المجتمع في كل قنوات اتصاله بالناس.

وإلى الحديث عن الهدف الرابع من أهداف المجتمع الإسلامي وهو: ممارسة الحقوق والإلزام بأداء الواجبات.

*****

= - احترام العلاقات الإنسانية.
- والتزام السلام إلا عند الضرورة.
- وإيثار السلام الاجتماعي الأعم من السلام السياسي.
- والمحافظة على العهود والمواثيق.

الهدف الرابع

ممارسة الحقوق والإلزام بأداء الواجبات

المجتمع الإسلامى فى أهدافه الثلاثة التى تحدثنا عنها وهى: تطبيق منهج الله ونظامه فى حياة الناس أى فى المجتمع، وصيانة المجتمع عن كل ما يعرضه للخطر، وتحقيق الأمن داخل المجتمع وخارجه.

هذه الأهداف تكون ممكنة التحقيق إذا كان المجتمع الإسلامى يضم أفرادًا وجماعات تجيد ممارسة حقوقها، وتخلص فى أداء واجباتها، وإلا ظلت هذه الأهداف حبرًا على ورق، ونظرية تحتاج إلى تطبيق ، وخيالاً بل وهمًا لا حياة له فى الواقع.

● والمجتمع الإسلامى له مقومات أساسية هى الدين والعلم والقومية، وله خصائص وسمات ينفرد بها عن غيره، فهو مجتمع إصلاح اجتماعى، وتضامن ، وتكيف اجتماعى، وتماسك وضمان اجتماعى، وضبط اجتماعى، بل مجتمع رفاهية اجتماعية.

وهذه الخصائص تعنى أنه مجتمع معلِّم مُربِّ من خلال مؤسساته وهيئاته، وحكوماته وجمعياته المدنية،وكل ما فيه من قوى فاعلة قادرة على التوجيه والتسديد كالبيت والمسجد والمدرسة.

- وما من فرد أو جماعة يضمها المجتمع الإسلامى إلا وهو متجاوب مع ما فى هذا المجتمع من قيم ومبادئ ونظم تجاوبًا تحركه عقيدته وإيمانه وإسلامه، وتدعمه وتثريه ثقافته الإسلامية، ويعززه ويقويه معرفته بتراث أمته الإسلامية، وفى مقدمة كل تلك الثقافات والمعارف، سيرة الرسول ﷺ وسير أصحابه رضوان الله عليهم.

الفرد فى المجتمع الإسلامى لا يكون فاعلاً ومؤثرًا ومتجاوبًا مع ما يزخر به المجتمع الإسلامى من قيم إلا إذا استجاب لما يطلبه منه المجتمع الإسلامى، وما يطلب منه المجتمع شيئًا أهم من الالتزام بمنهج الإسلام فى الحياة، وهو منهج إنسانى بكل ما تدل عليه الكلمة من نبل وفضيلة، وبكل ما يحمله المنهج من ترقية وتحسين وتوجيه نحو الأحسن لحياة الإنسان على أى مستوى كان هذا الإنسان حاكمًا أو محكومًا، صغيرًا أو كبيرًا، امرأة أو رجلاً، غنيًا أو فقيرًا، مؤمنًا أو كافرًا، مجاهدًا فى سبيل الله أو قاعدًا، طائعًا أو عاصيًا، لأنه منهج وضعه الله تعالى خالق الإنسان لتحسين حياة الإنسان وجعلها ملائمة لصالح دنياه وآخرته.

● ومعنى ذلك أن المنهج يساوى بين الناس فى الحقوق والواجبات فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية.

- فلكل فرد فى المجتمع حقوق وعليه واجبات، وهذه الحقوق هى الأنسب للإنسان دون مبالغة فيها - كما تفعل بعض النظم فتجعل الفرد فوق المجتمع[1] -ودون تهوين منها -كما تفعل بعض النظم إذ تسحق الفرد من أجل المجتمع-[2] وإنما بوسطية تميز بها منهج الإسلام إذ واءم ولاءم بين صالح الفرد وصالح المجتمع.

إن المجتمع الإسلامى ذو منهج يُطِب لجميع الأدواء، ويَصلح لكل الأجواء، ويستطيع من خلال تشريعاته الإنسانية المرنة أن يحل مشكلات الإنسانية كلها حاضرها ومستقبلها مهما تطورت المستجدات وزادت المتغيرات.

وما كان المجتمع الإسلامى كذلك إلا لأنه اعتنى تمامًا بقضية الحقوق والواجبات اعتناء لم يسبق إليه فى دين ولا نظام، ولم يُلْحَق بنظام.

وإنما كان هذا التفرد لهذا المنهج لأنه خاتم المناهج الذى تضمن خاتم الكتب السماوية على لسان خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام.

● والحقوق -كما سنوضح- تقابلها الواجبات، لكى يتوازن أداء المجتمع وأداء الناس، وتستقر وتستقيم الحياة الإنسانية على النحو الذى يحقق صالح الدنيا والآخرة.

وإلى الحديث عن الحقوق والواجبات ونسأل الله التوفيق.

١- ممارسة الحقوق:

الحقوق فى الاصطلاح القانونى تعنى: السلطة، أو القدرة التى يقررها القانون لشخص ما، بحيث يكون له بمقتضاها ميزة القيام بعمل معين.

وتتميز هذه الحقوق بأنها قدرة على عمل شىء مع حماية القانون واحترامه لهذه القدرة فى مواجهة الغير.

وتسمى هذه الحقوق حقوقًا قانونية، وكل حق قانونى يقابله واجب قانونى أيضًا، بمعنى أن القانون الذى يفرض الحق للناس هو الذى يفرض عليهم الواجب.

(١) تلك هى النظم «الرأسمالية» التى يقودها الأغنياء وأصحاب المصانع والشركات.

(٢) تلك هى النظم الشيوعية أو الاشتراكية، التى أعلنت عن فشلها فانهارت فى العقد الأخير من القرن العشرين ١٩٨٩م.

ومن المنطقى المسلم بصحته أنه بغير أداء الواجبات يصعب ممارسة الحقوق.

● والنظام الإسلامى يقــرر للأفراد من الحقوق - على سـبيل المثال - مـا يمكنهم من إنتاج السلع والخدمات بكل أنواعها، ولكنه فى الوقت نفسه يشترط فى ممارسة هذه الحقوق أن لا تلحق ممارستهـا ضررًا بالفرد أو المجتمع، لأن منطق الإسلام هو مـا عبرت عنه السنة النبوية الكريمة فى المقولة الاجتماعية السامية: «لا ضرر ولا ضِرار»[1].

ومن أهم الحقوق لدى الناس فى كل زمان ومكان، حق الملكيـة، فهى ثابتة فى الإسلام ثبوتًا قطعيًا، ومع ذلك قيّد الإسلام هذا الحق بعدم الإضرار بالغير.

وقد فرّع الفقهاء ممارسة هذا الحق إلى فرعين:

الأول: أن تكون ممارسة الحـق يُتوقع فيـها إلحاق ضـرر بالغيـر؛ وعندئذ يقيـد الإسلام ممارسة هذا الحق، بل يمنع صاحبه من ممارسته.

والآخر: أن تكون ممارسة الحق يترتب عليها بالقطع إلحـاق ضرر بالغير؛ وحينئذ يسلب الإسلام هذا الحق من صاحبه سلبًا - أى يلغيـه - بل يجعل صاحب هذا الحق مسئولاً أمام الله وأمام المجتمع عن إلحاقه الضرر بغيره من الناس.

- ومعنى ذلك أن الإسلام أو المجـتمع الإسلامى يربى فى الإنسان روح الـتآلف والتواد والتراحم بينه وبين غيره، بل يجـعل ذلك واجبًا شرعيًا، يقوم به كل مـسلم من تلقاء نفسه لأنه يراقب الله ويعلم أن الله يراقـبه، ومن لـم يمتنع عن إضـرار غيـره ولم يرقب الله فى ممارسة حقه؛ فإن الحاكم المسلم ينزل به العقوبة الملائمة للضرر الذى أوقعه بسواه.

● ومنهج الإسلام ونظامـه كما يمـنح الفرد كافـة حقوقه؛ فـإنه كذلك يمنح المجـتمع من الحقوق ما لا يقل عن حقـوق الفرد، ويمكّن الفرد والمجتمع من ممارسة حقـوقهما كاملة بشرط عدم الإضرار بأحد.

ويحرص منهج الإسلام ونـظامه والمجتمع الإسلامى بكافـة مؤسساته وهيـئاته على إقرار هذه الحقوق واحترامها ورفض المساس بها، كما يحرص على أن يكون فى مقابل كل حق يمارسه صاحبه واجب يؤدى، لكى يتوازن المجتمع، ويتحاب الناس ويتعاونوا.

---

(١) رواه ابن ماجة بسنده عن ابن عباس مرة وعن عبادة مـرة رضى الله عنهما، ورواه أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما.

● والتربية الإسلامية للفرد وللمجتمع بجميع مفرداتها[1] تؤدى عملاً جليلاً للفرد وللمجتمع، فتربى هذا وذاك على احترام الحقوق والالتزام بأداء الواجبات، إيمانًا منها بأن التربية ما لم تؤد إلى ذلك اضطرب الفرد والمجتمع وضاعت مصالح كل منهما.

ولأن التربية الإسلامية متكاملة وعديدة المفردات وشاملة لتطبيع الفرد والمجتمع على القيم الإسلامية، فإنها كفيلة بأن تحرك الفرد والمجتمع نحو إقرار هذه الحقوق واحترامها وأداء هذه الواجبات أداء جيداً.

● وفى الإسلام نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية تؤكد إقرار هذه الحقوق، وتطالب بأداء الواجبات نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر].

- وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

- وقوله عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [التوبة: ٧١].

إلى غير ذلك من مئات الآيات الكريمة فى الحقوق والواجبات.

● وما رواه البخاري بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

---

(١) هذه المفردات هى: التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العقلية، والتربية الدينية، والتربية السياسية، والتربية الاجتماعية، والتربية الاقتصادية، والتربية الجهادية، والتربية الجمالية، والتربية الجسدية. ولنا فى كل مفردة منها كتاب مستقل.

من أراد التوسع فليعد إلى هذه السلسلة ذات الحلقات العشر نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة من سنة ١٤١٥هـ إلى سنة ١٤٢٤هـ.

● وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

● وما رواه أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله: الرجل يعمل العمل فيحمده الناسُ عليه ويُثنون عليه به؛ فقال رسول الله ﷺ: **«تلك عاجل بُشْرَى المؤمن»**.

وغير ذلك من مئات الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الحقوق والواجبات.

● على أن ممارسة الإنسان لحقوقه فى المجتمع المسلم ليست واجبًا شرعيًا مطلقًا يأثم من لم يمارسها، وإنما هى حق له متروك لإرادته واختياره إن شاء مارسه وإن شاء تنازل عنه أو عن بعضه، عفوًا وتسامحًا.

والواجبات ليست متوقفة على إرادة الإنسان واختياره وإنما هى إلزام بأدائها، فإن تخلى عن أدائها أثم وحرج واستحق العقاب.

● وهذه الحقوق كثيرة متنوعة تمثل فى مجموعها جانبًا هامًا من نظام المجتمع، فى حين يقابل كل حق واجب، وأن هذه الواجبات تمثل بل تكون نظام المجتمع المتكامل البناء.

فما هى هذه الحقوق؟

تتنوع هذه الحقوق الخاصة بالفرد فى المجتمع الإسلامى تنوعًا كبيرًا، وهذه التنوعات - على كثرتها - تستهدف إحاطة الفرد بكل أسباب الكرامة الإنسانية التى كتبها الله للإنسان إذ فضله على كثير من خلقه، وسخر له ما فى السموات والأرض جميعًا، ليعمل ويعيش حرًا كريمًا.

● وفى محاولة منا لرصد عدد من أنواع هذه الحقوق، يسَّر الله لنا أن نتحدث عن أربعة منها يندرج تحت كل منها عشرات الفروع بل مئاتها، وهذه الأربعة هى:

- الحقوق الدينية.
- والحقوق الإنسانية أو المدنية.
- والحقوق الاجتماعية.
- والحقوق السياسية.

أولاً: الحقوق الدينية:

الدين والتـدين فطرة فطر الله الناس عليهـا، وهذه الفطرة تزيدها العلوم قـوة وظهورًا، ويزيدها التطور والتقدم الإنسانى ظهورًا ووضوحًا، ويزيدها نضج العقل إقناعًا وثباتًا، ولقد أوضحت ذلك آية قرآنيـة كريمة هى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...**﴾ [الروم: ٣٠].

الدين والتـدين من لوازم الإنسان التى لا تفـارقه، مـا دام ذا عقل يمـيز به بين القـبح والجمال، والضار والنافع.

وهذا الدين مختص بوصفين هما:

التبرؤ من الشرك.

وموافقـة الفطرة، أى أنه دين سمح سهل لا مشـقة فيه، لأنه متـجاوب مع ما فطر الله الناس عليه من فطرة روحية وعقلية ونفسية وجسدية.

بهذه الحقائق التى قررها ودلت عليها نصوصه، اعترف بعض الباحثين والمفكرين من غير المسلمين:

يقول رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢م)[1] فى كتابه (تاريخ الأديان):

«من الممكن أن يضـمحل ويتـلاشى كل شىء نحبـه، وكل شىء نعـده من ملاذ الحـياة ونعيمها، ومن الممكن أن تبطل حرية استعـمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحى التديُّن أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية».

والدين عمومًا هو وضع إلهى شرعه الله لإسعاد الناس فى دنياهم وآخرتهم، وإسعادهم فى الدنيا بمنهج يكـفل لهم العمل به توفيـة مطالبهم المادية والروحيـة بحيث لا يضلون ولا ينحرفون أفـرادًا وجماعات، كما يفـهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) أرنست رينان مؤرخ وناقد، ومستشرق فرنسى، اهتم بالدين من الناحيـة التاريخية؛ كتب تاريخ نشأة المسيحية ١٨٦٣ - ١٨٨٣م، وكتب تاريخ شـعب إسرائيل ١٨٨٧ - ١٨٩٢م، أنكر أن يكون للمسلمين فلسـفة واتهم الجنس السامى بأنه يفقد ملكة الإبداع!!!

وأما إسعادهم فى أخراهم فهو فوزهم بنعيم الجنة إذا آمنوا وعملوا الصالحات، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

● والحقوق الدينية التى نتحدث عنها تتناول أمورًا ثلاثة:

- حق اختيار الدين.
- وحق ممارسة عباداته وشعائره.
- وحق احترام الأديان الأخرى.

وهذه الحقـوق الدينية ليست كل الحقـوق الدينية ولكنهـا أبرزها، والمجتـمع الإسلامى يكفلها لكل من يعيش فى كنفه، بل يجعلها من واجبات المجتمع تجاه الأفراد.

وهذه الحقوق واضـحة فى الدين الخاتم دين الحق لأنه أعم الأديان وأتمهـا وخاتمها، فى حين نجدها غير واضحة أو صريحة فى الأديان السـماوية السابقة، أما فى النظم الحديثة فإن بعضها ينكر هذه الحقـوق وبعضها يسميها حرية دينية، وبعض الفـلاسفة المحدثين يفضلون دائمًا أن يقللوا من شأن الدين وأن يخرجوه من دائرة اهتمام الإنسان.

ولسنا هنا بصـدد الحكم على هذه الأديان والنظم والفلسـفات فى مـوقفهـا من الدين، فذلك شأن يختلف تمامًا عما نحن بصدده من إلقاء ضوء على هذه الحقوق الدينية.

الحق الأول: حق اختيار الدين:

قرر الإسـلام هذا الحق بقوله تعالى، مخـاطبًا خاتم رسله محـمدًا ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ [الكهف: ٢٩]. فالإيمان أو الكفـر والطاعة أو المعصية باختيار الإنسان وإرادته الحرة.

كـما أكـد الإسلام أن أحـدًا لا يملك أن يكره أحـدًا على الدخول فى دين، قـال الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

روى ابن إسحق[(١)] بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهـما قال: نزلت هذه الآية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقـال له: الحصينى، كان له

(١) هو محـمد بن إسـحق بن يسار (توفى ١٥٠هـ - ٧٦٨م) من حـفاظ الحديث النبـوى، وهو مؤلف «السـيرة النبوية» التى رواها عنه ابن هشام وهو من أقدم المؤرخين فى الإسلام.

ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال للنبى ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك - رواه ابن جرير.

ولعل فى هذه الآية الكريمة وفى ذلك الحوار بين هذا الصحابى ورسول الله ﷺ أبلغ الردّ وأقواه على أولئك الذين يزعمون أن الإسلام قد انتشر بالسيف، إن كانوا يقرأون أو يفهمون ما يقرأون!

● وحقيقة قرآنية أخرى تؤكد الحرية فى اختيار الدين؛ هى أن الله تعالى يقرر أنه لا يمكن أن يسيطر على العالم كله دين واحد حتى ولو كان خاتم الأديان وأتمها، يفهم ذلك من آيات عديدة من القرآن الكريم منها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

- وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

والحق الثانى: حق ممارسة عبادات الدين وشعائره:

هذا الحق قرره الإسلام وأوجب على المجتمع الإسلامى أن يصونه ويحميه، لأهل الأديان جميعًا ما داموا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية، وفى إقرار ذلك آيات عديدة منها:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ [البقرة: ١٨٥].

- وقال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٩٦].

- وقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [النحل: ١٢٥].

- وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ...﴾ [النساء: ٥٨].

هذه العبادات التي ذكرت في هذه الآيات من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة ودعوة إلى الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجهاد في سبيل الله، وغيرها من العبادات من حق كل مسلم أن يمارسها، ولا يحول بينه وبينها إلا ظالم جائر لا يخاف الله تعالى ولا يحترم حدوده.

● وأهل الأديان الأخرى لهم حق ممارسة عباداتهم وشعائرهم ما داموا يعيشون في كنف الأمة الإسلامية، وقد أقرت هذه الحقوق في كثير من آيات الكتاب وكلمات النبي ﷺ، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [المائدة: ٦٨].

- وما رواه البيهقي - في السنن الكبرى - بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: صالَحَ رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفى حلة - فذكر الحديث - كما مضى- وقال فيه: «.. على أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قَسّ، ولا يفتنون عن دينهم؛ ما لم يحدثوا حَدَثًا أو يأكلوا الربا»[1].

- وروى البيهقى - في السنن الكبرى - بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال: نزلنا مع النبى ﷺ خيبر ومعه من معه من أصحابه، وكان صاحب خيبر رجلاً ماردًا منكرًا، فأقبل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد، ألكم أن تذبحوا حُمُرنا وتأكلوا ثمارنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال: «يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد: أن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة»، قال: فاجتمعوا ثم صلى بهم النبى ﷺ ثم قام فقال: «أيحسب أحدكم متكئًا على أريكته قد يظن أن الله عز وجل لم يحرم شيئًا إلا ما فى القرآن!!! ألا وإنى والله قد أمرتُ ووعظتُ ونهيتُ عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر، إن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم؛ إذا أعطوكم الذى عليهم»[2].

والحق الثالث: حق احترام الأديان الأخرى:

وإنما كان ذلك بين الحقوق وإن كان من الواجبات؛ لأن الواجبات لا يملك أحد أن يمتنع عن أدائها، أما الحقوق فقد قلنا: إن المسلم له أن يمارسها أو يتنازل عنها، فكأن ذلك

---

(١) ذكرنا هذا الحديث كاملاً فى حديثنا عن العهود والمواثيق واحترام الإسلام لها فى النقطة (د) من العلاقات الدولية الإسلامية - فى حديثنا عن الهدف الثالث.

(٢) وسبق أن ذكرنا فى النقطة السابقة معاهدته مع يهود.

حق لأهل الأديان الأخرى أصلاً، وحق للمسلم أيضا لا يمنعه منه أحد وليس له أن يتنازل عنه لما فى هذا التنازل من افتيات على حقوق أهل الأديان الأخرى.

● وعلى الرغم من أن الدين الإسلامى هو الدين الحق الخاتم، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد دينًا سواه، وأن الله تعالى أمر المسلمين جميعًا أن يدعوا لهذا الدين وأن يتحركوا به فى الناس والآفاق، على الرغم من ذلك كله فإن من يرفضون من أهل الكتاب الدخول فى دين الإسلام، فإن الإسلام يحترم حقهم فى التدين بدينهم وممارسة شعائره، بل إن على المجتمع الإسلامى أن يحمى لهم حرية التدين بدينهم فى المجتمع المسلم، ماداموا يؤدون الذى عليهم. وردت بذلك آيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة النبوية المطهرة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

- وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة:٤٨].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ثانيًا: الحقوق الإنسانية أو المدنية:

نعنى بهذه الحقوق؛ تلك الحقوق التى يمتلكها الفرد بصفته إنسانًا يعيش فى وطن، وهى حقوق تقرها كل الشرائع السماوية وبخاصة التشريع الخاتم، وتعترف بها الدساتير وتلتزم بها الدول نحو كل من يعيشون فى كنفها.

وهذه الحقوق تسمى أحيانًا: الحقوق الطبيعية، أو الحقوق الأساسية للإنسان، أو الحقوق المدنية.

وحديثنا عن هذه الحقوق للإنسان تتناول نقاطًا ثلاثًا هى:

- الأساس المنهجى والفكرى الذى قامت عليه حقوق الإنسان وفى الإسلام.
- وعراقة حقوق الإنسان فى الإسلام وأنواعها.
- ومفردات حقوق الإنسان فى الإسلام.

أ- الأساس المنهجي والفكري الذي قامت عليه حقوق الإنسان في الإسلام:

الإسلام بوصفه الدين الحق الخاتم الذي أعلن في كتابه الخاتم أن الله تعالى قد كرّم الإنسان وفضّله وسخر له ما في السموات والأرض؛ قد تكفل بتأمين كافة حقوق الإنسان وصيانتها، وحمايتها بالدفاع عنها وتمكين الإنسان من التمتع بها.

وحقوق الإنسان في الإسلام أكمل وأشمل وأكثر عدلاً ومساواة وأدخل في تكريم الإنسان.

والأسس المنهجية الفكرية التي قامت عليها حقوق الإنسان في الإسلام، تضمن لها التميز والاحترام والاستمرارية، وتلك الأسس هي:

- وحدة أصل الإنسان:

قرر الإسلام أن أصل الإنسان واحد هو آدم وحواء عليهما السلام، مهما اختلفت ألوان الناس، وتباينت ألسنتهم، وتعددت مواطن إقامتهم، ووحدة الأصل هذه هي التي ترتبت عليها المساواة بينهم، لأن ذلك أمر الله تعالى وشرعه، وليس بصحيح أن الناس سيِّد ومسود أو حر وعبد كما يقول بذلك «الفاشيون» و«النازيون» و«اليهود»[1].

- ووحدة وظيفة الإنسان في الأرض:

جميع بني آدم في مختلف الأماكن والأزمان استخلفهم الله تعالى في هذه الأرض ليعبدوه، ويعمروا الأرض وفق منهج الله تعالى ونظامه، وما يسود هذا المنهج من قيم ومبادئ ونظم، وجعلهم جميعًا مسئولين أمامه سبحانه وتعالى عن أعمالهم في عبادته وفي إعمار الأرض، وشرع لهم نظام الثواب لمن أطاع والتزم والعقاب لمن عصى وتمرد.

ولا يستطيع الإنسان أن يعيش كما يهوى، وأن تحركه شهواته وأهواؤه، كما تدعو إلى ذلك بعض الفلسفات، وليس هو بمسجون مقهور مسلوب الإرادة كما تنادي بذلك بعض الفلسفات والنظم.

- ووحدة التكليف:

منح الله الإنسان العقل والتميز وأعطاه حق الاختيار ثم كلفه وأمره بأشياء ونهاه عن أخرى، وحبب إليه أعمالاً وبغض إليه أخرى والناس جميعًا في ذلك سواء.

---

(١) انظر لنا تفصيلاً لذلك في كتابنا: التربية السياسية الإسلامية نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

وجوهر هذا التكليف ولبه تطبيق منهج الله على الحياة الإنسانية وتبليغه للناس والدعوة إليه والحركة به والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وأن يستمر على ذلك حتى يحظى بإحدى الحسنيين تحقيق أهدافه أو الشهادة في هذه السبيل.

- ووحدة القانون والنظام الذى يحكمهم:

القانون الإسلامى الذى يحكم الناس، ويتحاكمون هم إليه قانون واحد شرعه الله، وليس منحة من حاكم، ولا هو نابع من إرادة الدولة أو إرادة الشعب، لأن كل أولئك إذا وضعوا قانونًا جاز عليهم أن يحيفوا وأن يمايزوا بين فئة وأخرى من الناس، وأن يسرق فيهم الضعيف فيقيموا عليه الحد، فإذا سرق الشريف هابوه وعطلوا من أجله الحدود، وليجاز الله تعالى بما شاء من وضعوا فى قوانين بعض البلاد أن رئيس البلاد لا يسأل عما يفعل مع زعمهم أنهم «ديموقراطيون» أحرار أهل عدالة وإنصاف!!!

القانون الذى وضعه الله تعالى وأودعه قرآنه الكريم وسنة رسوله هو الذى يحترم حقوق الإنسان.

- ووحدة المرجعية العليا لهذا القانون:

هذه القوانين التى تحفظ للإنسان حقوقه الإنسانية، وتكرمه وتدافع عنه مرجعية عليا ثابتة مستقرة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تتبدل بتبدل الحكام، ولا تخضع لأهواء الأقوياء وأصحاب النفوذ، وإنما تنظر إلى الناس جميعًا فى مختلف الأمكنة والأزمان على أن مرجعيتهم العليا فى القوانين والأنظمة هى: القرآن الكريم وسنة المعصوم ﷺ، وهى مرجعية تكفَّل الله بحفظها بنفسه بينما استحفظ الناس على سائر المرجعيات الدينية.

تلك هى الأسس المنهجية الفكرية التى قامت عليها حقوق الإنسان فى الإسلام.

ب- عراقة حقوق الإنسان فى الإسلام وأنواعها:

حقوق الإنسان فى الإسلام موثقة فى أعرق وأقدم وأشرف وأصدق وثيقة عرفتها البشرية فى هذا المجال، وهى الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

- إن أقدم ما عرف فى تاريخ الإنسان من وثائق تقرر له حقوقه هى:

- «الماجناكرتا»:

الصادرة سنة ١٢١٥م - ٦١٢هـ. أصدرها ملك الإنجليز فى ذلك التاريخ «جون».

- وثيقة الحقوق:

الصادرة فى انجلترا سنة ١٦٨٩م - ١١٠١هـ.

- وإعلان حقوق الإنسان والمواطن:

الصادر فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية ١٧٨٩م - ١٢٠٤هـ.

- وإعلان حقوق الإنسان:

الصادر فى الولايات المتحدة الأمريكية ١٧٩١م - ١٢٠٦هـ.

- والإعلان العالمى لحقوق الإنسان:

الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م - ١٣٦٨هـ.

- كل ذلك سبقه الإسلام فى إعلان حقوق الإنسان بأكثر من ستة قرون من الزمان.
- وحقوق الإنسان الرئيسة قد أجملها الإسلام فى خمسة حقوق عامة يدخل فى كل منها عديد من الحقوق، بل جعل الإسلام هذه الحقوق العامة الخمسة من مقاصد الشريعة الإسلامية التى تسعى إلى تحقيقها، وهى:

١- حق الإنسان فى المحافظة على حياته:

ولذلك حرّم الإسلام قتل النفس إلا قصاصًا أو حدًا، وجعل قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعًا ﴿...مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢]، وروى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن فى فُسْحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا».

٢- وحق الإنسان فى المحافظة على عقله:

ولذلك حرم الإسلام الخمر وكل ما يذهب العقل من مخدر. وطالب الإنسان بتعهد العقل بالتعلم والتفكر والتدبر، وأمر بصيانة العقل وحمايته من كل ما يضره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾ [المائدة: ٩٠]. وروى النسائى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حرّم الله الخمر، وكل مسكر حرام».

ولا يضر العقل كالخمر والمسكر والمخدر.

٣- وحق الإنسان فى المحافظة على دينه:

للإنسان حق اختيار دينه وحق التدين بما فيه من عبادات وشعائر، وقد كفل له الإسلام هذا كما أوضحنا آنفًا، وحرّم أن يُفتن أحدٌ عن دينه، بل اعتبر هذه الفتنة أشد من القتل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

٤- وحق الإنسان فى المحافظة على نسله:

ولذلك شرع الله الزواج وجعله السبيل للحصول على النسل، وشرع أنظمة الأسرة وتربية الأبناء ورعايتهم، وحرم أن يقتل الرجل أبناءه خشية الفقر أو لوجود الفقر، وجعل الأب راعيًا لأسرته ومسئولاً عن رعيته، وروى ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى، وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم...**». وحذر الإسلام من فتنة الولد.

وحرّم الإسلام الاعتداء على النسل حتى لو كان جنينًا وجعل فى ذلك الاعتداء عقابًا دنيويًا وأخرويًا.

٥- وحق الإنسان فى المحافظة على ماله:

وذلك بمشروعية العمل بل المطالبة به، ومشروعية الكسب والإنفاق والاقتناء والملكية، ووضع الأطر الملائمة لكل ذلك بحيث يحفظ لكل إنسان ماله، ويحرم الاعتداء على المال بالغصب أو السرقة أو الاختلاس، وجعل لكل اعتداء على المال عقوبة دنيوية وأخروية أو إحداهما.

ورشد الإسلام الإنفاق فحرم الإسراف والتقتير، وأوجب الزكاة وحبب فى الصدقات، ودعا إلى تثمير المال ومنع اختزانه ومنعه من الحركة والتداول، وحرم كنز المال وتوعد عليه، وحذر من فتنة المال.

كل هذه الحقوق كفلها الإسلام للإنسان، وتحت كل حق من الحقوق عشرات الحقوق الفرعية، وكل ذلك حافظ الإسلام عليه وسن تشريعات لتنظيمه.

وجعل الإسلام المجتمع الإسلامى وحكومته وحاكمه يتحملان مسئولية احترام هذه الحقوق والمحافظة عليها، ليعيش الإنسان حياة حرة كريمة، بل جعل كل فرد فى المجتمع مسئولاً عن هذه الحقوق أن يحافظ عليها ولا يتعرض لشىء منها بانتقاص أو إهدار.

جـ- مفردات حقوق الإنسان فى الإسلام:

هذه المفردات لا تكاد تحصى فى مثل هذا الحيز من الكتاب، لكن إجمالها فى تلك الأنواع الخمسة التى ذكرنا آنفًا يوضح رءوسها وأصولها، ويدع المجال واسعًا لسرد كثير من مفرداتها.

ونستطيع أن نجمل ذلك فى قاعدة عامة هى: أن كل عمل يؤدى إلى تكريم الإنسان واحترامه والمحافظة عليه هو حق من حقوقه فى الإسلام.

غير أننا حريصون على ذكر بعض المفردات، حتى نكون على ذكر منها، وعلى حذر من انتقاصها أو إهدارها، ولكى تكون لنا رغبة فى توفيرها لصاحبها، لأن المجتمع المسلم مجتمع متعاون على البر والتقوى، متكافل متوادّ متراحم حريص على طاعة الله تعالى باتباع منهجه ونظامه، ومن أهداف هذا المنهج تأمين حقوق الإنسان وصيانتها.

ومن هذه المفردات:

- الحق فى الحياة.
- والحق فى الحرية.
- والحق فى الكرامة.
- والحق فى المساواة مع الآخرين فى الحقوق والواجبات.
- والحق فى العدالة.
- والحق فى العمل والكسب والاقتناء.
- والحق فى الملكية.
- والحق فى الأمن.
- والحق فى التعلم والعلم والتعليم.
- والحق فى الصحة علاجًا ووقاية.
- والحق فى المعرفة والإعلام الصادق الشفاف.
- والحق فى مسكن ملائم.
- والحق فى تكوين أسرة.

- والحق فى التنقل والسفر.

- والحق فى الدفاع عن النفس.

- والحق فى التفكير الحر.

- والحق فى التعبير.

- والحق فى إنشاء حزب سياسى بدون وصاية أو استئذان الحزب الحاكم.

- والحق فى التقاضى.

- والحق فى أن يحاكم أمام القاضى الطبيعى لا الاستثنائى ولا العسكرى.

- والحق فى إصدار الصحف دون وصاية.

- والحق فى إنشاء أجهزة الإعلام ووسائله.

- والحق فى الاعتراض والنقد.

- والحق فى تداول السلطة.

- والحق فى انتخابات حرة نزيهة.

- والحق فى الترشح لأى منصب.

- والحق فى اختيار مذهب سياسى.

- والحق فى العلم والاكتشاف والاختراع.

- والحق فى المشاركة فى أى عمل وطنى.

- والحق فى الدعوة إلى الله.

- والحق فى الحركة والتغيير.

- والحق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- والحق فى الجهاد فى سبيل الله تعالى.

إلى غير ذلك من كثير من الحقوق التى أقـرتها الشرائع السماوية، والدساتير والقوانين، فى كل بلدان العالم المتحضر البعيد عن التسلط والاستبداد.

ثالثًا: الحقوق الاجتماعية:

الحياة الاجتماعية فى الإسلام هى الصورة العملية التطبيقية لقيم الإسلام ومبادئه، وهى التعبير الدقيق الصادق عما أحله الله تعالى للإنسان، وما حرّمه عليه من قول أو صمت ومن عمل أو ترك.

والحقوق الاجتماعية للإنسان فى الإسلام تتناول جميع شعب الحياة الإنسانية بغير استثناء لأى شعبة منها.

وحديثنا عن الحقوق الاجتماعية للإنسان فى الإسلام يتناول نقطتين هما:

- الأسس التى قامت عليها هذه الحقوق.
- والأهداف التى يُحققها التمسك بهذه الحقوق.

أ- الأسس التى قامت عليها الحقوق الاجتماعية:

قامت الحقوق الاجتماعية للإنسان فى المجتمع الإسلامى على أسس عادلة تجعلها أحسن ما تكون، ومن هذه الأسس:

- التأكيد على أن ممارسة هذه الحقوق الاجتماعية تثرى المجتمع، وتمكن الإنسان من الامتداد الطبيعى فى الحياة ومن التفاعل معها تفاعلاً يحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة.
- وتحقيق التوازن الاجتماعى بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، دون مبالغة فى حق أحد الطرفين على حساب الطرف الآخر، كما فعلت بعض النظم التى أشرنا إليها آنفًا.
- وتحقيق المساواة بين الناس فى التمتع بهذه الحقوق، دون نظر إلى غنى أو فقر، أو قوة أو ضعف، أو عالم أو خامل، أو صاحب عمل وعامل، كما فعلت ذلك بعض النظم أيضًا.
- واعتبار هذه الحقوق الاجتماعية نظامًا شرعه الله تعالى لصالح البشرية فى حاضرها ومستقبلها، وليست منحة من حاكم أو سلطان يعطيها مَنْ يشاء ويحرمها مَنْ يشاء، وكافل هذه الحقوق هو المنهج الذى شرعه الله، ورغبة الإنسان فى إرضاء ربه سبحانه وتعالى بطاعته، بالعمل بكل ما جاء فى هذا المنهج.
- واستمرارية هذه الحقوق وتجددها ما دام الإنسان يعيش فى هذه الحياة، لأنها فى الأصل نعمة من الله تفضل بها على عباده ليكرمهم بها، ولا ينزع نعمته من أحد إلا إذا كفرها، بل جعلها له مستمرة على الرغم من كفره إياها، لأنه سبحانه قد يملى له.

- وقد جعل الله لهذه الحقوق مؤسسات ترعاها وتكفلها ابتداء من البيت إلى المسجد إلى المدرسة إلى المجتمع، حيث جعل وظيفة كل مؤسسة من هذه المؤسسات رعاية هذه الحقوق وصيانتها ودعمها والمعاونة على الوصول إليها.

- وأنها حقوق غير مقيدة بزمان بعينه ولا بمكان بذاته، وإنما ميدانها التى تمارس فيه هو الحياة الدنيا فى كل أزمانها وفى جميع أمكنتها، أى العالم كله فى حاضره ومستقبله، لأنه لا يصلح هذا العالم إلا بهذا المنهج ولا يصلح هذا الإنسان إلا بتطبيق هذا المنهج.

ب- الأهداف التى يحققها التمسك بهذه الحقوق:

هذه الحقوق الاجتماعية الإسلامية للإنسان عند ممارستها والتمسك بها تحقق للفرد والمجتمع أهدافًا جليلة نبيلة ترى حياة الإنسان وتجعلها أكثر ملاءمة لتكريم الله تعالى له.

ومن هذه الأهداف:

١- تحقيق مصالح الدين والدنيا معًا، وذلك من خلال:

- إحسان عبادة الله تعالى وفق ما شرع دون أن يقيده أحد فضلاً عن أن يمنعه من أدائها.

- وحسن خلافة الله فى الأرض، لإقامة دينه وتطبيق منهجه ونظامه، والإسهام فى الحكم بما أنزل الله على خاتم رسله محمد ﷺ.

- وتطبيق التعارف والتفاهم والتآلف بين الناس، لكى يمهد ذلك إلى التعاون فيما بينهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

- والتمكين لدين الله فى الأرض؛ لأن من يمارس حقوقه التى شرعها الله تعالى له يؤدى بالضرورة واجباته، ومن كان كذلك؛ فهو المؤمن الذى وعده الله تعالى بثلاث عدات هى:

- استخلافه فى قيادة الناس وإرشادهم.

- والتمكين له ولدينه فى الأرض.

- وتبدير خوفه أمنًا وطمأنينة.

وصدق الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...﴾ [النور: ٥٥].

٢- والوصول إلى الإصلاح الاجتماعى، وذلك أن ممارسة الإنسان لكل الحقوق الاجتماعية كما شرعها الله تعالى لابد أن تؤدى به وبمجتمعه إلى هذا الإصلاح الاجتماعى المنشود، بل إلى الرفاهية الاجتماعية، بعد أن يحقق فى طريقه إلى ذلك:

- التكيف الاجتماعى.
- والتنشئة الاجتماعية.
- والتماسك الاجتماعى.
- والضبط الاجتماعى.
- والتضامن الاجتماعى.
- والتكامل الاجتماعى.
- والتأمين الاجتماعى.
- والرفاهية الاجتماعية(١).

٣- وإزالة الأمراض الاجتماعية من المجتمع؛ وذلك أن ممارسة الحقوق الاجتماعية التى شرعها الإسلام للإنسان تستهدف تنقية المجتمع من أمراضه الاجتماعية وإزالتها نهائيًا، كى ينجو المجتمع من هذه الأمراض فى حاضره ومستقبله.

وأبرز هذه الأمراض الاجتماعية التى يستهدف الإسلام إزالتها من المجتمع هى:

- التفكك الاجتماعى.
- والشذوذ الاجتماعى.
- والصراع الاجتماعى.
- والضغط الاجتماعى.
- والقلق الاجتماعى.
- والمشكلات الاجتماعية(٢).

٤- وصناعة الحضارة الإنسانية، لأن الحضارة - كما يقولون - خبرات متبادلة بين أفراد الناس وجماعاتهم، تقوم على الحقائق العلمية، والمسارات التاريخية، والقواعد

---

(١) شرحنا معانى هذه المصطلحات فى مدخل هذا الكتاب.

(٢) شرحنا معانى هذه الأمراض الاجتماعية فى مدخل هذا الكتاب.

الأخلاقية والسلوكية، والقوانين والأعراف والتيارات العامة للفكر الإنساني. ولها تعريفات عديدة لا تخرج عما عرفناها به بعد الاطلاع على كثير من هذه التعريفات.

- وبناء على تعريف الحضارة فإن لها مفردات كثيرة لا يقدر على احترامها والقيام بأعبائها إلا ذلك الإنسان الذى يمارس حقوقه الاجتماعية فيزداد خبرة وقدرة على تحليل بل تمحيص ما يحيط به من هذه المفردات فيعمل على الوفاء بها، بل يعتبرها من واجباته الملزم بأدائها.

- وممارسة الإنسان لحقوقه الاجتماعية التى شرعها له الإسلام تفسح أمامه المجال ليأخذ من ثقافة الآخرين وحضارتهم وليعطيهم مما لديه من ثقافة وحضارة - على شرط واحد هو أن يحافظ المسلم على أصوله وثوابته فى مجالات العقيدة والعبادة والقيم الأخلاقية.

ولكم أخذت الحضارات بعضها من بعض دون إحساس الآخذ بالدونية أو إحساس المعطى بالتعالي[1]، والحضارة الإسلامية ليست بدعًا بين الحضارات وإنما أخذت وأعطت، استفادت وأفادت وتلك سنة الله فى خلقه لا يعترض عليها إلا غافل.

- ومن أهداف الحقوق الاجتماعية فى ممارستها مع أداء كل الواجبات الاجتماعية، إحداث توازن بين أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته، دون تحيُّف على أحد أو جماعة أو فئة، لصالح غيرهم.

ولم يرد فى ممارسة الحقوق وأداء الواجبات الاجتماعية شىء من ظلم قبيل على حساب قبيل؛ لأن واضع هذه الحقوق والواجبات ومانحها والملزم بها هو رب الناس أجمعين فى كل زمان ومكان، ولكل جنس ولون، لأن خطاب الله تعالى لعباده جميعًا يتراوح بين:

- يا بنى آدم.
- ويأيها الناس.
- ويأيها الإنسان.[2].

---

(١) ليس صحيحًا ما يردده بعض المتعصبين من كتاب الغرب ونخالة مستشرقيهم من القول بصراع الحضارات، لأن الصراع إنما يثيره بعض الحكام المستبدين، وبعض الكتاب الغافلين المتعصبين، ويا ليت أحد القائمين بهذا الصراع يدلنا على حضارة لم تأخذ، أو على حضارة صارعت حضارة، وإنما هم الحكام الطائشون والكتاب المتعصبون.

(٢) آيات القرآن المتجهة بالخطاب بهذه الصيغ أكثر من ثلاثمائة مرة وما خوطب الإنسان إلا بما فيه خير له فى دينه ودنياه.

وكل صيغة من هذه الصيغ تتجـه إلى كل الناس دون تمييز بينهم، وتطالب الناس بعمل ما ينفـعهم فى دنياهم وآخـرتهم، وليس هناك توازن فى التعامـل مع الناس أحسن من هذا ولا أشمل ولا أعم، ولا أحنى عليهم وأرحم بهم.

رابعًا: الحقوق السياسية:

الحقـوق السياسيـة للإنسان المسلم فى المجتـمع المسلم، تحدثنا عنها ونحن نتـحدث عن حقوقه الإنسانية أو المدنية، كما تضمنها كـلامنا ونحن نتحدث عن الحقوق الاجتماعية، مما يجعلنا نقصر كلامنا عنها الآن على الأهداف التى تحققها، ومن خلال ذلك تتبين لنا الحقوق السياسية للإنسان أوضح ما تكون، لأن الحديث عن الأهداف يكشف المعالم ويرسم الملامح والسمات.

- وقبل الحديث عن هذه الأهداف نؤكد أن هذه الحقوق السيـاسية لا تكتمل إلا إذا صحبها أداء الواجبات.

وسوف نتحدث فى الحقوق السياسية عن ثلاث نقاط هى:

- أهداف الحقوق السياسية.
- ومعنى ممارسة هذه الحقوق السياسية.
- ومعنى أداء الواجبات السياسية.

أ- أهداف الحقوق السياسية:

الحقوق السياسية للإنسان المسلم عند ممارستها وفهم أبعادها وأهدافها، ودقة التعامل معها تجعل منه إنسانًا أكثر نضجًا وأعمق إدراكًا لكل ما يحيط به من ناس وأحداث، بل تجعل منه إنسانًا قادرًا على مـواجهة التحدى الموجه ضد الإسـلام والمسلمين، فهذه الحقوق السـياسية للمسلم حصانة له ضد كل ما يحيط به من سلبيات سياسية على كافة مستوياتها.

ولنتحدث عن بعض هذه الأهداف:

١- تكوين الإنسان المسلم السياسى:

وذلك من خلال ممارسته لحقوقه السياسية وأدائه لواجباته السياسية، فهذه وتلك تضيف إليه خبرات تنضجه وتكوّن لديه وعيًا سياسيًا جيدًا.

إن الإنسان وهو يمارس حقوقه السياسية ويؤدى واجباته، يجد نفسه قد اكتسب خبرة التدبير للأمور، وخبرة التدرب على القيادة، وخبرة ممارسة الإصلاح، والإنسان بغير هذه الخبرات والقدرات يعد ناقص التكوين اجتماعيًا وسياسيًا ودعويًا وحركيًا..

٢- وتكوين المسلم القادر على التعامل مع التيارات المعادية:

وهذه التيارات المعادية معظمها متجه إلى معاداة الإسلام والمسلمين، ولابد لنا أن نقرر أن هذه التيارات المعادية للإسلام والمسلمين يحركها اليهود أولاً، ومن يجندهم اليهود أو يركبونهم لتحقيق أغراضهم فى هذه العداوة من بعد ذلك، وبخاصة متعصبو النصارى والمخدوعون منهم فيما سمى «الصهيو مسيحية»، وهى عداوة تقليدية جاء فيها قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ [البقرة: ١٢٠].

وهذه التيارات المعادية للإسلام والمسلمين تحدثنا عنها ونحن نتحدث عن الأخطار الخارجية التى تهدد المجتمع الإسلامى كالصهيونية، والإلحادية، والصليبية الحديثة والمستوطنين قدامى وجددًا، وفى مقدمة هؤلاء جميعًا اليوم الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها أو أذيالها الذين يتحركون بحركتها، وكل تلك التيارات تحتاج من المسلم قدرات خاصة ليواجهها ويتعامل معها.

وقد تولّى كبر هذه التيارات الولايات المتحدة الأمريكية التى تأتمر بأمر إسرائيل، فتفترى على الإسلام أنه دين العنف والإرهاب، وتتخذ من ذلك ذريعة لاحتلال بعض بلاد المسلمين، وكذلك يفعل الاتحاد الروسى اليوم مع الشيشان ومع الجمهوريات الإسلامية الست فى آسيا.

فكيف يتعامل مع ذلك كله إن لم يكن قد استفاد وعيًا سياسيًا يمكنه من التعامل مع هذه التيارات.

- ولقد أخذت المعاداة للإسلام والمسلمين ثلاثة أشكال للتحدى، شكل منه على مستوى الفرد، وآخر على مستوى الجماعات الإسلامية، وثالث على الدول الإسلامية.

- أما ما جاء على مستوى التحدى للأفراد؛ فقد منعت فرنسا -بلد شعار الحرية والإخاء والمساواة- منعت تلميذات المدارس من ارتداء غطاء للرأس «الحجاب»، وحذت حذوها بلاد أوروبية كثيرة كبريطانيا وهولندا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا!!!

- وأصبح سائداً بين دول أوربية كثيرة فى مقدمتها هولندا، الترحيب الشديد والعون لكل من يتهجم على الإسلام من أبناء المسلمين، أو يقلل من شأن مقدساته، وتتولى أجهزة المخابرات فى تلك البلاد حماية هذا المتهجم وحفزه على مزيد من التهجم لينال بعد ذلك المناصب والأموال.

- وأما ما جاء على مستوى التحدى للجماعات؛ فإن أمريكا فى المقدمة فى تحدى الحركات الإسلامية، وقد ذكرنا فى حديثنا عن المستوطنين الجدد (الولايات المتحدة الأمريكية) أن أمريكا طلبت فى العشرين من يناير سنة ١٩٧٩م من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إعداد دراسة شاملة حول الحركات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم!!! ثم يتساءل الغافلون من المسلمين قائلين: لماذا تحارب كثير من حكومات العالمين الإسلامى والعربى الحركات الإسلامية؟ وكل حركة إسلامية فى العالم تواجه اتهاماً مسبقًا بأنها تعمل لقلب نظام الحكم، أو تريد الحكم بالإسلام بديلاً من العلمانية!!!

- الحركات الإسلامية على مستوى العالم الإسلامى معزولة سياسيًا، محاصرة اقتصاديًا، مشردة اجتماعيًا، ممنوع أفرادها من تولى أى سلطة وممنوع أبناؤها من الالتحاق بكليات الشرطة والكليات العسكرية.

- الحركات الإسلامية فى العالم الإسلامى ممنوعة من التعبير عن أى مشروع إصلاحى مهما كان صغيراً، وحاشا لله أن تفكر فى إنشاء حزب سياسى أو جريدة، أو ترشح لمجلس نيابى أو محلى!!!

وخطتهم مجتمعين مسلمين وأجانب فى ضرب الحركات الإسلامية تكاد تكون واحدة وهى:

- إطلاق الإشاعات الكاذبة ضد هذه الحركة أو تلك واستخدام أجهزة الإعلام لهذا التشويه.
- ووصف هذه الحركات أو الجماعات بالعنف والإرهاب.
- وتحميلها تبعات أى عمل مخالف لقانون البلاد، حتى لو قامت الدلائل على عكس ذلك.
- وتعقب أفرادها وحصرهم وتصنيفهم، وإلقاء القبض عليهم لأدنى شبهة ولغير شبهة، ونتيجة هذا القبض أو الاعتقال معروفة لكل من يعيش فى العالم الإسلامى؛ الابتداء بالتعذيب والانتهاء بالمحاكمة أمام القضاء العسكرى وإدانتها قبل محاكمتها.

● وقد اخترقت بعض أجهزة المخابرات بعض هذه الجماعات وأغرتها بالقيام بأعمال لا يقرها الإسلام فإذا قامت بها ألصقتها بالإسلام وحاكمت عملاءها!!!

● وخوفًا من هذه الجماعات المخترقة المخالفة للإسلام في أعمالها التي أغرتها بها أجهزة المخابرات، أصدرت كثير من بلدان العالم الإسلامي قوانين تحظر أي جماعة إسلامية وتطارد أعضاءها حتى الموت.

وبهذا وبغيره من القوانين التعسفية التي أغرى بها أعداء الإسلام كثيرًا من الحكومات في العالم الإسلامي، حتى أصبح الوطن الإسلامي سجنًا وقيدًا على الحقوق الأساسية أو الشخصية أو المدنية للإنسان.

● ومن التحدي لبعض الجماعات الإسلامية أنه عندما أتيح لها - في ظل ادعاء الحرية - أن تدخل انتخابات المجالس المحلية أو المجالس النيابية في بعض بلدان العالم الإسلامي فحققت نجاحًا - على الرغم من التزوير في جداول الانتخابات وانتهاء بإشراف القضاء على فرز الأصوات - عندئذ لم يسع الحكومة إلا أن تلغي هذه الانتخابات أو تفصل الذين نجحوا في الانتخابات!!!

● وخوفًا من وصول بعض الجماعات الإسلامية إلى المجالس النيابية، فإن نتائج انتخابات هذه المجالس في كثير من بلدان العالم الإسلامي لابد أن تكون تسعة وتسعين في كل مائة لصالح الحزب الحاكم الأوحد، ومن رشح للرياسة للأبد أن يحصل على ٩٩,٩٩٩٪ وهذه النسبة دليل عندهم على حرية الانتخابات ونزاهتها. ومن لم تعجبه هذه النتيجة الشفافة الصادقة ففي كندا وأستراليا وأمريكا نفسها متسع له، مهما كان بلده محتاجًا إلى تخصصه.

إنها خطة مرسومة بإحكام عدو قادر فاجر ضد مستضعف مقهور، تحسب عليه أنفاسه، وتسجل عليه خطواته.

● ومن أجل قمع الجماعات الإسلامية - في ظل الانتخابات النزيهة الشفافة - تقوم قوات الأمن خارج اللجان الانتخابية بجمع بطاقات الناخبين قسرًا وعدم تسليمها لهم إلا بعد انتهاء الانتخابات أو الادعاء بأنها ضاعت!!! وأحيانًا تعتقل المرشح وتمنع وكلاءه من مزاولة عملهم!!!

● إن الإنسان المسلم في العالم الإسلامي عليه أن يعي هذه الحقائق وأن يعرف أهدافها، وأن يتمسك بحقوقه السياسية وأن يقاوم هذا التعسف وهذا الانحراف.

• وأما ما جاء من التحدى على مستوى الدول الإسلامية، فحدث ولا حَرَج، فقد تضامنت الصهيونية والصهيومسيحية والصليبية الحديثة وأمريكا وأذنابها وأذيالها والاتحاد الروسى وأذنابه، كل هؤلاء تضامنوا فأطلقوا وحوش الصرب والكروات على الأبرياء العزل من مسلمى البوسنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا فذبحوهم وقتلوهم ودفنوهم فى مقابر جماعية واغتصبوا النساء وقتلوا الأطفال وشربوا من هذه الدماء الزكية حتى سكروا، ثم قامت أمريكا بحل هذه المشكلة، فحلتها لصالح الصرب والكروات وبإكراه البوسنة والهرسك على قبول اتفاق جاء منحازًا إلى الباطل!!!

• وتضامن الغرب بغض الطرف عما يفعله الاتحاد الروسى فى الشيشان وجاءت روسيا بأذيالها وعملائها ليعملوا على إبادة المسلمين فى الشيشان، حتى استطاعت روسيا أن تقيم فى الشيشان حكومة عميلة لها.

• وكذلك فعلت أمريكا وأذنابها وأذيالها فى أفغانستان ثم فى العراق، بادعاءات كاذبة وتهم باطلة فاحتلت البلدين وأقامت فى كل منهما حكومة عميلة لها.

• وتضافر الغرب وفى مقدمته أمريكا وعاونت على ذلك روسيا للقضاء على حكومة «طالبان» بحجج واهية وتَعلاَّت تافهة.

• وكذلك فعلت أمريكا وأذنابها وأذيالها حتى فصلت جنوب السودان عن شماله، وهى تعمل الآن لفصل غربه عن شرقه، ولا تعجز عن أن تجد العملاء من أهل البلاد، والهدف فى كل ذلك واضح هو ضرب أى دولة إسلامية والاستيلاء على النفط وبناء قواعد عسكرية تمكنها من التحكم فى العالم كله. والحديث فى ذلك ذو شجون.

• وما ينتظر إيران بوصفها جمهورية إسلامية ليس خافيًا على أى مراقب، وليست أهدافه بعيدة عن الأهداف التى ذكرنا.

• وما حدث لباكستان بوصفها دولة إسلامية ليس بعيدًا عن الأذهان...

الغريب أن هذه الجرائم تقوم بها دول الغرب أكثر الأمم ادعاء للحرية والديموقراطية، على الرغم مما حدث فى سجن أبى غريب فى العراق، وعلى الرغم من إكراه أسير عراقى على سب دين الإسلام ورسول الإسلام مع الاستنجاد بالمسيح والمسيحية!!!

إنها الحرية والديموقراطية التى يتحدثون عنها، وإن أعمالهم لتكذبهم، وإن التاريخ ليشهد على جرائمهم.

إنها أمريكا وحلفاؤها أراذل البشر وأبعدهم عن الإنسانية، إنها أمريكا الإدارة والحكومة وليست الشعب الأمريكى الذى تظاهر بالملايين ضد حرب العراق.

- والبلدان الأفريقية المسلمة البالغ عددها إحدى وثلاثين دولة، تدبر لها أمريكا وأذنابها على الدوام مؤامرات وأنواعًا من الكيد لعزلها عن الإسلام، واستئصال كل ما له علاقة بالإسلام فيها، وليس بمستغرب على الغرب ورأس حربته أمريكا لأن ذلك نهج الحكومات الغربية منذ مئات السنين.

- والبلدان الأسيوية المسلمة البالغ عددها ستًا وعشرين دولة، ماذا دبرت لها أمريكا والغرب واتحاد روسيا ليردوا كثيرًا منهم عن الإسلام ويفتنوهم عنه، ويصدوا أى مسلم عن سبيل الله؟

- ماذا يفعل المسلم بوصفه صاحب حقوق سياسية ليواجه هذه التيارات وتلك المؤامرات والمكائد؟

ألا يحتاج ذلك إلى وعى سياسى وتأهب واستعداد للرد على هذا التحدى وإبطال ذلك الكيد؟

ومن لمواجهة هذه الجرائم إذا لم يكن شباب المسلمين الذين أعدوا سياسيًا، هم القادرين المتحمسين الفاعلين المضحين؟

- وأى تربية سياسية لهؤلاء الشباب ما لم تؤهلهم لحمل مسئولية الرد على التحدى؟

- إن سبعًا وخمسين دولة إسلامية فى العالم، يريد لها الأعداء أن تتخلع عن إسلامها، وأن تعطل منهجه ونظامه وأن تزدرى ثقافته وحضارته، وأن تجعلها دويلات تابعة ذليلة لدولة غير إسلامية!!!

فهل يجوز السكوت على ذلك؟

- إن المسلمين اليوم يوشكون أن يكونوا ربع سكان العالم عددًا، إذ قد بلغ عددهم ما يقرب من ألف وثلاثمائة مليون إنسان[1]. وإن كانت هيئة الأمم المتحدة ليست مبرأة من التحيز المضاد للإسلام لأنها هيئة تسيطر عليها الولايات المتحدة تستخدمها عندما تريد وتتجاهلها عندما تهوى.

---

(١) حسب إحصاء هيئة الأمم المتحدة لعدد سكان العالم الصادر سنة ٢٠٠٣م.

● ألا يستحق ذلك كله أن ينبرى الشباب المسلم للتصدى لهذا التحدى وهذه المؤامرات وتلك الأنواع من العداوات بالأسلوب الذى يرونه مناسبًا لهم ولأعدائهم، ولزمانهم ولمكانهم؟

ب- معنى ممارسة الحقوق السياسية:

ممارسة الحقوق السياسية تعنى أمورًا ثلاثة:

- مزاولتها وعلاجها.
- والتمسك بها والحرص عليها.
- ورفض انتقاصها أو الحرمان منها.

وقد أوضحنا فيما سبق هذه الحقوق السياسية فى مجملها وفى تفصيلها، وقلنا: إن هذه الحقوق دعم من الإسلام لإنسانية الإنسان وكرامته، وتعزيز لحريته.

ونقول هنا: إن من سنن الظالمين أن ينتقصوا حقوق الناس سياسية وغير سياسية أو يهضموها ليزيدوا بذلك من قوة بقائهم فى مراكزهم وسلطاتهم دون معارض أو محتج.

وما لم يتنبه الناس لذلك ويطالبوا بحقوقهم سياسية وغير سياسية ويصروا على التمسك بها؛ لأنه لا يضيع حق وراءه مطالب؛ فسوف يزداد الظالمون علوًا فى الأرض وفسادًا!!!

● وفى الإسلام كلمة الحقوق أعم من أن تكون سياسية فحسب إذ تشتمل على جميع أنواع الحقوق المعنوية والمادية.

وجميع هذه الحقوق أمر الله تعالى بإبقائها لأصحابها، مهما كانوا ضعافًا، أو يجهلون أنها لهم، مما يؤكد أن للحقوق فى الإسلام قدسية، ومما يؤكد أن المجتمع الإسلامى لا يكتمل بناؤه، ولا ينجح فى أداء وظيفته إلا بأن تؤدى الحقوق إلى أصحابها.

والآيات القرآنية الدالة على وجوب إعطاء الحقوق لأصحابها كثيرة، نذكر منها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦].
- وقوله جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ... ﴾ [الأنعام:١٤١].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

والحق صفة يجب أن يتحلى بها المؤمنون الذين يعملون الصالحات قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ [سورة العصر][1].

والحق فى هذه السورة الكريمة هو أداء الطاعات وترك المحرمات، وفى ذلك كل أنواع الحقوق.

- وقد فصلت السنة النبوية هذه الحقوق العامة - التى تدخل فيها الحقوق السياسية - إلى أنواع عديدة منها:

- حق الله تعالى على عباده.
- وحق العباد على ربهم سبحانه وتعالى.
- وحق الرسول ﷺ على المسلمين.
- وحق صحابته رضوان الله عليهم على المسلمين.
- وحق الإسلام.
- وحق المسلم على المسلم.
- وحق الوالد على ولده والمولود على والده.
- وحق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها.
- وحق الأم والأخت والعمة والخالة.
- وحق الأقارب والأرحام.
- وحق الجار، وحق الضيف، وحق الصديق.
- وحق الكبير على الصغير وحق الصغير على الكبير.
- وحق المال.
- وحق الفقراء والمساكين والسائلين وأبناء السبيل.

(١) قال الإمام الشافعى رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم» نقلاً عن ابن كثير فى تفسيره.

- وحق الضعيفين المرأة واليتيم.

- وحق الطريق.

- وحق المجالس.

- وحق المسافر.

- وحق المريض.

- وحق الشريك والحليف والبائع والمشترى.

- وحق من حضره الموت ومن مات.

- وحق الجنازة.

- وحق الطعام والشراب.

- وحق الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم.

- وحق القاضى وحق الشهادة.

وما لا أحصى من الحقوق التى وردت فى السنة النبوية المطهرة فى مئات الأحاديث النبوية، ولكنى أذكر حديثًا واحدًا على سبيل الاستشهاد؛ فقد روى البخارى بسنده عن سلمان رضى الله عنه أنه قال لأبى الدرداء رضى الله عنه: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبى ﷺ: «صَدَقَ سلمان».

● ونحن بصدد الحديث عن الحقوق السياسية، نجد من الواجب أن نذكر المسلمين ببعض القضايا السياسية التى يجب أن يعرفوها ويكونوا رأيًا حولها ويتمسكوا بحقوقهم فى التعبير عن آرائهم فيها.

ومن تلك القضايا:

- قضية تفتيت العالم الإسلامى وتجزئته وتحويله إلى دويلات وإمارات وممالك وجمهوريات وسلطات، وحق العالم الإسلامى أن يتوحد.

- وقضية تمزيق العالم العربى وتحويله إلى اثنتين وعشرين دولة ودويلة وسلطنة وإمارة..

- وقضية زرع إسرائيل فى قلب العالم العربى.

- وقضية حماية أمريكا لإسرائيل وعدوانها المتكرر على العالم العربى واحتلال فلسطين وأجزاء من دول عربية.
- وقضية سيطرة أمريكا على هيئة الأمم المتحدة.
- وقضية استعمال أمريكا لحق النقض «الفيتو» لصالح إسرائيل وضد العرب والمسلمين باستمرار.
- وقضية الاستيطان والاستعمار قديمًا وحديثًا.
- وقضية الاستشراق.
- وقضية التبشير أو التنصير فى بلاد المسلمين.
- وقضية هيمنة أمريكا على العالم العربى.
- وقضية احتلال أمريكا لبلدان إسلامية وعربية مثل أفغانستان والعراق.
- وقضية حظر صنع الأسلحة المتطورة على العالمين الإسلامى والعربى.
- وقضية تحريم صناعة الأسلحة النووية على العالمين الإسلامى والعربى.
- وقضية سيطرة أمريكا على النفط فى العالمين الإسلامى والعربى.
- وقضية سيطرة أمريكا والغرب على اقتصاد العالمين الإسلامى والعربى.
- وقضية منع كثير من بلدان العالمين الإسلامى والعربى من زراعة القمح وقصب السكر والقطن.
- وقضية التدخل فى التعليم فى العالمين الإسلامى والعربى لإفساده.
- وقضية إقصاء الدين عن الدولة.
- وقضية إفساد المرأة باسم الحرية والمساواة.
- وقضية تقليص عدد السكان فى العالم الإسلامى، بينما يشجعون هم زيادة عدد السكان!!
- وقضية الغزو الثقافى.
- وقضية محاربة القيم الإسلامية.
- وقضية وصف الإسلام بأنه دين عنف وإرهاب.

وغير ذلك من القضايا التى يجب أن يتنبه لها المسلمون وأن يعملوا ما وسعهم على تلافى أضرارها وأخطارها.

جـ- ومعنى أداء الواجبات السياسية:

هذه الواجبات السياسية هى التى يوجبها على المسلم وعيه السياسى والاجتماعى، وتستوجبها حقوقه السياسية؛ لأنه ما من حق إلا يقابله واجب، ما لم تؤد هذه الواجبات ينهار بناء المجتمع سياسيًا واقتصاديًا وعلميًا وخلقيًا ودينيًا وتصبح حياة الناس فوضى وضياعًا.

● وهذه الواجبات السياسية تتعلق بذمة كل من يعيش فى المجتمع، فهناك واجبات عديدة منها:

- واجبات الحاكم السياسية نحو البلد الذى يحكمه ونحو الناس الذين فى سلطته، ونحو الهيئات والسلطات والحكومة كلها، ونحو البلدان الأخرى «السياسة الخارجية».
- وواجبات جميع أفراد الحكومة وزراء ومديرين وغيرهم.
- وواجبات العلماء كل فى تخصصه.
- وواجبات ممثلى الشعب ونوابه.
- وواجبات المسئولين عن الأمن الخارجى للبلاد.
- وواجبات المسئولين عن التعليم.
- وواجبات المسئولين عن الإعلام.
- وواجبات كل مسئول عن عمل مهما بدا للناظر صغيرًا، لأن كل عمل يمثل ثغرة على الواقف عليها بأن يؤدى واجبه نحوها.
- وواجبات كل وزير عن تنفيذ مهام وزارته وإقدارها على أداء وظيفتها بكفاءة تحقق بها الكفاية.
- وواجبات رجال الجامعات ورؤسائها، كل فى مجال تخصصه، بحيث تسد كل الثغرات العلمية، وبحيث تشجع الباحث على البحث والكشف والابتكار.
- وما لا حصر له من الواجبات التى سنشير إليها فى النقطة التالية، بإذن الله تعالى.

٢- أداء الواجبات:

قلنا فى حديثنا عن هذا الهدف الرابع للمجتمع الإسلامى وهو ممارسة الحقوق وأداء الواجبات: إن الإسلام قد اعتنى تمامًا بقضية الحقوق والواجبات اعتناء لم يُسْبَق إليه فى دين أو نظام، ولم يلحقه فيه نظام.

وقد فرغنا من الحديث عن الحقوق، وبقى علينا أن نتحدث عن الواجبات.

فنقول بعون من الله تعالى:

الواجبات عندنا معشر المسلمين هى ما أوجبه الله تعالى علينا وسجله لنا فى كتابه الخاتم وعلى لسان رسوله الخاتم الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ.

ومن أجل ذلك لا تكون هذه الواجبات عند المسلمين محل نزاع أو اختلاف، وإنما قد تكون محل تفسير وتفصيل.

● وأداء هذه الواجبات واجب شرعى أولاً، ثم هى واجب عقلى ثانيًا لأن العقل يرحب بها ويستحسنها، ثم هى واجب اجتماعى لأن فى أدائها صلاحًا للمجتمع فى حاضره ومستقبله.

- وعندما يحرص المسلم على أداء واجباته يكون ذلك فى صالح دينه ودنياه - أى نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه - لأن الذى أوجبها هو الله خالق الإنسان الذى يعرف ما يصلحه وما يحفظ عليه كرامته الإنسانية، والذى فسرها وفصلها هو رسوله الخاتم ﷺ.

وفى مقابل هذا الأداء للواجبات ثواب الله وحسن جزائه، والتمكين لدين الله ومنهجه ونظامه.

- وعندما يحدث تقصير أو إهمال فى أداء هذه الواجبات، يكون فى ذلك خسارة للدين والدنيا معًا، لأن من لم يؤد واجبه قد استعدى على نفسه مَنْ أوجب هذه الواجبات سبحانه وتعالى؛ إذ عصاه وعصى رسوله ﷺ، وفى ذلك الخسران كل الخسران، وهدم الأسس التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى وانهياره، ومن تسبب فى ذلك فإن له من العقاب فى الدنيا ما شرعه الله لكل جريمة من جرائم ترك واجب، وله فى الآخرة عقاب آخر.

● وسوف نتحدث فى أداء هذه الواجبات عن نقطتين:

- الصورة المجملة لهذه الواجبات.

- والمسئولية فى هذه الواجبات.

والله ولى التوفيق.

أولاً: الصورة المجملة لهذه الواجبات:

آثرنا الصورة المجملة للواجبات لأنها الصورة التى نستطيع أن نتحدث عنها فى هذا الكتاب، أما الصورة التفصيلية لهذه الواجبات فعمل كبير وتفصيل شديد لا يحتمله هذا المجال الذى نحن بصدده.

وفى هذه الصورة المجملة للواجبات نقول:

إن الصورة المجملة للواجبات هى - فى تصورنا - نوعان كبيران:

الأول: ما يجب أداؤه من هذه الواجبات بالقول أو بالفعل وذلك منحصر فيما أمر الله تعالى به فى كتابه أو سنة رسوله ﷺ من قول أو فعل.

والآخر: ما يجب تركه من قول أو فعل من خلال الكتاب والسنة كذلك، من قول أو فعل أيضًا.

وهذه الصورة المجملة حصرت الواجبات حصرًا دقيقًا بحيث لا يفلت منها واجب، كما أن تقييد الواجبات بما جاء فى الكتاب والسنة لا يدع الفرصة لأن يزيد عليها بعض الناس واجبات ليس لها أساس فى الكتاب والسنة.

- والكتاب الكريم وسنة المعصوم ﷺ هما مرجعا الإسلام والمسلمين فيما أمر الله به وفيما نهى عنه، وموضوع الحلال والحرام فى كتب الفقه مجال واسع لمن أراد التفصيل فيما يجب وفيما لا يجوز، وأداء الواجبات مرتبط بمعرفة أنواع الخير لتؤدى، وأنواع الشر لتجتنب.

وإذا كان الحلال طيبًا كله، وكان بعضه أطيب من بعض فإن طلب الحلال واجب لابد أن يؤدى.

وإذا كان الحرام كله خبيثًا، وكان بعضه أخبث من بعض فإن تركه واجب لابد أن يؤدى كذلك.

وكل فريضة فرضها الله تعالى على عباده، يعد طلبها واجبًا على كل مسلم مكلف.

بكل ذلك وردت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وذلك توضيح للواجبات وبيان لوجوب أدائها ومن ذلك آيات من القرآن الكريم، منها:

- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

- وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

- وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]

● ومن كلمات السنة النبوية المطهرة:

- روى أحمد بسنده عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... من أمائل أعمالكم إتيان الحلال».

- وروى البيهقي - في شعب الإيمان - بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم» قال بعض العلماء: أراد بطلب العلم طلب علم الحلال والحرام، فالمراد بالحديثين عندهما واحد.

- وروى الطبراني - في الأوسط - بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء».

- وروى النسائي بسنده عن عرفجة قال: كنت في بيت فيه عتبة بن فرقد، فأردت أن أحدِّث بحديث - وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كأنه أولى بالحديث مني، فَحدَّث الرجل عن النبي ﷺ قال: «في رمضان تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب النار، ويصفَّد فيه كل شيطان مريد، وينادي مناد كل ليلة: يا طالب الخير هلم، ويا طالب الشر أمسك».

● وقد أمر الله تعالى بفعل الخير أمرًا مباشرًا فقال سبحانه وتعالى: ﴿...وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما الخير في هذه الآية الكريمة بأنه: صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق.

● وحديثنا عن هذه الصورة المجملة لأداء الواجبات يشتمل على نقطتين:

- تنوع هذه الواجبات.

- وأسلوب الإسلام في الالتزام بهذه الواجبات.

أ- تنوع هذه الواجبات:

لكننا سوف ننوع هذه الواجبات إلى نوعين:

- **ما يجب قوله أو فعله.**

- **وما يجب تركه.**

والمسلم مطالب بأن يلتزم ما أمر به وينتهى عما نهى عنه، فنقول:

إن ما يجب على المسلم أن يقوله أو يفعله هو فى إيجاز شديد كل ما أمر الله تعالى به فى كتابه الكريم أو سنة رسوله الخاتم ﷺ.

وما يجب على المسلم أن يتركه، هو كل ما أمر الله تعالى بتركه أو نهى عن فعله، فى كتابه الكريم، وفى سنة رسوله الخاتم ﷺ.

فهذا نوعان من الواجبات التى أوجب الله أداءها على عباده، نوضحها فيما يلى:

النوع الأول: ما يجب على المسلمين قوله أو فعله من الأمور:

والذى أوجب هذا أن الله تعالى أمر به، أو أمر به الرسول ﷺ.

- والأمر فى القرآن والسنة قد يكون واردًا بصيغة فعل الأمر لخطاب الفرد أو الجماعة مثل قوله تعالى:

- ﴿ ...وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...﴾ [البقرة: ٤٣] لخطاب الجماعة.

ومثل قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ...﴾ [التوبة: ١٠٣] لخطاب الفرد.

- وقد يرد الأمر بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ...﴾ [النور: ٣١].

- وقد يرد الأمر بلفظ الخَبَر، وله حالتان:

- إما مع جملة فعلية ومتعلقاتها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ...﴾ [الأعراف: ٣٣][1].

---

(١) أخبر الله تعالى أنه حرم الفواحش من خلال الجملة كلها، وهى جملة فعلية: ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ...﴾.

● وإما مع جملة اسمية من مبتدأ وخبر وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...﴾ [النساء: ٩٢][1].

وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ [البقرة: ٢٣٤].

– وقد يرد الأمر بصيغة المصدر، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾ [محمد: ٤] فكلمة ضرب الرقاب مصدر يفيد الأمر أى فاضربوا رقابهم.

– وفى القرآن مئات الآيات التى تفيد الأمر، فتعنى بذلك وجوب أداء الواجبات.

● وأما السنة النبوية ففيها مئات بل ألوف صيغ الأمر التى أوردنا لها نماذج من القرآن الكريم، ومن ذلك الأحاديث النبوية الشريفة:

– ما رواه مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قالا: قال رسول الله ﷺ: **«قاربوا، وسددوا، وأبشروا، واعلموا أنه لن ينجو أحدكم منكم بعمله، ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»** فلفظ: قاربوا فعل أمر.

– وما رواه البيهقى – فى شعب الإيمان – بسنده عن عبد الله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظى من الأمم»** فهذا خبر يتضمن أمرًا للمسلمين بوجوب اتباع محمد ﷺ.

– وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء»** فهذا أمر باتباع نظام فى عدة المطلقة، جاء على صيغة المضارع المقرون بلام الأمر.

– وما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها»** فهذا خبر بجملة فعلية، لكنه أمر بصلة الرحم.

---

(١) ورد الأمر فى هذه الآية بصيغة الخبر مع استعمال جملة اسمية من مبتدأ وخبر هى قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ...﴾ لكنها تفيد الأمر بوجوب هذه الكفارة من عتق رقبة وإعطاء أهله الدية المقدرة له.

- وما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق أدخله الله الجنة - على ما كان من عمل - من أى أبواب الجنة الثمانية شاء»** فهذا أمر بالإيمان بهذه الحقائق، لكن جاء على صيغة الخبر المكون من جملة اسمية.

- ولا أستطيع أن أحصى فى السنة المطهرة ما جاء فيها من أوامر بصيغ عديدة، لكنى استشهدت فقط.

والنوع الثانى: ما يجب على المسلمين تركه من قول أو فعل:

والذى أوجب هذا الترك أن الله تعالى نهى عنه أو نهى عنه الرسول ﷺ.

وللنهى صيغ عديدة كالأمر، نذكر منها:

- النهى بأسلوب النهى المباشر وهو: الفعل المضارع الذى دخلت عليه «لا» الناهية، وذلك فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية كثير، كقوله تعالى: ﴿...**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقوله: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الشعراء: ١٥١].

- والنهى بصيغة الخبر، أى الإخبار عن أمر بأنه منهى عنه أو موضع لسخط الله تعالى وغضبه، وذلك كثير جدًا فى القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٩] فالنهى عن تولى هؤلاء الأعداء - أى الولاء لهم - جاء خبرًا وليس نهيًا بالفعل المضارع الذى دخلت عليه «لا» الناهية.

- وصيغ النهى فى القرآن جاءت فى مئات الآيات الكريمة التى لا يخفى النهى فيها على المكلَّفين، لأن الله تعالى لا ينهى عن شىء يخفى على المكلف، وإلا وقع المكلَّف فى حرج من أمره، والله تبارك وتعالى ما جعل على أحد فى دينه حرجًا، كما يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**...﴾ [الحج: ٧٨].

- وأما السنة النبوية المطهرة فقد ورد فيها النهى بكل صيغة من صيغه، وترك المنهى عنه واجب كفعل المأمور به، وكلاهما لابد من أدائه.

- وما أكثر الأحاديث النبوية التى جاءت بصيغة النهى الصريحة المباشرة «الفعل المضارع الذى دخلت عليه «لا» الناهية، ولنذكر من ذلك بعض الأمثلة:

– روى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تمش فى نعل واحدة، ولا تَحْتَبِ فى ثوب واحد، ولا تأكل بشمالك، ولا تشتمل الصماء، ولا تضع إحدى رجليك على الأخرى إذا استلقيت»**.

– وروى ابن ماجة بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تشرك بالله شيئًا وإن قُطِّعت وحُرِّقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذِّمة، ولا تشرب الخمر؛ فإنها مفتاح كل شر»**.

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج، فإنه لهم فى الدنيا، وهو لكم فى الآخرة»**.

– والأحاديث النبوية التى رواها كثير من الصحابة، وكانت صيغتها تبدأ بقول راويها رضى الله عنه: نهى رسول الله ﷺ عن .... جمعها بعض علماء السنة تحت عنوان باب المناهى[1] حيث جمع فى هذا الباب أكثر من مائة وسبعين حديثًا.

- والسنة النبوية فى عمومها تحمل إلى المسلمين واجباتهم سواء أكانت هذه الواجبات أوامر أم نواهى.

وفى تفصيل هذين النوعين نجد فروعًا لهما وأقسامًا جاءت بعد تأمل وتدبر، ومن ذلك:

واجبات الإنسان نحو ربه وخالقه سبحانه وتعالى.

وواجبات الإنسان نحو نفسه.

وواجبات الإنسان نحو غيره من الناس.

وواجبات الإنسان نحو حكامه وولاة أمره.

---

(١) من هؤلاء العلماء: الإمام السيوطى (٨٤٩ – ٩١١هـ/١٤٤٥ – ١٥٠٥م) فى كتابه: «صحيح الجامع الصغير وزياداته الفتح الكبير» ط المكتب الإسلامى بيروت ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

• وكل هذه الواجبات واجبة الأداء لا يملك المسلم أن يتخلى عن أدائها ما دام قادراً مستطيعًا، وإن لم يؤد هذه الواجبات فقد عصى الله ورسوله ووقع فى الضرر والضرار، وأثم وجعل نفسه موضع المؤاخذة والعقاب.

ب- أسلوب الإسلام فى الإلزام بهذه الواجبات:

هذه الواجبات - التى أشرنا إليها - نحو الله تعالى، ونحو النفس ونحو الآخرين، ونحو الحاكم والنظام؛ إنما هى التزام من المسلم واستجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، واستجابة للانتهاء عما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ.

وهذا الالتزام يحركه الإيمان والإسلام ويزكيه وينميه الإخلاص والتوجه به لله تعالى.

وبغير هذا الالتزام بأداء الواجبات أوامر أو نواهى، تظل هذه الواجبات نظريات وحبراً فى أوراق، ويدخل غير الملتزم فى دوائر الضلال والضياع، ويسهم فى ضلال مجتمعه وضياعه.

• فإذا لم ينبع الالتزام من داخل المسلم لأن فى إيمانه ضعفًا أو قصور أو فتوراً، أو لأن فى إسلامه عجزًا أو قصوراً؛ فإن المجتمع الإسلامى وما أعطاه الله من منهج ونظام يملك أن يلزم المسلم بهذا الأداء للواجبات.

فكيف ألزمهم؟

للإسلام أسلوب تربوى فاعل فى إلزام الناس بأداء واجباتهم الشخصية والعامة؛ اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وخلقية، هذا الأسلوب الإسلامى يقوم على ركيزتين:

إحداهما: التعريف الجيد بهذه الواجبات.

والأخرى: توضيح العقوبات التى تحل بمن أخل بأداء هذه الواجبات.

• وتفصيل ما تشتمل عليه هاتان الركيزتان، نوضحه فى النقاط التالية:

- نشر العلم بهذه الواجبات والإعلام عنها بكل وسائل الإعلام وأجهزته فى الكتاب والصحيفة والإذاعة مسموعة ومرئية والسينما والمسرح ونحوها، بحيث يصبح كل إنسان فى المجتمع المسلم يعرف واجباته تمامًا ويعرف أنه مطالب بأدائها.

- ونشر العلم والثقافة فى المجتمع كله بما وضع الله تعالى من عقوبات دنيوية لكل من امتنع عن أداء واجباته، فلم يأتمر بما أمر الله ولم ينته عما نهاه، وهى عقوبات رادعة

زاجرة فى جملتها تستهدف إلزام الناس بأداء واجباتهم لصالحهم ولصالح المجتمع الذى يعيشون فيه.

- وإحياء فقه التعلم المباشر من القرآن الكريم ومن سنة الرسول ﷺ من خلال أجهزة الإعلام، بتيسير أخذ العظة منهما فيما أخبرا به الناس وما قصًا عليهم من قصص الأولين الذين أطاعوا الله فأدوا واجباتهم، أو عصوه فأخلُّوا بأدائها؛ لأن كل تبصير وتنوير يجب أن يسبقه عقاب من أخلَّ أو قصر.

- وتجديد الأمر بهذه الواجبات التى أوجبها الله تعالى فى نفوس الناس وعقولهم، والتأكيد على أن هذه الأوامر صادرة من الله تعالى ورسوله ﷺ، وفى هذا التجديد والتوضيح ما يرغِّب الناس فى أداء هذه الواجبات لما فيها من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

- والتأكيد على أن الامتناع عن أداء هذه الواجبات معصية لله تعالى ولرسوله ﷺ، وشرع العقوبات الدنيوية والأخروية التى تقع على هذا العاصى، وتوضيح الآثار السيئة التى تحيق بهذا المخل بأداء واجباته شخصيًا واجتماعيًا.

- والمبادرة - على مستوى المجتمع والحكومة - إلى تطبيق العقوبات على كل من امتنع عن أداء هذه الواجبات بصورة علنية تتلاءم مع شخصية من امتنع عن أداء هذه الواجبات، أو تعزيره بما يراه القاضى المسلم ملائمًا، للتأكيد على أن الناس جميعًا أمام القانون سواء، غنيهم كفقيرهم، وقويهم كضعيفهم لأن تلك هى روح المنهج الإسلامى ونظامه.

- واتخاذ وسيلة وقائية هامة هى الضرب على أيدى من يستهينون بقيم الإسلام وأخلاقه، فيشيعون فى الناس الفواحش والمعاصى ورذائل الأخلاق وسفيه القول والعمل، لأن هؤلاء معاول هدم للمجتمع الإسلامى؛ لأنهم فى واقع الأمر يشجعون الناس بسلوكهم هذا على الإخلال بأداء واجباتهم.

- هكذا يشجع الإسلام الناس على أداء واجباتهم بعد أن يعذر إليهم المجتمع بهذه الأساليب التى ذكرنا، وهى قليل من كثير قد يراه أهل العلم والاختصاص، لكى يقبل الناس على أداء واجباتهم التى أوجبها عليهم رب العالمين.

ثانيًا: المسئولية عن هذه الواجبات وأنواعها:

أداء هذه الواجبات مسئولية هامة وضخمة ومكلِّفة لكنها تكاليف فى حدود ما يستطيع الإنسان، وهى عبء على كل من تعلق بذمته شىء من هذه الواجبات.

● والمسئولية ذات مفهوم وثيق الصلة بالإنسان؛ روحه وعقله وجسده وخلقه وطبيعته كلها، وفى عـالمنا الإنسـانى لا مـسئـول إلا الإنسـان لما منحـه الله من قـدرة على تحـمل هذه المسئوليـة، أما سائر مخلوقـات الله التى تعيش بجوارنا أو تبعـد عنا ولكننا نراها وننتفع بها، فليست بمسئولة، لقد خص الإنسان بالمسئولية ليس تضييقًا عليه ولكن بعد أن أنعم عليه بنعمـتين كبيرتين همـا: العقل الذى يميز بين الخير والشـر والنافع والضار، والرسل عليهم السلام الذين بـلغوا عن الله تعالى تكاليفه لعـباده، وبخاصة خاتمهم مـحمد ﷺ الذى يعد أهم نعمة أنعم الله بها عن البشرية كلها.

● والمسئـولية تعنى نسبـة الفعل إلى فاعله مـا دام الفاعل ذا عقل وإرادة حـرة وقدرة على الاختيار، وهى مسئولية أخلاقية بالدرجة الأولى أى شخصية تصدر عن إنسان يرضى عن نتائج أفعاله ولا يتهرب منها بل يتحمل مـسئوليتها، وهذه الأفعال قد تكون أفكارًا، وقد تكون أعمالاً، وقد تكون سكوتًا عن حق، وقد تكون تخليًا عن نصرة مظلوم، وكل هذه الأعمال يتحمل المسلم تبعتها أمـام الله تعالى أولاً موقنًا أنه سيحاسبه ويجازيه، وذاك من أهداف التربية الإسلامية إذ تضع الإنسان فى مسئوليته أمام ربه، فيكون ذلك عونًا له على أداء واجباته فيما بعد.

- كما يتحمل الإنسان تبعة أعماله أمام نفسه ليواجهها بما عملت ويحاسبها على كل إهمال أو تقصير، وتلك تربية بعيدة الأهداف يتدرب فيها الإنسان على أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، إذ يروى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا...».

- ويتحمل الإنسان مسئولية أعماله أمـام المجتمع أى نظامه وقوانينه، فيحاسب أمام القاضى ثم يجازى، أو يحاسب أمام الرأى العام فيدان على تقصيره فى أداء واجباته، وربما خسر فى ذلك الحساب أكثر مما يخسر بجزاء القاضى!!! وتسـمى هذه المسئولية مسئولية قانونية تترتب على المسئولية الأخلاقية.

- وهناك مسئولية سياسية تنشأ عن ارتباط الإنسان بنظام أو دستور أو قانون معين، يخول له بعض الحقوق السياسية ويفرض عليه أداء بعض الواجبات.

- ومن هذه الحقوق:

● حق الانتخاب والإدلاء بصوته.

● وحق الترشح لأى منصب بما فيه منصب رئيس الدولة.

● وحق المشاركة فى أى عمل تؤهله له مؤهلاته العلمية والفنية والإدارية والتربوية وغيرها.

- ويوجب عليه النظام أو الدستور أداء هذه الواجبات كلها، فإن لم يفعل فقد قصر وأساء للحياة السياسية.

● ولا ينتظر أن تؤتى المسئولية ثمارها فى المجتمع إلا بشرطين:

- أن يكون الناس فى المجتمع يعرف كل منهم مسئوليته معرفة دقيقة مفصلة، وأن يؤدى أعماله على وجهها الصحيح.

- وأن يعرف ما تفرضه عليه المسئولية من أعمال، أى يؤدى واجباته أداء جيدًا.

● وحديثنا عن المسئولية عن هذه الواجبات وأنواعها يقتضى أن نتحدث عن نقطتين:

- المسئولية عن أداء هذه الواجبات.

- وأنواع هذه الواجبات.

أ- المسئولية عن أداء هذه الواجبات:

الواجبات - كما قلنا آنفًا - هى التى أوجبها الله تعالى على المكلفين من عباده، وهى واجبات عديدة بغير أن تثقل على الإنسان أو تشق عليه، كما أنها واجبات متكاملة - أى يكمل بعضها بعضًا - ولا يغنى بعضها عن بعض، ولا جدوى منها إلا بأن تكون متكاملة متماسكة، يسيطر عليها التنسيق بين مفرداتها، والإنسان مسئول عن أدائها جميعًا فى حدود استطاعته.

وهى واجبات مستوعبة لجميع شعب الحياة التى يعيشها الإنسان عزيزًا مكرمًا، وأهم هذه الشعب وواجباتها:

● **الواجبات الدينية:** وهى التى تتضمن:

- تحرير العقيدة من الشرك ومن كل ما يشوبها من خلل واضطراب.

- وتغذية الإيمان بالعمل الصالح وتنقيته من الضلالات والأباطيل.

- وتزكية الإسلام بأداء أركانه كاملة غير منقوصة.

- وممارسة الإحسان والعدل والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- وممارسة الدعوة إلى الله إلى الدين الحق والحركة به فى الناس والآفاق واتخاذه وسيلة للتغيير نحو الأحسن.

- والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

● **والواجبات الاجتماعية**: وهى التى تشتمل على:

- واجبات الإنسان نحو أسرته وعياله وكل من يمونه ويلى أمره.

- وواجباته نحو أقاربه وأرحامه وأصهاره وأختانه.

- وواجباته نحو جيرانه وضيوفه.

- وواجباته نحو الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

- وواجباته نحو الأرامل واليتامى.

- وواجباته نحو غير المسلمين الذين يعيشون فى كنف الدولة المسلمة.

- وواجباته نحو من يتعامل معهم من الناس بيعًا وشراء وإجارة وجميع أنواع المعاملات.

كل هذه الواجبات الاجتماعية إنما أوجبها الإسلام، وأمر بأدائها على أحسن وجه.

● **والواجبات السياسية**: وتتضمن ما يلى:

- واجبات الوعى السياسى بالقضايا السياسية على مستوى الوطن المحلى والوطن العربى والوطن الإسلامى.

- وواجباته نحو الوعى بالحقوق السياسية للناس، وبواجباتهم نحو أداء هذه الحقوق.

- وواجباته نحو المشاركة فى كل عمل سياسى فى وطنه؛ ابتداء من قيد نفسه فى جداول الانتخابات، ومشاركته فى كل ما يدعى إلى المشاركة فيه من عمل سياسى، وامتدادًا إلى ترشيح نفسه للمجالس المحلية والنيابية والوظائف العامة بما فيها رئاسة الدولة.

- وواجباته فى التوعية السياسية إن كان من أهل القدرة على ذلك، حيث يعتبر ذلك واجبًا، عليه أداؤه، فى كل مجال يعمل فيه.

- وواجباته نحو معرفة التيارات المعادية والموالية لوطنه المحلى ووطنه العربى ووطنه الإسلامى، وبخاصة أولئك المستوطنون الجدد الذين لا يستحون أن يحتلوا البلاد ويستولوا على ما فيها طمعًا وشراهة، ضاربين عرض الحائط بهيئة الأمم المتحدة والأعراف الدولية وما يسمونه الشرعية الدولية التى ما أثبتت وجودها يومًا لتكون بجانب مظلوم فى مواجهة ظالم.

- والوعى بما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية اليوم من سيطرة على هيئة الأمم المتحدة، ومن كيل بمكيالين، ومن تأييد مطلق لإسرائيل ضد العرب والمسلمين.

- والإدراك لمرامى الغرب وأمريكا من إقامة دولة إسرائيل فى قلب العالم العربى، وإدراك مرامى إسرائيل من عدوانها المتكرر على العالم العربى، وتوظيف جيشها المسلح أقوى تسليح لتحارب به المدنيين والأطفال والنساء، وهى تعلم علم اليقين أن الفلسطينيين لا يملكون جيشًا يحاربون به!!!

أهذا نظام جديد فى الحروب العسكرية؟

- والوعى الصحيح بما للحاكم المسلم من حقوق وما عليه من واجبات، وقيامه بواجبه إزاء هذا وذاك.

● هذه الواجبات المتكاملة جميعها تستهدف فى الإسلام صلاح الحاكم والحكومة والمحكومين من الناس فى الدنيا والآخرة، وذلك جانب هام من التكامل، قلما تجده فى نظام من أنظمة المجتمعات غير الإسلامية، لأن قصاراها أن تعنى بمصالح الدنيا، وكثيراً ما تنسى الآخرة.

● وهذه المفردات التى ذكرنا للواجبات الإسلامية الدينية والاجتماعية والسياسية عندما طبقت جعلت من هذه الواجبات نسيجًا قويًا متماسكًا، وجعلت منه قوة فاعلة دافعة إلى الخير والبر، قادرة على التأثير فيما يحيط بها، وقد استطاعت قوة هذه الواجبات عندما أديت على وجهها الصحيح أن تصل بالمنهج العادل الرحيم منهج الله تعالى إلى ما يقرب من نصف العالم المعروف حينئذ فى نصف قرن من الزمان أو يزيد، لكى تملأ كل مكان وصلتْ فيه عدلاً ومساواة وحرية وحقوقًا مرعية وواجبات مؤداة، مما جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، تحدوهم الرغبة فى الانتماء إلى هذا الدين العظيم، مسارعين إلى أداء واجباته التى جعلت من العرب الذين لم تكن لهم قبل الإسلام

حضارة تشبه حضارة الفرس أو الروم، لكن بالإسلام وأداء الواجبات فيه استطاعوا أن يستوعبوا هاتين الحضارتين المسيطرتين على العالم كله آنذاك، وأن يشيدوا حضارة إسلامية بازغة استطاعت أن تنير الطريق أمام حضارات العالم كله.

● كيف صنع الإسلام بالعرب هذا كله؟

كيف جعل منهم روادًا فى نشر الدين الحق الخاتم والحركة به فى الناس والآفاق؟

وكيف اصطفى منهم دون سواهم محمدًا خاتم رسله؟ وكيف اختار لسانهم لينزل به خاتم كتبه؟

لابد أن يكون لذلك من الأسباب ما أهل العرب لهذا، لكن ما هى هذه الأسباب؟

إن العرب أنفسهم لم يقولوا فى ذلك شيئًا، وغير العرب من المسلمين لم يقولوا فى سر هذا الاختيار والاجتباء شيئًا قاطعًا يُعتبر التحليل الأخير.

ونحن الآن لا نستطيع أن نعلل هذا الاجتباء تعليلاً نهائيًا غير قابل للمناقشة.

فلا نستطيع أن نقول: إن سر ذلك أنهم أصحاب صلابة وقوة وقدرة على التحمل - فى بيئتهم الشحيحة بالماء والزرع والضرع - فإن غيرهم من معاصريهم كانوا كذلك، ومع ذلك لم يختر الله تعالى منهم رسوله ولا أنزل آخر كتبه بلغتهم!!!

ولا نستطيع أن نعلل ذلك الاختيار لنبيه ﷺ وللغة خاتم كتبه السماوية، لأنهم يحبون الحرية ويأبون الضيم ولا يسكتون على الظلم؛ فإن كثيرين من الناس كانوا متصفين بهذه الصفات ولكن الله تعالى لم يصطف منهم آخر رسله ولا جعل آخر كتبه بلسانهم!!!

ولا نستطيع أن نقول فى تعليل هذا الاصطفاء، إن العرب أصحاب قيم نبيلة يتمسكون بها بل يموتون فى سبيلها، لأن غيرهم من الناس كانوا كذلك، ومع ذلك لم يكن منهم اصطفاء خاتم المرسلين!!!

ولا نستطيع أن نقول: لأنهم كانوا أحَدّ ذكاء وأقوى حفظًا، لأن غيرهم شاركوهم فى ذلك دون شك، ومع ذلك لم يحدث منهم اصطفاء!!!

ولا نستطيع أن نقول: إنهم يتفانون فى أداء الواجبات ويضحون فى سبيل أدائها بكل شىء، فإن هذه صفات لم يحرم منها سواهم من معاصريهم!!!

● إنما نستطيع أن نقول مطمئنين إلى صدق قولنا ودخوله فى الحق والصواب: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أو نقول: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

ونستطيع أن يستقر رأينا على الحق ويزداد يقيننا إذا نحن قرأنا قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢، ٢٣].

فهو سبحانه وتعالى قد اصطفى رسوله الخاتم من العرب وأنزل بلغتهم كتابه الخاتم، لأنه أراد ذلك وفعله وهو سبحانه لا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى.

ب- أنواع هذه المسئوليات أو الواجبات:

تتنوع هذه الواجبات تنوعًا كبيرًا، من وجهات عديدة؛ ذكرنا بعضها كتنوعها دينيًا واجتماعيًا وسياسيًا.

ويعنينا هنا أن تنوعها بالنسبة لمن توجه إليه، وتتحمل مسئوليتها أمامه، وهى بهذا الاعتبار أربعة أنواع:

- واجبات نحو الله تعالى ورسوله ﷺ.
- وواجبات نحو الإنسان ونفسه.
- وواجبات نحو الحاكم والمجتمع الإسلامى.
- ووجابات نحو الناس عمومًا.

النوع الأول: واجبات المسلم نحو الله تعالى ورسوله ﷺ:

وهذه الواجبات كثيرة ولكنها ميسورة لا تخرج عن دائرة استطاعة الإنسان، وواجبات المسلم نحو ربه هى:

- طاعة الله ورسوله ﷺ فى كل أمر، واجتناب كل نهى، وما يأمر الله ورسوله إلا بالخير، وما ينهيان إلا عن الشر. فالطاعة إذن مجلبة للخير، دافعة للشر والأذى.
- والطاعات كثيرة تبدأ بعبادة الله وحده لا شريك له، وتنتهى بإماطة الأذى عن الطريق.

● وأداء هذه الواجبات واجب يُسأل عنه الإنسان أمام الله تعالى ويحاسب ويجازى.

- على أن أداء هذه الواجبات يحقق صالح الإنسان فى دنياه وفى آخرته، والامتناع أو التقصير عن أدائها يضر الإنسان والمجتمع فى الدنيا والآخرة كذلك.

- والأدلة على وجوب هذه الواجبات وعلى وجوب أدائها كثيرة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد ذكرنا كثيرًا منها فيما مضى عن الحديث عن الحقوق والواجبات، ولا وجه لإعادتها.

والنوع الثانى: واجبات المسلم نحو نفسه:

وهى كثيرة أيضًا، ولكنها ميسورة لا مشقة فيها ولا عنت، وتقتضى من المسلم أن يلتزم بما أوجب الله عليه بحيث يضع نفسه فيما يجب أن تكون فيه مثل:

- أن يضع نفسه حيث أمره الله تعالى ورسوله ﷺ.
- وأن يحول بين نفسه وبين الوقوع فيما حرم الله تعالى وما حرم رسوله ﷺ.
- وأن يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه.

وفى تفصيل هذه المفردات ما لا حصر له، وعلى سبيل المثال:

- فقد أوجب الله على الإنسان اختيار الإيمان ونبذ الكفر والفسوق والعصيان.
- وأوجب عليه التزام الإسلام بكل ما يحتويه من عبادات ومعاملات وأخلاق.
- وأوجب عليه العدل والشورى وندبه إلى الإحسان.
- وأوجب عليه الدعوة إلى الدين الحق والحركة به فى الناس والآفاق، وتغيير كل ما يخالفه.
- وأوجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- وأوجب عليه التواصى بالحق وبالصبر.
- وأوجب عليه الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا.

● فإذا قام المسلم بأداء هذه الواجبات، فقد أنقذ نفسه وأعلى مكانتها عند الله، بل جعلها موضعًا لثواب الله ورحمته.

● وإذا امتنع عن أداء هذه الواجبات أو قصر فيها؛ فقد أحرج نفسه بل أوبقها، بمعصيته لمن أوجب هذه الواجبات، وعرض نفسه للعقوبات التى حددها الله تعالى، وتسبب بذلك فى إضرار نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه.

والنوع الثالث: واجباته نحو الحاكم والمجتمع الإسلامي:

وهي واجبات عديدة أيضًا لكنها ميسورة ولا عَنَت فيها أيضًا، وقد حدد الإسلام هذه الواجبات ورسم أبعادها وحدد عقوبة مخالفتها، ولم يدعها لاجتهادات حاكم قد يشتط في التعامل مع المحكوم.

- وقد جعل الله تعالى أداء الواجبات نحو الحاكم والحكومة والمجتمع صمام أمان للمجتمع، وسدًا لأبواب الفتن؛ لأنه ما من فتنة إلا ويكون من بين أسبابها عدم أداء الناس لواجباتهم نحو حكامهم وحكوماتهم والمجتمعات التي يعيشون فيها.

- وليس المجتمع الإسلامي في حقيقته وجوهره إلا النظام الذي جعله الحاكم المسلم منهجًا له في حكم الناس، ومنهجًا للناس في تعاملهم معه ومع الحكومة ومؤسساتها.

وهذا المنهج ليس من اجتهاد الحاكم ولا الحكومة ولكنه من وضع الله تعالى لعباده ليتحاكموا إليه ويرضوا بحكمه ويسلموا به تسليمًا، وهو منهج ضَمَّه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وفصله وفسره اجتهاد العلماء في العصور المتعددة.

المجتمع الإسلامي إذن صورة عملية تطبيقية لخطة الحاكم المسلم والحكومة المسلمة التي يُحكم بها الناس، وبالتالي فإن المجتمع يجب أن يلتزم كل مسلم فيه بالمحافظة على بنائه وقيمه ومبادئه، لأن ذلك محافظة على الإسلام نفسه وذاك واجب كل مسلم.

- وواجبات المسلم نحو حاكمه وحكومته والمجتمع المسلم الذي يعيش فيه، لم تترك لهوى الحاكم والحكومة ولا لرغبات المحكومين، وإنما أوضحها الله تعالى في كتابه الخاتم وفصلها رسوله الخاتم في سنته المطهرة، وما أكثر ما جاء في ذلك من آيات كريمة وأحاديث شريفة، لكننا نذكر منها عددًا ومن ذلك:

– قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ [النساء: ٥٩].

فالطاعة لله ولرسوله ولولي الأمر واجبة على كل مسلم ليكمل بذلك إيمانه، ويخرج من دائرة المعصية لله ولرسوله، والتخريب لمجتمعه.

– وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هنيدة وائل بن حُجْر رضى الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجُعفى رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم سأله الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: **«اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُملوا وعليكم ما حُملتم»**.

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنها ستكون بعدى أثَرَة تنكرونها»** قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر مَنْ أدرك منا ذلك؟ قال: **«تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم»**.

- وروى مسلم بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية»**.

- تلك واجبات المسلم نحو حاكمه وحكومته والمجتمع الإسلامى الذى يعيش فيه، واجبات يجب أن تؤدى لأن من لم يؤدها سيسأل عنها فى المجتمع المسلم فى الدنيا ويحاسب على امتناعه عن أدائها، كما يحاسب على ذلك بين يدى الله تعالى يوم القيامة.

والنوع الرابع: واجبات المسلم نحو غيره من الناس

هى واجبات أوجبها الإسلام نحو الناس جميعًا أفرادًا وجماعات، وهى أيضًا مستطاعة لأنه سبحانه وتعالى هو الذى كلف بها، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

- وهذه الواجبات لها دوائر تكبر وتتسع كلما كبر الإنسان وزاد نفوذه واتسعت دائرة مسئوليته.

- وأولى هذه الدوائر الأسرة؛ فواجبه نحو أبويه البر والرحمة والدعاء، والسمع والطاعة.

وواجبه نحو زوجته وأبنائه ومن فى البيت ممن يلى أمورهم، العناية والرعاية، والتربية والتوجيه نحو الخير والبر والمعروف.

ثم تتسع الدائرة فيدخل فيها الأقارب والأرحام والأصهار والأختان، والضيوف والجيران والأصدقاء، والمسلمون جميعًا، بل لو كان يعيش فى المجتمع غير المسلمين، فإن لهم على المسلمين واجبًا لابد أن يؤدَّى.

وإن هذه الواجبات العديدة على المسلم نحو غيره، إنما يترجمها حبًا ومودة وتعارفًا وتآلفًا وتعاونًا على البر والتقوى، وتكافلاً وتضامنًا، ودعاء بظهر الغيب، وعونًا ونصرًا ومؤازرة.

- وفى كل واجب من هذه الواجبات وردت آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة ذكرنا كثيرًا منها فى هذا الكتاب وسنذكر بعضها الآن.
- واجبات المسلم نحو غيره من الأفراد كثيرة وردت فيها أحاديث نبوية شريفة كثيرة العدد، نذكر منها حديثين جامعين هما:

- ما رواه الترمذى والنسائى بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للمؤمن على المؤمن ستُّ خصال: يعوده إذا مرض، ويَشْهَده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد».

- وما رواه البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه المسلم كان الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة».

- هذه واجبات المسلم نحو غيْره من الناس إذا كان هذا الغير فردًا، وهى واجبات إذا أدَّاها كما أمره الله تعالى بها ففيها طاعة الله ورسوله، وفيها البِرّ، وفيها توثيق الصلة وتوطيد العلاقة بينه وبين الناس، وتعاون على الخير والبر، بل فيها حصار للمعصية والعصاة.

- أما واجباته نحو الجماعات والمجموعات فإنها علاقة يجب أن تقوم على أساس معرفته الدقيقة بهذه الجماعة؛ أهدافها ووسائلها لتحقيق تلك الأهداف، مع التأكد من أنه ليس فى أعمالها شىء يخالف الدين الحق، فإذا استوثق المسلم من ذلك فإن عليه أن يكون واحدًا من أفرادها، يعينها على تحقيق أهدافها، ويؤازرها بما استطاع من جهد ووقت وعلم ومال.

- وسواء أكانت هذه الجماعة هى جماعة المسلمين وعلى رأسها إمامهم، أم كانت جماعة إصلاحية تعمل لخير الإسلام والمسلمين[1]؛ فإن العمل معها والاندماج فى العمل فى مشروعاتها واجب على المسلم، جاء على لسان المعصوم ﷺ.

- روى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «...**عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**».

- وروى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يجمع أمتى - أو قال أمة محمد - على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ فى النار**».

- وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة والشهر إلى الشهر** - يعنى رمضان إلى رمضان - **كفارة لما بينهما**»، ثم قال بعد ذلك: «**إلا من ثلاث**» قال أبو هريرة: فعرفت أن ذلك الأمر حدث «**إلا من الإشراك بالله، ونكث الصفقة، وترك السُّنة**» قال أبو هريرة: أما مَنْ نكث الصفقة: أن تبايع رجلاً ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة».

- وهذه الواجبات فى أنواعها الأربعة التى ذكرنا؛ عندما يؤديها المسلم على وجهها مستجيبًا فى أدائها لأمر الله تعالى ومنهجه ونظامه، فإن المجتمع الإسلامى يُعَافَى من أمراض المعاصى، ويأمن العثرات فى طريقه، فيصبح قويًا قادرًا على مواجهة الفتن والتحدى مهما كان خطر هذه وذاك.

وبعد: فإن هذا الهدف للمجتمع الإسلامى «ممارسة الحقوق والإلزام بأداء الواجبات» أمانٌ للمجتمع من ضعف الأداء أو النكوص أو التراجع الحضارى أو الانهزام أمام أعدائه، لأن كل هذه الآفات إنما تتحرك وتنمو إذا عطلت الحقوق، ولم يلتزم المسلمون بأداء الواجبات.

---

(1) من «تفسير ابن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ) عندما سئل عن الجماعة: قال: أبو بكر وعمر، فقيل له: إنهما ماتا، قال: فـفلان وفلان، قيل له: ماتا، قال: أبو حمزة السكرى (ت ١٦٧هـ) جماعة - وهو محمد بن ميمون وكان شيخًا صالحًا. وقال ابن العربى: إنما أراد عبد الله بن المبارك بالجماعة حيث تجتمع أركان الدين وذلك عند: الإمام العادل، أو الرجل الصالح العالم فهو الجماعة، وذلك صحيح فإن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا. وجماعته العلم والعدالة والله أعلم. وقال أبو عيسى الترمذى: وتفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث» صحيح الترمذى ٩/١١ط الحلبى - القاهرة ١٣٥٢هـ-١٩٣٤م.

ولابد لنا فى نهاية الحديث عن الهدف الرابع من أهداف المجتمع الإسلامى، أن نؤكد عددًا من الحقائق فى هذا الهدف، وهى:

- أن المجتمع الإسلامى مسئول أن يُعرِّف كل من يعيشون فيه حقوقهم، وأن يحافظ لهم عليها وأن يدعوهم إلى ممارستها؛ لأن فى تلك الممارسة لهذه الحقوق كرامة لهم واستجابة لمبادئ دينهم وشعائره.
- وأن المجتمع الإسلامى مسئول عن تعريف الناس جميعًا بواجباتهم والتأكيد على أن الذى أوجبها هو الله تعالى من خلال كتابه الكريم وسنة رسوله الخاتم عليه الصلاة والسلام.
- وأن المجتمع الإسلامى مطالب بأن يتخذ من الوسائل التى يقرها الإسلام ما يجعل الناس يؤدون واجباتهم، تقربًا بذلك إلى الله لا خوفًا من سطوة الحاكم وقوة القانون، وذلك لضمان عنصر الإخلاص فى أداء الواجبات.
- وأن المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة وأفرادًا وجماعات كلهم مسئولون جميعًا ومتضامنون فيما بينهم عن أى تقصير فى التجهيل بالحقوق أو هضمها، ومن أى تقصير فى أداء هذه الواجبات.

● إن هذه الحقائق عند إيضاحها والعمل بمقتضاها هى التى تصل بالمجتمع إلى التكافل الاجتماعى وتحققه.

فكيف يكون ذلك؟

هذا ما سنوضحه فى حديثنا عن الهدف الخامس من أهداف المجتمع الإسلامى فى الصفحات التالية بعون من الله وتوفيق.

*****

الهدف الخامس

تحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين

المجتمع الإسلامى مجتمع تربوى، والتربية ركن ركين من منهج الإسلام ونظامه، وهذه التربية هى التى تجعل من المسلمين أمة سليمة البناء فاهمة واعية قادرة على التمسك بمنهجها متجاوبة مع صياغة حياتها وفق قيم هذا المنهج ومبادئه.

- وما دام المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة وأفرادًا وجماعات يستهدف تطبيق منهج الله تعالى ونظامه فى حياة الناس، ويصون هذا المنهج من كل خطر يتهدده فى الداخل والخارج، ويعمل على تحقيق الأمن فى داخل المجتمع وفى خارجه، ويعرف الناس بحقوقهم ويمهد لهم طريق ممارستها، ويلزمهم بأداء ما أوجب الله عليهم من واجبات، وذلك كله من صميم التربية الإسلامية، فإن تحقيق هذه الأهداف الأربعة يؤتى ثماره التربوية فى تحقيق التكافل الاجتماعى بين الناس، وهذا هو الهدف الخامس الذى نتحدث عنه الآن.

- وهناك ارتباط تربوى وثيق بين ممارسة الناس لحقوقهم وأدائهم لواجباتهم، وبين تحقيق التكافل الاجتماعى بينهم، وذلك أنه يمكن المجتمع من الوصول إلى مكاسب اجتماعية نفسية تربوية هامة هى:

- تحقيق الوئام بين الناس:

الوئام بين الناس أو التآلف بينهم - عند التأمل والتحليل - نراه يتوقف على ممارستهم لحقوقهم وأدائهم لواجباتهم، حيث لا وئام ولا تآلف بين الناس الذين لا يؤدون واجباتهم، لأنهم بترك هذه الواجبات يضيعون حقوق غيرهم، ولا وئام مع ذلك ولا سلام.

- وتحقيق العدالة والمساواة:

وأوضح ما تكون العدالة والمساواة بين الناس حيث يؤدى كل منهم واجبه نحو المجتمع غنيًا كان أو فقيرًا، قويًا كان أو ضعيفًا، ومن أدى واجباته كان جديرًا بأن يمارس حقوقه بل يستمتع بها. وعند حدوث خلل فى أداء الواجبات فلا عدالة ولا مساواة، بل لا احترام لمنهج الإسلام ونظامه.

وعندما يفقد المجتمع الإحساس بالعدالة والمساواة، فلا تنتظر غير النزاع والتخاصم والفرقة.

- وتحقيق الأخوة - وهى أعلى درجات التآلف-:

والأخوة أو التآخى نتيجة من نتائج الأداء الجيد للواجبات فى المجتمع الإسلامى، بل إن الأخوة ترجمة عملية لأهداف المجتمع الإسلامى عندما تحقق، كما أنها مطلب شرعى دَلَّ عليه القرآن الكريم: ﴿...إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠]، ودلَّت عليها السنة النبوية: «... وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم ربكم» رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

- وإن أبرز ما تحققه ممارسة الحقوق وأداء الواجبات هو إحداث التكافل الاجتماعى بين الناس، وهذا التكافل هو ما نسجله هدفًا خامسًا من أهداف المجتمع الإسلامى، ونوليه اهتمامًا وتفصيلاً فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

- وفى حديثنا عن هذا الهدف الخامس، من أجل توضيح أبعاده وآثاره فى المجتمع الإسلامى نتناول بالشرح نقاطًا ثلاثًا هى:

- مفهوم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

- والأسس التى يقوم عليها هذا التكافل.

- وآثار التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

والله سبحانه وتعالى ولىّ التوفيق.

*****

١- مفهوم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى

المجتمع الإسلامى يحرص دائمًا على أن يستمد كل قيمه ومبادئه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل إنه يحرص على أن يجعل من الكتاب والسنة إطارًا يتحرك فيه المسلمون نحو أهدافهم ومقاصدهم فى الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

والتكافل الاجتماعى بين المسلمين هدف عظيم يترجم الجانب الاجتماعى فى الإسلام ترجمة عملية، ووضع هذا التكافل فى إطاره الإسلامى يجعله أفضل ما يكون، وأجمل ما يكون، وأنفع ما يكون.

● وفى توضيح مفهوم التكافل الاجتماعى فى الإسلام نقول:

- هو فى اللغة: القيام بالأمر وتحمل أعبائه، كمن كفل يتيمًا أو محتاجًا فرعاه وأمَّن له احتياجاته، وضمنه.

- والتكافل فى النظام الاجتماعى الإسلامى، يعنى التعاون، والتضامن، وهما أهم الأسس التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية السليمة الصحيحة.

● والإطار الإسلامى الذى ينتج فيه التعاون هو عدد من النصوص الإسلامية نذكر منها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [المائدة: ٢].

فقد أمر الله عباده بالتعاون على البرّ أى فعل الخيرات، ونهاهم عن التعاون على الإثم أو العدوان أى المنكرات والمآثم والمحرمات.

قال الإمام الطبرى فى تفسيره: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حدَّ الله فى دينكم، ومجاوزة ما فرض الله عليكم فى أنفسكم وفى غيركم.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يُنقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا يُنقص ذلك من آثامهم شيئًا»**.

- وروى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»** قيل: كيف أنصره ظالمًا؟ قال: **«تحجزه عن الظلم فذلك نصره»**.

فهذه صور من التعاون أوضحتها تلك الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة.

● والإطار الإسلامى الذى يتضح فيه التضامن والتساند هو عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿...وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله**».

- وروى الطبرانى بسنده - فى المعجم الكبير - عن ضَمُرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف حق كبيرنا، وليس منا مَنْ غشَّنا، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**مَنْ نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَنْ يسَّر على معسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه**».

فهذه الآية الكريمة وتلك الأحاديث التى ذكرنا، توضح أبعاد التضامن والتساند التى يجب أن تكون بين المسلمين.

● والإطار الإسلامى من الكتاب والسنة النبوية التى يتضح فيه التكافل الاجتماعى هو:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ [الأنفال: ٧٢].

والولاء أشد أنواع القرب وتدخل فيه النصرة والتكافل دخولاً مباشرًا. وقد تكررت صفة الولاء بين المؤمنين فى آيات عديدة[1].

- وروى البخارى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يُشدّ بعضه بعضًا**»، ثم شبك بين أصابعه.

---

(١) منها: التوبة: ٧١، والمائدة: ٥٥.

- وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مُشدُّهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم...».

- وروى أحمد بسنده عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؛ قال: **«لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم»**.

- وروى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

أهناك تكافل أعمق من هذا أو أوسع، أرأيت كيف استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين وكيف واسوهم وبذلوا لهم وكفوهم المئونة وأشركوهم فى كل شىء من العيش، حتى استقر المهاجرون فى المدينة؟

إنها أخلاق الإسلام[1].

هذا الإطار من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية يعرفنا بدقة مفهوم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، تعريفًا مانعًا جامعًا عمليًا تطبيقيًا.

وإذا كان لابد من تعريف مباشر للتكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإننا - بعد التدبر فى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة - نستطيع أن نقول:

التكافل الاجتماعى فى الإسلام هو: أن يكون الناس أفرادًا وجماعات فى كفالة المجتمع الإسلامى، من منطلق أن ذلك واجب المجتمع.

أو نقول:

هو أن يكون المجتمع حاكمًا وحكومة، وأهل قدرة ويسار كافلين لكل ذى حاجة فى المجتمع يمدونهم بالعون المادى والمعنوى، ويمدون المجتمع بما يحتاج إليه ليؤدى المجتمع وظيفته فى كفالة الناس.

---

(١) للتوسع فى القراءة عن التكافل بين المسلمين: اقرأ لنا: الأخوة فى الإسلام، والتربية الاجتماعية الإسلامية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.

أو نقول:

إن التكافل الاجتماعى هو:

أن يتعاون الناس ويتضامنوا، كل بما يستطيع من جهد ووقت ومال ليجلبوا للمجتمع الإسلامى المصالح وليدفعوا عنه المفاسد أو هو بالتعبير النبوى الذى لا يعلى عليه:

أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، أو أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

هذا عن مفهوم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فماذا عن الأسس التى يقوم عليها هذا التكافل؟

*****

٢- الأسس التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى

المجتمع الإسلامى يختار للتكافل فيه إطاراً من الكتاب والسنة النبوية يحكمه ويرسم أبعاده، ويحول بينه وبين أى انحراف أو اتباع لغير سبيل المؤمنين، كما يساعده ذلك على تحقيق أهدافه بسهولة ويسر ليكون دائمًا حاكمًا ومحكومين على الصراط المستقيم صراط الله ولا تتفرق بهم السُّبل.

المجتمع الإسلامى وهو يلتزم بهذا الإطار إنما يعين نفسه على تحقيق الأهداف الكبيرة للإسلام ويذكر بها حتى لا يضل عنها ضال أو ينساها ناسٍ، لأنها الأهداف التى تضمن له - عندما تتحقق - سعادة الدنيا والآخرة.

- وتحقيق أهداف التكافل الاجتماعى - فى إجمال - هى:

- تأمين حاجات الفقراء والمحتاجين والعاجزين عن العمل، تأمينًا يكفل لهم الحياة الإنسانية الكريمة، وينزع من نفوسهم الإحساس بالدونية والضياع.
- وحسن توظيف الأموال والخدمات وتوجيههما إلى حيث يصبحان وسيلة لرخاء العيش، لا غاية يلهث الناس وراءهما تكاثراً واختيالاً، وتضييعًا لحقوق الناس فيهما.
- وتمكين المجتمع من الأخذ بأسباب القوة والاتحاد فالوحدة حتى يكون المسلمون صفًا واحدًا يجعلهم قادرين بهذا التوحد على مواجهة ما يمر بهم من ظروف وما يطرأ على حياتهم من متغيرات.

- غير أن هذا التكافل الاجتماعى - وتلك أهدافه - لا يستطيع أن يحقق هذه الأهداف إلا إن قام على أسس مأخوذة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

هذه الأسس هى الأمان لإقدار المجتمع الإسلامى على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التى تكرم الله تعالى بها على بنى آدم جميعًا، وهى الحماية للناس من أن يظلم بعضهم بعضًا أو يتعالى بعضهم على بعض فى صورة كريهة وغير إنسانية من تمييز طبقى أو عنصرى، ومن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، الذى قد يصل إلى حد استعباده وتحويله إلى رقيق أو قِن[1].

---

(١) كان الغرب يفعل ذلك منذ قرون حيث يصطادون الناس من إفريقيا ثم يشحنونهم فى السفن إلى سواحل الغرب، وهناك تضرب عليهم العبودية ويعاملون معاملة الحيوانات، وكذلك فعلت أمريكا فى إفريقيا فخطفت الناس وحملتهم إلى هناك لكى يكونوا أقنانًا فى بلاد الحرية والديموقراطية!!!

هذه الأسس التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى، هى من صميم ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ إنسانية جعلها واجبًا على المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة وأفرادًا وجماعات ومؤسسات وهيئات مدنية.

وبعد تفكير وتدبر لهذه الأسس، تصورت أنها سبعة أسس، متكاملة لا يغنى بعضها عن بعض، ولا يمكن أن ينتقص منها شيء، لكن من الممكن أن يزيد عليها بعض المجتهدين أسسًا أخرى.

وهذه الأسس هى:

- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- والتوازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع.
- وتأمين العاطلين والعاجزين عن العمل.
- وتطبيق النظام الإسلامى للملكية.
- وتطبيق النظام الإسلامى للميراث.
- وتطبيق نظام الزكاة والصدقات.
- وتوجيه إنفاق المال.

وبمجموع هذه الأسس تتحقق أهداف التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، تلك الأهداف التى أشرنا إليها آنفا. ولنتحدث عن هذه الأسس بشيء من التفصيل.

الأساس الأول: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

قد يتصور بعض الناس أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعيد الصلة بموضوع التكافل الاجتماعى، ولكن قليلاً من التأمل يؤكد أنه أساس ركين من أسس التكافل الاجتماعى؛ وذلك أن المجتمع الذى يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا مجال فيه للتخلى عن الوفاء باحتياجات فقير أو عاجز عن العمل أو يتيم أو محتاج؛ لأن هذا التَّخَلِّى خروج عن المعروف والخير والبر، ودخول فى المنكر والشر.

إن الارتباط وثيق بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبين التكافل الاجتماعى، لأن المقصرين أو المهملين فى مجالات التكافل الاجتماعى، يقعون فى إثم مخالفة الأمر بالمعروف، وفى معصية إتيان المنكر.

● والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر أوجبـه الإسلام على كل قادر عليـه، وجاء ذلك فى كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، نذكر منها:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فتـوفر طائفـة من المسلمين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر واجب جاء بصيغة الأمر -وَلْتَكُنْ-.

- وقوله سبـحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ [آل عمران: ١١٠] فهـذه الخيرية للأمة ليست ميزة عرقـية ولكنها بسبب أن هذه الأمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

- وروى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من رأى منكم منكرًا فليـغيره بيـده، فإن لم يستطع فـبلسانه، فإن لـم يستطع فـبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

- وروى التـرمذى بسنده عن حـذيفة رضى الله عنه عن النبـى ﷺ قال: **«والذى نفسى بيده، لـتأمرن بالمعـروف ولتنهون عـن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبـعث عليكم عقـابًا منه، ثم تدعونه؛ فلا يُستجاب لكم»**.

● ومن صميم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تحقـيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع، فإذا لم يحقق المجتمع الإسلامى حاكمًـا وحكومة وأفرادًا وجماعات ذلك، فإن هذا يعنى أنهم تخلَّوا عن البر والخير، وتركوا للإثم والشر مكانًا بينهم يحول بينهم وبين تحقيق التكافل الاجتماعى.

وسكوت المسلمين عن الأشرار والآثمين جـريمة وقع فيها اليـهود فاستحـقوا اللَّعْن، ولو وقع فيها المسلمون لاستحقوا عدم الاستجابة لدعواتهم -أى غضب الله عليه.

ففى قعود اليهود عن نهى الآثمين الأشرار عن إثمـهم وشرهم واستحقاقهم اللعن، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]؛ فقد اعتبروا جميعًا عصاة يستحقون اللعن لأنهم لم ينهوا عن معاصى الله تعالى.

وفى قعـود المسلمين عن الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتهـديد القاعـدين عن هذا الواجب وردت أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها:

- ما رواه الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

- وروى أبو داود بسنده عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «... والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».

ومن آثار تَرْك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يَدُل على ذلك هذان الحديثان الشريفان:

- قرب وقوع عقاب الله تعالى على التاركين.
- وعدم استجابته سبحانه وتعالى لدعائهم.
- وتفرق التاركين وذهاب وحدتهم.
- والتعرض للعن الله تبارك وتعالى.
- ولحرص الإسلام على تنقية المجتمع من الشرور والآثام حرّم المجاهرة بالمعاصى والآثام، وطالب من وقع فى شىء منها بهمز الشيطان ولمزه أن يستتر وأن يحيط عمله هذا بالسرية والتكتم، حفاظًا على المجتمع أن تشيع فيه الفواحش والمعاصى، وفى هذا جاءت أحاديث نبوية كثيرة منها:

- ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمّتى مُعَافًى إلا المجاهرون؛ وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

ومن معنى هذا الحديث الشريف وأمثاله يفهم أن المجاهرة بارتكاب المعاصى بل مجرد الحديث عن ارتكابها يُعَدُّ من المجانة -أى قلة الحياء والهزل- لأن ذلك يشيع فى المجتمع الاستهتار بما حرم الله تعالى، وهذا التسَتُّر على المعصية يؤمن المجتمع ويصونه من أن تشيع فيه المعاصى والآثام.

• ومما أحاط به الإسلام المجتمع أن دعا إلى حصار العصاة والتضييق عليهم وعلى معاصيهم، فمنع المسلمين من مجالسة الذين يأتون المنكر أو مؤاكلتهم أو مشاربتهم، ليجدوا أنفسهم فى عزلة عن الأخيار من الناس فيثوبوا إلى رشدهم ويكفوا عن معاصيهم، وفى ذلك وردت بعض الأحاديث النبوية، ومنها:

- ما رواه ابن ماجة بسنده عن أبى عبيدة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن بنى إسرائيل لَمَّا وقع فيهم النقص، كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان الغد، لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزّل فيهم القرآن فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** حتى بلغ **﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**.

قال: وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس وقال: **«لا حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه على الحق أطرًا»**.

• ومما أحاط الإسلام به المجتمع الإسلامى من سياج يحميه أن نهى المسلمين عن أن يتابعوا العصاة على معصيتهم، وإنما طالب كل مسلم أن يتابع غيره فى الخير وأن يمتنع عن المتابعة فى الشر، بل من يتابع فى الشر إمَّعَةٌ، وما ذلك إلا لحماية المجتمع من تنامى المعاصى فيه.

وفى ذلك حديث نبوى شريف هو:

- ما رواه الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تكونوا إمَّعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»**.

• وبعد هذه النصوص الإسلامية، يتبيّن لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأسباب المؤسسة للتكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، وأن المجتمع الإسلامى لا يستطيع أن يحقق التكافل الاجتماعى لأفراده وجماعاته وهيئاته ومؤسساته وجمعيات المجتمع المدنى؛ إلا إذا كان يسوده الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

على أنه من المسَلَّم به فى ديننا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مما يجب أن يقوم به المسلم إن كان قادرا عليه، وأنه مما يثاب الإنسان على فعله ويعاقب على تركه، ومعنى

ذلك أن تحقيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع مما يجب على المسلم لما فيه من جلب المصلحة ودرء المفسدة، فهو مما يثاب على فعله ويعاقب على تركه.

والأساس الثانى: التوازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع:

التوازن بين حقوق الفرد وحاجاته، وحقوق المجتمع وحاجاته، لا يجيده ولا يدعو إليه، بل لا يلزم به نظام اجتماعى، كما يفعل النظام الاجتماعى الإسلامى، لأنه النظام الكامل التام الحافل بأرقى القيم الخلقية وأسمى المبادئ الإنسانية التى فى مقدمتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعدل والإحسان والشورى، وتقديس حقوق الضعيف من القوى.

فقد روى ابن ماجة بسنده عن جابر رضى الله عنهما قال: لما رجعتْ إلى رسول الله ﷺ مهاجرةُ البحر قال: «**ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟** قال فتية منهم: بلى يا رسول الله: بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء فمرتْ بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَر، إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدًا، قال: يقول رسول الله ﷺ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟**»، والسر فى تفرد النظام الإسلامى وتميزه أنه من وضع خالق الخلق سبحانه وتعالى وأنه تكفل بحفظه، فلم يدخله ولن يدخله إلى يوم الدين تحريف ولا تبديل.

- وقد عرفت البشرية فى هذا المجال نظامين اجتماعيين:

- النظام الذى يغلب صالح الفرد على صالح المجتمع، فيعطى للفرد من الضمانات والامتيازات ما لا يتوازن مع ما يعطيه للمجتمع.
- والنظام الذى يغلب صالح المجتمع على صالح الفرد، فربما سحق الفرد من أجل المجتمع -على أن المجتمع فى هذا النظام هو الحكومة أو الحزب الحاكم.

ولنكى نزيد الأمر إيضاحًا نقول:

أولا: النظم المنحازة إلى جانب الفرد:

دأبت بعض النظم الاجتماعية والسياسية فى عصور متعددة على أن تنحاز إلى جانب الفرد؛ فتعطيه أولوية فى تحقيق احتياجاته على حساب احتياجات المجتمع.

ومما ساعد هؤلاء على ذلك وبرّر لهم هذا الاتجاه أمور منها:

- أن القوانين والنظم الاجتماعية والسياسية لديهم قوانين ونظم وضعية -أى يضعها الناس للناس - وتلك القوانين قلما تخلو من تحيز.

- وما دامت هذه القوانين من وضع أفراد متميزين عادة بالثروة والجاه والعلم، فالمتوقع أن يضعوا قوانين ونظمًا تحابى الأفراد من أمثالهم، وغالبًا ما يكون ذلك على حساب مصالح المجتمع.

- ويبررون عملهم هذا بأن إعطاء الفرد- المتميز فى نظرهم تميزًا ماديًا - كافة حرياته وحقوقه -بأولوية كثيرًا ما تتجاهل حقوق المجتمع وحرياته - يمكن الفرد من زيادة نشاطه وقدرته على استثمار أمواله وتنميتها، مما يسهم فى تنمية المجتمع وترقيته اجتماعيًا واقتصاديًا، وبخاصة أنه يستخدم عمالاً ويأجرهم، فلا عيب فى أن تلتقى مصلحته مع مصلحة المجتمع، بل يصبح هذا الفرد بإمكاناته وقدراته دعمًا للمجتمع.

- وأن اعتبار مصلحة الفرد وتعظيمها تمكنه - وهو صاحب مزايا - من زيادة إنتاجه، وتجويده، مما يقدره على التنافس مع الآخرين، والتنافس مصدر خير وتنمية اقتصادية للمجتمع.

- وأن هؤلاء الأفراد عندما تأخذ مصالحهم أولويات يستطيعون إقامة المشروعات وإنشاء المصانع والشركات العملاقة - حينما يشترك بعضهم مع بعض، مما يتيح لهم أرباحًا وفيرة، فيشجعهم على الاستمرار فى التوسع فى مشروعاتهم، وتطويرها، مما يوفر السلع والخدمات بأسعار منافسة وهو ما ينعكس على المجتمع بالفائدة.

• ولهؤلاء الذين يغلبون مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع موقف من الحكومات - بوصفها التى تدير شئون المجتمع وتحكم حركته -حيث يمنعون الحكومة بقوة نفوذهم من بعض الإجراءات، ويسمحون لها ببعضها الآخر، ولا يسع الحكومة إلا أن تستجيب لقدرتهم على إقناعها من جانب، ولأنهم هم الذين يأتون بالحكومة من جانب آخر[1].

• فمما تمنع منه الحكومات فى ظل هذا النظام:

- ممارستها- من خلال هيئاتها ومؤسساتها - لأى عمل فنى أو تجارى أو مصرفى، كالصناعات والزراعة ونحوها، وإنما تترك ذلك للأفراد أصحاب الشركات والذين

---

(١) إنما يكون ذلك فى المجتمعات التى تختار فيها الحكومات، لا التى تفرض فيها الحكومات على الناس فرضًا.

يملكون وسائل الإنتاج، لأن فى ذلك الامتناع مصلحة للفرد تعود فى النهاية على المجتمع.

- وتدخُّل الحكومة فى الإنتاج وأدواته، أو ملكيتها لأى من وسائل الإنتاج، لأن هذا التدخل يقلل من مصالح هؤلاء الأفراد أصحاب الثروة والمقدرة والنفوذ، وذلك يحقق مصالحهم ثم مصلحة المجتمع.
- وتدخلها فى تسعير أى سلعة أو خدمة، وإنما تترك ذلك لأصحاب الشركات والمصانع لأنهم أصحاب الحق فى ذلك، ولأن قضية العرض والطلب هى المعيار عندهم فى تحديد سعر السلعة أو الخدمة.

ومما يسمح به هذا النظام للحكومات:

- التنسيق بين المشروعات والأعمال، فى ظل القوانين والنظم الحكومية بحيث لا تسمح لهم بالصراعات فيما بينهم، التى قد تضر بالمجتمع، فلابد من تنسيق بينهم فى إنتاج السلع والخدمات، التنسيق وليس الإلزام، لأن إلزام هؤلاء وهم صفوة المجتمع أمر مرفوض تمامًا.
- والتعاون مع رجال الأعمال والمستثمرين الجادين، بأن تيسر لهم امتلاك الأراضى التى تملكها الدولة، والتسامح معهم فى تسديد أثمانها.
- وللحكومة أن تفرض عليهم الضرائب العادلة -وغالبا ما يتدخل هؤلاء الصفوة فى تقدير هذه الضرائب لأنهم أعضاء فى المجالس النيابية التى تسُن هذه الضرائب، بل بعضهم يرأس معظم لجان هذه المجالس.

- وهذا النظام الذى يغلب مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع، يسمى: النظام الاقتصادى الحر -أى الرأسمالى- وهذا النظام تأخذ به معظم دول أوروبا -ما عدا الاشتراكى منها- كما تأخذ به الولايات المتحدة الأمريكية.
- ويقوم هذا النظام الرأسمالى على أسس أهمها:

- الفرد يمتلك رأس المال ويمتلك ما يشاء دون قيود أو حدود لملكيته.
- ويمتلك وسائل إنتاج السلع والخدمات، وآلياتها.
- وله وحده إدارة مشروعاته ومصانعه، دون تدخل من الحكومة فى شىء من ذلك.

- وله الحق فى استثمار أمواله ومنتجات مشروعاته، ليحقق من وراء ذلك ما شاء من الأرباح دون قيود عليه.

- وله الحق فى ممارسة ما يشاء من الأعمال الاقتصادية دون تدخل من الحكومة فى ذلك حتى لو كانت أعمالاً لا يحتاج إليها المجتمع أولا تمثل ضرورة له ، وكذلك الشأن فى إنتاجه للسلع أو الخدمات.

- وله الحق فى بيع ما ينتج من سلع وخدمات بالسعر الذى يريد، أو الامتناع عن ذلك دون أن تسائله الحكومة عن ذلك، لأنه سيد الموقف والتصرف دائمًا.

● وفى ظل النظام الرأسمالى تكاد تنحصر أعمال الحكومة فى بعض الأمور الضرورية مثل:

- حماية المجتمع أو الدولة من أى عدوان خارجى يقع عليها.

- وتحقيق الأمن الداخلى فى المجتمع بمقاومة العصابات والمجرمين وحماية الناس من أن يعتدى بعضهم على بعض.

- وتأمين خدمات البنى الأساسية للمجتمع، كتوفير الخدمات فى مجال المواصلات والاتصالات والمرافق العامة ونحوها، وتوفير مياه الرى والشرب، وتوفير الكهرباء والطاقة.

● ومما يأخذه بعض الباحثين على نظام الاقتصاد الحر، جملة عيوب منها:

- أن التنافس بين الأفراد قد يضر بالاقتصاد الحر، وبخاصة عندما يشتد هذا التنافس، وتزيد شراهة هؤلاء الأفراد فى حب المال.

- وأن محاباة مصالح الفرد، لابد أن تتسبب فى تضييع بعض مصالح المجتمع، وفى هذا ضرر بالحياة الاجتماعية عمومًا وإضاعة لفرص التكافل الاجتماعى على وجه الخصوص، ومن المسلم به أن المجتمع بغير تكافل اجتماعى، يجعل طائفة غير قليلة من الناس تعانى فى معيشتها أنواعًا من المعاناة.

- وأن تعرض الاقتصاد الحر أو الرأسمالى لأى أزمة اقتصادية ، وأحيانًا يحدث هذا، فتدخل البلاد فى ضوائق مالية، وركود اقتصادى فى فترات بعينها معروفة، وإذا لم تتدخل الحكومة - وما هى بمتدخلة فى ظل هذا النظام - فإن الضوائق والأزمات تتفاقم ويعم شرها، وهذا من سلبيات النظام الاقتصادى الحر.

● ومما يراه بعض الباحثين من إيجابيات الاقتصاد الحر، ما نسجل بعضه فيما يلى:

- أن الإنفاق على المواصلات والاتصالات والبريد -مثلا- يكون فى ظل الاقتصاد الحر من عمل أصحاب رءوس الأموال والشركات والمصانع، وفى هذا تخفيف من أعباء الحكومات من جانب، وتحديث وتطوير وتحسين لهذه الخدمات من جانب آخر.

- وسيكون الإنفاق على مشرعات الإسكان والاستزراع والتصنيع من رغائب أصحاب رءوس الأموال بل من أهدافهم لما يجنون منه من أرباح، وفى هذا تخفيف لأعباء الحكومات من جانب وتوفير لهذه الاحتياجات من جانب آخر.

- وأوضح ما تكون إيجابيات الاقتصاد فى مجال التعليم؛ لأن الإنفاق على التعليم يقوم جانب كبير منه على عاتق أصحاب الشركات والمؤسسات، لأن لهم فى تطوير التعليم وتيسيره فائدة مباشرة إذ يمدهم بالطاقات البشرية المتعلمة التى تعينهم على تطوير السلع والخدمات، وفى الغالب يكون لأصحاب رءوس الأموال أن ينشئوا مدارس وجامعات خاصة يتقاضون منها مصروفات لكل من يرغب فى التحاق بها.

ولن تتوقف أى حكومة عن إنشاء المدارس والجامعات لأن ذلك من صميم واجباتها، ومعنى ذلك تيسير التعليم وتطويره، واستجابته لحاجات المجتمع.

وفى هذا تخفيف لأعباء الحكومة بعونها على إتاحة التعليم للمواطنين.

● وعلى الرغم مما ذكرنا فلسنا بصدد إصدار الحكم على النظام الاقتصادى الحر.

لكن سؤالنا الملح الذى يلائم موضوع التكافل الاجتماعى، هو: هل يستطيع نظام الاقتصاد الحر أن يحقق التكافل الاجتماعى؟

والجواب: لا.

وسبب هذا الجواب أن التكافل الاجتماعى لا يتحقق فى نظام يعطى الأولوية لصالح الفرد، ويغلب صالحه على صالح المجتمع.

والذى نذكر به فى هذا الصدد هو: أن المجتمع الإسلامى لا يسمح فيه وفيما يسوده من قيم ومبادئ أن تتغلب مصلحة الفرد على المجتمع، بل لابد من توازن بين المصلحتين.

ثانيا: النظم المنحازة إلى جانب المجتمع:

أوضح ما كان ظهور هذه النظم الاجتماعية والسياسية التى تغلّب صالح المجتمع على صالح الفرد، عندما ظهرت الشيوعية الحديثة - أو الاشتراكية - وفضت على النظام

القيصرى فى روسيا، وطبقت نظامها الذى قام على تجريم رأس المال ونادى بالصراع الطبقى، وتمخض فى النهاية عن سحق الفرد لصالح المجتمع - كما يزعمون - أى الحزب الحاكم على وجه الحقيقة.

والفرد فى ظل هذا النظام الاقتصادى المحكوم أو الموجه جزء ضئيل من المجتمع، بل لا يتجاوز أن يكون ترسًا فى آلة ضخمة تتألف من مئات التروس بل ألوفها تحكم بحركتها حركته وتسلبه حريته فى أن يغير زمانه أو مكانه.

● هذا النظام الذى سموه اشتراكيًا يقوم على أسس من شأنها أن تغلب مصالح المجتمع - الحزب الأوحد الحاكم- على حساب مصالح الفرد وحرياته، ومن هذه الأسس:

- ليس للفرد مهما كان أمره فى المجتمع قوة فى ذاته، وليس له حرية ذاتية.

وإنما قوته وحريته تستمد من المجتمع الذى يعيش فيه، ولا يملك أن يختار شيئًا، وإنما ينتظر ما يعطيه المجتمع فيأخذه دون تطلع إلى سواه، حتى الطعام والملبس والمسكن.

- وجميع ما ينتجه الفرد من سلعة أو خدمة ليست له، وإنما هى للمجتمع أو للحزب، يتصرف فيها كما يحلو له.

- وليس للفرد الحق فى ملكية شىء مهما كان ضئيلاً أو تافهًا، لأن ملكية كل شىء للمجتمع أى للحزب الحاكم، وكل منقول إنما يستحفظ عليه الفرد حتى يؤديه إلى المجتمع.

- والفرد محروم من حرية الإبداع فى عمله، إذ لا يسمح له بتجاوز مكان الترس فى الآلة، ولا يتجاوز وقت الدوران فيها، فإن خرج عن ذلك الإطار حوسب وعوقب بكل قسوة أو نفى إلى «سيبيريا».

- والفرد فى ظل هذا النظام الاجتماعى الاقتصادى الضارى المكشر عن أنيابه، لا يملك أن يمارس شعائر دينه؛ لأنه لا اعتراف بالأديان فى هذا النظام، لأنه يسمى الأديان مخدرًا للشعوب، ويسمى الصوم مثلا - وهو فى كل دين- معطلاً لقوى البشر، وكيف يعترف هذا المجتمع بالدين وهو ينكر الديَّان سبحانه وتعالى ويجحده.

- وليس للفرد وجود ذو ذاتية، وإنما كل المجتمع جماعيات، فالمزارع جماعية، والمصانع جماعية، والعمل فى هذه الجماعيات مهما كان شاقًا فإن مقابله الوحيد هو الطعام الذى يمسك الرمق، ومن قصر حوسب وعوقب.

وليس هذا تحاملاً منا على نظام نزدريه وإنما هي اعترافات قادته يوم حطموه على رأس كارل ماركس وإنجلز ولينين وستالين وخروشتشيف وغيرهم، حطموه وخرجوا من مياهه الآسنة وهوائه المسمم غداة انهار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.

- ومهما ادعوا من الانحياز لجانب المجتمع فقد كذبوا وضللوا فهو لصالح الحزب الحاكم الأوحد وحكامه المستبدين وجواسيسه الذين يحصون على الناس أنفاسهم فضلاً عن خطواتهم فضلاً عن حرية السفر والتنقل!

- وليس للفرد في ظل هذا النظام أن يرث ولا أن يورث حتى لو كان متاع بيته، لأنهم يقولون: إن لكل بحسب عمله وجهده وحاجته، ولا ينبغي أن يئول ذلك لغيره لأنه لا يملكه!!

- والإدخار مهما قل محظور، فإن حدث فإنه ينتقل إلى المجتمع أي الحزب الحاكم، وفي أخريات أيام هذا النظام عدلت فيه بعض القوانين فأجازوا ميراث المسكن وما فيه!!

- وإذا سألت عن التكافل الاجتماعي في ظل الاقتصاد الموجه قيل لك: هذه هي مسئولية الدولة أو الحزب الأوحد، بل ربما قال بعض المتحمسين: وما أهمية هذا التكافل الاجتماعي والنظام يفرض على كل أن يعمل، ومن يعمل يأكل ويلبس ويسكن، وما وراء ذلك مطالب فيها رفاهية ابتدعها الرأسماليون، تفسد جماهير الشعب والطبقات الكادحة، ثم قالوا: ماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ أن يأكل ويلبس ويسكن.

- وفي الاتحاد السوفيتي السابق، وفي الاتحاد الروسي اليوم تسيطر مؤسسات الدولة وتعاونياتها على كل شيء فيما يتصل بالتجارة والصناعة والزراعة في الداخل، أما في الخارج فإن احتياجات الاتحاد الروسي وهي كثيرة تجعل التجارة الخارجية بالنسبة للاتحاد الروسي في قبضة الدول الخارجية، لا يملك فيها الاتحاد الروسي إلا الخضوع.

- ومما يأخذه بعض الباحثين على نظام الاقتصاد الموجه في الاتحاد السوفيتي السابق وفي الاتحاد الروسي الآن، كثير من المآخذ التي يمكن إجمالها في الحيف على الفرد من أجل المجتمع أو الحزب الأوحد، التي نذكر بعضها فيما يلي:

- الدولة أو الحزب الأوحد يملك كل شيء؛ وسائل الإنتاج والأرض والسماء والجو وإرادة الناس واختيارهم، كل ذلك ملك الدولة أو الحزب، ولا يملك الإنسان منه شيئًا.

- وتنفرد الدولة أو الحزب الأوحد بوضع سياسة ملزمة للإنتاج فى مجال السلع والخدمات، والدولة تملك وحدها سياسة توزيع المنتجات، دون أن يفكر فى الاعتراض أحد.

- والمزارع عندهم نوعان:

● نوع يسمى مزارع الدولة أو الحزب الأوحد، وهى التى تديرها، وتعطى العاملين فيها معاشات محدودة.

● ونوع يسمى مزارع جماعية، تملكها جمعيات أو جماعات زراعية تعاونية، ولكن الدولة أو الحزب الأوحد، هو الذى يوزع أرباحها كما يحلو له.

- وتملك الدولة أو الحزب الأوحد الحاكم كل وسائل المواصلات والاتصال والبريد وغيرها.

- والتعليم فى هذا النظام ملك للدولة لا يجوز لأحد أن يمتلك مدرسة أو أى مؤسسة تربوية(١)، والتعليم كله دون مصروفات، وسن الإلزام من سن سبع سنوات إلى ستة عشر عامًا.

- والإعلام كله أجهزة ووسائل ومادة إعلامية ملك للدولة لا يجوز لأحد أن يمتلك شيئًا من وسائله، وليس لأحد أن يتفوه بكلمة، فضلاً عن عمل سينمائى أو مسرحى أو تليفزيونى(٢).

- وتتولى الدولة أو الحزب إدارة كل عمل اقتصادى مهما كان صغيرًا، وتخطط له وتنظمه، وتحرم على أى أحد من غيرها أن يتدخل بشيء، وحجتهم فى ذلك أن يكون الاقتصاد منسجمًا مع خطة الدولة فى السياسة والاقتصاد.

- ومما يدخل فى الاقتصاد أن الدولة هى التى تضع كل التنظيمات المهنية، وتوجهها نحو خدمة الدولة أو الحزب، ولا يستطيع أحد أن يشذ عن ذلك، ومن شذَّ شذَّ فى نار سيبيريا مع التعذيب والنكال!!!

- والدولة أو الحزب تسيطر على أصحاب المهن وعلى الهيئات العمالية والنقابات إن وجدت، ولها عليهم كافة السلطات، وعليهم الالتزام بما فرض عليهم.

---

(١) السيطرة على التعليم هدفها السيطرة على تفكير المواطن منذ صغره، وإلى أن ينهى تعليمه، حتى يصاغ المواطن على النحو الذى ترغب فيه الدولة والحزب قالبًا فى بناء أو تُرسًا فى آلة يسبِّح للحزب ويقدس الحكام.

(٢) الإعلام وأجهزته ومادته الإعلامية موجهة نحو تمجيد طواغيت النظام الاشتراكى، ومن كان يرى صور ستالين فى كل مكان يدرك كم يستذل هؤلاء الطواغيت الشعوب، ويفرضون عليها ما يشاءون!!!

- والدولة هى التى تصنع السياسة الاقتصادية لجميع جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق أو الاتحاد الروسى اليوم، ولا يملك أن يخرج عن إطار هذه السياسة أحد من الناس، بل إن نفوذ هذا النظام المتوحش امتدَّ إلى كثير من الدول التى أخذت بهذا النظام الاقتصادى الموجه أو الاشتراكى البغيض.

وكانت جمهوريات الاتحاد السوفيتى خمس عشرة جمهورية، والجمهوريات الذليلة الدائرة فى فلكه عشرين جمهورية خدعت بتسميتها جمهوريات ذات «حكم ذاتى» والحق أنها لا تملك أن تفعل شيئًا أدنى شىء دون استئذان «الكرملين» حتى المظاهرات للتعبير عن الرأى لابد فيها من الاستئذان -باستثناء ما كان يعرف بيوغوسلافيا وألبانيا لظروف تخص هاتين الدولتين[1].

وبعد: فهل يوجد فى الاتحاد السوفيتى السابق أو الاتحاد الروسى الآن تكافل اجتماعى يضمن لكل ذى حق حقه ويكفل كل ذى حاجة؟

اللهم: لا، بل ألف: لا.

وكيف يكون التكافل الاجتماعى مع التفرقة الشديدة بين اهتمام النظام بحقوق المجتمع أو الحزب وحريته فى أن يفعل ما يشاء، ويملك ما يشاء ومن يشاء، بين هذا وبين الإهمال المتعمد لحقوق الفرد الإنسانية الطبيعية، وحجبه عن ممارسة أى حرية فى أى شىء، ومنعه من التعبير بكل وسائل القمع والإرهاب؟

ثالثًا: النظام الإسلامى المتوازن:

النظام الاجتماعى الإسلامى، الذى اختاره الله لعباده هو النظام المتوازن، الذى يعرف للفرد حقوقه وللمجتمع حقوقه، ولا يسمح لطرف منهما أن يحيف على الآخر.

إن الإسلام حرص -بوصفه دينًا ومنهجًا ونظامًا من عند الله تعالى- على أن يوازن بين حقوق الفرد وحرياته وحاجاته وبين حقوق المجتمع وحرياته وحاجاته، لأن الله تعالى واضع النظام لا يمكن أن يحابى هذا دون ذاك، لأنه سبحانه كرم بنى آدم جميعًا أفرادًا وجماعات ومجتمعات فى توازن روحه العدل والمساواة.

---

(١) نفس هذه الهيمنة والسيطرة تمارسها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية على البلاد التى تربطها بعجلتها وحصانها، وهى معظم -إن لم أقل كل- بلدان العالم الثالث وكثير من البلدان غيرها، ومن شذ عن هذا الإطار فهو إرهابى متطرف يملك أسلحة دمار شامل تحتل بلاده وتنتهك كرامته، وتنظر إليه هيئة الأمم المتحدة كما تريد لها أمريكا أن تنظر!!!

- وقد تمثل هذا التوازن بين حقوق الفرد وحاجاته وحقوق المجتمع وحاجاته فى كثير من الأسس التى يقوم عليها هذا التوازن، ومن تلك الأسس:

- إعطاء الفرد حرية التملك، وحرية الإنتاج، وحرية امتلاك وسائل الإنتاج.
- وإعطاؤه حرية العمل وحرية الكسب، وحرية الاقتناء، وحرية أن يرث وأن يورث، فضلاً عن حريته فى أن يوصى من ماله إلى حدود الثلث بشرط ألا يوصى لأحد ورثته.
- وأعطى الإسلام الفرد حرية التنقل بأمواله إلى حيث شاء.

وفى مقابل الحقوق التى أعطاها الإسلام للفرد أوجب عليه واجبات، تدعم حقوقه وتجعله أهلاً للاستمتاع بها، ومن هذه الواجبات:

- أوجب أن يحصل على المال والكسب من الحلال، وأن ينفقه فيما أحل بغير سرف ولا مخيلة.
- وأوجب عليه ألا يأتى عملاً يضر به نفسه أو غيره من الناس وأن يجعل الله رقيبه وحسيبه فيما يأتى وما يدع.
- وأوجب عليه أن يكون فى عون أخيه المؤمن والستر عليه ورفع الحاجة عنه، وغوثه إن استغاث.

- وكذلك فعل الإسلام بالمجتمع حاكمًا وحكومة وهيئة اجتماعية فأعطاه حقوقه وضمن له من الحريات ما فيه مصلحته، ومن ذلك:

- أنه أعطاه السلطة وأوجب للحاكم السمع والطاعة فى غيرمعصية الله تعالى، بل طاعة المحكوم للحاكم المسلم عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه سبحانه وتعالى.
- وأعطى المجتمع حاكمًا وحكومة الحق فى جمع الأموال من الناس عند الحاجة إليها لجلب منفعة أو رفع مضرة، وأوجب على المسلم القادر أن يستجيب لهذا النداء كما يستجيب للنفير عند هجوم عدو على البلاد.
- وأعطى المجتمع الحق فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتنقية المجتمع من الشرور والآثام، وتوجيه الناس إلى كل عمل يرضى الله تبارك وتعالى.

• وأعطاه كثيرًا مما يدعم حقوقه وحرياته ويحقق حاجاته مما هو معروف في كتب الفقه الإسلامي وكتب السياسة الشرعية[1].

• وفي مقابل هذه الحقوق أوجب على المجتمع واجبات تتعلق برقبة الحاكم والحكومة، ومن ذلك:

- أوجب على المجتمع حاكمًا وحكومة العدل والمساواة بينهم أمام القانون الإسلامي المستقى من الكتاب والسُّنَّة.

- وأوجب عليه الدعوة إلى الدين الحق والحركة به في الناس والآفاق واتخاذ قيمه ومبادئه وسائل لتغيير كل ما يخالف الإسلام، وجعل ذروة ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى.

• وهذا الذي أعطاه الإسلام للفرد وأوجبه عليه، وهذا الذي أعطاه للمجتمع وأوجبه عليه، هو التوازن الصحيح بين الفرد والمجتمع في الحقوق والواجبات، وهذا في الوقت نفسه وسيلة من أنجح الوسائل في تحقيق التكافل الاجتماعي، وتطبيقه.

والأساس الثالث: تأمين حياة العاجزين عن العمل:

القدرة على أداء العمل نعمة كبرى من الله تعالى على الإنسان لأن العمل باب الرزق، والرزق من أسباب ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة.

ومن عجز عن العمل لفقد العمل أو لعدم القدرة على أدائه يجب على المجتمع الإسلامي أن يمد له يد العون، حتى يؤمن له العمل فيعمل فيرتزق، أو يعجز عن ممارسة العمل فيعينه المجتمع فتصبح هذه المعونة باب رزق.

• ومن أجل أن العمل باب من أبواب الرزق، فقد طالب الله تعالى الناس بالسعي في طلب الرزق، فقال جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ولقد أجمع الفقهاء على أن العمل والسعي على الرزق هو الأصل الواجب على الإنسان، فلقد أمر الله تعالى بالعمل والسعي على الرزق في أكثر من آية قرآنية كريمة منها:

(١) من ذلك كتاب: الأحكام السلطانية للماوردي، والأحكام السلطانية لأبي يعلى، والسياسة الشرعية لابن تيمية.

- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

- وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وكان الأنبياء عليهم السلام أهل حرَف وأعمال يرتزقون منها، مع أنهم خير خلق الله تعالى وأفضلهم.

● ولقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى العمل واتخاذ حرفة للكسب فى كثير من أحاديثه النبوية التى نذكر منها:

- ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه»**.

فهذا الاحتطاب عمل وحرفة من أجل الحصول على الرزق.

- وما رواه البخارى بسنده عن المقدام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»**.

- وما رواه الديلمى -فى مسند الفردوس- بسنده عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب أن يرى عبده تعبًا فى طلب الحلال»** والمعنى: يراه تعبًا من العمل فى طلب الرزق.

- وما رواه أحمد بسنده عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أى الكسب أطيب؟ قال: **«عمل الرجل بيده، وكل عمل مبرور»**.

● ومن هذه النصوص الإسلامية ندرك أن العمل أصل فى طلب الرزق، وأن القعود عن العمل مع القدرة عليه وسؤال الناس، إثم ومعصية وخروج عن سنن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فما واجب المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة ومحكومين عندما يعجز أحد من المسلمين عن القيام بالعمل ليرتزق منه ويعيش؟

ذلك ما نوضحه بإذن الله تعالى، فى الصفحات التالية فى نقاط ثلاث، والله الموفق.

أولاً: أسباب العجز عن العمل:

المجتمع الإسلامى لا يقبل أن يضيع فيه عاجز عن العمل لأن العاجز عن العمل جزء من المجتمع الذى إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وكيف يسمح الإسلام بأن يضيع أو يتضرر جزء من المجتمع الإسلامى؟

● ومن أجل ذلك أعطى الفقه الإسلامى أهمية كبيرة لكفالة من كان عاجزًا عن العمل، وقد انشغل فقهاء المسلمين بالحديث عن أسباب العجز عن العمل، فقالوا فى ذلك ما أوضحوا فيه أسباب العجز عن العمل على النحو التالى:

- عجز الإنسان عن العمل بسبب المرض.
- وعجزه عن العمل بسبب الشيخوخة.
- وعجزه عن العمل بسبب صغر سنّه.
- وعجزه عن العمل بسبب عاهة خُلق بها أو طرأت عليه، تحول بينه وبين أداء العمل.
- وعجزه عن العمل بسبب كونه أخرق لا يحسن أن يقوم بعمل.
- وعجزه عن العمل بسبب جهله، وبخاصة إذا كان العمل يتطلب علمًا ومعرفة وتقنية من نوع معين.
- وعجزه عن العمل بسبب بعد مكان العمل عنه، ومشقة الوصول إليه.
- وعجزه عن العمل بسبب الأنوثة، حينما تكون الأنثى غير عاملة، وغير ذات زوج.
- وعجزه عن العمل بسبب ندرة حرفته وعدم احتياج الناس إليها.
- وعجزه عن العمل بسبب انتمائه لأهل حرفة أصبح الناس فى غِنىً عنها، كحرفة السَّقَّائين -مثلا- بعد أن دخلت المياه إلى البيوت من خلال شبكات مياه التغذية.

● ولقد استبعد الفقهاء مَنْ عَجَزَ عن العمل لاستغناء الناس عنه لفساد خلقه وسوء سلوكه، لأن هذا العاجز عن العمل لهذا السبب يجب عقابه وتعزيره، حتى يتخلى عن هذه الصفات.

كما استبعدوا من العاجزين عن العمل من كان عجزه عن العمل بسبب كسله أو تراخيه، فلهذا علاج كسابقه حيث يحمل على العمل حملاً.

- وهذا التدقيق فى معرفة أسباب العجز عن العمل ضرورى، حتى لا يكفل من لا يستحق الكفالة، فيتراخى الناس ولا يعملون فيعجز المجتمع الإسلامى عن كفالتهم من جانب، وتشيع البطالة من جانب آخر، ويقل الإنتاج فيقل الدخل من جانب ثالث، وهكذا تتوالى سلبيات العجز عن العمل أو القعود عنه مع القدرة عليه، وكل ذلك ليس فى صالح المجتمع الإسلامى بحال، فهو يحول بينه وبين المنافع ويجلب إليه المضار.

هذه النقطة الأولى من النقاط الثلاث التى سنتحدث عنها، أما النقطة الثانية.

ثانيًا: على من تجب نفقة العاجز عن العمل؟

المجتمع الإسلامى مجتمع متماسك متوحد كالجسد الواحد كما وصفه المعصوم ﷺ، والقيم التى تحكم المجتمع الإسلامى تعزز فيه هذا التماسك والتوحد ابتداء من تماسك الأسرة وولاء بعض أفرادها لبعض ومرورًا بتماسك المجتمع كله، وانتهاء بتماسك الأمة الإسلامية فى شتى بقاع الأرض.

- ومن أجل تقوية هذا التماسك الاجتماعى واستجابة للقيم التى تسود المجتمع الإسلامى وللمبادئ والنظم التى تحكمه، أوجب الإسلام نفقة العاجز عن العمل على أقربائه من ذوى اليسار، ورتب قرابتهم فى القيام بهذا الواجب.

- وقد حدد الفقهاء درجة قرابة من تجب عليه هذه النفقة بعدالة وموضوعية بالغتى الدقة، من شأن عدالتها وموضوعيتها أن تعطف الغنى من الأسرة على الفقير منها، وأن تجعل الفقير شاكرًا مقدرًا لمن أعانه.

- قالوا: إن أولى الأقرباء بالإنفاق على العاجز عن العمل هو الذى يرث هذا العاجز عن العمل لو كان ذا مال، ثم الذى يليه فالذى يليه وهكذا...

- وفصلوا ذلك فقالوا: إن تجاهل حقوق الأقرباء المحتاجين إثم ومعصية لما فيه من تقطيع الأرحام والقرابات.

وقالوا: الرحم على وجهين: عامة، وخاصة.

- فالرحم العامة رحم الدين التى سماها القرآن الكريم إخوة «إنما المؤمنون إخوة» ويجب

وصل هذه الرحم بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة لهم وترك مضارَّتهم والعدل بينهم والنصفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة...

- والرحم الخاصة: وهى رحم القرابة من طرفى الرجل أبيه وأمه. فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم، وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بُدِئ بالأقرب فالأقرب[1].

- وشرط الفقهاء فيمن عليه نفقة العاجز عن العمل -بعد مراعاة القرابة- أن يكون من أهل اليسار -أى كسوبًا يبقى معه من كسبه ما يمكنه من تأمين حاجة هذا العاجز عن العمل.

- فإن لم يكن له أقرباء مطلقًا، أو له أقرباء فقراء أو عاجزون عن العمل، فإن كفالته تقع على المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة ومؤسسات وأفرادًا وجماعات، والدولة هى التى تنسق بين الكافلين إذا تعددوا بحيث لا يبقى فى المجتمع عاجز عن العمل لا يجد ما يكفيه.

- ومن أروع الأحكام وأعظمها وأدلها على تماسك المجتمع الإسلامى، أن الدولة إذا امتنعت عن الإنفاق على العاجز عن العمل، ألزمها القضاء بهذا الإنفاق وأوجب عليها الإنفاق عليه.

ومعنى ذلك أن للعاجز عن العمل إذا تخلى عنه المجتمع أن يلجأ إلى القضاء وأن يشكو الدولة حاكمًا وحكومة.

- غير أن أداء هذا الواجب نحو العاجز عن العمل، لابد أن يسبقه توفير الدولة للعمل وفرصه وأسبابه، فإن توفر العمل، وامتنع أحد عن العمل بعد توفر فرصه، فإن على المجتمع أن يبحث ظروفه وأسباب امتناعه فإن لم تكن مقنعة حمله على العمل حملاً.

ولذلك تفصيلات رائعة فى تراثنا الفقهى والاجتماعى، منها:

- إذا كان عجزه عن العمل بسبب جهله بالعمل ومتطلباته، وجب على المجتمع أن يعلمه ويزيل عنه هذا الجهل، ليتمكن من ممارسة العمل.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٤٧، ٢٤٨.

- وإذا كان العجز عن العمل بسبب المرض، فإن على المجتمع أن يعالجه ويوفر له أسباب الصحة.

- وإن كان العجز عن العمل بسبب بعد مكان العمل عنه، أو مشقة الوصول إليه، وجب على المجتمع أن ييسر له القيام بالعمل.

- وإن كان العجز عن العمل بسبب التراخي والكسل عزره المجتمع من خلال القاضي الذي يحكم بذلك ويوجب على المجتمع تنفيذ أحكامه.

● هذا هو التكافل الاجتماعي الذي يجب أن يوفره المجتمع الإسلامي لكل من يعيش في كنفه، مسلمًا أو غير مسلم لأنه لا يجوز للمجتمع الإسلامي أن يتخلى عن تأمين حاجات غير المسلمين ماداموا يعيشون في ظله.

ثالثًا: الإسلام وكفالة العاجز عن العمل:

الأصل الذي يدور عليه موضوع التكافل عمومًا، وبين الأقارب والأرحام خصوصًا هو:

- قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ [النساء: ١].

والمعنى -كما قال المفسرون-: اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

- وقول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار -أو العباء- متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب، فقال: «﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ إلى آخر الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾، **تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره**» حتى قال: «**ولو بشق تمرة**»، فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه -يعني كأنه مذهبة- فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر

من عمل بهـا من بعده من غيـر أن ينتقص من أجـورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

- وما رواه أحـمد بسنده عن سـلمان الفـارسي رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «كاتب يا سلمان»[1] فكاتبت على ثلاثمائة نخلة أجيبها له بالفقير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصـحابه: «أعينـوا أخاكم» فأعانـونى بالنخل؛ الرجل بثلاثين وَدِيَّة[2]، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة والرجل بقـدر ما عنده، حتى اجتمعت ثلاثمائة وَدِيَّة، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقِّر لها[3]، فإذا فرغت فائتنى أكون أضعها بيدى» ففقرت لها وأعـاننى أصحابى حتى إذا فرغت منها جئته فأخـبرته، فخرج رسول الله ﷺ معى إليـها، فجعلنا نقـرب له الوَدِّ ويضعه رسول الله ﷺ بيـده، فوالذى نفس سلمان بيـده، ما ماتت ودية واحـدة، فأديت النخل، وبقى علىّ المال. فـأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب المغازى فقال: «ما فعل الفارسى؟» فدُعيتُ له؛ فقال: «خـذها فأدِّ بهـا ما عليك يا سلمـان» فقلت: وأين تقع هذه يا رسـول الله مما عَلَيّ؟ قال: «خذها فإن الله عز وجل سيؤدى بها عنك» قال: فأخذتهـا فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيـده أربعين أوقيـة فأديتهم حـقهم، وعـتقت[4]، فشهـدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتنى معه مشهد.

- وما رواه البـخارى ومسلم بسنديهـما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خَلَـقَ الخلق، حتى إذا فرغ من خلـقه قامت الرحم، فـقال: مَـه؟ قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذلك لكِ»

- وما رواه أحـمد بسنده عن عـائشة رضى الله عنهـا قالت: قـال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمِّرن الديار، ويزدن فى الأعمار».

- وما رواه الترمذى بسنده عن أبـى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلة القرابة مثراة فى المال، محبة فى الأهل، منسأة فى الأجل».

---

(١) المكاتبة عقد يبرم بين السيد وعبده على مال معين يؤديه العبد لسيده، فينال حريته.
(٢) الوَدِيَّة: النخلة الصغيرة أو الفسيلة.
(٣) فقِّر لها: أى احفر لها حفرة تغرسها فيها.
(٤) أى: نلتُ حريتى وفارقت العبودية.

- وما رواه أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: ذهب الأغنياء بالأجر، يصلون ويصومون ويحجون! قال: «وأنتم تصلون وتصومون وتحجون»، قلت: يتصدقون ولانتصدق! قال: «وأنت فيك صدقة، عونك الضعيف بفضل قوتك صدقة».

- وما رواه أحمد بسنده عن أبى بردة عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة» قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف».

- وما رواه أبو داود بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عرى كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم».

وما رواه الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن باله -وفى رواية بى- من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم».

وبعد فإن هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التى حثت على رعاية الذين يحتاجون إلى رعاية وسد حاجة المحتاجين كثيرة[1]، وتلك الأحاديث النبوية تؤكد أن التكافل الاجتماعى فى الإسلام مظلة واسعة يتقى فى ظلها الحرَّ والهجير كلُّ عاجز عن العمل وكل محتاج ممن يعيشون فى كنف المجتمع المسلم حتى لو كانوا من غير المسلمين.

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بوصل غير المسلمين وعونهم فى أكثر من حديث ذكرنا بعضها فيما مضى من هذا الكتاب، ونذكر هنا بما صح عن رسول الله ﷺ من أن أسماء بنت أبى بكر رضى عنهما سألت رسول الله ﷺ قائلة: أأصل أمى -وكانت أمها لاتزال على الكفر- فقال لها: «نعم صلى أمّك».

والأساس الرابع: تطبيق النظام الإسلامى فى المِلكية.

وهذا الأساس من أسس التكافل الاجتماعى، هو الذى يضمن للتكافل الاجتماعى أن يؤتى أكله ويحقق أهدافه، وسبب ذلك أن النظام الذى جاء به الإسلام للملكية هو النظام الأنسب والأمثل للبشرية كلها فى كل زمان ومكان، لقدرته على تحقيق مصالح الناس جميعًا أفرادًا وجماعات وحكامًا وحكومات فى الدنيا والآخرة.

---
(١) مثل: الآية: ٢٢ من سورة محمد، والآية: ٧٥ من الأنفال، والآية: ٦ من الأحزاب.

- أما تحقيق مصالحهم فى الدنيا فلأنه نظام يشبع حاجات الناس ويحقق مصالحهم على نحو من العدل لا يوجد فى غيره، وتشهد على ذلك التطبيقات لنظام الملكية سواء أكانت خاصة أو عامة، التى نجحت تمامًا فى أن تحفظ لكل ذى حق حقه، وأن تجعل العدل سائدًا بينهم، وأن تندب الراغبين فى ثواب الله إلى الإحسان.
- وأما تحقيق مصالحهم فى الآخرة، فيتمثل فى حسن جزائهم وعظيم ثوابهم على طاعتهم لله تعالى باستجابتهم لمنهج الله تعالى ونظامه، وثواب الآخرة خير وأبقى.

– ونظام الإسلام فى الملكية يخلو تمامًا من عيوب أنظمة الملكية التى عرفها الناس قديمًا ووسيطًا وحديثًا، لأن كل نظام حركته إلى أهدافه أهواء واضعيه من الناس وقلما يخلو الناس من الهوى.

وقد رأى معظم واضعى نظم الملكية أن الملكية نوعان:

- ملكية خاصة لأفراد الناس.

وملكية عامة للدولة أو الحكومة أو المجتمع.

– وقد انقسم الناس فى أغلب عصور تاريخهم إلى فريقين:

- فريق يرجح الملكية الخاصة ويتوسع فيها، ويعطى لها من الميزات ما يجعلها أولى بالرعاية من الملكية العامة.
- وفريق يرى أن الملكية العامة هى الأصل، فيعطيها من الاهتمام الميزات ما يرجحها على الملكية الخاصة.

– وأوضح ما كان التباين بين نوعى الملكية الخاصة والعامة، جاء فى القرن العشرين الميلادى؛ حيث تبنى النظام الرأسمالى الحر نظام الاقتصاد الحر فكرة الملكية الخاصة وأضفى عليها ميزات عديدة. ثم تبنى النظام الشيوعى أو الاشتراكى أو نظام الاقتصاد الموجه، فكرة الملكية العامة للدولة أو للحزب الحاكم وحرّم الملكية الخاصة، تحريمًا يكاد يكون مطلقًا. وبهذا زاد التباين حدة بين النوعين من الملكية

- أما فى الإسلام، فإن نظام الملكية فيه وتنظيمها عادل عدالة مطلقة، ومع عدالته هذه يكون له أقوى التأثير فى المجتمع، ويقوم هذا النظام على احترام نوعى الملكية الخاصة والعامة على نحو متوازن.

● فقد اعترف بالملكية الخاصة اعترافًا واسعًا، ولكنه وضع لها من الميزات ما يجعلها قادرة على جلب المنفعة لصاحبها ودفع الأضرار عنه.

● واعترف بالملكيــة العامة، ووضع لها من الشـروط والميزات ما يجعلها قــادرة على تحقيق المنافع العامة للمجتمع ودفع المضار والمفاسد عنه.

– ومن خلال التوازن بين الملكيـة الخاصة والملكية العامة يستطيع التكافل الاجتماعى أن يؤدى وظائفـه ويحقق أهدافـه. ولكى تتـضح أبعاد التنظيــم الإسلامى لنوعى الملكيـة نستشهد دائمًا بآيات القـرآن الكريم، وأحاديث النبى ﷺ فى كل ما نذكر من مفردات هذا النظام.

أولاً: فى مجال الملكية الخاصة:

اعتبـر الإسلام الملكية الخاصة من نـعم الله تعالى التى أنعم بها على من هيأ له أسـبابها وهيأه للأخذ بهذه الأسباب، وبذلك اعتبرها حقًا من حقوق الفرد لا يجوز لأحد أن يحرمه منها، حتى لو كان التحدى للملكية الخاصة صادرًا من حاكم أو حكومة، فلا تصادر الملكية الخاصة ولا تمس الحرية فيها بحال، وليس لحـاكم أن يستولى على ملك خاص مهما كانت مبرراته، لأن الإسلام يحترم الملكية الخاصــة ويحيطها بسياج من الأمن، فينهى عن الاعتداء عليهـا، وفى هذا النهى عن انتقاص الملكيـة الخاصة أو اصـدارها جاءت نصوص إسلامـية عديدة منها: – قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٨].

فهذه الآية الكريمة تحرم أكل مال الغير دون وجه من وجوه الحق، وهذه الوجوه التى تحل مال الغير هى: الميـراث والهبة والعقد الصحيح المبيح لذلك، والتـحريم أشد فى حالة نزع الملكية بشهادة باطلة.

– وقوله تـعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ...**﴾ [النساء: ٢٩].

– وما رواه أبو داود بسنده عن حنيفة الرقاشى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**».

– وما رواه ابن مـاجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**».

- وما رواه ابن مـاجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أُرِيدَ ماله ظلمًا، فقتل؛ فهو شهيد»**.

- وما رواه ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عـمرو رضى الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: **«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك؛ ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»**.

فأى احترام وتقدير للملكية الخاصة أكبر من ذلك.

- ولقد تمثلت العدالة فى الشـروط التى وضعها الإسلام للملكية الخـاصة ووازن بينها وبين مصالح المجتمع أو الملكية العامة، ومن هذه الشروط:

- ألا تكون الملكية الخـاصة تحمل ضررًا عامًـا للناس، كملكية الأنهار والبـحار والأجواء والمعادن فى باطن الأرض ونحوها.

- وأن تكون ملكية انتـفاع لا ملكية رقـبة من الأراضى المفتـوحة لأن تلك الأرض على وجه الحقيقة ملك عام للمسلمين.

- وأن لا تكون بالناس مجاعة أو قحط شديد.

وهذه الشـروط ونحوها عندمـا تختل فإنـها تضعف المـلكية وتقيـدها أحيـانًا وبشكل مؤقت، وقد أشـارت السنة النبوية إلى هذه الشروط أو القيـود التى توضع على الملكية نذكر منها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبى سعيـد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»**.

قال أبو سعـيد: وأخذ رسول الله ﷺ يعدد أصناف الأمـوال حتى ظننا أن ليس لنا من أموالنا إلا ما يكفينا.

فهذا الحديث الـشريف يوجب حقوقًا فى الملكية الخـاصة يؤديها من أراد أن يرضى الله ورسوله ﷺ.

- وذكر أبو يعلى -فى كتابه الأحكام الـسـلطانية- مارواه أبو جعفر محمـد الباقر عن أبيه عن زين العابدين رضى الله عنه، أنه قال: كـان لسمرة بن جندب رضى الله عنه نخل

فى حائط[1] رجل من الأنصار، وكان يدخل هو وأهله فيؤذيه، فشكا الأنصارى ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لصاحب النخل: «بعه» فأبى، فقال له: «فأقطعه» فأبى، قال: «فهبه ولك مثله فى الجنة» فأبى، فالتفت الرسول ﷺ إليه وقال: «أنت مضار» ثم التفت إلى الأنصارى، وقال: «اذهب فاقلع نخله».

فصاحب النخل فى هذا الموقف صاحب ملكية خاصة معتدية لهذا أهدرها الرسول ﷺ.

- وفى عام الرمادة[2] أصاب الجزيرة العربية قحط ومجاعة شديدة، حتى تكافل المسلمون فى جميع أقطارهم -فى ذلك الزمان- لدفع هذه الغائلة، وقد قال عمر رضى الله عنه بعد أن انتهت المجاعة: «لو أصاب الناس السَّنَة لأدخلت على كل أهل بيت مثلهم، فإن الناس لا يهلكون على أنصاف بطونهم».

وفى كلام أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ما يبيح إهدار ملكية الطعام عند المجاعة.

هذا موجز لموقف الإسلام من الملكية الخاصة، حيث احترمها وصانها، وحرم العدوان عليها، لكن ذلك مشروط بألا يترتب على الملكية الخاصة ضرر عام بالمسلمين.

ثانيًا: فى مجال الملكية العامة:

الملكية العامة -كما أشرنا إلى ذلك من قبل- هى عامة لأنها ملك لعموم الناس حيث ينوب عنهم المجتمع أو الدولة فى ملكيتها، وهذه الملكية العامة للدولة لا يجوز لأحد أن يمتلكها ملكية رقبة، وإنما له أن يملكها ملكية انتفاع إلى حين بعينه نظير مقابل معين من الحكومة.

وهذه الملكية العامة أنواع كثيرة يصعب حصرها لأنها تتغير بتغير الزمان والمكان والظروف المحيطة بالمسلمين، لكن يضبطها جميعًا نظام دقيق ومَرِن هو أن تكون مرصودة للمنافع العامة للمسلمين، وبحيث لا تؤدى وظائفها وهى فى ملكية خاصة، ومن أمثلة ذلك:

- الأنهار ومجاريها، والعيون التى تتفجر بالمياه دون أن يتدخل أحد فيها، وكذلك الأمطار.

---

(1) الحائط: البستان.

(2) كان ذلك فى سنة ١٨ هجرية فى خلافة عمر رضى الله عنه

- والبحار والبحيرات والخلجان ونحوها.

والسماء والأجواء ونحوها.

والمعادن والنفط والغازات ونحوها.

- والطرق العامة، بل كل طريق تؤدى ملكيته الخاصة إلى مضارة عامة الناس.

- والمساجد والمدارس ، والمصحات ودور العلاج.

- والحدائق العامة والميادين، ونحوها.

- والأموال التى تئول ملكيتها للدولة، وإن كانت فى الأصل ملكية خاصة.

- والأوقاف الخيرية على طلاب العلم أو الفقراء، أو على كل محتاج ممن حدده الواقف[1].

- وهذه الملكية العامة للدولة أو للمجتمع أو لبيت مال المسلمين هى بكل تأكيد ليست ملكًا للحاكم، وإنما له أن يتصرف فيها من خلال ما قررته شريعة الإسلام من حقوق الحاكم.

- والأصل فى أموال الدولة أو بيت مال المسلمين أن تنفق على المسلمين فى مجالين:

- جلب المنفعة للمسلمين؛ التى تعود عليهم جميعًا بالخير فى حاضرهم أو فى مستقبلهم، وأمثلة ذلك فوق طاقة من أراد أن يحصر، لكن شرطها أن تحقق نفعًا عامًا للناس.

- ودفع المضار والمفاسد عن الناس.

- وغنى عن البيان أن الإسلام لا يبيح للحاكم مهما يكن شأنه ومهما يكن ممن انعقدت عليه البيعة والإجماع، أن يتصرف فى الأملاك العامة تصرفه فى ملكه الخاص، كما يفعل بعض الحكام اليوم فى كثير من بلاد المسلمين.

- والذى نحب أن نؤكده هنا هو أن تنظيم الإسلام للملكية خاصها وعامها لم يحاب واحدة منهما على حساب الأخرى كما فعلت بعض النظم، وكيف يحابى قبيلاً على قبيل من كان رب الخلق أجمعين، إنه النظام الإسلامى وكفى ولابد من تأكيد أنه أقرب نظام إلى تحقيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

(١) فى كتب الفقه الإسلامى تفصيلات ضافية فى أنواع الأرض والمال التى يملكها بيت مال المسلمين، وتوضيح للمرافق العامة التى تدخل فى الملكية العامة للدولة.

غير أن التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى يقوم على سبعة أسس كما أشرنا آنفا، تحدثنا منها عن أربعة ونستعين الله فى الحديث عن الثلاث الأخرى، بحول من الله تعالى.

الأساس الخامس: تطبيق النظام الإسلامى للميراث:

تطبيق النظام الإسلامى فى الميراث ييسر بل يحقق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

ومن المعروف البيِّن أن الإسلام يعتمد الأسرة وحدة للمجتمع ولبنة أولى أساسية من لبناته، ولا يعترف الإسلام بزوجية ولا أبوة ولا بنوة إلا من خلال الأسرة، ويحيط الإسلام الأسرة بمزيد من الرعاية والاهتمام في قيمه ومبادئه وتشريعاته، ويرسم خطواتها ويحدد لها توجهاتها، ويوجب على أفرادها جميعًا الواجبات التى تؤدى إلى نجاح الأسرة وقدرتها على أداء كل وظائفها، داخل البيت وخارجه.

ومن الأنظمة التى أصلح بها الإسلام شأن الأسرة، نظام الميراث، إذ هو أقدر نظام على دعم الأسرة المسلمة، والحفاظ على حقوق أفرادها بعضهم من بعض حين تدهمها مصيبة الموت، فيحدث التوارث العادل الذى يلائم ظروف كل واحد من أفراد الأسرة، ويعطيه العون على الاستمرار فى الحياة.

وحديثنا عن نظام الميراث فى الإسلام بوصفه عونًا على تحقيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، يشمل نقطتين:

- مكانة الميراث فى الإسلام.
- والقواعد الاجتماعية التى يخضع لها الميراث فى الإسلام.

أولا:مكانة الميراث فى الإسلام:

لقد شرف رسول الله ﷺ علم الميراث فسماه: «الفرائض» وجعله أو جعل هذه الفرائض نصف العلم كله، وسمى واحدة هذه الفرائض: الفريضة العادلة، وأوصى بأن يتعلمها المسلمون وأن يعلموها الناس.

- روى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة، تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم، وهو يُنسىَ، وهو أول شيء ينزع من أمتى»**.

وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **«العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فضل؛ آية محكمة، أو سُنَّة قائمة، أو فريضة عادلة»**.

● الميراث حق للوارث فى مورثه، وكل الحقوق فى الإسلام تورث مادامت قابلة لأن تنقل من ذمة إلى ذمة؛ إذ يخلف الحىُّ الميت فيما له من حقوق مالية أو أى حقوق تقوَّم بمال، أو أى حقوق تتعلق بالأملاك مالاً أو عقاراً أو غير ذلك.

والوارث هو الذى ينتقل إليه المال وما فى حكمه، لأن حياته امتداد لحياة المتوفى كالأبناء، أو من كانت حياته مرتبطة بحياة المتوفى من خلال حقوق وواجبات كالأزواج والأقارب.

● وقد أكد الإسلام حق الورثة فى الميراث بل حدد أنصبتهم فى آيتين اثنتين هما:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١١، ١٢].

وهناك آية كريمة تتحدث عن الكلالة -الرجل الذى مات وليس له ولد- قال تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وغير ذلك من الآيات التى تحدثت عن الميراث.

● فأما الأحاديث النبوية فمنها:

- ما رواه أحمد بسنده عن أبى كريمة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك مالاً فلورثته ومن ترك كَلاًّ فإلى الله ورسوله، وإنما أنا وارث من لا وارث له، أعقل عنه وأرثه، والخال وارث من لا وارث له، يعقل عنه ويرثه**»

• والإسلام جعل الميراث من حق أسرة المتوفى، أسـرته بكل امتداداتها وليس مجرد الأبناء والوالدين.

والأسرة تمتد فى نظام الميراث الإسلامى لتـشمل كل من يلتقون مع المورث، ولو فى أبعد الجدود والجدات -الأب وإن علا -أو فى أبعد الأحفاد- الابن وإن نزل-.

وذلك هو التكافل الاجـتماعى فى داخل الأسـرة، والأسرة -كـمـا قلنا وحدة المجـتمع- وبهذا التكافل تـتماسك الأسـرة، وتتبادل المنافع تبـادلا فطريًا يحمى به القـوى منها كل ضعـيف فيها، ويكفل غـنيها فقـيرها، إذ من المقرر فى الإسـلام أن الفقير المحـتاج فى المجتمع الإسلامى له حق فى مال قريبه الموسر.

• ونظام الميـراث فى الإسلام يترتب علـى درجة القرابة بين الوارث والمـورث من جانب، وعلى درجة الحاجة من جانب آخر، وهذا يعنى توثيق العلاقة بين أفراد الأسرة، لأن كل واحد من أفرادها له حق فى مال الآخر، يئول إليـه بعد الوفاة، كما أن له هذا الحق قبل الوفاة إن كان عاجزًا عن العمل، حق على الأسرة أولاً وعلى المجتمع ثانيًا.

- وتنظيم الإسـلام للميـراث هو التنظيم العادل؛ لأنه رتب حـقوق الوارثين عـلى درجة قرابتهم من المتوفى، وحصر ذلك فى الأسرة حتى لو امتدت.

- وبعض الأنظمة البـشرية الوضعـية قد تطرفت، ففـارقت العدالة على نحو نشـير إلى بعضه فيما يلى:

• بعض الأنظمة ألغى التوريث إلغـاء كاملاً، وحجتهم فى ذلك الإلغـاء واهية حيث برروا هذا الإلغاء بأن الإنسان لا يأخذ إلا ما كسبت يداه، والميراث ليس من كسب يده!!!

وتلك نظرة تتجاهل الـعلاقات الأسرية بما فى ذلك علاقـة الأبوة والبنوة والزوجية، وفى هذا التجاهل ما يـضعف العلاقات بين أفراد الأسرة، ثم ينعكس على إضـعاف علاقات المجتمع بعضه ببـعض، إذ لا مجتمع بغير أسرة، وفى هذا التجـاهل لتلك العلاقات قتل للتكافل الاجتماعى، ومعروف أن التوريث دعم للتكافل الاجتماعى.

• وبعض الأنظمـة تطرف بأسلوب آخـر شـديد الضـرر بالأسرة وبالمجـتـمع، لأنه أعطى لصاحب المال سلطانًا كاملاً فى ماله، حتى بعـد وفاته، فسمح له بأن يعطى ما يشاء مَنْ يشاء، ويحـرم من يشاء، ويوصى بما يشاء ولو أوصى بماله كـله، وفى هذا النظام تجاهل لحقوق الأسرة على عائلها!!!

● أما التنظيم الإسلامى للميراث فلأنه جاء من عند الله تعالى فقد قام على أسس عادلة، نشير إليها فيما يلى:

- أن المال بعد وفاة المورث يئول إلى أسرته -جبرًا لا اختيارًا- أى دون حاجة إلى موافقة المالك فى حياته.

- وأنه لا حرمان لأحد الورثة من ميراثه بقرار من المورث قبل وفاته، وإنما الحرمان من الميراث تتسبب فيه أشياء أخرى كاختلاف الدين، وقتل أحد طرفى الميراث للطرف الآخر، ونحو ذلك.

- وأن الإسلام قيد الوصية فى أن تكون فى الثلث، ولا تجوز فى أكثر منه، وبشرط ألا يوصى لوارث.

وبهذه الأسس وبغيرها كان نظام الميراث فى الإسلام هو النظام العادل المحافظ على علاقات الأسرة وتواد أفرادها وعلى علاقات الناس فى المجتمع، وعلى إفساح المجال لممارسة التكافل الاجتماعى.

ثانيًا: القواعد الاجتماعية التى يخضع لها الميراث فى الإسلام:

فى بداية هذه النقطة نقول: إن بعض الكارهين للإسلام ونظمه، اتهموا نظام الميراث الإسلامى بأنه اضطهد البنت إذ جعل لها نصف أخيها الذكر . . .

وتلك مغالطات يلهج بها الذى لا يعنيهم إلا تشويه ما جاء به الإسلام من نظم، دون أن يفكروا ويتدبروا . .

وتعليل جعل نصيب البنت نصف نصيب أخيها، يتلاءم تمامًا مع ما قدمناه من أن نظام التوريث فى الإسلام يعتمد على دعامتين هما: العدل، ومراعاة الاحتياج.

ومن المسلَّم به أن احتياج الولد لإنشاء أسرة جديدة له يكلفه ما لا يكلف أخته التى يتزوج بها رجل يحمل عنها أعباء إنشاء البيت الجديد.

● وعند التدبر نجد الإسلام أقام نظام التوريث فيه على قواعد سبع، تستهدف جميعها تحقيق مبدأ العدل ومبدأ تأمين الحاجة لكل وارث.

وهذه القواعد السبع هى:

- اتجاه الميراث إلى كل من كانت حياته امتدادًا لحياة المورث.

- واعتبار حاجة الوارث.

- وتوزيع الثروة الموروثة فى أكبر عدد من الوارثين.

- ومنع التوريث إذا اختلف الدين باستثناء محدود.

- وأن النفقة تجب للوالدين مع قدرتهما على العمل.

- ووجوب الزكاة فى أموال الوارثين.

- وتوجيه إنفاق الأموال.

ولنلق ضوءًا على كل قاعدة من هذه القواعد السبع، مع تأكيدنا على أنها جميعًا تعمل على دعم التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى:

١- القاعدة الأولى: توجه الميراث:

أن يتجه الميراث أولاً إلى من كانت حياته امتدادًا لحياة المورث، ويشاركهم فى ذلك -كل حسب ظروفه- أصحاب الحقوق فى التركة كالإخوة والأخوات والأم والأب وإن علوا، وزوجة الأب أو زوجاته، وكل صاحب حق من هؤلاء يرث فى ظل أحكام دقيقة عادلة كأن يحجب بعضهم بعضًا، أو يعصِّب بعضهم بعضًا ومعظم هذه الأحكام قد جاءت فى القرآن الكريم[1]، وكلها جاء فى السنة النبوية المطهرة.

٢- والقاعدة الثانية: تأمين الاحتياجات:

هى أن يخضع نظام الميراث فى الإسلام إلى تأمين حاجة الوارث، فكلما كانت حاجته أو إلى المال أكثر، كان نصيبه من الميراث أكبر تحقيقًا للعدل، وهذا هو المبرر -كما قلنا- لجعل نصيب الولد على الضعف من نصيب البنت، إذ هو ملزم بالإنفاق على بيته وزوجته وعياله وغير القادرين من أرحامه، بينما البنت يلزم زوجها الإنفاق عليها وعلى عيالها، ولا تجب عليها نفقة من احتاج من أقاربها بمثل ما تجب على الولد.

كما أن حاجة الابن أكبر من حاجة الجد والجدة، وهكذا.

٣- والقاعدة الثالثة: التوريث:

أن نظام التوريث يقوم على فكرة تجزئة الميراث بين أكبر عدد من أصحاب الفروض، وذلك أعدل من أن تجعل بعض النظم أكثر الميراث فى يد واحدة كالولد البكر لأن فى ذلك ظلمًا يقع على الآخرين دون ذنب اقترفوه.

(١) الآيات الكريمة ذوات الأرقام: ٧، ١٢، ١٧٦ من سورة النساء، وفى كتب السنة: أبواب الفرائض.

كما أن الإسلام يورث البنت والأخت ،والجدة، فى حين تمنع بعض النظم المرأة من أى ميراث.

وهكذا يتجاوب نظام الميراث الإسلامى مع إقرار العدل وتقرير حق أكبر لمن حاجته أكبر.

٤- والقاعدة الرابعة: منع التوريث لاختلاف الدين:

منع التوريث إذا اختلف الدين، لأنه لا يتوارث أهل دينين مختلفين.

لكن مع هذا المنع من التوريث فإن الإسلام دين البر بالأبوين حتى لو اختلف الدين، فقد أوجب الإسلام نفقة الأبوين وإن علوا، والأبناء وإن نزلوا، لا النفقة عليهم بر أوجبه الإسلام، بل أوصى بالإحسان إليهم كما حدث فى قول الرسول ﷺ حين سألته أسماء رضى الله عنها: أأصل أمى- وكانت أمها لاتزال على الشرك- فقال لها: **«نعم صلى أمك»**.

٥- والقاعدة الخامسة: النفقات:

والنفقات أموال موروثة أو غير موروثة.

فقد أوجب الإسلام النفقة على الابن أو الأبناء نحو الوالدين مسلمين أو غير مسلمين، حتى إن كانا قادرين على العمل ولكنهما لا يعملان، لأن ذلك داخل فى الإحسان بالوالدين الذى قرنه القرآن الكريم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له فى أكثر من آية قرآنية كريمة[(١)].

وأما فى السنة النبوية، فقد أوجب تلك النفقة على الوالدين حديث شريف رواه البيهقى بسنده عن محمد بن المنكدر؛ أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى مالاً وعيالاً؛ وإن لأبى مالاً وعيالاً؛ يريد أن يأخذ مالى فيطعمه عياله، فقال رسول الله ﷺ: **«أنت ومالك لأبيك»**.

قال البيهقى: هذا حديث منقطع -أى رواه من هو دون التابعى- وروى موصولاً من أوجه لا يثبت مثلها.

وقال التركمانى فى شرحه للسنن الكبرى للبيهقى -روى موصولاً من وجه صحيح عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه. وأخرجه ابن ماجة بسنده عن هشام بن عمار.

---

(١) جاء ذلك فى الآيات ذوات الأرقام: ٨٣ من سورة البقرة، و٦٦ من سورة النساء، و١٥١ من سورة الأنعام، و٢٣ من سورة الإسراء، و١٥ من سورة الأحقاف.

أقول: ورواه أحمـد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيـه عن جده رضى الله عنه قال: أتى أعرابى رسول الله ﷺ فقال: إنّ أبى يـريد أن يجتاح مالى؛ قال: **«أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم، فكلوا هنيئًا»**.

٦- القاعدة السادسة: الزكاة:

ولها علاقة مباشرة بالأموال بكل أنواعها موروثة أو غير موروثة.

ونظام الزكاة فى الإسلام هو عين التكافل الاجتماعى الذى يستهدفه المجتمع الإسلامى، والذى تلزم الشريعة كل مسلم يمتلك النصاب ويحول عليه الحول، فائضًا عن نفقتـه ونفقة أولاده ومن تجب عليه نفقتهم.

- والزكاة هى الفريضة الوحيدة التى تجبر الحكومة المسلمة المسلمين على أدائها إجبارًا، لأنها حق المجتـمع وتعطى للمحـتاجين من أبنائه، ومن امتنـع عن أدائها، ولم يُجد مـعه إلا القتال قوتل، فهى فريضة اجتماعية.

مضى أمـر جمع الزكـاة على هذا النحو فـى عهدى الخليـفين أبى بكر وعـمر رضى الله عنهما..

فلما كان عهد الخليفة الثالث عثـمان رضى الله عنه، حيث اتسعت رقعة العالم الإسلامى وامتـلأ بيت مال المسلمين رأى رضى الله عنه أن يجمع الزكـاة فى الأموال الظاهرة وهى الزروع والثمـار والإبل والبقر والغنم، وأن يتـرك للمسلمين أن يؤدوا زكاة الأموال غـير الظاهرة بأنفسهم دون أن يجمعهـا منهم العاملون على الزكاة، والأموال غير الظاهرة هى النقود وعروض التجارة.

وحجته فى ذلك أنه لا يسمح لنفسه ولا لعـماله أن يفتشوا عن الباطن من أموال الناس، بل ترك ذلك لهم حتى يُعطوا الفقراء من أقاربهم، فيكون ذلك برًا بهم.

وبعض الفقهـاء يبررون مخالفة عـثمان رضى الله عنه لأبى بكر وعمـر رضى الله عنهما بقولهم: إنه أناب أصحاب الأموال عنه فى دفع الزكاة لأصحابها.

- والذى أجمع عليه الفقهاء فى مختلف العصور بالنسبة للزكاة أمور أهمها:

- أنها فريضة على كل ذى مال يؤديها بإرادته كما يؤدى سائر ما فرض الله عليه.

- وأن الحاكم المسلم له أن يجـبر من امتنع عن أداء الزكـاة بالوسيلة المناسبـة من وسائل الإجبار.

- وأن من لم يؤدها ثم مات أصبحت دينًا فى تركته، بحيث لا تقسم التركة على مستحقيها إلا بعد إخراج الزكاة الواجبة فيها.

- وأن شرط المال الذى تؤدى منه الزكاة أن يكون ناميًا بالفعل أو بالقوة حتى لا تأكله الزكاة، فيتحول صاحبه إلى فقير لا يملك مالاً.

- ويشترط فى هذا المال النامى بالفعل أو بالقوة أن يكون قد بلغ النصاب الشرعى الذى تجب فيه الزكاة[1] وأن يحول عليه الحول فائضًا عن حاجاته الأصلية.

- وأن ما تنبته الأرض من زروع وثمار فيه زكاة تختلف فى مقدارها بين العشر ونصف العشر، حسب ما يبذل فيها من جهد ومال. وقد وضحت السنة ذلك.

- والزكاة واجبة فيما أخرجت الأرض، ففى النخل زكاة، وفى العنب زكاة.. وفى عسل النحل زكاة.

- وزكاة الأموال المنقولة تؤخذ من رأس المال، لا مما حققه المال من ربح.

- وعروض التجارة تحسب بما انتهت إليه آخر العام.

- والأموال التى استحدثت فى عصرنا هذا ولم تكن موجودة فى زمن النبى ﷺ، اتفق الفقهاء المعاصرون على أن تؤخذ الزكاة من صافى غلاتها بعد خصم النفقات التى أنفقت عليها: العشر؛ قياسًا على أن الزكاة تجب على الزرع عشرًا إذا خلا من النفقات، فإن تضمن نفقات ففيه نصف العشر.

- وتدخل فى الأموال التى تجب فيها الزكاة العمارات والمصانع وشركات الإنتاج، ومقدار زكاتها العشر بعد خصم النفقات.

أما المساكن الخاصة فلا زكاة فيها.

- والأسهم والسندات وما فى حكمها ما دامت تغل مالاً، فالزكاة فيها تجب بمقدار عشر الصافى إذا كانت أسهمًا صناعية، فإن كانت تجارية أو نحوها فإن الزكاة تجب فى قيمة الأسهم مضافًا إليها الربح إذ يؤخذ ربع العشر من مجموعها معًا.

---

(١) يختلف تقدير النصاب من زمن إلى زمن، ومن ظروف اقتصادية إلى أخرى، وقد اصطلح وقتنا هذا -آخر الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى- على أن يكون معادلاً لعشرين دينارًا ذهبيًا.

● وتستهدف الزكاة بالإضافة إلى تحقيق التكافل الاجتماعى تطهير المال وتنميته بإخراج الزكاة منه، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ [التوبة: ١٠٣].

● ويتحقق التكافل الاجتماعى بالزكاة من خلال تقديم العون المالى لأفراد بأعينهم فى المجتمع لدفع الحاجة عنهم وهم الذين اشتملت عليهم الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

قال الفقهاء: إن أموال الزكاة لا تخرج عن هؤلاء الثمانية...

● ومما يلفت نظر المتأمل المنصف أن الإسلام وهو يشرع الزكاة ويحدد مصارفها، جعل من بين مستحقى الزكاة المدينين- الغارمين- العاجزين عن أداء ديونهم، أوجب ذلك على الدولة المسلمة، وألزمها أن تؤدى ديون من عجز عن الوفاء بها.

وهذا أمر يدعو للفخر بذلك التشريع، وتميزه عن غيره من التشريعات، بل يجعل هذا التشريع غير مسبوق ولا ملحوق فى هذا المجال.

أين هذا من القانون الرومانى -مثلا- الذى كان يبيح للدائن أن يسترق المدين أو يبيعه وفاء لدينه...!!!

● ومما يتصل بأحكام الزكاة ومصارفها، ما نشير إليه فيما يلى:

- أن تنفق أموال الزكاة فى البلد الذى جمعت فيه ولا تنقل إلى بلد آخر إلا إن فاضت عن حاجة هذا البلد.

- ويجوز إعطاء الزكاة للأقارب بشرط ألا يكونوا من أصول المزكى ولا من فروعه؛ لأن هؤلاء تجب عليهم نفقتهم.

- وكل مصرف من هذه المصارف الثمانية للزكاة، عندما يفيض عن حاجته بعض المال يمكن أن يوجه إلى مصرف آخر من مصارف الزكاة، ليدفع بذلك ضرراً عن المجتمع المسلم، أو يجلب له منفعة.

- وهذه المصارف الثمانية[١] أتتقاسم أموال الزكاة بالتساوى أو يرجح مصرف منها على مصرف آخر؟

---

(١) المذكورة فى الآية ذات الرقم ٦٠ من سورة التوبة.

فى ذلك خلاف بين الفقهاء، لكن يستطيع أن يفتى فى ذلك أهل العلم والفقه ممن يستعين بهم الحاكم فى كل زمان ومكان.

- وأن مصارف الزكاة يمكن أن تضاف إليها مصارف أخرى تستحدث فى حياة المسلمين، ليسد أى خلل فى المجتمع الإسلامى إذا رأى أهل العلم والفقه ذلك.

- ويمكن أن يضاف إليهم بعد استيفاء حقوقهم:

● إنشاء صندوق للقرض الحسن، مع أخذ الاحتياطات فى استرداد القرض، وتلك خدمة جليلة بجنب بها بيت المال المسلمين من التعامل بالربا مع المصارف الأخرى.

ويمكن إنشاء صندوق لتمويل العاجزين عن الزواج وإعانتهم على إكمال دينهم، وإعفاف أنفسهم، وتجنيب المجتمع ذلك الزنى المقنَّع الذى يسمونه كذبًا وإفكًا «الزواج العرفى».

- ويمكن إنشاء صندوق للإعانة على التعلُّم لمن عجز عن الإنفاق على التعلم، وذلك دفع للجهل وجلب للعلم.

ويمكن استرداد كل هذه القروض حين ميسرة.

- ويمكن إنشاء صندوق لبناء المدارس والمساجد والمشافى ودور الرعاية لليتامى وأمثالهم من ذوى الاحتياج.

- ويمكن إنشاء صندوق لتوفير المساكن لمن لم يجدوها، لما فى ذلك من منفعة عامة، ورفع ضرر العجز عن توفير سكن للراغبين فى الزواج ونحوهم.

● كل هذه الصناديق وغيرها مما يحتاج إليه المجتمع الإسلامى تلزم به الحكومة المسلمة من بيت المال أولاً، ثم من أموال الزكاة إذا توفرت الأموال بعد أن يستوفى مستحقو الزكاة حقوقهم.

وإنما رأينا ذلك لأن أموال الزكاة فى حقيقتها تكافل اجتماعى ودفع للحاجة عن المسلمين، وكل هذه الصناديق وظيفتها الأساسية هى: إقامة التكافل بين المسلمين.

٧- والقاعدة السابعة: توجيه إنفاق المال:

لأن المال من نعم الله على الإنسان، التى تعينه على العمل الصالح، تصديقًا لقول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.... **نعم المال الصالح للمرء الصالح**».

والملكية الحقيقية للمال ولغيره أنه لله تعالى استخلفهم فيه، قال الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

● والمال في يد الإنسان لكي ينفقه في صدقة أو ملبس أو مطعم أو مشرب، وما وراء ذلك من أوجه الإنفاق فليست في صالح الإنسان، روى أحمد بسنده عن مطرف عن أبيه رضى الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: **«ألهاكم التكاثر» يقول ابن آدم: مالى، مالى! وما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»**.

● والإسلام يوجه الناس إلى إنفاق المال في وجوه الخير، ولا يجيز لهم إنفاقه في وجوه الشر، ولا يجيز لهم التبذير فيه أو الإسراف، كما لا يجيز التقتير والبخل والشح، أو إمساكه عن مواقف تقى المسلمين حاجاتهم، وكل من في يده مال من المسلمين مسئول عنه من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى لو كان المال مال أبيه أو مال غير أبيه أو مال سيده.

● وإنفاق المال في الإسلام له شروطه وآدابه، ومجمل هذه الشروط والآداب: أن ينفقه صاحبه فيما يرضى الله تبارك وتعالى، وألا يتعمد الإنفاق من أخس ماله، وإنما يختار من ماله ما يحبه، ثم ينفق منه، وأن يختار من كسبه أطيبه لينفق منه، استجابة لقول الله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...**﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقوله جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

– والأصل في المسلم أن يستجيب فورًا لكل ما يطلبه الله تعالى منه أو يحببه في فعله، أو يحرمه عليه، أو يبغضه فيه، فذلك خير عند ربه وأبقى، روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان أبو طلحة رضى الله عنه أكثر الأنصار مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بَيْرَحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس رضى الله عنه: فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...**﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...**﴾ وإن أحب مالى إلىّ بَيْرَحاء، وإنها صدقة لله تعالى، فضعها يا رسول الله، حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: **«بَخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين»** فقال أبو طلحة رضى الله عنه: أَفْعَلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه.

– وحب المال فطرة في الإنسان، فكلهم يحبونهم وغالبًا ما يدفعهم حب المال إلى البخل

(١) موضع قرب مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة به ماء طيب ونخل.

به والتوقف عن إنفاقه، والقرآن الكريم يكشف عن هذه العيوب في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٧- ٢٠].

- ومن طبائع كثير من الناس أنهم لا يشبعون من المال ولا يملون أو يتوقفون عن جمعه، روى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: **كان إذا دخل البيت تمثل: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا، لا يملأ فمه إلا التراب، وما جعلنا المال إلا لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويتوب الله على من تاب**».

- وبعض الناس يحرصون على الحصول على المال دون تَحَرٍّ، أو تدقيق فى أن يكون مصدره حلالاً، ثم يمارسون به رغباتهم وشهواتهم، لذلك كان المال فتنة، كما كان النساء كذلك، وكما كان الأولاد مجبنة مبخلة وفتنة كذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وروى الترمذى بسنده عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أُرسلا فى غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**.

- والمال له أهمية كبرى فى حياة الناس، كان الصالحون منهم ينفقونه فيما يرضى الله عز وجل، والطالحون ينفقونه فيما يغضبه سبحانه وتعالى، ولأنه قوام الحياة الدنيا وأحد زينتيها، أشار الله تبارك وتعالى إلى التنبيه على ذلك فى قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

من أجل ذلك كله ولأهمية المال القصوى فى حياة الإنسان جعل الإسلام للمال حرمة وأمر بالمحافظة عليه كالمحافظة على الدم والعرض، حتى لا يتعادى الناس من أجله ويتناحروا.

روى ابن ماجة بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال: **«أى يوم هذا»**؟ قالوا: يوم النحر، قال: **«فأى بلد هذا»**؟ قالوا: هذا بلد الله الحرام، قال: **«فأى شهر هذا»**؟ قالوا: شهر الله الحرام، قال: **«هذا يوم الحج الأكبر، دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة هذا البلد فى هذا الشهر فى هذا اليوم»** ثم قال: **«هل بلَّغتُ»** قالوا: نعم، فطفق النبى ﷺ يقول: **«اللهم اشهد»** ثم ودعَ الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.

● وقد وجَّه الإسلام إلى إنفاق المال، ووضع له الأطر الصحيحة التى تجلب للمسلمين النفع

وتدفع عنهم الضُّر، وتضع الميزان الصحيح للإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن أحسن ما قال العلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة:

- قال ابن عباس رضى الله عنه: من أنفق مائة ألف فى حق فليس بسرف، ومن أنفق درهمًا فى غير حقه فهو سرف، ومن منَع من حق عليه فقد قتَّر».

- وقال ابن عطية[1]: إن النفقة فى معصية أمر قد حظرتْ الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدى على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب فى هذه الآية هو فى نفقة الطاعات فى المباحات، فأدبُ الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال، ويفرط فى الشح.

والحسن فى ذلك هو القوام - أى العدل - والقوام فى كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده فى الدين ومنع غيره من ذلك.

روى ابن ماجة بسندة عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

- وقال الله تعالى فى توجيه الإنفاق - أيضًا -: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال ابن عرفة فى تفسيرها: لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورًا منقطعًا عن النفقة والتصرف.

وبعد: فهذه هى القواعد الاجتماعية العامة التى خضع لها الميراث فى الإسلام، وجميعها تدعم التكافل الاجتماعى الذى يستهدفه المجتمع الإسلامى.

غير أن حديثنا عن التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى لا تكتمل صورته إلا بحديثنا عن النقطة الثالثة والأخيرة المكملة لموضوع التكافل فى المجتمع الإسلامى؛ وهى آثار هذا التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

*****

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى الغرناطى المفسر الفقيه العارف بالأحكام والحديث (ولد عام ٤٨١هـ وتوفى ٥٤٢هـ).

٣- آثار التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى

أوضحنا - آنفًا - فى حديثنا عن التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى أنه الأساس المتين للحياة الاجتماعية السليمة الصحيحة التى يتعاون فيها الناس ويتضامنون ويتكافلون، أى يحمل بعضهم أعباء بعض، ويقوم كل منهم بأمر الآخر إن كان فى حاجة إلى عون مادى أو معنوى، وحددنا لذلك ثلاثة مجالات: هى التعاون والتضامن والتكافل.

وأيدنا كل مجال منها بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

● وأكدنا هناك أن التكافل الاجتماعى فى الإسلام يمثل حصيلة ونتيجة للتعاون والتضامن.

ونرجو أن نوضح - فى حديثنا عن التكافل الاجتماعى بوصفه هدفًا من أهداف المجتمع الإسلامى - أن التكافل هدف عملى تطبيقى لنظام الإسلام ومنهجه فى العمل الاجتماعى.

وقلنا فى الحديث عن أسس التكافل الاجتماعى فى الإسلام إن هذه الأسس التى يقوم عليها بناء التكافل فى المجتمع الإسلامى هى: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتوازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع، وتأمين حياة العاجزين عن العمل، وتطبيق النظام الإسلامى العادل للملكية، ونظام الميراث، ونظام الزكاة، وتوجيه إنفاق المال فى سبيل الله تعالى.

● وأقول الآن: إن هذا التكافل الاجتماعى بتلك المفاهيم وهذه الأسس من شأنه أن يترك فى المجتمع أطيب الآثار، نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

هذه الآثار الأربعة التى تأتى نتيجة تطبيق التكافل الاجتماعى هى ما نرجو أن نوضحه فى الصفحات التالية، والله تعالى هو المستعان.

أ- الآثار النفسية للتكافل الاجتماعى:

أجمل ما يتركه تطبيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى من آثار نفسية فى الفرد والجماعة أى فى المجتمع كله هو ذلك الرضا والاطمئنان إلى النظام الاجتماعى الإسلامى المتكافل القائم على العدل والمساواة، والثقة فى المجتمع وفى أدائه لما طالبه الله تعالى به من اتباع المنهج والنظام.

- والطمأنينة النفسية للإنسان هى معامل الأمـان له ضد الضيق والسخط والتمرد وما يترتب على ذلك من أضرار؛ لأن من كـان مطمئنًا إلى المجتمع الذى يعـيش فيه يصبح سـعيدًا راضيًا عن نفسه فـردًا أو جماعة، وعن المجتمع الذى يعيش فيـه، بل يشعر نحوه بالحب والانتماء والولاء، لأنه وجد المجتمع متكافلاً معه ومع ظروفه واحتياجاته.

- وإذا تخلى المجتـمع عن التكافل الاجتـماعى نحو أبنائه، ضـاقوا به وبنظامه ونهـجه فى الحياة، وكـثيرًا ما يتحـول الضيق إلى سخط، وغالبًـا ما ينتقل شعوره بـالضيق والسخط على المجتمع إلى ضـيق وسخط بأسرته والمقربين منه، ثم لابد أن يضيق بنفـسه ويسخط على ظروفه، وحسبك أسًى على إنسان يضيق بنفـسه وبمن حوله، ماذا ينتظر منه حينئذ؟ إن أول ما يلازم هذا الإنسان بعد الشعـور بالضيق والسخط؛ هو: أن يهمل فى عمله أو يتكاسل عنه، أو يتحايل حتى لا يؤدى ما يجب عليـه أداؤه، وكلٌّ ضد مصلحة المجتمع ومـصلحـة الفـرد والجمـاعـة، ومـا أدى إلى كل ذلك إلا تخلِّى المجـتـمع عن التكافل الاجتماعى مع أفراده.

- ومن نتائج الشعور بالضيق والسخط والتـمرد، الامتناع عن أداء أى عمل لصالح المجتمع المتخلى عن التكافل مع أفـراده سواء أكان هذا العمل ثقـافيًا أو اجتمـاعيًا أو سيـاسيًا أو اقتصاديًا لفقده الثقة فى المجتمع، فهو يبادل تخليًا بتخلٍّ قصد ذلك أو صدر منه عفوًا.

- وعندما يستمر الضيق والسخط لعدم زوال أسبـابه، فإنه فى كثير من الأحيان يتحول إلى تمرد ورغبة فى تحدى النظام وعصيانه، وعندمـا يكثر الأفراد أو الجماعات الذين يتمردون على المجتمع لتخليه عن التكافل معهم، فإن ذلك يؤدى ما يشعل الثورة وينمى كل عمل مضاد للمجتمع.

- وسواء أكان هذا الضـيق أو السخط أو التمرد من فـرد أم من جماعة أم جمـاعات، فإن النتيجة واحدة دائمًا، وهى أن يصـاب المجتمع بالقلق والاضطراب، ويصاب الحكام لهذا المجتمع بالرد على هذا التمرد بالعنف والعقاب - وبخاصة إذا كان الحكام عسكريين - ثم تتوالى الأفعـال من الأفراد والجماعـات ومن السلطات الحاكمة، تمرد وردع بعنف فـتمرد أكبر فعنف أشـد، فكراهية شديدة للمجتمع وحقـد على حكامه، وعجز من الحكام عن احتواء هذا التمرد بالتى هى أحسن، وهكذا تتوالى الأحداث حتى يقوم انقلاب عـسكرى تالٍ، أو يسـتسلم الناس للقـهر، ليـتحـيَّنوا فرصـة الانقضـاض على المجتـمع حاكـمه

وحكومتـه، فإن نجح الانقلابيون فـهم أبطال، وإن فشلوا فهم المجرمـون الآثمون الذين تنتظرهم المشانق بعد التعذيب والامتهان!!!

● وعندما يطبق المجتمع التكافل الاجتماعى، فـيطمئن الفرد إلى المجتمع الذى يعيش فيه وتطمئن الجماعة فإن لذلك أحسن الآثار فى تشجيع الفرد ودفعه إلى الاستجابة لكل ما يطلبـه المجتمـع، بل التحمـس لأداء هذه الأعمال أو الـواجبات، لأن الفـرد فى هذه الأحوال يـتبادل مـع المجتمع أداء الـواجب وممارسة الحق، وكل ذلك بسـبب التكافل الاجتماعى.

- وأبرز ما يلحـظ من نتائج الرضا عن المجـتمع هو الـثـقة فيـه وفى أدائه وفى النظام الذى يسوده، وإذا وثق الفرد فى المجـتمع واعتبـر نفسه جزءًا منه، بل من حمـاته، فعندئذ لا يدخر وسـعًا فى القيام بكل أعـماله على أحسن وجـه، مما ينعكس على المجتمع نفـسه بحـسن الأداء لواجبـاته كلها، ومـعنى تبـادل الثقـة بين الفرد والمجـتمع أن يسـود الود والاحترام والسلام والوئام، فيخطو المجتـمع بذلك خطوات واسعة نحو التقدم والارتقاء بمستويات العمل فـيه، إنه عندئذ يصبح مجتمع الرفاهيـة الذى تحدثنا عنه ونحن نتحدث عن سمات المجتمع الإسلامى وخصائصه[1].

إن التكافل الاجتماعى عندما يتحقق يزرع الثقة زرعًا بين الفرد والجماعة والمجتمع.

● وإذا كان التكافل الاجتماعى على هذا القـدر من الأهمية فى حياة الناس، وعلى هذا القدر من إلزام المجـتمع به فى منهج الإسـلام ونظامه؛ فـإن ما أحب أن أنبـه إليه بل أؤكـده أن المجتـمع المسلم لا يـستطيع أن يحقق التـكافل الاجتـماعى الإسـلامى إلا بشرطيْن:

أحدهما:

أن يجعل المجتـمع المسلم من الإسلام نظامًا ومنهـجًا، ويلتزم بجمـيع مفردات الإيمان وأركان الإسـلام وقيمـه ومبادئـه، وأن يطبق ذلك على حكومتـه ومؤسسـاته وأفراده وجمـاعاته، وأن يكون حكـام هذا المجتمع مـلتزمين بكل مـا جاء به الإسلام سـلوكًا

---

(١) جـاء ذلك فى الفصـل الثانى من البـاب الثـانى من هذا الكتـاب ونحن نعـدد سمـات المجتمع الإسلامى وخصائصه.

وخلقًا ومساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، وأن يكون الضعيف فى المجتمع قويًا بنظام المجتمع الذى يوصل إليه حقوقه كاملة غير منقوصة.

والشرط الآخر:

أن تكون مرجعيات النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى هى: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريرًا، وأن يتخذ الرسول ﷺ قدوة، وأن يكون صحابة رسول الله ﷺ موضع التقدير والاحترام، والاتساء.

وألا يصرف المجتمع المسلم عن هذه المرجعيات صارفٌ كائنًا ما يكون.

- إن التكافل الاجتماعى فى المجتمع المسلم كفيل بأن يخلِّص الناس من الأمراض النفسية العديدة التى أصبحت لكثرة انتشارها تسمى أمراض العصر.

- والذين يشكون اليوم من الأمراض النفسية والعصبية ويقولون - وهم على حق فيما يقولون - إن الأمراض النفسية قد أثرت فى الناس فولدت لديهم تمردًا وعداء للنظام الاجتماعى، ويقول المدققون منهم - وهم على حق فيما يقولون - إن علاج هذه الأمراض النفسية والعصبية وما يترتب عليها من تمرد وعداء للمجتمع هو فى تطبيق التكافل الاجتماعى بين الناس.

- والتكافل الاجتماعى الذى تحدثنا عنه فى هذا الكتاب قادر بفضل الله، وبحسن تطبيقه والالتزام بكل خصائصه وسماته على أن يقتلع الأمراض النفسية والعصبية من جذورها، ليحل محلها المودة والأخوة والسلام والوئام.

- وإذا كنا بهذه الكلمات قد أوضحنا الآثار النفسية للتكافل الاجتماعى، فإن آثاره الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا تقل أهمية عن الآثار النفسية وذلك ما نتحدث عنه فى الصفحات التالية، سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

ب- الآثار الاجتماعية لتطبيق التكافل الاجتماعى:

عند تطبيق التكافل الاجتماعى - على مستوياته التى تحدثنا عنها - من تعاون وتضامن وتساند؛ فإن لهذا التطبيق آثارًا اجتماعية جيدة وجديرة بأن تسجَّل، ويهتم بها بوصفها قادرة على تنقية المجتمع من كثير من العيوب، ودعمه بكثير من الإيجابيات، ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

● فمما يتسبب فيه التكافل الاجتماعى من تنقية المجتمع من عيوبه وسلبياته:

١- نزع روح التحدى للمجتمع وللسلطة الاجتماعية عمومًا وسلطة الحاكم والحكومة على وجه الخصوص، والتحدى لكل مشروع تأتى به هذه السلطة؛ لأن روح التحدى هذه يولدها فى النفس إحساس الفرد بأن المجتمع لا يهتم باحتياجاته، ولا يتكافل معه فى تحقيقها.

فإذا حدث التكافل الاجتماعى نُزِعَتْ من الناس هذه الروح، فتجنب المجتمع كثيرًا من أنواع الصراع التى تعوق دائمًا مسيرة الإصلاح والتطوير.

٢- والتخفيف من مشاعر الغضب والسخط والتبرم بالمجتمع وبالحكومة عند وقوع أى كوارث أو مخاطر فى المجتمع تقف منها الحكومة موقفًا سلبيًا أو شبه سلبى لأنها ترتب أولويات عملها، وفق تخطيط يتجاهل التكافل مع الناس فيما يقع بهم من كوارث أو مخاطر.

فإذا حدث التكافل الاجتماعى خَفَّت هذه المشاعر أو زالت، ولم يعد للناس مبرر فى الغضب من الحكومة أو السخط على أدائها وعلى ترتيبها للأولويات.

وفى هذا التكافل الاجتماعى تأمين للفرد وللأسرة ولجماعات المجتمع كلها.

● ومما يؤدى إليه التكافل الاجتماعى من إيجابيات ومزايا اجتماعية، ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١- الرضا بالقيم والمبادئ التى تسود المجتمع؛ لأن تطبيقها هو الذى أدَّى إلى تحقيق التكافل الذى خفف عنهم ما هم فيه وما يحتمل أن يكونوا فيه من متاعب نتيجة للاحتياجات غير المتوافرة.

ومَنْ أحسَّ بالرضا عن القيم والمبادئ التى تسود مجتمعه ورأى فيها خلاصًا من متاعبه ومشكلاته، بادر إلى الاستجابة لكل ما ترضى به هذه القيم وما تقره المبادئ، وبادر إلى المشاركة فى أعمال الخير والبر والإصلاح الذى يقوده المجتمع، والذى يستهدف القضاء على المساوئ والعوائق وكل خلل يحول بين المجتمع وبين أداء وظائفه.

والمشاركة فى هذا الإصلاح تعنى مزيدًا من الإيجابية والإحساس بالمسئولية.

٢- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين الناس يوثق روابطهم بعضهم ببعض، وروابطهم بالمجتمع وما يسوده من قيم ومبادئ، وأوضح ما تكون آثار التكافل الاجتماعى حين يشعر الناس أنهم متساوون فى الحقوق والواجبات، مما يزيد ارتباطهم بهذا المجتمع العادل الذى حقق لهم التكافل.

بل إن هذا الترابط الوثيق يتجاوز الأفراد إلى الجماعات، إلى المجتمع كله؛ الوطن المحلى إلى الوطن العربى إلى الوطن الإسلامى.

٣- ومن إيجابيات التكافل الاجتماعى، أنه يدعم الحقوق الاجتماعية للناس جميعًا، إذ هو فى جوهره وحقيقته تعبير عن احترام هذه الحقوق، وبذل الوسع فى الاستجابة لها.

وحقوق الناس على المجتمع عديدة، - والمجتمع تعبر عنه وتمثله الحكومة والحاكم -، ومن هذه الحقوق:

- حق المواطن فى التعلم عمومًا، وفى التعلم الوظيفى على وجه الخصوص، وهو التعلم الذى يتمكن به بعد إتمامه من أن يمارس عملاً يكفل له عيشًا كريمًا.

- وحقه فى الرعاية الصحية، بحيث يعيش فى بيئة صحية خالية من الأمراض وأسبابها، وبحيث تؤمن له الحكومة فى المجتمع الإسلامى وسائل العلاج من أى أمراض يتعرض لها.

- وحقه فى العمل بحيث توفر له أسبابه، وحقه فى الكسب وحريته فى إنفاق ما كسب فى وجه أحله الله، وحقه فى التملك والاقتناء، لا فى الاكتناز.

- وحقه فى أن يؤمنه المجتمع الإسلامى ضد متاعب الشيخوخة، والعجز عن ممارسة العمل، وكفالته إن كان يتيمًا أو كانت امرأة أرملة، أو غير ذات زوج أو لا كاسب لها.

● إلى غير ذلك من الحقوق الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، وحقه فى المعرفة والإعلام. . . .

٤- والتكافل الاجتماعى يدعم العدالة الاجتماعية فى المجتمع، والإسلام دين العدل والانتصاف؛ أى يعطى كل أحد ما له، ويأخذ منه كل ما عليه، كما أنه دين العدالة - أى الفضائل من: حكمه، وشجاعة، وعفة، وعدل. وهى فضائل أقرتها الإنسانية فى تاريخها كله.

والتكافل الاجتماعى بين الناس يحقق بينهم العدل والعدالة، ومقتضى ذلك أن يصبح المجتمع متعاونًا متساندًا، متساويًا أفراده فى الحقوق والواجبات أمام القانون، وإذا ساد ذلك الناس عاشوا أمنًا وأمانًا، وحققوا مصالح الدنيا والآخرة.

٥- وتحقيق التكافل الاجتماعى من شأنه أن يحدث فى المجتمع استقرارًا اجتماعيًا، واستمرارًا للأنماط الاجتماعية والثقافية فى الجماعة والمجتمع، ويجنب المجتمع حدوث تغييرات مفاجئة فى أى نمط من هذه الأنماط الثابتة، وإنما يسمح هذا التكافل بالتغيير المتدرج غير الطفرى وغير السريع والذى تقتضيه المتغيرات المستمرة فى المجتمع، دون إخلال بالمجتمع أو إصابته بالتفكك.

وبعد: فإن تلك النتائج التى ذكرنا، والتى أدى إليها التكافل الاجتماعى، هى فى نظرنا من أهم الآثار الاجتماعية، وأفعلها فى السير بالمجتمع نحو تحقيق أهدافه كلها.

جـ- الآثار السياسية للتكافل الاجتماعى:

إذا كانت السياسة هى التدبير الحكيم - كما يرى علماء الاجتماع - أو هى النظر الصائب فى عواقب الأمور بالتعاون مع الجهة التى تضع سياسة خاصة لهدف معين، فإن التكافل الاجتماعى له تأثير كبير فى السياسة[1].

- وإذا كانت السياسة الاجتماعية هى توجيه التخطيط والبرامج الاجتماعية، فإنها تؤثر بكل تأكيد على العلاقات الاجتماعية فى المجتمع، أفرادًا وجماعات.

وهذه السياسة فى عمومها، والسياسة الاجتماعية بوجه خاص تتأثر بصورة مباشرة بتطبيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع.

- ومن هذه الآثار السياسية لتطبيق التكافل الاجتماعى ما نشير إليه بإيجاز فى النقاط التالية:

١- تعميق مبدأ التعاون فى مجالاته العديدة:

وذلك أنه عندما يتحقق التكافل الاجتماعى، فإن من آثاره السياسية أن يتعمق فى نفوس الناس حب العمل وفق مبدأ التعاون فى مجالاته العديدة المتفرعة عن البر والتقوى، لأن الذى يستقر فى نفوس الناس هو أن التكافل الاجتماعى ما تحقق إلا نتيجة للتعاون فى

---

(١) تحدثنا عن ذلك بالتفصيل فى كتابنا: التربية السياسية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

المجتمع الإسلامي، وعندئذ يزداد إقبال الناس على التعـاون لأنه مصدر ما هم فيه من خير أى من تكافل اجتماعى.

وعند التدبر نجد التعاون بين الناس فطرة فطرهم الله عليها؛ لأنه من حكمة الله تعالى أن جعل الحياة الإنسانية السوية قائمة على التعاون والتعاضد والتساند، بل لا يمكن تصور حياة إنسانية كريمة دون تعاون.

وما لم يكن التعاون ركنًا ركينًا فى حياة الإنسان مـا أمر الله تعالى به أمرًا مباشرًا وجهه للمؤمنين جميعًا، وعطفه على الوفـاء بالعقود والعهود والمواثيق، فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ١، ٢].

- ولَمَّا أمـر الله تعالى بالتـعاون، دَلَّ ذلك الأَمْرُ عـلى أن حياة الإنسـان إنما تصلح وتسلم بالتعـاون، ودَلَّ ذلك على أن هذا التعاون لا بد أن يشمل حـياة الإنسان كلها أى تـتعدد مجالاته.

ومن هذه المجالات الحيوية فى حياة الإنسان:

- مجال الأسرة، والأقارب والأرحام.
- ومجال المسجد، والعبادات، والتقرب إلى الله تعالى.
- ومجال المدرسة، والتعلم والعلم والتعليم.
- ومجال العمل، والإنتاج.
- ومجال الجيران والضيوف والأصدقاء.
- ومجال التجمعات فى الأندية رياضية وثقافية واجتماعية.
- ومجال العمل النقابى.
- ومجال جمعيات المجتمع المدنى.

وغير ذلك من المجالات العديدة التى لا تحصى فى هذا المجال من الكتاب.

- وكل مجال من هذه المجالات لا ينجح العمل فيه ولا يحقق أهدافه إلا بالتعاون على البر والتقوى، وبالتعاون يتحقق التكافل الاجتماعى الذى هو هدف من أهداف المجتمع الإسلامى.

٢- وتأكيد مبدأ العدل والإحسان:

تحقيق التكافل الاجتماعى - الذى هو الهدف الهام لمنهج الإسلام ونظامه، والهدف السامى للمجتمع الإسلامى أفرادًا وحاكمًا وحكومة- يؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن الإسلام دين اجتماعى يستهدف أن يجمع الناس كلهم تحت ظل شجرته الوارفة المثمرة الحلوة الجَنَى، الدانية القطوف، شجرة التكافل الاجتماعى.

- ولا يمكن أن يتحقق التكافل الاجتماعى فى المجتمع إلا إذا قام على العدل والإحسان؛ وذلك أن العدل والإحسان مطلبان شرعيان أمر الله تعالى بهما فى كتابه الكريم فى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠].

فقد أمر بالعدل على سبيل الوجوب، وأمر بالإحسان على سبيل الندب والتقرب إليه تعالى.

- وللعدل معان كثيرة مطلوبة محبوبة ذات تأثير إيجابى فى المجتمع الإنسانى، منها:

أنه المساواة فى المكافأة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وأنه التوسط بين الإفراط والتفريط.

وأنه الاستقامة على طريق الحق.

- وللإحسان معان كثيرة أيضًا، وكل معنى منها يجعل الحياة الإنسانية أنفع للإنسان وأجلب للخير وأبعد عن الشر، ومنها:

أنه الإجادة والإتقان.

وأنه الإحسان إلى كل محتاج.

وأنه مقابلة الخير بخير أكبر منه، ومقابلة الشر بالعفو.

وأنه أن يعطى الإنسان أكثر مما عليه وأن يأخذ أقل مما له.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾: هى أجمع آية فى القرآن الكريم، أى أجمع للفضائل ولأنواع الخير...».

- وتَحرِّى العدل فى كل أمرٍ واجب شرعًا.
- وتحرى الإحسان فى كل أمر ندب وتطوع وزيادة فى الخير.

- والمجتمع الإسلامى - بوصفه إسلاميًا - مطالب بأن يلزم كل أحد فيه بأن يمارس العدل فى كل أمره، ومطالب بأن يندب كل أحد فيه إلى الإحسان، ويحببه فيه.

- ولا يستطيع المجتمع الإسلامى أن يطبق التكافل الاجتماعى إلا إذا أقامه على العدل والإحسان، بل لا يستطيع الناس أن يعيشوا حياة آمنة إلا إن أقاموها على العدل والإحسان، بل لا يستطيع المجتمع الإسلامى أن يتخلى عن العدل حتى مع أعدائه - وتلك من عظمة الإسلام وعلو قدره الإنسانى- فقد قال الله تعالى: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾ [المائدة: ٨].

- وبغير العدل والإمام العادل؛ يعجز المجتمع الإسلامى عن تطبيق التكافل الاجتماعى، فقد روى أحمد بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أحب الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا، إمام جائر»**.

وهكذا نجد العدل والإحسان دعمًا قويًا لتطبيق التكافل الاجتماعى.

٣- وتيسير عمل الدعاة إلى الله وحركتهم بالدين:

وذلك أثر سياسى مهم من آثار تطبيق التكافل الاجتماعى، لأن هذا التكافل الاجتماعى ييسر للدعاة إلى الله والحركيين بهذا الدين الحق عملهم الذى هو واجب شرعى لأن الإسلام دين دعوة وحركة.

- دين دعوة لقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨][1].

---

(١) للتوسع فى هذا: انظر كتابنا فقه الدعوة إلى الله، ففيه حديث عن فقه الدعوة وفقه الداعى، وفقه المدعو - نشر دار الوفاء - القاهرة - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ومن المعروف أن الدعوة إلى الله واجب المسلمين جميعًا وليست واجب العلماء بالإسلام وحدهم.

- ومن المسلم به أن الحركة بهذا الدين الحق واجبة على كل مسلم كذلك، والحركة بالدين الحق تعنى التغيير لكل ما يخالف دين الله ومنهجه ونظامه، وفى الرسول ﷺ للمسلمين فى كل مكان وزمان أسوة، فقد مارس الحركة بالدين حتى شمل الجزيرة العربية كلها، وبلاد فارس، وبلاد الروم، ومصر والحبشة وغير ذلك من البلاد، ووجه خطاباته إلى رؤساء هذه البلاد وأوفد إليهم رسله، ومعنى ذلك أن يتحرك المسلمون بالإسلام وأن يختلطوا بالناس ويصبروا على أذاهم، وأن يغيروا كل نظام يخالف نظام الدين الخاتم بالدعوة والإقناع والعهود والمواثيق، وأن لا يقفوا مكتوفين أمام من تحداهم واعتدى عليهم؛ لأنه الدين الخاتم الذى ارتضاه الله تعالى للبشرية كلها منهجًا ونظامًا، فقد روى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا عند الله من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»**.

ورواه أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما، ورواه الترمذى أيضًا.

- إن تيسير الدعوة إلى الله والحركة بدينه لمن أهم الآثار السياسية للتكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى.

٤- وبث روح الجهاد فى سبيل الله تعالى فى الناس:

تطبيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، يحدث أثرًا سياسيًا يعد فى قمة الآثار السياسية وذروتها، وهو الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

- وهذا الجهاد فرض عينى على كل مسلم قادر عليه؛ عندما يتعرض أى بلد مسلم لعدوان، وعندما يدعو الحاكم المسلم إلى النفير العام، ومعنى الفرض العينى أن يسقط الفريضة عمن فعله، وأن يعاقب من تركه.

- وقد يكون الجهاد فى سبيل الله فرض كفاية، أى إذا قام به البعض وكانت بهم الكفاية سقطت الفريضة عن عموم المسلمين، فإذا لم يقم به أحد أثم جميع المسلمين، وكذلك إن قام به بعضهم فلم تتحقق الكفاية بقيامهم به.

- ولا يحتاج الجهاد فى سبيل الله تعالى إلى شىء مثل ما يحتاج إلى أن تُبَثَّ روح الجهاد فى الناس، ويحبب فيه ويفقه الناس فى أحكامه وشروطه وآدابه.

وهذه الحملة الإعلامية للجهاد فى سبيل الله، لا تحدث إلا إذا سمح بها المجتمع المسلم أى الحاكم المسلم والحكومة المسلمة.

- أما إذا كان المجتمع قد فرض عليه حاكمه وحكومته منهجًا غير منهج الإسلام، ونظامًا غير نظامه، فإنه لن يسمح لأحد بأن يَبُثّ فى الناس روح الجهاد فى سبيل الله؛ لأن سياسة هذا المجتمع لابد أن تكون قائمة على القمع والإرهاب وقلب الحقائق، وموالاة أعداء الله أعداء الإسلام والمسلمين.

- وعندما يكون نظام الحكم مواليًا لأعداء الإسلام، فإن إعلامهم لا يكتفى بعدم بَثّ روح الجهاد فى الناس، وإنما يتجه بكل أجهزته ووسائله إلى الهجوم على الإسلام؛ قيمه ومبادئه ومنهجه ونظامه وقادته ومصلحيه، ودعاته وحركييه، والإعلام حينئذ يستطيع أن يقلب الحق باطلاً، فتنطلق ألسنة الزور وتتحرك أقلام المنافقين تردد فى أجهزة الإعلام أفكارًا مغلوطة وكلمات مسمومة؛ مثل:

- الجهاد إكراه للناس على الدخول فى الإسلام.
- والجهاد إرهاب والمجاهدون إرهابيون.
- والإسلام دين عنف وتطرف.
- والإسلام دين تعصب وتمييز بين الطبقات.

- ثم يتبرع كثير من الدول الغربية الموالية لأمريكا أو التابعة لها بتصريحات هى الإرهاب بعينه مثل:

- قيادة حملة صليبية ضد المسلمين.
- وتحويل المسلمين إلى حطابين.
- والقضاء على الإسلام العدو الأخضر.
- وإعادة تنظيم العالم الإسلامى.
- ونشر الديمقراطية فى العالم العربى عن طريق ضربه بأسلحة الدمار الشامل واحتلال بلاده.

● وتفتيت العالم الإسلامى. . . .

● وحظر زرع القمح، وصناعة السلاح عليه!!!

- أما عندما يكون المجتمع الإسلامى فى ظل حاكم مسلم وحكومة مسلمة فإن هذا الزبد يذهب جُفاء، ولا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم.

وبعد: فتلك بعض الآثار السياسية لتطبيق التكافل الاجتماعى بين الناس.

ولنتحدث الآن بإيجاز عن الآثار الاقتصادية لتطبيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، ومن الله تعالى العون والسداد.

د- الآثار الاقتصادية للتكافل الاجتماعى:

ما دمنا بصدد الحديث عن الآثار الاقتصادية التى تنتج عن التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فلا بد أن نؤكد أن الاقتصاد الإسلامى يقوم على أفكار ومبادئ وقيم، بل يقوم على خطة وسياسة تتحقق من خلالها العدالة الاجتماعية بين الناس.

ولقد سبق أن أوضحنا فى هذا الكتاب أن العدل أو العدالة الاجتماعية بين الناس لا تستطيع أن تعبر عن نفسها إلا من خلال تكافل اجتماعى يضم المجتمع كله ويسهم فى حل مشكلاته، وفى مقدمتها المشكلات الاقتصادية.

● ولقد أرسى رسول الله ﷺ قواعد التكافل الاجتماعى بين المسلمين فى أول خطبة خطبها فى صلاة الجمعة بعد وصوله إلى المدينة المنورة مهاجرًا، حيث دعا المسلمين فيها إلى البذل والعطاء - الصدقة - التى ينتفع بها المتصدق قبل أن ينتفع بها المتصدَّق عليه فى قوله **«فقدموا لأنفسكم...»**.

فقد روى البيهقى بسنده عن الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: كان أول خطبة خطبها النبى ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: **«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم؛ تَعلمُنّ والله ليُصعقَنَّ أحدُكم، ثم ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولنّ له ربه - وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك؟ فما قدَّمتَ لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لَيَنْظُرَنّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم؛ فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقّ تَمْرة فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»**.

فتقديم الخير والصدقة للمجتمع تغلب على ضوائق اقتصادية يمر بها الناس وتحتاج إلى حل سريع يبادر به أفراد المجتمع كما يفهم ذلك من هذا الحديث النبوى الشريف.

● وإذا كان الاقتصاد الإسلامي يقوم على ركائز معروفة[1] هي:

- احترام الملكية وتنوعها.

- والحرية الاقتصادية فى إطار القيم الإسلامية.

- وحرية العمل والإنتاج وعدالة التوزيع.

- ومبدأ القيمة الاقتصادية والتنظيم.

ومع هذه الركائز، ألزمه الإسلام بدعامتين هما:

● التكافل الاجتماعى الذى تستهدفه كل ركيزة من ركائزه، ذلك التكافل الذى يجعل للمحتاج فى المجتمع الإسلامى حقًا فى مال الغنى، غير الزكاة التى فرضها الله تعالى وحدد مصارفها.

● والتوازن الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء، بحيث لا تسمح تشريعات الإسلام بأن يزداد الأغنياء غنًى فى الوقت الذى يزداد فيه الفقراء فقرًا.

وبين التكافل والتوازن الاجتماعيين تكامل وتلازم، فهما يكمل أحدهما الآخر ولا يستغنى عن أحدهما بالآخر، وفى الوقت نفسه يترتب أحدهما وهو التوازن على الآخر وهو التكافل.

● والتكافل الاجتماعى فى الإسلام تاريخه عريق مواكب لتاريخ الإسلام نفسه منذ أن كان الرسول ﷺ فى مكة المكرمة.

- ففى السنوات الأوائل من تاريخ الإسلام فى مكة؛ تحدثت كثير من الروايات الموثقة أن الرسول ﷺ عقد مؤاخاة بين المسلمين فى مكة، فكان ذلك تكافلاً اجتماعيًا مبكرًا، لأن المؤاخاة تتضمن أعمق درجات التكافل الاجتماعى وأقواها.

- أما فى المدينة المنورة وبعد هجرة الرسول ﷺ إليها، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، وسجلت ذلك وثيقة ذائعة مشهورة.

- ثم أخذ التكافل بين المسلمين صورة المقاسمة والمشاركة فيما أنعم الله به على المسلمين من الخير، ثم من الغنائم والأنفال، حيث كان خمس الغنائم لله ولرسوله، ليُرَدّ على فقراء المسلمين ومحاويجهم.

---

(١) تحدثنا عن هذه الركائز بتوسع فى كتابنا: التربية الاقتصادية الإسلامية - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- وقد قلنا من قبل: إن التكافل الاجتماعي هو نظام تضعه الحكومة المسلمة، وتطبقه عمليًا لتصون به المجتمع أفرادًا وأسرًا وجماعات من أى مخاطر يتعرضون لها، ماديًا أو معنويًا، بحيث يحقق التكافل الاجتماعي للناس حياة آمنة من الفقر والعوَز، وآمنة من الخوف والفزع، وكل ذلك لتوفير حياة إنسانية كريمة.

- وعندما فتح الله على المسلمين وثبَّت فى ميادين الحق أقدامهم، وكثَّر لهم أموال الفيء؛ كان للحكومة الإسلامية بيت مال ينظم أموالهم وينفق منها على أفرادهم، ومرافق الحياة فيهم، ويعينهم على الحياة الإنسانية الكريمة بدفع العيلة والحاجة عنهم.

- وأصبح من المقرر بين المسلمين؛ علمائهم وفقهائهم، أن لكل مسلم، صغيرًا كان أو كبيرًا حقًا فى بيت مال المسلمين، بل لكل مولود حق فيه من يوم ولادته أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، بعد أن كان هذا الحق يفرض له بعد فطامه.

- والتكافل الاجتماعي على مستوى الأفراد المسلمين، لا يقل أهمية عن التكافل الذى تقوم به الحكومة المسلمة، لما ذكرناه آنفًا من أن النبى ﷺ قال: فيما رواه الطبرانى - فى الكبير - بسنده عن أنس رضى الله عنه: **«ما آمن بى من بات شبعان، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»**.

● والتوازن الاجتماعي - كما قلنا آنفًا - مكمل للتكافل الاجتماعي ونتيجة له، ونحب هنا أن نذكر ببعض الأمور التى تتصل بهذا التوازن، ومنها:

- التوازن الاجتماعي يعنى أن تكون الثروات العامة والموارد الطبيعية ملكًا لجميع الناس، وليست حكرًا على أحد، وليست للأغنياء والأقوياء دون الفقراء والضعفاء، لأن تلك عدالة الإسلام.

- وليس معنى التوازن الاجتماعي أن يتساوى الناس فى الحصول على المال أو المنفعة تساويا مطلقًا، لأن ذلك غير ممكن من جانب، ومخالف للفطرة الإنسانية من جانب آخر، وإنما هى مساواة فيما تجوز فيه المساواة، مع احترام الفروق الفردية بين الناس، كما قررت آيات القرآن الكريم هذه المساواة بتلك التحفظات التى ذكرنا[1].

---

(١) تقرر ذلك فى الآيات القرآنية التالية:
● الآيتان ذواتا الرقمين: ٧٥، ٧٦ من سورة النساء.
● والآية ذات الرقم: ١٠ من سورة الحديد.
● والآيتان ذواتا الرقمين: ٩٥، ٩٦ من سورة النساء.

● وللتوازن الاجتماعي – في الإسلام ركائز يقوم عليها – نذكر منها:

– التوازن الاجتماعي في مستوى المعيشة بين الناس بحيث لا تكون الفروق حادة بين الأغنياء والفقراء، وبخاصة أن الإسلام طالب الأغنياء بأداء واجبهم نحو الفقراء.

– وتحريم الإسراف والتبذير، وتحريم التقتير الذي يؤدي بالمقتر إلى تضييع من يعول، وقد وصف القرآن الكريم المبذرين بأنهم إخوان الشياطين، ووصف مآل المبذر والمقتّر بأنه هو الحسرة والملامة، فقال تعالى: ﴿... وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

– والثناء على الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم وهو حق خارج حق الزكاة، حيث استثناهم القرآن الكريم من صفات الإنسان الذي يجزع عندما يصيبه الشر ويبخل عندما يرزقه الله الخير، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٥].

– ودعا الإسلام إلى أن يبذل الإنسان من ماله ما فضل عن حاجته، فقد روى مسلم بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

● ومما يدخل في الآثار الاقتصادية للتكافل الاجتماعي:

– سيطرة القيم الإسلامية على المجتمع وتقدير الناس لها واعتزازهم بها، وبالانتماء إلى هذا الدين العظيم.

– وحسن تقدير حاجة أصحاب الحاجات، ومطالبة الناس حكامًا ومحكومين أن يكونوا دائمًا في حاجة إخوانهم، حتى يكون الله في حاجتهم وعونهم.

– وتحقيق العدالة في توزيع الثروات الطبيعية.

– وتأكيد حق كل فرد في المجتمع في بيت مال المسلمين.

وبعد: فهذا ما أردت قوله عن الهدف الخامس من أهداف المجتمع الإسلامي وهو تحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين.

وإلى الحديث عن الهدف السادس وهو: تحقيق الوحدة بين المسلمين. ونسأل الله العون والتوفيق.

الهدف السادس

تحقيق الوحدة بين المسلمين

المجتمع الإسلامى هو الذى يعد الناس بالتربية الإسلامية؛ أصولها ومبادئها، وأنواعها، وأسبابها؛ تلك التربية التى تجعل من الإنسان مؤمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره، وتصوغ منه مسلمًا يذعن لله فيما أمره به، أو نهاه عنه، معتزًا بمنهجه ونظامه الذى اختاره الله تعالى ورضيه للبشرية كلها دينًا، تلك التربية الإسلامية التى تجعل من الإنسان محسنًا مجيدًا لكل ما يقوم به من عمل.

- هذا المجتمع الإسلامى بتلك التربية يستهدف أهدافًا عديدة، ذكرنا منها خمسة، وها نحن نتكلم عن الهدف السادس وهو: العمل على تحقيق الوحدة بين المسلمين.

- وهذه الوحدة الإسلامية هدف مكمل أو متمم لتكوين المجتمع الإسلامى الذى يكفل للناس جميعًا حياة إنسانية كريمة ويحفظ لهم حقوقهم فيها، ويلزمهم بأداء واجباتهم.

- وهذه الوحدة الإسلامية المنشودة دعم وتعضيد لمبادئ التربية الإسلامية، وتعميم وتوسيع لرقعة التعامل بمبادئها، والتمسك بقيمها على مستوى العالم الإسلامى كله، مما يعين على أداء كل هدف من هذه الأهداف وظائفه فى المجتمع كاملة غير منقوصة.

- ومن أجل أن يعمل المسلمون على الوصول إلى الوحدة بين أقطار العالم الإسلامى، لابد أن يؤمن العاملون من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية بعدد من الحقائق الواقعية، ليكون العمل بعد علم، ولكى لا تتاح فرصة للأوهام أو للمغالطات، أو خداع النفس.

- ومن هذه الحقائق:

- أن الأمة الإسلامية اليوم - الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى - بدايات العقد الأول من القرن الحادى والعشرين الميلادى - تعيش فرقة وانقسامًا وتفتتًا فرضه عليها أعداء الإسلام من جانب وساعدوا هم عليه ببعدهم عن منهج الإسلام من جانب آخر.

- وأن المسلمين اليوم سبع وخمسون دولة.

ثلاثون دولة منها فى آسيا.

وست وعشرون دولة فى أفريقيا.

ودولة واحدة فى أوروبا - يحاول الغرب القضاء عليها - هى ألبانيا[1].

- وأن المسلمين اليوم أكثر من ألف ومائتى مليون من الأنفس، أى يمثلون خمس سكان العالم أو قريبًا من ربع عدد سكانه[2].

- وأن المسلمين يعيشون فى أراض شاسعة من شرق العالم إلى غربه، وأن لديهم من الموادّ والموارد الأولية، ما يمكنهم من إنتاج السلع والخدمات والحبوب والزيوت والسكر، والنفط وسائر ما يحتاج إليه الإنسان، مما يغطى احتياجاتهم من كل تلك الموارد ثم يفيض عن حاجاتهم ليصدر إلى بلدان العالم.

غير أن هذه الثروات الضخمة تحت سيطرة عالم الغرب إذ هو يهيمن على معظم بلدان العالم الإسلامى.

- وأن أعدادًا كبيرة من علماء المسلمين فى شتى مجالات العلم والمعرفة يهربون من بلادهم ويؤثرون الهجرة إلى عالم الغرب، للبحث عن الأمن والظرف الأفضل مما يجدونه فى بلدهم الأصلى!!!

وهناك فى عالم الغرب شاركوا بجدارة فى عديد من مجالات العلم، التى لم تتح لهم فى أوطانهم الإسلامية.

- وأن معظم أنظمة الحكم فى العالم الإسلامى مبعدة عن نظام الحكم الإسلامى مخدوعة فى أنظمة بديلة، هيأها لهم أعداء الإسلام، وشجعوا تلك الحكومات فى العالم الإسلامى على الاستبداد والفساد وإبعاد كل ما هو إسلامى، وبخاصة الأنظمة العسكرية، والأنظمة الشمولية.

فلا بد من التفكير العميق الهادئ لتوحيد هؤلاء المسلمين وتلك أحوالهم.

- وأن الدساتير والقوانين التى تتولد عنها الأنظمة السياسية فى معظم بلدان العالم الإسلامى بعيدة تمامًا - وعن قصد - عن منهج الإسلام وقانونه وتشريعاته.

وليس يجرؤ أحد من المسلمين أن ينادى بتعديل دستور أو قانون، فضلاً عن المناداة بتغيير نظام أو تغيير سياسة نظام!!!

---

(١) تقرير منظمة المؤتمر الإسلامى نقلاً عن الشبكة الخاصة به.

(٢) إحصائية لهيئة الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣م وهى تقلل دائمًا من عدد المسلمين، لأنها تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية التى يسيطر عليها اليهود.

- وأن أنظمة التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى أنظمة قاصرة فى عموم سياساتها، وشديدة القصور فى التعليم وسياسته، فهى لا تفعل فى المتعلم أكثر من إزالة أميته إن استمر فى التعليم ولم يتسرب فى سن مبكرة.

أما التعلم فلم يستوف أساسياته من صلاحية المكان، وصلاحية المعلم والكتاب، وصلاحية المنهج، وصلاحية الخدمات التعليمية، والإدارة المدرسية، بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر أن فى ذلك كله قصوراً شديداً، والأدلة على هذا القصور أكثر وأوضح من أن تذكر.

- وأن العالم الإسلامى تقود معظمه حكومات وحكام تختل لديهم الأولويات، إذ يضعون أمنهم السياسى والشخصى قبل كل اعتبار، وفى سبيل تحقيق هذا الأمن لأنفسهم يمارسون مع الناس عمومًا ومع المعترضين خصوصًا، ومع الإسلاميين على وجه أخص كل أساليب القمع والإرهاب والأخذ بالظِّنَّة والشبهة، كما أن الأمن كله مركز على تأمين حياة الزعيم المفدى دائمًا، الملهم البطل على كل حال، مهما انهزم ومهما عانى الشعب الذى يحكمه!!!

- وأن كثيراً من بلدان العالم الإسلامى تحكم فى ظل قوانين عرفية استثنائية، وقوانين الطوارئ عشرات السنين، مما يحرم المواطن فيها من حقوقه السياسية كلها، ومن حقوقه الاجتماعية معظمها، ومما يحرمه من الإحساس بالأمن على نفسه وأهله وولده وماله، ومما يلزمه -فى كثير من الأحيان- بنفاق الحاكم حتى يأمن سجونه ومعتقلاته ومحاكماته الاستثنائية وزبانية التعذيب وإهدار كرامة الإنسان، الذين يتحكمون فى كل شىء فى الدولة، ويرتكبون جرائم دولية وهم فى مأمن من الملاحقة فضلاً عن العقاب!!!

- إن كل هذه الحقائق هى فى جوهرها سلبيات ومثالب، لا يمكن أن يتجاهلها الذين يعملون من أجل الوحدة الإسلامية.

وكل هذه السلبيات والمثالب لا يعالجها أو يقضى عليها شىء مثل العمل على إيجاد الوحدة بين المسلمين، الوحدة التى تنسق بين جهود علماء المسلمين وحكمائهم، وتفتح لهم أبواب البحث العلمى على أعلى مستوياته، وتنسق بين جهود الاقتصاديين وعلماء الزراعة، وأصحاب رءوس الأموال، وتتحقق بذلك أولويات التجارة بين دول العالم

الإسلامى، ولا تصدِّر سلعة أو خدمة إلا بعـد التأكد من أن دول العالم الإسلامى فى غير حاجة إليها.

إن المسلمين لو توحـدوا - وهم خمس سكان الأرض أو ربعـهم - لكان لهم من هذه الوحدة كل الخير وكل التقدم، بل كانت لهم الهيبة فى نفوس أعدائهم.

إن العـمل على تحقـيق هذه الوحـدة الإسلامـية واجب إسـلامى يتـعلق بنعم الحكام والحكومات فـى بلدان العالم الإسلامى، ثـم هو واجب العلماء وأهل الخـبرة فى كل مجال من مجـالات الحياة الإنسانية، كما هو واجب الأثرياء ممن أفـاء الله عليهم بسعة فى الرزق، ثم واجب على كل مسلم إن قدر عليه أو على شىء منه.

● وليس من المبـالغة فى شىء الـقول بأن الوحـدة بين المسلمين تجلب إليـهم الخيـر وتدفع الضر، وترضى عنهم الخالق سبحانه وتعالى، وتعينهم على سعادة الدنيا والآخرة.

● وفى حديثنا عن الوحـدة الإسلامية بوصـفها من أهداف المجـتمع الإسلامى يقتـضينا أن نتحدث عن ثلاث نقاط، هى:

- شكل الوحدة الإسلامية الذى نريده.

- وأهداف هذه الوحدة بين المسلمين.

- وأنواع الوحدة بين المسلمين.

ونسأل الله تعالى التوفيق والعون إنه سبحانه القادر على ذلك إذا شاء.

*****

١- شكل الوحدة الإسلامية الذى نريده

وهذه النقطة من الحديث عن الوحدة الإسلامية ضرورية لا يمكن تجاهلها أو تجاهل الحديث عنها، لأن كثيرًا من المفكرين يقولون: إن الوحدة بين المسلمين خيال بعيد عن التحقيق، نظرًا لما يحيط العالم الإسلامي من متغيرات تجعل الوحدة بينهم ضربًا من الخيال، ونحن لا نتهم أصحاب الرأى بأكثر من قولنا: إنهم متشائمون، يرون تحقيق الوحدة بعيدًا، ونراه قريبًا إذا صحت العزائم وقويت وصاحبها توفيق الله تعالى.

- وشكل الوحدة لابد أن تختلف فيه الرؤى، فمن المفكرين المسلمين طوائف، لكل طائفة منهم وجهة نظر جديرة بالاحترام والتقدير، ومن هؤلاء:

- من يرى أن تكون الوحدة بين المسلمين فى شكل أمة واحدة تجمع المسلمين جميعًا من شتى بقاع الأرض فى دولة واحدة، ولها حاكم واحد يحكمها وفق منهج الإسلام ونظامه، ولكل قطر من أقطار العالم حاكم من أهل هذا القطر، يحكم قطره بمنهج الإسلام ونظامه، ويكون ولاؤه وولاء القطر الذى يحكمه لله ولرسوله وللمنهج الإسلامى فى الحياة، ثم يكون ولاؤه لهذا الحاكم المسلم الكبير الذى حظى باختيار الأمة، وينسق معه عمله وواجباته وواجبات القطر الذى يحكمه فى ظل تحقيق مصالح العالم الإسلامى وجلب النفع له، ودفع الضر عنه.

- والذى يشجع هؤلاء القائلين بهذا الرأى بل يجعلهم متشبثين به، أن العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه تسوده عقيدة واحدة هى عقيدة التوحيد، ويسوده كتاب مقدس واحد هو القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية، وتشرح القرآن وتفصله وربما زادت فى تشريعاتها عما جاء فى القرآن، السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ وهى التى استقرت فيها الأمة على مر تاريخها على ست كتب أو ثمانية[1].

وكذلك تسود المسلمين جميعًا وحدة القِبْلة ووحدة العبادات ووحدة التوجه لله تعالى بجميع أقوالهم وأعمالهم، ووحدة المنهج، كل ذلك وغيره يجعل المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت الأجناس والألوان والألسنة، والبلدان.

---

(١) الكتب الستة هى: صحيح البخارى وصحيح مسلم، وسنن الترمذى، وسنن أبى داود، وسنن ابن ماجة وسنن النسائى، وأما الثمانية فبإضافة كتابين إلى هذه الكتاب الستة هما: موطأ الإمام مالك، ومسند الدارمى - رحمهم الله جميعًا.

ويرى هؤلاء أن من كان هذا شأنهم فما أيسر أن تتم الوحدة بينهم، وما يعوقها إلا كيد الأعداء.

- ومنهم من يرى أن تحقيق الوحدة بين المسلمين تحت قيادة حاكم واحد أمرٌ بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيل التحقيق.

ويذكرون لذلك أسبابًا أهمها:

- كثرة الأعداء المتربصين بالمسلمين وبالوحدة الإسلامية.
- ووجود كثير من العقبات والعراقيل فى طريق الوحدة.

سواء أكانت هذه العقبات من داخل المجتمعات الإسلامية أم من خارجها.

- وضعف المسلمين - وهم متفرقون - عن مواجهة هذه القوى المتحدية للوحدة الإسلامية.
- وانحياز هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها وكل لجانها ومنظماتها ضد الإسلام والمسلمين لموالاة الغرب عمومًا، والولايات المتحدة على وجه الخصوص.

ومع أخذ هذه الأسباب فى الاعتبار تبين لنا أن وحدة الأمة الإسلامية فى دولة واحدة ضرب من المستحيل، ومن مشى فى تلك الطريق لم يصل فيها إلى غاية، ولكن حسبه أن قطع من الطريق مرحلة أو مرحلتين أو أكثر لو استعمل المزيد من الحكمة ومن الحذر؛ لأن المراحل عشرات إن لم تكن مئات.

- ومنهم من يقول: على الرغم من كل هذه العقبات وعلى الرغم من كل هذه الظروف؛ فإن القعود عن العمل من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية إثم ومعصية، لأنه يأس قد نهينا عنه على كل حال وفى كل ظرف، لأن المتغيرات بيد الله وحده وما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال، فالأمل فى الوحدة يجب أن يحدو للعمل من أجلها، ويواكبه خطوة مع خطوة، ومن كان يرى المؤمنين وقد حصروا فى شعب بنى هاشم مع النبى ﷺ فى مكة ثلاث سنوات متوالية قوطعوا فيها مقاطعة كاملة، كان لا يمكن أن يرى المسلمين بعد أقل من عشرين عامًا من ذلك التاريخ يناوئون الفرس والروم، وبعد أقل من ثلاثين عامًا من ذلك قد فتحوا بلاد كسرى ودان أهلها بالإسلام، وقد توجهوا نحو بلاد الروم فهُديت على أيديهم الشام وشماليها حتى اقتربوا من القسطنطينية عاصمة دولة الروم الشرقية، من كان يرى ذلك لا يكاد يصدق ما رأت عيناه إلا إن كان

من الراسخين فى الإيمان، وممن يوقنون بوعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم فى الأرض، وتمكين دينهم من الدنيا، وتبديل خوفهم أمنًا.

وهنا تطرح أسئلة مهمة هى:

ماذا نريد بالوحدة الإسلامية؟ وما هو شكلها؟ وماذا عسى أن تصل إليه هذه الوحدة فى منح الأمة الإسلامية قوة وفاعلية وقدرة على استشراف المستقبل فى ظل هذه الوحدة الإسلامية؟

وفى الإجابة عن هذه الأسئلة نقول:

نريد بالوحدة الإسلامية نوعًا أو نوعين من أنواعها العديدة، كالوحدة الثقافية، أو الوحدة الاقتصادية، أو الوحدة فى مجال الزراعة أو الصناعة أو التعدين أو النفط، مثلاً، ولا نطمع فى الوحدة الكاملة التى تضم الأمة كلها فى دولة واحدة ذات حاكم واحد وحكومة واحدة، وإن ظلت هذه الوحدة الكاملة أملاً يراودنا، ولا يفارقنا فى يقظة أو نوم...

ونريد بالوحدة خطوات فى الطريق إليها تبدأ بوضع القدم على أول الطريق، أو بنسيج خيط من خيوطها، ثم يتنامى هذا الخيط فيصبح خيوطًا، ويتنامى النسيج فيصبح صالحًا لأن يكون ثوبًا كاملاً يغطى جسد الأمة الإسلامية ويرد عنها سهام أعدائها.

● إن قصارى ما أستطيع وحدى أن أقوله فى هذا المجال هو الإشارة إلى بعض الخيوط فى هذا الثوب الواقى العظيم، والنصح بالعمل من أجلها، أما حصر جميع خيوط الوحدة فلا يستطيعه إلا حشد من العلماء المسلمين المتعددى التخصصات الذين يشغلهم الإصلاح والتجديد لأمر الدين، ولو جاءوا على رأس كل مائة عام كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ.

فقد روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**.

- وهذا المجدِّد للدين قد يكون فردًا واحدًا.

وقد يكون جمعًا من العلماء.

وقد يكون حركة إسلامية عازمة مصممة تعرف طريقها.

وقد يكون حشدًا من الشهداء، يمضون نحو الفوز شهيدًا وراء شهيد، يتمنى كل منهم أن يسبق الآخرين إلى الشهادة.

وقد يكون هذا المجدد جيلاً كاملاً ممن رُبوا تربية إسلامية، فعرفوا كيف يضعون أقدامهم فى أول الطريق وأصروا على المضى فيه لإيمانهم بأن هذا قدرهم لا يثنيهم عنه طول الطريق ولا التواؤه ولا كثرة العقبات فيه، ولسان حالهم يقول: حسبنا أننا وضعنا أقدامنا على الطريق، وحسبنا أن يكون ذلك فى الاتجاه الصحيح نحو وحدة الأمة الإسلامية.

- أما خطوات هذا الطريق أو خيوط هذا النسج الذى يتكون منه فى النهاية وحدة المسلمين، فنذكر منه ست خطوات أو ستة خيوط، وذاك حسبى وطاقتى، وفوق كل ذى علم عليم.

وتلك الخطوات أو الخيوط هى:

أولاً: العمل على إحياء قيم الإسلام ومبادئه، والتمسك بذلك بل الإصرار على هذا التمسك بالغة ما بلغتْ التكاليف والتضحيات.

ولا تحيا هذه القيم والمبادئ الإسلامية إلا بالدعوة إلى الدين الحق وإقناع الناس به وبقيمه ومبادئه من خلال حوار علمي هادف بنَّاء، دون تهجم أو تطاول أو تسفيه لمعارض أو معاند، وإنما الداعية الأصيل الذى هداه الله ووفقه هو الذى يتهم نفسه ويدينها بالتقصير، وأن يتعاملوا بما عرفوه من أساليب دعوتهم وحركتهم ما يلائم المدعوين، وأن يصروا على الالتزام بثوابت الإسلام حتى يقتنع المعارضون ويتراجع المعاندون.

وليس المدى الزمنى السريع أو العاجل غاية للدعاة إلى الله، وإنما الغاية أن يهدى الله تعالى رجلاً واحدًا على يدى الداعية لأن ذلك خير له من حُمُر النعم كما أخبر بذلك الرسول الخاتم ﷺ، فقد روى أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له: **«يا معاذ أن يهدى الله على يديك رجلاً من أهل الشرك خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم»**.

ثانيًا: العمل على تعميق معنى الأخوة الإسلامية فى العالم الإسلامى، لأن هذه الأخوة عندما تقوى وتشتد بأداء واجباتها، تذوب معها مشكلة التشبث بالزعامات الإقليمية والعرقية وتختفى تمامًا آفة التنافس على المال والشرف والحرص عليهما، وينصهر كل ذلك فى بوتقة الأخوة، وتستيقظ فى المسلمين نماذج الأخوة بين أبى بكر رضى الله عنه وسلمان وبلال وصهيب، أى العربى الغنى ذو القدم والأقدمية فى الإسلام مع الفارسى والحبشى والرومى،

لأن الأخوة فى الإسلام تدعـو إلى تناسى الإحساس بالذات، ليحل محلهـا إحساس المسلم بأخيه المسلم.

- إذا قويت الأخـوة فى الإسلام بين المسلمين استطـاعوا بها أن يقطعـوا فى طريق الوحدة الإسلامية خطوات وخطوات، والأخوة فى الإسلام إذا قويت استطاعت أن ترد أى زعيم فى بلد مسلم -يرى نفـسه أحسن من غيـره- إلى دينه وعقله وأخوته، ووضع نفـسه فى مكانها الصحيح وانتظار أن يرشحه إخوانه لمنصب الزعامة إن كان لها أهلاً.

ثالثًا: العمل على إعطاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مكانتهما اللائقة بهما، فهما مرجعـية الإسلام الأولى فى كل أحكامه، حلاله وحـرامه، ومندوبه ومكروهه، فى كل ما يتصل بحياة الناس من قول أو صـمت، ومن عمل أو ترك وذلك كفيل بأن يقضى على أى خلاف بين المسلمين على حلال أو حرام، أو على ما يجوز وما لا يجوز.

أما أن يتـرك الكتاب والسنة وتحل محلهـما مرجـعيات مسـتوردة من بلاد تضمـر الشر للإسلام قديمًا ووسـيطًا وحديثًا، فإن هذا من شأنه أن يباعـد بين المسلمين وبين دينهم وقيم دينهم، ويباعـد بين المسلمين وبين وحدتهم، ويجعل الوصـول إليها فى غاية الصـعوبة ولو كان ذلك الوصول، قد أخذ بالأسباب.

- إن حصـر المرجعيات العلـيا فى الكتاب والسنة ليكونا المصـدرين الرئيسين، ثم يستعين المسلمون بما شاءوا من شـروح وتفسيرات لها من شـأنه أن يمثل خطوة فى طريق الوحدة بين المسلمين لأنه يدربهم عمليًا على وحدة المصدر التى تؤدى إلى وحدة الـفكر فوحدة العمل فسائر أنواع الوحدة.

- ولقد أدرك أعداؤنا أهمـية هذين المصدرين، فصرح غلاتهم بأن القـضاء على الإسلام - بوصفه عقبة فى طريق التنصير- لن يكون ممكنًا مادمم القرآن باقيًا، وله هذه الصدارة[1].

رابعًا: تعـميق التـفاهم والتـعاون بين العـاملين فى مـجالات الدعـوة إلى الدين الحق، والحركة به فى الناس والآفاق، والمستعدين لتغييـر كل ما خالف هذا الدين العظيم فى أى وقت؛ إذ لابد من الاتفاق على حدٍّ أدنى من التنسيق بين هذه الأعـمال لا يمكن القعود عنه ولا التقصير فيه أو القصور عنه، انطلاقًا من حـقيقة مسلَّم بها وهى: أن جميع العاملين فى

(١) ذكرت كثيرًا من هؤلاء بأسمائهم، وسـجلت ما قالوا وما رددوا من مـفتريات فى كتـاب لى بعنوان: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسـلام -نشر جامعة الإمام محمد بن سـعود الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ودار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ -١٩٨٨م ودار المنار بالقاهرة ط رابعة سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

مجال الدعوة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة به فى الناس والافاق، وجميع الذين ينتظرون فرصة التغيير إلى الأحسن مصدرهم واحد وهو الكتاب والسنة، وهدفهم واحد وهو التمكين لدين الله فى الأرض، وليس بينهم جميعًا خلاف على المصدر أو الهدف، وإنما غاية ما يكون بينهم من خلاف هو منحصر فى أولويات العمل وتقسيمه إلى مراحل، وهو خلاف غير ضار، لأنه ليس فى أصل وإنما فى اجتهادات من اجتهد فيها فأصاب فله أجران فإن أخطأ فله أجر واحد.

وأدبيات العمل فى الدعوة والحركة والخلقيات معروفة لا ينكرها ولا يختلف عليها أحد، ومن تلك الخلقيات والأدبيات:

- أن أحدًا من العاملين فى مجال الدعوة والحركة ليس له أن يتصور أنه وحده على صواب وأن غيره من مخالفيه على خطأ.
- وأن كبار الدعاة والحركيين، بل بعض أئمة الدين كانوا يقولون: رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب؛ فهم يعملون فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضًا فيما اختلفوا فيه.
- وأنه لا يجوز لأحد الدعاة أو الحركيين أن يُخَطِّئَ سواه فى اجتهاده، ولا فى ترتيب أولوياته، مادام أصل العمل صحيحًا ونابعًا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.
- وأنه لا يجوز للدعاة والحركيين أن يتخذوا الجدال وسيلة لإعلاء آرائهم واجتهاداتهم، وإنما وسيلتهم هى الحكمة والموعظة، والجدال -إن احتيج إليه- بالتى هي أحسن، فقد روى ابن ماجة بسنده عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ضلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**.

- إن التفاهم والتآلف بين العاملين فى مجالات الدعوة إلى الدين الحق والحركة به فى الناس والآفاق؛ لهو الطريق الصحيح إلى الوحدة الإسلامية وهو خطوة من أهم الخطوات فى طريق الوحدة الإسلامية.

خامسًا: العمل العلمى الهادف الجماعى -ما أمكن- على تفسير بعض المصطلحات التى يستعملها المسلمون وغيرهم دون أن يفهموها فهمًا صحيحًا دقيقًا، ومن أمثلة ذلك:

- التوحيد والكلام والعقيدة والجدال.
- والعبادة بأنواعها كلها القولية والصمتية التأملية، والعملية والتركية، والعبادات التى تؤدى فى جماعة وتلك التى لا تؤدى فى جماعة.

- والقيم الخلقية، وأهميتها فى بناء شخصية المسلم.
- والفقه والتشريع والقانون والنظام.
- والتفسير والتأويل.
- والدعوة والحركة والتنظيم.
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- والعدل والإحسان.
- والجهاد فى سبيل الله، والحرب والأسرى.
- والولاء والبراء.
- وأهل الذمة.
- وأصحاب الأديان الأخرى غير الإسلام.
- ودار الحرب ودار الإسلام.
- والحقوق والواجبات.
- وحقوق الإنسان.
- والحريات.
- والشورى.
- والديمقراطية والعولمة، والنظام العالمى، والشرق الأوسط الكبير.
- ومقاومة المحتل.
- والإرهاب والعنف.
- وصراع الحضارات.
- والعالم العربى والعالم الإسلامى.
- واليهودية والصهيونية.
- والمسيحية والصليبية.
- ونظام الحكم الإسلامى.

- وولاية الفقيه.
- وإرهاب الدولة.
- والشرعية الدولية.
- وحق النقض.
- وأسلحة الدمار الشامل.
- والاستيطان والاستعمار والاحتلال.

وغير ذلك من المصطلحات التى تشيع بين المسلمين، وتحتاج من العلماء أن يحرروا معانيها ويحددوها، حتى لا يقع المسلمون فى الخطأ وهم يتعاملون مع هذه المصطلحات.

● وهذا عمل العلماء المسلمين والمجامع العلمية، لأن هذا العمل ضرورى فى تعايش المسلمين حربًا أو سلمًا مع الآخرين، والله تعالى يطلب من خاتم رسله ﷺ أن يستزيد دائمًا من العلم فأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. فما بالنا بسائر المسلمين.

سادسًا: العمل بكل جد واهتمام على التقريب بين وجهات النظر التى تختلف فيما بينها، لا لأن اختلاف وجهات النظر سلبى أو يحمل للمجتمع أضرارًا بصفة دائمة، ولكن لأن عدم التقريب بينها قد يجعل هذه الاختلافات تتفاقم، فتنتقل إلى خصام ثم صراع، مما يؤدى إلى شق الصف والفرقة بين المسلمين.

وكل اختلاف بين العلماء من السهل إزالته أو التقريب بين وجهات النظر فيه؛ لأنهم علماء وأصحاب قدرة على قبول الرأى الآخر أو مسالمته.

● لكن الخلاف أو اختلاف وجهات النظر بين الحكام هو الذى يحتاج إلى جهد جهيد لإزالته أو التقريب بين وجهات النظر فيه، وذلك أن العالم الإسلامى يجلس فيه على كراسى الحكم بعض الحكام الذين قد أقنعهم أعداء الإسلام بأن منهج الإسلام فى الحكم سوف يقضى على بقائهم فى السلطة -وهو تصور باطل لو عدلوا فى حكمهم وتركوا التسلط على الناس والاستبداد بهم- حتى صرح بعضهم بأن نظام الحكم الذى يرأسه ويديره نظام علمانى- أى يستبعد الدين ويعزله عن حياة الناس!!!

والعلمانية كان لها ما يبررها فى أوربا يوم كانت الكنيسة مستبدة باسم الدين، فتحكمه فى كل شىء، فبدل أن يثور الناس على الكنيسة ورجالها ثاروا على الدين نفسه وعزلوه

عن الحياة، وقصدهم أن يعزلوا رجال الكنيسة، وتلك حقيقة يعترف بها كثير من المفكرين الغربيين -وليست من اجتهادنا-.

ولقد ذهل هؤلاء الحكام -الذين ربط لهم مستشاروهم من أعداء الإسلام بين منهج الإسلام ونظامه وبين إزاحتهم عن السلطة، وهو ربط كاذب مضلل؛ لأنه ماكان ولن يكون فى الإسلام ولا فى منهجه ونظامه تسلط باسم الدين ممن يسمون أنفسهم «رجال دين» لأن هذه التسمية لا وجود لها فى الإسلام أصلاً.

- ولابد من بذل جهد علمى وثقافى وسياسى تنويرى، من أجل تقريب هؤلاء الحكام من الإسلام؛ لأن العدو مهما أوتى من وسائل ضغط، ومن أساليب تضليل، فلن يستطيع أن ينزع من قلوب هؤلاء الحكام احترامهم للإسلام، وإيمانهم به واطمئنانهم إليه عقيدة وقيمًا وعبادة، والقَسَم على صحة ذلك لا يحرج من أقسم عليه، لأن تغيير الفطرة أدخل فى المستحيل، لكن الذى يتغير فيهم هو القشرة فقط، وسريعًا ما تتغلب الفطرة على تغير القشرة، وجهد العلماء فى ذلك وإخلاصهم فى هذا الجهد كفيل بعون من الله وتوفيق أن يرد الأمور إلى الصواب، وأن يلغى الاختلاف أو يقرب بين المختلفين.

- ولابد أن نعترف بأن هذا الجهد من العلماء يمثل عبئًا ضخمًا ويحمل مخاطر قد تحدق بهم، بدليل أن أكثر من حركة إسلامية كان يقوم عليها مصلحون مجددون، بذلوا هذا الجهد ونصحوا لله ولرسوله وللحكام، ولكن هذه الحركات الإسلامية دفعت لذلك أبهظ الأثمان وأعظم التضحيات[1].

بل هناك حركات إسلامية أخرى فى كثير من بلدان العالم الإسلامى نصحت وأخلصت فى نصحها، لكنها لقيت من الحكام شر ما يلقاه ناصح ممن نصحه، وذلك مثل الحركات الإسلامية فى إندونيسيا، وماليزيا، وأفغانستان وتركيا وسوريا والعراق والكويت والسعودية والأردن وفلسطين ولبنان ومصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا، وكثير من بلدان إفريقيا وفى مقدمتها السودان والصومال وإريتريا واليمن و...

---

(١) من أشهر هذه الحركات الإسلامية الإصلاحية وأصلبها وأقدرها على الصبر والتحمل والثبات على منهج الإصلاح الإسلامى حركتان هما:
- الجماعة الإسلامية بباكستان بقيادة أبى الأعلى المودودى رحمه الله، فقد أبلت فى هذا المجال بلاءً حسنًا.
- وجماعة الإخوان المسلمين التى أنشئت فى مصر سنة ١٣٤٧هـ- ١٩٢٨م بقيادة الشهيد حسن البنا، والتى عانت ولاتزال تعانى فى صبر حيَّر المراقبين مستمرة على منهجها.

وإذا كانت الدول الإسـلامية اليـوم سبعًـا وخمسين دولة؛ فـإن أكثر من ثلاثين منهـا بها حركات إسلامية لها نشاطها وفاعليتها ولها تضحياتها.

- مع ضرورة أن يأخذ الإصـلاحيون بعين الاعتبار أن أعـداء الإسلام والمسلمين والطامعين فى ثروة بلاده قد ازدادوا ضراوة ووحـشية وامتهـانًا للشرعية الدولية، وتحـكمًا مطلقًا فى هيئة الأمم المتحدة، واحـتلالا عسكريًا غير مبرر لأى بلد إسلامى يوجـهون إليه اتهامات باطلة يعترفون هم ببطلانها بعد قضاء مآربهم، ثم يسيرون إليها جيشًا من أمريكا وأذنابها وأتباعها لتحتل البلاد وتعذب العباد بأسوأ وسائل التعذيب!!!

إن على العلمـاء والمفكرين أن يستـمروا فى محـاولاتهم، ولا يثنيهم عنهـا ذلك الواقع المرير لبلدان العالم الإسلامى، فلعل الله تعالى قـد ذخر لبعض العلماء والمفكرين أن يهدى على أيديهم حاكـمًا مسلمًـا يعود إلى فطرته، فيكون فى ذلك الخـير كل الخيـر للمسلمين جميعًا.

*****

٢- أهداف الوحدة بين المسلمين

من المؤكد أن الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها ومهما تباعد الزمان أو المكان تجمع على أن لهـا أهدافًا عامة لا يمكن أن تتخلى عـنها بحال، لأن فى تخليهـا عنها موتًا لها، أو فقدًا لاعتبارها ومحوًا لأثرها.

تلك الأهداف التى تعد أملاً للأمة الإسلامية هى فى إجمال شديد:

- إرضاء الله تعالى بطاعته.
- وتكاتف المسلمين لدفع الضرر عنهم.
- وتماسكهم وتعاونهم لجلب النفع لهم.
- والحرص على العيش فى عزة وكرامة.
- وإقامة العدل بين الناس.

ومن أجل إلقاء بعض الضوء على تلك الأهداف نقول:

- إرضاء الله تعالى بطاعته:

المسلم لله تعالى المذعن لأمره ونهيه ومنهـجه ونظامه، إنما أسلم أمره لله وأذعن لمنهجه، رغبـة فى أن يحظى برضا ربه عنه، ورضـا الله تعالى عن عـبده مشـروط بطاعة العـبد لله ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولقد جاء أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ مرات عديدة[١].

إن رضا الله تعـالى عن عبـده مشروط بأن يطيـعه ويطيع رسـوله ﷺ -كما قـلنا آنفا- وإرضاء الله تعالى هدف لكل مـسلم، لأن من رضى الله تعالى عنه فقد فاز فـوزًا عظيمًا، ومن فاز عند الله تعالى أدخله الجنة.

---

(١) ورد الأمر بطاعة الله أو بطاعتـه وطاعة رسـوله فى إحدى وثلاثين آية قـرآنية بلفظ فعل الأمـر، وورد بلفظ المضارع المقرون بلام الأمر فى تسع آيات كريمة.

ومن علامات رضا الله تعالى عن عبده المؤمن الطائع أن ييسر له أمره وأن يوفقه لما يرضى الله عنه، وأن ينصره، ويمكن للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم، وأن يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وأن يبدلهم من خوفهم الخوف آمنًا[1].

ومن المتفق عليه بين علماء المسلمين والعارفين منهم، أن طاعة الله ورسوله عز وتمكين، لأن معصيته ومعصية رسوله ذل وانكسار.

وطاعته سبحانه وتعالى مشروطة أيضًا بطاعة رسوله ﷺ، فكل طاعة لرسول الله ﷺ طاعة لله تبارك وتعالى، وهذا الطاعة تنتج خيرًا كثيرًا مثل:

- إعلاء شأن أمر الله تعالى ونهيه.
- وإحياء شريعة الإسلام وجعلها حكمًا بين الناس.
- والحصول على حب الله تعالى لعبده وحب رسوله له أيضًا.

وبكل معنى من هذه المعانى للطاعة جاءت آيات قرآنية كريمة أو أحاديث نبوية شريفة، ومما يعين على إرضاء الله تعالى توحد صفوف المسلمين.

- وتكاتف المسلمين لدفع الضرر عن أنفسهم:

وهو هدف لا يختلف عليه المسلمون إذ هو تكاتف المسلمين وتساندهم وتوحدهم لدفع أى ضرر يقع بهم، ودفع الضرر - كما نعلم - مقدم على جلب النفع حين لا يتمكن المسلمون إلا من القيام بأحدهما.

ورفع الضرر عند التحليل والتأمل هو النهى عن المنكر، لأن المنكر ضرر، بل ضرر شديد، وقد قال الله تعالى ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤][2].

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَمَّا وقعتْ بنى إسرائيل فى المعاصى، فنهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم فى مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم**

---

(١) جاء ذلك فى الآية ذات الرقم ٥٥ من سورة النور.

(٢) ورد الأمر بالمعروف فى القرآن الكريم فى أكثر من ثلاثين آية كريمة وأغلبها قد قرنت بالنهى عن المنكر، مما يؤكد أن المنكر شر وضرر ومما يؤكد أن المسلمين مطالبون بأن يدفعوا هذا الضرر.

ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله ﷺ -وكان متكئًا- فقال: لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا».

والأحاديث النبوية فى النهى عن المنكر ودفع الضرر عن المسلمين كثيرة.

- والجهاد فى سبيل الله تعالى بجميع أنواعه ابتداء من جهاد النفس والشيطان وانتهاءً بجهاد الأعداء بالقتال، كله دفع للضرر، وكله غير مُجْدٍ إذا لم يتكاتف فيه المسلمون فيقاتلوا صفًا واحدًا.

- والتعاون على دفع الضرر ورفع الحاجة عن المحتاجين، من الفقراء والمساكين والأرامل واليتامى والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا وغيرهم من أصحاب الحاجات، كل ذلك يقتضى تكاتف الناس وتساندهم لدفع الضرر ورفع المنكر عن المجتمع، وكل ذلك هدف من أهداف الأمة الإسلامية تسعى إليه وتبذل فى سبيله فى كل زمان ومكان.

- ونصرة المظلوم، ومنع الظالم من الظلم، وغوث اللهيف وإطعام الجائع، وكسوة العارى، والصبر على المدين، وستر المسلم، ودفع الزكاة والصدقات إلى مستحقيها، كل ذلك وغيره مما أمر الله به، أو نهى عنه هو فى حقيقته وجوهره هدف من أهداف الأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان.

- وتماسك المسلمين وتعاونهم لجلب المنافع:

وذاك باب واسع تدخل فيه كل أنواع البر التى تجلب نفعًا للمسلمين وطريقها هو الوحدة، ولذلك أمثلة عديدة يصعب حصرها، ومنها على سبيل المثال:

- التعاون فى بناء المساجد والمدارس والمشافى والمكتبات العامة، وأمثال ذلك مما يعود بالنفع على المسلمين، أو تأثيث هذه المرافق وفرشها وإنارتها.

- ووقف الأموال سائلة وغير سائلة لصالح طلاب العلم أو غيرهم ممن يحتاج المجتمع المسلم إلى أن ينفق عليهم وذلك ما يسمى الصدقة الجارية.

- وشق الترع والقنوات والمصارف، مما يجلب نفعًا للمسلمين.

- وشق الطرق وبناء الاستراحات فى طرق المسافرين، وتزويدها بالمرافق.

- والمشاركة فى إلقاء المحاضرات والمناظرات والدروس المسجدية ونحو ذلك مما يسهم فى تزويد الناس بالعلم والثقافة والمعرفة فيعود عليهم بالمنفعة فى دينهم ودنياهم.

- والدعوة إلى الدين الحق لهداية الضال، وجعل العاصى يكف عـن معصيته، لما يعود من ذلك على المجتمع من منافع.

- وإكرام الضيف والجار والصـديق، ومعونة الغارم وابن السبيل، ورعـاية اليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل.

● ما يشك أحد من العقلاء فى أن كل عـمل من هذه الأعمال هدف من أهداف الإسلام بوصفه دين البـر والرحمة، وجلب المنافع لعباد الله حـيث يكونون، وذلك بالتالى من أهداف المسلمين فى كل مكان وكل زمان.

وروى الطبرانى بسنده -فى الكبير- عن جـابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس».

- والحرص على العيش فى عزة وكرامة:

وذلك بكل تأكيـد من أهداف الأمة الإسـلامية، بوصـفها خـير أمـة أخرجت للناس، لإيمانها بالله وأمرها بـكل معروف كلَّ أحد، ونهيـها عن كل منكر، كلَّ أحد، فأمـة الخير لابد أن تعيش فى عزة وكرامة، وإلا ما استحـقت وصف الله تعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس، وكل ذلك طريقه الوحدة.

● والعزة والكرامـة يجب أن تكون صفة لكل مـسلم ينتمى لأمة الإسـلام، لأن الله تعالى كتب له العزة، وامتن عليه بالتكريم.

وهذه العزة وهذه الكرامة لا يصل إليها المسلـمون لأن الله تعالى خلقهم مسلمين، وإنما عليهم أن يعملوا من أجل الوصول إلى ذلك، وذلك يقتضى نوعين من العمل:

الأول: العمل على تقوية المسلمين بدنيًـا وعلميًا وعقليًا واقتـصاديًا وسياسيًا واجتـماعيًا، ليصبحوا قوة مهيبة لا يستطيع أن يستخف بها عدو فضلاً عن أن يطمع فيها أو يغلبها على أمرها.

- وابتغاء العزة -دون تعالٍ على الناس- مطلب شرعى، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن العزة من نصيب المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقـال جل شأنه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾ [فـاطر: ١٠]. والمعنى -والله أعلم بمراده- أن من كـان يريد العـزة والشـرف والقـوة،

فليطلبها بطاعة الله ورسوله، فمنه القوة كلها والعزة جميعًا، والشرف بكل أنواعه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. أى أن من اعتز بالله سبحانه وتعالى عَزَّ وساد، ومن اعتز بغيره ذَلَّ وباد، وتاريخ الأعزة والأذلة يشهد على ذلك، وتحدثنا به آيات القرآن الكريم فى كثير من المواضع.

والعمل الثانى: هو تقوية الأخوة فى الإسلام بين أبناء الأمة الإسلامية لأن تقوية هذه الأخوة وإحياء حقوقها وواجباتها بين المسلمين هى التى تؤكد أن المسلمين جميعًا أمة واحدة، لأن الله تعالى وصفهم بهذه الصفة فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذه الأخوة تقتضى أن يكونوا أمة من دون الناس، وأن الذى يربط بين المسلمين، ويشد من أزرهم ويوحد صفهم ويعطف بعضهم على بعض، هو مدى صدقهم فى التمسك بقيم الإسلام ومبادئه، لأن هذا التمسك هو الذى يجعلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وهو الذى يجعلهم متماسكين كالبنيان يشد بعضه بعضًا، كما ورد ذلك فى سنة الرسول الخاتم ﷺ.

فقد روى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**.

وروى البخارى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**.

- وإقامة العدل بين الناس:

إن من قرب المسلمين من الوحدة الإسلامية - التى هى هدف المسلمين جميعًا - أن تزول العقبات من طريق الوحدة، وفى تصورنا أن أكبر عقبة تحول بين المسلمين وتحقيق أهدافهم هى أن ينتشر الظلم فى المجتمع ، لأن الظلم كبيرة من الكبائر يفسد الحياة الاجتماعية فى الدنيا، ويكون ظلمات للظالم فى الآخرة.

الظلم يترك فى نفس المظلوم مرارة وحسرة بالهوان والضياع، والمظلوم -فى الغالب- يكره ظالمه ويحقد على المجتمع الذى يقع عليه فيه الظلم، بعد فقد ثقته فى الظالم وفى المجتمع.

والظلم الواقع بأى إنسان يعنى أموراً كثيرة منها:

- أنه قد أهدرت حقوقه.

- وأنه قد تخلى عنه إخوانه المسلمون والمجتمع كله.

- وأنه مهين ضعيف لا يستطيع أن ينتصف لنفسه.

وهذه كلها أحاسيس مروعة ولا يجوز أن يحس بأى منها إنسان يعيش فى مجتمع مسلم، ومن أجل ذلك حرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله بين عباده حرامًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [يونس: ٥٤]

وقال جل وعلا: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ١٠].

وقال جل شأنه: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]

- ولقد نفَّر الإسلام من الظلم، وخوَّف من مغبته يوم القيامة:

فقد روى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

وروى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة**».

وروى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إنى حرمتُ على نفسي الظُّلم، وعلى عبادى، فلا تظالموا..**».

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم أنت الظالم؛ فقد تُودع منهم**».

● ولن يقوم العدل بين الناس إلا إن ارتفع الظلم.. ومع استقرار العدل فى المجتمع يحدث الأمن والطمأنينة للفرد والمجتمع، حيث لا يخاف الناس على أنفسهم وذويهم

وأموالهم من أى ظلم تحت أى شعار خادع[١] فتكون لديهم ثقة فى المجتمع وإصلاحه بالتجاوب مع كل ما يطلبه المجتمع منهم.

● وذلك هدف كبير من أهداف الأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان، هدف لا يقل أهمية عن العدل الذى هو هدف كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، ويحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه.

وبعد: فلعلى بهذا الإيجاز قد أوضحت أهداف الوحدة بين المسلمين، فى هذه النقاط الخمس، وأكدت أن الوحدة الإسلامية تستهدفها جميعًا.

ويبقى لنا أن نتحدث عن النقطة الثالثة من موضوع تحقيق الوحدة بين المسلمين وهى: أنواع الوحدة بين المسلمين وبها نختم حديثنا عن الهدف السادس من أهداف المجتمع الإسلامى.

*****

---

(١) من هذه الشعارات المغلوطة المحورة: «شعار أمن الدولة» فأمن الدولة داخليًا وخارجيًا مطلب دينى وطنى عربى إسلامى لكنه حُوِّر على يد بعض الحكومات فى العالم الإسلامى ليصبح أمنًا لقيادة البلاد على حساب أمن المواطن، فأهدرت حقوق المواطنين وحرياتهم، وسجنوا وعذبوا وأوذوا، تحت هذا الشعار المحوَّر، المغلوط.

٣- أنواع الوحدة بين المسلمين

الوحدة بين المسلمين أو وحـدة الأمة الإسلامية -كـما أسلفنا- مطلب دينى، طالبت به آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، وقد ذكرنا ذلك آنفاً، والحمد لله.

● ووحـدة الأمة الإسـلامـيـة لاينبغى أن تظل أمنيـة غـالية عند المسلمـين دون أن يتخـذوا الأسبـاب لتحقيـقها، بل لابد لها من مـرتكزات ومنطلقات تقوم عليـها، وتستمـد منها حيـاتها وفاعليـاتها، وبها تـطمئن بل تضمن اسـتمرارها، وتلك المرتـكزات والمنطلقات متنوعة من جانب، ومتكاملة من جانب آخر.

● وفى حديثنا عن أنواع هذه الوحدة الإسلامية، لابد أن نذكر بعدد من الحقائق نقدمها بين يدى الحديث عن هذه الأنواع أو المرتكزات، ومن هذه الحقائق:

- أن المسلمين بغير الوحدة الإسلامية نثارات لا يقيم العالم لأى دولة منها وحدها وزنًا، ولا يعطيها ما تستحقه من احترام.

- وأن الوحدة الإسلامية هى أهم أسباب تقدم الأمة الإسلامية وأخذ مكانها ومكانتها بين الأمم المتقدمـة علميًا وخلقيًا، وتقنيًا وتعليـميًا وتربويًا وسياسـيًا واقتصاديًا واجتـماعيًا وعسكريًا.

- وأنه لا حياة إسلامية صحيـحة للمسلمين ترضى الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بأن يكون المسلمون أمة واحدة دون الناس، فهكذا أخـبر الرسول ﷺ عنهم وهكذا وصفهم وهو يكتب العهود والمواثيق مع غير المسلمين.

- وأنه لا قدرة للمسـلمين على مواجهة أى عـدو للإسلام وأمته ومنهـجه ونظامه إلا إن كانوا أمة واحدة، لما تضفيه هذه الوحدة على الأمة من تعاون وتساند وقوة.

● ومرتكزات الوحدة أو أنواعها فى إجمال هى:

- وحدة الدين.

- ووحدة المنهج والنظام.

- ووحدة الثقافة.

- ووحدة الاقتصاد والسياسة.

- ووحدة القوة العسكرية.

- ووحدة السياسة الخارجية.

ونرجو أن نوضح كل مرتكز أو نوع منها بما يزيل عنه اللبس والخفاء ونسأل الله تعالى العون والتوفيق.

أ- وحدة الدين:

المجتمع الإسلامى يجب أن تجمعه وحدة الدين الإسلامى، بحيث تصبح الأمة الإسلامية كلها فى وحدة طاعة لله ولرسوله، ووحدة انقياد لأمر الله تعالى ونهيه، كما جاء ذلك فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والمجتمع الإسلامى يعمل كل ما فى وسعه من أجل الوصول إلى هذه الوحدة، لأن هذه الوحدة هى سبيل المسلمين فى تقوية إيمانهم بهذا العمل الصالح من أجل الوحدة، وتعزيز طاعتهم لله ولرسوله، ومنهج الإسلام ونظامه.

● وكل مسلم مطالب بأن يؤمن بأن المسلمين أمة واحدة وعقيدة واحدة، ودين واحد، ورب واحد، ورسول خاتم واحد، ومن لم يؤمن بذلك ويعمل به ومن أجله فقد خالف كلام الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وهديه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

● ولوحدة الدين الخاتم مفردات تعززها وتقويها، نذكر بعضها فيما يلى:

- وحدة الإيمان: لا يكون الدين واحدًا إلا إن عززته وحدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أى الإيمان بالغيب الذى أخبر الله عنه، والإيمان بما شاهده المسلم من كتاب الله تعالى، ومن رسول من الناس يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق.

فإذا آمن المسلمون بذلك فهم قلب واحد، وتوجه واحد، وطريق واحد، وغاية واحدة، وتلك هى الوحدة الحقيقية، ومن كانوا كذلك لا يكون بينهم تخاصم أو نزاع، وإنما هو الأخوة والمودة والوئام.

- **ووحدة الالتزام بالمنهج**: أى الالتزام بمنهج الإسلام ونظامه، وتطبيق جميع أركانه، والتعامل مع الناس وفق قيمه ومبادئه فى كل ما يتصل بالحياة الإنسانية فى الدنيا والآخرة.

وإذا كان المسلمون كذلك فلا تظالم ولا تعادى، ولا ضياع لحق لأحد منهم أو من غيرهم.

وليس من المستحيل ولا من الصعب أن يكون المسلمون جميعًا كذلك، لأن الله تعالى جعل الالتزام بالإسلام منهجه وقيمه ومبادئه لا مشقة فيه ولا عنت، لأنه سبحانه لا يكلف نفسًا إلا ما فى وسعها، وما جاءنا سبحانه بكتابه وسنة رسوله ﷺ ليتعبنا أو يشقينا بذلك، فإن شذ أحد عن هذا الالتزام فالعيب فيه وليس فى صعوبة المنهج.

إن المنهج الإسلامى يعمل من جانب آخر على أن يوحِّد بين المسلمين، ويجعل منهم مجتمعًا؛ تسوده المساواة فى الحقوق والواجبات أمام هذا المنهج.

- **ووحدة الخُلُق والسلوك**: ومعنى ذلك أن يتغلغل الإسلام فى قلب المسلم وعقله، فيخرج قيمًا خلقية إسلامية وسلوكًا إسلاميًا يحلم بميزان الحلال والحرام.

فإذا كان الخلق والسلوك على هذا النحو ساد العدل والإحسان، وأصبحت الشورى عملاً يمارسه المسلمون فى كل أمرهم، مما لا يسمح لأحد -حاكم أو حكومة- أن يستبد برأيه، أو يتجاهل الآخر ويفتات عليه أو يهضم شيئًا من حقوقه، أو أن يخرج بقوله أو عمله بعيدًا عن الإحسان بكل معنى من معانيه التى أوضحناها آنفاً.

ومتى يصبح المجتمع الإسلامى على هذا النحو من الخلق والسلوك سيطر الإحسان - وهو فوق العدل- على كل ما يجرى فى المجتمع الإسلامى من سلوك.

- **ووحدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب كل مسلم قادر عليه، لا يعفى منه مسلم، إلا لعذر يقبله الله تعالى.

وإذا اتحد الناس جميعًا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكانوا فى ذلك قلبًا واحدًا وقولاً واحدًا وعملاً واحدًا، شاع فيهم البرّ والخير، وقلَّ أو انعدم فيهم الإثم والشرّ.

وإذا توقف المسلمون عن الأمر بالمعروف خالفوا الله وعصوا أمره فاستحقوا عقاب المخالفين العصاة، وقَلَّ فى المجتمع البرُّ والخيرُ، فعاش الناس فى ضيق.

وإذا توقف المسلمون عن النهى عن المنكر، فقد خالفوا الله وتعالى وعصوه فاستحقوا أيضًا عقاب المخالفين العصاة، وساد فى المجتمع الإثم والشر، فضاع الإحساس بالأمن واضطرب الناس وأكل قويهم ضعيفهم، واستغل غنيهم فقيرهم، والذى لا يحس بالأمن لايبدع ولا يتفوق ولا يعتز بوطنه الذى حرمه حكامه من نعمة الأمن فيه.

ولقد حذَّر الرسول الخاتم ﷺ من الآثار الضارّة المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

- روى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتى يُغَربَلُ الناسُ فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم فاختلفوا، وكانوا هكذا -وشبك بين أصابعه- قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: «تأخذون بما تعرفون وتدعون ما تنكرون وتقبلون على خاصتكم وتدعون أمر عوامكم».

- وماوراه البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَنْ فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا».

- ووحدة الجهاد فى سبيل الله تعالى: من المسلَّم به فى ديننا الخاتم المبنى على السماحة والعدل والرحمة، أن الجهاد فى سبيل الله تعالى هو ذروة السنام من الإيمان والإسلام والعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذاك هو الذى يدخل الجنة ويباعد بين العبد وبين نار جهنم.

فقد روى أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلتُ: يا نبى الله: أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل فى جوف الليل»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ؛ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]،

ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد..».

وإن وحدة جهاد الأمة الإسلامية فى سبيل الله تقتضى أن تجاهد الأمة الإسلامية كل أنواع الجهاد:

جهاد النفس بإلزامها بشرع الله تعالى ونظامه.

وجهاد الشيطان بعدم الاستجابة لوسوسته وهمزه ولمزه.

وجهاد الأعداء بالمحافظة على أوطان الأمة الإسلامية.

إن وحدة الأمة الإسلامية تقتضى وحدة جهادها فى سبيل الله لتشق طريقها نحو عزتها وتقدمها ورقيها وريادتها وقدرتها على مواجهة مشكلاتها، فحل كل مشكلة يحتاج إلى جهاد.

وأبرز ما يواجه الأمة الإسلامية من مشكلات هو تلك الضغوط السياسية والعسكرية والاستيطانية العدوانية، ولا سبيل إلى مواجهة ذلك كله إلا بالجهاد، كل أنواع الجهاد.

وإن وحشية أعداء الأمة الإسلامية وفى مقدمتهم إسرائيل ومن خلفها الولايات المتحدة الأمريكية والغرب معظمه أصبحت تتمثل فى استيطان البلاد وتعذيب العباد كما حدث فى فلسطين ولا يزال يحدث، وما حدث فى أفغانستان ولا يزال يحدث، وماحدث فى العراق ولا يزال يحدث من قتل وتشريد وهدم للبيوت على ساكنيها وطرد الباقين من ديارهم وتشريدهم، وقلع الأشجار، والاستيلاء على المياه والنفط وحرمان أهله منه، ومعاملة المسلمين بأسوأ ما تكون المعاملة التى تعتمد التمييز العنصرى أساسًا..

إن إسرائيل وأمريكا أصبحتا تنتهكان كل ما هو إنسانى، ضاربتين عرض الحائط بكل الأعراف والمواثيق والاتفاقات الدولية منتهكتين عن عمد ما اصطلح على تسميته الشرعية الدولية، مستهينتين أو مسيطرتين على هيئة الأمم المتحدة، وتنفرد أمريكا بإبطال ونقض كل قرار يصدر من مجلس الأمن يدينهما أو يدين إسرائيل فى هذه الجرائم الإنسانية.

- ولقد أصبح من الضرورى أمام مفكرى العالم الإسلامى وعلمائه ومصلحيه، أن تتضافر جهودهم من أجل أمرين:

أولهما: تفقيه المسلمين بالجهاد فى سبيل الله.

والآخر: العمل على الرد على تلك المفتريات والمغالطات التى ألصقها الأعداء بالجهاد، وهى كثيرة نذكر منها:

- ربطهم بين الجهاد والعنف والإرهاب، مع أن جهاد المسلمين اليوم هو لرد العدوان وطرد المحتل، والدفاع عن المقدسات والأرض والعرض والمال، وهو ربط ينطوى على المغالطة وفرض رأى القوى على الضعيف من خلال أجهزة إعلام متوحشة يقوم عليها مضللون مغالطون..

فمن الذى يتعامل بالعنف؟

● أهى البلاد التى تنفق الملايين على المؤامرات ضد أى بلد إسلامى؟ مستهينة فى ذلك بكل حقوق الإنسان؟ أم هى الدولة الإسلامية التى ترد عن نفسها هذا الكيد وتتصدى لمقاومة الاحتلال وطرد المحتلين؟

● أهى تلك الدولة التى تضرب المدنيين بالقنابل النووية، والغازات السامة والأسلحة المحرمة دوليًا؟

أم الدولة التى تحاول أن تتقى هذه الهجمات الوحشية التى تقوم بها إسرائيل على مدى خمس وخمسين سنة من يوم ضربت هيروشيما ونجازاكى بالقنابل النووية؟

● أهى الدولة التى تسمم آبار المياه وتزرع الأرض بالألغام بعد قلع الأشجار، وتسميم الغذاء؟

أم الدولة التى تحاول أن تقاوم هذا الشر الشيطانى الذى لا مبرر له إلا حب الشر والحقد على المسلمين؟

● أهى الدولة أو الدول المتحالفة على احتلال بلاد الغير، وضربها بالأسلحة المحرمة دوليًا من أجل السيطرة على الأرض أم على النفط، أو مجرد الرغبة فى القضاء على المسلمين؟

أم هى الدولة التى تدافع عن نفسها، بعد تأكدها من انحياز هيئة الأمم المتحدة ضدها، وعجز مجلس الأمن عن اتخاذ قرار عادل، لإعطاء حق الاعتراض للدول القوية التى أثبتت عراقتها فى الإجرام؟

● وكذلك تطرح هذه الأسئلة لنعرف من هم الإرهابيون؟

- أهم الذين يزرعون الرعب فى قلوب الناس وهم يمطرونهم بالصواريخ والقنابل وأسلحة الدمار الشامل؟

أم هم الذين يدافعون عن حقهم فى الحياة الآمنة المستقرة؟

- أهم الذين يعذبون أسرى الحرب وسجناء الرأى، وكل من حاول مقاومة عدو متنكر لكل المعانى الإنسانية؟

أم ذلك الذى يتقى هذه الهجمات الشرسة بالحجارة حينًا، وبالأسلحة الساذجة المصنوعة يدويًا؟

– وربطهم بين الإسلام وبين كراهية الآخر:

والآخر هو اليهود وأمريكا، ثم الغرب.

- وعلى الرغم من أن الإسلام دين الحب والمودة والرغبة فى هداية الناس جميعًا إلى الحق والهدى، لأن رسول الله ﷺ قال: **«تألفوا الناس وتأنوهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أن تأتونى بهم مسلمين أَحَبّ إلىّ من أن تأتوا بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم»**[1].

على الرغم من ذلك، فإن هذه الدول معتدية محتلة لبلاد المسلمين، يجب قتالهم لا كراهيتهم فقط، فإذا دافع المسلمون عن أنفسهم وديارهم اتهموا بأنهم يكرهون أمريكا أو يكرهون الغرب.

إن معظم دول الغرب منذ ما يقرب من مائتى سنة لوثت أيديها بدماء المسلمين وهى تحتل بلادهم وتستوطنها، وتقهر الناس فيها وتعاملهم بأسوأ مما تقابل به الحيوانات ومع ذلك لو قدر المسلمون على هؤلاء المجرمين فإن دينهم يحرم عليهم تعذيب أسراهم، بل يطالبهم بالإحسان إليهم، فأين تلك الكراهية التى يعلمها الإسلام للمسلمين؟

– من الكارهون للآخر؟

أهم اليهود فى كراهيتهم للمسلمين التى بلغت حد الإبادة؟ أم الحكومات الأمريكية التى احتلت أفغانستان والعراق وتخطط لاحتلال السودان أو السيطرة عليه؟ فهل تفعل ذلك إلا إن كانت الكراهية قد بلغت بها حد الحقد..؟ أم المسلمون الذين ينهاهم دينهم عن الكراهية فضلا عما ينهاهم عنه من الظلم والعدوان؟

---

(١) رواه ابن عساكر المؤرخ المحدث (٤٩٩- ٥٧١هـ/ ١١٣٠- ١٢٠٢م)، بسنده عن عائذ رضى الله عنه (توفى سنة ٥٣هـ) وقد بايع تحت الشجرة واسمه عائذ بن ثعلبة البلوى، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال:....

- ومن الإرهابيون؟

أهم المسلمون الذين يرمون المدرعات الأمريكية والإسرائيلية بالحجارة، وهى تغزو بلادهم وتقتل شيوخهم ونساءهم وأطفالهم، وتدمر منازلهم، وتعتدى على مقدساتهم؟

- لقد تعلمنا أن هيئة الأمم المتحدة سريعًا ما تصدر قرارًا بإدانة الضحايا المعتدى عليهم بإشارة من أمريكا التى تحركها إسرائيل، خشية من أمريكا وذعرًا من سطوتها عليها وعلى مجلس أمنها!!

ولم يعد غريبًا ولا مستبعدًا أن تصدر الولايات المتحدة الأمريكية قرارًا بضرب هيئة الأمم المتحدة واعتقال أمينها العام، إن خالفت عن أمرها، وعندئذ نجد بريطانيا وكندا واستراليا وإيطاليا وباقى مجموعة الدول التابعة لأمريكا حشدت قواتها وأسلحة الدمار الشامل التى تملكها لضرب هيئة الأمم المتحدة الإرهابية المارقة التى تعادى الديموقراطية وتتحدى الشرعية الأمريكية.. إنه لم يعد بيننا وبين ذلك إلا زمن يسير، أو إشارة من إسرائيل!!

- ومن لم يشاركنى هذا التخيل؛ فإنى أَكِلُه إلى متابعة سطوة أمريكا التى تتزايد يومًا بعد يوم على كل شيء فى العالم؛ تجارته ودوله ومؤسساته وأسلحته وعجيب مبررات ذلك[1]، ليرى أن هيئة الأمم المتحدة ليست بعيدة عن سطوة أمريكا أو عدوانها، بغض النظر عن المجتمع العالمى ومظاهراته واعتراضاته!!

إنها أمريكا التى تقود حركة الاستيطان الجديدة، والتى لها سجل حافل بالجرائم التى ارتكبتها ، والتى تحدثنا عنها فى هذا الكتاب تحت عنوان «المستوطنون الجدد» فى حديثنا عن الهدف الثانى من أهداف المجتمع الإسلامى وهو: صيانة المجتمع عن الأخطار.

ب- وحدة المنهج والنظام:

تحقيق الوحدة بين المسلمين فى كيان واحد أمل وهدف رئيس وليكن اسمه ما يكون، ولكن هذه الوحدة لابد أن ترتكز على وحدة المنهج والنظام.

---

(١) يدعى بعض الغافلين أن أمريكا لم تتغول هكذا إلا بعد تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك..إلخ، لكن المتابع المتأمل يرى أن هذه صفات أمريكا من يوم تعاملت لأول مرة بالقنبلة النووية ضد اليابان فى أخريات الحرب العالمية الثانية، وغدًا لابد أن تنكشف حقيقة العدوان على مركز التجارة العالمى، ليكون مبررًا لضرب دول العالم الإسلامى، ونرى هذا الغد أقرب مما يتصورون.

● وليس بمستغرب أن نقول: إن الإسلام بوصفه أكمل الأديان وأتمها لأنه خاتمها أحكم منهجًا وأكمل نظامًا، لأن تلك إرادة الله تبارك وتعالى، التى تفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا.. ﴾ [المائدة: ٣]. كما يفهم ذلك من قول الرسول ﷺ، فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**».

● إنه المنهج والنظام الذى اشتمل على إصلاح كل شُعَب الحياة علمًا وعملاً وخلقًا وسلوكًا، وسلاما وحربًا، وبناءً لحضارة إنسانية رفيعة.

● إنه النظام الذى عالج كل أمور الحياة الإنسانية دون استثناء، ابتداء من بناء الأسرة وتربيتها لأبنائها، ثم دفعهم إلى الحياة عاملين مخلصين محسنين لكل ما يقومون به من عمل، وانتهاء بموت الإنسان وانتقال روحه من جسده ليعيش فى البرزخ إلى أن يبعث الله الناس يوم القيامة.

● إنه النظام الذى سَوَّى بين الناس فى الحقوق والواجبات ولم يسمح بإهدار أى حق لأحد، ولم يتسامح فى أن يقصر أحد فى أداء واجبه، ووضع لذلك الأطر والحوافظ التى تقوم على العدل والإحسان.

● وهو النظام الحاسم العملى فى تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، على نمط من العدل والإيجابية وتبادل الاحترام والتقدير.

● ووضع الشروط والآداب للحرب والسلام، بحيث تكون الحرب إنسانية الهدف والمقصد، وتبتعد تمامًا عن الوحشية التى عرفناها ولا نزال نراها من إسرائيل وأمريكا، ووضع للأسرى نظامًا يقوم على البر بهم والعطف عليهم وعدم إهدار حقوقهم الإنسانية -كما تفعل إسرائيل وأمريكا اليوم.

- ونظَّم المنهج المعاملات كلها فى أى مجال من مجالاتها، فسَنَّ تشريعات الزواج والطلاق والعتاق والكفارات كلها، والتجارة والزراعة وغيرها، ورائده فى كل ذلك هو أن يصل جميع الناس إلى حقوقهم وأن يؤدوا واجباتهم.

- ونظم حقوق الفقراء والضعفاء وبخاصة اليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل، وأعاد للمرأة احترامها فى المجتمع فجعل لها ذمة مالية مستقلة بعد أن كانت شيئًا يورث مع متاع البيت ومقتنياته، وأعطاها جميع حقوقها أمًا وزوجةً وبنتًا وأختًا، كما ألزمها بواجباتها.

إن منهج الإسلام ونظامه فى الجانب الاجتماعى منه أعطى المرأة من الحقوق ما يصلحها ويُصْلِح بها من خلال تشريع جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى خالق الذكر والأنثى ليعمر باجتماعها -فى زواج شرعى- الحياة الدنيا، واعتبر الإسلام النساء شقائق الرجال فى الدنيا، ومساويات لهم فى الآخرة عند الحساب والجزاء، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

- إن هذا المنهج وذلك النظام لو اتخذهما المسلمون طريقًا نحو الوحدة الإسلامية الشاملة، لكان خير طريق يوصل إلى هذا الهدف النبيل «الوحدة الإسلامية»، ولما حدث لهم هذا التراجع الحضارى وهذا الضعف الذى أطمع فيهم أعداءهم بعد أن فرق صفوفهم وأذهب ريحهم.

- إن المسلمين الذين تخلوا عن المنهج الإسلامى ونظامه، وخدعوا عنه بمناهج مختلفة وأنظمة معادية، ازدادوا ضعفًا وازداد أعداؤهم طمعًا فيهم.

ولقد بدا بل تأكد لكل متابع للذين تخلوا عن منهج الإسلام ونظامه أنهم غافلون يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، فكان أن حالفهم الفشل سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، وفكريًا، كما أنهم آثمون شرعًا لأنهم خالفوا ما أمرهم الله به من وجوب اتباع منهجه وحده دون غيره، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وكذلك أخبر الرسول ﷺ بأن منهج الله وسبيله واحدة، وأن من على يمينه وشماله سُبلاً كثيرة على رأس كل سبيل منها شيطان - فى الحديث الشريف الذى ذكرناه آنفا.

- وإن من الحقائق التى يعترف بها المسلمون جميعًا، والمنصفون من غير المسلمين، أن المسلمين عَزُّوا وساروا وملأوا الأرض عدلاً ورحمة وإحسانًا يوم كانوا متمسكين بهذا المنهج وذاك النظام فى حياتهم بمختلف شعبها، إنهم بلغوا بهذا ما تبلغه الشمس، ففى نصف قرن من الزمان وصلوا إلى ما يقرب من نصف الدنيا آنئذ.

- إن التمسك بالمنهج الإسلامى بدقة وتفصيل هو الذى جعل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفرض لكل من ولد فى الإسلام نصيبًا من بيت مال المسلمين،

بعـد أن كان لا يفـرض إلا لمن فطم، وذلك عندما سـأل عن بكاء طفل فقـالت له أم الطفل: إنى فطمته ليـفرض له أمير المؤمنين عطاء من بيت المال، فأمـر عمر رضى الله منذئذ أن يفـرض عطاء لكـل وليد، لأن المـنهج الإسـلامى منهج التكافل والرحـمـة والرعاية.

- وإن التمسك بالمنهج والنظام هو الذى ضمن للمسلمين أن ينتصـروا فى معاركهم مهما كان أعداؤهم أقوياء وأصحاب ضراوة وقسوة، لقد انتصروا فى معاركهم كلها.

● معارك الدعـوة إلى الدين الحق حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا، بـعد اقتناع وإيمان مهـدت له الدعوة بالحكمة والموعظة الحـسنة والجدال بالتى هى أحسن حـتى يتبين الحق، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

● ومعارك الحركة بالدين فى الناس والآفاق، والعمل على إزالة العراقيل والعقبات، وتغيير كل ما يخالف الإسلام فى المجتمع إلى ما يتفق مع الإسلام.

● ومعارك الجهاد فـى سبيل الله وقتال المعتدين، حتى يكون الدين كله لله، ولا يـعبد غير الله فى الأرض، أى يتحرر الناس من عبادة العباد والأهواء.

- إن التمسك بالمنـهج الإسلامى هو الذى جعل من المسلمين خيـر أمة أخرجت للناس، أى لتنقذ الناس بالهدى الذى جاءهم به وهو هذا المنهج، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لذلك كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تحمل معها الإيمان، وتمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أخبر بذلك رب العالمين فى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ....﴾ [آل عمران: ١١٠].

- إن التـمسك بحـذافيـر المنهج ومفـردات النظام هو عـصمـة للمسلمين عن الضـعف والتخاذل والفـرقة والانقسام، فمن مع الله أى مـع منهجه ونظامه كان الله مـعه مؤيدًا ومعـينًا وناصرًا، ومن شأن ذلك أن يرد عن المسـلمين أعداءهم الذين يوجهـون إليهم الضربات وراء الضربات، كلما رأوا ضعفهم وفرقتهم، وكلما تعاملوا مع كل دولة من دولهم السبع والخـمسين على حدة، وكلما رأوا منـهم تباعدًا عن منهجـهم ونظامهم؛ الذين انتـصروا بالتـمسك به كـما رأى هـؤلاء الأعداء بأنفـسهم وهم يقـرءون تاريخ المسلمين.

تلك حقيقة ما يجادل فى صحتها إلا الجاهلون الذين يخدعون بالمغالطات والأضاليل.

- وإن التمسك بالمنهج والنظام هو الذى يجعل المسلمين أهلاً للعزة التى كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، وليس أجدر بهذه العزة من الملتزمين بمنهج الإسلام ونظامه، لأن الله تعالى قد اختار هذا المنهج وأكمله وأتمه، واختار له الأمة الإسلامية لتحيا به وتنشره فى الناس، وتستمد منه العزة والكرامة والقوة.

وهذه العزة خطوة كبيرة وخطيرة فى طريق الوحدة بين المسلمين.

وبعد: فهكذا تفعل وحدة المسلمين؛ تجمع صفوفهم وتوحد كلمتهم، وتجعل التوفيق والنصر حليفا لهم، كما وعد الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] وهل يكون المسلمون مؤمنين إلا بتطبيق منهج الله ونظامه؟ إن هذا التطبيق لمنهج الله ونظامه أقوى الدلائل على الإيمان، وفى الوقت نفسه يعتبر من أقوى الأسباب فى وحدة العمل والتطبيق، المؤدى إلى وحدة الصف.

ولا يفوتنى أن أؤكد أن كل خطوة من خطوات العمل لتوحيد الأمة الإسلامية هدف قائم بذاته يعزز الأهداف الأخرى ويُدْنيها.

جـ- وحدة الثقافة:

الثقافة الإسلامية عامل جوهرى من عوامل الوحدة الإسلامية بفروعها العديدة؛ وحدة الأهداف، ووحدة الدين ووحدة المنهج والنظام، ووحدة السياسة والاقتصاد والوحدة العسكرية ووحدة السياسة الخارجية؛ وذلك لأهمية الثقافة وحيويتها فى الحياة الإنسانية عمومًا وفى صناعة الحضارة على وجه الخصوص.

هذه حقيقة لا يجادل فيها إلا أصحاب الرغبة فى المراء، أعاذنا الله تعالى منهم.

ووحدة الثقافة فى أمة من الأمم ضرورة يتوقف عليها تنمية حياة هذه الأمة وترقيتها وإقدارها على أداء وظائفها لتحسين حياة الناس.

- وقد يتصور بعض الناس أن الثقافة ترف فكرى، وعمل ثانوى، وعامل غير أساسى فى توحيد المسلمين، ولكن ذلك تصور قاصر، ورؤية غير صحيحة وغير متعمقة، لأن الثقافة عامل هام من عوامل تكوين الأمة ذاتها، فلابد أن تكون عاملاً هامًا من عوامل تكوين وحدة الأمة.
- وثقافة المجتمع تتكون من نوعين من الثقافة:

أحدهمـا: معنوى يتمثـل فيما يزخـر به المجتمع من زاد روحى وفكرى وخلقى وقـيمى وأدبى وفنى.

والآخر: مادى يتـمثل فيما ينشـئه الإنسان فى المجتمع من أدوات وآلات ومـبان وأماكن عمل وساحات ومزارع ونحو ذلك من مظاهر الحضارة المادية.

وهذا النوعان من الثقافة هما اللذان يكونان الشخصيـة الحضارية للمجتمع، بل الشخصية القومية له.

- ولأهمية الثقافة وحيويتها فى بناء الأمة، وجه إليها أعداء الأمة - من المستوطنين المحتلين لبلاد المسلمين - ضـربات عنيفة ليقـينهم بأن إضعاف ثقـافة الأمة إضعاف لهـا، وكانت الضربة الموجهة للثقافة هى اللغة، لأن اللغة وعاء الفكر والثقافة والحضارة.

وتلك خطة فى حرب ثقافة الشعوب الإسلامـية والشعب العربى لا تحتاج إلى دليل، فإن النظر إلى بعض البلدان الإسلامية فى إفريقيا أو آسـيا ليرى كيف سادت لغات المستوطنين وخملت لغات البلدان الإسلامية يؤكد ذلك.

فاللغـة العربيـة - لغة الكتـاب والسنة - فى بلدان العالم الإسـلامى آخذة فى الخـمول والتوارى لتحل محلها لغة المستوطن وعلى سبيل المثال:

فقد سادت الفرنسية على العربية فى المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا، وكثير من بلدان إفريقية التى استوطنها الفرنسيـون، واللغة الإنجليزية تغلبت على العربية وأخملتها فى كل البلدان العربية والإسلامـية التى استوطنها الإنجليز، كالسـودان والصومال - الإنجليزى - وأوغندا، وكثـير من بلدان إفريقيـة التى استوطنهـا الإنجليز كنيجيـريا والنيجر وغيـرهما وكذلك باكستان وبنجلادش، وكثير من البلدان الإسلامية فى آسيا وإفريقية.

- وفى العـالم الإسلامى كله، لابد من مـعرفـة باللغة العـربية لأن كـثيـرًا من العـبادات الإسلاميـة لا تؤدى إلا باللغة العربية كتـلاوة القرآن وأداء فريضة الصـلاة، وبالتالى فإن الثقـافة فى تلك البلدان لابد أن تكون إسـلامية عـربية إلى حد مًـا، وبالتالى أيضـا فإن القوى الاستيطانية المحتـلة زاحمت الثقافة الإسلامية بثقافاتهـا الأجنبية وبلغاتها، وأوضح ما كان ذلك فى برامج التعليم وبعض أجهزة الإعلام ووسائله[1].

---

(١) تحدثنا عن ذلك بـتوسع فى كتـابنا: «التربية الإسـلامية فى المدرسـة» نشر دار التـوزيع والنشر الإسلامـية - القاهرة: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

● ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة زاد ثقافى يمد المسلم بكل ما يحتاج إليه من معرفة بالعقيدة والعبادة والقيم الخليقة والسلوك والمعاملات، ولو التزم المسلمون بهذا الزاد الثقافى لتبدلت أحوالهم إلى أحسن حال فى كل مرفق من مرافق حياتهم.

● وسوف يكون حديثنا عن الثقافة على الرغم من تشعبها مقصوراً على الحديث عن أمرين هما:

مكونات الثقافة الإسلامية.

وأهداف وحدة الثقافة الإسلامية.

الأمر الأول: مكونات الثقافة الإسلامية:

الثقافة فى عمومها إسلامية وغير إسلامية - كما يرى علماء الاجتماع - تتكون من مجموعة أنماط اجتماعية يعيش وفقها أفراد المجتمع، ومن خلال هذه الأنماط يفكرون.

وهذه الأنماط الاجتماعية وثيقة الصلة بعضها ببعض بحيث تكون فى مجموعها كُلاً ثقافيًا متماسكًا يمكن أن يسمى تكاملاً ثقافيًا.

ويؤكد علماء الاجتماع الغربيون أن الأفراد الذين يفقدون هذا التكامل الثقافى يعانون من اضطراب وفوضى، ومن مشكلات نفسية واجتماعية، وقد يصل بهم الأمر إلى نوع من الصراع فيما بينهم، مما يعوق - لو حدث - تطور المجتمع.

● والثقافة الإسلامية لابد أن تكون كذلك مجموعة من أنماط اجتماعية، يعيش وفقها الناس ومن خلالها يفكرون غير أن هذه الأنماط الاجتماعية الإسلامية ليست الأنماط التى خلقها الإنسان - كما يقول علماء الاجتماع الغربيون -وإنما هى أنماط اجتماعية تدخلت فى صنعها القيم والمبادئ الإسلامية المعروفة التى اشتمل عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتى تمثلت فى أقوال النبى ﷺ وأعماله وتقريراته، والتى كونت فى مجموعها كلاً ثقافيًا بل تكاملاً ثقافيًا، تناقلته أجيال المسلمين، وأصبحوا لا يستغنون عنه بحال، ولوا استغنى المسلمون عن ذلك لا تعد ثقافتهم ثقافة إسلامية.

- وعندما يُتْرك الناس لكى يَخلقوا -كما يقول علماء الاجتماع الغربيون- البيئة التى يريدون، فإن المسلمين لابد أن يراعوا القيم السائدة فى الكتاب والسنة، وإن لم يراعوا ذلك فإنهم تتغلب عليهم النزعة الفردية التى تغلبت على غير المسلمين فجعلتهم

يؤثرون أنفسهم بما يحقق لهم متعهم وشهواتهم بغض النظر عن القيم، وهذا من شأنه أن يهتز أو ينهار البناء الاجتماعى للأسرة، وتسيطر على الناس الأنانية وحب الذات، فنجد الأبوين اللذين يتركان أبناءهما فى سن الخامسة عشرة لمواجهة الحياة دون سند أو غطاء أسرى، كما نجد الأبناء - فى المقابل - يتخلون عن الآباء عندما تتقدم بهم السن فلا يحظون منهم برعاية بل يتركونهم لدور رعاية المسنين.

إن هؤلاء الأبناء وأولئك كأنهم لم يسمعوا عن برّ الأبناء بالآباء ولا واجب الآباء نحو الأبناء، والإسلام فى قيمه ومبادئه بقيم لهذه العلاقات أكبر وزن، بل يجعل الإحسان إلى الوالدين مقرونًا بعبادة الله تعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم[١]، كما أوصى بالإحسان إليهما فى عدد من الآيات الكريمة[٢].

- على أن أهم مكونين للثقافة إسلامية وغير الإسلامية هما:

الأول: الثقافة المادية:

وهى ثقافة يصنعها الإنسان بنفسه كالمأكل والملبس والمسكن وأثاث البيت وأدوات الطعام، وغير ذلك من عناصر يحتاج إليها الإنسان فى حياته، ويتوصل إليها بما أتيح له من تقدم علمى «وتقنى».

- ومن علماء الاجتماع - وخصوصًا «الماركسيين» منهم - من يعطون أكبر وزن لهذه الثقافة المادية ويرونها ثقافة حاكمة، لها الرأى الأول والأخير فى النظام الاجتماعى بأسره.

- أما فى الثقافة الإسلامية، فإن المسلم وإن كان منتجًا لهذه الثقافة المادية من مأكل وملبس ومسكن وأثاث بيت وأدوات للطعام وغير ذلك؛ إلا أنه وهو ينتج هذه المفردات من الثقافة المادية، لا يستطيع أن يخالف الإسلام قيمه ومبادئه فى إنتاج شىء من ذلك كله، وبخاصة إذا ترتب على إنتاج مفردة منها ضرر من الأضرار.

فالمسلم لا يستطيع فى أدوات الطعام والشراب أن يستعمل آنية الذهب والفضة، ولا يستطيع الرجل الذى أنتج حريرًا أو ذهبًا أن يلبسه، ولا يجوز الزنا ولا اللواط ولا

---

(١) جاء ذلك فى الآيات القرآنية التالية:
الآية: ٨٣ من سورة البقرة، والآية: ٣٦ من سورة النساء، والآية: ١٥١ من سورة الأنعام، والآية: ٢٣ من سورة الإسراء.

(٢) جاء ذلك فى الآيات الكريمة التالية: الآية: ٨ من سورة العنكبوت، والآية: ١٤ من سورة لقمان، والآية: ١٥ من سورة الأحقاف.

السحاق ولا إسقاط الجنين، ولا الحمل دون زواج شرعى ولا إهمال الأبناء ولا عقوق الآباء، لأن الثقافة الإسلامية حتى فى جانبها المادى لا تستطيع أن تتنكر لأى قيمة ثقافية إسلامية.

والمكوّن الآخر للثقافة هو:

الثقافة غير المادية، وهى ثقافة معنوية لها خصائص وسمات غير مادية، مثل:

المعتقدات، والمعارف، والقيم والمبادئ، واللغة والتراث الأدبى، والمعايير والمهارات والأدب والفن.

- وفى الثقافة نجد معظم هذه المفردات غير المادية نابعة من الكتاب والسنة وسير الصحابة رضى الله عنهم واجتهادات الفقهاء والمصلحين المجددين.

ثم تأتى اللغة العربية بوصفها لغة الكتاب والسنة فتفرض شخصيتها على الثقافة الإسلامية، لأنها مفتاح الكتاب والسنة أهم مصدرين أو منبعين للثقافة الإسلامية، بل إن اللغة العربية مكون ثقافى من مكونات شخصية الإنسان المسلم.

والأمر الثاني: من حديثنا عن الثقافة الإسلامية هو:

أهداف وحدة الثقافة الإسلامية:

وحدة الثقافة الإسلامية -كما قلنا آنفا- خطوة نحو الوحدة الإسلامية التى ينشدها العالم الإسلامى كله، ليخرج بها من موقف الضعف والاستنزاف إلى موقف القوة والقدرة على الدفاع عن النفس ومواجهة الأعداء.

وما كان المسلمون بقادرين على الخروج من الضعف إلى القوة إلا بوحدة ثقافية تدعم الوحدة الإسلامية.

هذه الوحدة الثقافية لها أهداف تخدم الهدف الأكبر وهو وحدة الأمة الإسلامية، ونحاول هنا أن نرصد بعض هذه الأهداف، فيما يلى:

أولا: وحدة الفكر:

وهذا يعنى أن يكون للمسلمين فكر مشترك، متقارب غير متعارض ولا متعاند فى كبريات القضايا التى تحيط بالعالم الإسلامى سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، بالإضافة إلى توحدهم فيما يتصل بالعقائد والعبادات والقيم الأخلاقية، بل يجب أن يكون لهم هذا

الفكر المشترك أو المتقارب، لأنهم أمة واحدة من دون الناس، وأنهم الذين أورثهم الله الكتاب وطالبهم بالعمل به إلى آخر الزمان.

● المسلمون جميعًا يلتفون حول القرآن الكريم والسنة النبوية لا يشذ عنهم فى هذا الالتفاف إلا منافق أضمر الكفر وأظهر الإسلام، وحسابه على الله.

● وفى بعض الأحيان نجد بعض المسلمين مقصرين فى الالتزام بما جاء به منهج الله ونظامه، وهؤلاء وإن اشتركوا مع المسلمين فى احترام مصدرى الثقافة الإسلامية؛ الكتاب والسنة، إلا أنهم أساءوا إلى أنفسهم ودنياهم وآخرتهم، بل أساءوا إلى سائر المسلمين بهذا التقصير فى الأخذ بما جاء فى الكتاب والسنة، وما هم بضارّى الإسلام فى شىء، وإنما هم يضرون بأنفسهم ومجتمعاتهم، وحسابهم عند الله تعالى.

إن موقف هؤلاء المقصرين فى تطبيق المنهج لن يستطيع الوقوف فى طريق الوصول إلى الهدف، وإنما قصارى ما يمكن أن يصلوا إليه هو تأخير زمن الوصول إلى الهدف، لكن الوصول مؤكد بإذن الله تعالى طال الزمن أو قصر.

ثانيا: وحدة الموقف الثقافى:

وهذا يعنى أن يكون للمسلمين جميعًا فى كل أنحاء الأرض موقف ثقافى موحد إزاء الناس والأحداث، أى لهم قدرة على عملين جليلين هما:

- الرؤية الصحيحة الصائبة لكل ما يجب عليهم القيام به من عمل لتوحيد الموقف الثقافى للمسلمين فى العالم.

- والقدرة على معرفة ما يدبره الآخرون للإسلام والمسلمين من مكايد وشرور، مع العمل على إبطالها، ورد كيد هذا الآخر إلى نحره.

● إن المسلمين فى وحدة موقفهم الثقافى - على وجه الخصوص - يجب أن يتصدوا لكثير من التهم والافتراءات والأباطيل التى توجه إلى ثقافة المسلمين، وإلى مصادر هذه الثقافة:

الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأعمال الصحابة رضى الله عنهم، وقيم الإسلام ومبادئه، والتراث الإسلامى كله المتمثل فى الزاد الثقافى الذى تركه المصلحون المجددون، وفى الصفحات المشرقة فى تاريخ المسلمين الذى تخلص فيه الناس بفضل الإسلام من عبادة العباد والأهواء والشهوات إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فما أنبل ثقافة

الإسلام وما أنفع حقائقه!! وما أبشع أباطيل خصوم الإسلام وأبعدها عن الإنصاف والموضوعية.

- إن وحدة الموقف الثقافى تستوجب على المسلمين أن يؤلفوا مجمعًا علميًا، تتبناه الجمعيات الأهلية لا الحكومات -أى جماعات المجتمع المدنى- ليتبادل من خلاله علماء الأمة الإسلامية ومفكروها ومبدعوها ومصلحوها، وأهل الدعوة والحركة والجهاد فيها؛ ليتبادلوا الآراء حول كل قضية لها صلة بالعالم الإسلامى، بحيث يتوفر على دراستها المتخصصون من العلماء والمفكرين، ويكونون لها رأيًا ينهض بها، ويضعها فى مكانها الصحيح، ثم يتوجهون إلى الحكام المسلمين على هيئة توصيات ومقترحات مدروسة محسوبة الخطوات والنتائج، مصحوبة بتصور علمى دقيق لأعبائها وتكاليفها ومداها المكانى والزمانى، ومن المؤكد أن بعض الحكام المسلمين سوف يستجيب لهذا العمل الجليل على قدر ما يحسن عرض هذا العمل عليه، لأنه أولاً وأخيرًا مسلم يدين بدين الحق.

ثالثا: دعم الثقافة وتيسيرها:

وحدة الثقافة بين البلدان الإسلامية تقتضى من كل ذى قدرة من الحكومات وجماعات المجتمع المدنى[1] والأفراد؛ أن تتضافر جهودهم فى دعم الثقافة الإسلامية وتيسيرها.

ومن الخطوات الضرورية فى دعم الثقافة وتيسيرها ما نشير إليه فيما يلى:

- نشر كتب التراث الإسلامى فى كثير من بلدان العالم الإسلامى وبخاصة تلك التى لا تزال مخطوطة - لم تطبع بعد- مع أن فيها من كنوز العلم والمعرفة الشىء الكثير.

ولقد رأيت - وأنا واحد من المهتمين بالثقافة- كثيرًا من هذه المخطوطات فى عديد من بلدان العالم الإسلامى وفى بعض مكتباتها الجامعية، فى كثير من فروع العلم والمعرفة، مما يحتاج إلى جهود علماء وباحثين للتوجه إلى هذه الأماكن وتعرف ما فيها من كنوز، والتوصية بنشره.

- وتيسير طبع كتب التراث - وهى كثير - وبيعها بأسعار التكلفة لتيسير قراءتها واقتنائها، وربما كان هذا هو الواجب الأول لوزارات الثقافة ووزارات الإعلام ووزارات التعليم فى العالم الإسلامى كله، كما أنه واجب الناشرين، وأهل القدرة واليسار من المسلمين، وهؤلاء وأولئك كثيرون بفضل الله ومخلصون لدينهم وثقافتهم وأوطانهم.

(١) سردنا أنواع هذه الجماعات فى مدخل هذا الكتاب تحت عنوان: جمعيات المجتمع المدنى.

إن الذين يسهمون فى دعم الثقافة وتيسيرها يسنون فى الإسلام سنة حسنة لهم بإذن الله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء.

كما أن هذا العمل صدقة جارية طالما انتفع بالكتاب قارئ، كما أنه إن شاء الله من الباقيات الصالحات.

رابعًا: تقريب الثقافات الإسلامية بعضها من بعض:

من سنن الله تعالى فى خلقه أن تتعدد رؤى الناس حول كثير من الأمور، فيصبح لبعض الناس آراء متباينة، وعلماء المسلمين ومفكروهم قد مارسوا التفكير المستقل فى كثير من القضايا، فكانت لهم آراء متباينة - فيما عدا الثوابت الإسلامية التى لا خلاف عليها كالتوحيد والعبادات والقيم الخلقية -وفيما وراء ذلك من المتغيرات كان لبعض العلماء والمفكرين رؤى ومذاهب عمل كل منهم على نشر رأيه وإذاعة مذهبه.

ومع كل رأى أو مذهب فإن على علماء المسلمين جمعه وبيانه فإن كان من الصواب فذاك خير للمسلمين، وإن كان غير ذلك فإن فى نشره ما يظهر عيوبه أو شذوذه، ليعرف الناس عنه ما ينفرهم منه، فيكفيهم الله شره، ولن يُحدث هذا فتنة للمسلمين أبدًا، لأن المسلمين لهم الحق فى التفكير المستقل ولهم حق اتباع ما يرونه صوابًا واجتناب ما يرونه خطأ.

ولقد قرأت كثيرًا من كتب بعض المذاهب التى لا تنتمى إلى مذهب أهل السنة والجماعة، فما وجدت فى كثير منها ما يعارض الكتاب والسنة الصحيحة، وإن كان فى بعضها بعض الشذوذ، وفى كثير منها تأويل لبعض النصوص بما لم يعهده أهل السنة والجماعة، وليس فى هذا ومثله كفر أو فسوق أو عصيان، وإنما هو اجتهاد مشروع حتى لو أخطأ صاحبه.

- والذى أراه أن قراءة هذه الاجتهادات بموضوعية وحياد هى إحدى وسائل التقريب بينها، وأن إذاعة هذا التراث وتيسير قراءته للناس يقرب ما بين المختلفين بأكثر مما يعمق هذا الاختلاف، لأن اطلاع كل فريق على ما كتب الفريق الآخر أسلوب جيد فى التفاهم والتماس الأعذار فى مخالفة التأويل أو الخروج عن المألوف المتعارف عليه.

ولقد رأيت وزرت مقر طائفة مسلمة فى «نيروبى» عاصمة كينيا، وكان المسلمون هناك متوجسين من هذه الطائفة ومن أفكارهم خيفة فلما تحدثت معهم واستمعت إليهم، انفضت

جلستنا على الخير والحب فى الله، وقد تبرعت هذه الطائفة بما استطاعت لبناء مركز إسلامى فى «نيروبى» فجزاهم الله عن عملهم هذا كل خير.

وكل ذلك التقارب بين المسلمين وثقافاتهم خطوات جيدة فى طريق وحدة الثقافة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية.

خامسًا: تقريب الثقافات بين الجماعات الإسلامية:

الجماعات الإسلامية فى العالم الإسلامى كله ما فكر فيها مؤسسوها إلا رغبة فى الإصلاح وفى القيام بأعمال نافعة للمسلمين، وفى تعريف المسلمين بدينهم، وهناك عدد من الحقائق نود أن نذكر بها فى مجال حديثنا عن الجماعات الإسلامية، منها:

- إن عدد هذه الجماعات كبير يزيد على عدد بلدان العالم الإسلامى، لأن كثيرا من بلدان العالم الإسلامى الكبيرة فيها عدد من الجماعات العاملة النشيطة، وأنها جميعا على خير، وتعمل لصالح الإسلام والمسلمين.
- وأن هذه الجماعات كلها تعمل فى مجال التعريف بالإسلام دعوةً إلى الله، وحركةً بالدين الحق فى الناس والآفاق، وجهادًا فى سبيل الله تعالى، وجلبًا لمنافع المسلمين ودفعًا للأذى عنهم، كل الجماعات كذلك ما تشذ عنها جماعة.
- وأن ظروف الحكم فى العالم الإسلامى وعدم التزام كثير من هذه الحكومات بمنهج الإسلام، جعل ما تقوم به هذه الجماعات من أعمال لا يرضى هذه الحكومات، وبخاصة أن هذه الجماعات ترفع شعار الإسلام وتنادى بالحكم بما أنزل الله وهذا ما لا يرضى الحكام ولا الحكومات الإسلامية التى تحاول أن ترضى الغرب، ومن أجل هذا تتحدى كثيرٌ من حكومات العالم الإسلامى هذه الجماعات فتوجه إليها الضربات تلو الضربات وتستعمل معها العنف من اعتقال وتعذيب ومحاكمات استثنائية عسكرية أمام قضاة غير طبيعيين لتصدر عليهم أحكامًا صارمة تصل إلى الإعدام أحيانًا، وإلى استمرار الحبس بعد تمضية مدة العقوبة، مما يجعل بعض هذه الجماعات تتبادل مع الحكومات عنفًا بعنف، ثم تتفاقم الأمور فتوصف الجماعات كلها بأنها إرهابية، وتقوم ضدها حملات الإعلام التى تعمد إلى تشويه الجماعات كلها، ثم تعود الحكومة فتتخذ ضد هذه الجماعات إجراءات سياسية قمعية ظالمة، كمنعها من الترشح للمجالس النيابية، وأحيانًا الحرمان من الحقوق السياسية، ودائمًا الاستبعاد من الوظائف ذات الأهمية فى الدولة، فضلا عن المضايقات، والإلجاء إلى الهجرة فى كثير من الأحيان.

- ولسنا نرى لأى جماعة إسلامية أن تلجأ إلى العنف فضلاً عن القتل، وهذه قضية شائكة يحسم الأمر فيها أن تلتزم جميع الأطراف بالإسلام الذى لا يعترف بالعنف ولا بالإرهاب إلا مع أعداء الإسلام الذين يكيدون له ولأهله ومنهجه ونظامه، ويحتلون بلاد المسلمين.

أما فيما بين المسلمين فيسع المختلفين منهم الدعوة بالحسنى والجدال بالتى هى أحسن، ولا يمكن اعتبار هذا الخلاف خلافًا بين مسلمين وكافرين.

- ولهذه الجماعات الإسلامية فى رسول الله أسوة حسنة؛ فلقد تحملوا الأذى والعنت فى مكة ثلاث عشرة سنة، لم يستعمل العنف وكان يقدر على ذلك، ولما هاجر إلى المدينة المنورة وأقام دولة للإسلام، بدأ يمارس أعمال الدولة وسيادتها فيحارب من يحاربه ويسالم من يسالمه ويعقد العهود والمواثيق، ويحالف، ويهادن.

● إن واجب العلماء والمفكرين أن يجعلوا من انتشار الثقافة الإسلامية وتيسيرها فرصة للتقارب الفكرى والثقافى بين هذه الجماعات الإسلامية من جانب، وبين هذه الجماعات وبين الحكومات من جانب آخر.

إن هذا التقارب هو الطريق الآمن الذى يحفظ على المجتمع الإسلامى جهوده وأمواله ودماءه، ليتوجه ذلك كله إلى أعداء الإسلام والمسلمين، وأعداء وحدة الثقافة الإسلامية وأعداء وحدة العالم الإسلامى، هؤلاء الأعداء الذين يتشدقون بحقوق الإنسان وبالحرية و«الديموقراطية» على أن أعمالهم ضد المسلمين تتنكر لذلك كله!!

ألا ما أحوج العالم اليوم ممثلاً فى هيئة الأمم المتحدة إلى أن يصر على إلغاء التمييز العنصرى، وإلى إلغاء انتهاك حقوق الإنسان، وإلى الوقوف صفًا قويًا ضد عدوان دولة قوية تتمتع بحق النقض فى مجلس الأمن، كما يحدث من الدول الغاشمة الاستيطانية!!

ألا ما أحوج العالم ممثلا فى هيئة الأمم المتحدة إلى أن يحظر صناعة أسلحة الدمار الشامل، والأسلحة التى يزعمون أنها محرمة دوليًا!!

سادسًا: التقريب بين الثقافات العالمية:

المسلمون والثقافة الإسلامية ووحدة هذه الثقافة، لا يألون جهدًا فى التقريب بين الثقافات العالمية، بإزالة هذه التناقضات التى يحرص على إبرازها أهل الغرور والصَّلَف من المستوطنين الجدد، تلك التناقضات المؤدية إلى الصراعات وإلى الحروب، وإلى أن يأكل القوى الضعيف ويستبد صاحق النقض بمن شاء متى شاء ومجلس الأمن يسمع ويرى،

ويصدر قراراته دائمًا محققة لمصالح الأقوياء، ومعاقبة للضعفاء؛ فمن يوم أنشئت هيئة الأمم المتحدة لم تصدر قراراً ضد دولة من هذه الدول المتميزة بحق النقض مع أن جرائمها أوضح وأشهر من أن تنكر، ولكل منها سجل حافل فى انتهاك حقوق الإنسان، ولكثير منها عدوان واحتلال لبلدان أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة!!

إن هؤلاء المغرورين أهل الصلف والاستيطان قديمًا وحديثًا، لو حدث تقريب بين ثقافة الناس وثقافاتهم لتجنبت الدنيا حروبًا وصراعات وإلقاءً للقنابل الذرية على الآخرين، ولتجنبت استعمال هذه الدول المتعالية فى غرور وصلف لأسلحة الدمار الشامل!!!

إن التقريب بين الثقافات يمنع الدول صاحبة حق النقض أن تتنافس فيما بينها على قهر الشعوب الأضعف منها ماديًا وإذلالها واحتلال بلادها والاستيلاء على خيراتها.

إن التقريب بين الثقافات لابد أن يردع حكومات طاغية مثل أمريكا والاتحاد الروسى، ومن قبلهما إنجلترا، وفرنسا وهولندا وأسبانيا وإيطاليا، يردعها عن ممارسة أعمالها الإجرامية ضد الآخرين.

إن هذه الدول دول عنصرية تعيش على التمييز بين الناس والكيل بالتطفيف، وتقتات حقيقة على لحوم البشر وترتوى بدمائهم، والعالم كله يسمع ويرى، لكن العالم كله أضعف مجتمعًا من هذه الدول صاحبة حق النقض، فلا يملك أحد أن يرفع صوته بالحق ثم يعقبه بعمل يرد إلى الشعوب الضعيفة حقَّها فى تقرير مصيرها والاستمتاع بخيرات بلادها، هذه الدول الأصيلة فى الاستيطان بريطانيا وفرنسا وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى أو اتحاد روسيا الآن، هذه ومعها أمريكا تحالفت ضد العرب والمسلمين فزرعت فى قلب العالم العربى دولة استيطانية جديدة هى إسرائيل، التى مكنتها من استيطان فلسطين وطرد أهلها منها عام ١٩٤٨م

- هذه الدول ومعها إسرائيل -التى تتحكم بيهود أمريكا فى أمريكا- فوق القانون وفوق الشرعية الدولية، وفوق هيئة الأمم المتحدة، وفوق مجلس الأمن، وفوق رءوس العباد، ومن اعترض فالعقوبات الدولية جاهزة، ثم الضرب بالأسلحة الفتاكة ثم الاحتلال والإذلال، ولتذهب هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها الموقر إلى الجحيم!! ولتذهب مائة واثنان وتسعون دولة هى عدد أعضاء هيئة الأمم المتحدة إلى جحيم آخر، تعده لها هذه الدول الكبرى صاحبة حق النقض!!!

وبعد: فإذا كنا نـحن المسلمين نعمل ما وسعـنا على إيجاد وحدة ثقافيـة بين المسلمين، للوصول من خلالها إلى الوحدة الإسلامية رغبة منا فى رفع الظلم والعدوان والاحتلال عن بلادنا، فإننا بالقطع نرفض من صـميمنا، بل من نصوص ديننا أى تمييـز عنصرى لما يترتب عليه من ظلم وعدوان، ولنا فى القـرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك أقوى دليل وأنصع برهان، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وروى أحـمد بسـنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ، أنه قـال: **«انظر فـإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله»**.

ونحن المسلميـن نؤكد أننا نرجو للعـالم كله تقاربًا ثقافـيًا يزيل عنه أى ظلم وأى تميـيز عنصرى، من ذلك الذى جرعت العالمَ كئوسه بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وإيطاليا ثم أمريكا وأخيرًا إسرائيل.

● إن العالم اليوم يعانى من طغيـان التميز العنصرى، ومن طغيان الدول المسـتوطنة الباغية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وأذناب أمريكا وأتباعها.

ما أحوج العـالم -وهذه ظروفه- أن ينادى بإنشاء هيئـة أمم جديدة بديلة عن الهيئـة القائمة الآن، لأنها فى الحق هيئة أمم كبيرة ذات سطوة وتميز متحدة ضد الدول الفقيرة أو الضعيفة - وفى مقدمتها دول العالم الثالث- هيئة دولية جديدة، وفق مبادئ عادلة، أبرز هذه المبادئ:

- رفض منح حق الاعتراض على القرارات لأى دولة مهما كانت قوتها.
- ورفض ممارسة التميز العنصرى على أى صورة من صوره.
- ومنع إنتاج أسلحة الدمار الشامل.
- واحترام حق الدول فى تقرير مصيرها حقاً وصدقًا.
- ومنع احتلال دولة كبرى لدولة أخرى.
- ورفض أن تكون نيويورك مقـرًا دائمًا لهذه الهيـئة وإنما يكون المقر متغـيرًا كل عدد من السنين.
- وفرض احترام قراراتها على الجميع دون استثناء.

وتكوين مجلس الأمن الخاص بها دون تميز لعضوية دائمة لبعض الدول، أو توسيع تمثيله بحيث يعبر عن قارات العالم بالتساوى.

إلى غير ذلك من مبادئ تحقق مصالح الأعضاء جميعًا وليس مصالح كبار الأعضاء أصحاب الامتيازات.

هذا أو تنسحب دول العالم الثالث من هيئة الأمم المتحدة وتدعها لهؤلاء الكبار!!

وبعد: فهذا ما أردت قوله من وحدة الثقافة بوصفها من أنواع الوحدة بين المسلمين التى يستهدفها المجتمع الإسلامى.

ومن أنواع هذه الوحدة:

د- وحدة الاقتصاد والسياسة:

أصبح من الجلى الواضح فى عصرنا هذا -عصر التكتلات الاقتصادية- ما للاقتصاد من تأثير على الحياة الإنسانية عمومًا وعلى الحياة السياسية على وجه الخصوص؛ حتى ليصيح القول بأن الاقتصاد هو محرك السياسة وجاعلها فى خدمته.

● ونحن المسلمين عندما نعم النظر فى أسباب قوة الدولة الإسلامية أو الدول الإسلامية، نجد أن أهم أسباب ازدهارها وقدرتها على بناء حضارة إنسانية باذخة، أنه كان لها توحد اقتصادى أسهم بكل تأكيد فى قوتها.

- وعلى سبيل المثال فإن الدولة الإسلامية فى أوج اتساعها كانت من الناحية الاقتصادية كأنها دولة سياسية واحدة، من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، حيث لم يكن يعيق الحركة الاقتصادية فى هذه الأرجاء الواسعة عائق مادى أو معنوى.

- وكان هذا الترابط الاقتصادى بين الدول الإسلامية مظهرًا من مظاهر قوتها السياسية، ومن أسباب تيسير الحياة الاجتماعية فيها، وظل الأمر كذلك إلى أن تبدلت الأحوال وضعفت دولة المسلمين أو دولهم؛ لبعدهم عن التمسك بمنهج الإسلام ونظامه، فطمع فيها الأعداء، فاحتلوا كثيرًا من بلدانها واستوطنوها، وبدأ المسلمون يقاومون هؤلاء المحتلين بعد أن استفاقوا على صيحات المصلحين المجددين فتحررت بعض بلدانهم من مستوطنيها بعد مقاومة شديدة.

- ولقد أدرك الأعداء أن مقاومتهم وطردهم من بلاد المسلمين لا يدعمها ويقويها مثل وحدة المسلمين الاقتصادية والسياسية فأخذوا يضعون العراقيل فى طريق الوحدة الاقتصادية، ثم عمد الأعداء إلى ضرب دولة الوحدة الرمز دولة الخلافة العثمانية، فقضوا عليها، وتقاسموا أطرافها والبلدان التابعة لها، على نحو ما أوضحنا ذلك آنفًا[1].

---

(١) كان ذلك عند حديثنا عن الهدف الثانى من أهداف المجتمع الإسلامى حيث تحدثنا عن وجوب صيانة المجتمع الإسلامى من الأخطار الموجهة إليه من خارجه.

- وعندما نقول إن الاقتصاد أو المطامع الاقتصادية هى التى تحرك السياسة وخططها، وهى التى تجر إلى الحروب والصراعات على مدى التاريخ كله أو معظمه، فلم نجاوز الحقيقة فى شىء. يدرك هذا كل قارئ للتاريخ وكل متدبر فى أحداثه.

- وإن عصرنا هذا الذى نعيش أحداثه لأكبر دليل على أن عامل الاقتصاد غلب على كثير من عوامل تحريك السياسة؛ وذلك أن أكبر قوة شيوعية أو اشتراكية فى بدايات القرن العشرين الميلادى التى قامت على أنقاض الدولة الرومانية الشرقية، قامت على أفكار وغايات اقتصادية، زعمت فى البداية أنها لصالح الطبقات الكادحة ثم تبين أنها لصالح الحزب الأوحد الحاكم.

ولا نريد أن نطيل فى التدليل على صحة ما نقول من أن الاقتصاد يحرك السياسة، وإنما نكتفى بطرح عدد من الأسئلة السياسية، لا تكون الإجابة عنها إلا بأن الاقتصاد هو السبب.

ومن تلك الأسئلة:

- لماذا تحالفت دول الغرب والشرق على إضعاف دولة الخلافة العثمانية ثم إسقاطها؟

- ولماذا أسرعت الدول التى عملت على إسقاط دولة الخلافة على اقتسام البلدان التى كانت فى حوزة دولة الخلافة؟

- ولماذا كتبت الدول المعتدية بهذا التقسيم لبلدان الغير وثيقة سرية، تضمنت تفتيت العالم الإسلامى؟

- ولماذا خشيت الدول المعتدية من غدر بعضها ببعض، فتنازلت هنا ليُتَنازَل لها هناك؟

- ولماذا تحرك العالم ليخوض الحرب العالمية الأولى؟ ثم ليخوض الحرب العالمية الثانية؟

- ولماذا أصرت أمريكا على القضاء على الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين؟

- ولماذا احتلت بريطانيا جنوبى إفريقيا وغيرها من بلدان إفريقيا وآسيا وبخاصة الهند؟

- ولماذا احتلت فرنسا الجزائر ثم زعمت أنها أرض فرنسية؟

- ولماذا احتلت الدول الاستيطانية الأوروبية كإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا وألمانيا، تلك البلدان التى احتلتها وأساءت إلى مواطنيها تعذيبًا وقتلا وإبادة فى بعض الأحيان؟

- ولماذا احتل الاتحاد السوفيتى السابق البلدان الإسلامية فى أواسط آسيا والجمهوريات الست أذربيجان وكازاخستان وتركمانستان و . . . . . ؟

- ولماذا حاربت أمريكا فى فيتنام؟

- ولماذا تآمرت أمريكا ببعض أذنابها على كثير من دول أمريكا اللاتينية؟

- ولماذا حاربت أمريكا فى كوريا؟

- ولماذا احتلت أمريكا أفغانستان لتكون على مقربة من بحر قزوين أو نفط بحر قزوين؟

- ولماذا احتلت أمريكا العراق مستهينة بكل الأعراف الدولية وبكل مظاهرات قامت ضد هذه الحرب؟

● والجواب عن كل هذه الأسئلة وعلى عشرات مثلها معروف وهو الدوافع أو المطامع الاقتصادية.

هذا عن الاقتصاد وأثره السياسى فى حياة الناس بل عن أثره فى الحياة الاجتماعية بعامة، وأثره فى إثارة الحروب والصراعات، ما يستطيع أن ينكر ذلك إلا مكابر أو مغالط.

فهل يجوز بعد ذلك للأمة الإسلامية أو لدول العالم الإسلامى أن تتجاهل أثر الاقتصاد وخطره؟

وهل يجوز لها أن تهمل فى اقتصادها أو تتوانى عن العمل الجاد من أجل الوحدة الاقتصادية؟

- إن التمزق الذى فُرِض على الأمة الإسلامية، يحتم عليها أن تتلمس كل طريق للوحدة، وأن تجعل الوحدة الاقتصادية فى مقدمات أسباب الوحدة.

- إن أعداء الأمة الإسلامية سيطروا على كثير من بلدان العالم الإسلامى اقتصاديًا، ثم حولوا ثرواتها إلى خزائنهم ومصارفهم، فتقووا بها، وزاد استبدادهم بنا وأصبحنا لهم فى التبعية كالعبيد.

وإن أحدًا لا يستطيع أبدًا أن يكذب ما أقول!!

ومع هذه المأساوية التى يعيشها العالم الإسلامى، فإن الخطوات التى اتخذتها بعض بلدان العالم الإسلامى فى طريق الوحدة الاقتصادية لا تكاد تذكر!!

- إن النفط الذى هو أهم مصادر الطاقة يستخرج معظمه على مستوى العالم من بلاد المسلمين، لكنه كله تحت سيطرة أعداء المسلمين سيطرة كاملة؛ استنباطا، وإنتاجًا ، وتصفية، وتصنيفًا وبيعًا وتسويقًا!!

فماذا على المسلمين أن يفعلوا فى نفطهم؟

إن دراسات اقتصادية وسياسية جادة يجب أن يقوم بها العلماء والخبراء، ليقترحوا فى النفط مقترحات تجعله سلعة أو خدمة فى أيدى المسلمين.

على هؤلاء العلماء والخبراء أن يدرسوا قضية النفط فى ضوء حقائق نذكر ببعضها فيما يلى:

- أن كثيراً من بلدان المسلمين تحتاج إلى النفط فتشتريه من أعداء المسلمين الذين أخذوه بثمن بخس من المسلمين.
- وأن أثمان النفط التى تأخذها الدول الإسلامية بعد موافقة السيد الآمر الناهى فى شئون النفط تودع فى مصارف الأعداء أيضًا، وتحرم منها مصارف البلدان الإسلامية.
- وأن الشك مجرد الشك فى أن أموال النفط تتحول إلى أسلحة توجه ضد المسلمين، وتحتل بها بلادهم، الشك فى ذلك حماقة ما فوقها حماقة!
- وأن عدم اليقين من أن أموال النفط وأرباحه الهائلة التى تعود على الدول المسيطرة عليه، عدم اليقين بأن هذه الأموال تُدعم بها إسرائيل وتُسَلَّح لتقتل أطفالنا ونساءنا وشيوخنا فى فلسطين وفى العالم العربى وفى العالم الإسلامى؛ عدم اليقين من ذلك غباء ودليل على انغلاقٍ وتعطل فى التفكير!!
- إن هذه الظروف القاسية الحاكمة المتحكمة فى العالم الإسلامى كله؛ توجب على المسلمين أن يولوا موضوع الاقتصاد الأهمية التى يستحقها.

فماذا يفعل المسلمون فى هذه القضية؟

الذى نقترحه أن يقوم المسلمون بثلاثة أعمال متماسكة إذا تمت على وجهها أدت بإذن الله تعالى إلى قطع خطوات فى طريق الوحدة الاقتصادية.

هذه الأعمال -فى تصورنا المحدود- لأننا من غير أهل الاختصاص هى:

- التعاون الاقتصادى.

- والترابط والتساند الاقتصادى.

- وإنشاء المصارف الإسلامية.

فإذا تم هذا فإن الوحدة الاقتصادية تصبح قريبة بإذن الله تعالى.

ولنلق ضوءا على كل عمل من هذه الأعمال يكشف عن أبعاده ويشير إلى نتائجه، ونسأل الله التوفيق.

أولاً: التعاون الاقتصادى:

وهو عمل يمثل تمهيدًا وفرشًا لإصلاح أحوال المسلمين الاقتصادية، وهذا التعاون مطلب شرعى على البر والتقوى، وليس أبَرَّ من التعاون الاقتصادى بين المسلمين.

● ولهذا التعاون الاقتصادى -فى تصورى- خطوات نذكر منها:

أ- أن يكون وضع السياسة الاقتصادية فى أى بلد إسلامى بأيدى أبناء الأمة العلماء المتخصصين الملتزمين بمنهج الإسلام المؤمنين بقدرة الإسلام على حل جميع مشكلات الناس ومنها المشكلة الاقتصادية.

وهؤلاء العلماء الخبراء كثيرون بفضل الله، مما لابد أن يغنى عن الاستعانة بأجانب عن الإسلام يرسمون له خطط اقتصاده، وما نَتَّهم أحدًا، ولكن التجارب علمتنا أن معظم هؤلاء الأجانب لا يحبون للمسلمين الخير، ولا يخلصون لهم النصح، تعلمنا ذلك أولا من قول الله تعالى: ﴿ ..وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ.. ﴾ [آل عمران: ٧٣].

ثم خضنا التجارب مع هؤلاء الأجانب مستشارين وخبراء فرأينا أنهم لا يحبون لنا الخير، وربما أشاروا بما فيه شر!!

- وليس بمستغرب على من يعلمون أن معظم المشكلات الاقتصادية فى العالم الإسلامى اقترحها وخطط لها وصنعها عن تعمد خبراء أجانب عن المسلمين يعملون لصالح بلدانهم، وضد المسلمين لكنهم جميعًا يجيدون وضع السم فى العسل.

- وأن تكون معظم الخبرات الفنية وكل العمالة الفنية من أبناء البلاد دون الاستعانة بالأجانب فى بلاد المسلمين، وليس ذلك تحديًا لهم ولكنه احتياط وحذر تعلمناه من خبرة السنين التى عانينا فيها منهم، ولا نزال نعانى من خداعهم وإصرارهم على

كراهية المسلمين كأنهم قد رضعوها أطفالاً وشبوا عليها وشاخوا بها وتعلموها فى مدارسهم وطبقوها عمليًا من خلال مخططات حكوماتهم.

ب- وأن يكون اقتصاد كل بلد مسلم قائمًا على أموال من المسلمين الذين يجب أن تهيأ لهم أحسن ظروف الاستثمار فى البلدان الإسلامية، حتى يتشجع المسلمون على الاستثمار فى بلاد اسلامية.

مع رفض فكرة المشاركة بين رأس المال الخاص بالمسلمين ورأس المال الخاص بالأجانب عن المسلمين، وعدم الانخداع بكلامهم المعسول ووعودهم الكاذبة.

- وإن تكوين شركات عملاقة فى العالم الإسلامى برأس مال من المسلمين، لتقوم بجميع أنواع الاستثمار، وتدير المشروعات العملاقة التى تديرها شركات أجنبية، لهو خطوة فى الطريق الصحيح لتعاون اقتصادى يؤدى إلى وحدة اقتصادية.

- وإن كل خطوة تتخذ لإنقاذ النفط المستخرج من بلاد المسلمين؛من أيدى أعدائهم، تعاون اقتصادى على جانب كبير من الأهمية فى مجال الوحدة الاقتصادية، ثم السياسية.

غير أن ذلك التعاون يحتاج إلى حكومات مسلمة راشدة لها اهتماماتها بمستقبل البلاد مساويا لاهتمامها بكرسى السلطة، إن هذه الشركات تكون مصدر قوة لتلك الحكومات تساندها فى أى قرار تتخذه الحكومة ولا تجد له التأييد، فما بالنا إذا كان المؤيدون هم أصحاب الشركات وأصحاب رءوس الأموال؟

جـ- والخروج من دائرة الاحتياج إلى النقد الأجنبى -أى ما يسمى فى العالم الثالث، بالعملة الصعبة- فى عملياتها التجارية أو الزراعية أو الصناعية؛ لأن الاحتياج إلى النقد الأجنبى يحدث خللاً اقتصاديًا فى النقد المحلى، وما يترتب على ذلك من ارتفاع أسعار السلع والخدمات، وما يحدثه هذا من شعور الناس بالضيق لأن دخولهم لا تغطى احتياجاتهم فى حياتهم الاجتماعية.

- على أن البحث عن أسباب هذا الاحتياج للنقد الأجنبى ليست من موضوع هذا الكتاب، لأنها تحتاج إلى جهود ودراسات لا نستطيع القيام بها، لكننا على الرغم من ذلك نشير إلى رءوس هذه الأسباب مثل:

- انخفاض الإنتاج المحلى، وعجزه عن مواجهة الطلب فى السلع والخدمات، مع تدنى جودته إذا قورن بما يستورد ، وربما ارتفاع سعره عن نظيره.

- وزيادة حجم ما يُستورد عن حجم ما يُنتج محليًا فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وعن حجم ما يُصدر من سلع وخدمات.

- والخلل الموجود -فى كثير من بلدان العالم الإسلامى- فى سياسة الاستيراد، التى يختل لديها الميزان فى ترتيب أولويات هذه الاحتياجات من المستوردات.

- والعجز عن تطوير الصناعة والزراعة والتجارة، بحث تتوفر لها الجودة النوعية، والكم الملائم لتغطية الاحتياجات.

- وسوء ترتيب الأولويات فى مشروعات الإصلاح والاستصلاح التى تحتاج إليها البلاد، لأن معظم دراسات الجدوى لهذه المشروعات يقوم بها الأجانب وهم جميعًا يؤثرون المشروعات التى تحقق مصالحهم ومصالح بلادهم.

- والاحتياج إلى إنتاج الأسلحة الدفاعية المتطورة؛ لمواجهة العدو المستمر فى عدوانه على بلدان العالم الإسلامى، وذلك أمر بالغ الأهمية، يعد سببًا رئيسيًا من أسباب الاحتياج إلى النقد الأجنبى.

إلى غير ذلك من أسباب عديدة ليس هنا مجال البحث عنها أو تقصيها، وإنما يكفينا هذه الإشارات العابرة.

- وإذا كان الاحتياج إلى النقد الأجنبى يمثل مشكلة اقتصادية فإن التغلب على هذه المشكلة يجدى معه التعاون الاقتصادى؛ إلى أن تحدث الوحدة الاقتصادية أو الاتحاد، التعاون بين أصحاب الأموال، وأصحاب المصانع والشركات فى العالم الإسلامى، وبين الحكومات التى بيدها القرار والتى لا ترفض التعاون ما دامت حكومة.

- وكل حكومة تدعى أنها ترحب بهذا التعاون، ولكنه فى الغالب ترحيب إعلامى لا حقيقى بدليل عدم التقدم فى مجال التعاون الاقتصادى على النحو المطلوب، وبدليل أن كثيرًا من أصحاب الأموال والمستثمرين لا يرحبون بالاستثمار فى كثير من البلدان الإسلامية، بسبب سوء تصرف بعض هذه الحكومات ووقوعها تحت تأثير الشعارات الجوفاء[1].

---

(١) خاضت هذه التجربة الفاشلة كثير من حكومات الاستبداد فى العالم الإسلامى كالحكومات العسكرية والحكومات ذات أنظمة الحكم الشمولية والحزب الواحد، مثل مصر على عهد جمال عبدالناصر، وسوريا على عهد حافظ الأسد، والعراق على عهد صدام حسين، وليبيا فى نظام القذافى وتونس اليوم، ومعظم =

● وما لم تفتح الحكومات فى بلدان العالم الإسلامى صدرها وعقلها لهذا التعاون الاقتصادى مع أهل القدرة من رجال الأعمال فى العالم الإسلامى، مع توفير الأمن لهم ولأموالهم؛ فإن الاقتصاد فيها سوف يسير فى عكس الاتجاه الصحيح.

● وما لم تفق حكومات العالم الإسلامى على هذه الحقائق التى ذكرنا وتعمل على تلافى أسبابها، فإن الاقتصاد فى العالم الإسلامى لن تقوم له قائمة، وإن القلق والاضطراب والصراع مع هذه الحكومات وشعوبها لن يتوقف ولن يفضى إلى أى خير للحكومات أو الشعوب.

● وقد يكون الخروج من مأزق الاحتياج إلى النقد الأجنبى بوسائل عديدة تتصورها -ولكن الفصل فيها لأهل العلم والخبرة فى هذا المجال - مثل:

- زيادة الإنتاج وتجويده وتغطيته للاحتياجات.

- وتصدير ما يحتمل أن يفيض عن الحاجة.

- وتحرير الصناعة والزراعة والتجارة من نصائح الخبير الأجنبى ومن المال الأجنبى.

- ومحاولة أن يكون للمسلمين نقد موحد يسانده النقد المحلى فى البداية ثم يشتد وينمو فيصبح نقدًا إسلاميًا له شخصيته ومكانته فى مواجهة احتياجات المجتمع الإسلامى.

هذا عن التعاون الاقتصادى الذى يعتبر أحد الأعمال التى يجب أن يقوم بها المسلمون لكى يصلوا إلى الوحدة الاقتصادية، وهو كما قلنا خطوة أو خطوات على طريق الوحدة الاقتصادية ولكنه يحتاج إلى الترابط والتساند فى مجال الاقتصاد.

ثانيا: الترابط والتساند في الاقتصاد:

الترابط والتساند الاقتصاديان تسمية غير متداولة فى مصطلحات علم الاقتصاد[1]، لكنى رأيتها من حيث دلالتها ومضمونها الذى أريد، فهذا الترابط والتساند أقرب إلى أن يكونا

= بلدان العالم العربى، وكثير من بلدان العالم الإسلامى فى آسيا وإفريقيا، مما ترتب عليه تعويق النمو الاقتصادى والوقوع فى حبائل الديون الربوية، والقصور فى تنمية المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا وتخلفه زراعيًا وصناعيًا، وعلميًا وتربويًا، بدليل أن كثيرًا من هذه البلدان لا تزال تعيش تحت خط الفقر والأمية وانتشار الأمراض فيها!!

(١) ذكرنا من مصطلحات الاقتصاد أربعة وخمسين مصطلحًا، ليس من بينها الترابط أو التساند الاقتصادى - فى =

خطوة جيدة نحو وحدة اقتصادية إسلامية، تلغى فيها رسوم الجمارك بين البلدان الإسلامية، وتلغى قيود الملكية على التجارة، وتقرر فيها سياسة زراعية وصناعية مشتركة، وتتوفر فيها حرية التنقل للأفراد ورءوس الأموال، ويحدث فيها نوع من التنسيق بين السياسات النقدية فى البلدان الإسلامية.

- وفى تصورى أن الترابط والتساند بين بلدين أو أكثر من بلدان العالم الإسلامى خطوة جيدة تضاف إلى الخطوات التى يجب أن تتخذ فى الطريق إلى الوحدة الاقتصادية الإسلامية.

- ولقد تركت لنفسى وعقلى أن أحلم أو أتخيل هذه الوحدة الاقتصادية بين المسلمين، وسمحت لخيالى أن يحلق فى آفاقها لأعيش لحظات سعادة، فعلت ذلك مع علمى بأن هذه الوحدة دونها خرط القتاد، ودونها قطع الموحشات من الطرق والمخوفات من المخاطر، وكثير من العقبات التى بثها الأعداء ولا يزالون يبثونها، لاعتقادهم أن الوحدة الاقتصادية بين المسلمين نكبة اقتصادية لهم، لابد لهم من تحديها ومنعها من التحقق.

- وعلى الرغم من كل تلك العقبات فى طريق الوحدة الاقتصادية، فإنها طريق لا عدول عنه ولا استسلام للعقبات فيه، مهما طال الزمان وتعددت مراحل العمل وخطواته فيه، لأن الوحدة الاقتصادية أمل.

– ومن أجل ذلك كان اختيارى لهذا العنوان: «التعاون الاقتصادى» وكان اختيار كلمتى الترابط والتساند الاقتصادى بين بلدان العالم الإسلامى.

- وأعنى بالترابط الاقتصادى:

أن ينظر المسلمون إلى أقطار العالم الإسلامى على أنها شبكة مترابطة متماسكة، وليست أجزاء مفككة، بحيث لا يجوز تجاهل قطر من أقطار العالم الإسلامى مهما بدا صغيرا أو بعيدًا.

- وأعنى بالتساند الاقتصادى:

أن يعطى كلٌّ بلد إسلامى، لأى بلد إسلامى أولوية فى المساندة الاقتصادية التى تشير إلى مكانها الخريطة أو الشبكة التى تضم الأقطار التى يجب أن يتم بينها التساند الاقتصادى.

= كتابنا: التربية الاقتصادية الإسلامية -نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، وقد جعلنا ذلك الكتاب وهو أكثر من ثلاثمائة صفحة خطوة فى الطريق إلى الوحدة الاقتصادية بين دول العالم الإسلامى على اعتبار أن التربية فى كل مجال من مجالاتها هى نقطة البداية ثم تأتى من بعد ذلك أعمال المتخصصين من بحوث ودراسات.

- وأستطيع مطمئنًا أن أسبق الأحداث فأقول: إن هذا الترابط الاقتصادى وهذا التساند، واجب شرعى على كل بلد مسلم، انطلاقًا من قول الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن ابن عمرو رضى الله عنهما: «.... **وأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يردّ شدهم على مضعفهم ومسرعهم على قاعدهم...»**

- ولهذا الترابط الاقتصادى والتساند خطوات نذكر منها:

- عمل خريطة علمية[1] تبين الإمكانات الاقتصادية لكل بلد إسلامى، وما يتوفر فيه من مواد أولية، وما ينتج من سلع وخدمات، ومدى احتياجه إلى ما ينتج، وما حجم الفائض من هذه السلع والخدمات.

- وعمل خرطة أخرى لرصد الاحتياجات لكل بلد أو دولة إسلامية من فائض أقرب بلد أو دولة إليها، لتيسير النقل وخفض التكلفة.

- وهذه الخرائط هى خطوة أولية فى إحداث هذا الترابط الاقتصادى، ومن شأن ذلك أن يزداد العالم الإسلامى ترابطًا وتساندًا، ويحسب العالم الإسلامى فى هذا الترابط والتساند فائدة؛ أنه يجنب العالم الإسلامى استيراد السلع والخدمات من غير البلاد الإسلامية.

وذلك كله من شأنه أيضًا أن يجنب بلدان العالم الإسلامى التعامل بالربا، ويعزز التجارة البينية بين بلدان المسلمين ويعطى هذه التجارة ما تستحقه من الأهمية والأولوية.

- أما التساند فى مجال الاقتصاد فيعنى ما هو أكبر وأهم من الترابط، إذ يعنى أن يحدث تكامل بين الدول الإسلامية يؤدى إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى فى بلدان العالم الإسلامى وذلك يقتضى أمورًا على جانب كبير من الأهمية مثل:

- أن تكون المواد الأولية، والآليات التصنيعية، والعلماء والفنيون الذين يستعان بهم فى الإنتاج فى أى بلد إسلامى من المسلمين، حتى لا يحتاج إلى غير المسلمين- وعندئذ يقع المسلمون فى خلل اجتماعى وسياسى وثقافى فضلا عن الخلل الاقتصادى والقومى-.

---

(١) يعد هذه الخرائط متخصصون فى الجغرافيا الاقتصادية والاقتصاد والسياسة

- وتجنيب المسلمين الوقوع فى أخطار وضع ثقتهم فى غير أبناء دينهم حتى لو كانوا من أهل الكتاب، وقد أخبرنا القرآن الكريم بما يوصى به بعض أهل الكتاب بعضًا ضد المسلمين؛ ليكون المسلمون على حذَر منهم ومن مكرهم وإضمارهم الشر للمسلمين وصرفهم عن الدين الحق الذى ختم الله تعالى به الأديان، يفهم ذلك من قوله تعالى:

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[1] (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ... ﴾

[آل عمران: ٦٩-٧٣].

- وتجنيب المسلمين خطر الوقوع فى «الدونية» والإحساس بأنهم أقل من الأجانب، فهم حين يلجأون إلى علماء وخبراء من المسلمين يستعيدون ثقتهم فى أنفسهم.

ولقد قرأنا عن تصديق إخبار الله تعالى عن بعض أهل الكتاب وهم يكيدون للمسلمين على ألسنتهم عندما كتبوا يعترفون بأنهم ضللوا المسلمين وخدعوهم...

وبعد، فتلك كلمات وجيزة عن الترابط والتساند بين المسلمين اقتصاديًا، مما لو أخذ به المسلمون لخطوا خطوات فى طريق الوحدة الاقتصادية.

لكن هذه الوحدة الاقتصادية تحتاج دائمًا إلى مصارف إسلامية لا تتعامل بالربا، وتلك خطوة أيضا فى الطريق إلى الوحدة الاقتصادية.

ثالثًا: إنشاء المصارف الإسلامية:

أهم فرق بين المصارف الإسلامية والمصارف الأخرى هو أن المصارف الإسلامية لا تتعامل بالربا على أى وجه من وجوه التعامل، وذلك أن فى الربا إهدارًا لحقوق الإنسان، وفى تحريمه احترام وتقدير لإنسانية الإنسان.

- وقد يقول بعض الناس الذين ألفوا المصارف الربوية التى وفدت على المسلمين من الغرب أو من يهود الغرب: إنه لا يمكن للمصرف أن يؤدى مهامه إلا بالفوائد أو بالربا، ووراء هذا القول - فى تصورنا - سببان:

---

(١) أى ينصرفون عن دينهم.

أولهما: جهل هؤلاء القائلين بالمصارف الإسلامية.

والآخر: ضعف التزامهم بالدين؛ مـا أحل الله وما حرم، مع ضعف الدولة فى إلزامهم بمبادئ الإسلام.

- وعند التحليل والتـدقيق نجد أن المصـارف الإسلامية تسـتطيع أن تؤدى الوظائف المنوطة بها، وتنجح فى ذلك، وتؤمن المجتـمع أفرادًا وجماعات وحكومة من غـير أن تلجأ إلى الربا، وذلك ما أكده علمـاء الاقتصاد المسلمين منذ مـا يقرب من نصف قرن أو يزيد من وقتنا هذا، قضى نحبه منهم فريق، ولا يزال فريق يتزايد عدده مع الأيام حتى يومنا هذا، وقد كتـبوا فى ذلك البحوث والدراسـات، وتخَرَّج على أيدى كثيـر منهم علماء يؤمنون بتحريم الربا وتجريمه ويعرفون للمصارف الإسلامية قدرها[1].

- وإن الوظائف الأسـاسية التى تـؤديها المصارف دون إخـلال بشرع الله بالوقـوع فى الربا كثيرة، بسطت فى كتب هؤلاء العلماء الذين ذكرت وفى كتب غيرهم ممن لم أذكر، ومن هذه الوظائف أو الأعمال:

- تحول النقود من مكان إلى آخر بأمان - نظير أجر.
- والاحتفاظ بالنفائس والمقتنيات الثمينة - نظير أجر.
- وبيع أسهم الشركات بالوكالة عنها.
- وإصدار سندات الاعتماد و«الشيكات» ونحوها.
- وتمويل المشروعات الصناعية والزراعية والتجارية ونحوها.
- وإصدار الأوراق المالية المتداولة بين الناس.

---

(١) من هؤلاء العلماء ممن رحلوا - رحمهم الله:

أ- الدكتور عيسى عبده. ب- والدكتور محمود أبو السعود.

جـ- والشيخ أبو الأعلى المودودى. د- والشيخ محمد أبو زهرة.

هـ والدكتور محمد البهى. و- والشيخ محمد الغزالى.

ز- والشيخ محمد متولى الشعراوى.

وغيـر هؤلاء كثير من عـلماء الإسلام وعلماء الاقـتصاد ومنهم من لا يزالون عـلى قيد الحيـاة - مدّ الله فى أعمارهم وباركهم مثل: أ- الدكتور عبدالحميد الغزالى. ب- والدكتور حسين شحاتة. ومن قَبلهما الأستاذ محمد عبدالله الخولى الذى حاربه اليهود، فذهب إلى ألمانيـا، أو دُعى إليها للاستفادة، من علمه وخبرته وغيرهم كثيرون ممن يصعب استقصاء أسمائهم فى هذا الهامش من الكتاب.

- وتيسير التعامل فى البلدان الخارجية.

هذه الوظائف يمكن أن تؤديها المصارف الإسلامية نظير أجور يتفق عليها دون الوقوع فى حمأة الربا.

● على أن المصارف الإسلامية يمكن أن تعمل وتحقق أرباحًا أحلها الله فى مجالات عديدة منها:

- أن تقوم بجمع أموال الزكاة وفق شروطها من الراغبين فى ذلك ثم توزعها على مستحقيها، ولها عندئذ أجر أحله الله هو أجر العاملين عليها[1]، فإن بقى فى المصرف شىء من أموال الزكاة بعد توزيعها على مستحقيها الثمانية، استطاع المصرف أن يستثمر هذه الأموال فى تجارة أو صناعة أو زراعة أو نحوها، ويجعل ذلك لصالح المستحقين وفق نظام دقيق يعده الخبراء.

- ويستطيع المصرف الإسلامى أن يستثمر الأموال المودعة لديه فى مشروعات تعود على المجتمع كله بالنفع ودفع الحاجة وينظم فى هذا العمل حقوق المودعين وحقوق المصرف.

- ويمكن أن يمول مشروعًا يقوم به فرد أو جماعة بنظام المشاركة أو المرابحة أو المضاربة، وكلها أنظمة لا تدخل فيها الربا.

- ويستطيع المصرف الإسلامى أن يقدم لمن يحتاج قرضًا حسنًا دون ربا فى ظل ظروف عادلة أقرها الإسلام بل نَدَب إليها لدفع الحاجة عن المحتاجين.

● وما حرّم الله تعالى الربا إلا لعلمه سبحانه وتعالى بأن للربا آثارًا مدمرة للفرد وللمجتمع، وللعلاقات الاجتماعية بين الناس، لذلك، كان الربا حرامًا أخذًا وعطاء وكتابة وشهادة بل هو جريمة فى حق المجتمع.

ولسنا بصدد الحديث عن مضارّ الربا وسيىء آثاره، ولكننا نؤكد أن إلغاء الربا وتحريمه وتجريمه سوف يعود على المجتمع أفرادًا وجماعات ومؤسسات وحكومات، بأقصى درجات الاستقرار الاجتماعى، والأمن والأمان.

● ومما هو جدير بأن يلحظ أن التفكير فى إنشاء مصرف إسلامى محلى أو دولى عمل جليل القدر عظيم الأثر فى دعم الوحدة الاقتصادية بين المسلمين.

---

(١) نرجو أن يوجد فى كل بلد إسلامى وزارة تسمى وزارة الزكاة تتولى جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، فذلك من صميم أعمال الحكومة المسلمة.

• ومن أجل أهمية المصرف الإسلامى فى الوصول إلى الوحدة الاقتصادية بين المسلمين، فإن حرب هذه الفكرة لابد أن تكون ضارية، حتى لا يدخل المصرف الإسلامى حيز التنفيذ، ولابد أن يتهم الذين يفكرون فيه أو المحاولون لتطبيقه بسيل من الاتهامات تبدأ بتجهيلهم ثم تشويههم وقد تنتهى بتهمة أنهم يعادون السامية أو يمارسون الإرهاب والعنف ضد أمريكا!!

وسلسلة الاتهامات لكل من يعمل من أجل الإسلام تكاد تكون محفوظة، تعودنا أن نقرأها وأن نسمعها من وسائل الإعلام وهى:

- إتهام المنادين أو العاملين على إنشاء المصارف الإسلامية بأنهم يتجاهلون الواقع الذى يعيشه المجتمع، الذى لا يستطيع الاستغناء عن الربا، وما يرتب على ذلك من اتهامهم بالجهل والتخلف والرجعية والانغلاق على الذات!!

- واتهامهم بالتعصب لدينهم، مع أنهم يعيشون فى عصر يجب أن تتراجع فيه الأديان عن تنظيم الحياة، مُتيحةً ذلك للعلمانية التى تعزل الدين عن الحياة.

- واتهامهم بالتطرف، وأنهم أصحاب نزعات نكوصية تتحدى الحداثة وكل جديد، والفوائد الربوية عندهم هى الجديد الذى يحل المشكلات الاقتصادية.

- واتهامهم بالعنف والإرهاب، وادعاؤهم أن إلغاء الربا سوف يثير فتنة فى المجتمع وصراعًا بين الطبقات وتمييزًا عنصريًا يتناقض مع «الديموقراطية» وقبول الآخر والتعامل معه بالربا.

- واتهام المصارف الإسلامية بأنها سوف تمول الإرهاب والعنف، وتعادى «السامية» و«العم سام» والرجل الأبيض عمومًا، وكل ذلك من المآخذ التى تؤخذ على الإسلام لأنه يحرم الربا!!

• وقد لا يصدق بعض الناس هذه الاتهامات التى توجه إلى من يفكرون فى المصارف الإسلامية أو يعملون على إنشائها، أو قد يندهشون من هذا الذى أقول!!

ولهم الحق فى ذلك، ولكن لنا الحق فى أن نذكرهم بأن الغرب يأتى بما هو أغرب من ذلك فى عدائه للعرب وللمسلمين؛ فهم يصنفون العرب والمسلمين إرهابيين متعصبين متطرفين لأنهم يكرهون إسرائيل ويرفضون احتلالهم لفلسطين، ويردون على الدبابات والطائرات والصواريخ بالحجارة وبأجسادهم، ولأنهم يكرهون أمريكا التى احتلت أفغانستان والعراق وعذبت أهلهما بمثل ما تعذب إسرائيل الفلسطينيين.

وما المصارف الإسلامية التى لا تتعامل بالربا إلا عداء لليهود الذين اخترعوا الربا!!

● ألا ما أكثر المغالطات والمغالطين، والتضليلات والمضللين فى هذا الزمن الذى تسوده الإدارة الأمريكية التى فاقت مسيلمة الكذاب فى الكذب والخداع وأجْلته عن موقعه فى الجزيرة العربية وعن زمانه، لتعود به إلى هذا الزمان وهذا المكان.

إن الحكومة الأمريكية اليوم مثال حى للتضليل والخداع وقلب الحقائق، ومع ذلك فلا ينبغى أن تكره أو تعاب!!

هـ- ووحدة القوة العسكرية:

نعنى بذلك الجيوش الإسلامية لحماية بلدان العالم الإسلامى ضد كل عدو متربص أو معتد أو محتل لبلد إسلامى.

وهذه الجيوش قوة للمسلمين جميعا تؤمن البلاد من كل فتنة يثيرها أعداء الإسلام، ومن كل ثورة يحركها هؤلاء الأعداء.

● وإعداد هذه القوة العسكرية مطلب شرعى، لأن تعالى أمر المسلمين بأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة، وحدد الله تعالى الهدف من إعداد هذه القوة وهو إرهاب العدو مسبقًا حتى لا يشن عدوانه على بلد مستعد.

قال الله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾** [الأنفال: ٦٠].

وفى هذه الآية الكريمة إشارات دالة وتعليم وتوعية فى كثير من أمور مواجهة العدو، وعلى سبيل المثال:

- وجوب إعداد القوة لمواجهة الأعداء **﴿وَأَعِدُّوا...﴾**.
- ووجوب أن تكون القوة المعدة ملائمة لقوة العدو أو متفوقة عليها **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم...﴾** أى للأعداء.
- ووجوب بذل جميع ما فى الوسع دون تقصير **﴿... مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾**.

- وتحديد الهدف من هذا الإعداد، وهو إرهاب العدو حتى لا يقبل على مهاجمة المسلمين ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾.

أى خذوا من وسائل الإعداد والقوة ما إن سمع به العدو تردد أو انصرف عن مهاجمتكم وفُتَّ فى عضده.

- وإشارة إلى تنوع الأعداء الذين يهاجمون المسلمين، وهم:

- أعداء الله من المشركين والكافرين الذين ينكرون الدين الحق الذى ختم الله به الأديان وأمر جميع خلقه بالدخول فيه مهما كانوا على دين آخر.
- وأعداء المسلمين الطامعين فيهم الراغبين فى فتنتهم وصرفهم عن دينهم أو الطامعين فى خيرات بلاد المسلمين.
- وأعداء لا تعرفونهم اليوم وإنما يعلمهم الله تعالى، فأعدوا لهم أيضًا فهم على وشك أن يهاجموكم.

- ووجوب الإنفاق فى سبيل الله أى هذه الحرب التى قد تُشن عليكم ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾.

وكلمة ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيها دلالة على أن الإنفاق فى هذه الحرب لا يشترط أن يكون مالا فحسب وإنما يكون بكل شىء يخدم أهداف هذه الحرب كالإنفاق من العلم ومن الكلام والحيلة والدعاية، وكل ما من شأنه أن يفيد الحرب ويحقق أهدافها، أو يرد العدو عن خوض هذه الحرب.

- ولا يكون الإنفاق فى سبيل الله فى هذه الحرب إلا مع اعتبار أمور مهمة تسهم فى تحقيق النصر وتعد من أسبابه مثل:

- أن يعد هذه القوة خبراء وعلماء وقادة جيوش من المسلمين لا يشاركهم فى ذلك غير مسلم مهما ادعى الولاء للمسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣] فهؤلاء إن شاركوا فى الإعداد للحرب اخترقوا خطط المسلمين وعرفوا طبيعة أسلحتهم وكمها ونوعها، بل عرفوا الأسرار العسكرية للمسلمين، وهذا كله لا يجوز.

- وعلى هؤلاء العلماء والخبراء والقادة أن يعدوا أقوى الأسلحة وأفتكها وأقدرها على مواجهة العدو نوعًا،وكمًا.

- وإعداد الجند المقاتلين أصحاب العقيدة والمبدأ الذين يوقنون بأن الجهاد فى سبيل الله عبادة فى ذروة العبادات، وأن الموت فى سبيل الله هى إحدى الحسنيين إذا لم يتحقق النصر على الأعداء، الجنود المؤمنين الذاهبين إلى الجهاد برغبة منهم، وليس بإجبار أو خوف من طائلة القانون.

- وإعداد القادة العسكريين الأكفاء المخلصين الذين يجيدون القيادة، ويحسنون وضع الخطط القتالية المبنية على علم بظروف العدو وأسلحته ورجاله، وهدف العدو من خوض هذه الحروب.

وأن يكون هؤلاء القادة قد وَعَّوْا جنودهم بهدف هذه الحرب، وزودوهم بكل ما يلزمهم من معلومات عن أعدائهم، وشوقوهم إلى المعركة، وربطوا لهم بين المعركة وبين طاعة الله تعالى وعبادته.

وعليهم أن يكونوا قدوة لجنودهم فى الشجاعة والإقدام، وفى الطاعة والالتزام، وفى الصبر على احتمال ما فى الحرب من متاعب وآلام، وأن يكونوا قدوة لهم فى احتساب كل ذلك عند الله تعالى، وأن يعلموهم أن هذه المعركة محسومة بإحدى الحسنيين، النصر على العدو أو الشهادة فى سبيل الله تعالى.

- وأن يكون صنع السلاح وإنتاجه فى البلدان الإسلامية، ولا بأس بتبادل الخبرات والمعلومات مع بلد إسلامى مع وجوب الثقة فى حكامه وحكومته كى لا يكون العدو قد اخترق صفوفهم فكانت له عيون فيهم.

- وعلى الحكومة المسلمة أن تحسن إعداد القادة والجنود إعدادًا دينيًا وثقافيًا ووطنيًا، وسياسيا، حتى يخوضوا المعركة وهم يعرفون أهدافهم ويعرفون الوسائل التى تحقق هذه الأهداف.

- وأن تتولى الحكومة تأمين الاحتياجات المالية، وكافة أنواع الإمداد للمقاتلين وعونهم ومساندتهم، وإقناع عامة الناس بتأييدهم وأن يكونوا لهم صفًا ثانيًا، وسائر هذه الأمور الفنية التى يتولاها الخبراء.

- والإعداد ذو الصلة بأجهزة المخابرات العسكرية وغيرها من الأجهزة التى تتولى عن علم ومعرفة ودقة معرفة ظروف الأعداء من حيث تسلحهم وأعدادهم وخططهم.. إلى غير ذلك مما يعرفه أهل الاختصاص فى هذا المجال.

- والإعداد العام للمواطنين لإقناعهم بخوض هذه الحرب والتفاعل مع مجرياتها، والاستجابة لكافة متطلباتها ومساندتها، والتضحية فى سبيلها واعتبارها حربًا يخوضها الوطن كله وليس الجيش قادة وجنودًا.

- والإعداد العلمى المدروس للجنود بل وللقادة لتقبل طول فترة الحرب، وتحمل أعبائها وتضحياتها، لأنهم أبناء الوطن الذين تفرغوا من بين أبنائه للدفاع عنه، ورد أعدائه على أعقابهم مذمومين مدحورين.

- ولابد من التنسيق بين الجيوش الإسلامية فى البلدان الإسلامية، فهذا التنسيق خطوة هامة من خطوات وحدة القوة الإسلامية وجيوش المسلمين، لأن معركة المسلمين واحدة مهما اختار العدو أرضًا إسلامية بعينها ليهاجمها، فالمسلمون جميعًا أمة واحدة وعدوهم واحد، وأهدافهم فى قتال أعدائهم واحدة.

وهذا التنسيق يحدد أبعاده ومداه وأنواعه وظروفه وملابساته ومجالاته الخبراء من القادة العسكريين، على أن يدعمهم القادة السياسيون والاقتصاديون والاجتماعيون كل فيما يستطيع أن يدعم به.

هكذا تكون القوة العسكرية الموحدة بين المسلمين درعًا واقية للبلاد من كل عدوان يقع عليها من خارج البلاد، لأن تلك وظيفة الجيوش منذ عرفت الإنسانية توظيف الجيوش فى تحقيق أهدافها.

- أما ما صنعه بعض القادة العسكريين فى بعض بلدان العالم الإسلامى من إقحام الجيوش فى المحافظة على أمن الحكام فإن ذلك من الخطأ الفادح، وأما اتخاذ قضاة عسكريين ليحاكموا مدنيين فذلك خطأ أفدح، لأنه تمزيق للأمة وبذر لأسباب المعاداة بين أبنائها[1].

---

(١) من أشهر الحكام العسكريين الذين ارتكبوا هذه الأخطاء الفادحة، قادة الثورات العسكرية معظمهم، وبعض الغافلين من الملوك والرؤساء الذين يشعرون أن أنظمة حكمهم تحتاج إلى جيوش عسكرية لتعيش!!!

● ووحدة الجيــوش الإسلامية لا تتم على وجـهها ولا تحقق أهدافـها إلا إن كانت متـفرغة لقتال الأعداء لتعزيز الأمن الخارجى للبلاد.

● أما قـوة الأمن الداخلى فى العالم الإسلامى فلهـا مهام مـختلفة وملائمـة لها ولطبيـعة تكوينها ووظائفها فى المجتمع؛ والدولة المـسلمة فى حاجة ملحة إلى هذا النوع من قوات الأمن الداخلى، بحيث لا تـستغنى دولة عنهـا بحال من الأحوال؛ إذ هى صـمام الأمن للمجـتمع بوصفهـا السلطة التنفيذية التى يناط بهـا تطبيق القوانين وتنفـيذ الأحكام التى يصدرها القـضاة، كـما أنها العـين الساهرة التى تحـفظ على الناس أمنهم نحو أنفـسهم وذويهم وأعراضهم وأعمالهم.

والسلطة القـضائية مع السـلطة التنفيـذية تعين كل منهـما الأخرى على أداء وظيـفتـها؛ فالسلطة القضائية بغير سلطة تنفيذية تصدر أحكامًا غير مشمولة بالنفاذ، مما يفقدها هدفها من الردع والزجر والعـقاب، والسـلطة التنفيذية بغـير سلطة قضائية لا تسـتطيع أن تحقق العدالة، وإنما تقع لعدم اختصاصها فى كثير من التجاوزات.

وهذه القوات التى تحـمى الأمن الداخلى للبلاد وتسهر علـى تحقيقه، لابد لـها من إعداد جيد يأخذ في اعتباره عددًا من الأمـور التى يجب تحقيقها فى قوات الأمن الداخلى، من هذه الأمور:

- حسن اختـيار قادة هذه القوات من حيث تدينهم وأخلاقـهم وبيئتهم الاجتمـاعية التى نشأوا فيها، بالإضافة إلى لياقتهم الصحية والنفسية والعقلية والثقافية والجسدية.

- وإعدادهم وتدريبهم أحـسن أنواع التدريب، مما يؤهلهم لأداء مهامهم، وبخـاصة أنها مهام محـفوفة بالمحاذير، والمخاطرة، على ألا يتدخل فى تعليـمهم ولا تدريبهم أجنبى عن المسلمين.

- ومـواصلة تدريبهم بعـد تسلمـهم وظائفهم، لأن كل إنـسان فى حـاجة إلى التـعليم والتدريب مادام يعيش ويمارس وظيفته فى الحياة.

- وحسن اختيـار جنود هذه القوات وفق المعايير التى يضعها أهل الخـبرة والاختصاص، وبخاصة ما يتصل بالتدين والأخلاق، واللياقة البدنية والنفسية والعقلية والفنية.

- وتدريب هؤلاء الجنود على كل مـا يعينهم على أداء مهـامهم من أعـمال، وفق خطة يضعهـا الخبراء والمختـصون، ويدخل فيهـا ما يتصل بعلاقـتهم بقيادتهم، ومـا يتصل بعلاقتهم بالمواطنين.

- وتربيتهم جميعًا تربية أمنية تعرفهم بواجباتهم وتحدد لهم حقوقهم فى المجتمع، وتحظر عليهم حظرًا تامًا أى تجاوزات فى التعامل مع المواطنين، وهى تجاوزات تكثر فى دول العالم الثالث وفى كثير من بلدان العالم الإسلامى.

- وتزويدهم بما يلائم مهامهم من الأسلحة والآليات والوسائل حتى يستطيعوا أداء وظائفهم بمهارة واقتدار.

- واستمرار توعيتهم قادة وجنودًا بواجباتهم إزاء أى أحداث تقع فى البلاد، من أى عمل يخل بالأمن الداخلى أو يهدد الناس فى مصالحهم.

- ولابد من التنسيق بين قوات الأمن الداخلى على مستوى بلدان العالم الإسلامى تنسيقًا يضيق الخناق على المجرمين ويمكن من ملاحقتهم لتقديمهم إلى القضاء أو لتنفيذ ما صدر عليهم من أحكام، ثم لاذوا بالفرار.

- ومن المؤكد أنه ليس لأى من قوات الأمن الداخلى أو الخارجى فى البلاد من تأثير أو فاعلية إلا إن توحدت قوات الأمن الداخلى فى العالم الإسلامى كله، وكذلك الأمر فى قوات الأمن الخارجى للبلاد أيضًا على مستوى العالم الإسلامى.

- مع ضرورة معرفة أن عدو العالم الإسلامى من مستوطنين قدامى أو جدد، أو ذلك الكيان الوحشى إسرائيل، لن يرضوا بتوحد المسلمين فى قوتهم العسكرية، بل لابد من وضع العقبات والعراقيل.

غير أن المسلمين يجب أن يصروا على وحدة القوة العسكرية إن لم يكن اليوم فغدًا، وإن غدًا لناظره قريب، مع اختيار أنسب الأساليب وأحدث أنواع التقنية التى تمكن المسلمين من شق الطريق إلى الوحدة العسكرية لكى يعيشوا فى أمان من هؤلاء الأعداء الضراة الطغاة الطامعين المستوطنين لأوطاننا المحتلين لعدد من بلادنا بقوة البطش والعدوان.

إنه صراع بيننا أصحاب الحق والأرض وبينهم أهل الباطل والعدوان، والنصر قد كتبه لأصحاب الحق الذين يحسنون ما يعملون ويصبرون على ما يعانون ويحتسبون عند الله أجورهم فيما يعانون، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

و- ووحدة السياسة الخارجية:

ربما كان هذا المطلب أصعب مطالب الوحدة بين المسلمين وأشق أنواعها، لأن الأعداء للعالم الإسلامى يقعدون لوحدة السياسة الخارجية بين المسلمين بكل مرصد، ويتعقبون كل

خطوة، ويضعون أمامها ما استطاعوا من عراقيل، ويهددون ويتوعدون وينذرون ويحذرون، ويخشون ويخافون ثم يعتدون ويبطشون ويحتلون البلاد بجيوشهم الجرارة المسلحة بالأسلحة المحرمة دوليًا، كما فعلوا في كثير من بلدان العالم الإسلامي من أقصى شرقه إلى أقصى غربه، وكما فعلوا في فلسطين وأفغانستان والعراق، وكما يفعلون في السودان وكما سيفعلون في سوريا ولبنان وإيران!!!

- إن المطلب الملحّ لصالح الأمة الإسلامية أن تتم وحدة السياسة الخارجية للعالم الإسلامي على الرغم من العوائق والعراقيل، إنها لبراعة وحنكة وبعد نظر وتوفيق من الله تعالى أن تتم هذه الوحدة، ما دام هناك إصرار، وخطوات ثابتة مدروسة لا يصرف عنها صارف من عدو مهما أوتي من حول أو حيلة، مادام هناك إخلاص وتجرد وكف عن الضجيج والصخب، والدعاية والدعاوى.

إن العمل الدائب يحتاج إلى تفكير وتدبير وصمت، وذكاء كما يحتاج إلى دهاء ومداراة لكل من يحاول أن يصرف صاحبه عن إتمامه.

- وليس القصد من وحدة السياسة الخارجية أن تكون وحدة سياسية ودولة واحدة - وإن كان ذلك أملاً بل رجاء - وإنما المقصود بوحدة ولاء بعضهم لبعض، وألا توالي دولة مسلمة دولة تعادي دولة مسلمة، وهذا في حد ذاته يعد خطوة كبرى نحو وحدة سياسية شاملة.

هذه الوحدة أو التوحد في السياسة الخارجية لها متطلبات عديدة نعدها من شروط الصحة؛ منها:

١- إزالة الخلافات القائمة بين أي دولتين من دول العالم الإسلامي، وفق مبدأ أن يتنازل كل طرف عما لا يتنازل عنه عادة؛ لأن ترك الخلاف دون إزالة يعني دعمه وتعميقه، وإعطاء فرصة للعدو -حتى وإن لبس ثوب صديق- أن ينصح بمعسول الكلام الذي قد يؤدي إلى توسيع الخلاف وتفاقمه، مما يؤدي بل يباعد بين المسلمين وبين وحدة السياسة الخارجية.

٢- واحترام الدستور والقانون في أي بلد مسلم طالما هو غير مخالف للقرآن الكريم والسنة المطهرة، وغير متعارض مع قيم الإسلام ومبادئه، التي يجب أن تكون هي حاكمة المجتمع المسلم.

● والناس قد اعتادوا أن يسموا عدم احترام الدستور أو القانون فى بلدٍ من بلدٍ أجنبى، تدخلاً فى الشئون الداخلية فى البلد التى لم يحترم دستورها وقانونها.

والمطلوب من أى دولة مسلمة ألا تتدخل فى شئون دولة مسلمة أخرى، مادامت هذه الدولة لا تخالف صريح الكتاب والسنة ومادامت لا تجاهر بمعصية الله ورسوله ﷺ، وما دامت لا تؤيد دولة غير مسلمة على دولة مسلمة.

٣- وأن تراعى كل دولة مسلمة فيما تعقده من اتفاقيات، وعهود، ومواثيق مع أى دولة، ألا يكون فى ذلك إضرار بدولة مسلمة؛ لأن ذلك حق للمسلم على أخيه المسلم عمومًا.

ومن المسلَّم به أن عدو الإسلام والمسلمين لن ينفذ إلى تفريق كلمة المسلمين وتمزيق صفهم إلا من خلال تلك الاتفاقيات والعهود وأمثالها.

وهذه المراعاة لدولة مسلمة فيها تعزيز وتعضيد للولاء بين المسلمين عمومًا وبين دولهم على وجه الخصوص.

٤- وأن يكون هناك تنسيق لمواقف الدول الإسلامية فى المحافل والهيئات الدولية، تنسيق يؤدى إلى تكوين رأى موحد إزاء القضايا والمسائل المطروحة على تلك الهيئات لأن ترك أى خلاف أو اختلاف يُعد ثغرة ينفذ منها العدو إلى توسيع شقة الخلاف.

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى فى تاريخنا؛ فقد نصح المستشارون الإنجليز والفرنسيون والأمريكان حكومات كثيرة فى عالمنا العربى أو الإسلامى بنصائح أفسدت العلاقات بين هذه الحكومات وحكومات عربية أو إسلامية كثيرة، بل نستطيع القول بأنه ما من علاقة فسدت بين بلدين عربيين أو إسلاميين إلا كان وراء ذلك مشورة من هؤلاء!!

إن الخلافات بين بعض الدول العربية لابد أن يكون وراءها مشورة أجنبية، وتبريرات لتعميق الخلافات وتوسيعها حتى تدخل فى حروب أحيانًا، وصاحب المصلحة فى ذلك ليس العرب بكل تأكيد، وإنما المستغلون لما فى البلاد العربية من مقدرات اقتصادية عديدة.

ودليل صدق ذلك أن المستفيد من حرب العراق وعدوانها على الكويت هم الأجانب أولا وأخيرًا وحتى اليوم!!

من الذى أغرى غشوم العراق «صدامًا» بضرب الكويت واحتلالها؟

ومن الذى أخرجه منها وقبض الثمن؟ ثم من الذى بنى قواعد عسكرية فى الكويت ثم احتل العراق؟

وهكذا كل خلاف عربى عربى: بين اليمن والسعودية، وبين السعودية وقطر، وبين العراق -فى عهد صدام والأسد- وسوريا، وبين الأردن وسوريا، وبين ليبيا ومعظم البلدان العربية بل بينها وبين الجامعة العربية، وبين المغرب والجزائر، وما لا أحصى من هذه الخلافات.

من المستفيد من ذلك كله؟

وكذلك الشأن فى الخلافات بين الدول الإسلامية....

من الذى حرك الخلاف بين بنجلاديش وباكستان حتى حدث الانفصال؟

ومن الذى جر باكستان إلى حرب أفغانستان لتكون إلى جانب أمريكا وحلفائها؟

ومن الذى أغرى مشئوم العراق «صدامًا» بحرب إيران؟

ومن الذى غذاها بالمال والسلاح والخرائط؟

ومن الذى جعلها تستمر ثمانى سنوات؟

ومن الذى أجج الخلاف حول «كاشمير»؟

ومن الذى وراء حروب الجمهوريات الإسلامية التابعة لاتحاد روسيا؟

ومن وراء مذابح الشيشان؟

ومن الذى أجج الخلاف بين شمال نيجيريا وجنوبيها؟

ومن الذى عمل على فصل جنوب السودان عن شماله؟

ومن الذى يحاول الآن فصل غرب السودان «دارفور» عن السودان؟

ومن وراء جعل الصومال دويلات؟

بكل تأكيد ما استفاد من ذلك إلا الأجانب عن العرب وعن المسلمين، يدرك هذا كل متابع لهذه الخلافات.

ولا يمارى فيها إلا غافل، أو أجنبى يعيش بيننا وهو عربى أو مسلم، ولكن تفكيره وتكوينه الثقافى أجنبى عنا.

ليس عجيبًا أن يكون بيننا متأمركون ومتفرنسون ومتأنجليزون أكثر من أهل تلك البلاد التى ينتسبون إليها فكرًا وثقافة، وإلا فماذا تفعل الثقافة الأجنبية والمدارس والجامعات الأجنبية فى العالمين العربى والإسلامى؟

لقد صرحت بريطانيا -أعرق المستوطنين لبلدان العالمين العربى والإسلامى- بذلك فى كلمة ذائعة لأحد ساستهم عندما قال: «لو خرجنا من مصر والهند، فسوف يظل لنا جنود يمثلون فكرنا ويلبسون الطربوش فى مصر، والسارى فى الهند».

وهؤلاء الذين يفكرون كالأجانب عنا أصبح كثير منهم اليوم أمراء ورؤساء وملوكًا يحكمون كثيرًا من بلدان العالم الإسلامى كما يحلو لأعدائنا أن تحكم بلادنا.

وليست بريطانيا بدعًا بين الدول الأجنبية المعارضة للعرب بل المعادية للعرب والمسلمين، وإنما أشبهتها فى ذلك دول كثيرة كفرنسا وألمانيا وأمريكا، وماكان يعرف بالاتحاد السوفيتى الذى سقط سقوطًا مدويًا بأيدى بُناته، ومع ذلك ترك فى عالمنا العربى من لا يزالون شيوعيين أو اشتراكيين أو يساريين!!

٥- وأن ترفض الدول الإسلامية سياسة التكتلات فيما بينها لأن فى هذه التكتلات تصعيبًا لأمر الوحدة، بل ضرب لها فى صميمها.

ومهما يكن لهذه التكتلات من مبررات لدى من يتكتلون فإن ضرر التكتلات أكبر من نفعها، وحسبها شرًا أنها تعمى بعض الدول الإسلامية عن مصالح المسلمين عامة لكى يحققوا مصالحهم المحلية أو الإقليمية.

إن سياسة التكتلات وراءها دعم وتأييد ومشورات من الدول المعادية للإسلام والمسلمين.

● ومن هذه التكتلات التى تنطوى على ضرب الوحدة بين المسلمين وهى -من أجل ذلك بغيضة إلى كل مسلم-:

- تكتل دول الخليج العربية.
- وتكتل دول المغرب العربية.
- والتكتل الإفريقى الذى خرج به القذافى على الجامعة العربية.
- وربما كان لتكتل العرب فى إطار الجامعة العربية -وهو تكتل بغيض أيضًا- مبرر فى الوقوف فى وجه إسرائيل التى اغتصبت فلسطين وطردت منها أهلها،

وقوفًا ضعيفًا لم يستطع أن يسترد منها فلسطين، وإنما كان قصاراه الاتفاق الظاهرى على مقاطعة إسرائيل!!!

ولو كان التكتل إسلاميًا لكان غوث الفلسطينيين أكبر وأسرع؛ ولكن العدو يقف بالمرصاد لكل تكتل إسلامى، فيضربه بيد أبنائه لابسى قبعات الثقافات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية والروسية والألمانية وغيرها!!

إن هذه التيارات والتكتلات غير الإسلامية هى التى تعبث بعقول العرب والمسلمين، وتذهلهم عن الانتماء الإسلامى لتحشرهم فى دائرة الانتماء العربى ثم تضيق عليهم فى دائرة الانتماء الإقليمى!!

وقد يقال: وما العيب فى أن يتكتل العرب فى وحدة عربية؟ ونقول: إن ذلك تمهيد لتكتل المسلمين وحدات إقليمية عديدة، فالمسلمون أجناس وعروق ولغات وثقافات وطوائف، لو جاز لكل جنس منهم أو عرق.. أن يتكتل لتحول المسلمون إلى تيارات متنازعة متعادية!!

وليت تكتل الجامعة العربية أفاد أو يمكن أن يفيد قضية العرب الجوهرية وهى احتلال اليهود لفلسطين، ولكن تصميم ميثاق الجامعة العربية قد كتب فى ظل احتلال بريطانيا وفرنسا لمعظم الدول العربية وفى ظل انتصار الغرب وأمريكا على دول المحور فى الحرب العالمية الثانية، وذلك أمر يؤكد أن ميثاق الجامعة العربية قد كتب بحيث لا يعارض سياسات هذه الدول المستوطنة وبخاصة بريطانيا التى كانت آنئذ تحتل أكبر بلد عربية وهى مصر، فلم يخل الميثاق أبدًا من خبث بريطانيا وعملها على تحقيق هدفين بشكل مباشر أو غير مباشر، وهما:

- ألا يتوحد العرب وحدة حقيقية، بل يكفى أن تجمعهم جامعة يشاركون هم فى وضع ميثاقها.

- وألا تطرد إسرائيل من فلسطين أو تشن ضدها حرب حقيقية، لكن لا بأس من حرب كلامية وعنتريات فارغة تكذب وتعلم أنها تكذب!!

٦- وألا تقع دولة إسلامية فى حمأة الأحلاف ومصيدتها، لأن الحلف فى حقيقته مصيدة أو مأكلة للدول الضعيفة لصالح الدول القوية المشتركة فيه أو المهيمنة عليه، وكثيراً ما

تساق إليه الدول الصغيرة أو الضعيفة أو الواقعة تحت سيطرة الدول الكبيرة سوقًا، فلا يسعها إلا أن تستجيب.

● والحلف كما عرفه القانون: «اتفاق يجمع بين عدة دول تحقيقًا لمصلحة مشتركة».

ومن أمثلة هذه الأحلاف العالمية:

١- الحلف المقدس:

وقد عقد بين ثلاثة أنظمة، فى أوروبا سنة ١٨١٥م يتكون من قيصر روسيا، وإمبراطور النمسا، وملك بروسيا بهدف الوقوف أمام أى ثورة شعبية.

٢- والحلف الفرنسى الروسى:

عقد فى عام ١٨٩١م، ثم عزز فى عام ١٩١٢م.

٣- والحلف الأنجلوروسى:

عقد بين بريطانيا وروسيا سنة ١٩٠٧م لتحديد مراكز نفوذهما فى إيران وأفغانستان والتبت.

٤- والحلف الثلاثى:

عقد بين ألمانيا، والنمسا وهينغاريا، وإيطاليا، وكان عقده سنة ١٩١٥م.

٥- وحلف «كيلوج- بريان»:

عقد سنة ١٩٢٨م بين وزير خارجية فرنسا -بريان- ووزير خارجية أمريكا «كيلوج»، ثم زاد أعضاؤه حتى أصبح تسعة أعضاء.

٦- والحلف البلقانى:

عقد سنة ١٩٣٤م بين: اليونان وتركيا ورومانيا، ويوغوسلافيا.

٧- وحلف برلين:

عقد سنة ١٩٣٧م بين ألمانيا وإيطاليا واليابان.

٨- وحلف «هتلر -ستالين»:

عقد سنة ١٩٣٩م السنة التى قامت فيها الحرب العالمية الثانية.

٩- وحلف شمالى الأطلسى:

عقد سنة ١٩٤٩م ، تزعمته أمريكا ومعها بريطانيا، وفرنسا وكندا، وبلجيكا، وإيطاليا، وهولندا، والبرتغال، ولكسمبورج، وإيسلنده، والنرويج، والدانمارك.

١٠- وحلف جنوبى شرقى آسيا:

عقد سنة ١٩٥٤م وتزعمته أمريكا، وكان هدفه تطويق جنوبى شرقى آسيا الاشتراكى آنئذ.

١١- وحلف وارسو:

عقد سنة ١٩٥٥م بين الاتحاد السوفيتى -سابقًا- وألبانيا، وتشكو سلوفاكيا، وألمانيا الديموقراطية -الشرقية-، والمجر، وبولاندا، ورومانيا.

١٢- وحلف بغداد:

عقد سنة ١٩٥٥م بتوجيه من الدول الاستيطانية، بين بريطانيا وتركيا وباكستان وإيران والعراق.

١٣- والحلف الإسلامى:

عقد سنة ١٩٦٥م نادى به الملك فيصل بن عبد العزيز، وشاه إيران، بهدف إحداث تعاون وثيق بين الدول الإسلامية، ولكنه حورب من القوميين العرب من جانب ومن الاشتراكيين العرب من جانب آخر وكانت موجة المد الاشتراكى على أشدها فى العالم العربى.

١٤- وحلف الأندى:

عقد سنة ١٩٦٩م ويضم ست دول من أمريكا اللاتينية هى: شيلى، وبيرو، وكولومبيا، والإكوادور، وبوليفيا، وفنزويلا.

● ومن المعروف فى ديننا الحنيف أن المسلمين منهيون عن هذه الأحلاف بعد أن مَنَّ عليهم بالإسلام يتناصرون به على أعدائهم، لأن هذه الأحلاف تتضمن عدوانًا على الآخرين، وهذا مما حرمه الإسلام؛ لأن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هى السلام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فالأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم هى السلام إلا إن حدث ما يخل بهذا السلام.

والإسلام حظر على المسلمين أن يقاتلوا من لم يقاتلوهم، والأحلاف تؤدى إلى قتال المسلمين لمن لم يقاتلهم ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿...فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠].

- والتحالف أو التعاهد المشروع فى الإسلام ما كان على دفع الأذى، ومقاومة الظلم والعدوان، وهذا التحالف يسمى: ميثاقًا وهو جائز مادام رائده التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

- وأما المعاهدات فتجوز مع غير المسلمين، لأنها إن كانت لمنع الحرب فذلك مطلب إسلامى عام، لكنه لم يجز أن يترتب على التعاهد أو التوثيق وقوع ظلم على أحد أو إهدار حق من حقوقه حتى لو كان من غير المسلمين لأن الظلم وإهدار الحقوق؛ تحريمها مطلق فى الإسلام.

- ومع أن الإسلام قد قرر أن ما بين المسلمين وغيرهم من الناس؛ الأصل فيه هو السلام، فإنه أجاز أن يُعزَّز هذا السلم بعهد أو ميثاق، وأوجب على المسلمين الوفاء بما فى ذلك العهد أو الميثاق، مادام لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالا، ولا يؤدى إلى ظلم.

- وعهود رسول الله ﷺ ومواثيقه مع اليهود والنصارى عديدة، ومعلِّمة لمن أراد أن يتدبر ويقتدى.

ولقد دأب اليهود على نقض عهودهم وعدم الوفاء بمواثيقهم، ولهم فى ذلك تاريخ حافل فى النقض والغدر وعدم الوفاء.

ومن يقرأ تاريخ اليهود لا يستغرب منهم ذلك؛ فهم الذين يقولون -كما أخبر عنهم القرآن الكريم-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وبناء على فكرهم المنحرف عن الحق والعدل يرتكبون كبائر كثيرة ومنها أى عهد مع غيرهم من الناس، وقد ذكرنا -فيما مضى من هذا الكتاب- عهدًا عاهدهم عليه رسول الله ﷺ، وما أعطاه لهم فيه، وما ضمنه لهم، وما أوجبه على نفسه وعلى المؤمنين، ولا بأس أن نذكر هنا ببعض ما جاء فى هذا العهد، ومنه:

«... لكم ذمة الله وذمة رسوله، على أنفسكم، ودينكم، وأموالكم، ورقيقكم، وعلى كل ما ملكت أيمانكم، لا يطأ أرضكم حيش، ولا تحشدون، ولا تحشرون، من سافر منكم فهو فى أمان الله وأمان رسول الله لا إكراه فى الدين».

وعلى الرغم من ذلك فقد غدروا وخانوا ونقضوا العهد فى أكثر من موقف، وبخاصة عندما أحاط المشركون برسول الله ﷺ فى غزوة الأحزاب.

● الأساس الذى تقوم عليه العهود والمواثيق فى الإسلام؛ إما أن تكون لمنع ظلم أو لإقرار عدل وسلام.

ومن المعروف فى الإسلام أن كل معاهدة تتضمن شرطًا لا يقره الإسلام فهى باطلة ولو كانت مائة شرط، فقد روى الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط».

وكتاب الله لا يمكن أن يتضمن ظلمًا لأحد أو عدوانًا على أحد.

- ولو تعاهد أمير أو ملك أو رئيس لدولة إسلامية على استمرار السلم بينه وبين بعض المسلمين فهذا جائز -كما قلنا ذلك آنفًا- لكن إن كان هذا الأمير أو الملك أو الرئيس يظلم المسلمين فى البلد الذى يحكمه، فإن اشتراطه ذلك غير جائز، كما لا يجوز موافقة المسلمين له عليه، بل يعتبر ذلك من أسباب نقض معاهدته أو ميثاقه.

- وأما وفاء المسلمين بعهودهم ومواثيقهم فهو جزء من دينهم لأنه أمرٌ صريح أمر به الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وحسب هذا العهد شرفًا أن سماه الله «عهد الله» لأن المسلمين حين يعاهدون إنما يشهد الله على ما عاهدوا عليه ولا يمكن أن يتضمن ذلك العهد شيئًا يغضب الله أو حرمه الله.

● وبعد: فإن وحدة السياسة الخارجية للمسلمين تجلب إليهم المنافع العديدة فى دينهم ودنياهم، وترد عنهم الأضرار والشرور، وهى فى ذات الوقت خطوة فى طريق الوحدة

الإسلامية العامة، التى هى غاية ما يرجوه المسلمون فى هذا العصر الذى نعيشه، والذى تكاثرت علينا فيه التيارات المعادية للإسلام والمسلمين، بل إن هذه الوحدة الإسلامية بين جميع بلدان المسلمين أمل المسلمين فى كل عصر، لأنهم جميعًا أمة واحدة.

وكل عجز عن الوصول إلى هذه الوحدة الإسلامية تقصير سوف يحاسب عليه كل مسلم كان قادرًا على القيام بأى عمل فى سبيل الوصول إلى الوحدة الإسلامية، ومع قدرته لم يفعل.

• والمجتمع الإسلامى بما فيه من قيم ومبادئ ومنهج ونظام قادر على أن يربّى أبناءه من خلال تلك القيم والمبادئ على أنهم أمة واحدة، وحدت بينهم أسباب عديدة كالمعبود بحق سبحانه وتعالى، والعبادة، والقبلة، والمنهج والنظام، وكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وأن يملأ عقولهم وقلوبهم وأن يربيهم أفرادًا وجماعات وأوطانًا ودولاً على أن السعى إلى الوحدة الإسلامية والوصول إليها واجب على كل قادر عليه من المسلمين.

وأخيرًا أقول إن العمل على الوحدة الإسلامية من الإعداد المادى والمعنوى الذى يواجه المسلمون به أعداءهم واجب، والذى أوجبه هو الله تعالى فى قوله الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ..﴾ [الأنفال: ٦٠]، إذ الوحدة قوة بل أقوى أنواع القوى.

وبعد: فقد تحدثنا عن أهداف ستة للمجتمع الإسلامى، ويبقى أن نتحدث عن الهدف السابع الأخير لنختم به هذا الفصل من هذا الباب. والله ولى التوفيق.

*****

الهدف السابع

تأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى

من أهداف المجتمع الإسلامى أن يحقق الأمن لكل مَنْ فيه من الناس مسلمين وغير مسلمين، لأن الأمن مطلب إنسانى وحق أساسى من حقوق الإنسان لا يحرم الإنسان منه اختلاف دينه أو جنسه أو لونه.

والأمن الذى يستهدف المجتمع الإسلامى تحقيقه للناس جميعًا أمن شامل واسع الأمداء، يبدأ بالأمن النفسى ثم الأمن البدنى ثم الأمن على الأهل والولد والعرض والمال، بحيث لا يجوز المساس بهذه الأنواع لكل من فى المجتمع الإسلامى.

ويدخل فى هذا الأمن رفع الظلم عن كل مظلوم، وكف الأذى عن كل من يتعرض له أحد بأذى.

- ومن أهم أنواع الأمن: الأمن الاجتماعى، وهذا النوع من الأمن الذى يوفره المجتمع الإسلامى لكل من يعيشون فيه من الناس، ويتناول:

- أمن الإنسان على أن يجد عملاً يرتزق منه ويكسب ويمتلك ويقتنى ويدخر.
- وأمنه على أن يكون أسرة وبيتًا ومسكنًا يؤويه وأسرته ويكون ملائمًا لإنسانية الإنسان.
- وأمنه على أبنائه يربيهم وفق ما يؤمن به من قيم ومبادئ وأخلاق.
- وأمنه على دينه، فليس لأحد أن يفتنه عن دينه أو يكرهه على الخروج منه، أو الدخول فى دين آخر.
- وأمنه على أن يجد المدرسة التى يعلم فيها أبناءه، وتؤهلهم لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة.

- وتدخل فى الأمن الاجتماعى فروع كثيرة لا سبيل إلى حصرها هنا، ولكن يجمعها أن يعيش الإنسان آمنًا فى مجتمع آمن، عاملاً منتجًا فى مجتمع عامل منتج، متمتعًا بكل حقوقه الاجتماعية.

- وبالنسبة للمسلمين فى المجتمع المسلم يأخذ الأمن الاجتماعى لهم أبعادًا أخرى فوق هذه الأبعاد التى ذكرنا، ومن ذلك:

● الأمن على نفسه وهو يبلغ عن ربه ويدعو إليه ويتحرك بالدين الحق فى الناس والآفاق، دون أن يخشى منعًا من حاكم مستبد ولا ملاحقة، ولا اتهامات ولا تشويهًا لعمله، ولا حجرًا على حريته أو حركته.

● والأمن على أن يأمر بالمعروف كل أحد وينهى عن المنكر كل أحد مادام ملتزمًا بشروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقادرًا عليه.

● والأمن على أن يجاهد فى سبيل الله بما استطاع من وسائل الجهاد، دون أن يتهم بالعنف والتطرف والتعصب والإرهاب.

- ومن أهم أنواع الأمن: الأمن السياسى وهذا عام فى المسلمين وغيرهم ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى ويستظلون بظله وفى كنف قيمه ومبادئه وعدله وإحسانه، مهما تكن ديانته أو لونه، مادامت مواطنته صحيحة وليس جاسوسًا ولا عدوًا، ولا مضمرًا الشر للمجتمع الإسلامى.

● اليهود فى حق الأمن السياسى والنصارى سواء، وكلاهما له الأمن السياسى الذى يحصل عليه المسلم فى المجتمع لأن لأهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى الحق الكامل فى المواطنة ماداموا يؤدون الذى عليهم نحو المجتمع الإسلامى.

وقد تحدثنا عن هذا الأمر بما أوضحه وكشف عن أبعاده حين كنا نتحدث عن الهدف الثالث من أهداف المجتمع الإسلامى وهو: تحقيق الأمن داخل المجتمع وخارجه.

● ونحن هنا نتحدث عن حق غير المسلمين ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى فى الأمن، أى تأمينهم على حياتهم وأبنائهم وأملاكهم، بل تأمينهم على دينهم، وعدم إكراههم على الخروج منه أو الدخول فى غيره، بل تأمينهم على أداء عباداتهم دون تضييق عليهم.

فمن هم أهل الأديان الأخرى الذين لهم هذه الحقوق؟

هم اليهود والنصارى ومن كانوا فى حكمهم من أهل الأديان الأخرى، حتى لو كانوا مجوسًا أو نحوهم.

- وهؤلاء لهم أن يُؤَمَّنوا على أنفسهم وأهلهم وأبنائهم وأموالهم وأعراضهم وأعمالهم فى المجتمع المسلم ما داموا أهل ذِمَّة أو أهل أمان أى مستأمنين.

● فأهل الذمة هم الذين كتب لهم عهد من الإمام أو القائد أو من ينوب عنهما.

ويسمى أهل الذمة معاهدين -أى كتب لهم عهد- ولهم بحكم الذمة وشروطها فى المجتمع الإسلامى، حقوق وعليهم نحوه واجبات.

- وعقد الذمة نفسه يجب أن ينص فيه على ذلك وأن تفصل فيه حقوقهم وواجباتهم.

- وعقد الذمة بالنسبة للمجتمع الإسلامى يعنى أن هذا المجتمع قد أقر هؤلاء على البقاء على أديانهم، وحمايتهم فى المجتمع فى مقابل لهذه الحماية هو دفع الجزية، مع الالتزام بأحكام الإسلام الدنيوية -والجزية «دينار» كل عام عن كل ذكر بالغ حُرّ-.

- وهدف هذا العقد أن يترك الذمىُّ قتال المسلمين مع احتمال دخوله فى الإسلام عن طريق مخالطته المسلمين، ووقوفه على محاسن الإسلام، وليس الهدف هو مجرد تغريمهم مقدار الجزية.

- ولعقد الذمة شروط هى:

- ألاَّ يذكر الذمىّ كتاب الله بطعن ولا تحريف له.

- وألا يذكر رسول الله ﷺ بتكذيب ولا ازدراء.

- وألا يذكر دين الإسلام بذم أو قدح.

- وألا يصيب أحد من أهل الذمة امرأة مسلمة بزنى، ولا باسم نكاح.

- وألا يفتنوا مسلمًا عن دينه، أو يتعرضوا له أو لماله بأى اعتداء.

- وألا يعينوا أهل الحرب، ولا يؤووا عينًا -أى جاسوسًا- على المسلمين.

ذلك مجمل أحكام أهل الذمة التى وضعها فقهاء المسلمين بناء على ما جاء فى الكتاب والسنة وعمل النبى ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وهى أحكام يجب أن يلتزم بها أهل الذمة فلا يخالفوا منها شيئًا.

- وإذا أخل أهل الذمة بشرط من هذه الشروط، فقد نقضوا عهد الذمة من جانبهم، ولم تعدلهم ذمة الله ورسوله ﷺ والمسلمين.

- وأما أهل الأمان فهم المستأمنون.

وهم كل من دخل فى دار الإسلام على أمانٍ مؤقت، صادر له من الإمام، أو من أحد المسلمين[1].

---

(١) للمسلم أن يعطى الأمان لمن دخل دار الإسلام ولجأ إلى أحد المسلمين ليؤمنه أمانًا مؤقتًا لقضاء مصلحة له فى دار الإسلام، إن كان واثقًا من وفائه والتزامه.

● والفرق بين الذمى والمستأمن، أن الذمى عهده مؤبد، والمستأمن عهده مؤقت، الذمى مقيم فى المجتمع الإسلامى دائمًا أبدًا، والمستأمن مقيم حتى تنتهى مدة أمانه.

● حقوق أهل الذمة ومن فى حكمهم على المجتمع المسلم:

وهى حقوق كثيرة يجب على المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة وأفرادًا وجماعات أن يوفروها لهم، وأن يحترموها ولا ينتقصوا منها شيئًا.

وهى ثابتة لهم فى السنة النبوية المطهرة، ومنها:

- ما رواه أبو داود بسنده عن عدة من أصحاب النبى ﷺ عن آبائهم دِنْيَةً -أى متصلى النسب- عن رسول الله ﷺ قال: **«ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه، أو كَلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»**.

- وما رواه أبو داود بسنده عن رجل من جهينة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لعلكم تقاتلون قومًا فتظهرون عليهم، فيتَّقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم»**.

- وما أجمع عليه فقهاء المسلمين، فقد قالوا[1]: لأهل الذمة حق الإقامة آمنين مطمئنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وفى تقدير الجزية خلاف بين العلماء، ولهم فى ذلك حجج منها:

- أن رسول الله ﷺ جعلها دينارًا على نصارى نجران.

- وأن عمر رضى الله عنه جعلها أربعة دنانير على نصارى الشام.

- وقول الإمام: إنه لا حد لأقلها ولا لأكثرها، والأمر فيها موكول إلى اجتهاد ولاة الأمر، ليقدروا على كل شخص ما يناسبه، فى ضوء أنه لا يجوز أن يكلف أحد فوق طاقته.

وعلى الإمام حمايتهم من كل من أرادهم بسوء، سواء أكان من المسلمين أم من غير المسلمين.

---

(1) ورد ذلك فى كتب للفقه الإسلامى معروفة وموسَّعة مثل:
- بدائع الصنائع فى ترتيب الصنائع، للكاسانى.
- والمغنى - لابن قامة.
- والشرح الصغير - للدردير.
- والمهذب - للشيرازى.
- وأحكام أهل الذمة -لابن القيم، وغيرها.

وعلى الإمام استنقاذ مَنْ أُسر منهم.

وعليه استرجاع ما أخذ من أموالهم سواء أكانوا مقيمين مع المسلمين أم منفردين عنهم فى بلد آخر، لأنهم بذلوا الجزية لحفظهم وحفظ أموالهم.

- وقد ذكر الفقهاء لأهل الذمة ومن فى حكمهم حقوقًا وضعوها فى مفردات وعناوين مثل:

- حقهم فى أن تحميهم الدولة المسلمة.
- وحقهم فى الإقامة والتنقل.
- وحقهم فى ألا يتعرض لهم أحد فى عقيدتهم أو عبادتهم.
- وحقهم في الاحتفاظ بكنائسهم ودور عبادتهم.
- وحقهم فى أن يتركوا وما يدينون.
- وحقهم فى المعاملات المالية كالتجارة ونحوها كالمسلمين باستثناء التعامل بالربا، أو الخمر، أو الخنزير.
- وحقهم فى ضمان ما أُتلف من أموالهم حتى لو كان خمرًا أو خنزيرًا عند جمهور الفقهاء، وفقهاء الأحناف والمالكية والشافعية. أما الحنابلة فلا يجيزون ضمان ما أتلف من الخمر والخنزير.

- أما واجبات أهل الذمة ومن فى حكمهم فثلاثة هى:

- دفع الجزية للحكومة المسلمة:

وهى المال الذى ينص عليه فى عقد الذمة، فى مقابل أمن الذمى والمحافظة عليه.

ومقدار الجزية: دينار واحد فى كل عام على كل ذكر بالغ حُرٍّ منهم.

- ودفع الخراج أيضًا:

وهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها، ومقدار الخراج الخمس أو السدس أو نحو ذلك حسب ما يقدره الإمام أو ينوب عنه.

- ودفع العشور:

وهى أموال تفرض على أموال أهل الذمة المعدة للتجارة إذا انتقلوا بها من بلد إلى بلد داخل ديار الإسلام، ومقدارها نصف العشر.

• والخلاصة التى نحب أن ننتهى إليها فى هذا الموضوع هى:

أن تأمين أهل الكتاب ومن فى حكمهم واجب المجتمع الإسلامى حاكمًا وحكومة وأفراداً وجماعات، وجميع مؤسسات المجتمع المدنى، مادام أهل الكتاب يقيمون فى ديار الإسلام، سواء أكانوا ذميين أو مستأمنين، أو كان لهم مع المسلمين عهد أو ميثاق، وأن على المجتمع الإسلامى أن يؤمنهم كل أنواع التأمين، أى:

• تأمينهم على أنفسهم؛ أجسادهم وعقولهم.

• وتأمينهم على ذويهم؛ أهلهم، وأبنائهم، وذوى قرباهم الذين يشملهم عقد الذمة أو الأمان.

• وتأمينهم على أملاكهم وأموالهم.

• وتأمينهم على أعمالهم وأرزاقهم.

• وتأمينهم على حركتهم وتنقلاتهم.

• وتأمينهم على أديانهم وعباداتهم.

وكل هذه الأنواع من التأمين مشروط فيها: ألا يأتوا عملا يسىء إلى الإسلام بتشويه أو تكذيب أو نحو ذلك.

وألا يأتوا عملاً فيه إضرار بالمسلمين فى حاضرهم أو فى مستقبلهم.

وذلك فى مقابل التزاماتهم المالية نحو المجتمع الإسلامى وهى: الجزية، والخراج، والعشور.

هكذا يؤمِّن الإسلام منهجه ونظامه ومجتمعه، حاكمًا وحكومة وأفرادًا، حياة أهل الأديان الأخرى الذين يعيشون فى كنف المجتمع الإسلامى، بما يقطع ألسنة أصحاب المفتريات والأكاذيب والأهواء التى تحركهم إلى ما يقولون.

وبعد: فتلك صورة أرجو أن تكون واضحة، وقادرة على تحديد أهداف المجتمع الإسلامى التى حصرناها فى سبعة -وإن كان لبعض أهل العلم أن يزيدوا عليها ما يشاءون من الأهداف.

وهذه الأهداف السبعة التى ذكرناها أهداف إنسانية نبيلة من جانب ومستطاعة من جانب آخر، وقابلة للتحقيق أو واقعية من جانب ثالث، ولذلك نقول مطمئنين: إن هذه الأهداف

لو تحققت عـاش المجتمع الإسلامى آمنًا مطمئنًا عـاملا منتجًا قادرًا على صنع حيـاة إنسانية كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان، مجتمعًا راضيًا سعيدًا مرضيًا عنه من الله تعالى.

وهذه الأهداف عندما تحقق تجلب الخير وتدفع الشر عن المسلمين وغيرهم ممـن يعيشون فى كنف المجتمع الإسلامى، وفى ذلك ما يؤكد عدالة الإسلام، وتعامله الإنسانى مع سائر الناس.

ماذا يطلب من المجتمع الإسلامى أن يفعل حتى تحقق هذه الأهداف؟

يطلب من هذا المجـتمع الإسلامى حـاكمًـا وحكومة ومـؤسسات وهيـئات حكومـية، وتنظيمات المجتمع المدنى كلها، يطلب من كل هؤلاء كل فيمـا يخصه وما يقدر عليه القيام بعدد من الأعمال، التى منها:

- نشر هذه الأهداف وتوضيحها للناس والكشف عما فيها من قيم ومبادئ، وعدالة وحرية ومساواة.
- وتربية المجـتمع من خلال بيوته ومـدارسه ومساجده على الـعمل كل فيما يخـصه على تحقيق هذه الأهداف.
- وإلزام الناس بتطبيق منهج الله فى الحـياة الدنيا، وعدم مزاحمـته بمناهج أخرى، لكن لا بأس من الاستفادة من أى مفردات لا تتعارض مع قيم الإسلام ومبادئه.
- وأخذ المخالـفين والعصاة لله ولرسـوله بما يستحقـونه من عقاب يلائم جرائمـهم، وعدم التساهل معهم فى ذلك مهما كانت لهم من علاقات بالحاكم والحكومة.
- والتزام المجتمع نفسه بتطبيق منهج الله ونظامه على حياة الناس، دون مغالاة أو تقصير.

لكن كـيف يقوم المجتـمع الإسلامى بذلـك؟ وما وسائله الـتى يلجأ إليـها ليحـقق هذه الأهداف؟

- إن وسائل المجتمع الإسلامى فى تحقيق أهدافه كلها وسائل جاءت بها الشريعة الخاتمة، وتعامل بها الرسـول الخاتم ﷺ، بل تعامل بها صالحو الحكام وصالحـو المسـلمين حتى يومنا هذا.

وعلى قدر ما ينجح المسلمون فى التعامـل مع هذه الوسائل على قدر ما يكون نجاحهم فى تحقيق هذه الأهداف.

● وأهم هذه الوسائل فى تصورى ثلاثة:

- التربية الإسلامية.

- والدعوة إلى الدين الحق والحركة به بين الناس وفى الآفاق، والعمل على تغيير ما يخالف منهج الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- والجهاد فى سبيل الله بكل أنواع الجهاد، مع استيفاء شروطه والمحافظة على آدابه، والالتزام بأحكامه.

وهذه الوسائل الثلاث هى ما نتحدث عنها فى الفصل الثانى من هذا الباب تحت عنوان: «وسائل تحقيق هذه الأهداف».

وفى هذا الباب الأخير من هذا الكتاب جعلناه فصلين:

الأول منهما فى الأهداف، وقد أنهينا الحديث فيه.

والثانى فى الوسائل وهو ما نحن بصدد الحديث عنه الآن، والله تعالى يهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

*****

الفصل الثاني

وسائل المجتمع الإسلامى لتحقيق أهدافه

تتميز وسائل المجتمع الإسلامى فى تحقيق أهدافه السبعة بميزات عديدة رفيعة القدر فاعلة ومؤثرة وقادرة على الوصول إلى أهدافها من أقرب طريق، وتلك الميزات نذكر منها:

- أنها وسائل لها قداستها إذ هى من عند الله تعالى، علَّمنا إياها رسول الله ﷺ عندما جاءنا بهذا الكتاب الذى فصل كل شىء وما فرط الله تعالى فيه من شىء، ثم ختم به كتبه وأنعم به على البشرية كلها بوصفه أكمل منهج وأتم نظام.

فالتعامل بهذه الوسائل مأمون عن الانحراف والضلال ومضمون النتائج، بل قدَّمتْ على صحة هذه النتائج دلائل من سيرة الرسول الخاتم ﷺ وسير أصحابه رضى الله تعالى عنهم.

- وأنها وسائل مجرَّبة مارسها رسول الله ﷺ من يوم بعثه الله تعالى، ثم أمره أن يبلغ هذا الدين الحق للناس إذ قال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤- ٩٦] فأخذ يدعو إلى الله وإلى أن توفاه الله تعالى وهو يدعو إلى الله ويعلم المسلمين ويدلهم ويربيهم على الإيمان والحب وترك الخلاف، فقد روى الشيخان بسنديهما عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُد بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: **«إنى بين أيديكم فَرَط[1]، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإنى لأنظر إليه وأنا فى مقامى هذا، وإنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها»** «وزاد بعضهم: **فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم»**.

ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ ظل يمارس وسائل التربية والتوجيه حتى آخر وقت من حياته[2]، ومما يعزز ذلك ما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما

---

(١) أى سابقكم إلى الحوض مهيئه لكم.

(٢) ومن هذه الوسائل الكلمة أو الخطبة التى خطبها من على منبره التى بدأها بقوله: إنى فرطكم على الحوض..

حضر رسـول الله ﷺ الموتُ، وفى البيت رجال فيهم عـمر بن الخطاب رضى الله عنه قال النبى ﷺ: **«هلم أكتب لكم كتـابًا لن تضلوا بعده أبدًا»** فقال عـمر رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندنا القرآن، حسبنا كتاب الله، فـاختلف أهل البيت فاختصموا فمنهم من يقول: قَرِّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، وفيهم من يقول: قال عمر -رضى الله عنه- فلما أكثروا اللَّغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **«قوموا»**.

وكان ابن عباس يقول: إن الـرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

وفى رواية لأحمـد عن ابن عباس رضى الله عنهمـا قال: اشتد برسـول الله ﷺ وجعه فقال: **«ائتونى أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا»** فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع، فقالوا: ما شأنه؟ أهجر[1]، استفهـموه، فذهبوا يعيدون علـيه فقال: **«دعونى فالذى أنا فـيه خير مما تدعونـى إليه»** وأمر بثلاث- أو أوصـى بثلاث؛ قال: **«أخرجـوا المشركين من جـزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»**، وسكت سعيد[2] عن الثالثة[3].

وروى البخـارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عـنهما هذا الحـديث الشريف فى باب العلم وباب المغازى وباب المرضى وباب الاعتصام وباب الوصية.

وفى موقف رسـول الله ﷺ وهو على فراش الموت، ولكنه مـشغول بتـوجيـه المسلمين والكتابة لهم حتى لا يضلوا، فى ذلك ما يؤكد أن وسائل التربيـة الإسلامية مستمرة أبدًا لا ينبغى لمسلم أن يتوقف عنها إلى آخر يوم من أيام حياته إذ هى عمله المستمر الذى لا ينبغى أن ينقطع أبدًا.

- وأن هذه الوسائل قد جُرِّبَتْ فأغنتْ وأقنتْ، وجمعت الناس على الدين الحق، وعلى الدعوة إليه والحركة به والجهاد فى سـبيله، وقد انطلق المسلمون بهذا الدين الحق فى الناس والآفاق يدعون إليه ويحبـبون الناس فيه وفى قيمه ومبادئه وعباداته ومـعاملاته، حتى أقبل الناس على هذا الدين الحق، ودخلوا فيه أفواجًا -دون إكراه- كما يزعم الذين هالهم سرعة انتشـاره ذاهلين عن وسائله فى تحـقيق أهدافه؛ إذ مـا مضى على هجـرة الرسول ﷺ إلى

---

(١) أى هو يهذى من وجعه.

(٢) هو سعيد بن جبير الذى نقل هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) سواء أكان سكت عنها عمدًا أم نسيانًا.

المدينة المنورة أكثر من نصف قرن من الزمان إلا وكـان الإسلام منتشـراً بين أقصى الأرض شرقًا وأقصاها غربًا أى بلغ نصف الدنيا المعروفة آنذاك .

ولم يكن ذلك مستغربًا إذا وضع فى الحسبان أن وسائل الإسلام فى تحقيق أهدافه وسائل جامعة مانعة ناجحة.

– وأنها وسـائل متنوعة وشـاملة، وقادرة على مخـاطبة كل أحـد والتأثير فـيه، ونقله من الضلال إلى الهدى، ومن غير الإسلام إلى الإسلام بمحض إرادته واختياره، لأنه لا إكراه فى الدين.

وتتنوع هذه الوسائل إلى حد كـبير، ابتداء من الكلمة الطيبـة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، وإعطاء القدوة، وتظل تتعدد حـتى تصل إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمـة الله هى العليـا، وكل تلك الوسائل هى الطـريق إلى تحقـيق أهداف المجتـمع الإسلامى.

غير أننا نركز من هذه الوسائل –نظرًا لهذا الكتاب– على ثلاث فقط هى:

– التربية.

– والدعوة والحركة.

– والجهاد فى سبيل الله تعالى.

● أمـا تفـصيل الحـديث عن كل نوع من هذه الأنـواع الثلاثة، فـإنه يطول لأنهـا شـعب وتفريعـات كثيـرة، لنا فيهـا كتب عديدة، كـان يمكن أن نحيل عليهـا ونسكت هنا عن الحديث عنها، ولكننا آثرنا أن نذكر من كل وسيلة منها صفحات قليلة، ومن أراد التوسع فليرجع إلى الكتب التى سنـذكرها بعد قليل، ففـيها جهـد كبير، وعـمل سنين عديدة، وفائدة لمن يقرأ بإذن الله تعالى.

ولنتحدث عن هذه الوسائل الثلاث بهذا الإيجاز سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

*****

الوسيلة الأولى:

التربية

- المربِّى الأول للبشرية: هو خالقها سبحانه وتعالى، الذى خاطب خلقه عن طريق المصطفين الأخيار من رسله عليهم الصلاة والسلام. والمربِّى الخاتم: هو محمد ﷺ الذى أنزل الله عليه الكتاب الخاتم والذى عصمه الله تعالى، فما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.
- والتربية: هى التعهد والتأديب والتعليم والتنمية لسائر قوى الإنسان الجسدية والروحية والعقلية والخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجمالية..

وستتحدث فى وسيلة التربية عن موضوعين:

الأول: أنواع التربية.

والآخر: مؤسسات التربية.

١- أنواع التربية:

وهى كثيرة نذكر منها:

أ- التربية بالكلمة.

ب- والتربية بالعمل والقدوة.

جـ- والتربية بالتعليم والتثقيف والتفقيه.

د- والتربية عن طريق الكتاب والسنة.

هـ- والتربية عن طريق تاريخ الصحابة رضى الله عنهم، وتاريخ التابعين وتابعيهم والمصلحين المجددين فى كل قرن.

و- والتربية عن طريق تنمية قوى الإنسان وطاقاته.

ز- والتربية عن طريق التأمل والتدبر فى خلق الله تعالى.

فهى هنا أنواع سبعة ستتحدث عن كل نوع منها فى سطور.

أ- التربية عن طريق الكلمة:

والكلمة ذات تأثير فيمن يُربَّى إذ أُحْسِن اختيارها لفظًا ومعنى وكانت مناسبة لمن توجه إليه عقليًا ونفسيًا واجتماعيًا.

وهى أنواع أيضًا: فمنها خطبة، ورسالة، ومقالة، وقصة، وضرب مثل، وعظة ونصيحة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحوار، وجدال بالتى هى أحسن.

والتربية بالكلمة ماثلة فى القرآن الكريم؛ قصصه وأخباره وعظاته ونصائحه، والسنة النبوية حافلة بها على مدى حياة الرسول ﷺ، وكلمات الصحابة رضوان الله عليهم مأثورة محفوظة عن كثير منهم وبخاصة كبارهم كالخلفاء الراشدين وعلمائهم كابن عباس وابن مسعود وابن عمر وابن عمرو رضى الله عنهم.

ب- والتربية بالعمل والقدوة:

وذاك مجال واسع للمربين المخلصين الملتزمين بدينهم؛ قيمه ومبادئه وآدابه، وسيرة المعصوم ﷺ.

وكلما كان المربى مثالاً وأنموذجًا لما يربِّى عليه الآخرين وقدوة لهم، كانت تربيته أنجح وأقدر على نقل الناس من الضلال إلى الهدى، بل من الكفر إلى الإيمان.

فمن المسلَّم به لدى المربين أن أفضل من محاضرة زمنها ساعة أو ساعتان فى موضوع الانضباط فى التوقيت، أن يكون المربى منضبطًا فى حضوره فى الوقت المحدد.

فالانضباط من المربى تربية عملية بالقدوة، الانضباط فى الحضور والانصراف، وفى القول والفعل، وأعظم مثل للمربين فى ذلك هو المعصوم ﷺ.

جـ- التربية بالتعليم والتثقيف والتفقيه:

الأصل فى هذه الوسيلة أن تقوم بها المدرسة بكافة مستوياتها وأنواعها، والمدرسة التى نتحدث عنها هى المدرسة الإسلامية، ولكن هذه المدرسة يمكن أن يساندها البيت والمسجد من خلال توفير بعض الإمكانات لصالح الأبناء كأن يكون فى البيت بعض الكتب أو مكتبة صغيرة، قد تم اختيار كتبها.

ويمكن أن يقوم البيت بما هو أكثر من ذلك فى التعليم والتثقيف والتفقيه كطرح بعض الأسئلة والحوار فى الأجوبة، وعرض كتاب أو فيلم سينمائى مختار، ثم المناقشة الحرة فى موضوعها.

أما ما تقوم به المدرسة فى هذا المجال فيكون من خلال الكتاب والمعلم والمنهج، والمبنى المدرسى ومكتبة المدرسة وملاعبها وسائر مرافقها- على نحو ما فصلنا[1].

د- التربية عن طريق الكتاب والسنة:

القرآن الكريم، وسنة النبى ﷺ المفصلة لما أجمل منه، خير مربٍّ ومعلم ومثقف لجميع الناس فى كل زمان ومكان، لأسباب عديدة منها:

أن القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية فلابد أن يكون أكملها وأتمها وأشملها على المنهج الذى يصلح به شأن الحياة الدنيا، والحياة الآخرة.

ولقد اشتمل الكتاب والسنة على كل ما ينفع الناس فى دنياهم وآخراهم، فلقد نظم شئون الدنيا جميعًا بغير استثناء مفردة من مفرداتها صغرت أو كبرت، وجعل الإنسان فى الدنيا وسعيه على رزقه، وعلى تحسين عيشه ودنياه عبادة لله تعالى كالصلاة والزكاة، بل جعل طلب العلم والتعمق فيه عبادة يؤجر عليها طالب العلم.

إن القرآن الكريم قال عنه منزله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال عنه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وجعل الله تكاليفه لعباده ميسرة خالية من المشقة والعنت فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١ - ٣].

فهل يجد المربّى تربية أشمل وأكمل وأصلح لمعاش الإنسان ومعاده أحسن مما جاء فى القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ.

هـ- التربية عن طريق استعراض حياة الصحابة رضى الله عنهم والتابعين والمصلحين المجددين على رأس كل قرن:

- الصحابة رضى الله تعالى عنهم هم الذين بلغونا هذا الدين العظيم عن رسول الله ﷺ، كلامه وعمله وهديه كله، وهم الذين نشروا الدين الحق ودعوا إليه وجاهدوا فى سبيله، وصابروا وصبروا ورابطوا، وهم الذين أوصى رسول الله ﷺ أمته بهم إلى يوم الدين.

(١) كان ذلك فى كتابنا: التربية الإسلامية فى المدرسة -دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

وقد روى أحمـد بسنده عن عبد الله بن مغفّل المزنى رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: **«الله الله فى أصحابى، الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرَضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغـضهم فبغضـى أبغضهم، ومَنْ آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فـقد آذى الله تبارك وتعالى، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»**.

وروى ابن ماجه بسنده عـن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: خطبـنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجابيـة، فقال: إن رسـول الله ﷺ قام فينا، مثل مـقامى فيكم، فـقال: **«احـفظونى فى أصحـابى، ثم الذين يلونهم، ثم الـذين يلونهم، ثم يفشـو الكذب حتى يشهـد رجال وما يستشهدون، ويحلف وما يستحلف»**.

وروى البخـارى بسنده عن أبى سعيـد الخدرى رضى الله عنه قـال: قال النبى ﷺ: **«لا تسبُّوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا، ما بلغ مدَّ[1] أحدهم ولا نصيفه»**[2].

- وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم، وسير حياتهم، خير معلم ومربٍّ للمسلمين إلى يوم الدين، فهم دائما أعلام الأمّة الإسلامية وهداتها ونقلة العلم لها عن رسول الله ﷺ[3]. والصحابة والتـابعون هم علماء الأمة الإسـلامية وأثباتها وقـد أثنى رسول الله ﷺ على العلماء فـيما رواه أحمـد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قـال: قال النبى ﷺ: **«إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء، يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»**.

- وسير التابعين وتابعيهم وأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ، فيما رواه ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: «أى الناس خير؟» قال: **«قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الـذين يلونهم، ثم يجىء قوم تبدر شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»**.

وسـيرهم وقـصص حيـاتهم، وأنواع جـهادهم فى سـبـيل الله، وقوة دعـوتهم إلى الله وحركتهم بدينه فى الناس والآفاق، حتى بلغوا بهذا الدين كل مكان من الأرض استطاعوا

---

(١) المُدّ مكيال قديم اختلف العلـماء فى تقديره، فقدره الشافعى بنصف قـدح، وقدره أهل الحجاز برطل وثلث رطل، وعند أهل العراق رطلان.

(٢) النصيف: النصف.

(٣) من أجمع الكتب فى تاريخ الصحابة وأيسرها تناولا كتاب: حيـاة الصحابة للشيخ محمد إلياس الكاندهلوى- فى أربعة أجزاء.

أن يصلوا إليه، هذه السِّير غنية بالعبر، ثرية بالعلم، قـادرة على تربية من يتدبر فيها تربية إسلاميـة جيدة نافعـة فى الدين والدنيا، وهذه السير وتلك القـصص زاد أى زاد للمربين والمعلمين والدعاة والحركيين والمجاهدين فى سبيل الله تعالى لتكون كلمته هى العليا.

● وسيـر المصلحين المجددين لهـذا الدين على رأس كل قرن من الزمـان لا يخلو قرن من واحد أو أكثر منهم كما أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ.

هؤلاء المصلحون المجـددون هم أصحاب الغـيْرة على الإسلام الدين الحق، وأصـحاب الجهاد والتـضحية من أجل هذا الدين الحق، وهم المصـابيح التى تضىء طريق المسلمين من بعدهم إلى يوم الدين.

وقد أنعم الله على الأمة الإسلامية، وسوف يظل ينعم عليها بمصلح مجدد أو أكثر على رأس كل مائة عام لكى يجـددوا للأمة دينها، وينيروا طريق التضحـية والجهاد من أجل هذا الدين الحق.

روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**.

وحيـاة هؤلاء المصلحين المجـددين فى قرن من الزمـان غنية ثرية هادية مـعلمة مـربية، توجب على الأمة الإسلاميـة اليوم -وهى تحاول النهوض من عثارها- أن يتـسر للمسلمين الاطلاع على سيرهم، وظروف حياتهم وجهادهم، مكتوبة ومـسموعة ومشاهدة فى أعمال أدبية وفنيـة من القصة والمسـرحية والفـيلم السينمائى، وعلى صـفحات الجـرائد والمجلات والدوريات، فإن ذلك هو الذى يربى المسلمين على حب الخير، والالتزام بالحق، ونبذ الشر والباطل.

و- التربية عن طريق العناية بمكونات الإنسان:

مكونات الإنسان كما خلقه الله وأودعه كثيرا من أماناته واستحفظه عليها، مكونات هذا الإنسان هى -كما أوضحنا فى سلسلتنا: مفردات التربية الإسلامية-:

روحـه، وخُلُقه، وعـقله، ودينه، ونظامـه السيـاسى، ونظامـه الاجتـماعى، ونظامـه الاقتصادى، وحياته الجمالية، وحياته الجهادية، وجسده.

والإسلام يربى الإنسان من هذه الجـوانب كلها أحسن تربية وأقربهـا إلى صالح الإنسان فى دنياه وآخره، بل يصوغه صياغة تجـعله قادرًا على التعامل مع الحياة والأحياء أرقى أنواع

التعامل وأرضاها لله تعالى، وأنفعها للمجتمع الإسلامى والمجتمع الإنسانى فى حاضره ومستقبله.

إن التربية الإسلامية تمثل للإنسان حاجة ضرورية حيوية يتعلم بها ومنها، كيف يعبد الله وكيف يدعو إلى هذا الدين الحق، وكيف يجاهد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا[1].

ز- التربية الإسلامية عن طريق النظر والتدبر فى خلق الله تعالى:

هذه التربية بحر بغير سواحل، وطريق طويل ولكن السعى فيه مطلب شرعى، والساعى فيه مأجور بإذن الله تعالى.

والنظر والتأمل والتدبر فى مخلوقات الله يقوى إيمان المؤمن ويشحن عقله، ويجلو روحه، ويحسن خلقه، وينمى حسه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والجمالى والجهادى، ويعلمه كيف يحافظ على جسده الذى أودعه الله نفخة من روحه تعالى.

ومن صميم هذا النظر والتأمل والتدبر السعى على الرزق والسعى فى الأرض والسير فيها، وأخذ العظة والعبرة من تاريخها، والوقوف طويلا عند آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى ذلك مثل:

- قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

- قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

- وقوله جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) من فضل الله تعالى علىّ أن وفقنى إلى تأليف عدد من السلاسل كلها فى التربية وهى:
أ- سلسلة: التربية فى القرآن الكريم صدرت فى سبعة كتب.
ب- وسلسلة: مفردات التربية الإسلامية صدرت فى عشرة كتب.
جـ- وسلسلة: فى التربية الإسلامية المعاصرة، صدرت فى ثلاثة كتب- كتابنا هذا هو ثالثها.
وكلها من نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية. ولا هم لى منذ خمسين عامًا إلا الكتابة فى التربية وممارستها فى مؤسساتها العديدة- أسأل الله تعالى أن يأجرنى على ذلك بحسب نيتى.

- وقوله عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠][1].

● إن التربية عن طريق السير فى الأرض، واستقراء أحوال الأمم الماضية مؤمنيها وكفارها، هى تربية عميقة الأثر فى نفس الإنسان وعقله، وهى قادرة بعون الله على نقل الناس من الضلال إلى الهدى.

● بل إن التربية عن طريق التدبر فى سير الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، لهى معين لا ينضب وزاد لا يفنى لكل إنسان ذى قدرة على النظر والتدبر؛ لذلك جعل الله فى قصص الأنبياء والمرسلين عبرة لأولى الألباب، فقال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

هذه التربية بوصفها وسيلة من وسائل تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى ضرورة حيوية ولا غنى عنها وعن الاستعانة بها لمربٍّ ولا لمتربٍّ ولا للمجتمع حاكمًا وحكومة وأفرادًا وجماعات وجمعيات تمثل المجتمع المدنى.

إن التربية الإسلامية -بما قدمنا وهو وجيز- لبحر زاخر، بعيد الأغوار مليء باللآلئ واليواقيت وأنواع الأصداف الجميلة النافعة، غير أن القادر على الغوص فى أعماقه والحصول على لآلئه ويواقيته وكنوزه هو مَنْ هداه الله تعالى وأنار بصيرته، وكان من المؤمنين المخلصين لدينهم الحق، ووطنهم الإسلامى الكبير.

وبعد: فإننا معشر المسلمين يجب أن نعتبر هذه الأنواع السبعة من وسائل التربية الإسلامية هى خطواتنا فى الطريق إلى تحقيق أهداف التربية الإسلامية التى هى أهداف المجتمع الإسلامى، والتى نذكر بها هنا فى إيجاز بعد أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى سلسلة: مفردات التربية الإسلامية، وفى سلسلة: التربية فى القرآن الكريم.

---

(١) ورد فى القرآن طلب الله من عباده السير فى الأرض للنظر وأخذ العبرة، فى آيات أخرى غير ما ذكرنا هى: الآية: ١٠٩ من سورة يوسف، والآية: ٩ من سورة الروم، والآية: ٤٤ من سورة فاطر، والآية: ٢١ من سورة غافر، والآية: ٨٢ من نفس السورة، والآية: ١٠ من سورة محمد، والآية: ١٣٧ من سورة النحل، والآية: ٦٩ من سورة النمل.

وهذه الأهداف فى كلمات هى:

١- تكوين العقيدة الصحيحة للإنسان: فى الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

٢- وتعليم الإنسان العبادة الصحيحة لله تعالى: والعبادات كلها شرعها الله تعالى للإنسان ليرقّى بها خلقه وسلوكه، ويرضى بأدائها ربه سبحانه وتعالى.

٣- ونشر روح التعارف بين الناس: وهذا التعارف مطلب قرآنى ومن خلاله يتواد الناس ويتراحمون، ويزول ما يحتمل أن يكون بينهم من نزاع.

٤- وبث روح التعاون بين الناس: والتعاون مطلب قرآنى بشرط أن يكون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وبالتعاون ترقى حياة الإنسان.

٥- والعمل على إعمار الأرض: وإنما تعمر الأرض بالعلم والمعرفة، والعمل والإخلاص والصبر والثبات والأخوة وإعداد القوة.

٦- وتعليم الإنسان كيف يكون ملتزمًا: والالتزام يعنى التمسك بمنهج الله ونظامه فى كل أمر من أمور الحياة الإنسانية التى فصّل المنهج مفرداتها.

٧- وتعليم الإنسان كيف يبنى أمة مسلمة: الأسرة أساس المجتمع، وبها وحدها يكون تكاثر الناس، وفى حضنها تحدث التربية الأساسية.

٨- وتكوين الإنسان الاجتماعى: وللإنسان الاجتماعى المسلم هو الذى يحسن التعايش مع غيره والتعاون معه على الخير، وكف الأذى عنه وحبه واحترامه.

٩- وتكوين الإنسان المنتمى عربيًا: وعلامة الانتماء العربى هو التمسك بلغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والاعتزاز بالوطن العربى والعمل على تقدمه، وحمايته من أعدائه.

١٠- وتكوين الإنسان المنتمى إسلاميًا: ويتمثل هذا الانتماء الإسلامى فى التمسك بمنهج الإسلام فى الحياة، والاعتزاز بالوطن الإسلامى والعمل على تقدمه والدفاع عن كل شبر من أرضه.

١١- وتكوين المسلم القادر على الدعوة إلى الله: وذاك هو الأصل فى كل مسلم، وليست الدعوة مقصورة على العلماء المتخصصين فى العلوم الإسلامية وحدهم.

١٢- وتكوين المسلم القادر على الجهاد فى سبيل الله: وذلك أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وبغير الجهاد تضعف الأمة وتذل وتتناقص أطرافها، والجهاد عندى أفضل من مصطلح «العمل الإسلامى» لأنه تسمية قرآنية وردت كذلك فى السنة النبوية المطهرة[1].

٢- مؤسسات التربية:

المؤسسات التربوية عديدة، ونحن المسلمين منذ أن مَنَّ الله تعالى علينا بالدين الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، فعلمنا وربَّانا وأرشدنا وهدانا الصراط المستقيم، منذ ذلك التاريخ الباكر فى حضارتنا الإسلامية تعددت لدينا مؤسسات التربية، وزادت أهميتها بأهمية ما تؤديه من الوظائف.

وهذه المؤسسات هى:

١- البيت أو الأسرة.

٢- والمسجد.

٣- والمدرسة، بأنواعها ومراحلها.

٤- والمجتمع بأوسع معانيه.

ولكل منها فى مجالنا هذا من الكتاب كلمة فى سطور للتذكير والله تعالى نسأل أن ينفع بهذا القليل.

١- البيت المسلم أو الأسرة:

والتربية واجب الأبوين والإخوة الكبار، ومن فى البيت من جدود وجدات وأعمام وعمات وأخوال وخالات، كل هؤلاء لهم تأثير فى التربية أولتهم إياه شريعتنا الغراء، وتتخذ تربية هؤلاء لغيرهم مسارين:

الأول: التوجيه والنصح والعون على تنقية السلوك مما يعلق به من خلل واضطراب.

والآخر: إعطاء القدوة لمن يربونهم، بحيث يتمثل فيهم.

- وتربية البيت لأبنائه إذا تمت على وجهها الإسلامى كانت أقوى أنواع التربية، وألصقها بالإنسان وأكثرها تأثيرًا فى بناء شخصيته كلها، لأنها تربية شاملة ومستمرة يقوم بها أشد

---

(١) لمعرفة تفاصيل هذه الأهداف:
انظر لنا: التربية الروحية الكتاب الأول من سلسلة «مفردات التربية الإسلامية» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

الناس حبًا للمتربى وهو أسرته، تلك الأسرة التى تزود أبناءها بجرعات تربوية هادئة هادفة، ليتغلب بها على كل موقف من مواقف حياته[1].

٢- المسجد:

المسجد فى الإسلام مؤسسة تربوية رفيعة المستوى تقدم العلم والعبادة والخلق، فهو أنسب وأطهر مكان، فهو يربِّى المترددين عليه لأداء فرائض الله من الصلوات والأذكار ونحوها، صغارًا وكبارًا ورجالاً ونساءً، وطلاب علم وعلماء ومعلمين، يربى هؤلاء جميعًا على صفاء الروح ونقاء القلب واستقامة الخلق، وقد تحدثنا عن ذلك فى كتاب مستقل هو: المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى[2].

والمسجد فى الإسلام دار عبادة لله تعالى أصلاً، لكنه مدرسة، بل مدرسة متميزة فى كل شيء.

٣- المدرسة الإسلامية:

وهى المؤسسة المتخصصة فى التربية، يقوم على العمل فيها معلمون محترفون متخصصون تربويون، يعرفون الوظيفة الحقة للمدرسة وهى التربية، بل يعرفون مكانة التربية فى حياة الناس أفرادًا صغارًا وشبابًا ورجالاً حين يذهبون إلى الجامعات -لأن الجامعة مدرسة أيضا- وحين يتلقون التعليم فى أى نوع من أنواع المدارس[3].

- والتربية فى جوهرها ولبابها بناء لشخصية الإنسان على أحسن ما يكون البناء، فى كل مراحل حياته حتى يبلغ من العمر ما يمكنه من تكوين بيت مسلم.

بل إن التربية الإسلامية مستمرة مع الإنسان فى كل أطوار حياته، لا يستطيع أن يتوقف عنها فضلا عن استغنائه عنها أو تصوره أنه أصبح أكبر من التعلم. لأن الله تعالى علمنا أن نتزود من العلم ما حيينا، وطلب من خاتم رسله وأكمل الناس علمًا عن طريق الوحى وطالبه بأن يدعو قائلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. والرسول ﷺ يقول فيما

(١) انظر لنا فى تأثير البيت فى الناشئة كتاب: تربية الناشئ المسلم - نشر دار الوفاء بالقاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م. وقد أعدنا طبعه بعنوان التربية الإسلامية فى البيت- نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م. وهو الكتاب الأول من سلسلة من ثلاثة كتب: ثانيها التربية الإسلامية فى المدرسة، وثالثها: التربية الإسلامية فى المجتمع وهو الذي نكتب آخر أبوابه الآن.

(٢) نشرته دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ثم توالت طبعاته.

(٣) أوسعنا ذلك بحثًا ودراسة فى كتابنا التربية الإسلامية فى المدرسة - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

رواه الطبراني - في الأوسط- بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

٤- والمجتمع:

المجتمع بأوسع معانيه وأجمع تياراته التي تسوده، وتحكمه وتعطيه القيم التربوية أو تثبت له تلك القيم التي حصل عليها من بيته أو مسجده أو مدرسته في هدى الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

ومن هذه التيارات التي تحكم المجتمع:

- التيارات الاجتماعية:

وتتمثل هذه التيارات من حيث شكلها في الجماعات والجمعيات، والهيئات والمؤسسات، وكل جماعات المجتمع المدني.

ومن حيث محتواها تتمثل التيارات الاجتماعية في الدين والقيم الاجتماعية والخلقية السائدة في المجتمع.

- والتيارات العلمية والتعليمية:

وهذا التيار يبدأ من السنوات الأولى للتعلم، ثم تحصيل العلم والتعليم، ثم البحث العلمي النظري ثم التطبيق العملي للعلم في صوره العديدة التي تمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة وتسخير ما فيها لصالح دنياه وآخراه.

- والتيارات الثقافية:

التي تصل الإنسان بتراثه ليفيد منه في حاضره ومستقبله، بل إن التيارات الثقافية المعادية للعرب والمسلمين لابد من النظر إليها بعين الاعتبار، وكشف ما فيها من مغالطات، ومواجهة أضرارها وسلبياتها.

- والتيارات السياسية:

وهذه يدخل فيها الحاكم والحكومة والنظام، والسلطات المعروفة التي تسيِّر نظام الحكم وهي السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية، وما في المجتمع من سلطات فكرية وإعلامية لهاتين السلطتين من أجهزة ومؤسسات.

- والتيارات الاقتصادية:

ابتداء من البحث عن العمل -الذى توفره الحكومة- ثم الحصول عليه وفق فرص متكافئة، والكسب والادخار والاقتناء، وإنتاج السلع والخدمات، والتنقل بالأموال بحرية لا وفق شعارات جوفاء كاذبة.

● هذا المجتمع بتلك السعة وهذا التعدد هو مؤسسة تعليمية، ذات أثر فى الناس أكبر من المؤسسات التى ذكرناها وهى: البيت والمسجد والمدرسة، فهذه المؤسسات الثلاث محدودة الأثر إذا قورنت بالمجتمع، لأن تأثير المجتمع يستمد قوته من تعدد مؤسسات المجتمع واستمراريتها بغير قيود زمانية كالبيت والمدرسة، أو قيود زمانية كالمسجد؛ لذلك يستمر المجتمع فى تعميق ما تلقاه المواطن من بيته أو مسجده أو مدرسته.

وبعد فإن هذه المؤسسات التربوية يجب أن تحظى فى المجتمع الإسلامى أكبر الاهتمام، وأعظم الدفاع عنها أن تحارب، أو يتغير اتجاهها، أو تحيد عن أهدافها.

مع تذكر أن أعداءنا لا هم لهم أكبر من صرف مؤسساتنا التربوية عن أهدافها، حتى لو أدّى بهم ذلك إلى اختلاق الأكاذيب والمفتريات ثم شن حرب على أحد بلاد المسلمين واحتلاله، وترويع الآمنين غير المحاربين، وهدم البيوت وقلع الأشجار، والاستيلاء على المياه والتربة الصالحة للزراعة!![1]

أو احتلال البلاد واعتقال المواطنين وتعذيبهم وإهانتهم وإهدار إنسانيتهم[2]، وادعاء أن المقاومين للمحتل إرهابيون يخطفون الآمنين ويطالبون بمطالب ليس هدفها إلا توسيع الخلاف بين المسلمين والدول التى اختطف منها أفراد.

وإن تأملا بسيطا فيما يعلن على ألسنة المقاومين ليؤكد أن هؤلاء المقاومين إما من الأمريكان أو اليهود -المخابرات الأمريكية أو «الموساد» فى العراق- والدليل عندى على ذلك خطف الصحفيين الفرنسيين، واشتراط إلغاء قانون الحجاب فى فرنسا حتى يمكن الإفراج عنهما!!!

فلنكن من هؤلاء على حذر ولنكذب أمريكا فى كل ما تقول، فقد عودتنا الكذب والبهتان، ولنعلم أن ما تريده أمريكا من بلادنا هو نفس ما تريده إسرائيل، والدليل على ذلك ما فعلته أمريكا فى العراق لصالح إسرائيل، وما تفعله فى السودان جنوبيه وغربيه!!!

*****

---

(١) كما تفعل إسرائيل فى فلسطين وفى لبنان على الرغم من الهيئات الدولية وقرارات مجلس الأمن.

(٢) كما فعلت أمريكا فى أفغانستان والعراق.

الوسيلة الثانية

الدعوة والحركة

لابد لنا أن نذكر، بل نؤكد أن الدعوة والحركة وسيلتان لتحقيق الأهداف السبعة التى تحدثنا عنها ونحن نوضح أهداف المجتمع الإسلامى، بل جعلناها صُلْب الكتاب ومتنه وعموده، وما جاء قبلها أو بعدها إنما دعت إليه الحاجة إلى توضيحها.

هذه الأهداف السبعة -كما ذكرنا- لها وسائل تعيمن على تحقيقها هى: التربية والدعوة والحركة، والجهاد فى سبيل الله تعالى.

وقد تحدثنا بإيجاز عن الوسيلة الأولى: التربية.

ونتحدث الآن بإذن الله عن الوسيلة الثانية: الدعوة والحركة. وحديثنا عن تلك الوسيلة يشتمل على نقطتين:

- الدعوة والدعاة.
- والحركة والحركيون.

١ - الدعوة والدعاة:

نعنى بالدعوة الدعوة إلى الدين الحق الذى ختم الله تعالى به الأديان السماوية جميعًا، أى نشره والتبشير به وإقناع الناس بقيمه ومبادئه، ومنهجه ونظامه، ثم ترك الناس بعد هذا التوضيح والإقناع من شاء منهم فليؤمن ومن شاء بقى على ما هو عليه من كفر، كما دعا إلى ذلك القرآن الكريم، قال الله فقال: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

والدعوة إلى الدين الحق وسيلة ناجحة من وسائل تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى، لأن هذه الأهداف لا يعمل على تحقيقها إلا رجال مؤمنون صادقون ينشرون الدين الحق فى الناس، وهؤلاء هم الدعاة إلى الله إلى الدين الحق.

وعند تأملنا فى هذه الأهداف السبعة للمجتمع الإسلامى وهى:

- تطبيق منهج الله ونظامه تطبيقًا عمليًا فى حياة الناس.
- وصيانة المجتمع الإسلامى من كل ما يعرضه للخطر.

- وتحقيق الأمن فى داخل المجتمع وخارجه.

- وممارسة الحقوق والالتزام بالواجبات.

- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين.

- وتحقيق الوحدة بين المسلمين.

- وتأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى.

● عند التأمل والتدبر فى هذه الأهداف نجدها جميعا بحاجة ماسة إلى دعوة إليها وإلى دعاة يجاهدون من أجل تحقيقها وتطبيقها على حياة الناس.

ولنذكر على ذلك بعض الأمثلة:

● تطبيق منهج الله ونظامه عمليا فى حياة الناس، يعنى لدى الدعاة إلى الله أمورا على جانب كبير من الأهمية من أهمها:

- نقل الناس من الكفر أو النفاق أو الفسوق أو العصيان، إلى الإيمان والإسلام والطاعة، وهذا عمل يحتاج إلى مهارة من الداعى، وإلى استعداد من المدعو، وإلى بَصَر بفقه الدعوة إلى الله.

- ونقل الناس من التفكك الأسرى والاضطراب الاجتماعى يصاحبه دائمًا قلق اجتماعى ثم صراع اجتماعى، قد يفضى إلى عزلة اجتماعية أو شذوذ اجتماعى، نقلهم من ذلك كله إلى التفاعل الاجتماعى، والتضامن والتكافل، بل إلى الرفاهية الاجتماعية، كل ذلك النقل لا يتم إلا من خلال دعوة ودعاة يأخذون بأيدى الناس إلى قيم الإسلام ومبادئه.

- وتخليص الناس من مشكلاتهم السياسية، بحيث ينقلون من ظلم الحكام إلى عدل الإسلام، ومن الجور والاستبداد إلى العدل والشورى والمساواة فى الحقوق والواجبات، ومن إهدار الحقوق والحريات إلى احترام الحقوق وصيانة الحريات، وهذا عمل لا يتم إلا من خلال دعوة ودعاة.

- ونقل الناس من التهميش والإهمال، ومن المؤاخذة على إبداء الرأى والمعارضة السياسية، إلى الإيجابية والاحترام والتقدير، وإلى الترحيب بالرأى الآخر مهما يكن مخالفا لرأى الحكومة أو الحاكم؛ لأن منطق المجتمع الإسلامى هو البحث عن الحق

وعن الحكمة والصواب، وليس مهما أن يكون الرأى صادرا من هذا أو ذاك، وكل ذلك يحتاج إلى دعوة وتبصير بهذا الدين الحق، وإلى دعاة مخلصين فى تنوير الناس ووضع عقولهم وقلوبهم على قيم الإسلام ومبادئه ومنهجه ونظامه.

- ونقل الناس من ضيق العيش، والفقر والحاجة بسبب البطالة أو العجز عن العمل أو تقدم السن، إلى سعة العيش ويسر الرزق، ووفرة فرص العمل، وإلى تأمين الناس ضد البطالة والعجز والشيخوخة، فى ظل مجتمع إسلامى يطبق منهج الله ونظامه على الحياة الإنسانية.

إن نقل الناس من هذه الأحوال المريضة البائسة لبعدها عن منهج الله ونظامه، إلى تلك الحياة الإسلامية الإنسانية الناجحة الهادفة إلى إرضاء الله تعالى، يحتاج بكل تأكيد إلى دعوة إلى هذا الدين الحق وإلى دعاة يخلصون فى نشر هذا الدين، ليتم نقل الناس من الضياع إلى منهج الله ونظامه الذى به تعمر الدنيا والآخرة.

هذا عن الهدف الأول باختصار وتركيز، أما التوسع فقد تحدثنا عنه ونحن نتحدث بالتفصيل عن هذا الهدف الأول.

- وإن صيانة المجتمع الإسلامى عن كل ما يعرضه للخطر من داخله، كتقصير الناس وإهمالهم فى أداء واجبهم، أو فساد بعض الناس، أو حبهم للإفساد، أو عمل بعضهم على بذر بذور الفتنة، كل ذلك يحتاج إلى دعوة ودعاة.

وصيانة المجتمع عن الأخطار الوافدة عليه من خارجه، كالأفكار المضادة للفكر الإسلامى، والتيارات المعادية لقيم الإسلام ومبادئه، ومثل مخططات اليهود والأمريكان والروس، لإلحاق الأضرار بالإسلام والمسلمين، حاضرهم ومستقبلهم.

إن العمل على صيانة المجتمع من الأخطار المفروضة عليه من الخارج، يحتاج من الدعاة إلى الله إلى مجهود كبير، وعمل متواصل، وصبر وثبات، لكشف هؤلاء الأعداء والتحذير منهم ومن مخططاتهم والإغراء بهم لمقاومتهم والعمل على طردهم وإجلائهم عن أى أرض احتلوها أو استوطنوها صيانة للمجتمع الإسلامى عن تلك المخاطر الداخلية أو الخارجية.

- وتحقيق الأمن والأمان داخل المجتمع ليأمن الناس على أنفسهم وذويهم وأعراضهم وأموالهم وما يملكون، وتأمينهم اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا، ونفسيًا

وعقليًا، وبدنيًا، على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع والدولة والأمة، كل هذه الأنواع من التأمين لا تتم عفوًا أو دون تخطيط وتنفيذ وجهود بل تضافر هذه الجهود، وكل ذلك لا يتم إلا من خلال دعاة يقنعون الناس بالعمل ويبصرونهم بحقوقهم وواجباتهم، وذلك جوهر الدعوة إلى الله تعالى.

- وغالبًا ما يكون أمن الدولة بحاجة إلى علاقات دولية يقظة حذرة قادرة على المبادرة حينًا، وعلى تثبيط خطط العدو حينًا آخر[1].

والعلاقات فى كل ظروفها وملابساتها تحتاج إلى الأمن فى حالتى السلم والحرب.

- وكل ذلك يحتاج إلى دعاة إلى الدين الحق، يفقهون الناس بحقيقة الأمن فى داخل المجتمع ومتطلباته، وإلى التعريف بحقيقة الأمن خارج المجتمع ومدى احتياجاته المادية والمعنوية ليكون الناس على حذر ووعى، وكل ذلك يوجبه الإسلام ويراه فى بعض الأحيان فرضًا عينيًا، وفى بعض الأحيان فرض كفاية، أى أنه لا يسمح للمسلمين أن يتخلوا عن الحذر مما يدبره لهم أعداؤهم، والقرآن الكريم يقول: ﴿ ... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ....وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ... ﴾ [النساء: ١٠٢].

وما كان ذلك كذلك إلا لأن الأمن هدف كبير، يعزز إنسانية الإنسان، ويعطيه التكريم الذى كرمه الله تعالى به.

وكيف يتم ذلك كله، أو بعضه دون دعاة إلى الله يعلمون الناس الجهاد والرباط فى سبيل الله، وتأمين الثغور والحدود حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة وهم ساهون أو مقصرون أو مهملون، لأنهم فى هذه الأحوال كلها يعصون الله ورسوله.

- وممارسة الحقوق بعد معرفتها، والالتزام بأداء الواجبات بعد معرفتها كذلك؛ ذلك هدف من أهداف المجتمع الإسلامى، الإنسان الذى لا يعرف حقوقه كلها جاهل يحتاج إلى من يعلمه وينوره، والإنسان الذى لا يمارس حقوقه يستضعف بعد حين وبخاصة إن كان يعيش فى مجتمع لا تسوده قيم الإسلام ومبادئه.

---

(١) البلدان التى يحكمها عسكريون أو نظام حكم استبدادى، كثيرًا ما تبالغ فيما تسميه «أمن الدولة» فتعتسف وتظلم وتأخذ بالشبهة وتحكم فى ظل قوانين الطوارئ وتلقى القبض على من تشاء، وتعذبه بل تنكل به فى غيبة القانون والقاضى الطبيعى ويبررون هذا الفساد بالمحافظة على أمن الدولة!!! وهى فى الحقيقة ثورة الناس على نظام حكمهم، فيبادرون بهذه الأعمال!!!

والإنسان الذى لا يعرف واجباته مغرور أحمق، بل سفيه إن تصور نفسه بغير واجبات، وهو فى حاجة ماسة إلى من يعلمه واجباته، ويشجعه على القيام بها، ويبصره بعقاب من لم يؤد واجباته، عقوبات الدنيا والآخرة.

وترك ممارسة الحقوق في بعض الأحيان تفضل ممن تنازل عنها يثاب عليه من الله تعالى.

أما الإهمال فى أداء واجب فعقابه عند الله كبير، لأن الله تعالى هو الذى أوجب الواجبات، فمن تركها عصاه سبحانه وتعالى، ومن عصى الله تعالى ناله عقابه، للمعصية من جانب وللإضرار بالنفس وبالمجتمع من جانب آخر.

– هذا الإنسان الذى لم يؤد واجبًا أوجبه الله تعالى عليه إن وقع بسبب هذا الإهمال أو التقصير ضرر به أو بغيره من الناس، فإن عليه من الوزر بمقدار ما وقع من أضرار، لأنه تخلى عن سد ثغرة بتخليه عن أداء واجبه، فحرم نفسه من رضا الله تعالى، وخرج عن دائرة من أثنى الله تعالى عليهم لأنهم يسدون الثغور، فكانوا أول من يدخلون الجنة.

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم قال: **«أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم؛ فتقول الملائكة نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا لى يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره،ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عندئذ فيدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبى الدار».**

- إن سَدَّ الثغور التى قد يصاب المسلمون من ترك سدها بضرر، ودفع المكاره التى قد توجه إلى المسلمين هى الترجمة الحقيقية الفعلية لأداء الواجبات.
- وإن الذين تُسَدّ بهم الثغور وتتقى بهم المكاره بحاجة إلى من يبصرونهم بهذه الواجبات وإلى من يعلمونهم عن هذه الثغور وتلك المكاره، وليس أولئك إلا الدعاة إلى الله تعالى وإلى الدين الحق الخاتم.

● وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين فى المجتمع الإسلامى كله هدف خامس من أهداف المجتمع الإسلامى السبعة، وهذا التكافل الاجتماعى له أعظم الآثار النفسية والاجتماعية فى الناس، لأن أسوأ ما يعيش الإنسان من حياة هو أن يشعر أنه وحده وبخاصة فى شدته وضنكه، بل إنه ليحس بالسعادة إن شعر أن بجواره من يشاركه أفراحه ومسراته، هكذا فطر الله الإنسان اجتماعيًا أو مدنيًا بطبعه.

والتكافل الاجتماعى فى جوهره عون على الشدائد وسد لباب الاحتياج وظل ودفء يستظل به الإنسان المحرور ويستدفئ به الإنسان المقرور،وما شرع الله التكافل الاجتماعى ولا أمر به إلا لمثل هذه المواقف أى دفع الضرر والحاجة عن الناس- لأن الإسلام دين الرحمة والأخوة.

● وهذا التكافل الاجتماعى -كما قدمنا- يقوم على أسس ركينة متينة هى:

- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- والتوازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع.
- وتأمين حياة العاجزين عن العمل والعاطلين ومن إليهم.
- وتطبيق النظام الإسلامى للملكية.
- وتطبيق النظام الإسلامى للميراث والوصايا.
- وتطبيق نظام الزكاة.
- وتوجيه إنفاق المال.

هذه الأسس التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى هى التى تجعل من التكافل الاجتماعى الإسلامى أفضل نظام للتكافل عرفه الناس فى ماضيهم أو ربما يعرفونه فى مستقبلهم، لأن هذه الأسس جميعًا جاء بها شرع الله ومنهجه، فأمر بها وألزم كل مسلم قادر على أن يفى بها، وجعل من مجموعها تكافلاً اجتماعيًا يدفع عن الناس فقرهم وحاجتهم وعجزهم عن ممارسة حياة إنسانية كريمة.

وما كان ذلك ليكون معروفًا لدى المسلمين إلا أن قام به وبالتبصير بأبعاده وأهدافه دعاة إلى الله إلى الدين الحق، وإلى الطريق المستقيم.

● وتحقيق الوحدة بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها هدف غال وعزيز، يتلألأ بين أهداف المجتمع الإسلامى، ويؤدى بالمسلمين إلى العزة والمنعة، والقدرة على ردّ كيد الأعداء وعدوان المعتدين.

وهذه الوحدة بين المسلمين ليست كلمة شاعرية أو خطابية، وإنما هى أنواع من الوحدة لا تقوم للمسلمين قائمة إلا إن تجمعت هذه الأنواع وسكنت عقول المسلمين وقلوبهم، وعرفت طريقها إلى أوطانهم فى كل زمان ومكان.

● إن أنواع الوحدة متشابكة متكاملة، متميز بعضها عن بعض ولا يغنى بعضها عن بعض، وتلك الأنواع هى:

- وحدة أهداف الأمة الإسلامية.
- ووحدة الدين الحق الخاتم التام الكامل الذى لا يترك منه شىء، ولا يضاف إليه شىء فيما يتصل بثوابته.
- ووحدة المنهج والنظام.
- ووحدة الثقافة؛ مصادرها، وتوجهاتها.
- ووحدة اقتصادية.
- ووحدة قوة أى جيوش مقاتلة موحدة.
- ووحدة سياسية تبدأ بوحدة السياسة الخارجية.

● كل هذه الأنواع من الوحدة لا يمكن أن تتحقق إلا أن توافر على التبصير بها والتفقيه بمقدماتها ونتائجها دعاة إلى الله وإلى الدين الحق، يحتسبون أجورهم عند الله على ما يبذلون فى هذه السبيل من جهود.

إن الدعاة إلى الله، إلى الدين الحق على طول التاريخ الإسلامى هم فرسان هذا الميدان وحماته قبل أن يكونوا دعاته والمبشرين به؛ لأن الدعاة دائمًا عليهم الحمل الأكبر والعبء العظيم، والأجر الأعظم عند الله تعالى كما وعد بذلك سبحانه وتعالى.

● وتأمين أهل الأديان السماوية الأخرى الذين يعيشون فى كنف المجتمع الإسلامى، من أهداف المجتمع الإسلامى التى لا تفارقه طالما هو مجتمع إسلامى، فهو هدف اليوم وغدًا وبعد غد؛ لأنه لا يتصور أن يعيش فى كنف المجتمع الإسلامى مظلوم أو مهضوم الحق وهو مجتمع العدل والإنصاف ومجتمع القيم الخلقية الإنسانية التى اختارها الله تعالى له.

- وهذا الهدف وهو تأمين أصحاب الأديان الأخرى على أنفسهم وأديانهم وأعراضهم وذراريهم وأموالهم، هو واجب كل أحد فى المجتمع الإسلامى، فهو واجب الأفراد والجماعات والجمعيات والمؤسسات والهيئات والحاكم والحكومة، وكل جماعات المجتمع المدنى، لأن ذلك هو العدل، وكل إنسان فى المجتمع مطالب بالعدل، والإنصاف.

● وقد تكفل الإسلام بحقوق عديدة لأهل الأديان الأخرى على نحو ما بينا ونحن نتحدث عن هذا الهدف، فى مقابل واجبات ميسرة يعفى منها كل عاجز عن أدائها من امرأة أو طفل أو شيخ أو عاجز عن القتال.

وجوهر التربية الإسلامية كما نعرف يؤكد أن كل حق لأحد يقابله واجب يقوم به صاحب هذا الحق، وما لم يكن ذلك كذلك لحدث فساد وإفساد وضلال وصراع وحروب وهدمت صوامع ومساجد وبيع، وما كان ذلك فى الإسلام مسموحًا به بحال، ولن يكون مسموحًا به أبدًا.

● وتوضيح حقوق أهل الأديان الأخرى وبيان واجباتهم لا يكون إلا على أيدى الدعاة إلى الله، أهل العلم والحلم والفقه والبصر والبصيرة، ولو لم يقوموا بذلك فمن يقوم به؟

وبعد: فتلك صورة مجملة لأهداف المجتمع الإسلامى السبعة التى ذكرنا من قبل تفصيلاً لها، وهذا أثر الدعوة إلى الدين الحق والدعاة إليه فى تحقيق هذه الأهداف.

٢- الحركة والحركيون:

الحركة هى التغير المتصل المستمر، وقد تكون الحركة فى الكَمّ أو فى الكيف، أو فى المكان، أو فى الوضع.

والمسلم يتحرك بدينه، منهجه ونظامه باستمرار وتواصل، يتحرك به فى الناس حيث يكونون، ويتحرك بدينه فى المكان مهما يكن بعيدًا لأنه لابد أن يصل الإسلام إلى كل مكان، ويتحرك المسلم بدينه فى الزمان حاضره ومستقبله، لا يكف عن الحركة ما دام حيًا، ويتحرك بدينه فى كل أوجه النشاط الإنسانى، لأنه ما من نشاط مادى أو معنوى يصدر عن الإنسان إلا وللإسلام توجيه له وتأثير فيه.

والحركة فى مصطلح الاجتماعيات هى: التغيرات الشديدة فى أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى أيا كان نوع هذا النشاط.

● والحركة أنواع؛ منها ما هو فكرى أو ثقافى أو فنى أو أدبى، ومنها ما هو سياسى، وما هو اقتصادى، وما هو اجتماعى.

● وما دمنا نتحدث عن المجتمع الإسلامى، فإن اهتمامنا بالحركة الاجتماعية يأخذ لدينا أولوية.

فالحركة الاجتماعية : تيار فكرى أو ثقافى يدفع طبقة من الناس إلى تنظيم صفوفها وتحديد خطوات عملها وتوحيدها للوصول إلى تحقيق هدف بعينه.

وقد يتجه هذا العمل إلى تحقيق أهداف عديدة منها:

- تعديل نظام اجتماعى قائم، ليكون بهذا التعديل أحسن.

- أو الإبقاء على نظام اجتماعى كما هو.

- أو تغيير نظام اجتماعى أو إزالته؛ لما فيه من خلل أو قصور.

● ولأن أى نظام سياسى هو جزء من النظام الاجتماعى فإن تغيير النظام الاجتماعى يتناول تغيير النظام السياسى، ومن أجل ذلك فإن حكومات الظلم والاستبداد تخشى دائمًا أى حركة اجتماعية، فتدينها وتحاربها بعد أن توجه ضدها حملة إعلامية مكثفة؛ لأنها تملك وسائل الإعلام وأجهزته، ثم تعصف بها وتطارد أعضاءها وتجرمهم وتقدمهم إلى محاكمات استثنائية وإلى قضاة غير طبيعيين؛ تفعل حكومات الاستبداد -أو الحزب الواحد- ذلك دفاعًا عن نفسها ومكاسبها ومكاسب أعضاء حزبها،ومنافقيها الطامعين فى مكاسب منها.

وسر ذلك العداء أن حكومات الاستبداد لا ترى لأحد من المواطنين -حتى لو كان من حزبها- الحق فى تغيير النظام أو تعديله لضيق أفقها وضحالة فكرها وتصورها -خطأ- أن أحدا لا يفهم كما تفهم هى، ولإيمانها بأنها حكومة أبدية لا يجوز لأحد أن يفكر فى تداول شىء من السلطة معها، لأن السلطة فى تصورها الخاطئ -أيضا- ميراث مستبدين عن مستبدين، لا ينبغى أن يشارك فيه أحد.

● وفى تحدى هذه الحركة الاجتماعية وتجريمها وإدانتها تعويق لتقدم المجتمع وتطوير الحياة فيه نحو الأحسن، وذلك دائمًا من الأضرار التى تجلبها حكومات الظلم والاستبداد إلى المجتمع الذى تحكمه، لأن الحياة السياسية والاجتماعية يجب أن تخضع باستمرار للتعديل أو التغيير، لأن تلك سنة الحياة.

وهذه الأضرار هى التى تحمل الحركات الاجتماعية على العمل وعلى تحمل المتاعب، وبذل التضحيات فى سبيل دفع هذه الأضرار عن المجتمع.

- والحركة الإسلامية والحركيون الإسلاميون يؤمنون إيمانًا راسخًا بوجوب التعديل أو التغيير لكل ما فيه ضرر بالمجتمع، ومن هنا تعاديهم حكومات الظلم والاستبداد والحزب الواحد والرئيس الواحد والأمير الواحد، والعبقرى الواحد، والملهم الواحد.

ومن الأمور الداعية للأسف وللإصرار على العمل والحركة أن معظم بلدان العالم الإسلامى تحكمها حكومات ظلم واستبداد عسكرية أو مدنية.

ومن أجل ذلك لا تجد بلدًا من بلدان المسلمين فيه حركة إسلامية إلا وهى موضع اضطهاد من حكومات الظلم والاستبداد على فترات زمنية فاقت نصف قرن من الزمان أو أكثر من ذلك.

وأصبح كثير من حكام العالم الإسلامى يباهون أمام أعداء الإسلام من الغرب أو الشرق بأنهم يوجهون للحركات الإسلامية أعتى الضربات وأضراها، وحتى افتخر مستبد من هؤلاء الحكام بأنه اعتقل فى ليلة واحدة ثمانية عشر ألف معتقل!!!

- والحركة بهذا الدين الحق فى كل الناس وفى كل الآفاق واجب كل مسلم مادام قادرًا على هذه الحركة، ومستعدًا لها بالعلم والبصيرة والعمل والجهاد.

إن الحركة بالدين الحق انطلاق عملى تطبيقى لنشر الدين الحق والذهاب به إلى حيث يكون الناس والأحداث؛ كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون، والمصلحون المجددون، لأن هذا هو الأصل وهو الذى مكن الإسلام من الانتشار فى كل أرجاء الدنيا.

- إن الحركيين أعمق نظرًا وأحد فكرًا من بعض أولئك الدعاة الذين يظلون فى أماكنهم ينتظرون أن يحضر إليهم الذين يريدون أن يعرفوا عن الإسلام، بل إن الحركيين أكثر تأسيًا واقتداء برسول الله ﷺ الذى علمنا الحركة بدين الله إلى القبائل والبلدان فى الجزيرة العربية، ثم أرسل رسله ودعاته إلى كل مكان أمكنهم الوصول إليه فى ذلك الزمان، وقد أخذت حركته بالدين شكل كتب ورسائل ومبعوثين إلى الملوك والأمراء والرؤساء.

- إن الحركة والحركيين يسهمون فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى بأسلوب عملى حركى متنقل عامل على التعديل والتغيير ما وجد الحركيون إلى ذلك سبيلاً، فهم لا يقلون أهمية فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى السبعة عن سواهم من الدعاة الذين أوضحنا عملهم فى هذه الأهداف.

• ونرى من الضرورى أن نوضح أعمال هؤلاء الحركيين الإسلاميين فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى، على نحو موجز، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

- ففى مجال الهدف الأول وهو تطبيق منهج الله تعالى فى حياة الناس، يحتاج تحقيق هذا الهدف الأول إلى حركى يذهب بهذا المنهج إلى كل مكان ويبلغه إلى كل إنسان، فيغشى بحركيته المجالس والتجمعات والبلاد والعباد، ولا يظل ساكنًا فى مكانه حتى يأتيه الناس من أماكنهم.

- وفى مجال صيانة المجتمع المسلم عن الأخطار المحدقة به من داخله أو خارجه، فلابد من حركى يذهب إلى الناس حيث هم فيبصرهم ويحذرهم، ويكشف لهم خطط أعداء الإسلام الذين يدبرون له الشر والضرر،ولو لم تكن حركة وحركى بهذا الدين لغشى الناس خطر عظيم.

- وفى مجال تحقيق الأمن فى المجتمع الإسلامى فى داخله وفى خارجه يحتاج الأمر إلى حركى يذهب إلى الناس حيث هم،ولا يشترط أن يخطب فيهم أو يحاضرهم، وإنما حسبه أن يجالسهم ويحاورهم، حيث يوضح لهم أهمية الأمن النفسى والاجتماعى والسياسى، إنه بحركته وحيويته وفاعليته وتوجيهه وتسديده خير من يعين على تحقيق هذا الهدف من أهداف المجتمع الإسلامى وبخاصة فى البلاد البعيدة عن بلاد الإسلام.

- وفى مجال ممارسة الناس لحقوقهم، وأدائهم لواجباتهم، لابد من حركى يذهب إلى الناس فى أماكنهم ليعلمهم ما هى حقوقهم وما هى واجباتهم، ويبصرهم بما لهم وما عليهم، ويحذرهم من الإهمال والتقصير فى أداء الواجبات، ويبصرهم بأن عدم تمسكهم بحقوقهم يغرى الحاكم المستبد أن يهضم هذه الحقوق، أو يعتبرها منحة منه، يعطيها عندما يشاء ويحرم منها عندما يريد.

- وفى مجال تطبيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإن الاحتياج إلى الحركى فى تحقيق هذا الهدف احتياج أساسى، فإنه يذهب إلى حيث أصحاب الحاجات، وأصحاب المال والجاه والسلطان، وييسر بحركته أن يتكافل هذا مع ذاك، مستعينًا على ذلك بحركته ونشاطه وخدماته التطوعية لأصحاب المال أو الجاه والسلطان، حتى إذا عطفهم على أصحاب الحاجات لم يجد عندهم جفوة أو غفلة عما يجب عليهم فى أموالهم من تكافل مع إخوانهم غير القادرين من غير مخارج الزكاة المفروضة.

إن الدعاة إلى الله إلى الدين الحق تبـدو جهودهم فى العظة والنصيحـة، والتعامل مع الناس فى نقلهم من الضلال إلى الهدى بالحكمة والموعظة، وأقـصى ما يستطيعون هو الجدال بالتى هى أحسن، أمـا الحركيون فهم حركـة دائبة واعية حريصـة على التعديل والتغيير لكل ما هو معارض أومعاند لقِيَم الإسلام ومبادئه.

إن الحركى يتميز بأنه انتقل إلى الناس والأماكن البعيدة مضحيًا بجهده ووقته، وماله إن كان من أصحاب المال، ليسهم فى تحقيق التكافل الاجتماعى.

- وفى مجال العمل على تحقيق الوحدة بين المسـلمين، بكل أنواعها كما أشرنا إلى تلك الأنواع من قبل، ونحب أن نعـاود التذكيـر بها الآن. وهى: وحدة الهـدف، ووحدة الدين، ووحـدة المنهج والنظام، ووحدة الثـقافـة، ووحدة الاقـتصـاد، ووحدة القـوة العسكرية، ووحدة السياسة الخارجية.

كل هذه الأنواع من الوحـدة لازمة للأمـة الإسلامـية بل هى التـعبيـر الصحـيح عن الوحدة، وهذا العمل لتـحقيق كل هذه الأنواع من الوحدة يحـتاج إلى الحركى المتنقل دائمًا بين الناس وبين الأماكن وبخاصة ما بعد منها عن ديار الإسلام.

إن الحـركى فى هذا المجال هو التـيار الذى ينفـث حُمـيَّاه فى الناس ليـوقظ عقـولهم وقلوبهم ويشعرهم بالدفء والأمان، ويقنع القاصى والدانى بأن الأمة الإسلامية لاحياة لها إلا بأن تكون أمة واحدة.

- ألا رحم الله زمانًا كان الحركى المسلم يستطيع فيـه أن يتحرك بالدين الحق فى رقعة العالم الإسلامى كلهـا ممتطيًا صهوة جواده أو ناقـته أو ماشيًـا على قدميه، لا تعـوقه حدود ولا قيود، ولا يحتاج تأشيرات دخول أو خروج، من تلك القيود والسدود التى وضعها أعداء العالم الإسلامى، ليزيدوا من فـرقة المسلمين وانقسامهم، بعد أن سـيطروا عليهم فاحتلوا بلاهم واسـتوطنوها، لأن الأعـداء عرفـوا منذ زمن باكر أن قـوة المسلمين فى وحـدتهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، فعملوا مـا وسعهم على أن يباعدوا المسلمين عن سبب قـوتهم ووحدتهم، وأغـروهم بأنماط من الحياة ظاهرهـا الدعة والجمـال،وجوهرها العناء والوبال!!

- ألا رحم الله زمانًا كـان المسلمون فيـه مع كتاب الله وسنة رسـوله ﷺ، فكان أعداؤهم يفرون أمـامهم فى كل معركـة علمية أو ثقافـية أو عسكرية، لأن المسلمين كـانوا أقوياء بتمسكهم بكتابهم وسنة رسولهم ﷺ.

• ألا رحم الله زمانًا كان خليفة المسلمين ينظر فى السماء فإذا رأى سحابة خاطبها قائلاً: «اذهبى فأمطرى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك» أو كان أحدهم يقول وهو بالشام: «والله لو عثرت بغلة فى العراق لكنت مسئولاً عنها أمام الله لماذا لم أسَوِّ لها الطريق» أو كانت إحدى المسلمات عندما تتعرض لخطر، كما حدث من أحد العابثين فى دولة الروم أن شبك طرف ثوب امرأة مسلمة بغطاء رأسها دون أن تشعر، فلما قامت انكشف من جسمها ما لا يجوز أن ينكشف فاستغاثت صارخة مستنجدة بأمير المؤمنين يومئذ المعتصم العباسى فقالت: وامعتصماه، فأتاها الغوث وتحركت الجيوش لنصرة امرأة مسلمة!!!

ترى كم من امرأة مسلمة اليوم تداس كرامتها ويعتدى عليها وتغتصب بل تقتل هى وزوجها وأطفالها ويهدم بيتها على أيدى مجرمى هذا العصر وسفاحيه اليهود والأمريكان، فما يغيثها أحد من المسلمين أو غيرهم.

• إن هذا الزمان المعطر بأريج التمسك بالإسلام، وعبق الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لهو نعم الزمان، لأن المسلمين فيه كانوا فى أعز مكان، لأنهم أهل حركة ورغبة فى التعديل والتغيير لكل ما هو معارض للإسلام أو معاند له.

- وفى مجال تأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى على دينهم وذويهم ومالهم وما يملكون، وهذا هدف من أهداف المجتمع الإسلامى لا يقل أهمية عن سائر الأهداف؛ لأنه عدل وإنصاف.

إن تحقيق هذا الهدف لبحاجة إلى حركى يسعى وينتقل ويعدل ويغير ويبدل حتى يطمئن إلى أن كل أحد قد أخذ حقه وأمن على نفسه ودينه وماله وعرضه، وفارقه الخوف من أن يقع عليه حيف فى المجتمع الإسلامى.

إن أهل الأديان الأخرى يجب أن يجدوا فى ظل المجتمع الإسلامى ملاذًا آمنًا، وحقوقًا مرعية، وبرًا وعدلاً، لأن الله تعالى أمر المؤمنين بذلك، فى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

من لهؤلاء وأولئك أجدى عليهم من الحركيين بالدين الحق يعلون قيمه ومبادئه ويطبقونها على الناس وفى كل الآفاق؟

إنهم يحافظون على حقوق أهل الأديان الأخرى ويحترمونها مادام أصحابها لم يعادوا المسلمين، وإنهم ليعلنون البراء من أهل الكتاب الذين عادوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم -كما تفعل إسرائيل وأمريكا اليوم-!!!

- إن على الحركة الإسلامية والحركيين عبء العمل على تعديل كل ما يخالف الإسلام ليصبح موافقًا له، وعلى تغيير كل ما يعارض قيم الإسلام أو يناقض مبادئه، ليصبح موافقًا لقيم الإسلام ومبادئه.

وإن على الحركيين أن يقوموا بذلك لا ينفكون عنه بحال من الأحوال، لأن هذا واجبهم، ولهم أن يستعملوا فى سبيل التعديل والتغيير كل وسيلة شرعها الإسلام من أجل تحقيق تلك الأهداف، ومن تلك الوسائل الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمته هى العليا ومنهجه هو الحاكم بين الناس.

وهذا الجهاد فى سبيل الله هو الوسيلة الثالثة من وسائل التربية الإسلامية، وهو ما نتحدث عنه فى إيجاز فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

*****

الوسيلة الثالثة

الجهاد فى سبيل الله تعالى

الجهاد فى سبيل الله تعالى وسيلة عملية فاعلة من وسائل المجتمع الإسلامى فى تحقيق أهدافه، عندما يضم إلى الوسيلة الأولى فى تحقيق الأهداف وهى التربية والوسيلة الثانية وهى الدعوة والحركة، تتكامل هذه الوسائل وتتعاون فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى.

● على أن لوسيلة الجهاد فى سبيل الله تميزًا على الوسيلتين الأخريين بوصفه ذروة سنام الإسلام، وأرفع العبادات درجة، وأولاها بالتسبب فى مغفرة الذنوب وفى الفوز بإحدى الحسنيين النصر على العدو أو الشهادة فى سبيل الله تعالى.

● نحاول فى حديثنا عن الجهاد[1] أن نركز على ثلاثة موضوعات تكشف عنه بوصفه وسيلة من وسائل تحقيق المجتمع الإسلامى لأهدافه السبعة، وهذه الموضوعات هى:

- الجهاد والرد على التحدى.
- والجهاد وتحقيق أهداف المجتمع.
- وإعداد المجاهدين.

ونسأل الله العون والتوفيق.

١ - الجهاد والردّ على التحدِّى:

نعنى بالجهاد ما هو أعم من الحرب والقتال، أى نريد كل معانى الجهاد؛ لحاجتنا إلى اتخاذ هذه المعانى العديدة أسبابًا لتحقيق أهداف المجتمع الإسلامى السبعة التى ذكرنا.

لذلك نستعرض معانى الجهاد فى هذه الأسطر، وهى:

- بذل ما فى الوسع والطاقة، مع الاستمرار فى الطلب إلى الوصول للغاية.
- ومقاومة أهواء النفس ونوازع الشر فيها، وحفظها من همزات الشياطين ووساوسهم.
- وضبط السلوك قولاً وعملاً، وصمتًا وتركًا، بحيث يكون مع ما أحلّ الله تعالى، ومع اجتناب ما حرّم.

---

(١) لنا فى الجهاد كتابان: أحدهما: التربية الجهادية الإسلامية، والآخر: ركن الجهاد - نشر دار النشر والتوزيع الإسلامية.

- وحرب العدو وقتاله، والعدو هو عدو الله وعدو الإسلام والمسلمين إذا بيَّت الشر للمسلمين أو اعتدى عليهم.

ويستثنى من الأعداء من كانت لهم ذمة عند المسلمين أو عهد أو أمان ماداموا موفين بعهودهم ومواثيقهم.

- والتمسك بالحق والمجاهرة به، وأقوى ما يكون جهاد التمسك بالحق والمجاهرة به إذا كان أمام سلطان جائر، فإنه يضاف إلى معناه الشجاعة والتضحية، وهو عندئذ أفضل أنواع الجهاد، كما دل على ذلك عدد من الأحاديث النبوية منها:

- ما رواه أبو داود بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»**.

وفى رواية لأحمد: **«كلمة حق عند سلطان جائر»**.

- وما رواه ابن ماجة بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره والأثَرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، **وأن نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم»**.

- وإلزام النفس بالتوازن والانضباط مع قيم الإسلام فى الحكم على الناس والأحداث والأشياء، بحيث لا يضره من خالفه فى حكمه على الناس والأشياء ولا يثنيه عنه طرف آخر مهما كان لهذا الطرف من قوة، وقد أكد الرسول ﷺ هذا المعنى للجهاد فيما رواه مسلم بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله»**.

- وبعد هذه الجولة فى معانى الجهاد، نؤكد أن الجهاد فى سبيل الله بكل معنى من معانيه هو الأسلوب الأمثل فى الردّ على التحدى الموجه للإسلام والمسلمين، كما أنه وسيلة ناجحة فى تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى -كما سنوضح بعد قليل-.

- إن الجهاد بوصفه الأسلوب الأمثل للرد على التحدى الموجه للإسلام والمسلمين، يجب أن تربَّى عليه الأمة الإسلامية، ليستطيع كل فرد منها أن يردّ على هذا التحدى ويقاومه فى حدود طاقته ووسعه.

- ولابد لنا من تصور بل معرفة من يقفون وراء هذا التحدى ويمدونه بما استطاعوا من أسباب القوة، ومعرفة أنواع هذا التحدى.

- أمَّا مَنْ وراء هذا التحدى الموجه للإسلام فهم:

- إسرائيل واليهود قديمًا ووسيطًا وحديثًا.
- والولايات المتحدة الأمريكية بوصفها دولة يتسع فيها نفوذ اليهود إلى حد توجيه صنع القرار.
- والغرب وبخاصة الدول التى احترفت الاستيطان منه كبريطانيا وفرنسا وغيرهما.
- والاتحاد الروسى الآن والاتحاد السوفيتى السابق، بوصفه ملحدًا مستبدًا يكره الأديان جميعًا.

- وأمّا أنواع هذا التحدى فكثيرة نذكرمنها:

- إفساد أنظمة الحكم بجعلها طاغية مستبدة فى معظم بلدان العالم الإسلامى.
- والعمل على تجزئة العالم الإسلامى وتفتيته إلى دويلات وإمارات ودول وعائلات.
- والعمل على أن يسوء توزيع الثروة بين الناس،وما يترتب على ذلك من ظلم اجتماعى.
- والعمل على نشر الفقر والجهل والمرض، بإفساد أنظمة العمل والتعليم والطب والعلاج.
- وشن حملات التشويه والتشكيك ضد الإسلام، تلك الحملات التى يغذيها كثير من المستشرقين،وكل من يسمون أنفسهم مبشرين، وكثير من المتغربين المفتونين بالغرب الساخطين على أنفسهم وحضارتهم.
- إن المسلمين لا يستطيعون مقاومة هذا التحدى أو هذا التخريب المتعمد إلا بالجهاد فى سبيل الله تعالى بكل معنى من معانيه وبكل نوع من أنواعه؛ ولأجل ذلك فرض الله تعالى الجهاد وجعله فى ذروة سنام العبادات كلها، وجعله فرض عين إن حدث اعتداء على أى بلد مسلم، وفرض كفاية فى بعض الأحيان.
- الجهاد بكل معانيه وبكل أنواعه هو الزاد الذى يتزود به المسلمون لمقاومة أعدائهم وما يمارسونه ضد الإسلام من تحدٍ، هؤلاء الأعداء الذين احتلوا البلاد، وأذلوا العباد، وعاثوا فى الأرض فسادًا، فاعتدوا على الأجساد والأعراض والأموال، وأهدروا الحقوق وحرموا من الحريات، ومنعوا الناس من أبسط حقوقهم الإنسانية.

وإن أعمالهم هذه لا تزال تقوم عليها الأدلة والبراهين حتى يومنا هذا، وكذلك تلك الأعمال الشائنة غير الإنسانية[1].

- وأسوأ ما قام به أعداء الإسلام من عمل مضاد للإسلام والمسلمين هو عملهم على إقامة دولة لليهود فى فلسطين وطرد أهلها منها وتشريدهم بعد أكثر من عملية إبادة لهم!!!

ويد بريطانيا ملوثة بدماء العرب -عمومًا- والفلسطينيين -على وجه الخصوص- بريطانيا من أيام رئيس وزرائها «بالمرستون» إلى أن سلمت فلسطين لإسرائيل عام ١٩٤٨م، ما لإسرائيل حَلّ إلا بالجهاد فى سبيل الله.

- أما سائر أنواع التحدى والعداء فنذكر منها:

- موقف بريطانيا وفرنسا وأمريكا وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى من تأييد إسرائيل ومدها بالرجال والمال والعتاد والسلاح، فهل لذلك كله مقاومة إلا بالجهاد؟

- وموقف الدول الاستيطانية الباغية التى سَمَّت نفسها دولاً استعمارية فى تمزيق العالم الإسلامى بعد عملهم الدائب على إسقاط دولة الخلافة العثمانية، حتى أسقطتها لتقيم مكانها دولة علمانية تتحدى الإسلام وتقلع جذوره، ووضعوا على رأسها نصف اليهودى مصطفى كمال، صنعوا كل ذلك فى اتفاقيات فيما بينهم بعضها ظل سريًا مثل: اتفاقية «سايكس بيكو» وبعضها وكلوا به غشومهم وظلومهم الذى صنعوه على أيديهم، وباركه اليهود لأن أمه منهم، فقام بذلك بغاية الحقد والتحدى لكل ما هو إسلامى فى قصة مؤلمة طويلة جعل من فصولها إلغاء الأذان وتحويل بعض المساجد إلى «إسطبلات» للخيول والحمير.. والحديث فى أعمال هذا المغضوب عليه من الأتراك والمسلمين جميعًا ذو شجون، فكل أعماله معادية للإسلام والمسلمين منكلة بالمسلمين أشد التنكيل!!!

---

(١) هذه الأعمال أكثر من أن تحصي، ولكن حسبنا أن نشير إلى فعلته بريطانيا فى البلاد الإسلامية التى كانت تحتلها وبخاصة مصر والهند وإيران ودول الخليج والعراق والأردن، وما فعلته فرنسا فى الجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا، وما فعلته إيطاليا فى ليبيا والصومال والحبشة، وما لاتزال تفعله إسرائيل فى فلسطين، وما فعله الاتحاد السوفيتى السابق فى الجمهوريات الإسلامية الست: أذربيجان....، وما تفعله أمريكا فى أفغانستان والعراق والسودان.

فهل يُقاوم هذا التحدى إلا بالجهاد فى سبيل الله؟

- وقد أغرق أعداؤنا العالم الإسلامى بالتيارات المعادية لـلدين، والنحل والمذاهب المنحرفة عن الإسلام، كما أحيوا وشجعوا النزعات الإقليمية والقوميات والعرقيات والنعرات الطائفية والعرقية، مادامت تعادى الإسلام وتتحدى منهجه ونظامه.

وكم من فرقة ضالة مضللة اصطنعها هؤلاء الأعداء وغذوها بالفكر الجانح عن الإسلام، وجعلوها تتخذ من الإسلام اسمًا وشعارًا، وإن كانت فى تصورها أقرب إلى الإلحاد وأدخل فى الضلال المبين[1].

فكيف يقاوم المسلمون هذا كله؟

هل للمسلمين طريق فى المقاومة غير طريق الجهاد؟

- ولن تمحى من ذاكرة المسلمين ولو بعد مئات السنين ما فعلته بعض حكومات الولايات المتحدة بقيادة «بوش الأب ثم بوش الابن» من مخازى ومجازر فى العالم الإسلامى وهى أمور لا تليق بدولة وإنما هى عمل عصابة إجرامية.

● أما المخازى فمنها:

إغراء مشئوم العراق وسفاحها بحرب إيران الجارة المسلمة حربًا استمرت ثمانية أعوام تدعم فيها أمريكا العراق وتأمر أتباعها من العرب بدعمه، حتى استنزفت قوى البلدين مالاً ورجالاً وسلاحًا، وقاتل المسلمون بعضهم بعضًا.

وإغراء مشئوم العراق مرة أخرى لأنه أغبى من أن يتعلم وأضعف من أن يعصى لسفيرتهم أمرًا، فاعتدى على الكويت الجارة العربية المسلمة واجتاحها ونهب ما فيها، ليس ما يخص حكومة الكويت وحدها وإنما نهب ما يخص شعب الكويت!!!

وما كانت أمريكا لتوقعه فى هذا الفخ إلا وهى تعلم علم اليقين أنها ستخرجه من الكويت مذءومًا مدحورًا، يجر أذيال الذل والانكسار، طردته أمريكا وحلفاؤها من الكويت وتحملت تكلفة هذه الحرب الكويت ودول الخليج، والعراق نفسه.

ولقد استطاعت أمريكا بهاتين الحربين أن تستنزف دماء المسلمين وأموالهم حتى يومنا هذا بالنسبة للعراق ودول الخليج، كما استطاعت أن تسيطر على نفط العراق سنين عديدة،

---

(١) نذكر من تلك المذاهب الضالة المضللة:
القاديانية، والبهائية، وكثير من الطرق الصوفية،وما لا يتسع المجال لذكره.

وأن تنشئ القواعد العسكرية الراسخة فى كثير من بلدان العالم العربى، مما يجعل إخراجها من بلادنا صعبًا ومكلفًا.

لكن هل يمكن مقاومة ذلك إلا بالجهاد فى سبيل الله؟

- إن أمريكا فى هذا التخريب الذى أحدثته فى العراق وإيران وبعض دول الخليج إنما تؤمِّن إسرائيل من جانب، وتشبع مطامعها وشراهتها من جانب آخر، لذلك لم تكتف بما فعلت وإنما شنَّت على العراق حربًا ضارية غير متكافئة حشدت لها من أتباعها وأذنابها كما لو كانت تحارب دولة موازية لها فى القوة والإمكانات!!!

ولقد تحدت أمريكا فى حربها للعراق العالم العربى والعالم الإسلامى وهيئة الأمم المتحدة وكل اتفاقيات السلام، بل تحدت ملايين المتظاهرين الذين أعلنوا رفضهم لهذه الحرب، تحدت كل ذلك واختلقت مبررًا هو امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وكانت تعلم أنها تكذب، ولقد كذبها بعض كتابها، ثم كذبها الأمين العام للأمم المتحدة بعد عام ونصف عام قضاها فى محاولة الاستفاقة من غفلته أو تغافله!!!

فهل يجدى فى مقاومة هذا الطغيان الأمريكى إلا الجهاد فى سبيل الله تعالى؟

- إن أمريكا تفعل بالمسلمين وبالعرب ذلك كله، ثم يتساءل بعض كتابها قائلين: لماذا يكرهنا المسلمون؟ أو لماذا يكرهنا العرب؟

والسؤال الذى يستحق أن يطرح على لسان الأمريكيين هو: هل يستطيع العرب والمسلمون أن يخففوا من كراهيتهم لنا؟

والجواب بعد أعمالهم الإجرامية فى حق العرب والمسلمين هو: «لا».

فهل يمكن مقاومة أمريكا إلا بالجهاد؟

- وهل يستطيع العرب والمسلمون أن ينسوا ما فعلته أمريكا فى العراق من حرب ظالمة غير متكافئة، تحدَّتْ بها كل المواثيق والأعراف الدولية، وبصقت على وجه الأمم المتحدة فى غضب، وداست بالأحذية قرارات مجلسها، مع أنه مجلسها الذى يَسنّ لها من القوانين ما تشاء!!! وازدرت واحتقرت كل من قال: إن هجوم أمريكا على العراق غير عادل أو غير مبَّرر، مهما تظاهر الناس فى شتى أنحاء العالم وزعمت -وهى أم الزعم والكذب- أن العراق يملك أسلحة دمار شامل- وهى تعلم أنها تكذب فى هذه الدعوى- ثم اكتشفت بعد احتلال العراق وإذاقته الذل والهوان وما جرى فى سجن أبى غريب، أن العراق ليس به أسلحة دمار شامل!!!

ولو شاءت أمريكا أن تصدق -وما هى بصادقة ساعة من ليل ونهار- لقالت: إنها هاجمت العراق لتؤمن إسرائيل، من جانب، وتضع أيديها على كل نفط العراق والشرق الأوسط من جانب، ولتقيم القواعد العسكرية الدائمة فى عديد من بلدان العالم العربى.

فهل يستطيع أحد أن ينسى ذلك؟

وهل يستطيع أحد أن تخف كراهيته لأمريكا مصدر الشر والدمار للعالم العربى والعالم الإسلامى؟

إنه سيزداد كراهية ومقتًا وازدراءً لحكام أمريكا المضللين، المستوطنين الجدد؟

وهل يمكن السكوت على ذلك أو الصبر عليه؟

وهل يمكن مقاومة ذلك إلا بالجهاد فى سبيل الله؟

- إن الحكومة الأمريكية تعيش اليوم زمن الخداع والكذب والنفاق وازدواج المعايير، وانفصام الشخصية، واحتقار شعوب الأرض كلها، والانخداع بما يمليه عليها يهود أمريكا، فى مجلس النواب والشيوخ، ورجال المال والأعمال، ورجال الإعلام، ومن قبل ذلك ومن بعده ما تمليه عليها إسرائيل إملاء من تخاريف وأراجيف مثل: «الصهيومسيحية» ونزول المسيح بعد أن تملك إسرائيل الأرض من الفرات إلى النيل وغير ذلك مما توظفه إسرائيل لصالحها، وما لا تملك أمريكا أن تخالفه وإلا لم ينتخب الرئيس بوش مدة ثانية!!! فى نوفمبر سنة ٢٠٠٤م.

فما يسع الإدارة الأمريكية إلا أن تتصرف وفق هوى إسرائيل، وإسرائيل مجبولة على حب الشر للآخرين، إذ هم الذين حكى الله عنهم قولهم: ﴿ ... **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٥].

فهل يمكن نسيان ذلك أو تجاهله أو السكوت عن مقاومته؟

وهل يقاوم ذلك إلا بالجهاد؟

- إن إسرائيل فعلت وتفعل فى أرضنا العربية مثل ما فعلت دول عديدة من أعداء الإسلام والمسلمين، ولذلك لا نجد منهم اعتراضًا فضلاً عن إدانة لأنهم غارقون فى الأعمال الإجرامية التى تمارسها إسرائيل من سنوات عديدة ضد العرب والمسلمين حتى لقد استمرأوها واعتبروا أنها الصواب فى التعامل مع المسلمين، فهم قد فعلوا مثل ما فعلته دول غربية أخرى مثل:

- أمريكا مع الهنود الحمر الذين أبادوهم إبادة، وما بقى منهم إلا قليل- وهم أصحاب البلاد التاريخيون.
- وبريطانيا مع سكان استراليا الذين أصبحوا اليوم لا يتجاوز عددهم خمسة وسبعين ألفًا، بين عشرين مليونًا من المستوطنين الغربيين.
- وبريطانيا -أيضا- مع «نيوزيلندة» التى لا يزيد عدد سكانها الأصليين على ثمانية أفراد فى كل مائة من الناس، أما الباقون فمستوطنون غزاة.
- وما فعلته بريطانيا فى جنوب إفريقيا، حيث احتلت الأرض وتعاملت مع سكانها الأصليين مواطنين من الدرجة الدنيا، ومارست التمييز العنصرى كأقبح ما يكون التمييز، حتى استعادت جنوب إفريقيا بعض حقوقها.
- إن ما فعلته إسرائيل بالفلسطينيين والعرب وبكثير من المسلمين لا يستغرب ممن قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ولا على الذين يقولون بمنتهى التبجح: ما خلق الله غير اليهود إلا ليكونوا حميرًا يركبها اليهود!!!

وإن ما فعلته إسرائيل ما كانت لتفعله إلا لثقتها فى تأييد عالم الغرب المستوطن لغير بلاده، وعالم الشرق الاتحاد الروسى الذى يلهث ليكون مستوطنا كالغرب ويعادى الإسلام لأنه دين التوحيد، والشرق يتغذى على الإلحاد!!!

فهل يتسنى للمسلمين أن يقاوموا ذلك كله إلا بالجهاد فى سبيل الله والشوق إلى إحدى الحسنيين؟

- وهل يستطيع مسلم أن ينسى كيف اغتيلت أفغانستان، وكيف ضربت بقنابل تزن أكثر من ألف رطل،وهل ننسى كم قتلوا من النساء والأطفال والشيوخ، ومن لا يحملون السلاح؟

وهل ننسى مأساة سجن أو معتقل أو جحيم «جوانتانامو» الذى لا يخضع لقانون أو نظام، وإنما لأهواء الإدارة الأمريكية واليهود الحاقدين الذين يوجهونها ويسيرونها ويهددونها.

إن العدوان على أفغانستان كان سبّة فى وجه الاتحاد السوفيتى ثم أصبح وصمة فى وجه الإدارة الأمريكية، كما أن ما حدث فيه سبة فى وجه بعض دول العالم الإسلامى.

- وهل تنسى الأمة العربية والأمة الإسلامية ما قام به أعداؤها من أعمال إجرامية فى بلدانها، مما تضيق عنه صفحات هذا الكتاب.

غير أننا نتذكر ونذكر -وذاك نافع بفضل الله للمؤمنين- نذكر فى إجمال بل فى عناوين بما حدث فى :

- الشمال الإفريقى المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا.
- وفى تشاد ومالى، وتوجو، والسنغال، والجابون، والكاميرون، والنيجر، وجامبيا، وغينيا، وغانا، وأوغندة، ونيجيريا.
- وفى مصر والسودان والصومال وأريتريا وجيبوتى.
- وفى سوريا والأردن ولبنان والعراق والكويت واليمن والسعودية، ودولة الإمارات والبحرين وقطر وعُمان.
- وتركيا، وأفغانستان، وإيران، وباكستان، وبنجلاديش وماليزيا، وأندونيسيا.
- وأذربيجان وأوزبكستان وطاجكستان، وتركمانستان، وقرقيزيا، وكازاخستان، والشيشان.
- وألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو.

هل فى الإمكان أن ينسى العرب والمسلمون سوء ما لقيت هذه الأقطار الإسلامية على أيدى هؤلاء الأعداء من دمار واحتكار واستيطان وإصرار على البقاء فى تلك الأقطار بجنودها أو عملائها أو نفوذها، وفى كل الأحوال فإن هولاء الأعداء يستولون على خيرات البلاد، ويعملون على إفقارها بل إغراقها بالديون الربوية، وإذلال شعوبها وتصنيف الناس فيها إلى موالين لهم ينعمون عليهم بالمناصب والأموال والتيسيرات، ومعادين لهم أو مقاومين لوجودهم واحتلالهم يطلقون عليهم إرهابيين أو متطرفين أو رجعيين أو متعصبين، وحسبك شراً وضرًا بما يترتب على هذا التصنيف لمن يقاومون وجودهم!!!

إن حملات التشويه الإعلامية المستمرة هى البداية، ثم ما تقوم مباحث أمن الدولة من اعتقال وتعذيب ومحاكمات استثنائية وسجن وربما قتل، ودائمًا ما يكون التحدى فى العمل وفى أسباب الرزق ومصادرة الأموال والفصل من الوظائف وغير ذلك مما هو معروف فى بلدان العالم الإسلامى معظمها من قمع للمقاومين وإرهاب لهم!!!

هل يمكن أن ينسى ذلك؟

وهل يولد ذلك شيئًا غير الكراهية لهؤلاء الأعداء ولأتباعهم وأذنابهم وعملائهم وأصحاب الحظوة عندهم؟

وهل يمكن مقاومة ذلك إلا بالجهاد فى سبيل الله؟

- والأعداء يعلمون علم اليقين أنهم لن يخرجوا بإرادتهم من أى بلد إسلامى احتلوه، وإنما هم ينتظرون حتى يخرجهم أهل البلاد بالقوة والجهاد، وتلك هى الوسيلة التى ما طردوا إلا بها فى كل أرض احتلوها.

- ومن أجل ذلك كان الأعداء ولا يزالون يحذرون كل الحذر أن يلجأ أهل البلاد إلى مقاومتهم بالجهاد فى سبيل الله، ومع حذرهم وتخوفهم يخططون للقضاء على المجاهدين بعد تشويههم وكيل الاتهامات لهم، وحربهم وتعقبهم...

- ونحن المسلمين عربًا وغير عرب نعتبر أعداءنا الأصلاء والطارئين هم: إسرائيل وأمريكا، يعاونهما الغرب بصفته مستوطنًا قديمًا للعالم الإسلامى، ويعاونهما الاتحاد الروسى بوصفه مستوطنًا، وغازيًا بالأفكار والمذهبيات، ومن واجبنا أن نقاوم هؤلاء الأعداء حفاظا على بلادنا وكرامتنا، ولا سبيل أمامنا سوى الجهاد، لأنه عبادة ومأمور به من قِبل ديننا فى مثل هذه الظروف.

- والأعداء يدركون ذلك ويحولون بيننا وبين الجهاد ولذلك قاموا بعملين خطيرين ضد الجهاد والمجاهدين، هما:

الأول: تشويه الجهاد والتنفير منه:

أى وصف الجهاد فى سبيل الله بأنه إرهاب وعنف وتطرف والمجاهد- المقاوم لأعدائه ومحتلى أرضه- إرهابى عنيف متطرف يجب أن يحارب ويقضى عليه.

ولسان حال هؤلاء الأعداء يقول: لى أن احتل أرضكم، وأقتل نساءكم وأطفالكم وشيوخكم وأهدم منازلكم وأقلع أشجاركم وأحارب المدنيين منكم بأعنف الأسلحة الفتاكة المحرمة دوليًا، ومن قاومنى منكم فهو إرهابى متطرف عنيف. هذا هو لسان حال إسرائيل وأمريكا!!!

والآخر: إضعاف دول العالمين العربى والإسلامى بوضع العوائق فى طريق التطور والعلم والتصنيع، وبخاصة ما يتصل بالسلاح، وإغراق البلاد فى الديون، والتدخل فى اقتصاد البلاد وسياستها، وإغراء حكامها بضرب المجاهدين بوصفهم خطرًا على الطرفين: الأعداء والحكام الموالين لهؤلاء الأعداء.

- ولقد بلغت القحة والفجور من إسرائيل وأمريكا أن تقوم أجهزتهما وعملاؤهما بعمليات تخريب فى أى مكان تصل إليه أيديهم ثم ينسبون ذلك إلى المجاهدين المتطرفين!!

- وإن المجاهدين عند النظرة الموضوعية لهم هم الراغبون حقًا فى تحرير بلادهم من العدو المستوطن المستغل، والمجاهدون على وجه الحقيقة قُوًى مساندة للجيوش فى البلدان الإسلامية عندما تقرر قيادة هذه الدول أن تحرر البلاد من غاصبيها المسيطرين عليها.

- وإن دول العالمين العربى والإسلامى لو استقبلت من أمرها ما استدبرت - لعلمت أن تربية المجاهدين عمل رئيسى لا يقل أهمية- بوصفه قوة مساندة للجيوش- عن إعداد الجيوش نفسها، فإن قعدت هذه الدول عن تربية المجاهدين فهى ترتكب أفدح الأخطاء وأخطر الجرائم فى بلدانها وشعوبها.

إنها بهذا الإعداد للمجاهدين المقاومين للأعداء تتجنب تكرار المذابح التى قام بها اليهود منذ عام ١٩٤٨ كمذبحة:

قرية الشيخ، وقرية سعسع، وقرية دير ياسين التى قام بها بيجن، وقرية «أبو شوشة»، واللد، وقلقيلية كل ذلك فى عام ١٩٤٨م.

ثم توالى التذبيح والتدمير، كمذبحة قرية: شرفات، وتلَّة، وقبية، كفر قاسم، وبحر البقر، ومخيمات خان يونس، ومخيم رفح، ثم مذابح صبرا وشاتيلا بقيادة شارون،ومذبحة المسجد الأقصى، والحرم الإبراهيمى، وقانا، والنفق، ومذابح جنين، ونابلس،ومذابح غزة المتكررة يومًا بعد يوم....

أما مذابح أمريكا فبدأت بهيروشيما ونجازاكى فى الحرب العالمية الثانية، واستمرت لتشمل فيتنام وكوريا، وغيرها، والذى يعنينا نحن المسلمين هو مذابح أفغانستان والعراق.

ومخازى «جوانتانامو» و«سجن أبى غريب».

● ما يخيف أمريكا وإسرائيل إلا الجهاد، وما يرد إلينا بلادنا وحقوقنا وكرامتنا إلا الجهاد فى سبيل الله، إن إسرائيل وأمريكا تمارسان فى العالم الإسلامى إرهاب الدولة فهم الإرهابيون حقًا وأهل التطرف حقًا وصدقًا..

وأجداد يهود اليوم هم الذين ألقوا أخاهم فى غيابة الجب ثم اتهموه بالسرقة -وهو نبى-!!!

وإن أجداد الأمريكان هم الذين قضوا على الهنود الحمر، وهم الذين خطفوا الأفارقة وشحنوهم إلى أمريكا ليصبحوا عبيدًا أو أقنانًا[1]!!!

إن الساكتين على إرهاب الإدارة الأمريكية واستبدادها واستيطانها للبلاد والعباد، سيجدون أنفسهم غدًا وقد ألبسوا الملابس الحمراء ووضعوا فى زنازين من حديد، وظلوا فى «جوانتانامو» دون تحقيق أو محاكمة.

٢- الجهاد وتحقيق أهداف المجتمع الإسلامى:

الجهاد بكل معانيه بكل أنواعه هو وسيلة مثلى لتحقيق أهداف المجتمع الإسلامى، وفى محاولتنا لتوضيح ذلك نختم كلامنا عن التربية الإسلامية فى المجتمع.

فنقول سائلين الله التوفيق:

أما الهدف الأول وهو تطبيق منهج الله على عباد الله:

فإن الجهاد يساعد على تحقيقه، ولنستعرض سمات هذا المنهج:

- فهو مجتمع لا يضيع فيه حق لصاحب حق.
- ومجتمع تتكفل تشريعاته بحياة إنسانية كريمة لكل أحد.
- ومجتمع الأنظمة العادلة.
- ومجتمع احترام حقوق الإنسان.

وكل تلك السمات والخصائص لا يمكن أن تخرج إلى حيز الوجود والتطبيق إلا بالجهاد بكل أنواعه من جهاد الكلمة والدعوة والحركة إلى جهاد العدو، جهاد النفس لتصبر على أعباء تطبيق المنهج، وجهاد الأعداء الذين يحولون دون تطبيق المنهج.

والهدف الثانى: وهو صيانة المجتمع الإسلامى عن الأخطار المحدقة به فى الداخل والخارج.

وسواء أكان الخطر الداخلى نتيجة للتقصير أم الإهمال، فإن مقاومتهما تحتاج إلى أنواع من الجهاد تبدأ أولا بجهاد النفس وأطر المقصرين والمهملين على الحق أطرًا.

---

(١) القِنّ هو العبد الذى كان أبوه مملوكًا لوليه، فهو خالص العبودية.

وأما الخطر الخارجى فلا يُقاوم إلا بالجهاد بكل أنواعه.

- ومن الخطر الخارجى تيارات معادية للإسلام، تعمل على تقويض الأسس التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى، من توحيد الله تعالى وعبادته، وقيم خلقية ومبادئ وشورى واحترام للآخر وحسن تعامل معه.

وهذه التيارات لها رجالها والعاملون على سيادتها، ومقاومة هذه التيارات لا تكون إلا بالجهاد بكل أنواعه.

والهدف الثالث: وهو تحقيق الأمن داخل المجتمع وخارجه:

تحقيق الأمن بكل أنواعه النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى وتحقيق أمن الدولة بتحديد العلاقات الدولية فى إطارها الإسلامى فى زمن السلم وزمن الحرب.

تحقيق ذلك لا يكون بغير جهاد بل جهاد طويل وصبر وثبات، لأن الراغبين فى العبث بالأمن كثيرون فى داخل المجتمع وفى خارجه،وهؤلاء لابد أن يجاهدوا.

إن المجاهدين فى سبيل الله تعالى هم الذين يستطيعون أن يعرفوا خطط العدو وخطواته، دون أن يشعر بهم العدو، فليسوا قوات جيش،ولا قوات شرطة، وإنما أتقياء أخفياء يعملون فى صمت وصبر وإخلاص لإرضاء الله تعالى الذى أمرهم بالجهاد فأطاعوه.

والهدف الرابع: وهو ممارسة الحقوق وأداء الواجبات:

ومن هذه الحقوق حقوق دينية كحق اختيار الدين، وحق ممارسة عباداته وشعائره، وحق احترام الناس وأديانهم كلها ماداموا يعيشون فى كنف المجتمع الإسلامى.

أو حقوق إنسانية شخصية أو اجتماعية أو سياسية كالحقوق التى كان الإسلام أول من كفلها للإنسان، وأقامها على دعائم قوية من العدل والإحسان.

وكل نوع من هذه الحقوق يؤدى وظيفة جوهرية للإنسان بحيث لا تتكامل إنسانيته إلا بها جميعًا، ولذلك كان من تكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير من خلقه أن ضمن له منهج الإسلام هذه الحقوق جميعًا.

- وكل حق يحتاج وراءه مطالبًا به مجاهدًا فى سبيل الحصول عليه، وإلا ضاع هذا الحق.

والمجاهدون هم الذين يكونون دائمًا وراء هذه الحقوق، يجاهدون كل أنواع الجهاد، من جهاد الكلمة إلى جهاد القتال.

وإن من عمل المجاهدين أن يبصروا الناس بحقوقهم وأن يعلموا الناس كيف يجاهدون من أجل حقوقهم، وهم من أمامهم ومن خلفهم يدعمون ويؤيدون.

والهدف الخامس: وهو التكافل الاجتماعى:

وهذا الهدف أدخل فى حياة الفقراء والضعفاء من الناس، وحق لكل من يعيش فى كنف المجتمع المسلم حتى لو كان من غير المسلمين، ذلك أن التكافل بين الناس أمان من الحاجة وأمان من الإحساس بالضياع فى المجتمع.

ولقد صرح الرسول ﷺ بأنه مع كافل اليتيم فى الجنة، وأنه دعا إلى كفالة المرأة واليتيم وكل ذى حاجة؛ بل جعل من يسعى على المرأة واليتيم كالمجاهد فى سبيل الله تعالى، وهو ﷺ الذى نفى الإيمان عمَّن بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم، وهو الذى قال: طعام الواحد يكفى الاثنين.... إلخ»[1].

- إن أشمل ما يكون التكافل وأقواه هو ما جاء به الإسلام، ويكفى للدلالة على ذلك ما رواه ابن أبى شيبة بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا طبختم فأكثروا المرق فإنه أوسع وأبلغ للجيران»**

- وإن نظام التكافل فى الإسلام يعتمد على ما يجب أن تكون عليه الصلة بين المسلمين من تواد وتراحم وتعاطف، كما يعتمد على تطبيق الزكاة ونظام الميراث والوصية وسائر ما قلناه من أسس يقوم عليها التكافل.

- إن هذا التكافل الاجتماعى بين الناس يحدث أحسن الآثار النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولا يتم هذا التكافل تلقائيًا، وإنما يحتاج إلى جهاد متنوع للنفس وللشيطان الذى يعد الفقر ويأمر بالسوء والفحشاء، إلى جهاد الممتنعين عن الزكاة.

فهذا الهدف من أهداف المجتمع الإسلامى يحتاج إلى جهاد فى سبيل الله تعالى.

والهدف السادس: وهو تحقيق الوحدة بين المسلمين:

هذا الهدف لا يعين عليه شىء كالجهاد فى سبيل الله لإزالة العوائق التى يضعها الأعداء أمام الوحدة، لأن وحدة المسلمين تعنى عندهم خطرًا عليهم وعلى استيطانهم لبلاد المسلمين واستيلائهم على خيراتها، لذلك تراهم يستميتون فى سبيل تعويق الوحدة أو القضاء عليها.

(١) ذكرنا هذه الأحاديث النبوية الشريفة بأسانيدها فى حديثنا عن التكافل الاجتماعى ونحن نتحدث عن الأهداف.

ولقد أوضحنا مفردات الوحدة الإسلامية آنفا فتحدثنا عن وحدة الهدف ووحدة الدين ووحدة الصف، ووحدة التوجه ووحدة القوة ووحدة السياسة الخارجية وصولاً إلى الوحدة العامة بين المسلمين.

وقلنا إن الأعداء ما تمكنوا من هزيمة المسلمين إلا بعد أن مزقوا صفهم وفرقوا كلمتهم وخالفوا بين أهدافهم، ثم فاوضوهم بلدًا بلدًا، واحتلوا أرضهم بلدًا بلدًا، وسيطروا على اقتصادهم وسياستهم بلدًا بلدًا كذلك.

كان ذلك شأن أعداء المسلمين فى الماضى ولا يزال شأنهم فى الحاضر، وسيظل ذلك شأنهم فى المستقبل، ووحدة المسلمين فى أى جانب من جوانبها رعب للأعداء وتهديد لمصالحهم.

- وأوضح مثال للرعب من وحدة العرب أو المسلمين هى إسرائيل ومن يقفون وراءها من الغرب والشرق؛ فعلى الرغم من أن أمريكا والغرب قد سلحوا اسرائيل بأفتك الأسلحة ومنعوا العرب من التسلح، ومنحوا إسرائيل السلاح النووى وجرموا امتلاكه أو التفكير فى امتلاكه، وهم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها فى هذه الأيام ضد إيران لأنها تنوى أن تمتلك طاقة نووية للسلم لا للحرب، وإسرائيل تهدد إيران علنًا يوم الخامس عشر من شهر شعبان سنة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤/٩/٢٩ بأنها ستضرب إيران لتقضى على قدرتها النووية.

وتعهدت أمريكا بأن تجعل إسرائيل أقوى من الدول العربية مجتمعة فى التسلح والتقنية والخبراء والفنيين فى الحرب...

- وكذلك يغيظ أعداء الإسلام أى نوع من أنواع الوحدة بين المسلمين، ولذلك يبذلون من الجهود ما يحولون به بينهم وبين أى نوع من الوحدة، وبخاصة وحدة الصف فيختلقون النحَل بين المسلمين، ويشجعون الفِرق، وهم قد وضعوا نصب أعينهم ضرب وحدة المنهج ووحدة النظام، ووحدة الثقافة ووحدة الاقتصاد ووحدة السياسة، وأعدوا لكل من أنواع هذه الوحدة ما يعوقه.

أما وحدة قوة المسلمين وجيوشهم، فدونها أهوال وأهوال مما بثه الأعداء فى طريق المسلمين، وفى اختصار شديد نقول: إن عالم الغرب وعلى رأس أمريكا وإسرائيل، وعالم الشرق المتمثل فى الاتحاد الروسى، إن هؤلاء وأولئك لا يخشون شيئًا مثل ما

يخشون توحد قوى المسلمين وجيوشهم، لأن ذلك عندما يحدث وهو حادث بإذن الله إن لم يكن اليوم فغدًا... سيجليهم عن بلاد المسلمين، وإن جهاد المسلمين فى سبيل الله لهو الوسيلة الجيدة فى توحيد قوى المسلمين، لأن المجاهدين يجاهدون كل أسباب الفرقة والانقسام والضعف.

لذلك يكرهون الجهاد ويشوهون المجاهدين، بل يضربونهم بالصواريخ ويغتالونهم ويهدمون منازلهم على نسائهم وأطفالهم، تفعل هذا إسرائيل وأمريكا يوميًا، والعالم كله يرى ويسمع، ولا يملك أن يدين إسرائيل، فإن فعل خرج حق النقض الأمريكى يحمى إجرام إسرائيل ووحشيتها!!!

- إن الجهاد يمكّن من تحقيق هدف المجتمع الإسلامى فى الوحدة بكافة أنواعها.

والهدف السابع: وهو تأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى الذى يعيشون فى كنفه.

هذا الهدف من صميم الإسلام ومن مبادئه ومن منهجه ونظامه، وتلك قضية قد يتعجب لها ومنها أولئك الذى استمرأوا هضم الحقوق والكيل بمكيالين، والتميز بين الناس من أجل أديانهم وأعراقهم، وليس لهم أن يتعجبوا لأن الإسلام دين إنسانى عالمى ينظر للناس جميعا على أنهم قد كرمهم الله ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه.

ولأن الإسلام دين إنسانى لا يُميز بين الناس فى حقوقهم وواجباتهم حتى لو كانوا غير مسلمين، فقد كفل لهم هذه الحقوق وأمّنها بكل وسائل التأمين، مثل:

- الاعتراف بحق غير المسلمين فى العيش الآمن فى المجتمع الإسلامى ما داموا أهل ذمة أو معاهدين أو أهل أمان.
- وإعطائهم هذه الحقوق وممارستهم لها عمليا.
- وإلزام القضاء بالوقوف إلى جانبهم عندما ينازعهم أحد المسلمين ما داموا أهل حق.
- وإلزام أى فرد أو جماعة أو المجتمع الإسلامى نفسه حاكمًا وحكومة ألا يهضمهم حقًا أقرته لهم شريعة الإسلام.
- وتأمين كفالتهم اجتماعيًا واقتصاديًا.
- وتأمينهم على أنفسهم وذويهم وأموالهم وأولادهم وما يملكون وما يقتنون.

- وتأمينهم على أعمالهم وحرفهم.

- وتأمينهم على سفرهم وتنقلاتهم.

- وتأمينهم على شعائر أديانهم.

أقول هذا وأتذكر ما فعله الصرب يعاونهم الاتحاد الروسى ويؤيدهم الغرب وأمريكا بالذات ما فعلوه فى البوسنة والهرسك وكوسوفو من مجزرة لم يعرف لها نظير إلا فى محاكم التفتيش فى إسبانيا وفى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى، وفى صبرا وشاتيلا وقانا على يد إسرائيل، وفى سجن جوانتانامو وأبى غريب على يد أمريكا، لأن أعداء الإسلام كلهم مِلّة واحدة فى الوحشية ضد المسلمين.

- فى الإسلام ومنهجه وعدله فى أنظمته تجد حقوقًا لأهل الأديان الأخرى مؤيدة بالقرآن والسنة وأعمال الخلفاء الراشدين، وأعمال الخلفاء الصالحين.

- وعند أهل الديمقراطية والحرية والإخاء والمساواة، وتمثال الحرية لا تجد حقًا لغير أهل الغرب، وأهل البشرة البيضاء إذا كانوا يهودًا أو نصارى، ثم يتشدقون بالحريات وبحقوق الإنسان!!! والديمقراطية!!!

ثم لا يستحى المضللون منهم والمغالطون والمنتهكون لحقوق الإنسان أن يقولوا: إن المسلمين إرهابيون، وإن المجاهدين متطرفون وأهل عنف، ولا يتورعون عن تطبيق حدود الله تعالى وما فيها من وحشية كما يزعمون، مع أنها لا تساوى شيئًا من وحشيتهم فى التعامل مع أهل فلسطين ولا أهل جوانتانامو ولا أهل سجن أبى غريب!!!

أقول هذا والعالم شاهد على عصر أمريكا وإسرائيل ووحشية كثير من دول الغرب فى التعامل مع المسلمين.

- ولا أحب أن أنهى حديثى عن الجهاد فى سبيل الله بوصفه وسيلة من وسائل تحقيق أهداف المجتمع الإسلامى، دون أن أتحدث عن نقطة مكملة للحديث عن الجهاد، وهى:

٣- إعداد المجاهدين فى سبيل الله:

إعداد المجاهدين واجب شرعى، أوجبه الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ذلك أن إعداد القوة لمواجهة أعداء الله وأعدائنا يدخل فيه بل يتقدمه إعداد المجاهدين، لأن السلاح بغير مقاتل قيمته متحفية تذكارية، والرجل بغير سلاح لا يستطيع أن يواجه عدوًا مسلحًا، وإنما الإعداد يتناول المجاهد وما يستعمله فى جهاده، ومعرفة من يجاهد.

لذلك نتحدث عن أربعة موضوعات بإيجاز هى:

- من الذى يُعد المجاهد؟
- وما أنواع إعداد المجاهد؟
- ومن هى قيادة المجاهدين؟
- وما المعارك التى يجب أن يخوضها المجاهد؟

أولا: من الذى يعد المجاهد؟

الأصل أن تعد المجاهد الحكومة المسلمة والمجتمع الإسلامى لأن الخطاب أو الأمر موجه للمسلمين جميعًا، وإنما كان للحكومة هذه الأولوية فى الإعداد، لأنها التى تحكم وتملك الشرعية ويتوجه إليها الأمر أول ما يتوجه، وفى الوقت نفسه هى التى تملك الإمكانات المالية والآلية، وهى التى توجه الطاقة البشرية، وهى التى تملك الأمكنة والميادين التى تعد فيها المجاهدين بل هى تملك السلاح والعتاد، والقدرة على التدريب، بما لديها من قوات مسلحة ذات خبرة فى التدريب العسكرى الجهادى.

● وقد يبادر أحدهم فيقول: إن الدولة تعد الجيش الذى يحمى البلاد، فهؤلاء المجاهدون هم الجيش، ولو سميتموهم المجاهدين.

وهذا القول غير صحيح فى تصورى، لأن الجيش اليوم تجند له الدولة الناس إجباريًا بحكم مواطنتهم، فجنود الجيش وقواده وهم يؤدون واجب الدفاع عن الوطن، تعد هذه وظيفتهم وما أعدوا له من عمل لا يستطيعون فكاكًا منه شرعًا وقانونًا، وإلا سوئلوا، فإن كانوا مقصرين عوقبوا، فعملهم ليس تطوعيًا وإنما إجبارى.

أما المجاهدون فوضعهم مختلف، إذ ليسوا مجندين فى سن معينة، بل أغلبهم إما لم يبلغوا سنَّ التجنيد، أو أنهوا مدة التجنيد، لكنهم يرغبون فى أن يجاهدوا فى سبيل الله تعالى تقربًا إليه سبحانه ودفاعًا عن بلاد المسلمين، وتحريرا لها من أعدائها.

وقد يكون هؤلاء المجاهدون أفرادًا وقد يكون لهم انتماء إلى جمعية من الجميعات الأهلية أو الجماعات الإسلامية.

● وكثيراً ما تتوجس منهم حكومات كثيرة وبخاصة ذات الحكم الشمولى والحزب الواحد، خيفةً، وتتصورهم يعملون ضدها ويجاهدونها، فتتحداهم وتتعقبهم...

● والأصل فى هذه الحكومة أن تتولى أمر تدريبهم على الجهاد، من كان منهم فى سن التعلم دُرب فى المدرسة، ومن كان تجاوز هذه السن أو أدى واجبه فى الجيش دربته الحكومة فى أماكن تختارها...

وما أيسر ذلك على الحكومة المسلمة وما أنفعه لها؛ لأنها تربى قوة مساندة لقوة الجيش، يستعان بها عند الحاجة إليها، والحكومة هى التى تملك الأسلحة والآليات التى يتدرب عليها المجاهدون، ولا يستعملونها إلا عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، وتندبهم الحكومة المسلمة إلى القيام به.

● وتصور بعض الحكومات أن المجاهدين قوة موازية للجيش تصور خاطئ ومضلل يروجه من يريدون أن يشوهوا صورة المجاهدين، وما يحركهم إلى هذا التضليل إلا أعداء الإسلام والمسلمين.

● وعندما ترفض الحكومة المسلمة تدريب مجاهدين يكونون رِدْءًا للجيش العامل، فإنها تخطئ خطئًا كبيرًا وتخسر خسرانًا مبيناً، وتفقد قوة مدربة قد تَحتاج إليها.

ومن المتفق عليه أن القوى المدنية المساندة للجيش عند مواجهة عدو، يكون لها من الأهمية ما لا يجهله إلا الغافلون أو الحكام المستبدون الذين يحسبون كل صيحة عليهم، وكل مجاهد يعمل ضدهم، وكل متمسك بإسلامه عدوًا لهم وحربًا عليهم، وما تلك إلا أوهام أوهمهم بها الأعداء؛ أعداء الإسلام والمسلمين.

ثانيا: ما أنواع الإعداد للمجاهدين؟

المجاهد فى سبيل الله تعالى يجب أن يعد إعدادًا متكاملاً يجعل منه مجاهدًا قادرًا على حمل السلاح، وعلى الصبر والثبات وعلى العمل والحركة وبذل الجهد، والتطلع إلى الفوز بإحدى الحسنيين؛ النصر على العدو أو الشهادة فى سبيل الله تعالى ليكون فى الآخرة مع النبيين والصديقين.

● من أجل ذلك يتنوع إعداد المجاهد أنواعًا كثيرة متكاملة منها:

- الإعداد الدينى:

أى تفقيهه فى دينه وتبصيره بما أحل الله وما حرم، وتعليمه الالتزام بقيم الدين ومبادئه، وإقناعه بأن الله تعالى قد اختار هذا الدين الخاتم ليكون منهجًا ونظامًا تقوم

عليه حياة الناس، وأن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، كما قال رسول الله ﷺ فيما ذكرناه آنفا بسنده: **«رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذورة سنامه الجهاد»**.

- والإعداد الثقافى:

الثقافة العامة للمجاهد مكون من مكونات شخصيته، بل شخصية كل مسلم، وهذه الثقافة تقوم على أسس منها:

- تعريفه بالتيارات الموالية للإسلام والمسلمين، والتيارات المعادية له حتى يتعامل مع الجميع بفكر واع وعقل ناضج، وعمل مدروس واستيعاب للظروف المحيطة به.
- وتعريفه بالأعداء التقليديين للإسلام والمسلمين، من يوم ظهر الإسلام وهم اليهود، وأحسن تعريف بهم هو ما جاء عنهم فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، ثم تابعهم فى هذه العداوة المستوطنون القدامى الذين احتلوا بلاد المسلمين وعملوا على تجزيئها وتفكيكها.
- وتعريفه بأعداء الإسلام بسبب إلحادهم أو كفرهم أو فسوقهم وعصيانهم أو تغلب الهوى والشهوات عليهم، وذلك لأنه سوف يجاهدهم ويجاهد شرورهم وآثامهم.

- والإعداد النفسى:

نفس الإنسان؛ روحه وعقله وما يؤمن به من قيم ومبادئ هى التى توجه سلوكه وعمله دائمًا، لذلك كان الإعداد النفسى للمجاهد أحد مكونات شخصيته.

- والإعداد النفسى للمجاهد يبدأ بتنقية نفسه وعقله من الشوائب والترهات والأباطيل التى يرفضها الإسلام، ويأبى أن تكون عالقة بنفس المجاهد وعقله.
- وتوثيق صلته بالله تعالى عن طريق نبذ المعاصى والإقبال على الطاعات، ومصاحبة المؤمنين، ورفض الصداقة مع الأشرار والعصاة.
- وإقناعه شرعًا بأن الدفاع عن الدين والوطن والأهل والولد، والمال والعرض واجب شرعى، من قُتل دونه فهو شهيد، له أجر الشهيد فى ميدان المعركة.

- والإعداد الجسدى:

وذلك أن الأصل فى المؤمن عمومًا وفى المجاهد على وجه الخصوص القوة، انطلاقًا

من قول الرسول ﷺ فيما ذكرناه آنفا بسنده: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير...»**.

وهذا الإعداد الجسدى للمجاهد يقوم على أسس منها:

- تجنب أسباب ضعف الجسد كالإفراط والتفريط فى المأكل والمشرب والشهوات عمومًا، والسهر، وتعاطى المكيفات والمفترات والمخدرات ونحوها.
- والأخذ بأسباب قوة الجسد كالاستقامة والتمريض والتدرب على الرمى والسباحة والفروسية وكل ما من شأنه أن ينشط الجسد وأن ينفى عنه التراخى والكسل.
- والإقبال على القيام بالأعمال بانشراح ونشاط ورغبة فى التقرب إلى الله تعالى فى القيام بها واحتساب أجر ذلك عند الله تعالى، لأنه بهذه الأعمال يمارس نوعًا من الجهاد فى سبيل الله.

- والإعداد الفنّىّ

وهو إعداد المجاهد للتعامل مع الأسلحة التى يستعملها وتبصيره بأهميتها فى عمله، ويتناول هذا الإعداد أمورًا على جانب من الأهمية، منها:

- تدريبه على الاستعمال الأمثل للسلاح الذى فى يده أيا كان نوع هذا السلاح.
- وتدريبه على صيانة هذا السلاح ليظل سليمًا صالحًا للاستعمال فى أى وقت تريده المعركة.
- وتدريبه على فك هذا السلاح وتركيبه، ومعرفة مكوناته، وصلة بعضها ببعض.

- وموقف الحكومات من هذا الإعداد:

تتوهم بعض الحكومات أن إعدادها للمجاهدين سوف يمثل عبئًا عليها، كما يشير عليها أعداء الإسلام وأعداء المسلمين من أن هؤلاء المجاهدين خطر على الحكومة نفسها، وأنهم قوة قد تستعمل ضدها.

- وهذا وهم وتخويف للحكومات فى العالم الإسلامى له عند الأعداء مبرراته التى فى مقدمتها خوفهم على أنفسهم من هؤلاء المجاهدين.
- والحق أن المجاهدين أبناء الإسلام وأبناء الوطن الإسلامى وبنوتهم للإسلام تعلمهم بل تأمرهم بطاعة الحكومة بوصفها ولى الأمر الذى تجب طاعته، لأن هذه الطاعة للحكومة

من طاعة الله ورسوله، وما على الحكومة إلا أن تكون محتكمة إلى شرع الله تعالى فى قوانينها لكى تجب طاعتها.

وبنوة المجاهدين لأوطانهم الإسلامية توجب عليهم شرعًا حب الوطن والعمل على تقدمه ونهضته، والدفاع عنه ضد أى عدو يعتدى عليه، ومن لم يفعل ذلك من المجاهدين، فقد عصى الله تعالى وخالف ما أمره به دينه.

ثالثا: من هى قيادة المجاهدين؟

من المنطقى الذى لا يجادل فيه أن تكون الحكومة المسلمة هى التى تقود المجاهدين وتشرف على إعدادهم عن طريق الخبراء والفنيين من رجال القوات المسلحة.

ومادامت الحكومة هى التى تعد المجاهدين، بل تختار لهم المعارك التى يخوضونها – وهذا حقها– فلابد أن تكون قيادتهم لهذه الحكومة، بل جزءًا من عملها.

● غير أن هذه الحكومة المسلمة يجب أن تدقق فى اختيار من تكل إليهم قيادة المجاهدين من رجال القوات المسلحة، بحيث تتوافر فيهم شروط، من أهمها:

- أن تكون هذه القيادة على علم بالإسلام وفقه فيه. ويمكن تحقيق ذلك بدورة تثقيفية لهم فى هذا المجال.
- وأن تكون القيادة ملتزمة بقيم الإسلام وأخلاقه حريصة على أداء فرائضه فى أوقاتها وبخاصة إذا حان وقت الصلاة أثناء العمل.
- وأن تكون شخصيات القادة قوية ذات تأثير وجاذبية، وإنما تصل شخصية القائد إلى هذا المستوى بالعلم والثقافة والتدين، وحب جنوده ورغبته فى تطويرهم وتقدمهم.
- وأن يكون القادة من أهل الشجاعة والصبر والقدرة على مواصلة المجهود، والرغبة فى التضحية من أجل تحقيق الأهداف التى تستوجبها قيادته للمجاهدين.
- وأن يتصف هؤلاء القادة بالحسم مع الرفق، فلا يتساهل أحدهم مع مقصر ولا يفرط فى عقابه، وإنما تقوده أخلاق الإسلام على أساس أن الرفق ما دخل فى شىء إلا زانه، وما نزع من شىء إلا شانه.
- وأن تكون القيادة ذات ثقافة عامة وذات إلمام جيد بتاريخ حروب المسلمين، وتاريخ الإسلام وبخاصة سيرة النبى ﷺ، وعلى الأخص ما خاضه الرسول ﷺ من معارك، مع معرفة تاريخ وطنه المحلى، وما خاضه من معارك.

- وأن يكون رجال القيادة أهل وقار وتهـذب، ومن أولئك الذين يحسنون الاستماع إلى الطرف الآخر، ويجيدون الحوار، ويحترم حق الجندى فى التفكير وفى التعبير عما فكر فيه بالأسلوب المهـذب الذى ينطوى على احترام القائد وتقـديره، لأن ذلك هو صميم حرية الرأى التى دعا إليها الإسلام.

- وأن تكون القيـادة على علم وخبرة ودراية بالنواحى الفنيـة والتقنية فى مـجال تدريب جنوده.

رابعًا: المعارك التى يخوضها المجاهدون:

بداية نؤكد أن المعارك التى يخوضها المجاهدون عديدة، وليست بالضرورة كلها عسكرية بل منها ما لا يتصل بالقـتال، وذلك حسب تنوع الجهاد كما ذكرنا آنفـا، فقد يكون جهادًا للعصـاة والمستهتـرين بقيم المجتمع، وقـد يكون جهادًا لمن يمارسـون الغش أو التزوير، أو الرشوة، وقد يكون جهـادًا لمن يروجون المخدرات أو يزرعونها، أو يتعـاطونها، وقد يكون جهادًا لـمن يشربون الخمر أو يلعبون الميسر، وقـد يكون جهادًا للنصابين والأفـاقين الذين يخدعون الناس، وقـد يكون جهادًا للمتهـاونين فى أعمالهم والمتسيـبين والطائشين والذين يسعون فى الأرض فسادًا، وقد يكون. . . وقد يكون من الأمور التى تعتبر مجاهدتها إقامة للمجتمع على طريق الحق وعلى الصراط المستقيم.

وقد يكون جهادًا فى معركة قتالية لمواجهة عدو معتد أو إرهابه حتى لا يقوم بعدوانه.

● وفى جميع الأحوال ومع جميع أنواع الجهاد، فمن الذى يحدد هذه المعارك؟

ومن الذى يختار التوقيت المناسب لها؟

ومن الذى يحدد عدد المجاهدين اللازمين لخوض هذه المعارك؟

ومن الذى يختار المكان الذى تجرى فيه المعارك؟

ومن الذى يحدد نوع السلاح الذى يتعامل به المجاهدون؟

ومن الذى يختار أفراد المجاهدين وقادتهم؟

ومن الذى يؤمن احتـياجـات المجاهدين يخوضـون معاركـهم مِن مؤن وسـلاح وآليات ونحوها؟

ومن الذى يختار ساعة التوقف عن المضى فى المعركة؟

● كل ذلك من صميم عمل القيادة العامة للمجاهدين، بالتنسيق مع القيادة العامة للجيش، ومع الحكومة.

وما دامت الحكومة مسلمة تطبق منهج الإسلام ونظامه فإن كل القيادات وجميع المجاهدين جنودًا وقادة لابد أن يتقيدوا ويلتزموا بقيم الإسلام ومبادئه، كما يجب أن تتوافر في هذه المعارك كل الشروط التى يجب أن تتوافر فى الجهاد وكل الآداب التى يجب أن تراعى فيه.

ودستور الجهاد فى سبيل الله تعالى أوضحه رسول الله ﷺ فى كثير من وصاياه لقواد جيوشه، وقد ذكرناها جميعا فى كتابنا التربية الجهادية الإسلامية، ونشير منها هنا إلى ما رواه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجه بأسانيدهم عن بريدة عن أبيه رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر رجلا على سَرِيَّة أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، فقال: «اغزوا بسم الله وفى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا.

وإذا أنت لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خلال أو خصال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم:

- ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم.
- ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين.
- وإن أبوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا أن يدخلوا فى الإسلام فسلهم إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم.
- وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيك، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيك، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم أهون عليكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.
- وإن حاصرت حصنا فأرادوك أن ينزلوا على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا».

وبعد: فإن المجتمع الإسلامى بسماته وخصائصه التى ذكرناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب، وقسمناها إلى سمات وخصائص ثابتة مستقرة فى المجتمع لا تفارقه أبدًا، وأخرى متغيرة بتغير الزمان والمكان.

هذا المجتمع مسئول عن تحقيق أهدافه المسبقة التى ذكرنا عن طريق مؤسساته التربوية:

البيت.

والمسجد.

والمدرسة بكل أنواعها ومراحلها.

والمجتمع بشقيه: الرسمى؛ حاكمًا وحكومة ومؤسسات وهيئات، والمدنى؛ جمعيات وجماعات وغيرها مما فصلناه فى مدخل الكتاب وفى البابين الأول والثانى.

هذا المجتمع الإسلامى عليه أن يعمل بكل ما فى وسعه من حول وطول لكى يحقق هذه الأهداف، لكى يحيا الناس حياة إنسانية كريمة تتفق مع ما كرم الله به بنى آدم فحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

*****

خاتمة الكتاب

لله الحمـد فى الأولى وفى الآخرة فـبفـضله تتم الصالحـات ونرجو أن يكون منـها هذا الكتاب.

ولله الشكر على أن أعان ووفَّق -كما عودنى- فأكملت بهـذا الكتاب «التربية الإسلامية فى المجتـمع» سلسلة من كـتب ثلاثة، هى التربيـة فى البيت - وكـان اسمه تربيـة الناشئ المسلم، والتربية الإسلامية فى المدرسة، والتربية الإسلامية فى المجتمع.

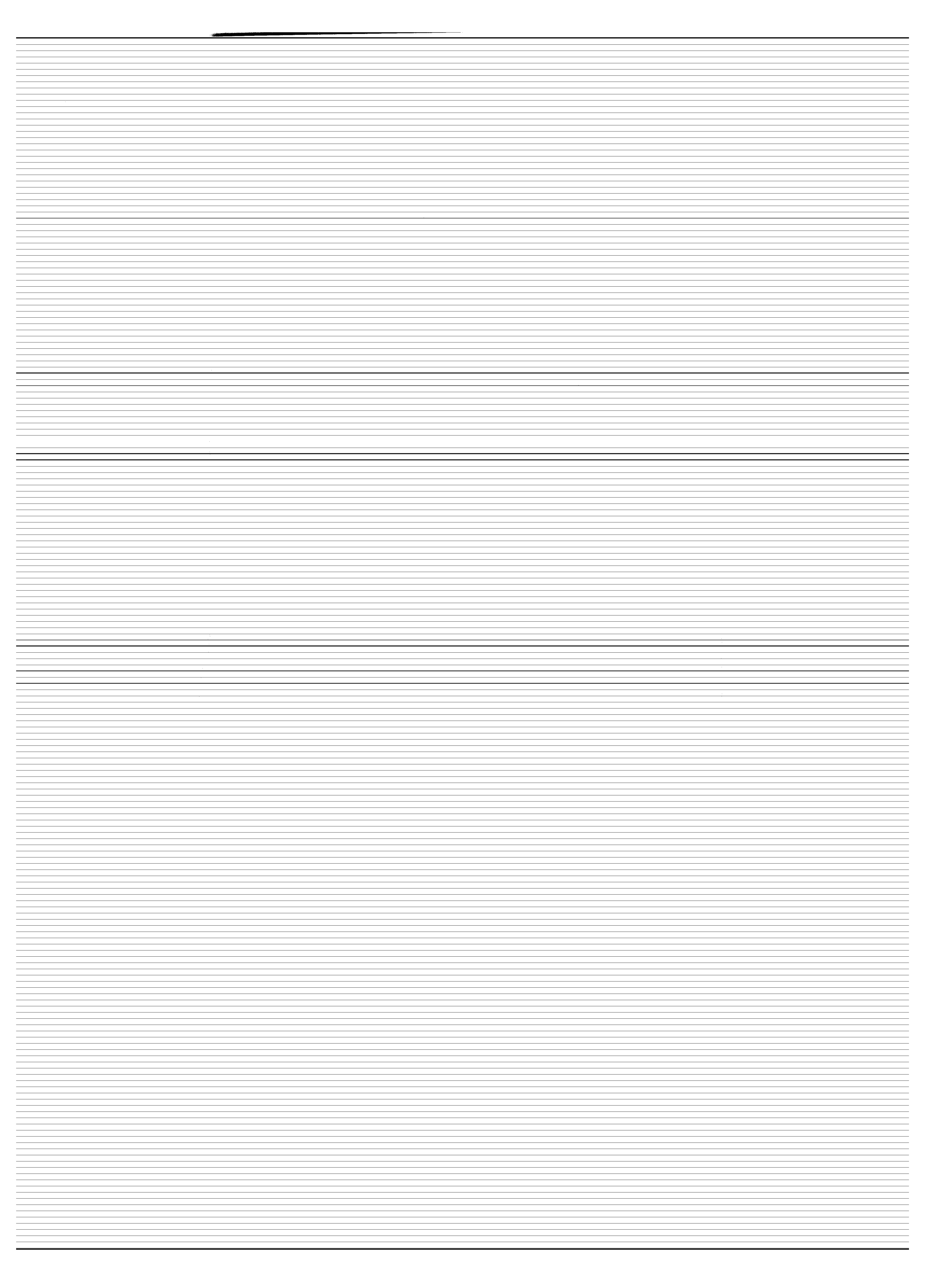
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محـمد ﷺ، وعلى آله وصحبه والمقتدين به وبهديه إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

على عبد الحليم محمود

مساء الجمعة فى السابع عشر من شهر شعبان ١٤٢٥هـ

الموافق أول أكتوبر ٢٠٠٤م



ثبت محتويات الكتاب

الباب الأول
المجتمع ومقوماته

الباب الثانى

المجتمع الإسلامى، سماته وخصائصه

الباب الثالث

أهداف المجتمع الإسلامى ووسائله فى تحقيق هذه الأهداف

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً: فى الفكر الإسلامى وقضاياه:

١- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى- دارالتوزيع والنشر الإسلامية.

٢- مع العقيدة والحركة والمنهج- دار الوفاء بمصر.

٣- المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى- دار المنار بالقاهرة.

٤- الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى- دار المنار بالقاهرة.

٥- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم- وطرق التغلب عليه- دار الوفاء بمصر.

٦- التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧- نحو منهج بحوث إسلامى- دار الوفاء بمصر.

٨- السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب- دار عكاظ بالسعودية.

ثانيًا: فى التربية الإسلامية:

أ- سلسلة التربية فى القرآن الكريم:

٩- التربية الإسلامية فى سورة المائدة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٠- التربية الإسلامية فى سورة النور- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١- التربية الإسلامية فى سورة آل عمران- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢- التربية الإسلامية فى سورة الأنفال- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤- التربية الإسلامية فى سورة النساء- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٥- التربية الإسلامية فى سورة التوبة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ب- سلسلة مفردات التربية الإسلامية:

١٦- التربية الروحية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧- التربية الخلقية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٨- التربية العقلية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٩- التربية الدينية (الغائبة)- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠- التربية السياسية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١- التربية الاجتماعية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢- التربية الاقتصادية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣- التربية الجهادية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤- التربية الجمالية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٥- التربية الجسدية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ- فى التربية الإسلامية المعاصرة:

٢٦- التربية الإسلامية فى البيت - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧- التربية الإسلامية فى المدرسة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٨- التربية الإسلامية فى المجتمع- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٩- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٠- منهج التربية عند الإخوان المسلمين- دار الوفاء بمصر.

ثالثًا: فى فقه الدعوة الإسلامية:

٣١- فقه الدعوة إلى الله- دار الوفاء بمصر.

٣٢- فقه الدعوة الفردية- دار الوفاء بمصر.

٣٣- فقه الأخوة فى الإسلام- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٤- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله- دار الوفاء بمصر.

٣٥- فقه المسئولية- دار الوفاء بمصر.

٣٦- عالمية الدعوة الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٧- التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رابعًا: سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا:

٣٨- ركن الفهم- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٩- ركن الإخلاص- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٠- ركن العمل أو منهج الإسلام الإصلاحى- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤١- ركن الجهاد الذى لا تحيا الدعوة إلا به- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٢- ركن التضحية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٣- ركن الطاعة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤- ركن الثبات- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٥- ركن التجرد- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٦- ركن الأخوة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٧- ركن الثقة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسًا: فى الأدب الإسلامى المعاصر:

٤٨- مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه- دار عكاظ بالسعودية.

٤٩- جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه- دار عكاظ بالسعودية.

سادسًا: فى الدراسات الأدبية:

٥٠- القصة العربية فى العصر الجاهلى- دار المعارف بمصر.

٥١- النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها- دار عكاظ بالسعودية.

